مركز مكة العالمي
للهدى القرآني

الرؤية الكلية للاستهداء بالهدى

مفاهيم - منهجيات - تطبيقات

الأستاذ الدكتور
طه عابدين طه

مركز مكة العالمي
للهدى القرآني

الرؤية الكلية للاستهداء بالهدى

مفاهيم - منهجيات - تطبيقات

ح طه عابدين طه حمد، ١٤٤٧هـ

طه ، طه عابدين

الرؤية الكلية للاستهداء بالهدى (مفاهيم - منهجيات - تطبيقات).

/ طه عابدين طه - ط ١.-. الرياض ، ١٤٤٧ هـ

٨٠٨ص؛ ١٧×٢٤ سم

رقم الإيداع: ٣٠٥٥ / ١٤٤٧

الردمك: ٢-٨٤٠٦-٠٥-٦٠٣- ٩٧٨

محفوظة جميع الحقوق

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الدراسة

ملخص الدراسة

تناولت هذه الدراسة موضوعًا جوهريًا في مسار الإصلاح الإسلامي، وهو: الرؤية الكلية للاستهداء بالهدىٰ: مفاهيم - منهجيات - تطبيقات، سعيًا إلىٰ بناء تصور علمي شامل يفعّل الهداية القرآنية في حياة الفرد والمجتمع، وينقل العلاقة مع الوحي من دائرة التعامل القاصر الذي يقف عند تلاوة الحروف فقط، إلىٰ دائرة التفاعل الراشد الذي يقوم علىٰ فهم الهداية والاستهداء بها في الحياة.

وقد ركزت الدراسة علىٰ **تأصيل مفهوم الاستهداء بالهدىٰ**، وحرّرت الفرق بين الهدىٰ والاهتداء، وبينت أهمية الاهتداء، ومنطلقاته، ومصدره، وأوعيته، ثم عالجت القضايا المنهجية المتعلقة بأنواع الاهتداء، ومجالاته، ومراتبه، وفقهه، وممكناته، وموجهات بناء فقه أولوياته، كما كشفت عن العوامل الصادة عن الهداية، وعرّفت بأنماط الصادّين وأساليبهم وعواقبهم في ضوء النصوص القرآنية.

واعتمدت الدراسة علىٰ منهجية استقرائية تحليلية تأصيلية، جمعت بين تتبع النصوص، وتحليل المفاهيم، وتصنيف المجالات، وتطبيق قواعد قرآنية منهجية، مما مكّنها من تقديم رؤية متكاملة تضبط المفهوم والمنهج، وتفتح أفق التطبيق الواقعي.

وقد خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج، من أبرزها:

- إن الاستهداء بالقرآن الكريم ركيزة وجودية يتوقف عليها صلاح الإنسان ونهضة الأمة.
- إن الاستهداء ليس نشاطًا معرفيًا فقط، إنما هو مسار إيماني سلوكي له منطلقات، وممكنات، وعلامات، وثمرات.
- إن من أعظم معوّقات الاستهداء: غياب الرؤية المنهجية، واضطراب المفاهيم، وتقديم المرجعيات البديلة، والصدّ عن الهداية بفعل الشيطان وأعوانه.
- إن تفعيل الاستهداء في الواقع المعاصر يقتضي رؤية كلية تجمع بين المفهوم الصحيح، والمنهج الراشد، والتطبيق العملي الفاعل.

وقد قدّمت الدراسة توصيات علمية عملية، في مجالات التربية والتعليم والبحث والدعوة، من أجل تحويل مشروع الاستهداء من خطاب نخبوي إلىٰ ثقافة مجتمعية حيّة تُعيد للقرآن مكانته القيادية في الحياة.

المقدمة وتتضمن:

- أهمية الدراسة
- مشكلة البحث
- أسئلة البحث
- أهداف الدراسة
- منهج الدراسة
- حدود الدراسة
- الدراسات السابقة
- مميزات الدراسة
- محتوى الدراسة

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أحكم آيات كتابه وفصلها، وجعله نورًا وهدًى وشفاءً ورحمةً، أنزله قرآنًا عربيًا غير ذي عوج، فجاء مشكاةً يستضيء بها المهتدون، وسراجًا منيرًا للموقنين، به تطمئن القلوب، وتنشرح الصدور، وتستقيم السبل، ويميز بين الحق والباطل، فهو ذكرىٰ للذاكرين، وموعظةً للمتقين، لا زيغ فيه ولا عوج، فهو القول الفصل، والحكم العدل، والعروة الوثقىٰ، وحجَّة الله البالغة، ومعجزته الخالدة، ونوره المبين، وحبله المتين، وصراطه المستقيم، وكتابه الحكيم، وذكره المجيد، لا تنقضي عجائبه، ولا تحصىٰ علومه، ولا تملّه الأسماع، ولا تبلغ كنهه العقول، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

هو الكتاب الذي تحدَّىٰ الله به الفصحاء فألجمهم، وأسمعه البلغاء فأخرسهم، وبلغ أهل البيان فشهدوا بإعجازه وسموه، ونزل علىٰ أفصح العرب فاعترفوا بحلاوته وطلاوته وجزالة ألفاظه، وروعة سبكه، فما هو بالشعر، ولا بالسجع، ولا بالكهانة، إنَّما هو كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، علىٰ قلب سيد المرسلين؛ ليكون هدىٰ ورحمة للمؤمنين.

وهو الكتاب الذي جعله الله شفاءً للقلوب، وحياةً للنفوس، ونورًا للأبصار، ورحمةً للمهتدين، لا يعكر صفوه الواردون، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، ولا يستغني عنه الأتقياء، من آمن به رشد، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به فاز وظفر، ومن تعلَّمه وعلَّمه

صار خير الناس وأفضلهم؛ إذ هو النهج القويم، والبشير النذير، والموعظة الحسنة، وسبيل الفلاح في الدنيا والآخرة.

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد لله، وهو علىٰ كل شيء قدير، المسبح بحمده كل شيء، الذي سجد لعظمته من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

والصلاة والسلام علىٰ من كان علمه القرآن، وهديه القرآن، وسمته القرآن، ووصيَّته القرآن، وميراثه القرآن، فبلَّغ آياته، وبيَّن للناس معانيه، ونفَّذ تعاليمه، فكان قدوة للعالمين، ونورًا للخلق أجمعين، وضح به السبيل، وبان به الحقّ، فأوجب الله تعالىٰ الإيمان به ومحبته وتوقيره وتعزيزه وطاعته إلىٰ يوم الدين.

وعلىٰ آله الطاهرين، وصحبه الصادقين، ومن سار علىٰ هداهم إلىٰ يوم الدين، ثم أما بعد:

فيُعدُّ الاهتداء بالقرآن الكريم محورًا أساسًا في حياة الإنسان، إذ جعله الله سببًا لسعادته أو تعاسته، ووسيلة لنجاته أو هلاكه، وطريقًا إلىٰ نجاحه أو ضياعه؛ ولذا ربط الله تعالىٰ بين هداية كتابه وَخَلْق الإنسان، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢ – ٣].

فهو المصدر المعصوم الذي تستمد منه البشرية رشدها، والشفاء الذي تتخذ منه عافيتها، والميزان الذي تُوزن به أمورها، والمرجع الذي يعالج اختلافها، والمرشد للعقول إلىٰ سواء السبيل، فمن أعرض عنه تاه في الظلمات، وأضحىٰ فريسةً للأهواء والشبهات.

وإذا كانت حاجة الإنسان إلىٰ الطعام والشراب لا غنىٰ له عنها، فإنَّ حاجته إلىٰ الهداية أشد وألزم، فهي السبيل لحياة النفوس بالإيمان والعلم والهدىٰ بعد موتها بداء الكفر والجهل والضلال، وهي عصمة للعقول من الانحراف بعد أن عصفت بها الشبهات والشهوات، وهي تزكية النفوس من أدران المعاصي والفسوق والعصيان، وهي السبيل لتحقيق التقوىٰ، ونهضة الأمَّة ورفعتها، وتحقيق أمنها وسعادتها.

فالعودة الصادقة المتبصَّرة بكتاب الله، وجعله مصدر التشريع والتوجيه، والاستهداء في شؤون الحياة كلِّها، والاحتكام إليه عند النزاع ليس خيارًا تكميليًّا ولا مسألة فرعية، بل هو السبيل الأوحد لقيام أمر الفرد والجماعة، ودوام عزهم وملكها وحكمهم الراشد، الذي متىٰ ساد عمَّت العدالة، واستقام ميزان الحقِّ، وتحقَّق الاستقرار في الأرض، وسمت الإنسانية في قيمها.

فحين ابتعد المسلمون عن القرآن، تنكَّبوا صراط العزَّة، وخسروا ريادة الأمم، وفقدوا قوَّة التَّأثير والتَّوجيه، فعادت البشرية إلىٰ حكم الأهواء والمصالح، وتحكَّمت فيها تشريعات الظلم والجور لا شريعة العدل والحكمة، واستبدلت المبادئ والقيم السامية بالأهواء والشهوات الهابطة، حتىٰ صار ميزان الحكم مختلًّا، والنظام العالمي فاقدًا للرشد الذي به تكون سعادة الإنسانية.

وإذا أُمعِن النظر في واقع الأمَّة اليوم، يتبيَّن أنَّ كلَّ مظاهر التراجع والانحطاط، والضعف والهوان، وتسلُّط أعدائها عليها، ما هو إلَّا نتيجة مباشرة لهجرها القرآن، وانفصامها عن هدايته، وإعراضها عن العمل بأحكامه. فقد هُجر القرآن تدبرًا واستنباطًا، وتحاكمًا وتطبيقًا، واستشفاءً وهدايةً -إلا من رحم ربي- حتىٰ أصبح كثيرٌ من المسلمين يكتفون بتلاوة حروفه وحفظها دون أن يتدبروا معانيه، وأن يهتدوا بهديه، ويزينون المصاحف بالذهب، بينما يعطِّلون ما فيها من أنوار العدل والحقِّ.

فلم يكن تأخر الأمَّة وضعفها بسبب قلَّة مواردها أو نقص إمكاناتها، بل كان بسبب جفائها عن الوحي، واستبدالها بالنور ظلمات الأفكار الوافدة، وبالحقِّ أوهام المناهج المستوردة، فكانت النتيجة، فساداً عقديـاً، وانحرافـاً سلوكيـاً، وتيهًا فكريًّا، واضطرابًا في المسار، وارتهانًا للأمم الأخرىٰ، بعدما كانت الأمَّة قائدةً ورائدةً في مجالات الحياة كلِّها عند ما كانت الأمة أمة قرآنية بحق.

وفي ظل تعقيدات الحياة المعاصرة، وما تحمله من عقائد منحرفة، وأزمات أخلاقية، وفتن فكرية، واضطرابات اجتماعية، تزداد الحاجة إلىٰ الاهتداء بالقرآن الكريم، فهو السبيل إلىٰ تحقيق الأمن والطمأنينة والاستقرار النفسي والمجتمعي، وحماية العقول من الانحراف، وبناء مجتمع قائم علىٰ العدل والتراحم، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه : ١٢٣]. وعلىٰ النقيض، فإنَّ من أعرض عن هدايته، عاش في ضنك وضياع، وانتهىٰ به الأمر إلىٰ الخسران المبين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

والاهتداء بالقرآن الكريم ليس مجرد معرفة نظرية، بل هو منهج متكامل يحدد المسار الصحيح في العقائد والتصورات، ويضبط السلوك والأخلاق، ويرشد إلىٰ العدالة والاستقامة في المعاملات والعلاقات. إنَّه النور الذي يبدد ظلمات الجهل، والبصيرة التي تقي من السقوط في براثن الشبهات والانحرافات الفكرية، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١٧٤ - ١٧٥].

وما الجهود العلمية المعاصرة لاستخراج هدايات القرآن، وإعادة تفعيلها في واقع الحياة، إلَّا خطوةٌ حتميةٌ لإنقاذ الأمَّة من التِّيه، واستعادة ريادة القرآن كقائدٍ للحياة، ودستورٍ للأمَّة، ومنهجٍ شاملٍ للتشريع، والتربية، والتوجيه، والحكم. فينبغي أن لا يبقىٰ القرآن مجرد نصوصٍ تتلىٰ في المحافل، وإنَّما يجب أن يكون نورًا يسري في واقع الأمَّة، وموجِّهًا لمسيرتها، ومحرِّكًا لنهضتها، حتىٰ تستعيد مجدها المسلوب، وقوَّتها المفقودة، وتعود كما أرادها الله: خير أمَّةٍ أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهىٰ عن المنكر، وتؤمن بالله.

إنَّ العرب قبل الإسلام كانوا في جاهلية جهلاء، وتخبُّطٍ وشقاء، فلمَّا اهتدوا بنور القرآن تبدّل حالهم، فاستقامت حياتهم، ونهضوا وسادوا، وأصبحوا خير أمَّة أخرجت للناس، حملوا مشعل الإصلاح، وأخرجوا البشرية من الظلام إلىٰ النور.

وقد قال الإمام مالك: «لن يصلح آخر هذه الأمَّة إلَّا بما صلح به أوَّلها»[1].

أمَا آن للأمَّة أن تعود إلىٰ معين عزّها، وتتشبث بحبل ربها، وتنهض من كبوتها قبل فوات الأوان؟

• أوَّلًا: أهمية الدراسة:

هنالك جوانب كثيرة تظهر أهمية هذه الدراسة، من أبرزها:

أولًا: الاستهداء بالهدى أولوية قصوى للإنسان:

يُعد الاستهداء بالهدىٰ من القضايا المحورية التي شغلت الفكر البشري منذ النشأة الأولىٰ، إذ ارتبط ارتباطًا وثيقًا بغاية الخلق ووظيفة الإنسان في هذه الحياة، حيث جعل الله استقامته مرهونة باتباع الهدىٰ، وربط سعادته في الدنيا والآخرة بالسير علىٰ منهج الحقِّ، كما قرَّر أنَّ الإعراض عنه يؤدِّي إلىٰ الضَّلال والشقاء، فقال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤]، وهكذا، يتبيَّن أنَّ اتباع الهدىٰ هو الضمان الأوحد لنجاح الإنسان في مهمَّته الكبرىٰ علىٰ وجه الأرض، كما أنَّ الإعراض عنه يؤدِّي إلىٰ شقائه وعنته.

من هنا، تتجلَّىٰ أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء علىٰ هذا المفهوم الجوهري في صورته الصحيحة، وبيان أبعاده العميقة، وآثاره الممتدة في حياة

(١) انظر: كتاب الشفا، للقاضي عياض، (٢/ ٨٨).

الفرد والمجتمع، إذ لا غنىٰ لإنسان عن الهداية، ولا قيام لحضارة راشدة بغير نور الحقِّ الذي يميِّز بين الرشاد والغواية، ليكون الاستهداء بالهدىٰ الركيزة الكبرىٰ التي يبني عليها الإنسان مسيرته؛ تحقيقًا لمقاصد الخلق، وانسجامًا مع السنن الإلهية التي تكفل له سعادة الدارين.

ثانيًا: ضرورة تحرير مرجعية الاستهداء في ظلِّ تنوّع المصادر:

تنبع قضية الاستهداء أساسًا من مرجعية الهداية التي يعتمدها الإنسان في تحديد مساره، وهي قضية اختلفت حولها المشارب، وتباينت فيها الاتجاهات؛ فمن الناس من يستند في هدايته إلىٰ تقاليد الآباء والأجداد، جاعلًا منها ميزان الحق والصواب، كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزُّخْرُف : ٢٢]. ومنهم من يجعل مرجعيته أوامر السادة والكبراء، اتباعًا لهم دون تمحيص، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأَحْزَاب : ٦٧]. وآخرون يتخذون من الأهواء مرجعًا لهم، فيخضعون لنزوات النفس ووساوس الشيطان، قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفُرْقَان : ٤٣]، ومنهم من يستقي مرجعيته من أفكار أهل الكفر وعلومهم، متأثِّرًا بما يبتدعونه من نظريات ومعايير، فيخذها مسلمات في حياته، دون النظر إلىٰ مرجعية الوحي الإلهي، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المَائِـدَة : ٧٧] .

وانطلاقًا من هذه التباينات، تأتي هذه الدراسة لترسيخ مبدأ المصدر الواحد المعصوم للهداية، وهو القرآن الكريم، الذي جعله الله مرجعًا شامخًا ثابتًا لكلِّ البشرية، علىٰ اختلاف أعراقها وتنوّع أزمانها وأمكنتها، وجعله تبيانًا لكل شيء تحتاجه الإنسانية، فبه وحده يتحقَّق الاستهداء الحقِّ، ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضلَّه الله، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابُ اللهِ**»(١).

لذا، فإنَّ هذه الدراسة تنطلق من تأصيل قضية الاهتداء من هذا المنظور؛ سعيًا لحسم كثير من الخلافات التي نشأت عن تعدُّد المرجعيات، وتأكيدًا علىٰ أنَّ الاستهداء بالوحي هو السبيل الوحيد لضمان السير علىٰ الصراط المستقيم، بعيدًا عن المؤثِّرات الفكرية الغربية التي تسللت إلىٰ المجتمعات الإسلامية.

ثالثًا: الحاجة إلى فهم العلاقة بين مصدر الهدى وأوعيته:

الهدىٰ كله من الله تعالىٰ، وقد نسبه الله تعالىٰ في كتابه لثلاثة أوعية، هي: كتابه المنزل، ورسوله المرسل، وبلده الحرام الذي جعله مأرز الإيمان ومهوىٰ الأفئدة وهدًىٰ للعالمين. ومن هنا، كان من الضروري في عملية الاستهداء فهم خصائص كل وعاء وما يتعلق به، وأن يُفهم الترابط بين هذه الأوعية الثلاثية؛ إذ إنَّ الخلل في استيعاب العلاقة بينها أدَّىٰ إلىٰ اضطرابٍ عند بعض الناس في تحقيق الهداية الصحيحة.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب حجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ح رقم (١٢١٨).

فمفهوم الهداية يوحّد هذه الأوعية، إلَّا أنَّ العلاقة بينها تختلف؛ فالقرآن الكريم هو أصل الهدىٰ ومصدره المحفوظ، والرسول ﷺ هو المبلغ للهدىٰ كما أُوحي إليه، بحروفه وكلماته والمبين للهدىٰ. ومن هنا، فإنَّ الاكتفاء بالقرآن دون السنة في الاستهداء انحراف وضلال، وهو مخالف لمنهج القرآن نفسه، حيث قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحَشْر: ٧].

وفي المقابل، فإنَّ الانطلاق من السُّنَّة بمعزل عن القرآن هو افتقادٌ للأصل، وتجاوزٌ للمرجعية الأولىٰ، ممَّا يؤدِّي إلىٰ اضطراب في فهم الدين. كما أنَّ إغفال مكانة البلد الحرام، الذي جعله الله موئل الهداية، ومأرز الإيمان، يُفضي إلىٰ ضعف في استيعاب بعض المعالم والتطبيقات الكبرىٰ للهدىٰ.

لذلك، فإنَّ من الضَّروري في تحقيق الاستهداء الصحيح إحكام العلاقة بين الكتاب والسُّنَّة، وفهم منهج العلماء في الجمع بينهما دون تناقض، مع إدراك المعاني الجوهرية لربط الاستهداء بالبلد الحرام وجعله هدىً للعالمين. ومن هنا، جاءت هذه الدراسة لمعالجة هذه القضية الدقيقة، من خلال جمع الأدلة، وتوضيح العلاقة بين هذه الأوعية الثلاثية وهندستها، وبيان كيفية توظيفها جميعًا في تحقيق الاستهداء السليم.

رابعًا: غياب الرؤية المتكاملة للاستهداء بالقرآن الكريم:

إنَّ الاستهداء بالقرآن الكريم هو المنهج الأقوم للسير إلىٰ الله، غير أنَّ الانطلاق في الاهتداء به دون استيعابٍ متكاملٍ لمنهجية الاستهداء أضرَّ

بمسيرة كثيرٍ من المهتدين؛ إذ إنَّ عملية الاستهداء تقوم علىٰ الاجتهاد في فهم الوحي، وتنزيله علىٰ واقع الفرد والمجتمع للاستهداء به، ممَّا أدَّىٰ إلىٰ اختلاف الطرق والمسارات، لا سيَّما في تحديد الأولويات، والتعامل مع تعارض المصالح والمفاسد، وإدراك فقه الموازنات بين تزاحم الواجبات أو مراتب ترك المحرمات، فضلًا عن التفاوت في استنباط الهداية، وضبط معايير الاستدلال بهدايات القرآن والاسترشاد بها، وفقه تنزيلها علىٰ الواقع زمانًا ومكانًا وحالاً وقدراً.

وقد أدَّىٰ هذا التفاوت إلىٰ اضطرابٍ في منهجية الاستهداء، حيث نشأت توجُّهات متباينة في تنزيل أحكام القرآن علىٰ الواقع، فمنهم من جعل الهداية في أبواب محددة، وبعضهم أنزل الأحكام والأوامر في غير موضعها، ومنهم من قدَّم ما حقّه التَّأخير أو أخَّر ما حقّه التقديم، ممَّا جعل الحاجة ملحةً إلىٰ تأصيل رؤية علمية متماسكة، تضبط مسيرة المهتدين، وتحقِّق التوازن بين فهم النصوص واستيعاب مقاصدها، وبين تطبيقها في الواقع المعاصر وفق سنن الله في التشريع والتغيير.

ومن هنا، تنبع أهمية هذا البحث في كونه محاولة جادَّة لسدِّ هذه الفجوة المعرفية، من خلال تقديم رؤية متكاملة تستند إلىٰ القرآن الكريم في أصولها المنهجية، وتراعي مقتضيات الواقع ومتغيراته، بحيث يكون هذا التأصيل مرجعًا أصيلًا يعيد مسار الاستهداء إلىٰ جادَّته، ويجعل من نور الوحي بوصلةً تهدي السائرين إلىٰ صراط الله المستقيم، وفق منهج يجمع بين عمق الاستدلال، وسداد الاسترشاد، وحسن التنزيل علىٰ واقع الحياة.

خامسًا: التأصيل لموضوعات محورية في الاستهداء بالهدى:

علىٰ الرغم من الأهمية البالغة لموضوع الاستهداء بالهدىٰ، فإنَّ الدراسات العلمية حوله لا تزال محدودة، والمكتبة الإسلامية لا تزال بحاجة إلىٰ مزيدٍ من الأبحاث المعمقة التي تتناوله من مختلف أبعاده، إذ إنَّ هناك العديد من المفاهيم والمنطلقات الأساسية في الاستهداء التي تحتاج إلىٰ تحريرٍ دقيقٍ، وتأصيلٍ منهجي.

ومن القضايا التي لم تحظَ بالعناية الكافية في الكتابات المعاصرة: أنواع الاستهداء ومجالاته ومراتبه، وطرقه وممكناته حيث إنَّ هذه الجوانب تُمثِّل لبًّا أساسًا في فهم منهجية الهداية القرآنية، لكنَّها لم تُبحث علىٰ الوجه الذي يبرز أبعادها الكاملة، ويوضح آليَّاتها التطبيقية في واقع المسلمين.

إضافةً إلىٰ ذلك، فإنَّ وضع معايير علمية واضحة لفقه الأولويات في الاستهداء يعد ضرورة ملحة، إذ إنَّ الاختلاف في ترتيب الأولويات بين الأوامر والنواهي، والمصالح والمفاسد، قد أدَّىٰ إلىٰ تباين في تنزيل الهدايات القرآنية علىٰ الواقع، ممَّا يستدعي دراسة منهجية تستنبط الموجهات الشرعية لترتيب هذه الأولويات وفق مقاصد الشريعة ومراتب الأحكام ومتطلبات الواقع.

ومن هنا، جاءت هذه الدراسة لتغطية الجوانب التي لم تجد حظها من الدراسة في موضوع الاستهداء، وتقديم رؤية علمية متماسكة، تقوم علىٰ التأصيل الشرعي الدقيق، والاستقراء المنهجي لنصوص القرآن الكريم، بحيث يكون هذا البحث مرجعًا يثري المكتبة الإسلامية، ويسهم في ضبط منهج الاستهداء بالقرآن وفق رؤية علمية متكاملة، تجمع بين الأصول النظرية والتطبيقات العملية.

سادسًا: أهمية المهارات التطبيقية والنماذج العملية في تفعيل الاستهداء بالهدى:

إنَّ الاستهداء بالهدىٰ لا يقتصر علىٰ المعرفة النظرية المجردة، فهو ليس مجرد موضوع معرفي نظري، إنَّما هو منهج هداية متكامل يرمي إلىٰ إصلاح الفكر، وتقويم السلوك، وبناء الشخصية علىٰ أسس راسخة من الحق؛ ولتحقيق هذا المقصود، لا بد من امتلاك مهارات عملية، تمكّن المهتدي من تحويل هدايات القرآن إلىٰ واقع معاش، بحيث تنعكس مبادئه في سلوكه اليومي، مما يعزز الأثر العملي للمنهج القرآني في الفكر والعمل علىٰ حد سواء.

ومن أسمىٰ سُبل تحقيق الاستهداء العملي بالقرآن، الاقتداء بالقدوات البشرية التي عاشت الوحي وتمثّلت قيمه في أبهىٰ صورها، وفي مقدمتهم الأنبياء والمرسلون، الذين جسّدوا المنهج الإلهي واقعًا حيًّا في حياتهم. ولذا، أمرت التوجيهات الإلهية إلىٰ التأسّي بهم، كما قال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، مما يؤكد أن الهداية لا تكتمل إلا حين تتحوّل إلىٰ ممارسات سلوكية حية، تُستلهم من تجارب السابقين الذين ساروا علىٰ درب الهداية والاستقامة.

ومن هذا المنطلق، جاءت هذه الدراسة لترسّخ البعد التطبيقي للاستهداء بالقرآن، عبر تقديم رؤية منهجية متكاملة تربط بين التأصيل العلمي، والمهارات العملية، والنماذج التطبيقية، بحيث لا يكون الحديث عن الاستهداء مجرد كلامًا نظريًا؛ بل يتحوّل إلىٰ ممارسة حية تنعكس في الواقع.

وبهذا يصبح الاستهداء بالقرآن منهجًا متكاملًا، يحقق التوازن بين الإدراك النظري والتنزيل العملي، مستندًا إلىٰ أسس منهجية راسخة تقوم علىٰ الوحي، ومستلهِمًا النماذج البشرية الرائدة في مسيرة الهداية والاستقامة.

سابعًا: الاستهداء بالقرآن وحاجته إلى التجديد المستمر لمواكبة الواقع:

إنَّ الاستهداء بالقرآن الكريم لا يكون بمجرد التلاوة أو الارتباط العاطفي، ولا يكتمل بنقل أقوال الأوائل دون وعيٍ بمراميها ومجالات تنزيلها، إنما يتحقق حين يقوم علىٰ فهمٍ عميق لحقائقه، وتطبيقٍ منهجي لمقاصده، وتفاعلٍ مستمر مع هداياته، في ضوء مستجدات العصر وتحولاته. فالهداية القرآنية لا تنفصل عن واقع الإنسان، بل تواكبه وتوجّهه، ما دامت تُستنبط بروحٍ تجمع بين ثوابت النص ومرونة الاجتهاد، لتظلّ فاعلة في إصلاح الفرد والمجتمع، ومؤهَّلة لمعالجة مشكلات الأمة علىٰ اختلاف البيئات وتعاقب الأزمنة.

ورغم ثراء التراث الإسلامي باجتهادات العلماء وفهمهم العميق، وهو منطلقٌ أساسيٌّ لا غنىٰ عنه، إلا أن الاقتصار عليه دون تفعيل مباشر لمكانة القرآن في الاستهداء، واستنباط هداياته بما يواكب تحديات العصر، يُفقد الأمة قدرتها علىٰ التعامل مع المتغيرات بفاعلية.

فالتحولات السريعة التي يشهدها الواقع تستلزم امتلاك رؤية متكاملة متجددة للاستهداء بالقرآن، تقوم علىٰ فهم الهدايات الربانية واستيعاب أصول تنزيلها علىٰ الواقع، حتىٰ لا تظل الأمة أسيرة جمودٍ يعطّل أثر الوحي، أو انبهارٍ بمناهج فكرية وافدة تفتقر إلىٰ الهدي الرباني، مما يؤدي إلىٰ حالةٍ من التيه الفكري وضعفٍ في استثمار القرآن كمنهاجٍ شاملٍ للحياة، قادرٍ علىٰ مواكبة المستجدات، وتقديم الحلول لمختلف التحديات.

ثامنًا: الحراك العلمي المعاصر في استخراج الهدايات وحاجته إلى رؤية للاستهداء:

شهد العصر الحاضر دعوات متزايدة للعودة الواعية إلىٰ كتاب الله، ليس عودةً شكليةً تقتصر علىٰ القراءة والتبرُّك، أو التفسير التقليدي المنفصل عن الواقع، إنَّما قام علىٰ منهجية علمية شاملة، تستخرج كنوزه، وتستنطق رشده، وتفعّل هداياته في شتَّىٰ مجالات الحياة، ليكون القرآن منهجًا عمليًّا يقود الأمَّة نحو الإصلاح والنهضة.

وقد تصدَّىٰ لهذا المشروع نخبةٌ من العلماء والباحثين في إطار اجتهادٍ جماعيٍّ عالميٍّ محكم، يتَّسم بالدقة والعمق، ويقوم علىٰ أسس علمية بعيدة عن الجمود والتقليد، ومواكبة لتحديَّات العصر ومستجداته، مستنيرةً بالوحي، ومستفيدةً من أحدث الأدوات البحثية والمنهجية. ومن ثمار هذه الجهود مشاريع علمية رائدة، أبرزها «موسوعة الهدايات القرآنية»، التي جاءت تتويجًا لأبحاثٍ معمَّقة أشرفت عليها كراسٍ علمية مرموقة، ومراكز

بحثية متخصصة، بهدف تحقيق رؤية متكاملة تجمع بين التأصيل والاستنباط، وتصل الماضي بالحاضر، وترسم للأمَّة طريقها نحو استهداءٍ فعلي بالقرآن في واقعها المعاصر.

ولم تقف هذه الجهود عند نطاق البحث النظري، بل سعت من خلال إقامة منظومات معرفية وشراكات نوعية، تضم المختصين بعلوم القرآن وهداياته، والباحثين في الفكر والتربية والاجتماع وعلم النفس، وخبراء التقنية الحديثة، لتطوير آليات ومنهجيات جديدة تسهم في تحويل الهدايات القرآنية إلىٰ برامج ومنتجات ومشاريع مؤثِّرة، تستعيد للقرآن ريادته كمصدر رئيس للتوجيه والإصلاح، يحقِّق للأمَّة رشدها، ويعيدها إلىٰ مسارها القويم في البناء والتمكين، فجاء هذا البحث ليقدم رؤيةً علميةً واضحةً تسهم في تجديد مسار الاهتداء بما يواكب هذا الحراك العلمي الضخم.

إنَّ هذه الدراسة ليست مجرَّد بحث أكاديمي، إنَّما هي محاولة جادَّة لاستعادة مكانة مركزية القرآن كمصدر حيٍّ للهداية، واستعادة ريادته في تشكيل وعي المسلمين وبناء مجتمعاتهم.

• ثانيًا: مشكلة البحث:

يعد بناء رؤية علمية متكاملة للاستهداء بالهدىٰ من القضايا الكبرىٰ التي تتطلب جهدًا بحثيًّا دقيقًا، يستند إلىٰ منهجية علمية محكمة تجمع بين استقراء الأدلة، وتدبر المعاني، واستنباط الهدايات، وربط المسائل المتفرقة ضمن إطار معرفي متناسق. ويهدف ذلك إلىٰ تحويل الاستهداء بالقرآن الكريم

إلىٰ منظومة شاملة تحكم واقع الفرد والمجتمع، مستفيدة من جهود العلماء واجتهاداتهم المتراكمة في فهم النصوص الشرعية واستلهام دلالاتها.

ورغم الأهمية المحورية لهذه القضية في تشكيل وعي الأمة وتوجيه مسيرتها، إلا أن الواقع يشير إلىٰ قصورٍ واضح في دراسة الموضوع من منظور شامل يضبط منهجية الاستهداء ويؤطرها علميًّا. فبينما زخرت المكتبة الإسلامية بعشرات الكتب التي تناولت تفسير القرآن، وبيان علومه، إلا أن هناك فجوة معرفية تتعلق ببناء منهجية متكاملة للاستهداء، ما أدىٰ إلىٰ بعض الاختلالات الجوهرية في كيفية تعامل الأمة مع الوحي.

ويتجلىٰ هذا القصور في عدة أوجه، منها:

- غياب التحرير الدقيق للمفاهيم والمنطلقات وجوانب مهمة تتعلق بتأصيل الموضوع، مما جعل الاستهداء بالقرآن غير حاضر بكلياته في أذهان الكثيرين من الناس، وأدىٰ إلىٰ تباين واسع في فهم منزلته وأبعاده وحدوده.
- ضيق نطاق الاستهداء في التصورات السائدة، حيث اقتصر عند كثيرين علىٰ قضايا العقيدة والعبادات والأخلاق، مع إغفال الجوانب الأخرىٰ المتصلة بإدارة الحياة، والاجتماع، والاقتصاد، والتربية، والسياسة والحكم، رغم ورودها بوضوح في نصوص الوحي.
- ضعف الأدوات المنهجية والممكنات التطبيقية، مما أدىٰ إلىٰ غياب منهج رصين يوجه عملية الاستهداء، ويرتب الأولويات، ويعزز الممارسات

القادرة على تمكين الأمة من توجيه مسيرتها وفق بوصلة قرآنية وسط تحولات فكرية وثقافية متسارعة.

من هذا المنطلق، تأتي هذه الدراسة لمعالجة هذه الإشكالية الجوهرية، من خلال بناء رؤية علمية متكاملة للاستهداء بالقرآن، قائمة على فهم دقيق لنصوص القرآن والسنة، ومستفيدة مما كتبه العلماء عبر العصور، تسهم في إعادة حضور هدايات القرآن في العقول والقلوب، وتؤسس لمرحلة جديدة في فهم الأمَّة لكتاب ربها، وتوجيه مسيرتها نحو الاستهداء به والاستشفاء.

• ثالثًا: أسئلة البحث:

جاءت هذه الدراسة لتجيب عن سؤال رئيس، وهو: **ما الرؤية العلمية الشاملة في الاستهداء بالهدى؟** وللإجابة عن هذا السؤال جاءت الأسئلة الفرعية الآتية:

- ما معنى الهدى والاهتداء، وما الفرق بينهما؟
- ما أهمية الاهتداء بالهدى ومنزلته في حياتنا؟
- ما هي المنطلقات الأساسية للاهتداء بالهدى؟
- ما مصدر الهدى، والاهتداء، وأوعيته، ونوَّابه؟
- ما أنواع الاهتداء، ومجالاته، ومراتبه؟
- ما فقه الاهتداء بالهدى، وممكِّناته، وعلاماته، وثماره؟
- كيف ترتب أولويات الاستهداء بالهدى؟

- من هم الصَّادون عن الهدىٰ، وما العوامل الصَّادة عنه، وعواقب الصَّد عنه؟

• رابعًا: أهداف الدراسة:

الهدف العام للدراسة: تقديم رؤية علمية شاملة للاستهداء بالهدىٰ.

وهذا الهدف العام يمكن تفصيله إلىٰ الأهداف الفرعيَّة الآتية:

- تحديد مفهوم الهدىٰ والاهتداء، وبيان الفرق بينهما بيانًا دقيقًا.
- إبراز أهمية الاهتداء بالهدىٰ، وبيان منزلته في حياة الفرد والأمَّة.
- تأصيل المنطلقات الأساسية لمنهج الاهتداء بالهدىٰ.
- استكشاف مصادر الهدىٰ وأوعيته ونواب الأنبياء في إيصال الهداية.
- تحرير أنواع الاهتداء ومجالاته ومراتبه.
- الوقوف علىٰ فقه الاستهداء وممكِّناته وعلاماته وثماره.
- وضع مقايس لترتيب أولويات الاستهداء بالهدىٰ.
- معرفة الصَّادين عن الهدىٰ، والعوامل الصَّادة عنه، وعواقب الصَّد عنه.

• خامسًا: منهج الدراسة:

اعتمد الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، القائم علىٰ جمع الأدلة من الوحي (القرآن الكريم والسنة النبوية)، واستقرائها، وتحليلها، وفق منهجية علمية دقيقة.

ويرتكز هذا المنهج على التأصيل والاستدلال، حيث يُوثّق كل محور بأدلة كافية من الكتاب والسنة، مع الرجوع إلى أقوال العلماء ومناهجهم في الاستهداء بالوحي. كما يعتمد على الاستنباط المنهجي لاستخراج الدلالات العلمية الهادية، وتوظيفها في بناء رؤية متكاملة للاستهداء بالهدى، تجمع بين التأصيل الشرعي والتفعيل الواقعي.

• سادسًا: حدود الدراسة:

نظرًا لسعة موضوع الاستهداء بالهدى وتنوع مفرداته وأبعاده في النصوص الشرعية، ركزت هذه الدراسة **على البعد المنهجي للاستهداء بالهدى**، وذلك بهدف بناء رؤية كلية متكاملة لهذا الموضوع. وقد اقتصر الباحث على تناول الجوانب التي تسهم في تحقيق هذا الهدف، «ثلاثية البناء العلمي: ما هو؟«المفهوم» كيف يتم؟ «المنهج» كيف يُفَعَّل «التنزيل» مع استبعاد كل ما **لا يرتبط ارتباطًا مباشرًا بتحديد منهجية الاستهداء**. كما تم التطرق إلى بعض الموضوعات الفرعية التفصيلية في حدود ما يقتضيه البحث، دون التوسع في الجوانب التي تخرج عن إطار الدراسة المنهجي.

• سابعًا: الدراسات السابقة:

بعد الاستقراء والتتبع، لم يقف الباحث على دراسة علمية متكاملة تناولت موضوع منهجية الاستهداء بالهدى من جوانبه جميعها، بحيث تحرر مفهومه، وتبرز أهميته، وتوضح منطلقاته الأساسية، مع تفصيل مصادره، وأوعيته، ونوابه، وبيان أنواعه ومجالاته ومراتبه، إضافةً إلى تأصيل منهجية

الاستهداء وممكِّناته، وعلاماته، وثماره، كيفية ترتيب أولوياته، وبيان العوامل الصادة عنه وعواقب الصدّ عنه. ومع ذلك، وُجدت بعض الدراسات والبحوث التي تطرقت إلىٰ جوانب من الموضوع، لكنَّها لم تعالجه معالجة شاملة، ولا قربت من ذلك. **ومن أبرز هذه الدراسات ما يلي:**

أوَّلًا: كتاب «الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية» تأليف: الأستاذ الدكتور طه عابدين، والشيخ الدكتور ياسين حافظ قاري، والأستاذ الدكتور فخر الدين الزبير علي – صادر عن كرسي الملك عبد الله للقرآن وعلومه بجامعة أم القرىٰ.

يعالج الكتاب موضوع الهدايات القرآنية من حيث التأصيل العام لمفهومها، وأهميتها، وأنواعها، وطرق العلماء في استخراجها، وبيان الأصول والقواعد والضوابط في استخراجها، فهي دراسة علمية في منهجية استخراج الهدايات، دون التطرق إلىٰ موضوع الاستهداء، فضلا عن تحرير مفاهيمه ومنهجياته وتطبيقاته.

ثانيًا: كتاب:«مفهوم الهدىٰ في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي» تأليف: الدكتور حبيب مغراوي.

تتبع الباحث ورود مادة (هـ د ي) بجميع مشتقاتها في القرآن الكريم، حيث استقرأ أحد عشر مشتقًّا للمادة في (٣٢٢) موضعًا ضمن (٦٠) سورة، وذلك وفق منهجية مصطلحية محددة؛ بهدف استخلاص دلالة موحَّدة لمصطلح «الهدىٰ».

رغم عمق الدراسة في تحليل المصطلح، فإنَّها تختلف في أهدافها ومنهجها ونتائجها عن هذا البحث، حيث لم تتناول كيفية الاهتداء بالهدىٰ أو المنهجية التطبيقية للاستهداء بالقرآن، فهي دراسة في تحرير مصطلح الهدىٰ، وليس لها علاقة بموضوع الاستهداء الذي هو بلب وقصد هذه الدراسة.

ثالثًا: كتاب «طليعة الاستهداء بالقرآن: دراسة تأصيلية تحليلية للمنهج والمنتج» تأليف: الدكتور بدر مرعي آل مرعي.

يلتقي محتوىٰ هذا الكتاب مع الدراسة الحالية، في نقطتين فقط، جاء محتواهما وطريقة معالجتها مختلفة عن دراستنا، وهما:

مفهوم الاستهداء بالقرآن: حيث تناوله الباحث من زاوية مختلفة تمامًا عن هذه الدراسة، ممَّا أدَّىٰ إلىٰ تباين في المنهج والنتائج.

العوامل الصادة عن الاهتداء: إذ ركَّز الكتاب علىٰ العوامل الواقعية أكثر من العوامل التي تناولها القرآن الكريم، ممَّا أفرز محتوىٰ مختلفًا.

غالبية الكتاب عبارة عن سرد لحكايات واقعية حول أثر القرآن في حياة الناس، وهو توثيق لتجارب عملية وليس تأصيلًا منهجيًّا للاستهداء بالقرآن وفق الهدايات القرآنية، وهو ما تسعىٰ إليه هذه الدراسة.

رابعًا: كتاب «الهداية في القرآن ومضامينها التربوية» للدكتور عبد الرحمن بن سعيد بن حسين الحازمي، وهو أحد منشورات معهد البحوث وإحياء التراث، مركز البحوث التربوية والنفسية، بجامعة أم القرىٰ، والكتاب ليس هدفه دراسة موضوع الهداية وما يتعلق بها في القرآن، وإنَّما هدفه دراسة

بعض المضامين التربوية من آيات الهداية، فعرَّف الهدىٰ باختصار شديد، ثم تحدَّث عن أنواع الهدىٰ حديثًا عامًّا، ثم توسَّع في أوصاف القرآن الكريم، وتحدَّث حديثًا مختصرًا عن أهمية القرآن وأثره في النفوس، وتفاعل السلف معه، ثم ختم باستنباط بعض المضامين التربوية التي تتعلق ببعض الآيات في الهداية، وهذه مثَّلت نتائج بحثه في الخاتمة.

فالدراسة بعيدة في أهدافها، ومحتواها، ومنهجها عن دراستنا.

الخلاصة:

علىٰ الرغم من وجود دراسات قليلة تناولت جوانب من موضوع الاهتداء بالقرآن الكريم، فإنَّها لم تتناول الاستهداء كمنهج متكامل من حيث التحرير العلمي، والتأصيل، والتطبيق. لذا، تأتي هذه الدراسة لسد هذه الفجوة، وتقديم إطار معرفي شامل ومتكامل حول كيفية الاهتداء بالقرآن الكريم وفق منهج علمي دقيق.

• ثامنًا: مميزات الدراسة وأهميتها العلمية والمعرفية:

تتميز هذه الدراسة بعدد من الخصائص التي تجعلها ذات قيمة معرفية حقيقية، وإضافة علمية رصينة، تستحق العناية والاهتمام، **ومن أبرز ما يميزها:**

١. تحرير مفاهيم الهدىٰ والاستهداء بمنهجية علمية دقيقة، من خلال تأصيل المصطلحات، وضبط مدلولاتها، ممَّا يسهم في بناء فهم راسخ لمفهوم الاهتداء بالهدىٰ وأبعاده.

٢. إبراز منزلة الاستهداء بالهدىٰ وأهميته الكبرىٰ في حياة الإنسان، من خلال تسليط الضوء علىٰ أثره في إحياء القلوب، وتصحيح المسار، ومعالجة الغفلة التي قد تصيب بعض النفوس تجاه الكتاب العزيز.

٣. توضيح منطلقات الاستهداء التي يحتاج إليها كل مهتدٍ منذ بداية رحلته في الهداية وحتىٰ نهاية عمره، ممَّا يضمن السير علىٰ بصيرة، وفق منهج واضح، ومتدرج.

٤. توسيع دائرة الفهم حول مجالات الاستهداء المتنوعة، وبيان أنَّ القرآن الكريم يشمل جوانب الحياة جميعها، وليس مقتصرًا علىٰ العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق فقط، ممَّا يصحِّح التصورات القاصرة حول نطاق الاستهداء.

٥. تصنيف مراتب الاستهداء، وبيان تفاوت الناس فيها، ممَّا يساعد كل فرد علىٰ تحديد مستواه في الاهتداء بالوحي، والسعي إلىٰ الارتقاء في مدارج الهداية القرآنية.

٦. تصحيح المفاهيم المتعلقة بأوعية الهدىٰ (القرآن، السنة، البلد الحرام)، وبيان العلاقة التكاملية بينها، لمعالجة ما يقع فيه البعض من اضطرابٍ في فهم هذه العلاقة، ممَّا يؤدِّي إلىٰ انحراف في الاستهداء.

٧. توضيح فقه الاستهداء واستقراء ممكِّناته، بما يساعد المهتدين علىٰ تحقيق أقصىٰ استفادة من الهدايات القرآنية، وجعلها جزءًا من واقعهم العملي.

٨. وضع معايير علمية دقيقة لترتيب أولويات الاستهداء، ممَّا يسهم في توجيه الجهود نحو القضايا الأكثر أهمية، وفق منهج متزن يستند إلىٰ مقاصد الشريعة.

٩. إبراز ثمار الاستهداء بالهدىٰ، وتوضيح الآثار العظيمة التي يجنيها الفرد والمجتمع من الهداية القرآنية، ممَّا يحفز النفوس علىٰ السعي الجاد للاستنارة بنور الوحي.

١٠. بيان الجهات والعوامل التي تصدّ الناس عن الاستهداء بالهدىٰ، وتوضيح أساليبها المختلفة في تشويه الهداية، ممَّا يمكن الباحثين والدعاة من مواجهتها، والتصدي لها بوعي وبصيرة.

١١. تحليل العوامل التي تسببت في صرف الناس عن الاستهداء بالهدىٰ، من خلال دراسة دقيقة للأسباب الفكرية والاجتماعية والإعلامية والسياسية، ممَّا يوفِّر رؤية واضحة لكيفية إعادة القرآن إلىٰ مركزيته في حياة الأمَّة.

١٢. بيان العواقب المترتبة عن الصدّ من الاستهداء بالهدىٰ، وآثارها السلبية علىٰ الفرد والمجتمع، مع تسليط الضوء علىٰ مآلاتها الخطيرة التي تستدعي الحذر، وتستوجب الاعتبار في البناء التربوي والفكري.

ختامًا:

تسعىٰ هذه الدراسة إلىٰ تقديم رؤية علمية متماسكة حول منهجية الاستهداء بالهدىٰ، تجمع بين التأصيل العميق وممكّنات التطبيق العملي؛ لتكون مرجعًا يسهم في إحياء الهداية القرآنية، وتصحيح مسار الأمَّة وفق منهج الله القويم.

• تاسعًا: محتوى الدراسة:

تتكوَّن الدراسة من: مقدمة، وستة فصول، وخاتمة، ويشتمل كل فصل على عدد من المباحث والمطالب، وفق الترتيب الآتي:

المقدمة

- **الفصل الأول: مفهوم الهدىٰ والاهتداء وأهميته ومنطلقاته:**
- المبحث الأول: مفهوم الهدىٰ والاهتداء والفرق بينهما.
- المبحث الثاني: أهمية الاهتداء بالهدىٰ في حياة الفرد والأمَّة.
- المبحث الثالث: منطلقات الهداية في القرآن الكريم.
- **الفصل الثَّاني: مصدر الهدىٰ وأوعيته ونوابه:**
- المبحث الأول: الهدىٰ والاهتداء من الله وحده.
- المبحث الثاني: الأوعية الثلاثيَّة لهدىٰ الإرشاد.
- المبحث الثالث: وراث الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ونوَّابه في هدىٰ الإرشاد.
- **الفصل الثَّالث: أنواع الاهتداء بالهدىٰ ومجالاته ومراتبه:**
- المبحث الأول: أنواع الاهتداء بالهدىٰ ومستلزماته.
- المبحث الثاني: مجالات الاهتداء بالهدىٰ.
- المبحث الثالث: مراتب الاهتداء بالهدىٰ ومستوياته.
- **الفصل الرَّابع: فقه الاستهداء بالهدىٰ وممكِّناته وعلاماته وثماره:**
- المبحث الأول: فقه الاستهداء بالهدىٰ.

- المبحث الثاني: ممكِّنات الاستهداء بالهدىٰ.
- المبحث الثالث: علامات الاستهداء بالهدىٰ.
- المبحث الرابع: ثمرات الاستهداء بالهدىٰ.
- **الفصل الخامس: ترتيب أولويات الاستهداء بالهدىٰ:**
- المبحث الأول: مفهوم ترتيب أولويَّات الاستهداء بالهدىٰ.
- المبحث الثاني: أهمية ترتيب أولويَّات الاستهداء بالهدىٰ.
- المبحث الثالث: أسس وموجهات ترتيب أولويَّات الاستهداء بالهدىٰ.
- **الفصل السادس: الصَّادون عن الهدىٰ والعوامل الصَّادة وعواقب الصَّد:**
- المبحث الأول: الصَّادون عن الاستهداء بالهدىٰ.
- المبحث الثاني: العوامل الصَّادة عن الاستهداء بالهدىٰ.
- المبحث الثالث: عواقب الصَّد عن الاستهداء بالهدىٰ.
- **الخاتمة:** أبرز النتائج والتوصيات.

نسأل الله تعالىٰ أن يهدينا في هذه الدراسة وفي غيرها إلىٰ سواء السبيل، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن يبارك فيها، ويتقبلها قبولًا حسنًا، إنَّه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله علىٰ تيسيره وتوفيقه.

الفصل الأول

مفهوم الهدى والاهتداء وأهميته ومنطلقاته

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأوَّل: مفهوم الهدىٰ والاهتداء والفرق بينهما.
- المبحث الثَّاني: أهمية الاهتداء بالهدىٰ في حياة الفرد والأمَّة.
- المبحث الثَّالث: منطلقات الهداية في القرآن الكريم.

المبحث الأول

مفهوم الهدى والاهتداء والفرق بينهما

إنَّ الطريق إلىٰ تحرير المصطلحات القرآنية يبدأ بدراسة المفردة في اللغة العربية، ثم دراستها في السياق القرآني، الذي يعطي الكلمة -غالبًا- دلالات أكثر وأوسع من معانيها في اللغة، ثم دراستها في التركيب الإضافي الاصطلاحي.

ومن الألفاظ التي لها حضورها الواسع، ودلالاتها المتنوعة في القرآن الكريم كلمة «الهدىٰ»، سنحرر هنا معاني الكلمة في اللغة أوَّلًا، ثم في السياق القرآني ثانيًا، ثم سندرس تباين أقوال العلماء في بيان أوجه معانيها في السياق القرآني، ثم أبيِّن المفهوم العام للهدىٰ، ثم أبيِّن مفهوم الاهتداء، والفرق بين الهدىٰ والاهتداء.

المطلب الأول: تعريف الهدى في اللغة:

الهُدَىٰ في اللغة: بضم الهاء وفتح الدالِ: الرَّشَادُ، والدَّلالةُ بلطف إلىٰ ما يوصل للمطلوب، ويذكَّر ويُؤنَّث. قَالَ أَبُو حَاتِم:«الهُدَىٰ مُذَكّر فِي جَمِيع اللُّغَات إِلَّا أَن بعض بني أَسد يؤنث، ولا أحقِّ ذلك»[1]. وَقَالَ الْكِسَائِيُّ:«بَعْضُ بَنِي أَسد يُؤَنِّثُهُ، يَقُولُ: هَذِهِ هُدىٰ مُسْتَقِيمَةٌ »[2].

(١) المخصص، ابن سيده (٥/ ١٤٢).

(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده (٤/ ٣٧١)، ولسان العرب، ابن منظور (١٥/ ٣٥٤).

يقال: هَداهُ هُدىً، وهَدْيًا، وهِدَايَةً، وهِدْيَةً، بكسرهما: أَرْشَدَهُ، ودلَّه [١].

قال ابن فارس: «الْهَاءُ وَالدَّالُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلَانِ؛ أَحَدُهُمَا: التَّقَدُّمُ لِلْإِرْشَادِ، وَالْآخَرُ بَعْثَةُ لَطَفٍ.

فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُمْ: هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ هِدَايَةً، أَيْ تَقَدَّمْتُهُ لِأُرْشِدَهُ. وَكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هَادٍ...

وَالْأَصْلُ الْآخَرُ الْهَدِيَّةُ: مَا أَهْدَيْتَ مَنْ لَطَفٍ إِلَىٰ ذِي مَوَدَّةٍ. يُقَالُ: أَهْدَيْتُ أُهْدِي إِهْدَاءً. وَالْمِهْدَىٰ: الطَّبَقُ تُهْدَىٰ عَلَيْهِ» [٢].

وقد وردت كلمة الهدىٰ في اللغة بمعانٍ عدةٍ؛ منها:

أوَّلًا: الهُدىٰ: الإرشادُ، والدَّلالةُ، يقال: هَداهُ الله للدين هدىٰ: دلَّه وأرشده، وهَداهُ اللّهُ الطَّريقَ وله وإليه: بمعنىٰ أرشده، ودلّه للطريق، أو إلىٰ الطريق، وَتقول فلَان هاد بِالطَّرِيقِ أَي: دَلِيل فِيهِ [٣].

ثانيًا: الهدىٰ: الدَّلِيل، وَمِنْه قَوْله تَعَالَىٰ فِي سورة طه: ﴿أَوَ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه:١٠]، أي دليلًا. قال الخليل: «والدَّليلُ يُسَمَّىٰ هاديًا، لتقدُّمهِ القومَ بهدايته» [٤].

---

(١) القاموس المحيط، الفيروزأبادي (ص:١٣٤٥).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب معرفة الصحابة، رقم الحديث ٤٢٧٦)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (ج٣/ ص٢٢٢) وقال: إسناده جيد.

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس (٦/ ٤٣).

(٤) العين، الخليل بن أحمد (٤/ ٧٨).

وعنْ أَنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْكَبُ وَأَبُو بَكْرٍ رَدِيفَهُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعْرَفُ فِي الطَّرِيقِ لِاخْتِلَافِهِ إِلَى الشَّامِ، وَكَانَ يَمُرُّ بِالْقَوْمِ فَيَقُولُونَ: مَنْ هَذَا بَيْنَ يَدَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَيَقُولُ: هَادٍ يَهْدِينِي» (١)، «أراد أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هاديًا يهديني إلى الإسلام فورَّى عنه بهادي الطريق، وهو الدليل في السفر» (٢).

ثالثًا: الْهُدَى: البَيان، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فُصِّلَت:١٧]. قَالَ قَتَادَة: أَي بَيَّنا لَهُم طريقَ الهُدَى وَطَرِيق الضَّلَالَة، فاستحبُّوا، أَي آثروا الضَّلَالَة على الهُدَى، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [طه: ١٢٨]، قال أبو عمرو بن العلاء: أو لم يبيِّن لهم، وهَدَيْتُهُ الطريق والبيت هِدايَةً، أي عرفته، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [اللَّيْل:١٢]، أَي إِنَّ علينا أَن نبيِّن طَرِيق الهُدَى من طَرِيق الضَّلال (٣).

رابعًا: الْهُدَى: نقيضُ الضَّلالة، تَقُولُ: هَدَيْتُهُ هُدًى، وضلَّ فِي الْأَمر ضلالًا إِذا لم يهتدِ لَهُ، وضلَّ فِي الأَرْض ضلالًا إِذا لم يهتدِ للسبيل (٤). قال ابن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب معرفة الصحابة، رقم الحديث ٤٢٧٦)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (ج٣/ ص٢٢٢) وقال: إسناده جيد.

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب، الحموي (٢/ ٤١).

(٣) تهذيب اللغة (٦/ ٢٠١)، وتاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٦/ ٢٥٣٣).

(٤) جمهرة اللغة، ابن دريد (١/ ١٤٧)، وتهذيب اللغة (٦/ ٢٠١)، وتاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٢٤٧)، ومقاييس اللغة (٦/ ٤٢).

سيده:«الهُدىٰ ضدّ الضلال»[١]، وهو الخروج عن الطَّريق، ومنه البعير الضَّالُّ، وَالشَّاة الضَّالَّة، ورجل ضلَّ عن الطَّريق إِذا خرج عنه؛ لأَنَّه التبس عَلَيْه الْأَمر، ولم يكن له هاد يهديه، وهو الدَّليل» [٢].

خامسًا: الهدىٰ: التوفيق، قَالَ أَبُو بكر بن الْأَنْبَارِي:«أصل الْهدىٰ فِي كَلَام الْعَرَب: التَّوْفِيق»[٣].

سادسًا: الْهُدَىٰ: إِخْرَاج شَيْء إِلَىٰ شَيْء[٤]، قال أَبُو الْعَبَّاس عَن ابْن الأعرابيّ: الْهُدَىٰ: البَيان، والْهُدَىٰ: إِخْرَاج شَيْء إِلَىٰ شَيْء...»[٥].

سابعًا: الْهُدَىٰ: النَّهَار؛ قَالَ ابْن مقبل:

حَتَّى استَبْنتُ الهُدَى والبيدُ هاجِمَةٌ يَخْشَعْنَ فِي الآلِ غُلْفًا أَو يُصَلِّينَا[٦].

ثامنًا: الْهُدَىٰ: الطريقُ، وَمِنْه قولُ الشماخ:

وَقد وَكَّلَتْ بالهُدَى إنسانَ ساهِمَةٍ كَأَنَّهُ مـن تمَامِ الظِّمْءِ مَسْـمولُ

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم (٢/ ٢١٧)، ولسان العرب (١٥/ ٣٥٣).

(٢) الاعتصام للشاطبي (١/ ٢٣٤)، وينظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة هدىٰ (٢/ ٢١٧)، والصحاح تاج اللغة، للجوهري (٨/ ٤٧٣)، وتفسير المنار (٧/ ٤٩٦)، ولسان العرب (١٥/ ٣٥٣).

(٣) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (ص: ٦٢٥).

(٤) تهذيب اللغة (٦/ ٢٠١) لسان العرب (١٥/ ٣٥٦).

(٥) تهذيب اللغة (٦/ ٢٠١).

(٦) المحكم والمحيط الأعظم (٤/ ٣٧٠)، وجمهرة أشعار العرب للقرشي (ص: ٨٧).

وَقَالَ الأصمعيّ: هداه يَهْدِيه فِي الدّين هُدًى، وهَداه يَهْدِيه هِدَايةً، إِذا دَلَّه علىٰ الطَّرِيق، قال الجرجاني:«الهداية الدلالة علىٰ ما يوصل إلىٰ المطلوب، وقد يقال هي سلوك طريق يوصل إلىٰ المطلوب»[(١)].

تاسعًا: الْهُدَىٰ: الْهَادِي، قال تعالىٰ: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠] أَي هادِيًا[(٢)]. والهادِي: المُتقدِّمُ، والهادِيَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَوَّلُه وَمَا تقَدَّمَ مِنْهُ، وَلِهَذَا قِيلَ: أَقْبَلَتْ هَوَادِي الخيل إِذا بَدَتْ أَعْناقُها؛ لأَنَّها أَولُ شَيْءٍ مِنْ أَجْسادِها، وهَوَادِي اللَّيْل: أَوائله لِتَقَدُّمِهَا كتقدُّم الأَعناق، والهادية العَصا؛ لأَنَّه يُمْسِكها فَهِيَ تَهْديه تتقَدَّمه، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الهِدَايَةِ؛ لأَنَّها تَدُلُّه عَلَىٰ الطَّرِيقِ، وَكَذَلِكَ الدليلُ يُسَمَّىٰ هَادِيًا لأَنَّه يَتَقَدَّم القومَ وَيَتْبَعُونَهُ، والهَادِيَةُ: المتقدِّمة مِنَ الإِبل. والهَادِي: الدَّلِيلُ؛ لأَنَّه يَقْدُمُ القومَ[(٣)].

والهَدْي: بفتح الهاء وإسكان الدال: السمت: يُقَال: مَا أشبَه هَدْيَه بَهْدِي فلَان، أَي سَمْتَه[(٤)].

والهَدْي: الطريقة، والسيرة: قَالَ الْفراء: يُقَال: هدَيتُ هَدْيَ فلَان، إِذا سِرتُ سِيرته، وَفُلَانٌ حسَنُ الهَدْي، والهِدْيَةِ أَي: الطَّرِيقَةِ والسِّيرة، وَفِي حَدِيث ابْن مَسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :«وَأَحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »[(٥)]، قال ابْنُ

(١) التعريفات للجرجاني (ص: ٣١٩)، وينظر: التحرير والتنوير (١/ ١٨٨).

(٢) تهذيب اللغة (٦/ ٢٠١) لسان العرب (١٥/ ٣٥٦).

(٣) انظر: العين (٤/ ٧٨)، ولسان العرب (١٥/ ٣٥٦).

(٤) تهذيب اللغة (٦/ ٢٠١).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب: الأدب، باب: الهدي الصالح، ح رقم (٦٠٩٨)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ح رقم ٧٢٧٧، ومسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله في كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، ح رقم ٨٦٧ بلفظ (وخير الهدي هدي محمد).

الأَثير: «الهَدْيُ السِّيرةُ، والهَيْئة، وَالطَّرِيقَةُ، وفي الحديث: (واهْدُوا بهَدْي عَمَّارٍ)[1] أَي: سِيرُوا بسِيرَتِه وتَهَيَّأُوا بهَيْئَتِه، وما أَحْسَنَ هِدْيَتَهُ، وهَدْيَه أَي: سِيرَته وسَمْتَه وسكونه، والجمع هَدْيٌ مثل: تَمْرة وتَمْرٍ، وفلان حَسَنُ الهَدْي، وهو حُسْنُ المذهب في أُموره كلها، وقد جاء في الحديث كذلك:(الهَدْيُ الصالح، والسَّمْتُ الصالِحُ، جزء من خمسة وعشرين جُزءًا من النبوَّة)[2] . وَقَالَ أَبُو عَدنان: فلَان حَسَن الهَدْي، وَهُوَ حُسن المَذْهب فِي أُمُوره كلِّها. وَقَالَ زيادُ ابْن زيد العدوِيّ:

ويُخبِرُنـي عَـن غائبِ المـرءِ هَدْيُه كَفَى الهَدْيُ عمّا غَيّبَ المرءُ مُخْبِرًا

وَفُلَان حسن الهَدْيِ والهِدْيَةِ، أَي الطَّرِيقَة وكل مُتَقَدم هادٍ[3].

والهَدْي: القصد: فلانٌ يذهبُ علىٰ هِدْيَتِه، أَي علىٰ قَصْدِه، وَيُقَالُ: هَدَيْتُ أَي: قصدْتُ. قَالَ الْأَصْمَعِي: يُقَال: نَظَر فلانٌ هِدْيَة أمره، أَي جِهة أمره، وَيُقَال: هَدَيْتُ بِهِ أَي قَصَدْتُ بِهِ، وَذهب علىٰ هِدْيَتِه، أَي علىٰ قَصده فِي الْكَلَام وَغَيره. وَخذ فِي هِدْيَتِك، أَي فِيمَا كنت فِيهِ[4].

(١) أخرجه أحمد في المسند، ح رقم (٤٧٨)، والترمذي في سننه، ح رقم (٣٧٩٩) والحاكم في المستدرك، ح رقم (٤٤٥٢)، وصححّه، ووافقه الذهبي، وصححّه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: (١٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ح رقم (٧٩١)، وأبو داود في سننه ح رقم (٤٧٧٦)، وأحمد في المسند، ح رقم (٢٦٩٨)، وحسنه الألباني في الأدب المفرد، وصحيح الجامع رقم ٣٠٠٤.

(٣) انظر: تهذيب اللغة (٦/ ٢٠١) المحكم والمحيط الأعظم (٤/ ٣٧٣)، ولسان العرب (١٥/ ٣٥٦).

(٤) تهذيب اللغة (٦/ ٢٠١)، ولسان العرب (١٥/ ٣٥٦).

وَالْهَدْيُ وَالْهَدِيُّ: مَا أُهْدِيَ مِنَ النَّعَمِ إِلَىٰ الْحَرَمِ قُرْبَةً إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ. قَالَ اللَّيْث وغيرُه فِيمَا يُهدَىٰ إِلَىٰ مكَّة من النَّعَم وغيرِه من مالٍ، أَو متاعٍ، فَهُوَ هَدِيٌّ، وهَدْيٌ، وقُرِئ بِالْوَجْهَيْنِ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البَقَرَة : ١٩٦] [(١)].

والهَدِيَّةُ: مَا أَتْحَفْتَ بِهِ: وَالْجَمْعُ هَدَايا، يُقَالُ: أَهْدَيْتُ لَهُ، وإِليه، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ [النَّمْل : ٣٥] ، والتَّهَادِي: أَن يُهْدي بعضُهم إِلىٰ بَعْضٍ، وَفِي الْحَدِيثِ: (تَهَادُوا تَحابُّوا)[(٢)].

والمِهْدىٰ بكسر الميم: ما يُهْدىٰ فيه، مثل الطَبق ونحوه. قال ابن الأعرابي: ولا يسمَّىٰ الطَبَقُ مِهْدًىٰ إلا وفيه ما يُهْدىٰ. والمِهْداءُ بالمد: الذي من عادته أن يُهْدِيَ[(٣)].

فالهُدَىٰ في اللغة خلاصته يطلق ويراد به تسعة معانٍ، وهي:«الإرشاد والدلالة بلطف إلىٰ ما يوصل إلىٰ المطلوب، والدليل، والبيان، والتوفيق، وضد الضلال، وإِخْرَاج شَيْء إِلَىٰ شَيْء، والنَّهَار، والطريقُ، والْهَادِي».

وجميع هذه المعاني ترجع إلىٰ ما ذكره ابن فارس بمعنىٰ الإرشاد، حيث عدَّ معنىٰ التقدّم للإرشاد أصلًا أوَّلًا، تتفرّع منه بقيّة المعاني.

---

(١) تهذيب اللغة (٦/ ٢٠١) مقاييس اللغة (٦/ ٤٢) لسان العرب (١٥/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ حرقم (١٦)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (١١٩٤٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٩٤)، وقال ابن حجر: إسناده حسن.

(٣) انظر: العين (٤/ ٧٧)، وتاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٥٣٤)، والمحكم والمحيط الأعظم (٤/ ٣٧٣).

قال ابنُ عَطِيَّة: «الهِدايةُ في اللُّغة: الإرشاد؛ لكنَّها تتصرّف على وُجوه يُعبِّر عنها المفسّرون بغير لَفْظ الإرشاد، وكلُّها إذا تُؤُمِّلت رجعت إلى الإرشاد»[1].

وقال الفيروزي آبادي: «وهو صحيح، ولم يذكر أَهل اللغة فيها إلاَّ أَنَّها بمعنى الإرشاد»[2].

وقد جاءت بعض مشتقّات الهدى في معانٍ مختلفة عن الإرشاد، وهي: (هَدْي، هَدِية)، وهو المعنى الثاني الذي أشار إليه ابن فارس.

المطلب الثاني: معاني الهدى في السياق القرآني:

ذكر الهدى معرَّفًا في القرآن الكريم في اثنين وعشرين موضعًا، موزَّعة في ست عشرة سورة[3]، بمعانٍ عدَّةٍ، وذكر من غير تعريف في اثنين وثلاثين موضعًا، موزَّعة في عشرين سورة[4] ممَّا جعل علماء الوجوه والنظائر يخصُّونها بالدراسة، كما فعل مقاتل بن سليمان في كتابه «الأشباه والنظائر»،

---

(١) المحرّر الوجيز (١/ ٦٥).

(٢) بصائر ذوي التمييز (٥/ ٣١٢).

(٣) وهي: [سورة البقرة: الآيات: ٢، ٥، ٣٨، ١٢٠، ١٨٥]، [وآل عمران:٤، ٧٣]، [والمائدة: ٤٤، ٤٦]، [والأنعام:٧١، ٨٨]، [والأعراف: ٥٢، ١٥٤]، [والإسراء:٢]، [والكهف:١٣]، [مريم:٧٦]، [طه:١٠، ١٢٣]، [الحج:٨، ٦٧]، [النمل:٢]، [القصص:٥٠]، [لقمان: ٣، ٥، ٢٠]، [السجدة:٢٣]، [سبأ:٢٤]، [الزمر:٢٣]، [غافر:٥٤]، [فصلت:٤٤]، [الجاثية:١١]، [محمد: ١٧].

(٤) وهي: [سورة البقرة: الآيات: ١٢٠، ١٨٥]، [آل عمران:٧٣]، [النساء: ١١٥]، [الأنعام:٣٥، ٧١]، [الأعراف: ١٩٣، ١٩٨]، [الإسراء:٩٤]، [الكهف: ٥٥، ٥٧]، [طه:٤٧]، [القصص:٥٣]، [سبأ:٣٢]، [غافر:٥٣]، [فصلت:١٧]، [محمد: ٢٥، ٣٢]، [النجم:٢٣]، [الجن:١٣]، [العلق:١١].

وابن الجوزي في كتابه «نزهة الأعين النواظر في الوجوه والنظائر»، والفيروز آبادي في كتابه «بصائر ذوي التمييز»، والدامغاني في كتابه «الوجوه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز»، وغيرهم، وافتتح بها الزركشي في «البرهان» في النوع الرابع، وقال بعد أن عدَّد سبعة عشر نوعًا:«وهذا كثير الأنواع»[1]، والسيوطي في الإتقان في النوع التاسع والثلاثين عند حديثه عن معرفة الوجوه والنظائر، وقال: يأتي على سبعة عشر وجهًا[2]، وذكر ثمانية عشر وجهًا.

وقد قصرت الدراسة هنا على معنى كلمة «الهدى» معرفة وغير معرفة في السياق القرآني، وتركت مشتقاتها التي ذكرها العلماء، وتباينت فيها أقوالهم لسببين:

الأول: قد سبقت دراسة مشتقاتها في كتاب:«الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية»[3].

والثاني: لأنَّ هذا المصطلح «الهدى» هو المعني بالدراسة.

ومن خلال الاستقراء والتتبع لما جاء في كتب الوجوه والنظائر، والمفردات، وكتب علوم القرآن الكريم، والتفسير، **توصَّل الباحث إلى خمسة عشر معنى ذكرها العلماء لكلمة «الهدى»، وهي:**

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣٦).

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٩٧٨)، وهو يتحدث عن مشتقات كلمة الهدى.

(٣) انظر: الهدايات القرآنية، دراسة تأصيلية (١/ ٢٠- ٢٦).

أوَّلًا: الهدى: بمعنى البيان:

وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [الإِسْرَاء : ٩٤] أي: البيان، والمعني به القرآن.

وقال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾[البَقَرَة : ٥] ، يعني، بيانًا من ربهم[١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ [اللَّيْل : ١٢] ، قال البغوي:«يَعْنِي الْبَيَانَ. قَالَ الزَّجَّاجُ: عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَ طَرِيقَ الْهُدَىٰ مِنْ طَرِيقِ الضَّلَالِ، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ، قَالَ: عَلَىٰ اللهِ بَيَانُ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ»[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فُصِّلَت : ١٧] ، قال ابن جرير:«يقول تعالىٰ ذكره: فبيَّنا لهم سبيل الحق وطريق الرشد... وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ [فُصِّلَت : ١٧]: أي بيَّنا لهم»[٣].

ثانيًا: الهدى: بمعنى الْإِرْشَاد والدلالة:

وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾[البَقَرَة : ١٨٥] إرشاد ودلالة[٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ١٠] ، يعني من يرشدني الطريق[٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣٤)، والإتقان في علوم القرآن (٣/ ٩٧٨)، وهما يتحدثان عن مشتقات كلمة الهدىٰ.

(٢) معالم التنزيل (٥/ ٢٦٣).

(٣) جامع البيان (٢١ / ٤٤٨).

(٤) انظر: الوجوه والنظائر (١/ ٣٠٦).

(٥) انظر: المرجع السابق.

﴿ يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف : ٥٧] ،أي: الرشاد[١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ ﴾ [القصص : ٣٧] ، أي: الرشاد[٢].

ثالثًا: الهدى: بمعنى الدليل والبيّنة:

وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[طه : ١٠]، «أي: من يهديني إلىٰ الطريق ويدلّني عليها - وكان قد ضلّ الطريق-»[٣]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج : ٨][٤]. قال أبو حيان الأندلسي في المراد بالهدىٰ:«الاستدلال والنظر؛ لأنّه يهدي إلىٰ المعرفة»[٥].

وقال ابن كثير:«أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوىٰ»[٦]، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [النِّساء: ١١٥]، الدليل، أي: من بعد ما ظهر له بالدليل صحة دين الإسلام[٧].

---

(١) انظر: جامع البيان (١٣/ ٣٢٠)، الهداية الىٰ بلوغ النهاية (٤/ ٢٦٨١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/ ٢٨٨).

(٣) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي (٥/ ٢١٦)، وانظر: أضواء البيان (٣/ ٤٩١).

(٤) انظر: مفردات القرآن للفراهيدي (ص: ٣٢٨).

(٥) البحر المحيط (٦/ ٢٥٧).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٩٩).

(٧) بحر العلوم (١/ ٣٦٣)، (١/ ٤٧٥)، مفاتيح الغيب (٢٨/ ٤٦٢).

رابعًا: الهدى: بمعنى الحق:

وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[الأنعام:٣٥]، أي: الحق، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ[البقرة:١٢٠]، أي: الحق، وقد تكون بمعنىٰ القرآن، والإيمان، ودين الإسلام [١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧]، أي الحق[٢]، وقيل: التوحيد، وقيل: الصراط المستقيم.

وقال تعالىٰ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص:٨٥] أي: الحق، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾[محمد: ٢٥] أي: الحق[٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ [محمد:٣٢] أي: الحق. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣] أي: الحق.

خامسًا: الهدى: بمعنى الطريق المستقيم:

يأتي بمعنىٰ الطريق الواضح الموصل، قال تعالىٰ: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ﴿هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧][٤]. قال ابن كثير:«أي: طريق واضح مستقيم موصل إلىٰ المقصود»[٥]، ويأتي بمعنىٰ الطريق المستوي، وقيل:

---

(١) انظر: بحر العلوم (١/ ١١٦)، تفسير السمعاني (٧/ ١٠٣)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ١٧٣)، تفسير الألوسي (١/ ٤٨٨)، التحرير والتنوير (٧/ ٣٠٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٥٠٦).

(٣) بحر العلوم (٣/ ٢٩٠)، وأيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (٨/ ١٨٤).

(٤) انظر: مفردات القرآن للفراهي (ص: ٣٢٩).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٥١). وانظر: جامع البيان (١٨/ ٦٨٠)، وأنوار التنزيل (٦/ ١٠٧)، وإرشاد العقل السليم (٦/ ١١٩)، وأضواء البيان (٥/ ٣٠٢).

الطريق المستقيم[1]، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَا﴾ [الأنعام:٧١].

سادسًا: الهدى: بمعنى الصَّوَاب:

يأتي بمعنىٰ الصواب والاستقامة، والسداد كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [العلق:١١][2].

سابعاً: الهدى: مُقَابل الضلال:

وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٦]، لأنَّ الشراء هنا بمعنىٰ الاستبدال، والأخذ[3]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ:٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ [سبأ: ٥٠].

ثامنًا: الهدى: بمعنى الإسلام:

وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج:٦٧]، أي علىٰ دين مستقيم، وهو الإسلام، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم للإمام الرازي (٥/ ٢٦٩)، وبحر العلوم للسمرقندي (٢/ ٤٨)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٢/ ١٦١)، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٤/ ١٢٥)، تفسير الجلالين للمحلي والسيوطي (١/ ٤٨٧).

(٢) انظر: جامع البيان (٢٤/ ٥٢٤)، ونزهة الأعين النواظر (٢/ ٢٢٥)، والإتقان في علوم القرآن (٣/ ٩٧٩).

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٩)، وجامع البيان لابن حرير (١/ ٣١٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١/ ٥١)، والدُّر المنثور للسيوطي (١/ ٧٢).

[البقرة:١٢٠] ومثله في سورة آل عمران: (٧٣)، والأنعام: (٧١). أي: إنَّ الدين عند الله الإسلام [١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٣]، أي: إلىٰ الإسلام[٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧]، قال البغوي:«وإن تدعوا المشركين إلىٰ الإسلام، لا يتبعوكم»[٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [العلق:١١]، أي: الإسلام[٤].

تاسعًا: الهدى: بمعنى الإيمان:

وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣]، أي إيمانًا، وقال تعالىٰ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، يعني يزيدهم إيمانًا[٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ﴾[سبأ:٣٢] يعني الإيمان[٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٥]، أي الإيمان بالكفر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة:١٠٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[الأنعام: ٣٥]، أي: لوفَّقهم للإيمان[٧]، وقال

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١/ ١٣٥).

(٢) معالم التنزيل، البغوي (٣/ ٣١٤).

(٣) المرجع السابق (٥/ ١٨٣).

(٤) بحر العلوم (٣/ ٥٧٥).

(٥) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣٥).

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان، لأبي الحسن البلخي (٣/ ٦٦).

(٧) انظر: بحر العلوم، السمرقندي (٢/ ٣٣)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (٢/ ١٤٥).

تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧]، أي الكفر علىٰ الإيمان[١]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢]، قال الزجاج:«تابَ مِنْ ذنبه، وآمن بربِّهِ، وعمل بطاعته،﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ أَي: ثم أَقامَ علىٰ إِيمانه»[٢].

عاشرًا: الهدى: بمعنى التوحيد:

وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣]، ومثله في الفتح الآية: ٢٨، والصف الآية:٩، يعني التوحيد والإسلام، وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ [القصص :٥٧]، يعني: التوحيد[٣].

الحادي عشر: الهدى: بمعنى القرآن:

وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [الإسراء:٩٤]، أي: القرآن، وقيل: الإسلام، والبيان[٤]، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ ﴾[الكهف:٥٤، ٥٥]، يعني: القرآن، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة:١٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم:٢٣]، يعني:

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٥/ ٣٤٩)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤٤/ ٢٨).

(٢) معاني القرآن (٣/ ٣٠٢).

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣٦)، والإتقان في علوم القرآن، السيوطي (٣/ ٩٧٨).

(٤) معالم التنزيل، البغوي (٥/ ١٨٢).

القرآن[1]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾ [الأعراف: ١٩٨]، أي القرآن، وكذلك قد يراد به: الحق، والتوحيد، والإسلام[2]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١٣]، أي: القرآن.

الثاني عشر: الهدى: بمعنى الرسل والكتب:

وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣]، يعني: رسلًا وكتبًا[3].

الثالث عشر: الهدى: بمعنى أمر محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٥٩]، يعني: أمر محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنَّه نبي مرسل[4]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ [محمد:٢٥]، يعني: أمر محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه نبي رسول، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ [محمد:٣٢]، يعني: أمر محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه نبي مرسل.

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣٥)، والإتقان في علوم القرآن (٣/ ٩٧٨).

(٢) انظر: بحر العلوم السمرقندي (٢/ ٢٢٩)، ومعالم التنزيل البغوي (٤/ ٣٩)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٣٠)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٨/ ١٢١)، والبحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (٥/ ٢٥)، والدُّر المنثور، السيوطي (٦/ ٣٤٦).

(٣) انظر: بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٥٢٦)، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي (١/ ٤٦)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٣٢٨)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (١/ ١٠٨)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ١٣٥)، والإتقان، السيوطي (٣/ ٩٧٨).

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣٥)، الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٩٧٨).

الرابع عشر: الهدى: بمعنى التوراة:

وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [غَافِر : ٥٣]، يعني: التوراة [١]، قال مقاتل:«الهدىٰ من الضلالة، يعني التوراة، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ، التَّوْرَاةَ»[٢]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [السجدة:٢٣]، يعني بالكتاب : التوراة التي جعلها هداية لبني إسرائيل.

الخامس عشر: الهدى: بمعنى الهادي والداعي:

وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ:﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠] أَي: هادِيًا[٣]، قال ابن عطية:«قد جاء الهدىٰ بمعنىٰ الدعاء، من ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد :٧] أي داع »[٤].

الخلاصة:

فالهدىٰ في السياق القرآني يُلخَّص من خلال الدراسة في خمسة عشر وجهًا، وهي:«البيان- الْإِرْشَاد والدلالة - الدليل- الصَّوَاب - الحق - الطريق المستقيم- الإسلام- الإيمان- التوحيد - القرآن - الرسل - والكتب- أمر محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - التوراة- الهادي».

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٥/ ٣٢٣)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ١٣٥)، والإتقان في علوم القرآن (٣/ ٩٧٨)، والتحرير والتنوير (٢٤/ ١٦٩).

(٢) معالم التنزيل (٤/ ١١٥).

(٣) تهذيب اللغة (٦/ ٢٠١)، ولسان العرب (١٥/ ٣٥٦)، وتاج العروس (٤٠/ ٢٩٥).

(٤) المحرر الوجيز (١/ ٦٥)، وينظر: البحر المحيط (١/ ١١)، وتأويل مشكل القرآن (ص: ٢٤٨).

ومن خلال الاستقراء والتتبع نجد أنَّ كلمة «الهدىٰ» في اللغة وفي سياق القرآن الكريم تتوافق في ستة معانٍ، وهي:«الإرشاد والدلالة، والدليل، والبيان، وضد الضلال، والطريقُ، والْهَادِي». وهذه كلها من العبد، وهي وسائل للإرشاد العام.

ومن المعاني التي وردت في اللغة ولم ترد في السياق القرآني:«إِخْرَاج شَيْء إِلَىٰ شَيْء، والنَّهَار، والتوفيق».

ومن المعاني التي وردت في السياق القرآني، ولم ترد في اللغة تسعة، وهي:«الصَّوَاب- الحق - الإسلام- الإيمان- التوحيد - القرآن - الرسل والكتب-أمر محمد ﷺ - التوراة » وهذه كلها من الله تعالىٰ، وهي الدلالة الموصلة للمطلوب.

تعريف الهدى
في اللغة وفي السياق القرآني

م	معاني الهدى في اللغة	معاني الهدى في القرآن
١	الإرشادُ والدّلالةُ	الإرْشاد والدلالة
٢	الدّليل	الدليل والبيّنة
٣	التبيان	البيان
٤	نقيضُ الضّلالة	مُقابل الضلال
٥	الْهَادي	الهادي والداعي
٦	الطريقُ	الطريق المستقيم
١	التوفيق	هذه وردت في اللغة ولم ترد في القرآن
٢	إخْراج شَيْء إلى شَيْء	
٣	النّهار	
١	وهذه وردت في دلالات القرآن ولم ترد في اللغة	الحق
٢		الصّواب
٣		الإسلام
٤		الإيمان
٥		التوحيد
٦		القرآن
٧		الرسل والكتب
٨		أمر محمد ﷺ
٩		التوراة

المطلب الثالث: دراسة مقارنة لمعاني الهدى عند العلماء:

من باب التحرير الدقيق لمعاني الهدىٰ في السياق القرآني قام الباحث بعمل دراسة مقارنة بين ما جاء في كتب الوجوه والنظائر، وكتب علوم القرآن وما توصل إليه الباحث؛ لذكر أوجه الاتفاق والاختلاف وأسبابه.

جدول مقارنات بين ما ذكره العلماء لمعاني الهدى وما توصل إليه الباحث

م	ابن الجوزي (٢٤)	الدامغاني (١٧)	الزركشي (١٧)	السيوطي (١٨)	الباحث (١٥)
١	البيان	البيان	البيان	البيان	البيان
٢	الإرشاد	الرشاد	الرشد	الإرشاد	الإرْشَاد
٣	الدليل	الحُجَّة	الحجة	الحُجَّة	الدليل
٤	الإسلام	الدين	دين الإسلام	الدين	الإسلام
٥	الإيمان	الإيمان	الإيمان	الإيمان	الإيمان
٦	التوحيد	التوحيد	التوحيد	التوحيد	التوحيد
٧	القرآن	القرآن	القرآن	القرآن	القرآن
٨	الرسل والكتب	الرسل والكتب	الرسل والكتب	الرسل والكتب	الرسل والكتب
٩	أمر محمدﷺ	مُحَمَّدﷺ	أمر محمدﷺ	معرفة مُحَمَّدﷺ	أمر محمدﷺ
١٠	التوراة	التوراة	التوراة	التوراة	التوراة
١١	الدعاء	الداعي	الداعي	الدعاء	الهادي
١٢	الإلهام	الإلهام	الإلهام	الإلهام	
١٣	العرفان	المعرفة	المعرفة	المعرفة	
١٤	السنة	السنة	السنة	السنة	
١٥	الإصلاح	الإصلاح	الإصلاح	الإصلاح	
١٦		التوبة	التوبة	التوبة	
١٧		الاسترجاع	الاسترجاع	الاسترجاع	
١٨	الثبات			الثبات	
١٩	الصواب				الصواب
٢٠	الاستبصار				الحق
٢١	التعليم				ضد الضلال.
٢٢	الفضل				الطريق المستقيم
٢٣	التَّقْدَيم				
٢٤	الموت على الإسلام				
٢٥	الثواب				
٢٦	الاذكار				

من خلال النظر إلىٰ الجدول أعلاه يتبيَّن أوجه الاتفاق والاختلاف بين ما قرَّره الباحث، وما ذكره العلماء، إضافة إلىٰ بيان الأسباب، **وهو يتلخص في الآتي**

أوَّلًا: هنالك أحد عشر وجهًا متفق عليه بين العلماء، وهي:«البيان – الإرشاد– الدليل – الإسلام– الإيمان– التوحيد – القرآن– الرسل والكتب – أمر محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– التوراة، الهادي»، وهذه جميعًا اعتمدها الباحث.

ثانيًا: هنالك أربعة أوجه ذكرها غالب العلماء لم يعتمدها الباحث، وهي الهدىٰ بمعنىٰ:«الإلهام– المعرفة – السنة – الإصلاح»؛ وذلك لأنَّ **هذه المعاني جاءت في مشتقات كلمة الهدىٰ، وليس في معنىٰ الهدىٰ، وهي علىٰ النحو التالي:**

١/ الهدىٰ، بمعنىٰ الإلهام: وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، قال المفسرون: معناه ألهم الحيوانات كلها إلىٰ منافعها، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ:٣] (١). قال أبو حيان الأندلسي:«قال المفسرون: معناه ألهم الحيوانات كلها إلىٰ منافعها»(٢).

٢/ الهدىٰ بمعنىٰ المعرفة: ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾[النساء: ٩٨]، أي: لا يعرفون سبيلا، وقال تعالىٰ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[النحل: ١٦]، يعني: يعرفون السبيل، وكقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ [النمل:٤١] أي: من الذين يعرفون أو لا يعرفون، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[الزخرف:١٠] يعني: تعرفون الطرق(٣).

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٦٥).

(٢) البحر المحيط (١/ ١١).

(٣) انظر: الوجوه والنظائر، للدامغاني (١/ ٣٠٥)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ١٢٠)، وبحر العلوم (٢/ ٤٥٩).

٣/ الهدىٰ بمعنىٰ السُّنَّة: كما في قوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٢٢]، يقول: مقتدون مستنون بسنتهم. وكقوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠] يقول: بسنتهم في التوحيد اقتده [(١)].

٤/ الهدىٰ بمعنىٰ الإصلاح: كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[يوسف:٥٢][(٢)].

ثالثًا: هنالك وجهان ذكرهما الدامغاني والزركشي والسيوطي لم يعتمدهما الباحث لعدم صوابهما، وهو أنَّ الهدىٰ بمعنىٰ:«التوبة»؛ في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وهي من مادة (هَوَد) التي بمعنىٰ الرجوع، وهي تختلف عن مادة هدىٰ [(٣)].

والهدىٰ بمعنىٰ الاسترجاع عند المصيبة: كما قوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[البقرة: ١٥٧] يعني: الاسترجاع، مثلها في سورة التغابن: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١]، يعني: عند المصيبة الاسترجاع[(٤)].

---

(١) انظر: الوجوه والنظائر، للدامغاني (١/ ٣٠٨)، ونزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (ص:٦٢٩).

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (ص: ٦٢٩)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ٣٦)، والإتقان في علوم القرآن (٣/ ٩٧٨).

(٣) انظر: كتاب «الهداية في القرآن الكريم»، للدكتور العباس بن حسين الحازمي (ص: ٤٥).

(٤) انظر: الوجوه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز (٤٧٨) (ص: ١٩٥).

رابعًا: هنالك وجه ذكره ابن الجوزي والسيوطي [١] ولم يعتمده الباحث، وهو الهدىٰ بمعنىٰ: «الثبات»؛ وذلك لأنَّ هذا المعنىٰ جاء في مشتقات الكلمة، ومنه طلب الهداية للمهتدي في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، فالمقصود الثبات والزيادة منها، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢]، قال الزجاج: «تابَ مِنْ ذنبه، وآمن بربِّه، وعمل بطاعته، ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي: ثم أَقامَ علىٰ إيمانه» [٢]، وقد يدلّ سؤال الهداية علىٰ سؤال لزومها، فيكون التقدير: اهدنا لزوم الصراط، قاله ابن الأنباري» [٣].

خامسًا: هنالك سبعة أوجه انفرد بها ابن الجوزي، وهي الهدىٰ بمعنىٰ «الاستبصار - التعليم- الفضل- التَّقْدِيم- الموت علىٰ الإسلام- الثواب - الأذكار» لم يعتمدها الباحث؛ وذلك لأنَّ بعضها من اشتقاقات الكلمة، وهي:

١/ الهدىٰ بمعنىٰ الاستبصار: كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٦] [٤].

٢/ الهدىٰ بمعنىٰ التعليم: كما في قوله تعالىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [النساء: ٣٦] [٥].

٣/ الهدىٰ بمعنىٰ الْفضل: كما في قوله تعالىٰ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ [النساء:٥١] أَي: أفضل [٦].

---

(١) انظر: نزهة الأعين النواظر (٢/ ٢٢٦)، والإتقان في علوم القرآن (٣/ ٩٧٨).

(٢) معاني القرآن (٣/ ٣٠٢).

(٣) زاد المسير (١/ ١٥).

(٤) انظر: نزهة الأعين النواظر (٢/ ٢٢١).

(٥) نزهة الأعين النواظر (٢/ ٢٢١).

(٦) انظر: نزهة الأعين النواظر (٢/ ٢٢١).

وبقية الأوجه التي ذكرها كذلك لم يعتمدها الباحث؛ لأنَّها محتملة وغير راجحة، وهي: «الهدىٰ بمعنىٰ التَّقْدِيم، والموت علىٰ الإسلام، والثواب، والْأَذْكَار»، وهي علىٰ النحو الآتي:

٤/ الهدىٰ بمعنىٰ الموت علىٰ الإسلام: كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] وهو بعيد، قال البيضاوي: «ثم استقام علىٰ الهدىٰ المذكور، ولا يكون الهدىٰ بمعنىٰ الموت إلَّا إذا قصد لازم المعنىٰ وهو: «ثم دام علىٰ الهداية حتىٰ الموت»[(١)].

٥/ الهدىٰ بمعنىٰ التقديم: في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٣]؛ لأنّ قول الجمهور: إنَّ المراد به هنا التهكُّم، ومن فسَّره، فسّره بالإرشاد والدلالة.

٦/ الهدىٰ بمعنىٰ الثواب: كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢]، أي بيان الحق والإرشاد إليه، قال البغوي: «﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ يعني البيان. قال الزجاج: علينا أن نبين طريق الهدىٰ من طريق الضلال، وهو قول قتادة، قال: علىٰ الله بيان حلاله وحرامه. قال الفراء: يعني من سلك الهدىٰ فعلىٰ الله سبيله»[(٢)].

٧/ الهدىٰ بمعنىٰ الاستذكار: كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحىٰ:٧]، قال البغوي: «يَعْنِي ضَالًّا عمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ، فَهَدَاكَ لِلتَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ: قَالَ الْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ كَيْسَانَ: وَوَجَدَكَ ضَالًّا عَنْ مَعَالِمِ النُّبُوَّةِ وَأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ غَافِلًا عَنْهَا، فَهَدَاكَ إِلَيْهَا»[(٣)].

---

(١) أنوار التنزيل (٤/ ٦٤).

(٢) معالم التنزيل (٥/ ٢٦٣).

(٣) المرجع السابق (٥/ ٢٦٨).

سادسًا: هنالك أربعة أوجه أضافها الباحث من خلال الاستقراء والتتبع لم ترد في المصادر السابقة؛ لكنَّها وردت عند المفسرين، وهي:«الهدىٰ بمعنىٰ: الحق - وضد الضلال - والهادي - والصواب، وهذا الأخير تفرد بذكره ابن الجوزي».

سابعًا: هنالك وجه ذكره بعض المفسرين، وهو متوافق مع معاني الكلمة في اللغة، ولم يرد في المصادر أعلاه، ولم يعتمده الباحث؛ لأنَّه كذلك محتمل في بعض الآيات، ومن معاني اشتقاق الكلمة في بعضها، وهو الهدىٰ بمعنىٰ: التوفيق وانشراح الصّدر للخير، وما يقرّ في القلب من الإيمان، والعمل بالعلم، والعون علىٰ الْخَيْر والتيسير لَهُ، وهذا لا يقدر علىٰ خلقه في قلوب العباد إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا نفاه عن غيره، وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦][1]. وقال تعالىٰ: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام:١٢٥]. فَهَذَا هُوَ الَّذِي أعطَاهُ الله عَزَّوَجَلَّ الْمَلَائِكَة كلهم والمهتدين من الْإِنْس وَالْجِنّ، وَمنعه الْكفَّار من الطَّائِفَتَيْنِ والفاسقين فِيمَا فسقوا فِيهِ، وَلَو أَعْطَاهُم إِيَّاه تَعَالَىٰ لما كفرُوا وَلَا فسقوا.

ثامنًا: هنالك ستة أوجه في معنىٰ الهدىٰ في القرآن مع تنوعها في المسمىٰ تشير لمسمًّىٰ واحد، وهي:«تفسير الهدىٰ بمعنىٰ: الإسلام - الإيمان - التوحيد - القرآن - الرسل والكتب - أمر محمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٦٥).

ويضاف إليها في نفس المعنىٰ: «الحق، والصواب».

كما يمكن أن يضاف إليها التوراة؛ وهي هدىٰ قبل نزول القرآن لا بعده.

المطلب الرابع: الهدى في المفهوم العام والخاص:

أوَّلًا: الهدى في المفهوم العام:

من الأمور البحثية الشاقة التي يكثر حولها الاختلاف تحرير المصطلحات وتمييزها عن غيرها، وبعد أكثر من ثلاثين سنة – ولله الحمد والمنة – في البحث والتأصيل العلمي أدركتُ سعة فقه السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في تعاملهم مع المصطلحات والتعريفات، فلم يكونوا يتعمقون فيها حتىٰ لا تكون بعيدة عن مدارك العامة؛ بل كانوا يركِّزون علىٰ ما يوضِّح المطلوب، ويحقِّق الفهم المراد ولو بجزء من المعنىٰ الذي به يتميز المراد عن غيره.

قال الإمام الشاطبي: «وعلىٰ هذا وقع البيان في الشريعة؛ كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[1]؛ ففسَّره بلازمه الظاهر لكلِّ أحد، وكما تفسَّر ألفاظ القرآن والحديث بمرادفاتها لغة، من حيث كانت أظهر في الفهم منها. وقد بيَّن صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاة والحج بفعله وقوله علىٰ ما يليق بالجمهور، وكذلك سائر الأمور، وهي عادة العرب، والشريعة عربية، ولأنَّ الأمَّة أمِّيَّة؛ فلا يليق بها من البيان إلَّا الأمِّي... فإذًا، التصورات المستعملة في الشرع إنَّما هي تقريبات بالألفاظ المترادفة وما قام مقامها من البيانات القريبة»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان باب: تحريم الْكِبْرِ وبيانه ح رقم ١٤٧.

(٢) الموافقات (١/ ٦٨).

وكلمة «الهدىٰ» من حيث دلالاتها الموضوعية هي كلمة قرآنية واسعة الدلالة، شملت: الإسلام، والقرآن، وما كان عليه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والحق، والصواب، والطريق المستقيم؛ بل امتدت معانيها حتىٰ تشمل الهدىٰ السابق لنزول هذا الكتاب من التوراة والإنجيل وغيرهما [1]، ممَّا أنزله الله تعالىٰ من وحيه علىٰ أنبيائه لهداية الإنسانية لما يحقِّق صلاحها وإسعادها في الدنيا، وفوزها ونجاتها في الآخرة. ومن الخطأ أن تكون للكلمة القرآنية مدلولات واسعة، ثم نأتي ونحجرها في مصطلح علمي ضيق، مستندين إلىٰ بعض معانيها في اللغة ودلالاتها في بعض السياقات القرآنية؛ بل الواجب أن يبقىٰ مفهوم الكلمة القرآنية بدلالاتها الواسعة حسب ورود معانيها في السياق القرآني، وتجريد المصطلحات القرآنية عن سياقها ودلالاتها يُعَدُّ انحرافًا واضحًا في تحرير مفهومها.

فالهدىٰ في المفهوم العام: هو البيان الإلهي المحكم الذي أوحاه الله إلىٰ أنبيائه، ليهدي البشرية إلىٰ الصراط المستقيم، ويحقق صلاحهم وسعادتهم.

فهو بيان: لأن الهدىٰ كله بيان ودلالة ترشد للخير والصلاح والاسعاد.

ومحكم: ليخرج ما نسخ من الوحي، فالوحي هدىٰ ما لم ينسخ.

الذي أوحاه الله إلىٰ أنبيائه: يشمل جميع الوحي الذي أنزله الله تعالىٰ علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين.

ليهدي البشرية إلىٰ الصراط المستقيم: لأن هذا هو الغاية من إنزال الوحي.

---

(١) كانت هدىٰ قبل نزول القرآن الكريم أما بعد نزوله فقد انحصر الهدىٰ فيه.

ويحقق صلاحهم وسعادتهم، وهذه هي ثمرة اتباع الوحي.

فهو يشمل: الإسلام، والقرآن، وما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما جاءت به الرسل والكتب، والتوحيد، وهو الطريق المستقيم، والحق والصواب؛ بل يمتد ليشمل الهدىٰ الذي أُنزل في الشرائع السابقة كالتوراة والإنجيل، فهو مقابل الضلال كل زمان بحسبه.

ولا يجوز في التعريف العام حصر دلالة «الهدىٰ» في مصطلح علمي ضيق مستند إلىٰ بعض معانيه اللغوية أو سياقات جزئية من القرآن، بل يجب أن يبقىٰ مفهومه شاملًا وفق دلالاته في النصوص الشرعية، حيث إنَّه يشمل:

الإرشادات الجزئية: التي تتعلق بهدايات محددة ذكرها العلماء في بعض الآيات في سياقها الموضعي.

والإرشادات الموضوعية: التي تتعلق بموضوعات قرآنية محددة كالصلاة والزكاة والصيام.

والإرشادات الكلية: التي تكوِّن رؤية متكاملة حول قضايا كبرىٰ؛ كالإيمان، والأخلاق، والمعاملات.

ثانيًا: الهدى في المفهوم الخاص:

يقصد بالهدىٰ في المفهوم الخاص: القرآن الكريم، أصل الهدىٰ وأساسه، وهو علم أعظم من أن يُعرَّف، ويكفي فيه أنَّه كلام الله تعالىٰ المنزل علىٰ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس. وعليه يمكن تعريف الهدىٰ في المفهوم الخاص بالآتي:

فالهدىٰ في المفهوم الخاص: هو إرشادات القرآن الكريم وفق بيان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولغة العرب التي نزل بها، لتحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة.

محترزات التعريف:

إرشادات القرآن الكريم: لأنَّ الهدىٰ في جوهره توجيهات وبصائر تهدي إلىٰ الحق والصلاح والإصلاح، وهذه الإرشادات قد تكون بدلالة ظاهرة أو مستنبطة، وقد تكون إرشادات جزئية تنير البصائر في جوانب محددة من موضوع واسع، كموضوع الإيمان باليوم الآخر أو الصلاة أو الزكاة، وغالبًا ما تكون هذه في الجملة والآية الواحدة.

وقد تكون إرشادات تنير البصائر في الموضوع الواحد ذي الدلالة الشرعية المعينة، كموضوع الزكاة والصيام والحج.

وقد تكون إرشادات كلية للموضوعات المتنوعة العناصر، كموضوع الإيمان أو الأخلاق، من خلال النظرة الكلية لمجموع الآيات للوصول إلىٰ رؤية علمية شاملة في تصور حقيقة ما هدىٰ إليه القرآن من خلال آياته. وهذا يحتاج إلىٰ علماء راسخين من أجل جمع الآيات، واستنباط دلالاتها، وبناء رؤية متكاملة شاملة لكل ما جاء في هدىٰ الكتاب والسنة، مثل: رؤية الهدىٰ القرآني للحياة الزوجية، أو التعامل مع الوالدين، أو تربية الأبناء، أو رعاية الضعفاء، ونحو ذلك.

وفق بيان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: لأنَّ مهمة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إلىٰ جانب تبليغ ألفاظ القرآن، هي بيان معانيه. وهناك نصوص قرآنية لا يكتمل فهم

هداها إلَّا ببيان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كأحكام الصلاة والزكاة والحج وسائر العبادات والمعاملات التي فصلتها السنة النبوية، وهذا سوف يأت تفصيله.

ولغة العرب التي نزل بها: لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين فوفق لغتهم يفهم.

لتحقيق مصالح العباد: لأنَّ غاية الهدىٰ تحقيق مصالح الخلق، بإرشادهم إلىٰ ما ينفعهم، وتحذيرهم ممَّا يضرهم، فإنَّ الشريعة جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان.

في الدنيا والآخرة: لأنَّ الهدىٰ الرباني ليس مقصورًا علىٰ إصلاح حياة الناس في الدنيا، بل هو السبيل الموصل إلىٰ السعادة الأبدية في الآخرة، حيث يقود إلىٰ دار السلام ورضا الرحمن.

خلاصة تعريف الهدىٰ في المفهوم العام والخاص:

أولاً: الهدى في المفهوم العام :

هو البيان الإلهي المحكم الذي أوحاه الله إلى أنبيائه، ليهدي البشرية إلى الصراط المستقيم، ويحقق صلاحهم وسعادتهم.

فهو يشمل عند إطلاقه في المفهوم العام، الآتي:

الإسلام	القرآن	ما كان عليه النبي ﷺ	ما جاءت به الرسل والكتب	التوحيد
الطريق المستقيم	الحق	الصواب	التوراة والإنجيل	

ثانياً: الهدى في المفهوم الخاص:

يقصد بالهدى في المفهوم الخاص: القرآن الكريم، أصل الهدى وأساسه، وهو علم أعظم من أن يُعرَّف، ويكفي فيه أنّه كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس. **وعليه يمكن تعريف الهدى في المفهوم الخاص بالآتي:**

هو إرشادات القرآن الكريم وفق بيان النبي ﷺ، لتحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة

المطلب الخامس: تعريف الاهتداء والفرق بينه وبين الهدى:

أوَّلًا: تعريف الاهتداء:

أ/ الاهتداء في المعنىٰ العام: هو يختصُّ بما يتحراه الإنسان باختياره، سواء في الأمور الدنيوية أو الأخروية.

فالاهتداء فيختصُّ بما يتحرَّاه الإنسان باختياره، سواء في الأمور الدنيوية أو الأخروية، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ [الأنعام: ٩٧]. ويُطلق ذلك علىٰ طلب الهداية، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۖ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام : ٥٦] ، أو تحرِّي الهداية، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

ويُقال «المهتدي» لمن يقتدي بعالم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المَائِدَة : ١٠٤] ، تنبيهًا إلىٰ أنَّهم لا يعلمون بأنفسهم ولا يقتدون بعالم.

ب/ الاهتداء في المفهوم الخاص: هو معرفة العبد للحق الذي جاء به الوحي، والالتزام به قولًا وعملًا، بتوفيق الله تعالىٰ.

قال ابن القيم في تعريف الهداية:«هي معرفة الحق والعمل به فمن لم يجعله الله تعالىٰ عالما بالحق عاملا به لم يكن له سبيل إلىٰ الاهتداء»[(١)].

وقال ابن تيمية في قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة : ٢]:«إنَّما يهتدي من يقبل الاهتداء، وهم المتقون لا كل أحد، وليس المراد أنَّهم كانوا متقين قبل اهتدائهم؛ بل قد يكونوا كفارًا؛ لكن إنَّما يهتدي به من كان متَّقيًا، فمن اتقىٰ الله اهتدىٰ بالقرآن»[(٢)]

ثالثًا: الفرق بين الهُدى والاهتداء:

هنالك فرق في الاستعمال القرآني بين الهُدىٰ، المشتق من الفعل «هدىٰ»، والاهتداء، المشتق من الفعل «اهتدىٰ». فالهُدىٰ يختصُّ بالله تعالىٰ، أمَّا الاهتداء فإنَّه يختصُّ بالإنسان.

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص:٥٣).

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي (٥/ ٣١٢-٣١٩).

فالهدىٰ يُطلق علىٰ ما تولَّاه الله تعالىٰ وأعطاه واختصَّ به دون ما كان موكولًا إلىٰ الإنسان، قال الراغب الأصفهاني: «قد خص الله عَزَّوَجَلَّ لفظة الهدىٰ بما تولاه وأعطاه، واختص هو به دون ما هو إلىٰ الإنسان» واستدلَّ لذلك بآيات كثيرة، منها:

- ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة : ٢].
- ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البَقَرَة : ٥].
- ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة : ١٨٥].
- ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [الأَنْعَام : ٧١].
- ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٣٨]، وغيرها من آيات.

والاهتداء يختصُّ بما يتحرّاه الإنسان علىٰ طريق الاختيار؛ إمّا في الأمور الدنيوية، أو الأخروية، وهو ثمرة الهداية، كما قال الله تعالىٰ:

- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا﴾ [الأَنْعَام : ٩٧].
- ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النِّسَاء:٩٨].
- ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَة : ٥٣].
- ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَة : ١٥٠].
- ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ [البَقَرَة : ١٣٧] [(١)].

(١) المفردات (ص: ٥١٩).

خلاصة الفرق بين الهُدى والاهتداء:

الهُدىٰ هو: الإرشاد الإلهي المطلق إلىٰ الحق، وهو من فعل «هدىٰ» الذي اختصَّ الله تعالىٰ به، فلا يكون الهدىٰ إلَّا من الله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البَقَرَة : ١٢٠]. فالهدىٰ يشمل كل ما تولَّاه الله من تبيين طريق الحق، سواء بإنزال الوحي، أو إرسال الرسل، أو تسخير الآيات الدالة علىٰ الهداية.

أما الاهتداء: فهو فعل العبد في الاستجابة للهدىٰ، وهو من فعل «اهتدىٰ»، حيث يكون ثمرةً للسعي والاختيار الإنساني في طلب الهداية والسير في طريقها، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ [آل عِمْرَان : ٢٠]. فالاهتداء فعل مكتسب من العبد، وهو مشروط بتوفيق الله.

ثالثاً: تعريف الاهتداء والفرق بينه وبين الهدى:

أ/تعريف الاهتداء في المعنى العام والخاص:

1/ الاهتداء في المعنىٰ العام: هو يختصُّ بما يتحراه الإنسان باختياره، سواء في الأمور الدنيوية أو الأخروية.

2/ الاهتداء في المفهوم الخاص: هو معرفة العبد للحق الذي جاء به الوحي، والالتزام به قولًا وعملًا، بتوفيق الله تعالىٰ

ب/ الفرق بين الهدى والاهتداء:

هنالك فرق في الاستعمال القرآني بين الهُدى، المشتق من الفعل "هدى"، والاهتداء، المشتق من الفعل "اهتدى".

فالهدىٰ يُطلق علىٰ ما تولاه الله تعالىٰ وأعطاه واختصَّ به دون ما كان موكولًا إلىٰ الإنسان.

والاهتداء يختصُّ بما يتحرّاه الإنسان علىٰ طريق الاختيار؛ إمّا في الأمور الدنيوية، أو الأخروية، وهو ثمرة الهداية.

الخلاصة:

- الهُدىٰ: فعل الله تعالىٰ، وهو الإرشاد والتبيين.
- الاهتداء: فعل العبد، وهو قبول الهُدىٰ والاستجابة له.
- العلاقة بينهما: لا اهتداء للعبد إلا بهدىٰ الله، ولا ينتفع بالهدىٰ إلَّا من طلبه وسعىٰ إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العَنكَبُوت : ٦٩].

فالهدىٰ نعمة إلهية، والاهتداء مسؤولية بشرية، ولا يتحقق الاهتداء إلَّا لمن فتح قلبه لنور الهُدىٰ الإلهي.

الخلاصة

المبحث الثاني

أهمية الاهتداء بالهدى

مدخل:

الهداية الربانية هي أعظم نعمة ينالها الإنسان في حياته، فهي التي تنير بصيرته، وتهديه إلىٰ سواء السبيل، وتقيه التخبط والضياع، ولقد جعلها الله تعالىٰ غاية إنزال الوحي، ومقصد إرسال الرسل، وأساس فلاح العبد في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المَائِدَة : ١٥ - ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إِبْرَاهِيم : ١].

إذا كان كل إنسان يسعىٰ في حياته إلىٰ السعادة، والنجاح، والأمان والاستقرار، فإنَّ المفتاح الحقيقي لكل ذلك يكمن في الاهتداء بالقرآن الكريم مصدر الهدىٰ الأول، فإنَّ الاهتداء لا يكون إلا بالوحي الذي أنزله الله تعالىٰ علىٰ رسوله، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سَبَإ:٥٠]، فهو كتاب الله الذي يحمل في طيَّاته أجوبة الحياة، وحقائق الوجود، وأسرار النجاح في الدنيا والآخرة، والرحمة تتحقق للعبد بقدر اهتدائه بكتاب ربه،

قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأَنْعَام : ١٥٥]

قال السعدي:«فكلُّ من كان أعظم اهتداء به فله من الرحمة والخير والسعادة والفلاح بحسب ذلك»[١].

وفي الإعراض عنه واتباع غيره من ديانات منحرفة، وأهواء بشرية مضلة من فلسفات ونظريَّات وغيرها، ضلال وخسارة وشقاء الدنيا والآخرة؛ ولذا لم يكن غريبًا أن يكون طلب الهداية دعاءً متكررًا في كل صلاة، يلهج به كل مؤمن وهو يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، في إشارة واضحة إلىٰ أنَّ الإنسان، مهما بلغ من العلم والمعرفة، يظل في حاجة دائمة إلىٰ الهداية الربانية.

وهنا، تأتي أهمية هذا المبحث في بيان منزلة الهداية وأهميتها، فالهداية ليست مجرد فكرة، بل هي الحياة الحقيقية التي يستحقُّها الإنسان، وكلما تعمّقنا في فهمها، ازداد شوقنا إلىٰ السير في نورها، وقد لا تسعف الألفاظ والجمل في بيان أهمية الاهتداء بالقرآن الكريم ومنزلته وخطورة الإعراض عنه؛ ولكن حسبك لتدرك جمال القمر رؤية بعض أنواره، ولإدراك جمال الصانع رؤية بعض جمال خلقه، وهو موضوع يحتاج أن يفرد بالدراسة، سوف أكتفي هنا ببيان ذلك من خلال عشر نقاط تبرز بعضًا من جوانب منزلة الاهتداء بالقرآن الكريم وأهميَّته، حفاظًا علىٰ طبيعة الدراسة التي لا تتحمل البسط والتَّوسع أكثر من هذا.

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (١/ ٦).

أوَّلًا: منزلة الاهتداء بالقرآن الكريم في ضوء عظمته:

لقد بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه العزيز بيانًا شافيًا منزلة القرآن وعظمته، وذلك ليُدرك العباد مدىٰ أهمية الاهتداء بهديه والعمل بتعاليمه، فإنَّ منزلة الاهتداء لا تكون إلَّا بقدر عظمة الكتاب المهتدي به، فإذا كان هذا الكتاب هو القرآن الكريم، وجب أن يكون الاهتداء به أعظم الهدايات، وأكملها وأصدقها.

فالقرآن ليس مجرد كتاب، بل هو كلام الله الذي له من الشرف والمنزلة ما يوجب تعظيمه والتمسك به، وقد أقسم الله به في مواضع متعددة من كتابه دلالة علىٰ علو شأنه، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، وقال تعالىٰ: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الوَاقِعَة: ٧٥- ٨٠].

وقد وصف الله القرآن بأنَّه «الكتاب المبين»، أي أنَّه بَيِّن في حُجَّته، واضح في كونه من عند الله، مُبَيِّن للحق من الباطل، هادٍ من الضلال، ممَّا يدل علىٰ عظيم بركته ونفعه، قال تعالىٰ: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:١-٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأَنْعَام: ١٥٥] ، فهذا يدل علىٰ كمال هديه، ونفاسة محتواه، وعظيم تشريعاته، وكريم مضمونه، فهو مشتمل علىٰ كل حكمة بالغة، وهداية راشدة، وهو محكم البيان ليس فيه لبس أو اختلاف وتناقض، كما هو محكم لا ينسخه

كتاب بعده، وهو ناسخ لكل كتاب قبله، ختم به كتبه، وأثبت خلوده بما يستلزم خلود نفعه لكل زمان ومكان، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

كما أكد الله تعالىٰ علىٰ شرف القرآن وأزليته من خلال كونه محفوظًا في اللوح المحفوظ، فقال تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج:٢١، ٢٢]. وبيَّن ما حظي به من كمال المنزلة والشرف والفضل في ملكوته الأعلىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ﴾، وبيَّن في آية أخرىٰ ما أحيط به من كمال العناية والرعاية في هذا اللوح المحفوظ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة:٧٧- ٨٠].

قال ابن كثير: «بين شرفه في الملأ الأعلىٰ، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿لَعَلِىٌّ﴾ أي: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: محكم بريء من اللبس والزيغ. وهذا كله تنبيه علىٰ شرفه وفضله»[(١)].

وقال السعدي في قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ أي: لعلي في قدره وشرفه ومحلِّه، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان»[(٢)]، فهذا العلو والجلال الذي خصَّ الله تعالىٰ به كتابه، منعكس علىٰ هديه الذي انتظم كل كلمة وجملة وآية فيه، فليس في الوجود هدي أجل وأعظم منه.

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٤٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٧٦٢).

وممَّا يدلُّ علىٰ منزلة الاهتداء بالقرآن الكريم وأهميَّته ما وصف الله تعالىٰ به القرآن عمومًا، وهداه خصوصًا من الجمال[1] الذي يراد به كمال حسنه، والقرآن ليس في الوجود أحسن منه حديثًا، فهو الأحسن بين سائر الكتب، جمع بين حسن اللفظ والنَّظم، والمعنىٰ، فألفاظه أفصح الألفاظ، ونظمه أحكم نظم، ومعانيه أجلّ وأهدىٰ وأنفع وأبرك المعاني، وحجَّته أقوىٰ وأبين حجَّة، قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر:٥٥]، وقال تعالىٰ في وصف قصصه: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف:٣]، فحسنه متمثِّل في جمال كلماته التي بلغت المنتهىٰ في البيان والإعجاز، ومتمثل كذلك في حسن هديه للتي هي أقوم في العقيدة، والعبادة، والأخلاق والسلوك والتزكية، والعمران، والإصلاح وغيرها، بما لا يماثله أو يقاربه هدىٰ في كتاب، ومتمثل كذلك في حسن توافق معانيه مع الفطرة السليمة والعقل المستقيم، وفي اتساقه مع جمال الكون الذي الحسن وصفه، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٧].

وممَّا يدلُّ علىٰ منزلة الاهتداء بالقرآن الكريم وأهميَّته ما وصف الله تعالىٰ به كتابه من الكمال والتمام الذي يستلزم منه كمال هديه وتمام بيانه،

(١) قال الألوسي: «والمشهور إطلاقه علىٰ الحسن الكثير» روح المعاني (٧/ ٣٤٢).

قال تعالىٰ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام :١١٥]، فهو هدىٰ لا يُوجد أصدق من أخباره، ولا أعدل وأكمل من أحكامه، ومن هنا كان المؤمن لا يبتغي عنه بديلًا، ولا يرضىٰ فيه تبديلًا، فهو النعمة العظمىٰ التي اختص الله بها عباده المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[التوبة:٣].

وهو كتاب كافٍ في هدايته وحججه لكل من أراد الاستقامة علىٰ سواء السبيل، في كل زمان ومكان، كافية ليس بعده في حاجة إلىٰ غيره، قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:٥٠، ٥١]، وكيف لا يكون كافيًا» فما أمر بشيء فقال العقل «ليته لم يأمر به»، ولا نهىٰ عن شيء فقال العقل:«ليته لم ينه عنه»؛ بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، ثم مسايرة إرشاداته وهداياته وأحكامه لكلِّ حال وكل زمان بحيث لا تصلح الأمور إلَّا به. فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل علىٰ طلب الحق، فلا كفىٰ الله من لم يكفه القرآن، ولا شفىٰ الله من لم يشفه الفرقان»[1].

وممَّا يدلُّ علىٰ منزلة الاهتداء بالقرآن الكريم وأهميَّته ما وصف الله تعالىٰ به كتابه من الشمول الذي يستلزم شمول هديه بما يغطي كل ما تحتاجه الإنسانية من هدي، قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٣٤).

قال السعدي: «فلم يبقَ من العلوم النافعة علم إلَّا بيَّنه لهم، فإنَّ القرآن تبيان لكلِّ شيء، فعلوم الأصول وعلوم الفروع والأحكام، وعلوم الأخلاق والآداب، وعلوم الكون، وكل ما يحتاجه الخلق من ذلك اليوم إلىٰ أن تقوم الساعة، ففي القرآن بيانه والإرشاد إليه، وهو الذي إليه المرجع في جميع الحقائق الشرعية والعقلية، ومحال وممتنع أن يأتي علم صحيح لا محسوس ولا معقول ينقض شيئًا ممَّا جاء به القرآن»[1].

وقال ابن عاشور معلقًا علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ «صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنة، كافيًا في هدي الأمَّة في عبادتها، ومعاملتها، وسياستها، في سائر عصورها، بحسب ما تدعو إليه حاجاتها، فقد كان الدين وافيًا في كل وقت بما يحتاجه المسلمون»[2].

فالقرآن الكريم هو النور الهادي الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة ممَّا يصلح حياة البشر إلَّا بيَّنها، إمَّا نصًّا صريحًا أو دلالة وإشارة، وهو الكتاب الذي لا تستغني عنه البشرية في أي عصر من العصور، ولا يُستبدل به غيره، لأنَّ كل هدىٰ سواه قاصر، وكل شريعة غيره ناقصة، أمَّا هديه فهو الكمال المطلق، والهداية التامة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسْرَاء: ٩].

وكذلك ممَّا يدلُّ علىٰ منزلة الاهتداء بالقرآن الكريم وأهميَّته ما وصف الله تعالىٰ به هديه من وسطيَّة واعتدال، لا مجال فيه إلىٰ الإفراط أو التفريط، بل هو تشريع محكم مطابق للحكمة والميزان، هادٍ إلىٰ مصالح العباد، محقق

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير الأحكام (٢/ ٢٥).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٠٣).

لسواء الصراط، عاصم من الزَّيغ والضَّلال والانحراف، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٤، ١٧٥].

وقد أكَّد القرآن علىٰ هذه الاستقامة والاعتدال في مواضع كثيرة، فقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا﴾ [الكهف:١، ٢].

قال الشنقيطي: «أي لم يجعل في القرآن عوجًا؛ أي لا اعوجاج فيه البتَّة، لا من جهة الألفاظ، ولا من جهة المعاني، أخباره كلها صدق، وأحكامه عدل، سالم من جميع العيوب في ألفاظه ومعانيه، وأخباره وأحكامه؛ لأنَّ قوله: «عِوَجًا» نكرة في سياق النفي؛ فهي تعم نفيَ جميع أنواع العِوَج... وقوله: ﴿قَيِّمًا﴾ أَيْ مستقيمًا، لا ميل فيه ولا زيغ، وما ذكره هنا من كونه «قَيِّمًا» لا ميل فيه ولا زيغ؛ بيَّنه أيضًا في مواضع أخر...»[1].

وهذا الاعتدال والاستقامة جعلت تشريعاته كلها سهلة ميسرة لا حرج فيها، مسايرة لأحوال العباد في سفرهم وإقامتهم، ومرضهم وعافيتهم، وفي وقت قوَّتهم وضعفهم، يهديهم في كل أحوالهم للرشد والاستقامة. وقد شهدت الجن حين سمعته بهذا، فقالوا: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن:١، ٢].

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ١٩٢).

فمنزلة الاهتداء بالقرآن تستمد شرفها من جلال عظمته، فهو كلام الله الأزلي، المحفوظ في اللوح المحفوظ، الذي جعله الله نورًا وهداية، لا يعتريها نقص ولا يداخلها زيف. فهو الميزان الحق، والقول الفصل، والتشريع الأكمل، لا يُستغنىٰ عنه في الاستقامة ولا يُستبدل به غيره في الهداية. فمن اعتصم به سمت روحه واستنار دربه، ومن تنكّب عنه غرق في متاهات الضلال، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ، مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ، وَأَخَذَ بِهِ، كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ، ضَلَّ»[1].

ثانيًا: دلالة أسماء القرآن وصفاته على أهمية الاهتداء به:

يدلُّ تعدُّد أسماء القرآن الكريم وصفاته علىٰ عظمة هذا الكتاب، وشموله، ووجوب الاستهداء به، إذ إنَّ كلَّ اسم أو صفة تحمل دلالة خاصَّة علىٰ مكانته، وتوضِّح سبب الحاجة إلىٰ هديه في حياة الإنسان. **ومن أبرز هذه الأسماء والصفات:**

الفرقان: فسمِّي «الفرقان» لأنَّ الله تعالىٰ فرق به بين الحقِّ والباطل، والهدىٰ والضَّلال، والخير والشَّر، والحلال والحرام، وأولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان، وأهل السَّعادة والشَّقاء، قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[البقرة:١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:٤]، فالاهتداء بالقرآن ضرورة لمن أراد التمييز بين الحق والضلال.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب: الفضائل، باب: فضائل علي بن أبي طالب ح رقم (٢٤٠٨).

النُّور: فسمِّي «النور» لأن الله تعالىٰ جعله نوراً يهدي به العباد، فيخرجهم به من ظلمات الكفر والشِّرك والمعصية إلىٰ نور الإيمان والتوحيد والطَّاعة، فهداياته كلها نور يضيء ظلمات العقول والنفوس، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد:٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾[الشورىٰ :٥٣]، فمن استنار بهديه نجا من ظلمات الجهل والشك والتيه، ومن أعرض عنه بقي في ظلمات الحيرة والضياع.

الهدىٰ: فسمِّي «الهدىٰ» لأن الله تعالىٰ جعله المرشد الهادي إلىٰ الصراط المستقيم، والمنهج القويم الذي لا يضل سالكه، فهو الحجة البالغة والدليل الأوثق لمن ابتغىٰ الحق، والطريق الأوضح لمن أراد النجاة. يهدي القلوب، ويقوم العقول، ويقود السائرين إلىٰ أقوم السبل، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾[البَقَرَة : ١٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡ﴾ [الأَعۡرَاف : ١٩٣] ، فمن ابتغىٰ الهداية في غيره ضلَّ، ومن استمسك به فاز ونجا.

الذِّكر: فسمِّي «الذكر» لأن الله تعالىٰ جعله تذكرة خالدة، وموعظة باقية، يوقظ به الغافلين، وينبه به السائرين، فيرشدهم إلىٰ ما ينفعهم، ويحذرهم مما يضرهم. فهو الذكر الذي يبدد غياهب الغفلة، والموعظة التي تقي من السقوط في مهاوي الضلال، إذ جبل الإنسان علىٰ النسيان، فاقتضت رحمة الله أن ينزل عليه هذا الذكر العظيم، ليكون له مرشدًا لا يغيب، وهداية لا تضل، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، فمن لم يجعل القرآن في قلبه وعقله صار فريسة للغفلة والهوىٰ.

الحق: فسمِّي «الحق» تأكيدًا علىٰ أنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو وحي الله المحفوظ، وكلامه الذي لا يعتريه تبديل ولا تحريف، نزل بالحق المطلق، ودعا إلىٰ الحق المستقيم، فلا مدخل للشك في هداياته، ولا موضع للريب في تعاليمه. قال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة:٣].

فكل ما جاء به القرآن من أحكام وتشريعات، وكل ما أخبر به من حقائق وأخبار، هو الحق الثابت الذي لا يتناقض مع العقل السليم، ولا يخالف الفطرة المستقيمة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد:١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر:٣١].

من خلال هذا الاسم، يظهر جليًّا أنَّ الاستهداء بالقرآن هو الاستهداء بالحقِّ ذاته، فهو لا يدعو إلَّا إلىٰ ما هو حق وصحيح في جوانب الحياة كلها، سواء في العبادات أو المعاملات أو الأخلاق، وهي حقيقة يؤمن بها كل عالم، قال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

الحكيم: فسمِّي «الحكيم» لأن الله تعالىٰ جعله مصدَرَ الحكمة البالغة في الأقوال والأفعال، يهدي الإنسان إلىٰ التصرفات الصائبة في كل شؤون حياته، في العقيدة والعبادة، والأخلاق وغيرها، وأودع فيه من الأحكام والتوجيهات ما يستقيم به أمر الخلق، ويصلح به حالهم في الدنيا والآخرة، لا خلل في تشريعاته، ولا قصور في

هداياته، فهو كتاب الحكمة المطلقة، التي لا يزيغ عنها إلا من حُرم التوفيق، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١]، وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ١-٣]، وقال تعالىٰ ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس:١، ٢]، فهو الذي يهدي الإنسان إلىٰ التصرفات الصائبة في شؤون حياته كلها، فينبغي لمن يريد النجاح في الدنيا والآخرة أن يسترشد به في حياته.

المبين: فسمِّي «المبين» لأن الله تعالىٰ جعله بيّن أمره أنَّه تنزيل رب العالمين، ليس من عند محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو غيره من الخلق، مبيِّن صدق نبوة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بيَّن فيه معانيه وأغراضه حتىٰ تجلَّىٰ وظهر فيه الحقُّ من الباطل، والهدىٰ من الضَّلال، والحلال من الحرام، والرَّشد من الغي، وردَّ فيه كل شبهة، وأظهر فيه كل حجَّة، فهو كتاب بيِّن في نفسه، مبيِّن للعقيدة والأحكام والآداب وسائر التَّشريعات حتىٰ يسهل فهمه والاهتداء به، ولا تكون لمنحرف حجَّة من بعده، قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف:١]، قال تعالىٰ: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء:١، ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الزخرف:١-٢].

قال ابن جرير: «معناه: هذه آيات الكتاب المبين، لمن تلاه وتدبَّر ما فيه من حلاله وحرامه ونهيه وسائر ما حواه من صنوف معانيه؛ لأنَّ الله جل ثناؤه أخبر أنَّه «مبين»، ولم يخصَّ إبانته عن بعض ما فيه دون جميعه، فذلك علىٰ جميعه، إذ كان جميعه مبينًا عمَّا فيه»[1].

(١) جامع البيان (١٣/ ٦).

وقال الخازن:«وهو القرآن الذي أبان طرق الهدىٰ من طرق الضَّلالة، وأبان ما تحتاج إليه الأمَّة من الشَّريعة، وقيل: المبين يعني الواضح للمتدبِّرين»[1].

الكريم: ووصفه بالكريم يدلُّ علىٰ سموّ قدره، وعظمة مكانته، ونفاسته في ذاته ومحتواه، فهو كلام الله الذي لا يماثله كلام، وهداه أرفع الهدايات، وأحكامه أعدل الأحكام، ومعانيه أسمىٰ المعاني التي تزكّي النفوس، وتهذب العقول، وترتقي بالمجتمعات. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧]. وكرمُه يظهر في فيض هدايته، واتساع معانيه، وتمام بركته، فهو يكرم قارئه بنور الفهم والبصيرة، ويرفع العامل به إلىٰ مراتب العزة والفضل، ويمنح الأمة التي تلتزم به الخير والتمكين في الدنيا، والفلاح والنعيم في الآخرة، إذ لا شرف يعدل شرف التمسك به، ولا عز يضاهي عز الامتثال له.

المبارك: ووُصف بالمبارك، لما فيه من الخير العظيم، والنفع العميم، والبركة التي تمتد إلىٰ من قرأه وتدبّره وعمل به. فهو مبارك في ألفاظه، مبارك في معانيه، مبارك في تأثيره علىٰ الأفراد والمجتمعات، إذ يثمر الهداية والاستقامة، وينشر النور في القلوب والعقول، قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام:٩٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

---

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل (٤/ ١٠٥).

المجيد: ووصفه بالمجيد يدل علىٰ علوِّ شأنه، وسموِّ هدايته، وكمال شرفه، فهو كلام الله العظيم الذي بلغ الغاية في العظمة والجلال، فلا عزَّ أرفع، ولا مجد أعظم من التمسك به. قال تعالىٰ: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق:١]، وقال تعالىٰ: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ [البروج:٢١]. ومجده يتجلىٰ في كمال تشريعاته، وتمام هداياته، وعظيم أثره في تربية الأفراد والأمم، فهو الكتاب الذي يرفع شأن من يستمسك به، ويعزّ من يطبّق أحكامه، وينير طريق كل من يسير علىٰ هديه، فلا مجد لأمةٍ أعرضت عنه، ولا رفعة لمن تنكب سبيله، إذ هو مصدر العزة والتمكين في الدنيا، وسبيل الفلاح والنجاة في الآخرة.

وليست هذه الأوصاف إلَّا جزءًا من جملة أسماء وصفات شريفة لهذا الكتاب العظيم، وكل اسم منها يكشف جانبًا من عظمته ويدلّ علىٰ أهمية الاستهداء به، وكل اسم من أسماء القرآن الكريم يحمل في طيَّاته دلالة علىٰ وجوب الاهتداء به، إذ لا يمكن للإنسان أن يميز بين الحق والباطل بغير الفرقان، ولا أن يسير في الحياة دون النور، ولا أن يهتدي إلىٰ الصراط المستقيم دون الهدىٰ، ولا أن ينجو من الغفلة دون الذِّكر، ولا أن يصل إلىٰ الحكمة والسعادة الحقيقية دون الكتاب الحكيم. فمن أراد حياة مستقيمة، مطمئنة، مباركة، مليئة بالمجد والعزة، فليجعل القرآن مرجعه ودليله، فهو المصدر الذي لا ينضب معينه من الهداية والرشد في كل زمان ومكان.

ثالثًا: نفي الريب عن القرآن برهان على كمال الاستهداء به:

نفىٰ الله تعالىٰ الريب عن كتابه نفيًا مطلقًا، فجاء هذا النفي تأكيدًا علىٰ يقينية كل ما يحتويه القرآن من أخبار، وأحكام، وتشريعات، وترسيخًا لصدق

مصدره الإلهي، وكمال هدايته، واستقامة بيانه. فهو وحي معصوم لا مجال للريب فيه، ولا مدخل للشبهة في حقائقه، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة:٢].

وقد أشار الإمام القرطبي إلىٰ شمولية هذا النفي فقال: «﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ نَفْيٌ عامٌّ، ولذلك نُصِبَ الرَّيْب به»[١]، أي أن الله أزال كل احتمالات الشك، فجعل القرآن وحيًا قطعي الثبوت، كامل الهداية، محفوظًا من أي تحريف أو باطل، لا يتردد فيه إلا من أُشرب في قلبه الضلال، ولا يهتدي به إلا من شرح الله صدره للحق.

وقال أبو حيان الأندلسي: «ونفي الريب يدل علىٰ نفي الماهية، أي ليس مما يحله الريب ولا يكون فيه»[٢].

وقال السعدي: «﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ لا شكَّ بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه، يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشكِّ اليقين، فهذا الكتاب مشتمل علىٰ علم اليقين المزيل للشكِّ والرَّيب، وهذه قاعدة مفيدة، أنَّ النَّفي المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمنًا لضده، وهو الكمال، لأنَّ النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه»[٣].

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٥٩).

(٢) البحر المحيط في التفسير (١/ ٦٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٠).

وهذا النفي العام للريب فُصِّل في مواضع متعددة من القرآن الكريم من ذلك:

نفي الريب عن مصدر القرآن:

نُفي الريب عن مصدره، إذ بيَّن الله أنه منزل من عنده، المتصف بالكمال المطلق، والمنزه عن النقص، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس:٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة:٢، ٣].

وكذلك نُفي الريب عن هدايته وإرشاداته، فأخباره كلها صدق، وأحكامه كلها عدل، وهديه قويم لا عوج فيه، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود:١٧]، وقال تعالىٰ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢].

قال السعدي: «﴿هُدًى﴾ حذف المعمول، فلم يقل: هدىٰ للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني؛ لإرادة العموم، وأنَّه هدىٰ لجميع مصالح الدَّارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفرعية، ومبيِّن للحقِّ من الباطل، والصَّحيح من الضَّعيف، ومبيِّن لهم كيف يسلكون الطُّرق النَّافعة لهم، في دنياهم وأخراهم»[(١)].

كما نُفيت عن القرآن كل سبل التحريف والتبديل، فلا يختلط به باطل، ولا يقدر أحد علىٰ تغييره أو تحريفه؛ لأنَّ الله تعالىٰ تكفَّل بحفظه، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٠).

قال ابن جرير: «﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ قَالَ: «وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل مَّا ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١،٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف:٢٧].

ولإثبات إعجازه، وقطع كل شبهة لمن يرتاب فيه، تحدىٰ الله الناس بالإتيان بمثله، فعجزوا عن ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٣،٢٤]، فهذه الحجَّة البيِّنة هي «آية كبرىٰ، ودليل واضح جلي علىٰ صدقه وصدق ما جاء به، فيتعيَّن عليكم اتباعه...هذه الآية ونحوها يسمونها آيات التَّحدي، وهو تعجيز الخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن»[2].

وهذا النفي التام للريب عن القرآن الكريم يستلزم كماله من كل وجه، وخلوه من أي نقص أو عيب، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف:١، ٢].

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٥).

قال السَّعدي:«وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين علىٰ أنَّه الكامل من جميع الوجوه، وهما نفي العوج عنه، وإثبات أنَّه قيِّم مستقيم، فنفي العوج يقتضي أنَّه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث، وإثبات الاستقامة، يقتضي أنَّه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجلِّ الإخبارات، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيمانًا وعقلًا، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدِّمة والمتأخِّرة، وأنَّ أوامره ونواهيه تزكِّي النُّفوس وتطهِّرها وتنمِّيها وتكمِّلها، لاشتمالها علىٰ كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبوديَّة لله ربِّ العالمين وحده لا شريك له »[1].

وبهذا، يظهر أنَّ نفي الريب عن القرآن ليس مجرد تأكيد لمصدره الرباني، بل هو برهان علىٰ كمال هدايته في شؤون الحياة جميعها، ونفي لكلِّ شبهة قد تعترض سبيل الاستفادة منه، فهو المصدر الأوحد للهداية الحقَّة، والطريق المستقيم لصلاح الأفراد والمجتمعات.

رابعًا: الاهتداء بالقرآن الكريم فريضة إلهية ملزمة:

ممَّا يدلُّ علىٰ منزلة الاهتداء بالقرآن الكريم وأهميَّته أنَّ الله تعالىٰ فرض علىٰ عباده اتباعه، والتمسك بهديه، والتحاكم إليه، والرضا به، والتسليم لما جاء فيه دون حرج أو تردد. وقد وردت عشرات الأدلة علىٰ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [القَصَص : ٨٥]،«أي أنزله عليك وفرض عليك تلاوته وتبليغه

(١) المرجع السابق (ص: ٤٦٩).

والعمل بما فيه، ﴿لَرَآدُّكَ﴾ أي لمرجعك ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ وهو العودة إلىٰ مكة بعد خروجك منها واشتياقك إلىٰ العودة إليها وإلىٰ الجنَّة بعد وفاتك؛ لأنَّك دخلتها ليلة عُرج بك إلىٰ السماء وفي هذا تقرير لنبوته ﷺ بالوحي إليه»[1]. أي أنَّه أنزل عليك القرآن وألزمك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه.

وقال تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣]، والذي أنزله الله تعالىٰ يشمل الكتاب والسنة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النِّسَاء : ١١٣] ، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر:٥٥]، وقال تعالىٰ مخاطبًا خير الخلق وإمام المرسلين بقوله: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:٤٣-٤٤] .

وقال تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٠٦]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٨، ١٠٩].

قال ابن كثير:«أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك واصبر علىٰ مخالفة من خالفك من الناس حتىٰ يحكم الله أي يفتح بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ، أي خير الفاتحين بعدله وحكمته.»[2].

(١) أيسر التفاسير للجزائري (٤/ ١٠٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦١).

وقال ابن تيمية: «من أعظم ما أنعم الله به عليهم: اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان: أنَّه لا يُقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه، ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجده؛ فإنَّهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيَّات، والآيات البيِّنات أنَّ الرسول جاء بالهدىٰ ودين الحق، وأنَّ القرآن يهدي للتي هي أقوم، فيه نبأ من قبلهم، وخبر ما بعدهم، وحكم ما بينهم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم... مَن قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلىٰ صراط مستقيم. فكان القرآن هو الإمام الذي يُقتدىٰ به، ولهذا لا يُوجد في كلام أحد من السلف أنَّه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس، ولا بذوق ووجد ومكاشفة، ولا قال قط قد تعارض في هذا العقل والنقل»[1].

وقد ذمَّ الله تعالىٰ في كتابه الذين يكتفون بتلاوة القرآن دون فهمه والعمل به، قال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٥].

قال القرطبي: «وفي هذا تنبيه من الله تعالىٰ لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه، لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء»[2].

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٢٨، ٣٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٩٤).

فالاهتداء بالقرآن فرض في الجملة، ومنه ما هو فرض عين علىٰ كل مسلم ومسلمة، وهو ما يتعلم به فرائض أصول الدين في العقائد والعبادات، إذ لا تتم العبادات إلا به، مثل: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج. ومنه ما هو فرض كفاية، كتعلُّم أحكام المعاملات والتشريعات التفصيلية. ومنه ما هو مندوب، وهو ما يوصل إلىٰ فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق.

خامسًا: عناية القرآن الكريم بالاهتداء باعتبارها المقصد الأسمى:

اعتنىٰ القرآن الكريم بموضوع الاهتداء عناية بالغة، إذ جعله الغاية العظمىٰ من الوحي، والأساس الذي تقوم عليه عقيدة المسلم وسلوكه، وقد تجلّت هذه العناية في آيات كثيرة، تناولت مفهومه، وأسبابه، ووسائله، ونتائجه، والعوائق التي تحول دونه، كما جعل القرآن قضية الاهتداء أساسًا لكل إصلاح فردي أو اجتماعي، وأكّد علىٰ أنَّ الهداية لا تُنال إلا من عند الله، ولا يكون السبيل إليها إلا باتباع ما أنزله في كتابه العزيز، إليك بعض الوجوه التي يتجلَّىٰ فيها عناية القرآن بهذا الموضوع؛ **من ذلك:**

جعل الله تعالىٰ موضوع الاهتداء همًّا يشغل المؤمن طيلة حياته، ودعاء يردِّده في سائر يومه؛ بل في كلِّ ركعة في صلاته من خلال ما جاء عن أعظم دعاء في القرآن في سورة الفاتحة في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، وهذا التكرار اليومي يدل علىٰ مدىٰ حاجة الإنسان المستمرة للهداية، إذ لا يمكنه الاستغناء عنها في أي مرحلة من حياته.

وبيَّن لعباده أنَّه وحده الذي يملك مصادر الهدىٰ، ويهدي من يشاء من عباده، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس:٣٥]، وبيَّن أنَّها من أعظم النعم التي يمنّ بها علىٰ الإنسان، فقال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحُجُرَات: ١٧]، ممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ الاهتداء هو أعظم عطاء رباني للإنسان.

وبيَّن لعباده أنَّ الهداية التي بمعنىٰ الإرشاد والدَّلالة لصراطه المستقيم لا تكون بغير ما أنزله الله تعالىٰ في كتابه، قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة:١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء:١٧٤، ١٧٥]، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] فهو المصدر الوحيد للحق الذي لا يضلّ من استمسك به.

وبيَّن حرمانه الهداية لمن لم يؤمن به، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل:١٠٤]، ووصف كل معرض عن هدي كتابه بالجهل والهوىٰ والظلم، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٥٠]، وبيَّن خطورة من أعرض عن هدي كتابه، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف:٥٧].

وبيَّن أنَّ الهداية هي قضيَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأولىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ [الفتح:٢٨]، وهي القضيَّة البارزة في عقول أهل العلم من بعده، قال تعالىٰ: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [سبأ:٦]، وهي سبيل المؤمنين الذي من حاد عنه خسر خسرانًا مبينًا، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥].

وجعل القرآن الكريم الاهتداء شرطًا أساسًا لنجاة الإنسان وسعادته، فبه تنال الطمأنينة في الدنيا والنجاة في الآخرة، فقال تعالىٰ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة:٣٨]، وجعل التخلي عن الاهتداء بكتاب الله تعالىٰ سببًا في الشقاء والضياع، فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾ [طه: ١٢٤] ، أي إنَّ الإعراض عن هدي القرآن يؤدي إلىٰ حياة مليئة بالضيق والتعاسة.

ولم يقتصر العناية بالاهتداء بالقرآن علىٰ مستوىٰ الأفراد فقط، بل جعله الله منهجًا شاملًا للأمم والمجتمعات في المجالات شتىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [النَّحل : ٨٩] ، أي إنَّ القرآن يحقق الهداية في العقيدة، والعبادة، والمعاملات، والسياسة، والاقتصاد، وغيرها من المجالات.

وهكذا، يتجلّىٰ بوضوح سعة عناية القرآن الكريم بموضوع الاهتداء، حيث جعله محور الدين، وغاية الرسالات، وأساس السعادة في الدنيا والآخرة، ولم تقتصر عنايته بها علىٰ الأفراد، بل امتدت لتشمل إصلاح المجتمعات، فعنايته بها واسعة وعميقة، وتشمل أبعاده كافَّة، لتكون نورًا يُبدّد ظلمات الجهل، وصراطًا مستقيمًا يقود إلىٰ الحق والرشاد.

سادسًا: الاهتداء بالقرآن الكريم وأثره في بناء الحياة الفاضلة:

لقد أحدث القرآن الكريم عبر التاريخ أعظم تحوُّل شهدته البشرية في بناء الإنسان والمجتمع، علىٰ وجهٍ لم يصنعه كتاب قبله ولا بعده، فهو لم يكن مجرد كلمات مقدسة تردد تراتيلها؛ بل كان مشروعًا حضاريًّا شاملًا، أسس أمَّة عظيمة علىٰ ركائز متينة من الإيمان والعلم والعدل، ولم يكن تأثيره محدودًا بجيل معيَّن، بل امتدَّ أثره ليشكِّل هوية الأمَّة الإسلامية وعزَّتها وسر نهضتها في كل زمان ومكان، فقد أرسىٰ من خلال توجيهاته أسس النهضة الروحية والأخلاقية والاجتماعية، وكان المصدر الأول في صناعة الإنسان الأكمل والمجتمع الأمثل، وفيما يلي أبرز الآثار التي أحدثها الاهتداء بالقرآن الكريم في مختلف مجالات الحياة.

١/ توحيد الأمَّة والقضاء علىٰ الفرقة:

جاء القرآن الكريم ليؤسس وحدة الأمَّة الإسلامية علىٰ أساس العقيدة الصحيحة والمنهج السليم، متجاوزًا بذلك ما كانت عليه من النزاعات القبلية والعرقية وغيرها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣]، ولا يمكن أن تتحقق وحدة حقيقيَّة للأمَّة دون توحيد المرجعيَّة العقديَّة والفكريَّة، وقد استطاع القرآن الكريم من خلال توجُّهاته الحاسمة في موضوع الاجتماع وتوحيد الكلمة، ومحاربته لكل ما يؤدِّي إلىٰ البغضاء والنزاع والفرقة، أن يجمع بين قبائل العرب المتناحرة، ويحولّهم إلىٰ أمَّة واحدة تحت راية الإسلام.

فالاهتداء بالقرآن هو السبيل لوحدة الأمة، ويمنعها من أعظم الأسباب التي تورث الضعف والفشل والانهيار، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الانفال:٤٦].

٢/ تحقيق قوَّة الأمَّة ونهضتها العلمية ونصرتها:

لقد شهد التاريخ أنَّ الأمَّة الإسلامية بلغت أوج قوَّتها يوم جعلت القرآن دستورها، وحين تخلَّت عنه، تفرَّقت كلمتها وضعفت شوكتها. فالاهتداء بالقرآن ليس مجرد مسألة روحية، بل هو مفتاح النهضة والعزة والنصر، الذي لا يمكن تحقيقه إلا بالتمسك به منهجًا وسلوكًا وحكمًا، قال تعالىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفُرْقَان : ٣١]، فحسبك بربك هاديًا، فهو الذي يُوصل عباده إلىٰ سبل الحق، ويمنحهم التوفيق للسير فيها، فإذا تولاهم بهدايته، تولّاهم بنصره؛ إذ الهداية مفتاح النصر، ومن اهتدىٰ بالله أعانه الله.

فالقرآن الكريم لم يكن مجرد مصدر للهداية التعبدية، بل كان القوة الدافعة وراء النهضة العلمية والفكرية، وحافزًا رئيسًا للإبداع المعرفي والتطور الحضاري التي غيرت مجرىٰ التاريخ. فهو الذي أخرج البشرية من ظلمات الجهل والتخلف إلىٰ نور المعرفة والعلم، فغرس في النفوس قيمة التعلم والبحث والتدبر، حيث وجَّه الأمَّة من أول يوم نحو العلم والتعلم، فكان أول ما نزل قوله تعالىٰ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العَلَق : ١ - ٥] ، لتكون أولىٰ كلمات الوحي دعوة صريحة للقراءة والتعلم.

ودعا المسلمين للتفكر في آيات الله في الأنفس والكون، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يُونُس : ١٠١] ، وقال تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذَّارِيَات:٢١]، فالقرآن الكريم لا ينفك يربط الإيمان بالعلم، ويحث علىٰ التأمل والتفكر في الكون والنفس والآفاق، ويربي العقل علىٰ الدلائل والبراهين، ويحارب الأوهام والظنون، كما قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فُصِّلَت : ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البَقَرَة : ١١١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يُونُس : ٣٦]، ما دفعهم لاستكشاف العلوم المختلفة، مثل: الفلك والطب والهندسة، والرياضيات فضلًا عن الفقه واللغة وغيرها التي كانت القرآن سر نهضتها وتطورها، وكانت مدن مثل: بغداد وقرطبة ودمشق، منارة للعالم في مختلف المجالات. كما كانت المكتبات الإسلامية مركزًا

لنقل العلم إلىٰ أوروبا، ممَّا أضاء عصور الظلام وأسهم في نهضة الفكر الغربي، ومن هنا، كان القرآن ولا يزال مصدرًا رئيسًا للإبداع المعرفي، ومفتاحًا لتطور حضاري أثَّر في العالم أجمع.

فالاهتداء بالقرآن هو السبيل لقوة الأمَّة ونهضتها وعزتها، إذ يمنحها أسباب النصر والتمكين، ويجعلها قادرة علىٰ مواجهة التحديات والانتصار في ميادين الحياة؛ إذ يجعلها في ولاية الله، فيحفظها وينصرها، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [مُحَمَّد : ٧]، كما أن الابتعاد عن القرآن الكريم هو سبب الضياع والتخلف والخذلان؛ لأنَّ الأمَّة حين تستبدل بكتاب الله مناهج أخرىٰ، تتفرَّق كلمتها، وتفقد ولاية الله ونصره، ولا يمكن لأمَّة غابت هويَّتها واتَّبعت غيره أن تحقق نصرًا عظيمًا في حياتها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [البقرة:١٢٠]، فانظر عاقبة ترك الاهتداء بالقرآن كيف يكون سببًا لفقد ولاية الله تعالىٰ ونصرته، وهي تدل بمفهوم المخالفة أنَّ الاهتداء بالقرآن الكريم والتمسك به هو أعظم أسباب النصر والتمكين.

٣/ بناء مجتمعات يظللها الأمن والاستقرار والسعادة:

القرآن الكريم هو مصدر الطمأنينة والسعادة الحقيقية، فهو يرشد الإنسان إلىٰ طريق الأمن والراحة النفسية، ويضمن للمهتدين به السلامة من الخوف والقلق في الدنيا، والفوز والنجاة في الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البَقَرَة : ٣٨] .

قال البغوي: «فلا خوف عليهم فيما يستقبلهم ولا هم يحزنون علىٰ ما خلفوا، وقيل: لا خوف عليهم في الدنيا، ولا هم يحزنون في الآخرة»[1].

لقد أثبت الواقع أنَّ المجتمعات التي التزمت بتعاليم القرآن الكريم عاشت في ظل العدالة والاستقرار والرخاء، وعانت المجتمعات التي ابتعدت عنه من الفوضىٰ والاضطراب وضيق العيش، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٣، ١٢٤].

فالقرآن لا يحقق الأمن علىٰ مستوىٰ الأفراد فحسب، بل يبني مجتمعات مستقرة يسودها التعاون والتراحم، ويزرع في النفوس السكينة، ويقودها إلىٰ الرشاد والنجاح، وهو المفتاح الحقيقي لتحقيق الأمن الفردي والمجتمعي، والضمان الأكيد للسعادة في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة، والله تعالىٰ لا يخلف الميعاد.

٤/ تحقيق العدالة الاجتماعية وصون الحقوق:

جاء القرآن الكريم بتشريعات تضمن تحقيق العدل بين جميع أفراد المجتمع، وتصون الحقوق علىٰ اختلاف أنواعها، وجعل الله العدل أساسًا تقوم عليه الحياة السوية، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النَّحل : ٩٠]. كما جعله مبدأً ثابتًا في الحكم بين الناس بغض النظر عن اختلاف أعراقهم أو أديانهم، فقال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النِّسَاء : ٥٨] .

(١) معالم التنزيل (١/ ١٠٨).

وقد تجسدت هذه القيم العظيمة في سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخلفاء الراشدين من بعده، حيث أقاموا دولًا علىٰ مبادئ العدل والمساواة، دون تفرقة بين غني وفقير، أو قوي وضعيف، إدراكًا منهم بأنَّ العدل هو أساس استقرار المجتمعات وازدهارها، وبه تُصان الحقوق وتُحفظ كرامة الإنسان.

كما أنَّ القرآن أرسىٰ قواعد العدل في مختلف جوانب الحياة، من القضاء إلىٰ المعاملات الاقتصادية، ومن العلاقات الأسرية إلىٰ الحقوق السياسية، ممَّا جعل المجتمعات الإسلامية - حين التزمت به - نموذجًا يُحتذىٰ به في الإنصاف وحماية الحقوق، بخلاف المجتمعات التي ابتعدت عن تعاليمه فانتشر فيها الظلم، وسادها الاضطراب والتسلط.

فالاهتداء بالقرآن هو الضمان الحقيقي لتحقيق العدالة الاجتماعية، وهو السبيل لبناء مجتمع يسوده الأمن والاستقرار؛ حيث يأخذ كل فرد حقه دون ظلم أو تمييز.

٥/ ترسيخ الأخلاق الفاضلة وبناء النظم الاجتماعية والسياسية الراقية:

يُعدّ القرآن الكريم المصدر الأعظم للأخلاق والقيم الإنسانية التي تسمو بالإنسان، وتحقق له الحياة الكريمة القائمة علىٰ المروءة والنزاهة، فقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القَلَم : ٤] ، ليكون النموذج الأكمل في تطبيق الأخلاق التي يدعو إليها القرآن. كما جعل القرآن مكارم الأخلاق من أهم مقاصده، فحث علىٰ الصدق، والأمانة، والعفو، والرحمة، والإحسان، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ ﴾[النحل: ٩٠].

وقد شهد التاريخ أنَّ الأمم التي التزمت بتعاليم القرآن في الأخلاق والسلوك، كانت نموذجًا يُحتذىٰ به في الرحمة، والعدل، والصدق، والأمانة، أمَّا المجتمعات التي ابتعدت عنه فساد فيها الفساد والظلم والكذب والخيانة، ممَّا أدَّىٰ إلىٰ انهيارها وضعفها.

ولم يقتصر أثر القرآن علىٰ بناء الأخلاق الفردية، بل امتدّ ليضع أرقىٰ النظم الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية التي تحقق التوازن والاستقرار في المجتمع. ففي الجانب الاجتماعي، أرسىٰ القرآن مبادئ التكافل والتعاون بين أفراد المجتمع، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾[المائدة: ٢].

أمَّا في الجانب السياسي، فقد أرسىٰ القرآن مبادئ العدل والشورىٰ في الحكم، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورىٰ: ٣٨]، وجعل طاعة أولي الأمر مقيدة بالحق والعدل، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[النساء: ٥٩].

وفي الجانب الاقتصادي، وضع القرآن الكريم أسسًا للاقتصاد العادل من خلال منع الاحتكار والربا، لضمان معاملة عادلة بين الأفراد، ممَّا يعزِّز التوازن الاقتصادي ويكافح الظلم، قال تعالىٰ: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ﴾ [الحشر: ٧]، مشيرًا إلىٰ ضرورة تحقيق العدالة في توزيع الأموال، كما شرع الزكاة والصدقات؛ لتقوية أواصر التكافل وتقليص الفوارق الاقتصادية بين فئات المجتمع، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠].

وهكذا، فإنَّ الهداية القرآنية لم تقتصر علىٰ تزكية النفوس وتوجيه الأفراد، بل امتدت إلىٰ بناء مجتمع متكامل يسوده العدل، والأخلاق، والتوازن، في مختلف جوانب الحياة.

فالخلاصة:

القرآن الكريم كان وما زال مصدرًا حاسمًا في بناء أمَّة إسلامية قوية ومزدهرة، حيث وحَّد الأمَّة علىٰ أساس العقيدة الصحيحة، وأرسىٰ مبادئ العدل والعلم، وأسهم في نهضة علمية هائلة؛ حيث دفع المسلمين لاكتشاف العلوم التي أثَّرت في الحضارة الغربية، كما كان مرشدًا لتحقيق الأمن والاستقرار، حيث أرسىٰ قواعد العدالة الاجتماعية، وحفظ الحقوق، بالإضافة إلىٰ ذلك، وضع القرآن أسسًا لنظم اجتماعية واقتصادية متوازنة، ممَّا أسهم في بناء مجتمع متماسك ومتقدم في شتىٰ المجالات.

سابعًا: عاقبة الإعراض عن الاهتداء بالقرآن ضلال وشقاء:

الإعراض عن الاهتداء بالقرآن الكريم يؤدِّي إلىٰ الخسران والشَّقاء والعنت والضيق في حياة الإنسان، قال تعالىٰ: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٨]، فقد بيَّن القرآن الكريم في أكثر من موضع عواقب هذا الإعراض الذي من أعظمه حرمان الهداية، والوقوع في أكبر أنواع الظلم، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن

﴿تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۚ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:١٥٧]، فهو من أعظم الظلم والفساد، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد : ٢٦] فهو ظلم وفساد عريض؛ لأنَّه يعد جحودًا ورفضًا لما جاء به القرآن الكريم من هداية.

وقال تعالىٰ كذلك في بيان ما يترتب علىٰ الإعراض من سوء العذاب: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢]، وقد أكَّد العلماء في تفاسيرهم لهذه الآية علىٰ أنَّ الإعراض عن القرآن من أكبر الجرائم التي يستحق صاحبها أشدّ أنواع العذاب في الآخرة.

قال القرطبي: «أي لا أحد أظلم لنفسه ممَّن وعظ بآيات ربه، فتهاون بها وأعرض عن قبولها»[(١)].

وقال ابن كثير: «أي: لا أظلم ممَّن ذكَّره الله بآياته وبيَّنها له ووضَّحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها، كأنَّه لا يعرفها... ولهذا قال تعالىٰ متهددًا لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي: سأنتقم ممَّن فعل ذلك أشد الانتقام»[(٢)].

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٣٠).

وقال الشَّوكاني:«أي: لا أحد أظلم منه؛ لكونه سمع من آيات الله ما يوجب الإقبال علىٰ الإيمان والطاعة، فجعل الإعراض مكان ذلك، والمجيء بـ(ثمَّ) للدلالة علىٰ استبعاد ذلك، وأنَّه ممَّا ينبغي أن لا يكون ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي: من أهل الإجرام علىٰ العموم، فيدخل فيه من أعرض عن آيات الله دخولًا أَوَّلِيًّا»[1].

وقال السعدي:«أي: لا أحد أظلم، وأزيد تعديًا، ممَّن ذُكِّر بآيات ربه، التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته علىٰ أيدي رسله، تأمره وتذكِّره مصالحه الدينية والدنيوية، وتنهاه عن مضارِّه الدِّينية والدنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتَّسليم، والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظَّالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها، ولا اتَّبعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد النقمة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾»[2].

وعواقب الإعراض ليست محصورة في الآخرة فحسب، بل يجد العبد تبعتها في الدنيا أيضًا قبل الآخرة، حيث يعيش المعرضون عن الاهتداء بالقرآن في ضيق وقلق دائمين، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٩٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٥٦).

فالإعراض عن الاهتداء بالقرآن يحرم العبد بسببه مغانم الدنيا والآخرة، قال ابن القيم: «سبحان الله! ماذا حُرم المعرضون عن نصوص الوحي واقتباس العلم من مشكاتها من كنوز الذّخائر! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر! قنعوا بأقوالٍ استنبطها معاولُ الآراء فِكَرًا، وتقطَّعوا أمرهم بينهم لأجلها زُبُرًا. وأوحىٰ بعضهم إلىٰ بعضٍ زخرف القول غرورًا، فاتّخذوا لأجل ذلك القرآن مهجورًا، درست معالم القرآن في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، ووقعت ألويته وأعلامه من أيديهم فليسوا يرفعونها، وأفَلَتْ كواكبُه النيِّرة من آفاق نفوسهم فلذلك لا يحبُّونها، وكسَفت شمسُه عند اجتماع ظُلَمِ آرائهم وعُقَدِها فليسوا يبصرونها... أفيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوُّع الأشكال؟ أو بالإشارات والشطحات، وأنواع الخيال؟ هيهات والله، لقد ظنَّ أكذب الظنّ، ومنَّته نفسه أبين المحال، وإنَّما ضمنت النجاة لمن حكَّم هدىٰ الله علىٰ غيره، وتزوَّد التقوىٰ وائتمَّ بالدليل، وسلك الصراط المستقيم، واستمسك من الوحي بالعروة الوثقىٰ التي لا انفصام لها والله سميع عليم»[1].

ثامنًا: الاهتداء بالقرآن سبيل لعلاج علل المجتمعات:

تواجه الأمَّة المسلمة اليوم أزمات متعددة تهدد كيانها واستقرارها، من انتشار العقائد الباطلة، وانحراف الفكر، وفساد السلوك، لا سيَّما بين الشباب، أدت إلىٰ تفشي الفرقة والصراعات والعداءات والحروب التي مزَّقت أوصالها، حتىٰ أصبح الإسلام الصَّحيح غريبًا بين أهله.

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٨ - ٣٠).

وأمام هذا الواقع المؤلم، تتوالىٰ محاولات المصلحين لإعادة مجد الأمَّة من خلال اجتهادات فردية وجماعية، يرفع أصحابها شعارات مختلفة دعوية واجتماعية وجهادية وسياسية وغيرها، لكنَّ بعضهم يغفل عن حقيقة جوهرية: هو أنَّ أي مشروع لمعالجة علل الأمة والقيام بما يحقق نهضتها إذا لم يستند إلىٰ الاهتداء بالقرآن الكريم مصيره الفشل، ويكون كالسراب الذي يحسبه الظمآن ماءً، فإذا جاءه لم يجده شيئًا.

إنَّ الأمَّة اليوم، بل والعالم أجمع، بحاجة ماسّة إلىٰ منهج متكامل يعيد التوازن إلىٰ الحياة البشرية، منهج يعالج الفكر، ويزكي النفس، ويقيم العدل، ولا يمكن أن يكون هذا المنهج إلَّا في القرآن الكريم، الذي جعله الله هداية ورحمة وشفاءً لكلِّ داء. **ويتجلىٰ أثر الاهتداء به في علاج علل الأمَّة من زوايا متعددة، منها:**

١/ القرآن منهج إصلاح شامل:

من أعظم ما يميز القرآن الكريم أنَّه كتاب يحمل تصوُّرات محكمة لمنهج حياة متكامل يعالج من خلاله كل مشكلاتها، هو يتعامل مع الإنسان من جميع زواياه الروحية والعقلية والنفسية والجسدية، فيزكي روحه، ويرشد عقله، ويهذب أخلاقه، وينظم سلوكياته، فهو يقيم العقل علىٰ أسس متينة من التفكير السليم، فيحثه علىٰ التفكر والتأمل، ويحرره من الخرافات والجهل، ويضع له مبادئ اليقين القائم علىٰ البرهان والدليل، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا

يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [البَقَرَة : ١٦٤] ، كما أنَّه يزكي النفس ويطهرها من الأهواء والشهوات المدمرة، قال تعالىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [آل عِمْرَان : ١٤ – ١٥].

ولذلك فإنَّ الأمم والمجتمعات التي تهتدي بتعاليم القرآن تجد نفسها في حالة من الاستقرار النفسي والفكري، علىٰ عكس تلك التي تعيش في ظلمات الشك والضياع.

٢/ القرآن شفاء القلوب من أمراض الشبهات والشهوات:

القلب هو مركز التوجيه في الإنسان، فإذا صلح القلب صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)[1]، والقرآن هو أعظم دواء لشفاء القلوب من أمراضها، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يُونُس : ٥٧] .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم الحديث ٥٢)، ومسلم في صحيحه (كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم الحديث ١٥٩٩).

قال ابن عاشور:«والشفاء حقيقته زوال الداء، ويستعمل مجازًا في زوال ما هو نقص وضلال وعائق عن النفع من العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة والأخلاق الذميمة تشبيهًا له ببرء السقم»[1].

وقال ابن القيم:«فهو شفاء للقلوب من داء الجهل، والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعمّ ولا أنفع، ولا أعظم، ولا أسرع في إزالة الداء من القرآن»[2].

فأمراض القلوب تنقسم إلىٰ نوعين:

أمراض الشبهات: وهي الأفكار والمعتقدات الباطلة التي تضلل الإنسان، كالإلحاد والشكوك في الدين والتشكيك في الحقائق الثابتة. وهذه الأمراض لا يعالجها إلَّا القرآن، لأنَّه يقدِّم الحقائق بأسلوب يقيني لا يدع مجالًا للريبة، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[الأنعام : ١٠٤ – ١٠٥].

أمراض الشهوات: وهي النزعات والرغبات الجامحة التي توقع الإنسان في المعاصي والآثام، مثل: حب المال، والسلطة، والطغيان والغرور، والشح والبخل والأنانية والحقد والحسد وغيرها من أمراض. والقرآن يعالج هذه الأمراض بإحياء الضمير، والتذكير بالمصير، وربط الإنسان بخالقه، قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشَّمْس : ٧ – ١٠].

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٨٩).

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص: ٨).

٣/ القرآن سبيل شفاء المجتمعات وإصلاحها:

المجتمعات المسلمة اليوم تعاني من مشكلات اجتماعية كبيرة، مثل انتشار الظلم، والفساد، والعنف، والانقسامات الطائفية، والحروب القبلية، والاختلافات الحزبية. والسبب الرئيس لهذه الأزمات هو الابتعاد عن هداية القرآن، الذي جاء لينظم حياة المجتمعات علىٰ أساس العدل والرحمة. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[النَّحل : ٩٠].

إنَّ نهضة الأمَّة وريادتها لا يمكن أن تتحقق إلَّا بالعودة الصادقة إلىٰ الاهتداء بالقرآن الكريم، فهو المصدر الأصيل للهداية والرقي. ومع ذلك، من المؤسف أن نجد بعض أبناء الأمَّة، خصوصًا ممَّن درسوا وعاشوا في الغرب، وقد انبهروا ببريق الحضارة المادية، يدعون علنًا إلىٰ التَّخلِّي عمَّا تبقَّىٰ من هدىٰ القرآن، ظنًّا منهم - وبسبب جهلهم - أنَّ تمسك الأمَّة بدينها هو سبب تخلفها، وهم يغفلون عن حقيقة ساطعة أثبتها التاريخ، وهي أنَّ الأمَّة الإسلامية بلغت ذروة حضارتها وازدهارها عندما تمسكت بالدين الحق، فانبثقت ينابيع الخير من أيديها، وسادت العالم بالعدل والعلم، وكانت هاديًا للبشرية نحو برِّ الأمان.

٤/ القرآن رحمة للعالمين وليس للمسلمين فقط:

قد يظنّ البعض أنَّ تأثير القرآن مقتصر علىٰ المسلمين فقط، ولكن الحقيقة أنَّ القرآن رسالة عالمية، تهدف إلىٰ تحقيق العدل والرحمة للبشرية

جمعاء، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، والتاريخ يشهد أنَّ غير المسلمين عندما اقتربوا من تعاليم الإسلام، وجدوا فيها الحلول لمشاكلهم، كما اعترف بذلك العديد من المفكرين الغربيين الذين تأملوا في تعاليم القرآن المتعلقة بالعدالة الاجتماعية، والاقتصاد، والتعامل الإنساني.

إنَّ الاهتداء بالقرآن ليس مجرد خيار، بل هو ضرورة ملحَّة لإنقاذ البشرية من الضياع، وإعادة الأمَّة الإسلامية إلىٰ مكانها الرِّيادي في العالم. فهو الكتاب الذي يحيي القلوب، وينير العقول، ويصلح المجتمعات، ويحقق السعادة والطمأنينة. فليكن شعارنا دائمًا: «بِالْقُرْآنِ نَحْيَا، وَبِهِ نَنْهَضُ».

تاسعًا: الاهتداء بالقرآن حصن من الضلال والانحراف:

القرآن الكريم هو حبل الله المتين الذي يعصم من اهتدىٰ به من الضلال والانحراف، ويهديه إلىٰ طريق الاستقامة، قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المَائِدَة: ١٥ - ١٦].

وقد جاء عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاتَّبَعَ مَا فِيهِ هَدَاهُ اللهُ مِنَ الضَّلَالَةِ فِي الدُّنْيَا، وَوَقَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْحِسَابَ) قَالَ: «فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه:١٢٣]»[1].

(١) انظر: تفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٧٩)، وجامع البيان، لابن جرير الطبري (١٨/ ٣٨٩).

وعن الشعبي أنَّه قال:«أجار الله تعالىٰ من تبع القرآن، وعمل بما فيه أن يضل أو يشقىٰ، ثم تلا هذه الآية»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٤،١٧٥].

قال ابن كثير في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمًا﴾ »أي: طريقًا واضحًا قصدًا قوامًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا علىٰ منهاج الاستقامة وطريق السَّلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة علىٰ صراط الله المستقيم المفضي إلىٰ روضات الجنَّات»[2].

وقال السعدي:«أي: يوفِّقهم للعلم والعمل، معرفة الحقِّ والعمل به. أي: ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسَّك بكتابه، منعهم من رحمته، وحرمهم من فضله، وخلَّىٰ بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالًا مبينًا، عقوبة لهم علىٰ تركهم الإيمان فحصلت لهم الخيبة والحرمان، نسأله تعالىٰ العفو والعافية والمعافاة»[3].

---

(١) تفسير القرآن، السمعاني (٣/ ٣٦١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٨١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٢١٧).

ولذلك، فإنَّ أيّ مجتمع يُعرض عن هدىٰ القرآن، فإنَّه يقع في دوامة الانحرافات الأخلاقية والفكرية، ويغرق في ظلمات الجهل والاضطراب، فالاهتداء بالقرآن عصمة من الضَّلال.

عاشرًا: الاهتداء بالقرآن الكريم رحمة وفوز ونجاة:

إنّ الاهتداء بالقرآن الكريم لا يقتصر أثره علىٰ الهداية إلىٰ الحق والمعرفة والرشاد في الدنيا، بل يمتد أثره الأعظم إلىٰ الآخرة، حيث يكون سببًا للفوز برحمة الله ورضوانه، ومفتاحًا لنيل جنّاته والنجاة من عذابه.

وقد دلّت نصوص الكتاب والسنة دلالة واضحة علىٰ ما يترتب علىٰ الاهتداء بالقرآن من مغانم عظيمة في الآخرة، يمكن إجمالها في ثلاثة مقاصد كبرىٰ:

١/ نيل رحمة الله تعالىٰ ورضوانه:

إنَّ من ما يترتب علىٰ الاهتداء بالقرآن الكريم نيل رحمته ورضوانه، قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

قال الأستاذ محمد رشيد رضا: «أي فاتبعوا ما هداكم إليه، واتقوا ما نهاكم عنه وحذَّركم إيَّاه؛ لتكون رحمته تعالىٰ مرجوَّة لكم في الدنيا والآخرة، فإنَّ الكتاب هدىٰ ورحمة»[1].

(١) تفسير المنار (٨/ ١٨٠).

وقال السعدىٰ: ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم. ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغَّب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحث عليه، وما من شرٍّ إلا وقد نهىٰ عنه وحذَّر منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ فيما يأمر به وينهىٰ، وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ الله تعالىٰ أن تخالفوا له أمرًا ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن اتبعتموه ﴿تُرْحَمُونَ﴾ فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب، علمًا وعملًا»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤]. قال ابن جرير: «فسيدخلهم في رحمة منه وفضل»، يقول: فسوف تنالهم رحمته التي تنجيهم من عقابه، وتوجب لهم ثوابه ورحمته وجنته، ويلحَقهم من فضله ما لَحِق أهل الإيمان به والتصديق برسله[2].

٢/ الفوز بالجنة ورفعة الدرجات فيها:

إنَّ تلاوة القرآن الكريم، والتدبر في معانيه، والعمل بأحكامه، كلها أسباب لدخول الجنة ورفعة الدرجات فيها، حيث تكون منزلة العبد في الجنة بقدر ما كان يتلو ويعمل بالقرآن، وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٢٨١).

(٢) جامع البيان (٩/ ٤٢٩).

مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر:٣٢ - ٣٣].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتقِ ورتِّل كما كنت تُرتِّل في الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها»(١).

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ اللهَ يرفع بهذا الكتابِ أقوامًا، ويضعُ به آخرين»(٢).

ومن بركات الاهتداء بالقرآن أن يكون شفيعًا لصاحبه يوم القيامة، فيدافع عنه، ويكون سببًا في دخوله الجنة. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصيامُ والقرآنُ يشفعانِ للعبدِ يومَ القيامةِ، يقولُ الصيامُ: أيْ ربِّ، منعْتُه الطعامَ والشهوةَ، فشفِّعْني فيهِ، ويقولُ القرآنُ: منعتُه النومَ بالليلِ، فشفِّعْني فيهِ، قال: فيُشَفَّعانِ»(٣)، فهو مفتاح تنال به الشفاعة في الآخرة.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الوصايا، باب ما جاء في ثواب من قرأ القرآن، رقم الحديث ١٤٦٤)، والترمذي في سننه (كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل من قرأ القرآن، رقم الحديث ٢٩١٤)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلّمه، رقم الحديث ٨١٧).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (مسند عبد الله بن عمرو، رقم الحديث ٦٥٨٩)، والحاكم في المستدرك (كتاب الصوم، رقم ١١٦١) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (رقم ١٤٢٩).

وهذا دليل واضح علىٰ أنَّ الاهتداء بالقرآن ليس فقط وسيلة لحياة مستقيمة في الدنيا، بل هو أيضًا سبب للرفعة في الآخرة، حيث يكون القرآن شفيعًا لأهله، ويرفع منزلتهم في الجنة.

٣/ النجاة من النار:

قد جعل الله القرآن الكريم طريقًا للنجاة من النار، فمن آمن به ، واتَّبع أوامره، نجا من عذاب الله. قال الله تعالىٰ: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ [طه : ١٢٣ – ١٢٧].

وعن ابن مسعود أنه قال:«لو جعل القرآن في إهاب، ثم ألقي في النار ما احترق»[(١)]. فمَن تمسَّك بالقرآن وعمل به، فإنَّه يكون سببًا لنجاته من النار. فالقرآن هو الحصن الواقي من العذاب، وأنَّ من تمسَّك به كان في مأمن من غضب الله وعقابه.

إنَّ الاهتداء بالقرآن الكريم هو مفتاح الفوز برحمة الله وفضله، وسبيل إلىٰ أعلىٰ درجات الجنة، ووسيلة للنجاة من النار، وهو شفيع لصاحبه يوم القيامة، فمن أراد السعادة في الدنيا والآخرة، فليجعل القرآن قائده ونوره.

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٢٥٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (رقم ١٩٧٣)، وهو أثر موقوف علىٰ عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، وقال ابن كثير في فضائل القرآن (ص ٥٩): سنده جيد.

خلاصة مهمة:

الاهتداء بالقرآن الكريم هو أعظم ما يُصلح حياة الإنسان ويضمن له السعادة في الدنيا والآخرة؛ فهو النور الذي يهدي إلىٰ الحق، والمنهاج الذي يُقوم السلوك، والأساس الذي تُبنىٰ عليه المجتمعات الراشدة. وقد جعل الله الاهتداء به واجبًا لا خيار فيه، لما فيه من شفاء للقلوب، وبصيرة في الفتن، وعصمة من الضلال.

فالقرآن ليس كتاب هداية فردية فحسب، بل هو مشروع رباني متكامل لصناعة الإنسان الصالح والمجتمع القويم، وتحقيق الرحمة والعدل في الأرض. فمن استمسك به نجا وفاز، لأنه الطريق الوحيد إلىٰ رضا الله، وجنّته، وفضله العظيم، ومن أعرض عنه ضلّ وشقي.

إنَّ هذه الحقائق تثبت أنَّ الاهتداء بالقرآن الكريم هو الضمان الوحيد للحياة الطيبة في الدنيا، والنجاة الأبدية في الآخرة. فمن أراد النور، والاستقامة، والرحمة، والفلاح، فليجعل القرآن قائده ودليله، فمن اهتدىٰ بهدي الله لا يضلّ ولا يشقىٰ.

نسأل الله أن يجعلنا من أهل القرآن، وأن يرزقنا الاهتداء به في الدنيا، والفوز برضوانه في الآخرة.

أهمية الاهتداء بالهدى

- أولاً: منزلة الاهتداء بالقرآن الكريم في ضوء عظمته.
- ثانياً: دلالة أسماء وصفات القرآن على أهمية الاهتداء به.
- ثالثاً: نفي الريب عن القرآن برهان على كمال هدايته.
- رابعاً: الاهتداء بالقرآن الكريم فريضة إلهية ملزمة.
- خامساً: عناية القرآن الكريم بالهداية باعتبارها المقصد الأسمى.
- سادساً: الاهتداء بالقرآن الكريم وأثره في بناء الحياة الفاضلة.
- سابعاً: عاقبة الإعراض عن الاهتداء بالقرآن ضلال وشقاء.
- ثامنًا: الاهتداء بالقرآن سبيل لعلاج علل المجتمعات.
- تاسعاً: الاهتداء بالقرآن حصن من الضلال والانحراف.
- عاشراً: الاهتداء بالقرآن الكريم رحمة وفوز ونجاة.

المبحث الثالث

منطلقات الهداية في القرآن الكريم

مفهوم المنطلقات:

أولاً: في اللغة: قال ابن فارس: الطاء واللام والقاف أصل صحيح مطرد واحد، وهو يدل علىٰ التخلية والإرسال. يقال: انطلق الرجل ينطلق انطلاقا، كأنه قد خلي عنه فلم يحظر [(١)]. نقْطة انطلاق: ما يساعد علىٰ البدء بمهنة أو نشاط [(٢)].

وثانيًا: في اصطلاح هذا البحث:

تمثّل المنطلقات الرئيسة إطارًا مرجعيًّا ضابطًا لعملية الاستهداء في واقعها العملي؛ يوجّه مسارها، ويضبط حركتها، ويضمن اتساقها مع مقاصد الهداية وغاياتها الكليّة.

وعند التأمّل في الآيات القرآنية التي تناولت موضوع الهدىٰ والاهتداء، يتبيّن أنّها تضمّنت منطلقاتٍ أساسيةً لا غنىٰ عنها لبناء الفهم الراشد لهذا الموضوع؛ إذ تمثّل هذه المنطلقات ركائز معرفية وتربوية تؤسّس للتصوّر القرآني الصحيح لمسألة الهداية، وتشكّل في الوقت نفسه الأسس المنهجية التي ينبغي استحضارها عند تناول موضوع الاستهداء وتفعيله في الواقع العملي.

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس، (٣/ ٤٢٠).

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار وآخرون، (٢/ ١٤١٢).

من خلال استقراءٍ متأنٍّ للنصوص القرآنية ذات الصلة بموضوع الهداية، وِفق منهجٍ تدبريٍّ، توصّل الباحث إلىٰ سبع منطلقات مركزية تُشكّل البنية المعرفية الأساسية لفهم الاستهداء بالوحي والسير فيه علىٰ بصيرة. إذ لا يستقيم تصوّر هذا المفهوم، ولا يُبنىٰ علىٰ أسس سليمة، ما لم تُستَحضر هذه المنطلقات وتُجعل أصولًا مرجعية ملازمة في جميع مراحله؛ فهي تمثّل ركائز تأسيسية لا يُستغنىٰ عنها في أي معالجة علمية أو عملية للاستهداء الصحيح بالهدىٰ. ويمكن إجمالها علىٰ النحو الآتي:

أوَّلًا: الإيمان بالله ورسوله منطلقٌ تأسيسيّ للهداية:

يعد الإيمان بالله تعالىٰ ورسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنطلق الأول والأساس الأكبر للهداية، فهو القاعدة التي تُبنىٰ عليها تفاصيل الاستهداء بالهدىٰ، والجسر الذي يعبر به العبد إلىٰ أبواب الشريعة والعمل بمقتضاها، وهو المفتاح الذي يفتح القلوب للحق، والنور الذي يكشف ظلمات الجهل، والروح التي تحيي الفطرة الساكنة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التَّغَابُن : ١١].

قال الربيع: «إن الله تعالىٰ قضىٰ علىٰ نفسه أن من توكل عليه كفاه، ومن آمن به هداه، ومن أقرضه جازاه، ومن وثق به أنجاه، ومن دعاه أجاب له، وتصديق ذلك في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾»[1].

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٢٦/ ٥٦٩).

فالإيمان بالله ورسوله ليس مجرد نقطة بداية، بل هو محور مركزي في رحلة الهداية، فمنه تنطلق مصدرية الهدىٰ، وتستبين طرق الاستقامة، ويدفع المؤمن من دواخله إلىٰ تلقي معاني الوحي وتطبيقها، كما يمنح أوامر القرآن والسنة وتعاليمهما قداسة في قلبه، مما يجعل الامتثال لله ورسوله ﷺ سلوكًا ومنهجًا للحياة. قال تعالىٰ: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ١٥٨].

فالآية فيها بيان واضح بأن الهداية مرهونة بتحقُّق الإيمان بالله ورسوله، مقرونًا بالاتباع العملي لهدي النبي ﷺ. فقد رتّب الله الهداية في آخر الآية علىٰ ثلاثة أركان متكاملة:

الإيمان بالله: وهو أصل التلقّي، وشرط قبول الهداية.

الإيمان برسوله النبيّ الأميّ: وهو الإيمان بالواسطة التي تنزل بها الوحي وتُبيّن الحق.

اتباعه: وهو الترجمة العملية للإيمان، ومظهر صدقه.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ يدل علىٰ أن الهداية ثمرة الإيمان الصادق بالله ورسوله، ومتابعة سبيله، لا تتحقق إلا بهما.

فلا يتحقق الاهتداء بهدىٰ الله علىٰ وجهه الكامل إلا لمن ثبت الإيمان في قلبه، وترسّخت معرفته بالله ورسوله ﷺ؛ فبقدر ما يعظم الإيمان، يزداد في القلب نور الهداية، حتىٰ يبلغ العبد مراتب اليقين، فينفتح له من بصائر الحق ما يُعجز غيره عن إدراكه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾[يُونُس: ٩]، عن مجاهد في قول الله: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾، قال: يكون لهم نورًا يمشون به»[1].

(١) المصدر السابق (١٥/ ٢٨).

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النِّسَاء : ١٧٥]. تشير الآية الكريمة: إلىٰ أن الهداية التامة إلىٰ الصراط المستقيم لا تُنال إلا بتحقُّق شرطين جوهريين:

الإيمان بالله: وهو الأصل الذي يُولّد القابلية للهداية.

الاعتصام به: وهو التوكُّل والاعتماد عليه، والتمسُّك بحبله المتين (وحيه وشرعه). وقد رتّب الله جزاءً ثلاثيًا علىٰ هذين الأصلين:

رحمة منه تُطمئن القلوب،

وفضل يُضاعف فيه الأجر،

وهداية مخصوصة: «إلىٰ صراط مستقيم»، وهي هداية التوفيق والسداد.

فهذه الهداية ليست مجرّد بيان أو دلالة، بل هي ثمرةٌ ربّانية يُفيضها الله علىٰ المؤمنين المعتصمين به، ممن جمعوا بين صدق الإيمان وحسن التوكل والاعتماد، ويدل ذلك علىٰ أن نور الهداية يزداد في القلب بقدر ما يترسخ الإيمان، ويتعمّق التعلق بالله، حتىٰ يصل العبد إلىٰ مقام اليقين، فيبصر ما يعمىٰ عنه غيره.

ولا يمكن للإنسان أن ينتفع بالقرآن ما لم يؤمن يقينًا بأنه وحيٌ من عند الله، أُنزل علىٰ رسوله ﷺ ليكون هداية للعالمين، كما قال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه : ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعَرَاء : ١٩٢ – ١٩٥] ، وقال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السَّجْدَة : ٢] ، وقال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجَاثِيَة : ٢].

وهذا اليقين هو الذي يجعل المسلم يُقبل علىٰ كتاب الله بتصديق وتسليم، فيكون القرآن مصدر هدايته وتوجيهه في الحياة. فالإيمان الصادق بالله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس مجرد كلمات تقال، بل هو حقيقةٌ تحيي القلوب، وتقوّم السلوك، وتُصلح الفكر، فيعيش المؤمن في سكينة ويقين وثبات، بعيدًا عن وساوس الشيطان، ثابتًا كالجبال الراسخة مهما اشتدت عليه الفتن، ومستبصرًا لحقائق الوجود التي عمي عنها الكثير من الناس، قال تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مَرْيَم: ٧٦]

قال ابن جرير: «يقول تعالىٰ ذكره: ويزيد الله من سلك قصد المحجَّة، واهتدىٰ لسبيل الرُّشد، فآمن بربِّه، وصدّق بآياته، فعمل بما أمره به، وانتهىٰ عمَّا نهاه عنه، هدًىٰ بما يتجدَّد له من الإيمان بالفرائض التي يفرضها عليه، ويقرّ بلزوم فرضها إيَّاه، ويعمل بها، فذلك زيادة من الله في اهتدائه بآياته هدًىٰ علىٰ هداه، وذلك نظير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٤]»[1].

وفي هذا العصر الذي تشتدُّ فيه الحاجة إلىٰ معاني القرآن وهداياته، تزداد أهمية ترسيخ الإيمان بالله ورسوله كمنطلقٍ أوَّلي للتعامل مع القرآن، فهو الذي يفتح أنوار الفهم والهداية، ويورث القلب خشية الله تعالىٰ وتعظيم أمره، والاستجابة لأوامر الله ورسوله.

(١) جامع البيان (١٨/ ٢٤٤).

فالإيمان بالله سبحانه وتعالىٰ ورسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الأصل الأول والركيزة الأساس التي يقوم عليها مسار الاهتداء وزياداته، فإذا لم يرسخ الإيمان في القلب، ظلّ اثر الوحي ضعيفاً في النفس، والسلوك. ومن هنا، فإن تحقق الإيمان وعمقه هو الذي يفعّل أثر الهداية، ويمنح نصوص الوحي طاقتها الحية؛ فتغدو مناراتٍ تُترجَم في الواقع سلوكًا ومنهجًا، فتثمر سعادة العبد في الدارين، وتحقق الغاية الكبرىٰ من وجوده: العبودية لله تعالىٰ، وابتغاء رضوانه؛ ولذا ربط الله تعالىٰ الهداية باليقين، قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجَاثِيَة : ٢٠].

ثانيًا: القرآن الكريم مرجعية الهداية المطلقة:

لقد جرت سنّة الله تعالىٰ في الخلق، أن لا يُترك الإنسان لعقله المحدود، ولا يُسلَّم لمجرد اجتهاده في إدراك الحقائق الكبرىٰ، بل شاءت حكمته أن تكون الهداية إليه موصولة بالوحي، مستندة إلىٰ الرسالة، ليظل ميزان الحق محفوظًا، ومنار الطريق واضحًا، قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النِّسَاء : ١٦٣ – ١٦٥].

فمنذ أن أهبط الله آدم عليه السلام إلىٰ الأرض، بين الله تعالىٰ العلاقة بين الإنسان وسبيل الهداية إلىٰ يوم الدين، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

فهذا إعلان تأسيسي محكم: أن النجاة من الضلال، والخلاص من الحيرة، والسلامة من الخوف والحزن، لا تكون إلا باتباع هدىٰ الله المنزل، لا باتباع الهوىٰ، ولا بتقليد الآباء، ولا بالاعتماد علىٰ العقل وحده، فإن الهداية الحقّة لا يستقل بها عقل، ولا تُنال بموروث، بل يمنحها الله لمن آمن واتّبع نوره.

ومن هنا، تتابعت الرسالات، وتوالت الكتب، لتكون الهداية الربانية حاضرة في فترة من فترات البشرية. فقد أنزل الله التوراة لهداية بني إسرائيل، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[المائدة: ٤٤]، ثم أُتبع ذلك بالإنجيل ليكمل المسيرة ويؤكد الوحدة العقدية بين الكتب السماوية، فقال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

ثم خُتمت الرسالات الإلهية بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنزل الله عليه الكتاب المهيمن، القرآن الكريم، مصدِّقًا لما تقدّمه من الكتب، ومكمِّلًا لها، وجامعًا لِما تفرّق فيها من الهُدىٰ، فكان الكتاب الخاتم الذي استُودِعَت فيه الهداية الكاملة للإنسانية، والمصدرَ الشامل للتشريع إلىٰ يوم القيامة. وقد قرر القرآن هذا المعنىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣-٤]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العَنكَبُوت : ٤٧]، أي كما أنزلنا علىٰ من قبلك من المرسلين، فهي سنة ماضية في الخلق.

وكما أكد القرآن الكريم تفرده بالهداية اليوم بين سائر الكتب، أكد تفرده بدلائل الإعجاز التي تحمل براهين صدق الرسالة كذلك إلىٰ يوم الدين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧ – ٣٨]، وجمع الله تعالىٰ في وصف بين الهداية وبيناته علىٰ صدق الرسالة في قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فهو من جهة المحتوىٰ كتاب هداية شامل للبشرية، ومن جهة الدلالة آيةٌ خالدة تشهد بصدق الرسالة، بما فيه من البينات والمعجزات الظاهرة، التي يتجدد برهانها في كل عصر.

وبعد أن قرر الله تعالىٰ، ببيانٍ قاطع، مرجعية القرآن الخالدة في الهداية، نبّه إلىٰ عواقب الإعراض عن هديه، مُبيِّنًا خطورة الانصراف عنه، لا سيما ممن التمسوا الهدىٰ في غيره، فجاء التحذير بأسلوب يكشف ضلال المسلك ويُحذر من نتائجه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فُصِّلَت : ٤٤] ، وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجَاثِيَة : ١١].

فهذه الآيات وأمثالها تقرر حقيقةً لا مراء فيها: أن الهداية اليوم لا تُطلب إلا من كتاب الله، ومن أعرض عنه، أو التمس الهُدىٰ في سواه، فقد ضلّ سواء السبيل، ولن يجني إلا مزيدًا من الحيرة، والاضطراب، والخسار المبين.

ولا ينبغي أن يُشكل علىٰ القارئ وصفُ التوراة والإنجيل وغيرِهما من الكتب السماوية بالهُدىٰ في بعض المواضع القرآنية، فإنما وُصفت بذلك باعتبار أصلها الإلهي حين أنزلها الله لهداية أقوامها، قبل أن تُحرّف وتُبدَّل. أما بعد إنزال القرآن الكريم محفوظًا من التحريف، ومهيمنًا علىٰ ما سبقه من الكتب، فقد صار وحده المصدر الكامل للهداية، لا يُطلب الهدىٰ من غيره، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، فهو الهُدىٰ المطلق الخالد، الذي ارتضاه الله للعالمين إلىٰ قيام الساعة، يهدي به من يشاء إلىٰ صراطه المستقيم، فيجب عليهم التمسك والاعتصام به، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عِمْرَان : ١٠٣].

ومن هنا، فلا يُتصوَّر تحقُّقُ الاستهداء علىٰ وجهه الصحيح إلا بتحرير مرجعية الهدىٰ التي يستند إليها المستهدِي في سائر شؤون حياته، إذ لا يُثمر الاهتداء ثمرةً ناضجة إلا إذا انطلق من مصدر الهداية الحق، الذي جعله الله مرجعًا مطلقًا في الدين والدنيا، قال تعالىٰ ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

فالقرآن الكريم يهدي إلىٰ العقيدة الصحيحة وينقض العقائد الباطلة، ويرشد إلىٰ مكارم الأخلاق وينهىٰ عن مساوئها، ويهدي إلىٰ سياسة رشيدة في مختلف مجالات الحياة: الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والنفسية وغيرها، وينأىٰ بالإنسان عن كل ما يفسدها أو يضلّها، وقد أبان الله تعالىٰ عظمة ما يهدي إليه شمولا وجملا وكمالا في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

فأثبت له الهداية إلىٰ أعدل الطرق، وأقوم السُّبل، وأكمل المناهج، في العقائد والتصورات، والعبادات والمعاملات، والأخلاق والتشريعات، والدنيا والآخرة، فهدايته هي الأقوم من كل وجه، لا يدانيها هدىٰ، ولا يسدّ مسدها منهج.

قال السعدي:«فكل حالة هي أقوم، في العقائد، والأخلاق، والأعمال، والسياسات الكبار والصغار، والصناعات، والأعمال الدينية والدنيوية، فإنَّ القرآن يهدي إليها، ويرشد إليها، ويأمر بها ويحث عليها. معنىٰ ﴿أَقْوَمُ﴾ ، أيْ أكرم، وأنفس، وأصلح، وأكمل استقامة، وأعظم قيامًا وصلاحًا للأمور... فلا يمكن أنَّه وجد -أو يوجد- حالة يتَّفق العقلاء أنَّها أقوم وأصلح من غيرها إلَّا القرآن يرشد إليها نصًّا وظاهرًا، أو دخولًا تحت قاعدة من قواعده الكلية»[1].

وقال الشنقيطي:«هذه الآية الكريمة أجمل الله جَلَّوَعَلَا فيها جميع ما في القرآن من الهدىٰ إلىٰ خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبَّعنا تفصيلها

(١) القواعد الحسان في تفسير القرآن (ص: ١٣٥).

على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة»[1]، وكيف لا يكون ذلك والله تعالى يقول عنه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:٥٣]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾[لقمان:٢،٣].

وهو يهدي للتي هي أقوم بحجج بيِّنة لا ريب فيها أنَّه الحق، ولذا وصفه الله تعالى بالكتاب المبين، قال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، وقال تعالى: ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[النمل:١-٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:٥٣]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨]، فهو بيِّن البراهين في مصدره، وبيّن في حجَّته لكل ما تحتاج إليه العقول والنفوس من بيِّنات لتسلم وترجع إلى فطرتها السليمة القويمة، فلا حجَّة عند الله تعالى لمعرض عنه، وكل من أعرض عنه ليس لقصور حججه وبيِّناته؛ وإنَّما هي تسوّل من الشيطان، ومجادلة بالباطل، واتباع للأهواء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص : ٥٠].

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ١٩).

فالقرآن الكريم هو المصدر الخالد للهداية، والمهيمن علىٰ ما سبق من الكتب السماوية، والمتفرد بكمال التشريع وتمام البيان. ومن أبرز مظاهر القصور المنهجي في واقع التدين عند بعض المسلمين هو الاقتصار علىٰ جوانب محدودة من هدىٰ القرآن، مع إهمال بقية مجالاته، بحيث يُختزل الاستهداء به في الحقول العقدية أو التعبدية فقط، دون أن يمتد أثره إلىٰ ميادين الحياة الكبرىٰ كالسياسة والاقتصاد والاجتماع.

هذا القصور في شمولية الاستهداء يؤدي إلىٰ فصل غير مشروع بين الدين ومجالات الواقع المختلفة، وينجم عنه تعطيل جزئي لمقاصد الشريعة، وتجميد لقدرتها علىٰ الإصلاح الشامل، مما ينعكس سلبًا علىٰ صورة الإسلام ويحرمه من تأدية دوره الحضاري الكامل.

ولا يمثل هذا النمط الانتقائي من التدين حقيقة الإيمان الذي يقتضي التسليم التام لحكم الله في كل ما يعرض للناس من قضايا، كما بيّن سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. لذا، لا بد من الإيمان بمرجعية القرآن المطلقة والشاملة في كل شؤون الحياة، وهو ما يحقق وحدة فكرية وتكاملاً في البناء الاجتماعي، ويحصّن الأمة من الضلال والتبعية، ويمنحها القدرة علىٰ مواجهة التحديات والتحولات بعقل راشد، وهُدىٰ ثابت، ونظام مستمد من الوحي الإلهي لا من تقلبات الأهواء.

ثالثاً: السنة النبوية: المصدر الثاني المُكمل لهداية القرآن:

تُعدّ السنة النبوية المصدر الثاني للتشريع، والمكمّل للقرآن الكريم في الهداية والاسترشاد، فهي البيان العملي والتطبيقي للوحي الإلهي، والتفسير النبوي لما أجمله القرآن، والتفصيل لما أطلقه، والتخصيص لما عمّمه، ولذلك لا يمكن الاستغناء عنها في فهم الشريعة وتحقيق الاستهداء بالهدىٰ.

وقد نصَّ القرآن الكريم علىٰ أنَّ وظيفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليست مجرد التبليغ، بل التبيين والتوضيح، فقال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النَّحل : ٤٤] ، فالسنة جاءت لتفسير كتاب الله وتوضيح أحكامه للناس.

كما أنَّ طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجبة بأمر الله، بل جعلها الله طاعة له، فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء : ٨٠] ، والأخذ بسنته واجبة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحَشْر : ٧]. وهذا يدل علىٰ أن السنة حاكمة في بيان الأحكام الإلهية، وأنَّ العمل بها جزء لا يتجزأ من الاستهداء بالوحي.

وأكَّد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ أهمية سنته وضرورة اتباعها، فعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:«أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ، وَلَا لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ، إِلَّا

أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ»[1]، مشيرًا إلىٰ أن السنة وحي إلهي كالوحي القرآني في وجوب الاتباع.

هذا المنطلق يرسّخ أهمية السنة النبوية كمصدر تشريعي ثانٍ مكمل للقرآن الكريم، فهي التفسير العملي والتوضيح التفصيلي لأحكام الوحي، فلا تُدرك الهداية الشرعية إلا بالجمع بينهما. وقد بيّن القرآن وجوب طاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخذ سنته، معتبرًا ذلك جزءًا لا يتجزأ من الاستهداء، وهذا ما أكده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه بأن سنته وحي إلهي يستحق الاتباع الكامل. فالسنة ليست نصوصًا منفصلة، بل امتداد وتطبيق للقرآن، وهي النور الذي يُفصِّل المعاني ويُبين الأحكام، فلا فهم ولا هداية حقيقية دونها، وهو ما يُعدُّ قاعدة أساسية في منهج الاسترشاد والاستهداء. وسوف يأتي الكلام عن ذلك بتفصيل في الفصل الثاني عن مصدر الهدىٰ وأوعيته.

رابعًا: الله وحده الهادي، والأنبياء والعلماء يبلغون ويبينون هداه:

من القضايا المهمة التي يجب أن تكون حاضرة في عملية الاستهداء وقد أكَّدها القرآن الكريم عليها، هو أنَّ الهُدىٰ كله من الله وحده، فهو سبحانه منه الهدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [اللَّيْل : ١٢]، وهو الذي يهدي من يشاء من

(١) أخرجه أبو داوود في سننه (ح٤٦٠٤، ٤/ ٣٢٨)، وأحمد في مسنده (ح١٧١٧٣، ٢٨/ ٤١٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (ح٢٦٤٣، ١/ ٥١٦).

عباده، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٨٨]، والأنبياء أنفسهم إنَّما صاروا علىٰ الهدىٰ؛ لأنَّ الله هداهم، قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]. فالهداية بكل أنواعها من الله تعالىٰ، وهو الذي أنزلها، وهو الذي يوفِّق من يشاء إليها.

وقد خاطب الله نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بهذه الحقيقة حتىٰ تكون واضحة للمؤمنين: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وبيَّن سبحانه بيانًا قاطعًا أنَّ غيره لا يملك الهداية، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

فالهدىٰ كله من الله تعالىٰ، والأنبياء ومن يخلفهم في الدعوة إلىٰ الهدىٰ يتمثَّل في بلاغ الهدىٰ وبيانه، وتوضيح معاني الهداية، واستخراج دلائلها، والترغيب فيها، وتقديمها للناس بحجج بينة، وأساليب مؤثِّرة تصلح العقائد والتصورات والسلوكيات، وقال تعالىٰ عن هداية رسله عمومًا: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

أمَّا عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فقد أوضح الله أنَّ وظيفته تقتصر علىٰ الدعوة والتبليغ، وليس له هداية التوفيق، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، أي بالدلالة والإرشاد، أمَّا تحقيق الهداية في القلوب فهو بيد الله وحده، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦].

وكذلك العلماء والدعاة، فإنَّ وظيفتهم هي الدعوة والإرشاد فقط، قال تعالىٰ عن المصلحين من هذه الأمَّة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. فقد بينت الآية أن المصلحين يقومون بوظيفة الهداية البيانية بناءً علىٰ أمر الله وتوجيهه، فهم وسائل لا مصادر للهداية. وهذا يرسّخ مبدأ الاعتماد علىٰ الله في الهداية، ويؤصل في الوقت نفسه لدور العلماء والدعاة كمرشدين لا كمؤثّرين ذاتيين.

قال الفيروزآبادي: «الإنسان لا يَقْدِرُ أَن يَهْدِيَ أَحدًا إِلَّا بالدُّعاءِ وتعريف الطُّرُق دون سائِر الهِدايات، وإِلىٰ الأَوَّل أَشار بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وبقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، أَي: داع، وإِلىٰ سائر الهِدايات أَشار بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وكُلّ هدايةٍ ذَكَرَ الله تعالىٰ أَنَّه منَع الكافِرين والظَّالِمين فهي الهِدايَةُ الثالثة، التي هي التَّوْفيق الذىٰ يختصّ به المهتدون، والرّابعة التي هي الثوابُ في الآخرة، وإِدخالُ الجنَّة ... كلّ هِداية نَفاها عن النبي ﷺ وعن البشر، وذكر أَنَّهم غيرُ قادِرين عليها، فهي ما عَدا المُخْتصّ به من الدّعاء وتعريفِ الطريق»[1].

فالواجب علىٰ الدعاة والعلماء بيان الهدىٰ للناس، وإرشادهم إليه، وتحبيبهم فيه، وتحذيرهم من مخالفته، أمَّا تحقيق الإيمان في القلوب، فهذا من اختصاص الله وحده. ولذلك فإنَّ عدم استجابة الناس لدعوة الهداة لا يعني فشلهم، لأنَّ الأمر كله بيد الله، قال تعالىٰ: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٥/ ٣١٤).

قال الفيروزآبادي في بيان ذلك ومعالجة ما يشكل لمن يتأمل في آيات الهدىٰ مجتمعة: «لمَّا كانت الهِدايةُ والتَّعليم يَقْتَضِي شيئين: تعريفًا من المُعَرِّف وتَعَرُّفًا من المُعَرَّف، وبهما يتمّ الهدايةُ والتَّعلُّم، فإنَّه متىٰ حَصَل البَذْلُ من الهادي والمعلِّم ولم يَحْصُل القبولُ صَحَّ أَنْ يُقال: لم يَهْدِ ولم يُعَلِّم؛ اعتبارًا بعدَم القَبُول، وصَحَّ أَنْ يقال: هَدَىٰ وعَلَّم؛ اعتبارًا بَبذْلِه، فإذا كان كذلك صحّ أَن يُقالَ: إنَّ الله لم يَهْدِ الكافرين والفاسقين من حيثُ إنَّه لم يَحْصُل القَبولُ الَّذىٰ هو تَمامُ الهِداية والتَّعلِيم. وصحّ أَنْ يُقال: قد هَداهم وعَلَّمَهُم من حيث إنَّه حَصَل البَذْلُ الذىٰ هو مَبْدأُ الهِداية، فعلىٰ الاعتبار الأَوّل يصحّ أَن يُحْمَلَ قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٢٥٨]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤]، وعلىٰ الثاني قولُه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، والأَوْلَىٰ حيثُ لم يحصُلِ القَبُول أَن يُقَيَّد فيقالُ: هَدَاهُ اللهُ فلم يَهْتَدِ، وقوله: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾[البقرة: ١٤٣]، وهم الذين قَبِلُوا هُدَاهُ فاهْتَدَوْا به»[1].

فالهداية بجميع أنواعها من الله وحده، فهو الذي أنزل الهدىٰ، ويوفق من يشاء إليه، أما الأنبياء والعلماء والدعاة، فينحصر واجبهم في بيان الهدىٰ للناس ودعوتهم إليه، دون القدرة علىٰ تحقيق التوفيق في قلوبهم.

هذا المنطلق الإيماني يشكل ركيزة أساسية لفهم طبيعة الهداية وموقع الإنسان والداعية فيها، إذ يثبت توحيد الربوبية في الهداية ويُبعد الإنسان عن

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٥/ ٣١٥ - ٣١٧).

الغرور بوهم القدرة على إجبار القلوب على الإيمان. كما يعزز الثقة والرضا بقضاء الله، ويُسهم في تجديد العزيمة والمثابرة في الدعوة رغم تفاوت قبول الناس، لأن النجاح الحقيقي مرهون بإرادة الله وتوفيقه. ومن هذا الفهم يتأسس منهج دعوي متزن يقوم على البلاغ بالحكمة والموعظة الحسنة، مع الاتكال على الله في الإرشاد والتوفيق، مما يحفظ نقاء التوحيد وسلامة العقيدة ويدفع إلى الصبر والاحترام في التعامل مع نتائج الدعوة.

خامسًا: خلود الهداية القرآنية واستدامة أثرها:

القرآن الكريم هو كتاب الهداية الدائمة، أنزله الله تعالى ليكون نورًا وهدًى للناس في كل زمان ومكان، فليس مجرد كتاب نزل في زمن معين وانتهى تأثيره، بل هو منهج خالد، خالد في حروفه، وخالد في هديه ونفعه، حقه لا يُبدل، وهديه لا يزول، فهو محفوظ بحفظ الله، لا يطاله التحريف ولا التبديل، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، تدلّ الآية بوضوح على أن الله تعالى قد تكفّل بحفظ القرآن الكريم، لفظًا ومعنًى، من كل تحريف وزيادة ونقص، وهو حفظٌ إلهيٌّ دائم مستمر. فإذا كان الكتاب محفوظًا، فإنَّ هدايته باقية لا تزول، لأن الهداية لا تنفصل عن النص الذي يحملها. فالحفظ هنا أساس لخلود الهداية، وضمانٌ لاستمرارية النور الرباني في حياة الإنسان، مهما تعاقبت الأزمنة وتبدّلت الظروف.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ – ٤٢]. وهذا يعني أن نصه ومضمونه ومقاصده محفوظة من كل عبث، مما يؤكد ديمومة الهداية فيه، وسريان أثره الإصلاحي في كل عصر، إذ لا يُبطل حقائقه شيء، ولا يُضعف نوره تبدُّل الزمان.

فبقائه محفوظًا، ليظلّ نوره ساطعًا، وهديه خالدًا، وأحكامه قائمة، وشريعته متوارثة، ونفعه ممتدًّا، يهدي العباد هدايةً مستمرَّة، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة: ١٥ – ١٦]، فهو محقق لهداية الإنسانية وسعادتها متىٰ ما أقبلت عليه واسترشدت به، فكل من استرشد به وجد السكينة والنجاة، وكل من أعرض عنه تاه في ظلمات الجهل والضلال.

وممَّا يدلُّ علىٰ خلود نفعه ما ووصف الله تعالىٰ به كتابه، بأنَّه كتاب مبارك، دائم البركة والمنفعة، قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥]، فخبره لا ينقطع، وبركته لا تزول[١]، وخيره وعطاؤه لا ينفدان.

قال الرازي:«مبارك قال أهل المعاني: كتاب مبارك أي كثير خيره، دائم بركته ومنفعته»[٢].

وقال المراغي:«وهو مبارك أي كثير الخير دينًا ودنيا، جامع لأسباب الهداية الدائمة، وقد جاء بأكثر ممَّا في كتاب موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من تفصيل لهدىٰ البشر في معاشهم ومعادهم. ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي فاتبعوا ما هداكم إليه، واتقوا ما نهاكم عنه، وحذَّركموه، لتكون رحمته مرجوّة لكم في الدنيا والآخرة»[٣].

(١) أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٨٩).
(٢) مفاتيح الغيب (١٣/ ٦٤).
(٣) تفسير المراغي (٨/ ٧٨).

وقال ابن عاشور: «والقرآن مبارك لأنَّه يدلُّ على الخير العظيم، فالبركة كائنة به، فكأنَّ البركة جعلت في ألفاظه، ولأنَّ الله تعالى قد أودع فيه بركة لقارئه المشتغل به بركة في الدنيا وفي الآخرة، ولأنَّه مشتمل على ما في العمل به كمال النفس وطهارتها بالمعارف النظرية ثم العملية، فكانت البركة ملازمة لقراءته وفهمه»[1].

وهذا الثبات في الهداية يجعل من القرآن أثر دائماً في الحياة وإعجازا خالد على الحقِّ، فلا مجال للشَّكِّ في نفعه، أو التراجع عن سموه ومكانته، أو الاعتراض على أحكامه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٥ – ١٧].

فهو هدى الله للعالمين، لا يختص بقوم دون قوم، ولا بزمن دون آخر، بل هو تشريع خالد حتى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص : ٨٧] .

قال النيسابوري «والعالمون يشمل الخلائق كلهم إلا أن الإجماع دل على خروج الملائكة وما عدا الثقلين فبقي أن يكون مبعوثا إلى الجن والإنس

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٧٠).

إلىٰ آخر»[1]، فهو شامل للإنس والجن، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢].

وهكذا، يتجلّىٰ أن الهداية القرآنية ليست ظاهرة عابرة أو مقصورة علىٰ زمن النبوة، بل هي هدايةٌ خالدة بخلود الكتاب المجيد، باقية ببقاء الوحي، ممتدة ما دامت الحياة قائمة. وقد كفل الله لها الحفظ من التحريف، وجعل بركتها متجددة في كل عصر، ونفعها حاضرًا لمن أقبل عليها بقلب سليم.

ومن هنا، فإنّ الإيمان بخلود هذه الهداية هو الأساس المنهجي في تلقي القرآن والعمل به وتعليمه للأمم، وهو ما يجعل من التعلّق بالوحي ضرورةً مصيرية، لا خيارًا ثقافيًا.

فمن آمن بخلود الهداية القرآنية، أدرك أن القرآن ليس مرجعًا ماضويًا، بل دستور هدايةٍ دائم، يُقيم الحياة ويقودها إلىٰ الرشد والفلاح في كل زمان ومكان مهما تغير أشكال الحياة وأنماطها المدنية أو البدوية، واختلفت وسائل العصر وتطورت سبل الحياة وأنظمتها السياسية والإدارية والاقتصادية.

فلا ينبغي دخول الريب في امتداد هدايته، أو التردد في تقبُّل بعض تشريعاته أو رد بعض أحكامه، فإنَّ الله تعالىٰ أنزل هذا الهدىٰ ليس لقوم محدَّدين، أو جيل أو قرن معين؛ وإنَّما هو هدىٰ للعالمين، ولكل الأجيال والقرون إلىٰ أن يرث الله تعالىٰ الأرض ومن عليها.

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (٥/ ٢٢٠).

سادسًا: التوحيد أصلُ الهداية ومدخل الاستهداء:

من المنطلقات المهمّة في موضوع الهدىٰ والاهتداء: العلم بأنَّ أعظم ما يستهدي به في القرآن الكريم هو توحيد الله جَلَّوَعَلَا؛ فهو أوَّلُ واجبٍ وأعظمُ واجب، ولذلك لا تكاد تخلو آيةٌ أو فعلٌ قرآنيٌّ من التأكيد علىٰ عبادته سبحانه وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَةِ :٥]، وقد أوّل نداءٍ وأمرٍ في القرآن الكريم داعيًا إلىٰ عبادته جَلَّوَعَلَا، في قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَةِ : ٢١]، كما لا تخلو سورةٌ في القرآن من الحديث عن توحيد الله ووجوب عبادته.

قال ابن القيِّم: «إنَّ كلَّ آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإنَّ القرآن: إمَّا خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإمَّا دعوة إلىٰ عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإمَّا أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإمَّا خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإمَّا خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبىٰ من العذاب، فهو خبر عمَّن خرج عن حكم التوحيد»[1].

ومن هذا المنطلق سمّىٰ الله تعالىٰ الإيمانَ هدًىٰ؛ كما قال جل شأنه في قصة أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣]،

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤١٧ - ٤١٨).

أي زدناهم إيمانًا، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، يعني يزيدهم إيمانًا، وسمَّىٰ توحيده جَلَّوَعَلَا هدًى؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ﴾ [سبأ:٣٢]، والشيء إذ سُمِّي ببعضه دلَّ علىٰ أنَّ ذلك البعض جزء الماهية، التي لا تتمّ إلَّا به، كالتعبير عن الصلاة بالسجود والركوع، وعن الفاتحة بالصلاة.

وقد تواترت الأدلّة القرآنيّة والنبويّة لتؤكّد أنّ التوحيد هو أعظم ما هُدِي إليه في كتاب الله، وأنّه الغاية من خَلْق الجنِّ والإنس، إذ يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهو كذلك الغاية التي من أجلها أرسل الله رسله، وأنزل كتبه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود:١، ٢]، وجميع أركان الإيمان الأخرىٰ تندرج تحت هذا الأصل وتُعَدّ تابعةً له.

قال ابن رجب: «إنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إنَّما أرسَل الرُّسَلَ، وأنزلَ الكتبَ لدُعائِه الخلق إلىٰ مَعرفتِه وتوحيدِه، وعبادتِه ومَحبتِه والقُربِ منهُ والإنابةِ إليه؛ هذا هو مقصُود الرِّسالة ولبُّها وقُطبُ رحاها الذي تدور عليه، وما ورَاءَ ذلك فإنَّها مُكمّلاتٌ ومُتمّماتٌ ولواحقُ؛ فكلُّ أحدٍ مفْتقِرٌ إلىٰ معرفة ذلك عِلْمًا، والإتيانِ بهِ عملًا، فلا سَعَادةَ للعَبدِ ولا فلاحَ ولا نجاةَ بدون هذين المقصَدين»[1].

(١) تفسير الفاتحة (ص: ١٩).

ومَن فقد هذا الأصل حبط عملُه، وكان في الآخرة من الخاسرين، يقول تعالىٰ مخاطبًا رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥، ٦٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [التوبة:٧٢].

ومن هنا، تتبيَّن مركزية التوحيد في بنية الهداية القرآنية، بوصفه المفتاح الأول لفهم الرسالة، والمدخل الضروري لكلّ اهتداءٍ بعدها. فليس التوحيد مجرد أصل من أصول الإيمان، بل هو الأصل الذي تنبثق منه سائر الأصول، وتُبنىٰ عليه معاني الطاعة والاتباع، وتُوزن به درجات القرب من الله تعالىٰ. وكلُّ تقصيرٍ في هذا المنطلق يُورِث انحرافًا في الفهم، واضطرابًا في السير، وخللًا في التزكية والتمكين.

ولذلك، فإنَّ الانطلاق من التوحيد في فقه الهداية، تعلُّمًا وتعليمًا، يعدّ أوثق عروة في بناء شخصية مهتدية علىٰ منهاج النبوة، وأصلًا لا غنىٰ عنه في قياس مدىٰ الاستجابة الفردية والجماعية للهدىٰ القرآني الخالد، اهمال هذا الأصل أدىٰ إلىٰ خلل كبير عند البعض في الاستهداء بالهدىٰ.

سابعًا: الهداية تقوم على حرية الاختيار لا على سبيل الإكراه:

بيَّن الله تعالىٰ لعباده مصدر الهدىٰ، وأقام البراهين القاطعة والحجج الواضحة علىٰ صدقه، حتىٰ لا يبقىٰ للمعرضين عنه أي عذر أو حجَّة، كما رغَّبهم فيه بجميع الوسائل والأساليب الممكنة، ثم أمر الأنبياء والدعاة ببيانه وتبليغه للناس بكل طريق يحقق لهم الفهم والرغبة، وبعد ذلك، ترك لهم حرية الاختيار بين طريق الهداية وطريق الضلال، فلم يكرههم علىٰ اتباعه، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس: ١٠٨].

قال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره لهذه الآية:«قد جاءكم الحق المبين لحقيقة الدين من ربكم، بوحيه إلىٰ رجل منكم، وهو الذي افتتحت هذه السورة به، وقد كان هذا الحق مجهولًا خفيًّا عنكم، بما جهل بعضكم من دعوة الرسل الأقدمين، وما حرَّف بعضكم وجهل وبدَّل وتأوَّل من كتب الأنبياء المتأخِّرين، وفصَّله لكم هذا الكتاب العربي المبين ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي فمن اهتدىٰ بما جاء به هذا الرسول في هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإنَّما فائدة اهتدائه لنفسه؛ لأنَّه ينال به السعادة في دنياه ودينه، دون عمل غيره، ولا فدائه ولا تأثيره ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي ومن ضلّ عن هذا الحقّ بإعراضه عن آياته في هذا القرآن، وحججه فيه بآياته في الأنفس والآفاق، فإنَّما وبال ضلاله علىٰ نفسه بما يفوته من فوائد الاهتداء في الدنيا، وما يصيبه من العذاب علىٰ كفره وجرائمه في الآخرة ﴿وَمَآ

﴿أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي وما أنا بموكل من عند الله بأموركم، ولا مسيطر عليكم فأكرهكم على الإيمان، وأمنعكم بقوَّتي من الكفر والعصيان، وليس عليَّ هداكم، ولا أملك نفعكم ولا ضركم، وإنَّما أنا بشير لمن اهتدى، ونذير لمن ضلَّ وغوى، وقد أعذر من أنذر »[1].

وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١]، وقال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، ممَّا يؤكِّد أنَّ الهداية اختيار فردي، وليس بالإكراه.

قال البغوي: في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ :«يعني الحجج البيِّنة التي تبصرون بها الهدى من الضَّلالة والحقّ من الباطل، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فمن عرفها وآمن بها فلنفسه عمل، ونفعه له، ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: من عمي عنها فلم يعرفها ولم يصدقها فعليها، أي: فبنفسه ضرَّ، ووبال العمى عليه، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ برقيب أحصي عليكم أعمالكم، إنَّما أنا رسول إليكم أبلِّغكم رسالات ربِّي وهو الحفيظ عليكم الذي لا يخفى عليه

(١) تفسير المنار (١١/ ٤٠٢).

شيء من أفعالكم»[1]، فهي بصائر وهدىٰ لكلِّ ما يحقِّق السعادة، ينتفع بها من أراد الله تعالىٰ به خيرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

قال ابن عاشور:«وهذا تنويه بشأن القرآن، وأنَّه خير من الآيات التي يسألونها، لأنَّه يجمع بين الدلالة علىٰ صدق الرسول بواسطة دلالة الإعجاز وصدوره عن الأمِّي، وبين الهداية والتعليم والإرشاد، والبقاء علىٰ العصور.

وإنَّما جمع «البصائر» لأنَّ القرآن أنواعًا من الهدىٰ علىٰ حسب النواحي التي يهدي إليها، من تنوير العقل في إصلاح الاعتقاد، وتسديد الفهم في الدين، ووضع القوانين للمعاملات والمعاشرة بين الناس، والدلالة علىٰ طرق النجاح والنجاة في الدنيا، والتحذير من مهاوي الخسران »[2].

فالقرآن الكريم هو مصدر الهداية والبصائر لكلِّ من يريد الحقّ والخير، لكن هذه الهداية متاحة فقط لمن يسعىٰ إليها بصدق، ويسأل الله تعالىٰ أن يوفِّقه ويثبِّته عليها، قال تعالىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفَاتِحَة: ٦ - ٧] ، وقال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عِمۡرَان: ٨].

أمَّا المُعرض عنها فما له منها من نصيب، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ

(١) معالم التنزيل (٢/ ١٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٣٨).

﴿ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾ [الأنعام:١٥٧].

فهداية العمل من الله تعالىٰ خلقًا ومن العبد كسبًا، ولا تكون إلا بتوفيق منه جل وعلا للعبد، فيشرح صدره لإرادة الهدىٰ، ويعينهم ويوفقه علىٰ العمل بالحق، والثبات عليه، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٥] »وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلىٰ آخرهم، وكتبه المنزّلة عليهم علىٰ أنه سبحانه يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدىٰ والإضلال بيده، لا بيد العبد، وأنّ العبد هو الضالّ أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه«[1].

فالسعيد الرابح في هذه الحياة هو من اختار لنفسه طريق الهداية وسار عليه، أمَّا الخاسر فهو من زهد فيها وأعرض عنها واتَّبع الظَّنَّ والهوىٰ. قال تعالىٰ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النَّجم : ٢٣]، ولكلٍّ منهما جزاؤه العادل عند الله جَلَّ وَعَلَا.

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (١/ ٢١٨).

فتقرير مبدأ حرية الاختيار في الهداية يبرز إحدىٰ أعظم قواعد البلاغ النبوي وأخصّ سمات المنهج القرآني، حيث تقوم دعوة الأنبياء علىٰ الإقناع لا الإكراه، وعلىٰ البيان لا الإجبار، لأن الهداية الحقّة لا تنبت إلا في قلب اختار أن يُبصر، وأراد أن تهتدي، وسع إلىٰ الحق بإرادة صادقة. ومن هنا كانت الهداية مسؤولية فردية، تُبنىٰ علىٰ معرفةٍ صافية، ورغبةٍ حرة، وطلبٍ جادٍّ للحق، وهي بهذا تؤسس لعلاقة راشدة بين العبد وربه، قائمة علىٰ المحبة لا القهر، وعلىٰ الطاعة عن بصيرة لا عن قسر.

إنَّ هذا المنطلق يحرر العقل المسلم من أوهام الجبر، ويمنحه الثقة بمسؤوليته عن خياراته ومصيره، ويضعه أمام واجب السعي في طلب الهدىٰ والاستمساك به، كما يفضح زيف الدعاوىٰ التي تلقي بفشل الهداية علىٰ الدين أو الدعاة، بينما الخلل في الحقيقة في اختيار المعرضين وإرادتهم.

ومن لم يشأ الهدىٰ فلن يُكرهه الله عليه، لكن عليه أن يتحمّل نتيجة قراره، ويعلم أن أبواب الهداية مفتوحة لكل من طرقها بصدق، وأن الله لا يضلّ إلا من أعرض عن ذكره واختار الضلالة لنفسه.

فما أعظم هذا الأصل! وما أبلغ أثره في تصحيح الفهم، وتقويم مسار الدعوة، وتحرير إرادة الإنسان أمام طريقين بيِّنين: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

منطلقات الهداية في القرآن الكريم

1. الإيمان بالله ورسوله منطلقٌ تأسيسيّ للهداية.
2. القرآن الكريم مرجعية الهداية المطلقة.
3. السنة النبوية: المصدر الثاني المُكمل لهداية القرآن.
4. الله وحده الهادي، والأنبياء والعلماء يبلغون ويبينون هداه.
5. خلود الهداية القرآنية واستدامة أثرها.
6. التوحيد أصلُ الهداية ومدخل الاستهداء.
7. الهداية تقوم على حرية الاختيار لا على سبيل الإكراه.

الفصل الثاني

مصدر الهدى وأوعيته ونوابه

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأوَّل: الهدىٰ والاهتداء من الله وحده.
- المبحث الثَّاني: الأوعية الثلاثيَّة لهدىٰ الإرشاد.
- المبحث الثَّالث: وراث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونوَّابه في هدىٰ الإرشاد.

المبحث الأول

الهدى والاهتداء من الله وحده

أوَّلاً: الهدى من الله تعالى وحده:

يعيش كثير من الناس حالةً من الحيرة والارتباك، إذ يغفلون عن مصدر الهدىٰ الحقيقي الذي ينبغي أن يسترشدوا به في حياتهم. فيظن البعض أنَّ الهداية متمثلة في بعض الديانات المنحرفة كاليهودية والنصرانية، في الوقت الذي يعتقد آخرون أنَّ الهداية في بعض الأفكار والنظريات البشرية البالية، مثل: الشيوعية والبعثية والرأسمالية وغيرها، فيقضون أعمارهم وأوقاتهم، ويصرفون أموالهم وجهدهم في خدمة تلك الديانات والأفكار، والسعي لنشرها والتمكين لها، دون أن يدركوا أنَّهم ممَّن ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعًا، والقرآن تحدَّث حديثًا واضحًا عن هؤلاء ومصيرهم وسوء عاقبتهم، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الكَهْف: ١٠٣ - ١٠٦].

فالآية تبين خطر الغياب عن مصدر الهداية الربانية، فالعقل الإنساني إذا لم يستنر بنور الوحي، قد يُزين له الباطل فيحسبه هدىٰ، ويُصور له الضلال علىٰ أنه حق، فينقلب الميزان، وينحرف الاتجاه، ويصبح الجهد المبذول وبالًا علىٰ صاحبه، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾

-أي أشد الناس خسرانًا - ثم بيّن أنهم لم يكونوا كسالىٰ أو متقاعسين، بل كانوا أصحاب سعيٍ ضال، وجهدٍ في غير محلّه، والسبب: أنهم كفروا بآيات ربهم ولقائه، فأعرضوا عن مصدر الهدىٰ، واستندوا إلىٰ أهوائهم أو إلىٰ مناهج بشرية منحرفة، فباءوا بالخسران المبين.

والآية تعلّمنا أن النية الحسنة لا تكفي وحدها إن لم تُبنَ علىٰ هداية صحيحة، وأنّ المقياس الحقيقي لصواب السعي هو موافقته للوحي، وإلا فإن صاحبه يكون كمن أضاع عمره في التيه، وهو يظن نفسه علىٰ طريق مستقيم.

فهذا تحذير قرآني جليل يوجب علينا أن نراجع منطلقاتنا الفكرية، ومصادرنا المعرفية، وأن نزن أقوال الناس وأفكارهم بميزان الوحي، لا أن نوازن الوحي بآرائهم.

والمصيبة الكبرىٰ علىٰ هؤلاء وقوعهم فريسة للشيطان الذي زيَّن لهم سوء عملهم فضلَّهم عن سواء السبيل، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فَاطِر : ٨] ، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ [مُحَمَّد : ١٤] ، فالتمييز بين من يستند إلىٰ بينةٍ من الله ساطعة ومن يتَّبع أهواءه؛ هو أساسٌ للنجاح في الدنيا والآخرة، وهو الصراط المستقيم الذي أُمرنا بالتمسك به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأَنْعَام: ١٥٣] .

إنَّ معرفة مصدر الهدىٰ تُعَدُّ من المسائل الأساسية التي يقوم عليها الدين؛ فهي قضية لا ينبغي الجدال فيها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [اللَّيْل: ١٢]، «أي: إِنَّ أمر إِرشاد العباد وتبيين طريق الهدىٰ وما يؤدِّي إِليه، وتمييزه عن طريق الضَّلال وما ينتهي إِليه -إِنَّ هذا الأَمر- من شأْننا نحن وليس لأَحد سوانا دَخْلٌ فيه، غير أَنَّ الرُّسل - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- ليس عليهم إِلَّا البلاغ فحسب»[1]، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو الهادي ، ومصدر الهدىٰ منه جل وعلا، وكل ما يعارضه هوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النَّجْم : ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفَتْح : ٢٨] ، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البَقَرَة : ١٢٠] . فهو المتفرِّد بإنزاله علىٰ جميع خلقه، ومن هنا سمَّىٰ الله تعالىٰ كل ما جاءت به رسله وأنزله في كتابه هدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨]، يراد بالهدىٰ هنا الرسل والكتب.

فالهدىٰ ما كان من الله تعالىٰ وحده، قال تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾، والمراد به ما أوحاه الله تعالىٰ للأنبياءُ والرسل، وقوله تعالىٰ ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾،«يعني اتَّبع كتابي وأطاع رسلي، فلا خوفٌ عليهم فيما يستقبلهم

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث (١٠/ ١٩٣٨).

من العذاب، ولا هم يَحْزَنُونَ على ما خلفوا من أمر الدنيا»[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ يحسم الجدال في مصدر الهدىٰ، فما كان من الله تعالىٰ فهو هدىٰ، وما كان من غيره ممَّا يضادِّه فهو هوىٰ، وهذا الهدىٰ جعله الله تعالىٰ فيما أنزله من كتبه، وفي من أرسلهم من رسله.

ولا بدَّ من التفريق بين الهدىٰ والهوىٰ، والبيِّنة والتزيين، وصراط الرحمن وسبل الشيطان، وأنَّ ما يدعو إليه شياطين الجنِّ والإنس ، ويدَّعون أنَّه هدىٰ ما هو إلَّا هوىً ، والهوىٰ لا يوصل إلىٰ هدىٰ، ولا يحقق سعادة حقيقية، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام : ٧١] ، فهذه صورة من صور التجاذب بين دعاة الهدىٰ ودعاة الهوىٰ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ ما يدعون إليه هو الهدىٰ [2] ، كما يظهر ذلك في ادِّعاء فرعون للهدىٰ قائلاً: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غَافِر : ٢٩].

إنّ إدراك أن الهدىٰ لا يكون إلا من عند الله تعالىٰ هو أصلٌ عظيم من أصول الاعتقاد، تقوم عليه سائر مفاهيم التوحيد والدين، ويتحدد به مصير الإنسان في الدنيا والآخرة. فكل من ابتغىٰ الهداية في غير ما أنزل الله، أو ظنّ أن عقله أو فكر غيره أو ثقافة قومه تكفيه عن نور الوحي؛ فقد عرض نفسه للضلال والخسران، مهما بدا له أنه علىٰ صواب.

---

(١) بحر العلوم (١/ ٤٦).

(٢) انظر في تأويل الآية: جامع البيان (٩/ ٣٣١)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣٠٧).

وكلما تباينت الطرق، وتكاثرت الدعوات، وتشعّبت الشعارات؛ كان التمسك بالوحي الرباني أوكد، وكان التمييز بين الهدىٰ والهوىٰ أوجب.

فالهدىٰ من الله ليس خيارًا يُؤخذ ويُترك، بل هو فرض لازم، وطريق واحد لا غنىٰ عنه. قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، فيجب أن يكون في قلب كل مؤمن يقينٌ راسخ أن هدىٰ الله هو الحق المبين، وما عداه فسرابٌ لا ينجي، وباطلٌ لا يُغني، قال تعالىٰ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

كما يجب عليه أنَّ يعتقد العقل وحده لا يكفي للوصول إلىٰ الهدىٰ الذي يحقِّق سعادة الدارين، بل لا بدَّ من الاسترشاد بالوحي الرباني، إذ هو النور الذي يهدي الله به من يشاء من عباده إلىٰ صراط مستقيم.

ثانياً: الهداية من الله تعالى وحده:

كما أن الهدىٰ من الله تعالىٰ، فإنَّ الهداية بكل أنواعها من الله تعالىٰ وحده، فهو الذي يهدي من يشاء برحمته وحكمته، ويضلُّ من يشاء بعدله وعلمه، فالهداية منوطة بإرادة الله وحكمته، فمن هداه الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا، وقد جاءت أدلة كثيرة تؤكِّد هذا المعنىٰ وتوضِّح هذه الحقيقة، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأَحْزَاب: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكَهْف: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [الشُّورَى: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ

يَعْمَهُونَ ﴾ [الأَعْرَاف : ١٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ [الزُّمَر : ٣٦ – ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأَعْرَاف : ١٧٨].

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الهداية الحقيقية لا تكون إلَّا من الله، فلا يملك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا غيره من الخلق، أن يهدي أحدًا إذا لم يرد الله له الهداية، قال تعالىٰ: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [النَّحْل : ٣٧].

والزيادة في الهداية والثبات عليها من الله تعالىٰ وحده، لا يملكها أحد من الخلق، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكَهْف : ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿يَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مَرْيَم : ٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [مُحَمَّد: ١٧]. فهو سبحانه الذي يهب الهداية لعباده، ويزيدهم منها بحسب استقامتهم وسيرهم في طريق الحق.

كما أنَّ الله هو الذي يثبِّت من شاء من عباده علىٰ الحقِّ، حتىٰ أشرف الخلق – عليه الصلاة والسلام – لم يكن ليستغني عن تثبيت الله له، قال تعالىٰ مخاطبًا له: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإِسْرَاء : ٧٣ – ٧٥].

فدلَّ ذلك على أنَّ التثبيت نعمة إلهية، لا غنىٰ لأحد عنها، وأنَّ الله هو المتصرف فيها كيف يشاء، يزيد الهداية لمن اهتدىٰ، ويثبت من شاء من عباده علىٰ الصراط المستقيم.

ولمَّا كانت هداية الخلق كلها من الله تعالىٰ وحده، بيَّن القرآن الكريم أنَّ هداية الأنبياء -أيضاً- من الله وحده، تأكيداً لهذه الحقيقة العظيمة. قال تعالىٰ مخاطباً نبيه محمداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفَتْح: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضُّحَى: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأَنْعَام: ١٦١].

وكذلك كان الحال مع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقد قال تعالىٰ: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النَّحْل: ١٢٠ - ١٢١]، وهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي قال: ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأَنْعَام: ٧٧].

وكذلك موسىٰ وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصَّافَّات: ١١٧ - ١١٨]. أمَّا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقد قال تعالىٰ عنه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١ - ١٢٢].

ثمَّ بعد ذكر خمسة وعشرين نبيًّا، قال الله تعالىٰ عنهم وعن أتباعهم الصالحين: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم

مَّا كَانُواْ﴾ [الأَنْعَام: ٨٧ - ٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأَنْعَام : ٩٠]، وبيّن الله أنَّ الهداية تشمل جميع النبيين، قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ [مَرْيَم : ٥٨].

وهذه الحقيقة يُقِرُّ بها كل أهل الجنة، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ٤٣] .

ولمَّا كان الله تعالىٰ هو مصدر الهدىٰ، وهو المبيِّن لطريق الحق، وهو الهادي خلقه هداية مطلقة لا يملكها غيره، بيَّن سبحانه ذلك بوضوح في صفات ربوبيته التي يجب أن يعتقدها العبد، فقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾[يُونُس: ٣٥]. «ولمَّا كان لا يمكنهم أن يدّعوا أنَّ أحدًا من أولئك الذين أشركوهم في عبادة الله تعالىٰ، بادِّعاء التَّقريب إليه والشَّفاعة عنده، يهدي إلىٰ الحقِّ من ناحية الخلق والتَّكوين، ولا من ناحية التَّشريع، لقَّن الله رسوله الجواب بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ﴾ »[1].

(١) تفسير المنار (١١/ ٢٩٦).

والله تعالىٰ لتفرُّده بالهداية المطلقة كان من أسمائه الجليلة الدالة علىٰ هذا المعنىٰ اسمه «الهادي» قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [الحَج: ٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفُرْقَان: ٣١]، فهو الذي يهدي من يشاء من خلقه لمعرفته جَلَّوَعَلَا وعبادته، ويهدي عباده لما يحقِّق مصالحهم، ويدفع عنهم الضُّرّ والسوء.

قال البيهقي في معنىٰ الهادي:«هو الذي بهدايته اهتدىٰ أهلُ ولايته، وبهدايته اهتدىٰ الحيوان لما يصلحه، واتَّقَىٰ ما يضرُّه»[(١)].

وقال ابن الأثير:«هو الذي بصَّر عباده، وعرَّفهم طريق معرفته، حتىٰ أقرُّوا بربوبيته، وهدىٰ كلّ مخلوق إلىٰ ما لا بدَّ له منه في بقائه ودوام وجوده»[(٢)].

وقال السعدي:«الهادي، الرشيد، أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلىٰ جميع المنافع، وإلىٰ دفع المضارِّ، ويعلِّمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوىٰ، ويجعل قلوبهم منيبة إليه منقادة لأمره»[(٣)].

فالله تعالىٰ هو الهادي لجميع أنواع الهدايات، **وقد قسَّم كثير من العلماء الهداية إلىٰ أربعة أقسام:**

أوَّلاً: هداية الفطرة والإلهام:

وهذه الهداية هي التي انتظم عليها أمر الخلق، وهي تدلُّ علىٰ كمال علم

(١) الاعتقاد للبيهقي (ص:٥٩).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٥٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص:٩٤٩).

الله وحكمته، وقدرته، ولطفه، ورحمته. وقد ورد ذكرها في موضعين في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأَعْلَى: ٢ - ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

فالله تعالىٰ أعطىٰ كل مخلوق صورته وهداه إلىٰ منافعه، فهدىٰ الطير إلىٰ كيفية التقاط رزقه، والنمل إلىٰ كيفية تخزين طعامه، والنحل إلىٰ كيفية رعي الأزهار الطيبة وبناء خلاياه السداسية لتضع فيها العسل، وهدىٰ الطفل إلىٰ كيفية التقام ثدي أمِّه بعد خروجه من بطنها للغذاء، وغير ذلك ممَّا لا يُحصىٰ عدده من مخلوقاته جل وعلا.

كما أعطىٰ الله كل عضوٍ من أعضاء المخلوقات شكله وهيئته المناسبة للوظيفة المنوطة به،«أعطىٰ العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان: كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة، غير نابٍ عنه»[1].

وقال ابن القيم:«أي أعطىٰ كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطىٰ كل عضو شكله وهيئته، وأعطىٰ كل موجود خلقه المختص به، ثم هداه إلىٰ ما خلقه له من الأعمال، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلىٰ جلب ما ينفعه ودفع ما يضرُّه، وهداية الجمال المسخر لما خلق له، فله هداية تليق به كما أنَّ لكلِّ نوع من الحيوان هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وصورها، وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدىٰ الرجلين للمشي، واليدين للبطش

(١) تفسير الكشاف - ومعه الانتصاف ومشاهد الإنصاف والكافي الشاف (٣/ ٦٧).

والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيَّات، وكل عضو لما خلق له»[1].

وقال الشوكاني: «والمعنىٰ: أعطىٰ كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به المطابقة له كاليد للبطش، والرجل للمشي، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع، كذا قال الضحاك وغيره. وقال الحسن وقتادة: أعطىٰ كل شيء صلاحه وهداه لما يصلحه. وقال مجاهد: المعنىٰ لم يخلق خلق الإنسان في خلق البهائم، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان، ولكن خلق كل شيء فقدَّره تقديرًا»[2].

وقال السعدي: «﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كل مخلوق إلىٰ ما خلقه له، وهذه الهداية العامَّة المشاهدة في جميع المخلوقات، فكل مخلوق تجده يسعىٰ لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضارِّ عنه حتَّىٰ إنَّ الله تعالىٰ أعطىٰ الحيوان البهيم من العقل ما يتمكَّن به علىٰ ذلك»[3].

ومن مظاهر هذه الهداية، أنَّ الله تعالىٰ هدىٰ الشمس والقمر والنجوم لسيرها في أفلاكها، فقال سبحانه: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨ - ٤٠].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٣٥).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٤٣٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٠٧).

وتلك الهداية المعنوية تكملها هداية حسية يعيشها العبد في كل لحظة من حياته، كما قال تعالىٰ عن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمَّا توجَّه تلقاء مدين: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القَصَص: ٢٢]، وقال تعالىٰ عنه كذلك عندما اقترب منه عدوُّه وخاف قومه: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٦١ - ٦٢].

وهذه الهداية الربانية لا يدركها إلا المؤمن، وقد جعل الله لها أسباباً مادية، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأَنْعَام : ٩٧] ، وقال تعالىٰ في قصة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه : ١٠]، وقال سبحانه في شأن ملكة سبأ: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النَّمْل : ٤١] ، كل ذلك من الله تعالىٰ وحده، قال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النَّمْل : ٦٣]، فهذه الهداية بكل أنواعها إنَّما هي من الله وحده، قال تعالىٰ: وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزُّخْرُف : ١٠].

ثانيًا: هداية البيان والإرشاد:

وعد الله تعالىٰ عباده بإنزال الهدىٰ إليهم منذ أن أهبطهم إلىٰ الأرض، قال تعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البَقَرَة:٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[طه: ١٢٣].

وهذا الهدىٰ أنزله الله تعالىٰ علىٰ رسوله محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١١٣]، كما أنزله علىٰ الرسل من قبله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإِسْرَاء: ٩٤]، فهو أنزله علىٰ رسله وبيّنه بيانًا شافيًا لعباده ولم يجبرهم عليه، قال تعالىٰ: ﴿أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فُصِّلَت : ١٧]، فهداهم هداية إرشاد، ببعثة رسولٍ إليهم، وإقامة الحجَّة عليهم، ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فلم ينتفعوا بالهداية التي بيَّنها الله تعالىٰ لهم، لكنهم رفضوا هداه واتبعوا أهواءهم بغير علم ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البَقَرَة : ١٢٠ – ١٢١].

وهـذه الهداية شـاملة لجميع الخلق، وهـي ضرورية لإقامـة الحجَّة عليهـم، وهـي في أصلها مـن الله تعالىٰ، لكنَّه نسـبها إلىٰ كتابه ورسـوله من باب كونها سـببًا للهداية.

فاتِّباع القرآن والرسول هو الطريق الموصل للهداية إلىٰ الصراط المستقيم، كما قال تعالىٰ عن القرآن: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [سَبَإ: ٦]، وقال تعالىٰ عن هداية رسوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشُّورَى : ٥٢]، فهدايته هي هداية بلاغ وبيان، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المَائِـدَة : ٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النَّحل: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِى مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشُّورَى: ٥٢]، أي: ترشد وتدلّ إلىٰ هذا الصراط المستقيم الذي هدىٰ لجملة «ما يوصل إلىٰ السعادة في الدنيا والآخرة من عقائد، وأحكام، وآداب، وتشريع ديني؛ كالعلم الصحيح بالله، والنبوة، وأحوال الكون، وأحوال الاجتماع»[1].

وهذا الهدىٰ المنزل من عند الله يجب بيانه للناس ولا يجوز كتمانه حتىٰ يتحقَّق الإرشاد للناس، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ

(١) تفسير المراغي (١/ ٣٥).

ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٩]، كما أنَّ الله أرسل رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الهدىٰ والدين الحق؛ ليظهره علىٰ الدين كله، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفَتْح: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصَّف: ٩]، ومهمة الأنبياء الرئيسة هو القيام بهداية الناس ودلالتهم إلىٰ هداه، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأَنبِيَاء : ٧٣].

ثالثًا: هداية التَّوفيق والثَّبات:

هذه الهداية تختص بانشراح الصدر للحق والطمأنينة إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأَنْعَام: ١٢٥]، وبجعل الهداية في قلوب الخلق، وتوفيقهم وإعانتهم للعمل بالهدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة:١٨٥]، ولعِظَم هذه الهداية أمر الله بتكبيره وشكره، فهي أعظم النعم علىٰ الإطلاق، إذ بها يستقيم القلب والجوارح علىٰ طاعة الله.

وتشمل هذه الهداية التوفيق إلىٰ الاستقامة والثبات عليها، وهو من المعاني الواردة في دعاء المؤمنين في كل صلاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفَاتِحَة: ٦] أي وفقنا للاستمرار عليه وزيادتنا فيه.

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثر من الدعاء قائلًا: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ دِينِكَ»[1].

كما بيَّن الله أنَّ من استجاب لله زاده هداية وتقوىٰ، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [مُحَمَّد: ١٧].

وهذه الهداية العظمىٰ قد دلَّ القرآن دلالةً واضحة علىٰ أنَّها لا تكون إلَّا من الله عَزَّوَجَلَّ، فهي خارجة عن قدرة البشر، قال تعالىٰ: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾ [الإِسْرَاء: ٩٧]، وبيّن سبحانه أنَّ هذا الحق الذي أنزله هو النور الذي به يهدي من يشاء، قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشُّورَى: ٥٢]، وكذلك بيّن أنَّ الإيمان لا يكون إلَّا بتوفيقه وإرادته، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [يُونُس: ١٠٠]، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ من شاء الله هدايته فلن يضلَّه شيء، ولو اجتمعت عليه أسباب الضلال، ومن لم يرد الله له الهداية فلن يهتدي، مهما عظمت أسباب الهداية، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾ [الأَنْعَام: ١١١].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح١٧٦٣٠، ٢٩/ ١٧٨)، والبخاري في الأدب المفرد (ح٦٨٣، ص٢٥٣)، وابن ماجه في سننه (ح١٩٩، ١/ ٧٢)، وصححه ابن حبان في صحيحه (ح٤٧١٤، ٥/ ٤٤٢)، والحاكم في المستدرك (ح٣١٤٠، ٢/ ٣١٧)، وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وهذه الهداية منفيَّة عن سائر الخلق من كلِّ الوجوه ، حتىٰ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال تعالىٰ له: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النَّحل : ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القَصَص : ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة : ٢٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [النَّمل : ٨١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النَّحل : ٣٧]، وغيرها.

وبيّن الله أنَّ الهداية المطلقة لا تُنال إلَّا بإرادته، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزُّمَر: ٣٦ – ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النِّسَاء: ٨٨].

وقد جمع الله بين هداية الإرشاد وهداية التوفيق في آية واحدة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يُونُس : ٢٥].

وكلُّ هدايةٍ نفاها الله عن النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن البشر، وذكر أنَّهم غير قادرين عليها هي متعلِّقة بهداية التوفيق، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة : ٢٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المَائِدَة: ١٠٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يُوسُف: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزُّمَر : ٣].

رابعًا: هداية الآخرة:

هذه الهداية هي التي تقود أهل الجنة إلىٰ الجنة وأهل النار إلىٰ النار، وهي مرتبطة بإيمان العبد أو كفره في الدنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يُونُس : ٩].

وكما أنَّ الله يهدي أهل الإيمان إلىٰ دار النعيم، فإنَّه يهدي أهل الكفر والظلم إلىٰ العذاب والجحيم، كما قال سبحانه: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصَّافَّات : ٢٢ - ٢٣].

فمن هداه الله للإيمان والعمل الصالح في الدنيا، فقد اصطفاه وخصَّه بفضله، ووفَّقه إلىٰ الطريق الموصل إلىٰ جنَّته. وقد اعترف أهل الجنة أنفسهم بهذه النعمة العظيمة، فقالوا: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ٤٣].

ترابط مراتب الهداية الأربع:

هذه الهدايات الأربع تتفاوت في شمولها ومدىٰ تحققها في الخلق:

- **هداية الفطرة والإلهام:** وهي عامَّة تشمل جميع المخلوقات بلا استثناء، فكل كائن حي يهتدي بالفطرة إلىٰ ما يصلحه ويقيه الضرر.

- **هداية البيان والإرشاد:** وهي مبسوطة للإنس والجن جميعًا، سواء آمنوا أم كفروا، فقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وأقام الحجج علىٰ خلقه.
- **هداية التوفيق والثبات:** وهي خاصة بأهل الإيمان، إذ يمنحهم الله التوفيق للعمل بالهدىٰ والاستقامة عليه، وهذه الهداية هي أعظم النعم التي يمنحها الله لعباده المخلصين.
- **هداية الآخرة:** وهي الهداية التي تكون بحسب كسب العبد، فمن اهتدىٰ في الدنيا هداه الله إلىٰ الجنة، ومن ضلَّ في الدنيا قاده ضلاله إلىٰ النار، ونسأل الله السلامة منها.

وهذه الهدايات مترابطة فيما بينها، إذ تُعدّ كل مرتبة منها مؤهلة للمرتبة التي تليها:

- هداية الفطرة والعقل هي التي تهيئ الإنسان لفهم هداية الإرشاد وقبولها.
- وهداية الإرشاد هي التي تمهّد لهداية التوفيق، فمن قَبِل الحق وعمل به كان مستحقًّا للتثبيت عليه.
- وهداية التوفيق هي التي تؤهِّل العبد للهداية في الآخرة، حيث يُجازىٰ بحسب عمله.
- فمن نال الهداية الرابعة –وهي هداية الآخرة إلىٰ الجنة– فقد حصل علىٰ جميع الهدايات التي سبقتها، ومن نال الهداية الثالثة –وهي التوفيق– فقد نال ما قبلها من الفطرة والإرشاد. أمَّا من لم يُمنح إلَّا الهداية الأولىٰ (الفطرة)، فقد لا يحصل علىٰ ما بعدها إنْ لم يُحسن الاستفادة منها.

وقد بيّن بعض أهل العلم هذا التسلسل بقولهم: «ومَن حصلت له الرابعة حصلت له الثَّلاث الَّتي قبلها، ومن حصلت له الثَّالثة فقد حصلت له الاثنتان اللَّتان قبلها، وقد لا تنعكس. فالإنسان قد تحصل له الأولىٰ ولا تحصل له الثانية ولا الثالثة ولا الرابعة»[1].

ثالثاً: الهداية: أعظم مطلب وأجلُّ نعمة:

الهداية هي أعظم ما يطلبه العبد من ربه، ولذلك أمرنا الله أن ندعو بها في كل ركعة من صلاتنا، فقال سبحانه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفَاتِحَة : ٦]. وكما أنَّ طلب الهداية هو أعظم المطالب، فإنَّ الثبات عليها هو رجاء الأتقياء، كما جاء في دعائهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عِمۡرَان : ٨].

والهداية ليست مجرد مطلب عظيم، بل هي أعظم نعمة يمنُّ الله بها علىٰ عباده، ولذلك سمَّىٰ أهلها «المنعَم عليهم»، فقال سبحانه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفَاتِحَة : ٧]، فهم أهل النعمة الحقيقية في الدنيا والآخرة، وكل نعيم سواها زائل وناقص، أمَّا الهداية فهي نعمة دائمة، وسبب لكل سعادة، وبقدر ما يكمِّلها العبد في نفسه تتحقَّق له سعادته في الدنيا والآخرة. ومن هنا كان أسعد الناس وأكملهم هم الأنبياء والمرسلون؛ لكمال هدايتهم وتمام اتِّباعهم للحقِّ.

---

(١) تصويبات في فهم بعض الآيات، للأستاذ الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص:١٢٦).

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحرص علىٰ سؤال الله الهداية في كل أمر، خاصَّة فيما اختلف فيه الناس من الحقِّ، ففي حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، قال: «سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ: بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ بـ: «اللَّهُمَّ! رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم» [1].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ح٧٧٠، ١/ ٥٣٤).

المبحث الثاني

الأوعية الثلاثيَّة لهدى الإرشاد

الله تعالىٰ جعل الهدىٰ في ثلاثة أوعية طاهرة، وهي كما يلي:

الوعاء الأول: الكتاب العزيز:

وهو الكتاب الذي وصفه الله بأنَّه هدىٰ ونور وشفاء ورحمة، يهدي للتي هي أقوم. قبل أن يُنزَّل، كان محفوظًا في كتاب مكنون وصحف مطهرة. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الوَاقِعَة : ٧٧ - ٨٠]، كما وصفه الله بأنه في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة، فقال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عَبَس : ١١ - ١٦].

وجعله في كتاب كريم وفي صحف مطهرة بعد ما أنزله، قال تعالىٰ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البَيِّنَة : ١ - ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة : ١٠١]، وأحاط هذا الوعاء الكريم بحفظه وعنايته الدائمة من العبث والتحريف، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت : ٤١ - ٤٢].

الوعاء الثاني: قلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وهو أطهر قلب عرفته البشرية، وقد طهره الله تعالىٰ حسياً ومعنوياً للوحي، فكان القرآن الكريم يفيض من قلبه علىٰ أمته، بما يسره الله تعالىٰ عليه من بلاغه وبيانه كما سمعه. قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البَقَرَة: ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٣ - ١٩٤]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القِيَامَة: ١٦ - ١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مَرْيَم: ٩٧].

فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير وعاء حمل القرآن لفظاً ومعنىٰ، وبلَّغه كما وعاه.

قال محمد الأمين الشنقيطي: «قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾. ظاهر هذه الآية أن جبريل ألقىٰ القرآن في قلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير سماع قراءة؛ ولكنه بين في مواضع أخر أن معنىٰ ذلك أن الملك يقرأه عليه حتىٰ يسمعه منه، فتصل معانيه إلىٰ قلبه بعد سماعه، وذلك هو معنىٰ تنزيله علىٰ قلبه، وذلك كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القِيَامَة: ١٦ - ١٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]»[1].

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ٩٨).

وقد وصف الله تعالىٰ رسوله الذي أُنزل عليه القرآن الكريم بأنه هدىٰ، وجعل الهداية في أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشُّورَى:٥٢]. فكان الوعاء الأول للهدىٰ هو الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المرسل بالحق، مبشراً ونذيراً، هدىٰ ورحمة للعالمين.

الوعاء الثالث: البيت العتيق:

وهو المسجد الحرام، والكعبة المشرفة، والبلد الأمين، مهبط الوحي، ومأرز الإيمان، وقبلة أهل الإسلام، ومقصدهم بالحج والعمرة والطواف، والدعاء والنسك. وهو خير البقاع وأطهرها وأقدسها، كما ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «واللهِ إنكِ لخيرُ أرضِ اللهِ، وأحبُّ أرضِ اللهِ إلىٰ اللهِ، ولولا أني أُخرجتُ منكِ ما خرجتُ» (١).

وهي بلد مقدَّس، حرم محميّ بعنايته منذ أن خلق السماوات والأرض، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ افْتَتَحَ مَكَّةَ: «فَإِنَّ هَذَا بَلَدٌ حَرَّمَ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا، وَلَا يُخْتَلَىٰ خَلَاهَا. قَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا الْإِذْخِرَ، فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ، قَالَ: قَالَ إِلَّا الْإِذْخِرَ» (٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (كتاب المناقب، باب في فضل مكة، رقم الحديث ٣٩٢٥)، وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ (كتاب المناقب، باب حب النبي ﷺ لمكة، رقم الحديث ٨٦١٤)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الحج، باب: لا يحل القتال بمكة، ح١٨٣٤، ٣/ ١٤)، ومسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد، علىٰ الدوام، ح١٣٥٣، ٢/ ٩٨٦).

وهو محفوظ من عبث الطغاة، ومعزز بالآيات البينات، وهو المكان الوحيد الذي وصفه الله بالهدىٰ، دون سائر البيوت والبلدان، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَلَمِينَ﴾ [آل عِمْرَان : ٩٦].

وإذا كان القرآن الكريم هاديًا بما تضمنه من حروفٍ مثبتةٍ وآياتٍ متلوّة، وكان النبي صلىٰ الله عليه وسلم مرشدًا بهديه القولي والفعلي والتقريري والخلقي، فإن البيت الحرام كذلك يُعدُّ مرشدًا بمعالمه المكانية والزمانية، وتاريخه الممتد، وآثاره المباركة، وفيوض أنواره الربانية.

خلاصة أوعية الهدىٰ الثلاثة:

- **كتاب طاهر**: حفظ فيه الوحي، فجعله هدىٰ وذكرىٰ وشفاء ورحمة للعالمين.
- **قلب طاهر**: أُنزل فيه الوحي، فوعاه، وبلغه، وطبقه، فكان أسوة للعالمين.
- **بيت طاهر**: جعله الله مصدر إشعاع روحي، يفيض بمعاني الوحي للعالمين.

وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ هذه الأوعية الثلاثة، وسنتناول كل واحد منها بشيء من التفصيل في المطالب القادمة.

المطلب الأول: القرآن الكريم هدى للعالمين:

القرآن الكريم هو النور والهدىٰ والشفاء والرحمة، جعله الله تعالىٰ أعظم وعاء لهداية البشرية للتي هي أقوم، وهو كلام الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل

من بين يديه ولا من خلفه، ورسالته الخالدة للعالمين، فجاء بالحق المبين، مشتملًا على الهداية الشاملة التي تصلح أحوال الناس في دينهم ودنياهم. وحتى يتضح موضوع هداية القرآن الكريم **سوف أتناوله من خلال تسع نقاط مهمة، وهي:**

١/ القرآن كلام الله ومعجزة الإسلام الخالدة:

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى حقًّا، أنزله على عباده ليكون هدايةً ونورًا، أتمّه بالصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، فلا تبديل لكلماته، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التَّوْبَة : ٦] ، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأَنْعَام: ١١٥].

وهو معجزة الرسالة الدَّالة على صدقها، وحجَّة الله الباقية التي أيَّد بها نبيَّه، وقد تحدّى الله بها الإنس والجن أن يأتوا بمثله، فعجزوا عن ذلك، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإِسْرَاء : ٨٨]، بل تحداهم بأقل من ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة : ٢٣ – ٢٤].

وقد أكدت السنة النبوية ذلك كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيَّ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(١)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي، وأول ما نزل، =

وهو الكتاب الذي جعله الله خاتمًا لكتبه، مصدِّقًا لما قبله، ومهيمنًا عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يُونُس: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائِدَة: ٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يُوسُف: ١١١].

وحتىٰ يكون معجزة باقية وحجة خالدة تولَّىٰ الله عَزَّوَجَلَّ حفظه بنفسه، فلم يُوكل هذا الأمر إلىٰ غيره كما حدث مع الكتب السماوية السابقة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجْر: ٩].

قال الألوسي في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحِجْر: ٩]: «أي من كلِّ ما يقدح فيه، كالتحريف، والزيادة والنقصان، وغير ذلك، حتىٰ إنَّ الشيخ المهيب لو غيَّر نقطة يردُّ عليه الصبيان ويقول له من كان: الصَّواب كذا، ويدخل في ذلك استهزاء أولئك المستهزئين وتكذيبهم إيَّاه دخولًا أوليًّا، ومعنىٰ حفظه من ذلك: عدم تأثيره فيه، وذبّه عنه، وقال الحسن: حفظه بإبقاء شريعته إلىٰ يوم القيامة، وجوَّز غير واحد أن يراد حفظه بالإعجاز في كلِّ وقت كما يدلُّ عليه الجملة الاسميَّة من كلِّ زيادة ونقصان وتحريف وتبديل، ولم يحفظ سبحانه كتابًا من الكتب كذلك؛ بل استحفظها جلّ وعلا الربانيين والأحبار، فوقع فيها ما وقع، وتولَّىٰ حفظ القرآن بنفسه سبحانه فلم يزل محفوظًا أوَّلاً وآخرًا»[1].

= ح٤٩٨١، ٦/ ١٨٢)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلىٰ جميع الناس ...، ح١٥٢، ١/ ١٣٤).

(١) روح المعاني (٧/ ٢٦٣).

فهو محفوظ من الزيادة والنقص، والتَّغيير والتبديل، ليبقىٰ معينًا صافيًا للأمَّة تهتدي به في كلِّ زمان ومكان، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت : ٤١ - ٤٢]، وكيف لا يكون كذلك وقد أنزله الله ليكون بيانًا للحق، وهداية ورحمة للخلق فيما هم فيه يختلفون، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النَّحل: ٦٤].

٢/ القرآن الكريم: الأصل الأول للهداية:

إنَّ القرآن الكريم هو المصدر الأول للهدىٰ الذي أنزله الله تعالىٰ لهداية الإنس والجن إلىٰ الصراط المستقيم في شؤونهم الدنيوية والأخروية. فالهدىٰ هو جوهر القرآن ومقصده الأساسي، وقد أكَّد الله تعالىٰ هذه الحقيقة في آيات متعددة، حيث وصف كتابه بأنَّه يهدي إلىٰ الحق، وإلىٰ الصراط القويم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[الإسرَاء : ٩]، أي إنَّ القرآن يرشد إلىٰ الطريق الأكثر استقامة في العقائد والأخلاق والأحكام.

وهو النور الذي يبدِّد ظلمات الجهل والضَّلال، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبرَاهِيم : ١]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المَائِـدَة : ١٥ - ١٦]، ممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ القرآن هو طريق السلام والسعادة لمن اهتدىٰ به.

وهو الشفاء للأمَّة من عللها، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يُونُس : ٥٧]، حيث يجمع القرآن بين كونه هدايةً، ورحمةً، وشفاءً للأرواح والعقول، وهو الروح الذي تحيا به النفوس، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشُّورَى : ٥٢].

وهو الفرقان الذي فرق الله تعالىٰ به بين الحق والباطل، قال تعالىٰ: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ [آل عِمْرَان : ٣ - ٤]، ومن هنا، كان كل من لم يعتقد ذلك في كتاب الله تعالىٰ قد خسر خسرانا مبينا، قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ [الجَاثِيَة : ١١]، وغيرها من أدلة كثيرة في القرآن الكريم.

لم يكن هدىٰ القرآن محصورًا علىٰ الإنس فحسب، بل شمل الجن أيضًا، فقد أخبر الله تعالىٰ عن شهادة الجن بعد استماعهم للقرآن بقولهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجِن : ١ - ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأَحْقَاف : ٣٠]، فالقرآن هدًى لكل من استمع إليه بقلب منفتح، وعقل واعٍ من الإنس والجن.

فالاهتداء بالقرآن من أصول الإيمان المتفق عليه بين علماء الأمَّة من عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلىٰ يومنا هذا، قال ابن تيمية: «من الأصول المتفق

عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنَّه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه، ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجده، فإنَّهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيَّات والآيات البيِّنات أنَّ الرسول جاء بالهدىٰ ودين الحقِّ، وأنَّ القرآن يهدي للتي هي أقوم»[1].

فالسعادة الحقيقية والفلاح في الدنيا والآخرة مرتبطان بالتمسك والاهتداء بالقرآن، قال رسول الله: ﷺ «**وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ. كِتَابُ اللهِ**»[2]، فمن تمسك بالقرآن نال سعادة الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنه نال شقاء الدنيا والآخرة، فهو الهادي إلىٰ سواء السبيل، وهو شفاءٌ لما في الصدور، وهو كتاب الحياة الحقيقية لمن أراد الفلاح في الدنيا والآخرة.

٣/ عالمية هداية القرآن الكريم:

يتميَّز القرآن الكريم بعالميته في الهداية، فلم يأتِ كتابًا مخصوصًا بقومٍ دون آخرين، أو محصورًا في أمَّةٍ بعينها، أو لجيل أو قرن محدد؛ بل أنزله الله تعالىٰ ليكون مصدر الهداية لجميع البشر، في مختلف الأزمان والأمكنة، متجاوزًا حدود الزمان والمكان، قال تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٢٨، ٢٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم الحديث ١٢١٨).

رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النِّسَاء : ١٧٤ - ١٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجَاثِيَة : ٢٠]، فهو هدايةٌ عامَّةٌ لجميع الناس، وليس خاصًّا بجنسٍ أو قوميةٍ أو مجتمعٍ محدد.

والله تعالىٰ كما نصَّ علىٰ عمومه للناس، نصَّ كذلك علىٰ هدايته للعالمين في عدد من المواضع في كتابه، قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفُرْقَان : ١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القَلَم: ٥١ - ٥٢]

قال ابن تيمية: «فإنَّه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام: أنَّ رسالة محمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجميع الناس: عربهم وعجمهم، وملوكهم وزهادهم، وعلمائهم وعامَّتهم، وأنَّها باقية دائمة إلىٰ يوم القيامة؛ بل عامَّة للثَّقلين الجنّ والإنس، وأنَّه ليس لأحد من الخلائق الخروج عن متابعته وطاعته وملازمة ما يشرعه لأمَّته من الدين. وما سنَّه لهم من فعل المأمورات وترك المحظورات، بل لو كان الأنبياء المتقدِّمون قبله أحياء لوجب عليهم متابعته ومطاوعته. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عِمْرَان : ٨١]. قال ابن عباس: ما بعث الله نبيًّا إلَّا أخذ عليه الميثاق؛ لئن بُعث محمد وهو حيٌّ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه وأمره بأخذ الميثاق علىٰ أمَّته لئن بُعث محمد وهو حيٌّ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه»[1].

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٤٢٢- ٤٢٣).

ولا يجوز لأحد من الخلق التَّخلُّف عن الإيمان به واتِّباع هديه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هُود : ١٧].

قال الشنقيطي: «صرَّح تعالىٰ في هذه الآية الكريمة: أنَّ هذا القرآن لا يكفر به أحد كائنًا من كان إلَّا دخل النار. وهو صريح في عموم رسالة نبيِّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ جميع الخلق. والآيات الدالة علىٰ ذلك كثيرة»[(١)].

فهداية القرآن الكريم ليست مقصورة علىٰ أمَّةٍ دون أخرىٰ، أو جنسٍ دون غيره، بل جعلها الله تعالىٰ رحمةً وهدايةً شاملةً للناس كافة، في كل زمانٍ ومكان.

٤/ خصوصية هداية القرآن للمؤمنين:

الله تعالىٰ بيَّن في مواضع من كتابه عموم هداية كتابه للناس كافة، وخصَّ الله تعالىٰ في بعض المواضع أهل التقوىٰ واليقين والإيمان والإسلام بإضافة الهداية إليهم، لأنَّهم المنتفعون بها انتفاعًا كاملًا، من حيث هداية الإرشاد والتوفيق، وذلك من باب العناية والتكريم والتشريف، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة : ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجَاثِيَة : ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ٢٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فُصِّلَت : ٤٤].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ١٨).

قال السمعاني: «أي: هدىً للأبصار، وشفاء للقلوب»[1]، وقال تعالىٰ: ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النَّحل: ٨٩]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النَّحل: ١٠٢].

وجمع الله تعالىٰ بين العموم والخصوص في آية واحدة في قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٣٨]، فعن قتادة قال: «وهو هذا القرآن، جعله الله بيانًا للناس عامَّة، وهدىً وموعظة للمتقين خصوصًا»[2].

فبهذا يتَّضح أنَّ القرآن هدًى للناس كافَّة، وتخصيص الهداية للمتقين من باب العناية والتشريف، ولأنَّهم هم المنتفعون به حقًّا؛ لجمعهم بين هداية الإرشاد وهداية التوفيق، فحقَّقوا كمال معنىٰ الهداية.

٥/ شمولية هداية القرآن الكريم لمصالح العباد:

إنَّ هداية القرآن الكريم كما أنَّها عالمية تشمل جميع البشر، فهي -أيضًا- شاملة تستوعب جميع مصالح العباد وحاجاتهم في كل زمانٍ ومكان، فالقرآن لم يترك جانبًا من جوانب الحياة إلَّا وقد بيَّنه، ووضَّح طريق الخير فيه، وأرشد الإنسان إلىٰ ما يصلح له في دينه ودنياه، قال تعالىٰ في بيان كفاية القرآن لهداية الخلق لكل ما يصلحهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ

(١) تفسير السمعاني (٥/ ٥٧).

(٢) جامع البيان الطبري (٧/ ٢٣٢).

عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [العَنكَبُوت : ٥١]، وقال تعالىٰ في بيان شموليته لكل ما يحتاج إليه الناس: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [النَّحل : ٨٩].

قال السعدي:«في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتمّ تبيين بألفاظ واضحة ومعانٍ جليَّة ... فلمَّا كان هذا القرآن تبيانًا لكل شيء صار حجَّة الله علىٰ العباد كلهم. فانقطعت به حجَّة الظالمين وانتفع به المسلمون، فصار هدىً لهم يهتدون به إلىٰ أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالهدىٰ ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح»[1].

وقد أكَّد - ابن القيم - أنَّ القرآن الكريم شاملٌ لكل ما يحتاج إليه العباد من المعارف والعلوم والأعمال التي تحقق لهم الصلاح في الدنيا والآخرة، فلا يحتاجون إلىٰ مصدرٍ آخر غيره، إلَّا لمن يقوم بتبليغه وشرحه لهم، فقال:«فمن لم يستقرَّ هذا في قلبه لم يرسخ قدمه في الإيمان بالرسول، بل يجب الإيمان بعموم رسالته في ذلك، كما يجب الإيمان بعموم رسالته بالنسبة إلىٰ المكلَّفين، فكما لا يخرج أحد من الناس عن رسالته البتَّة، فكذلك لا يخرج حقّ من العلم به، والعمل عمَّا جاء به، فما جاء به هو الكافي الذي لا حاجة بالأمَّة إلىٰ سواه، وإنَّما يحتاج إلىٰ غيره من قبل نصيبه من معرفته وفهمه؛ فبحسب قلَّة نصيبه من ذلك تكون حاجته، وإلَّا فقد توفي رسول الله ﷺ وما

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٤٧).

من طائر يقلِّب جناحيه في السماء إلَّا وقد ذكر للأمَّة منه علمًا وعلَّمهم كل شيء؛ حتىٰ آداب التخلي، وآداب الجماع، والنوم والقعود، والأكل والشرب، والركوب والنزول، ووصف لهم آداب العرش والكرسي، والملائكة، والجنَّة والنار، ويوم القيامة وما فيه حتىٰ كأنَّه رأي عين، وعرَّفهم بربِّهم ومعبودهم أتم تعريف؛ حتىٰ كأنَّهم يرونه بما وصفه لهم به من صفات كماله ونعوت جلاله، وعرَّفهم الأنبياء وأممهم وما جرىٰ لهم معهم حتىٰ كأنَّهم كانوا بينهم، وعرَّفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرِّفه نبي لأمَّته قبله، وعرَّفهم من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ، وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن؛ ما جلَّىٰ لهم ذلك حتىٰ كأنَّهم يعاينوه، وكذلك عرَّفهم من أدلَّة التوحيد، والنبوة، والمعاد، والردّ علىٰ جميع طوائف أهل الكفر والضَّلال، ما ليس لمن عرفه إلىٰ كلام أحد من الناس البتَّة، وكذلك عرَّفهم من مكايد الحروب، ولقاء العدو، وطرق الظفر به، ما لو علموه وفعلوه لم يقم لهم عدوًّا أبدًا، وكذلك عرَّفهم من مكائد إبليس؛ طرقه التي يأتيهم منها ويحترزون به من كيده ومكره، وما يدفعون به شرّه ما لا مزيد عليه، وكذلك عرَّفهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحوال نفوسهم، وأوصافها، ودسائسها وكمائنها، ما لا حاجة لهم معه إلىٰ سواه، وكذلك عرَّفهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمور معايشهم ما لو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة.

وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمَّته، ولم يحوجهم الله إلىٰ أحدٍ سواه، فكيف يظنُّ أنَّ شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل

منها، ناقصة تحتاج إلىٰ سياسة خارجة عنها تكملّها، أو إلىٰ قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها؟! ومن ظنَّ ذلك فهو كمن ظنَّ أنَّ بالنَّاس حاجة إلىٰ رسول آخر بعده، وسبب هذا كلّه خفاء ما جاء به علىٰ من ظنَّ ذلك، وقلَّة نصيبه من الفهم الذي وفَّق الله له أصحاب نبيِّه الذين اكتفوا بما جاء به، واستغنوا به عمَّا سواه، وفتحوا به القلوب والبلاد»[1].

فالهداية بالقرآن ليست محصورة في العبادات فقط، بل تشمل جميع مجالات الحياة، فهو يرشد في السياسة، والاجتماع، والأخلاق، والمعاملات.

قال ابن عاشور: «فالقرآن لم يزل ولن يزال هدىٰ للمتقين، فإنَّ جميع أنواع هدايته نفعت المتقين في سائر مراتب التقوىٰ، وفي سائر أزمانه وأزمانهم علىٰ حسب حرصهم ومبالغ علمهم واختلاف مطالبهم، فمن منتفع بهديه في الدين، ومن منتفع في السياسة وتدبير أمور الأمَّة، ومن منتفع به في الأخلاق والفضائل، ومن منتفع به في التشريع والتفقه في الدين... فإن قصر بأحد سعيه عن كمال الانتفاع به، فإنَّما ذلك لنقص فيه لا في الهداية، ولا يزال أهل العلم والصلاح يتسابقون في التحصيل علىٰ أوفر ما يستطيعون من الاهتداء بالقرآن»[2].

ومن جعل حياته كلها علىٰ هدىٰ القرآن، هداه الله تعالىٰ للتي هي أقوم في مناحي الحياة كلها، وتحقَّقت له سعادة الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٢٧).

﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء : ٩]. قال السعدىٰ: «ما أعظمَ هذه القاعدةَ، وما أحكم هذا الأصلَ العظيمَ الذي نصَّ الله نصًّا صريحًا علىٰ عموم ذلك، وعدم تقيُّد هذا الهدىٰ بحالة من الأحوال؛ فكلّ حالة هي أقوم؛ في العقائد، والأخلاق، والأعمال، والسياسات الكبار والصغار، والصناعات، والأعمال الدينية والدنيوية، فإنَّ القرآن يهدي إليها ويرشد إليها، ويأمر بها ويحثُّ عليها»[1].

٦/ شدَّة حاجة الأمَّة إلىٰ هداية القرآن الكريم:

إنَّ القرآن الكريم هو النور الذي أخرج الله به البشرية من ظلمات الجهل والضَّلال إلىٰ نور الإيمان والهدىٰ، وهو الروح التي تُحيِي القلوب، والدواء الذي يشفي النفوس من أمراضها، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونُس : ٥٧]. ومن هنا، كان الابتعاد عن القرآن هو الضلال والشقاء، وتسليم النفس لحزب الشيطان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزُّخْرُف : ٣٦ - ٣٧].

والقرآن مصدر العزة وسر نهضة الأمَّة، وهو الذي رفع الأمَّة الإسلامية وجعلها في الصدارة يوم أن اعتصمت به، ويصنع به أمَّة ثانية وثالثة يوم أن تعود إلىٰ رياضه الخصبة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص: ١٤٦).

مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النِّسَاء : ١٧٤ – ١٧٥].

وكما لا يستطيع الإنسان العيش دون غذاء، فإنَّه لا يستطيع أن يحيا حياة طيبة دون القرآن، فهو غذاء الروح، ونور القلب، وهداية الحياة، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشُّورَى : ٥٢]. فلنعد إلىٰ كتاب الله، تلاوةً وتدبرًا وعملًا، ليعود لنا مجدنا وعزنا كما كان، فالتغافل عن القرآن يُشبه مريضًا يرفض تناول الدواء، فيزداد مرضه حتىٰ يهلك. فالحاجة إلىٰ القرآن تفوق كل حاجة، فهو الروح التي تُحيِي الأمَّة، والنور الذي يرشدها، والدواء الذي يشفيها.

ولمَّا كانت الأمَّة كلها في حاجة دائمة حفظه الله تعالىٰ ليبقىٰ هاديًا للبشرية إلىٰ يوم القيامة، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحِجْر : ٩]. كما جعله ميسَّرًا للذكر والتدبر ليسهل علىٰ الجميع الاهتداء به، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القَمَر : ١٧].

فالقرآن هو سرُّ حياة الأمَّة، به عزها ونهضتها، وبدونه يكون الضياع والشقاء. فلا نجاة إلَّا بالتمسك به، تلاوةً وتدبرًا وعملًا، فلتكن قلوبنا عامرة بآياته، وأعمالنا شاهدة علىٰ هدايته، حتىٰ ننال سعادة الدنيا والآخرة.

٧/ مَنْ استهدىٰ بالقرآن هداه الله للتي هي أقوم:

القرآن هدىٰ الله تعالىٰ يهدي ويرشد من اهتدىٰ به من ظلمات الكفر والشرك إلىٰ نور الإيمان والتوحيد، ومن الضلال إلىٰ الهدىٰ، ومن الجهل إلىٰ العلم، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزُّمَر : ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأَنْعَام: ٨٨]، فهو هدىٰ يرشد العباد إلىٰ طريق الحق، ولما يُصلح أحوالهم في الدنيا والآخرة.

والهداية بالقرآن ليست مجرد قراءة أو سماع، بل تتحقق لمن يتبع أوامره بإخلاص ويسير وفق منهاجه بصدق، قال تعالىٰ: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المَائِدَة: ١٦].

ولا تقتصر هداية القرآن علىٰ الإرشاد، بل تمتد لتكون شفاءً لما في الصدور، تزيل الشكوك والاضطرابات، وتمنح القلب طمأنينة وسكينة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يُونُس : ٥٧].

ومن هنا أمر الله تعالىٰ باتباع القرآن والتمسك به وعدم اتباع غيره لنهتدي، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ

وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأَعْرَاف : ٢ - ٣]، وأمر أن تكون المجاهدة به في إقامة الحجَّة ورد شبهات أهل الضلال، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾ [الفُرْقَان : ٥٢]، وأمر أن يبلغ وينذر به، قال تعالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأَنْعَام : ١٩].

فمن أخلص في طلب الهداية واتبع القرآن بصدق، هداه الله إلىٰ الحق في كل شؤونه، وجعل له من أمره رشدًا في الدنيا والآخرة، فهو النور الذي أشرق علىٰ البشرية، والميزان الذي يزن به العباد أعمالهم، والمصدر الخالد للهدىٰ والرشاد.

٨/ طرق الوصول إلىٰ هداية القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو كتاب هداية أُنزِل للإنسان ليُرشدَه إلىٰ الطريق الصحيح ويُبصِّره بالحقيقة، ولكن لا بد من معرفة الطرق التي من خلالها يُمكن للإنسان أن يصل إلىٰ هذه الهداية ويستفيد منها. ووفقًا لما ورد في القرآن الكريم، **فإن هناك عدة طرق تساهم في الوصول إلىٰ الهداية، منها:**

أ/ السعي لفهم معاني القرآن ومعرفة تفسيره: قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النَّحْل : ٤٤] ، فمن طرق الوصول إلىٰ الهداية هو فهم معاني القرآن الكريم، وهذا لا يتم إلا من خلال تعلم تفسير القرآن، وقد كان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يبين لأصحابه معاني القرآن، وهذه سنة يجب أن نتمسك بها في تعلم ديننا وفهمه بشكل صحيح.

ب/ التَّدبُّـر، والتَّفكُّـر في آيات القرآن: قال تعالىٰ: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّـرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النَّحل: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحَشْر: ٢١].

فالتدبر في آيات القرآن يعني التفكير العميق في معانيها وما تحمله من رسائل إلهية، والتأمل في هذا الكتاب الكريم يفتح أمام المؤمن أبواب الفهم والهدىٰ. ومن خلال التأمل في الآيات، يتمكن الإنسان من استخراج الدروس والعبر التي تساعده علىٰ السلوك في الطريق المستقيم.

ج/ التذكُّر الدائم بالقرآن: قال تعالىٰ: ﴿وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأَنْعَام: ١٢٦]، والتذكير المستمر بمعاني القرآن وتطبيقها في حياتنا اليومية يعين علىٰ الهداية. التذكر ليس فقط بقراءة القرآن، ولكن بالتفكر في معانيه واستحضار هدايته وتطبيقها في السلوك اليومي.

هـ/ إدراك قدرة القرآن علىٰ التأثير: قال تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحَشْر: ٢١]، فالقرآن الكريم يحمل في طياته تأثيرًا كبيرًا علىٰ النفوس، فإذا كان الجبل سيتصدَّع من خشية الله عند سماعه، فإنَّ الإنسان الذي يتفكَّر في معانيه ويعقلها يجب أن يكون له التأثير الأكبر في قلبه وفي سلوكه، ولا يكون ذلك إلَّا لمن تلقَّاه بقلب واعٍ وسمع مفتوح، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

و/ الاستمرار في تعلم القرآن: وقد خاطب الله تعالىٰ نبيَّه الكريم بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤]. فالعقلاء هم الذين يسعون في تعلم القرآن وفهمه. من خلال طلب العلم المستمر وتعلم التفسير الصحيح؛ إذ يستطيع المسلم أن يقترب أكثر من الهداية، بل إنَّ أهل العلم هم من علموا أنَّه الحقُّ ويهدي إلىٰ سواء السبيل، قال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ : ٦]، فيوجبون العمل به، واتِّباع هديه، والأخذ بما جاء فيه بالتزام أوامره واجتناب نواهيه، والتَّحاكم إليه.

س/ عدم تعطيل حواس الإدراك: قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ١٧٩]، القرآن الكريم يوضِّح أنَّ من يعطِّل حواسه لا يمكنه أن ينال من الهداية. إذا كان القلب لا يفهم، والعين لا ترىٰ، والأذن لا تسمع، فإنَّ الإنسان يصبح في غفلة عن الهداية التي يريد الله له أن يصل إليها.

ح/ العمل بما في القرآن الكريم: قال الله تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأَنْعَام : ١٥٥] ، فالقرآن الكريم ليس مجرد كتاب للتلاوة أو الفهم النظري، بل هو دستور حياة يجب أن يُترجم إلىٰ أفعال وسلوكيات علىٰ الأرض. فالعمل بالقرآن يُعد من أعظم وسائل الوصول إلىٰ الهداية؛ لأنَّه يجعل الإنسان يعيش وفقًا لما يُرضي الله، ويعزز الارتباط بين العلم والعمل، ممَّا يؤدي إلىٰ تطهير النفس، وتهذيب الأخلاق.

فطرق الوصول إلىٰ هداية القرآن الكريم تشمل: فهم معانيه وتفسيره، التدبر والتفكر في آياته، التذكّر الدائم بمعانيه وتطبيقها، إدراك تأثيره في القلوب، الاستمرار في تعلمه، استخدام حواس الإدراك وعدم تعطيلها، والعمل بما جاء فيه، فالهداية تتحقق لمن يسعىٰ لفهم القرآن بقلب واعٍ ويترجم معانيه إلىٰ سلوك عملي في حياته مع صدق النية، وتحقيق التقوىٰ، والابتعاد عن المعاصي والذنوب، والاستعانة بالله تعالىٰ ودعائه وغيرها من أعمال القلوب.

٩/ هجر هداية القرآن أعظم أنواع الهجر:

قد حذَّر الله تعالىٰ في كتابه من هجر القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفُرْقَان : ٣٠]، وذم الله تعالىٰ المشركين بهجرهم وإعراضهم عن كتابه، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المُؤْمِنُون : ٦٦ - ٦٧]، وهجر القرآن أنواع، ومن أعظمه هجر هداياته، فإنَّ القرآن قد أنزله الله تعالىٰ هدىٰ ورحمة للعالمين، فمن ترك الاهتداء به وطلب الهدىٰ من غيره فقد حُرم الخير، وخسر خسرانًا عظيمًا.

وقد أمر الله تعالىٰ في كتابه جميع الناس بالاهتداء به، وحذرهم من الإعراض عنه، فليس لأحد من الناس الاهتداء بغيره بعد نزوله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ [المَائِـدَة: ١٥ - ١٦]، وبين تعالىٰ أن من فعل غير ذلك خسر خسرانًا عظيمًا، وفارق الهدىٰ فراقًا مبينًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾ [الكَهْف: ٥٧]، وهذا بيان عظيم لخطورة هجر القرآن، فإنَّ من أعرض عنه بعد أن بلغه صار قلبه مغلقًا عن الفهم، وسمعه مُصمَّا عن الإصغاء، فلا يهتدي أبدًا إلَّا أن يشاء الله، وهذا هو الخسران المبين.

وقد ذكر عدد من العلماء وحذروا من هذا النوع من الهجران، قال ابن القيم -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في كتابه «الفوائد» أنَّ هجر القرآن علىٰ أنواع، وأعظمها هجر هداياته، ويتفرع منه أنواع أخرىٰ، منها:

«**أحدها**: هجرُ سَماعِهِ والإيمان به والإصغاءِ إليه.

والثاني: هجرُ العملِ به والوقوفِ عند حلالِهِ وحرامِهِ، وإنْ قرأهُ وآمنَ به.

والثالث: هجرُ تحكيمِه والتحاكمِ إليه في أصول الدِّين وفروعِهِ، واعتقادُ أنَّه لا يُفِيدُ اليقينَ، وأنَّ أدلَّتهُ لفظيَّةٌ لا تحصِّلُ العلمَ.

والرابع: هجرُ تدبُّرِه وتفهُّمِه ومعرفةِ ما أراد المتكلِّمُ به منه.

والخامس: هجرُ الاستشفاءِ والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها؛ فيَطلبُ شِفاءَ دائِهِ من غيره، ويَهجُرُ التداويَ به. وكلُّ هذا داخلٌ في قولهِ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [الفُرْقَان: ٣٠]، وإنْ كان بعضُ الهَجْرِ أهونَ من بعضٍ»[(١)].

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ١١٨).

وقال ابن كثير: «وترك علمه وحفظه من هجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلىٰ غيره -من شعر، أو قول، أو غناء، أو لهو، أو كلام، أو طريقة مأخوذة من غيره -من هجرانه»[1].

فالواجب علىٰ المسلم أن يتخذ القرآن منهجًا لحياته، فينهل من هداياته، ويتدبر معانيه، ويجعل أوامره ونواهيه نبراسًا لطريقه، حتىٰ لا يكون من الهاجرين له.

نسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا من أهل القرآن الذين يتلونه حق تلاوته، ويعملون به، ويتبعون هداه، إنَّه ولي ذلك والقادر عليه.

المطلب الثاني: الرَّسول محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هدى ورحمةٌ للعالمين:

تناول القرآن الكريم هذا المحور في آيات كثيرة من جوانب متعددة، ومن خلال الاستقراء والتتبع وجد الباحث أنَّ مهمة الرسول محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مع الهدىٰ دارت في أربعة محاور كليَّة، وهي: (البلاغ – البيان – الأسوة – الدعوة)، إليك الحديث عن كل محور بشيء من التفصيل الذي يبرز معالمه.

المحور الأول: بلاغ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للهدى:

أوَّل ما كلَّف الله نبيَّه محمدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ به هو بلاغ الوحي للناس، وقد أكد القرآن هذه المهمة في عدد من الآيات، كمال قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المَائِدَة : ٦٧] ،

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٠٨).

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المَائِدَة : ٩٢]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المَائِدَة : ٩٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [التَّغَابُن : ١٢]، وهنالك ثلاثة جوانب مهمة تتعلق بهذا البلاغ، هي:

١/ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبلِّغ الهدىٰ وخاتم الأنبياء:

بعث الله تعالىٰ نبيَّه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاديًا للخلق، وختم به سلسلة الأنبياء والمرسلين، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأَحْزَاب : ٤٠]، وقد أُمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببلاغ جميع ما أنزل إليه من الوحي دون كتمان أو نقصان، فقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المَائِدَة : ٦٧]، وكان هذا البلاغ يشمل جميع الوحي المنزل عليه، سواء كان:

وحيًا باللَّفظ والمعنىٰ وهو القرآن الكريم.

أو وحيًا بالمعنىٰ دون اللَّفظ وهي السُّنَّة النبوية، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١١٣].

٢/ شهادة الله تعالىٰ والأمَّة له بكمال التبليغ:

وقد أدَّىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الأمانة بأكمل وجه، ولم يكتم شيئًا من الوحي؛ إذ إنَّ كتمان ما أنزل الله يُنافي مقتضىٰ الرسالة، كما أن الكذب يُنافيها.

قال ابن تيمية: «ومعلوم أنَّه قد بلَّغ الرِّسالة كما أُمر ولم يكتم منها شيئًا؛ فإنَّ كتمان ما أنزله الله إليه يناقض موجب الرِّسالة؛ كما أنَّ الكذب يناقض موجب الرِّسالة. ومن المعلوم من دين المسلمين أنَّه معصوم من الكتمان لشيء من الرِّسالة كما أنَّه معصوم من الكذب فيها. والأمَّة تشهد له بأنَّه بلَّغ الرِّسالة كما أمره الله، وبيَّن ما أنزل إليه من ربِّه وقد أخبر الله بأنَّه قد أكمل الدِّين»[1].

ولا يمكن أن يعلن الله كمال الشريعة مع وجود كتمان فيها، فقد قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ﴾ [المَائِدَة: ٣]، وقد امتثل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر ربه فلم يترك شيئًا من الدين إلَّا وبلَّغه، حتىٰ أثنىٰ الله عليه بقوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التَّكْوِير: ٢٤].

وقد جاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تأكيدًا لهذا المعنىٰ، في الحديث الذي جاء عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أنزل عليه فقد كذب، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ الآية»[2].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٥٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب تفسير القرآن، باب: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك»، ح٤٦١٢، ٦/ ٥٢)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب معنىٰ قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «ولقد رآه نزلة أخرىٰ»، وهل رأىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه ليلة الإسراء؟ ح١٧٧، ١/ ١٥٩).

قال ابن القيم:«وقد شهد الله له ـ وكفىٰ به شهيدًا ـ بالبلاغ الذي أُمر به، فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذَّارِيَات : ٥٤]. وشهد له أَعقَلُ الخلق وأفضلهم وأعلمهم بأنَّه قد بَلَّغَ، فأشهد اللهَ عليهم بذلك في أعظم مجمع وأفضله؛ فقال في خطبته بعرفات في حجَّة الوداع:«(أَنْتُمْ مَسْؤُولُونَ عَنِّي، فَمَاذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟) قالوا: نشهد أنَّك بلَّغت، وأدَّيت، ونصحت. فرفع أصبعه إلىٰ السَّماء مستشهدًا بربِّه الذي فوق سماواته وقال: (اللَّهُمَّ اشْهَدْ)»[1]»[2].

وقال ابن كثير:«وقد شهدت له أُمَّته ببلاغ الرِّسالة، وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل، في خطبته يوم حجَّة الوداع، وقد كان هناك من الصَّحابة نحو من أربعين ألفًا»[3].

٣/ شمولية البلاغ في جميع مجالات الدين:

لم يكن بلاغ النبي ﷺ مقتصرًا علىٰ جانب دون آخر، بل شمل كل ما تحتاج إليه الأمَّة من:

- ✓ العقائد والإيمان.
- ✓ العبادات والمعاملات.
- ✓ الأخلاق والأحكام الشرعية وغيرها.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، ح١٢١٨، ٢/ ٨٨٦).

(٢) الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة (١/ ٤٢٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم ابن كثير (٣/ ١٥١).

قال السَّعدي: «هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلّها، وهو التَّبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كلُّ أمر تلقَّته الأمَّة عنه ﷺ؛ من العقائد، والأعمال، والأقوال، والأحكام الشَّرعيَّة والمطالب الإلهيَّة. فبلَّغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر، وبشَّر ويسَّر، وعلَّم الجهَّال الأمِّيين حتَّىٰ صاروا من العلماء الرَّبَّانيين، وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله. فلم يبقَ خير إلَّا دلَّ أمَّته عليه، ولا شرٌّ إلَّا حذَّرها عنه، وشهد له بالتَّبليغ أفاضل الأمَّة من الصَّحابة، فمن بعدهم من أئمَّة الدِّين ورجال المسلمين»[1].

وكان ذلك التبليغ من أعظم المهام التي كُلِّف بها النبي ﷺ، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المَائِدَة: ٩٩]. وطاعته في هذا البلاغ واجبة، لأنَّها السبيل إلىٰ الهداية، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النُّور: ٥٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مؤكِّدًا هذه الحقيقة: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [التَّغَابُن: ١٢].

المحور الثاني: بيان النبي ﷺ للوحي:

لقد كلَّف الله نبيَّه محمدًا ﷺ ببيان الوحي للناس، فهو المبلِّغ والمبيِّن للهدىٰ أكمل بيان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النَّحل:٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٣٩).

﴿ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النَّحل: ٦٤]، وقد أرسل الله كل رسولٍ بلغة قومه ليكون بيانه لهم واضحًا لا التباس فيه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤]، **وحتىٰ يَّتضح موضوع بيانه للقرآن هنالك ست نقاط مهمة لا بدَّ من فهمها واستيعابها.**

١/ وضوح القرآن الكريم وبيانه:

لا يعني بيان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للوحي أنَّ القرآن الكريم لم يكن مبينًا، بل هو كتاب واضح جليٌّ في ذاته، كما وصفه الله تعالىٰ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النِّسَاء: ١٧٤]، كما أكّد الله تعالىٰ وضوح كتابه في مواضع أخرىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يُوسُف: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ﴾ [النَّمْل: ١]، ووصف آياته بأنَّها بيِّنات جليَّة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [النُّور: ٣٤].

قال السَّعدي: «أي: واضحات الدَّلالة، علىٰ جميع المقاصد الشَّرعيَّة، والآداب المحمودة، والمعارف الرَّشيدة، فاتَّضحت بذلك السُّبل، وتبيَّن الرُّشد من الغي، والهدىٰ من الضَّلال، فلم يبقَ أدنىٰ شبهة لمبطل يتعلَّق بها، ولا أدنىٰ إشكال لمريد الصَّواب؛ لأنَّها تنزيل من كمل علمه، وكملت رحمته، وكمل بيانه، فليس بعد بيانه بيان»[(١)].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٧١).

فهو نورٌ واضح، وبيانٌ كافٍ لمن أراد الحق، يهدي إلىٰ سواء السبيل دون لبس أو غموض، ولكن بعض بيانه جاء في السنة.

٢/ وضوح بيان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

كما وصف الله تعالىٰ كتابه بالبيان، فقد وصف كذلك رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبيان، تأكيدًا لكمال الوضوح في الرسالة، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩]، وأكد ذلك في موضع آخر بقوله: ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الدُّخان: ١٣].

قال الأديب الصادق الرافعي في بيان كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا أصدق لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه - من كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

٣/ وضوح بيان لغة القرآن الكريم:

كما وصف الله كتابه ورسوله بالبيان وصف لغة القرآن -اللغة العربية- التي نزل بها الوحي بالبيان، إذ قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٢ - ١٩٥].

وقال تعالىٰ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النَّحل: ١٠٣].

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص١٩٥).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزُّخْرُف : ٣].

فاجتمع البيان في الكتاب، وفي الرسول، وفي لغة الوحي، فلا مجال للشك أو الضلال لمن أراد الحق.

٤/ أهمية بيان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للقرآن الكريم:

بيان السنة لما جاء في القرآن الكريم، وتفصيلها لأحكامه، أمرٌ ضروري لا غنىٰ عنه لفهم الشريعة وتنفيذ أوامر الله تعالىٰ؛ لأنَّ كثيرًا من الواجبات والأحكام لا يمكن العمل بها دون الرجوع إلىٰ بيان السنة النبوية. **فمن ذلك علىٰ سبيل المثال:**

- تفاصيل العبادات؛ كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، التي وردت في القرآن الكريم مجملة، فجاءت السنة بتوضيح كيفية أدائها وأحكامها.
- تفصيل المحرَّمات؛ كأحكام الربا، وأنواع البيوع المحرمة، وسائر العقود التي نُهي عنها، حيث بيَّنت السنة ما أجمله القرآن في ذلك.

فبدون السنة النبوية، لا يمكن للمسلمين فهم التطبيق العملي لأوامر القرآن، ولذلك كانت السنة متممةً وموضحةً له، واتباعها ضرورة لتحقيق الامتثال الصحيح لأوامر الله تعالىٰ.

قال ابن جرير:«فقد تبيَّن ببيان الله جل ذكره، أنَّ ممَّا أنزل الله من القرآن علىٰ نبيِّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ما لا يوصل إلىٰ علم تأويله، إلَّا ببيان الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وذلك تأويل جميع ما فيه، من وجوه أمره -واجبه، وندبه، وإرشاده- وصنوف نهيه، ووظائف حقوقه، وحدوده، ومبالغ فرائضه، ومقادير

اللازم بعض خلقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آيِهِ، التي لم يدرك علمها إلَّا ببيان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمَّته. وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه، إلَّا ببيان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بتأويله، بنصٍّ منه عليه، أو بدلالة قد نصبها دالة أمَّته علىٰ تأويله»[1].

٥/ التكامل بين القرآن والبيان النبوي:

رغم أنَّ القرآن كتاب مبين في ذاته؛ ولكن كان بيان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكملة ضرورية لبيان القرآن، حيث وضَّح تفاصيل الأحكام، ففسَّر المجمل، وبيَّن المبهم، وخصَّص العام، وقيد المطلق، وحل ما أشكل علىٰ بعض الناس، حتىٰ اكتمل الدين ووضح الحق، وقد أدىٰ هذه المهمة خير أداء، فلم يترك شيئًا من الوحي يحتاج إلىٰ بيان إلَّا بيَّنه أوضح بيان، تنفيذًا لأمر الله تعالىٰ له في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النَّحل : ٤٤]

وقد أكد العلماء كمال بيان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقرآن في أقوال كثيرة.

قال ابن تيمية: «إنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن جميع الدِّين؛ أصوله وفروعه، باطنه وظاهره، علمه وعمله، فإنَّ هذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمان»[2].

(١) جامع البيان الطبري (١/ ٦٨).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ١٥٥).

وقال ابن القيم: «ولم يَدَع بابًا من العلم النافع للعباد المقرب لهم إلىٰ ربهم إلا فتحه، ولا مُشْكِلًا إلا بَيَّنَهُ وشرحه، حتىٰ هدىٰ الله تعالىٰ به القلوب من ضلالها، وشفاها به من أسقامها، وأغاثها به من جهلها، فأي بشر أحق بأن يحمد منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجزاه عن أمته أفضل الجزاء»[1].

٦/ كيفية بيان السُّنَّة للقرآن الكريم:

السنة النبوية كلها بيان للقرآن الكريم، فهي توضِّح معانيه وتفسِّر مجمله، وتبيِّن أحكامه، وتفصِّل ما يحتاج إلىٰ تفصيل. **ومهمتها في ذلك يتمثَّل في أمور عدَّة، منها:**

- **تفصيل المجمل**: توضيح ما جاء عامًّا أو مختصرًا في القرآن.
- **بيان المبهم**: تفسير الأمور التي وردت في القرآن دون تعين.
- **تقييد المطلق**: تحديد الشروط والقيود للأحكام المطلقة في القرآن.
- **تخصيص العام**: توضيح الأحكام العامة في القرآن، وتحديد الفئات التي تنطبق عليها.
- **بيان الغيب**: ذكر تفاصيل الأمور الغيبية التي لم تفصَّل في القرآن.
- **تأكيد ما جاء في القرآن**: تكرار الأحكام الواردة في القرآن، وزيادة تأكيدها.
- **إيضاح أحكام لم تُذكر في القرآن (وهو قليل جدًا)**: مثل بعض تفاصيل المعاملات والحدود والتشريعات.

---

(١) جلاء الأفهام (ص١٨١).

وقد تحدَّث العلماء في بيان السنة للقرآن الكريم، ومن أفضل من جمع هذه المعاني الإمام ابن القيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال:

وقد تحدَّث العلماء بتفصيل عن بيان السنة للقرآن واختلفت تقسيماتهم في ذلك، **ولكن يجمعها ثلاثة أوجهٍ بيَّنها ابن القيم في قوله:«والسُّنَّة مع القرآن علىٰ ثلاثة أوجهٍ:**

أحدها: أن تكون موافقة له من كلِّ وجه؛ فيكون توارد القرآن والسُّنَّة علىٰ الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها.

الثاني: أن تكون بيانًا لما أريد بالقرآن، وتفسيرًا له.

الثالث: أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه، أو مُحرِّمة لما سكت عن تحريمه. ولا تخرج عن هذه الأقسام، فلا تعارض القرآن بوجه ما، فما كان منها زائدًا علىٰ القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تجب طاعته فيه، ولا تحلّ معصيته، وليس هذا تقديمًا لها علىٰ كتاب الله، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله، ولو كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يطاع في هذا القسم لم يكن لطاعته معنىٰ، وسقطت طاعته المختصة به، وإنَّه إذا لم تجب طاعته إلَّا فيما وافق القرآن لا فيما زاد عليه لم يكن له طاعة خاصَّة تختصّ به، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء: ٨٠] وكيف يمكن أحدًا من أهل العلم أن لا يقبل حديثًا زائدًا علىٰ كتاب الله؟!»[1].

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٢٢٠).

فكيف يمكن لمن آمن بالله ورسوله أن يرفض حديثًا صحيحًا يبيِّن أو يزيد على ما في كتاب الله؟!

٧/ إشكالات فهم الوحي مردّها إلى قصور العلم به:

كمال بيان القرآن والسنة لا يعني أنَّ بعض الناس لن يجدوا إشكالات أو تعارضًا ظاهريًّا في فهم بعض الأدلة، وذلك لأنَّ التعارض الحقيقي لا يوجد في النصوص الشرعية، وإنَّما في الأفهام البشرية القاصرة.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أكَّد أنَّ كتابه منزَّه عن التناقض والاختلاف، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٨٢].

وهذا يدلُّ على أنَّ أي إشكال يُشْكِل على بعض الناس في فهم النصوص، إنَّما هو راجع إلى قصور الأفهام، وليس إلى وجود تعارض حقيقي في الوحي.

كما أنَّ تفاوت العقول واختلاف مراتب العلم بين الناس -حتى بين أهل العلم أنفسهم- هو سبب رئيس في وقوع الإشكالات الظاهرية، ممَّا يستوجب التدبر العميق، والجمع بين النصوص، وردّ المتشابه إلى المحكم لفهم الشريعة فهمًا سليمًا.

قال ابن تيمية: «ليس من شرط البلاغ المبين أن لا يشكل على أحد، فإنَّ هذا لا ينضبط، وأذهان الناس وأهواؤهم متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، وفيهم من يبلغه العلم، وفيهم من لا يبلغه إمَّا لتفريطه وإمَّا لعجزه. وإنَّما على الرَّسول البلاغ المبين: البيان الممكن، وهذا - ولله الحمد - قد حصل منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنَّه بلَّغ البلاغ المبين، وترك الأمَّة على البيضاء ليلها

كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلَّا هالك، وما ترك من شيء يقرِّب إلىٰ الجنَّة إلَّا أمر الخلق به، ولا من شيء يقرِّبهم من النَّار إلَّا نهاهم عنه، فجزاه الله عن أمَّته أفضل ما جزىٰ نبيًّا عن أمَّته»[1].

المحور الثالث: النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قدوة الخلق في التمسك بالهدى:

لم يكن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مجرد مبلغٍ للهدىٰ وبيانه وداعيًا إليه، بل كان أعظم الناس تمسكًا به، وأكملهم تطبيقًا له، امتثالًا لأمر الله تعالىٰ له بالاستمساك بالوحي الذي أنزل عليه، فقال: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزُّخرُف : ٤٣ - ٤٤].

وكيف لا يكون أعظم المتمسكين به وقد جعله الله القدوة والأسوة الحسنة لخلقه، قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأَحْزَاب : ٢١]. وهذا هو نهج جميع الرسل، فكل أمورهم قائمة علىٰ الالتزام بالوحي، فهم أوائل من يلتزمون بالوحي الذي أُنزِل عليهم، وقد أمر الله تعالىٰ نبيه محمدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يقتدي بهدىٰ من سبقه من الأنبياء، قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأَنْعَام : ٩٠] ، وقال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [المُمْتَحنَة : ٦].

(١) منهاج السنة النبوية (٨/ ٥٧٦).

ولمَّا كان ﷺ قدوة الخلق كان حديثه كله حقًّا وصدقًا، لا ينطق عن هوىٰ، بل كل ما يقوله هو وحي من الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النَّجْم: ٣-٤]، كما كان ﷺ مثالًا للصدق في القول والفعل، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزُّمَر : ٣٣]، وكان أتقىٰ الخلق وأخشاهم وأكثرهم عبودية وإنابة إلىٰ الله تعالىٰ، وكانت صفاته أكمل الصفات.

وقد شهد النبي ﷺ لنفسه بأنَّه أكمل الناس تقوىٰ، وأعظمهم علمًا بالله، فقال لأصحابه: «أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ»[1].

قال ابن رجب: «إنَّ السنة هي المفسِّرة لأعظم كتاب يهدي للتي هي أقوم؛ في العقيدة، والتشريع، والأخلاق، والسلوك. وإنَّ سيرة الرسول ﷺ هي الكتاب الوحيد الذي نقرأ فيه التطبيق العملي، والذي نرىٰ فيه الصورة المثلىٰ للأسوة الحسنة لأكمل إنسان صاغه توجيه القرآن، وصنعه الله علىٰ عينه، وجمع فيه كمال الأنبياء من قبله، ثم أمرنا بالائتمار بأمره، والائتساء بهديه بعد أن أمره -هو- أن يقتدي بنوح وإبراهيم وداود وسليمان وإسحاق ويعقوب ومن بعدهم حتىٰ يكون هو خلاصة المخلَصِين، وصفوة المصطَفين، وحتىٰ يستبين لنا لِمَ أمرنا أن يكون لنا فيه ﷺ الأسوة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم الحديث ٥٠٦٣)، ومسلم في صحيحه (كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم الحديث ١٤٠١).

الحسنة، ولِمَ أخذ العهد علىٰ كل نبي ورسول لئن بعث في زمن أيٍّ منهم ليؤمنن به ولينصرنه، ولِمَ ينبغي أن نهتم -دومًا- بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرته، أو بالمنهج الإسلامي وتطبيقه كأساس لتربية الفرد، وتنمية المجتمع، وتكوين خير أمة أخرجت للناس»[1].

فهو أسوة للخلق في القول والفعل والصفات الكريم التي تخلق بها في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المحور الرابع: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: داعي الحق وهادي الخلق:

كما أمر الله تعالىٰ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبلاغ والبيان، فقد أمره أيضًا بالدعوة إلىٰ الحق الذي أنزله عليه وهداية الناس وإرشادهم إليه، وبيّن له الصراط المستقيم، ليكون مبشّرًا لمن استجاب، ومنذرًا لمن أعرض، بعد أن شهد الله تعالىٰ له باستقامة دعوته، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشُّورَى: ٥٢ - ٥٣]. وقد جاء ذلك في أوامر إلهية واضحة، منها:

- تكليفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ بصيرة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ [الحَج: ٦٧]، بل جعل الدعوة منهجه ومنهج كل من يسير علىٰ دربه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يُوسُف: ١٠٨].

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٧).

• وبيّن الله تعالىٰ منهج الدعوة الذي ينبغي أن يسير عليه، فقال تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النَّحل : ١٢٥].

• وبيّن الله تعالىٰ أنَّ مهمة الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هي البلاغ المبين، وأنَّه مبشِّرٌ لمن اهتدىٰ، ونذيرٌ لمن ضلَّ، فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [البَقَرَة:١١٩].

• كما وصفه الله تعالىٰ بصفات الداعية الكامل، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأَحۡزَاب : ٤٥ - ٤٦].

• وحدد الله تعالىٰ الغاية من هذه الدعوة المباركة، وهي تحقيق الإيمان بالله، ونصرة دينه، وتعظيمه، فقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الفَتۡح: ٨ - ٩]، وهذا المحور حتىٰ يتَّضح هنالك خمس نقاط مهمة تحتاج إلىٰ بيان، وهي:

١/ حرص النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ علىٰ هداية قومه:

النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان هاديًا للخلق، مرشدًا للحقِّ، وداعيًا إلىٰ سبيل الله، وكان مع ذلك في غاية الحرص علىٰ هداية قومه، حتىٰ بلغ به الأسىٰ والحزن علىٰ من لم يؤمن حدًّا عظيمًا، ممَّا خاطبه الله تعالىٰ به قائلًا في وصف شدة حرصه علىٰ إيمان قومه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا

ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكَهْف : ٦]، وقال تعالىٰ في موضع آخر: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٣]، كما وصفه الله بأرقىٰ الصفات في رحمته بالمؤمنين وحرصه عليهم، فقال سبحانه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التَّوْبَة : ١٢٨].

فلا أحد بلغ من العلم بالحقّ، ولا من القدرة علىٰ تبليغه، ولا من الحرص علىٰ الدعوة إليه كما بلغ النبي ﷺ، فقد جمع بين كمال العلم، وكمال الحرص، وكمال البيان، وكمال الرحمة بعباد الله، ممَّا يجعل دعوته أكمل الدعوات، وهديه أعظم الهدايات.

قال ابن تيمية:«وأمَّا الأمور الإلهيَّة والمعارف الدينيَّة، فهذه العلم فيها مأخذه عن الرسول، فالرسول أعلم الخلق بها، وأرغبهم في تعريف الخلق بها، وأقدرهم علىٰ بيانها وتعريفها، فهو فوق كل أحد في العلم والقدرة والإرادة، وهذه الثلاثة بها يتمّ المقصود، ومَن سوىٰ الرسول إمَّا أن يكون في علمه بها نقص أو فساد، وإمَّا أن لا يكون له إرادة فيما علمه من ذلك فلم يبيِّنه؛ إمَّا لرغبة، وإمَّا لرهبة، وإمَّا لغرض آخر، وإمَّا أن يكون بيانه ناقصًا ليس بيانه البيان عمَّا عرفه الجنان»[1].

٢/ الرسول ﷺ رحمةٌ وشاهدٌ علىٰ العالمين:

لمَّا كان النبي ﷺ هاديًا إلىٰ الحقِّ، فقد كان رحمةً للعالمين؛ لأنَّ الهدىٰ هو أعظم أسباب الرحمة. وقد أكد الله تعالىٰ ذلك بقوله: ﴿وَمَآ

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ١٣٦).

أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأَنبِيَاء : ١٠٧]، فهو نور يضيء دروب البشرية في ظلمات الجهل والكفر والضلال، كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ [المَائِدَة : ١٥].

كما جعله الله شاهدًا علىٰ أمَّته، كما شهدت بذلك آيات عديدة، منها: شهادته علىٰ الناس يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴾ [المُزَّمِّل: ١٥]. وشهادته يوم القيامة علىٰ أمَّته وعلىٰ الأمم السابقة، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البَقَرَة : ١٤٣]. وبيّن الله مشهد الشهادة الكبرىٰ يوم القيامة بقوله تعالىٰ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴾ [النِّسَاء : ٤١].

٣/ وجوب طاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته:

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس مجرد مبلِّغٍ للرسالة، بل هو رسول مرسل يجب طاعته، واتِّباعه سنته شرطٌ لمحبَّة الله والفوز برضوانه. وقد جعل الله طاعته مقرونة بطاعته، وأمر المؤمنين باتِّباعه، وهي سببٌ لمحبة الله والمغفرة، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عِمْرَان: ٣١ - ٣٢]، والأخذ بما أمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجب، والامتناع عن ما نهىٰ عنه فرض، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ

فَٱنتَهُواْ﴾ [الحَشْر : ٧]، ولا يحقُّ لمؤمن ولا مؤمنة أن يخالف أمره، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأَحْزَاب : ٣٦]، كما أن الله لم يرسل أي رسولٍ إلا ليُطاع، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النِّسَاء: ٦٤].

٤/ طاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبيل الهداية والفلاح:

طاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليست مجرد واجب، بل هي أعظم أسباب الهداية والفلاح في الدنيا والآخرة، وقد بيّن الله ذلك في مواضع عدة، فبيَّن أنَّ الطاعة سبب للهداية، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النُّور:٥٤] ، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٥٨].

وبيَّن تعالىٰ أنَّ الاتِّباع سببٌ للفلاح والرحمة، قال تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٥٧]، قال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النُّور: ٥٦].

وبيَّن تعالىٰ أنَّ طاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي كذلك سببٌ للفوز بالدرجات العلىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّسَاء: ٦٩].

٥/ مخالفة أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتنة وعذاب:

وقد بيَّن تعالىٰ أنَّ من يعرض عن طاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعرَّض للفتنة

والعذاب، كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣].

وبيَّن تعالىٰ أنَّ من يخالف هديه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن تبيَّن له الحقّ، فمصيره الهلاك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء : ١١٥].

وبيَّن أنَّ الإعراض عن طاعته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صفات المنافقين، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النُّور: ٤٨ – ٥٠].

وفي المقابل، كان حال المؤمنين أنهم إذا دُعوا إلىٰ حكم الله ورسوله قالوا: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النُّور : ٥١]. وجعل الله الفوز الحقيقي لمن أطاع الله ورسوله، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور : ٥٢].

المطلب الثالث: البيت العتيق هدى للعالمين:

إن من أعظم الخصائص التي اختص الله بها بيته الحرام، أن جعله هدًى للعالمين، وهو وصف قرآني عظيم، يحمل في طيّاته رسالةً ممتدة وعملاً وظيفيًا يتجاوز حدود الزمان والمكان. فقد تحدّث العلماء بإسهاب عن فضائل هذا البيت العتيق، غير أن كثيرًا من تلك الفضائل دارت حول الجانب الشعائري

والمقامي، بينما ظلّ البُعد الهُدائي والرسالي الذي تحدثت نه الآية بحاجة إلىٰ مزيد من التأصيل والتفصيل.

فالوصف الإلهي للبيت بأنه«قيامٌ للناس»،«وهدًى للعالمين» يدل علىٰ أنه ليس موضعًا للعبادة فحسب، بل وعاءً متدفقًا بالهدىٰ وعناصر القوة، تتغذىٰ منه الأمة كما تتغذىٰ من الوحي المنزل، وتنهل من نوره كما تنهال من هدي كتاب ربها وسنة نبيها صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

ومن هنا، تتأكد الحاجة إلىٰ تأصيل هذا المعنىٰ الجليل، وإبراز البيت الحرام كمصدر من أوعية الهداية الربانية، لا مجرد مَعْلَم تاريخي أو موضعٍ للشعائر، بل مركزًا لإشعاع التوحيد، والتزكية، والتجديد، بما يستدعي من الأمة وعيًا متجددًا بوظيفته، وفهمًا أعمق لمعاني الاهتداء به، في واقعها المعاصر.

أولاً: البيت الحرام قياماً للناس وهدى للعالمين:

من الخصائص الكبرىٰ التي اختص الله تعالىٰ بها بيته الحرام أنه جعله مصدرًا جامعًا لمقومات النهوض والهدىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ [المَائِدَة : ٩٧] ، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمۡرَان : ٩٦].

فهذان الوصفان يكشفان عن الأثر المزدوج الذي جعله الله لهذا البيت: فهو من جهة قوامٌ للحياة الإنسانية، ومن جهة أخرىٰ مصدرٌ للهداية الربانية.

وقد فسَّر العلماء لفظ ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ بأنه قوام دينهم ودنياهم، بما يتحقق عنده من أداء العبادات، واجتماع القلوب، وتوافد الحجاج والمعتمرين، وما ينشأ من ذلك من تواصلٍ وتعارف وتبادل منافع، وما يتبع ذلك من أمنٍ ورزقٍ واستقرار وغيرها.

قال الثعلبي ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي: قوامًا لهم في أمر دينهم ودنياهم، وصلاحًا لمعاشهم ومعادهم، لما يحصل عنده من الحج والعمرة والزيارة والتجارة، وما يجبىٰ إليه من الثمرات، وتظهر فيه من أنواع البركات»[1].

وقال البقاعي: «﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي في أمر معاشهم ومعادهم؛ لأنها لهم كالعماد الذي يقوم به البيت، فيأمن به الخائف ويقوىٰ فيه الضعيف ويقصده التجار والحجاج والعمّار فهو عماد الدين والدنيا»[2].

وقال سعيد بن جبير: «من أتىٰ هذا البيت يريد شيئًا للدنيا والآخرة أصابه»[3].

وأما وصف البيت بأنه هدًىٰ للعالمين، فقد أشار المفسرون إلىٰ أن هذا الهدىٰ ذو طابع شامل، يشمل الهداية في العمل، والهداية في المعرفة. فالأول يتحقق بما فيه من العبادات العظيمة، كالحج والطواف والصلاة والنحر، والثاني يتحقق بما فيه من آيات بيِّنات ودلالات ظاهرة علىٰ عظمة الله وتوحيده ورحمته، كما قال السعدي: «﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ والهدىٰ نوعان:

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١١/ ٥١٢).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٦/ ٣٠٦).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٢١٤).

هدىٰ في المعرفة، وهدىٰ في العمل، فالهدىٰ في العمل ظاهر؛ وهو ما جعل الله فيه من أنواع التَّعبُّدات المختصَّة به، وأمَّا هدىٰ العلم فبما يحصل لهم بسببه من العلم بالحقِّ؛ بسبب الآيات البيِّنات التي ذكر الله تعالىٰ في قوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أي: أدلَّة واضحات، وبراهين قاطعات علىٰ أنواع من العلوم الإلهيَّة، والمطالب العالية، كالأدلة علىٰ توحيده، ورحمته، وحكمته، وعظمته وجلاله، وكمال علمه، وسعة جوده، وما مَنَّ به علىٰ أوليائه وأنبيائه»[1].

وقد تنوعت أقوال المفسرين في تحديد معنىٰ «الهدىٰ» هنا:

فقال أبو حيان:«وأمَّا كونه هدىٰ؛ فلأنَّه لمَّا كان مقوِّمًا مصلحًا كان فيه إرشاد... وقيل: ومعنىٰ هدىٰ: أي قبلة. وقيل: رحمة. وقيل: صلاح. وقيل: بيان ودلالة علىٰ الله بما فيه من الآيات التي لا يقدر عليها غيره تعالىٰ.

وقال ابن عطية: يحتمل هنا «هدىٰ»: أن يكون بمعنىٰ الدعاء، أي من حيث دعا العالمون إليه»[2].

وقال ابن عاشور:«ووصفه بالمصدر في قوله: ﴿وَهُدًى﴾ مبالغة لأنَّه سبب هدىٰ. وجُعل هدىٰ للعالمين كلّهم: لأنَّ شهرته وتسامع الناس به، يحملهم علىٰ التساؤل عن سبب وضعه، وأنَّه لتوحيد الله، وتطهير النفوس من خبث الشرك فيهتدي بذلك المهتدي، ويرعوي المتشكك. ومن بركة ذاته؛ أنَّ حجارته وضعتها عند بنائه يد إبراهيم، ويد إسماعيل، ثمَّ يد محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا سيَّما الحجر الأسود »[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:١٣٨).

(٢) البحر المحيط في التفسير (٣/ ٢٦٩).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٦).

وقال الشيخ العثيمين:«هدىً أي منارًا يهتدىٰ به؛ لأنه يجتمع فيه المسلمون من كل جانب، يأوون إليه من كل فج عميق، فيهتدي الضال منهم بالمهتدي، ويحصل به التعليم والأسوة الحسنة، وكذلك أيضًا هدىً للعالمين؛ لأن الأمة الإسلامية كلها تهوي إليه، وتتجه إليه في كل يوم خمس مرات وجوبًا، يعني يجب أن نولي وجوهنا كل يوم خمس مرات علىٰ الأقل، ولهذا قال: ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾. ومن هدايته للعالمين: أن فيه إقامة الحج، وإقامة العمرة وذلك هدىً؛ لأن الأمة تزداد إيمانًا وهدىً بالحج والعمرة»[1].

وبذلك يتجلّىٰ أن البيت الحرام ليس مجرد موضعٍ للعبادة الشعائرية، بل هو رمزٌ لهداية الأمة، ومركزٌ جامعٌ لمعاني التوحيد والرسالة والوحدة. فقد أودع الله تعالىٰ فيه من أسرار الهداية ومظاهر الرحمة، ما يجعله القلب النابض للأمة الإسلامية، تستمد منه الثبات الروحي، والبصيرة الإيمانية، والانتماء الرسالي. ومنه تنبعث شعلة التوحيد، وفيه تتجدد معاني الإصلاح كلما خبت، وتُستعاد مقومات العزة كلما ضعفت، فهو منبع الوعي ومهوىٰ القلوب، وعنوان وحدة المسلمين عبر العصور.

وليس ارتباط الأمة بهذا البيت ارتباطًا مكانيًا فحسب، بل هو صلة وجودية برسالة الهداية والتزكية، فمتىٰ ما عظّمته الأمة، واستوعبت وظيفته، وتفاعلت مع أسراره، عاد إليها مجدها وارتفعت مكانتها، كما أراد الله لها أن تكون: **خير أمة أخرجت للناس**[2].

---

(١) من تفسير العثيمين: آل عمران (١/ ٥٤٨).

(٢) انظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٢/ ٤٤٠)، والجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٢٥)، لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن (٢/ ٨١)، وتيسير الكريم الرحمن، السعدي (ص٢٤٥)، والتحرير والتنوير، ابن عاشور (٧/ ٥٨).

وبالمقابل، فإن إضعاف مكانته، أو إفراغ رمزيته من مضمونها الإيماني، يُفضي إلىٰ تفكك الأمة وتراجعها، لأن هذا البيت بمثابة القلب، وصلاح القلب صلاح للجسد كله، كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فبقدر ما يترسخ مفهوم الهدىٰ في هذا البيت، يقوىٰ الدين، وتنهض الأمة، ويستقيم سيرها علىٰ صراط الله المستقيم، وإن أُهملت وظيفته الهُدائية، أو غُيبت رسالته التربوية، دبّ فيها الوهن، وضعف فيها التوحيد، واضطرب مسارها الحضاري. ومن هنا، يتأكد أن البيت الحرام وعاءٌ محوري من أوعية الهداية الربانية، تتكامل وظيفته مع الوحي المنزل، والرسول المرسل، في منظومة إلهية متكاملة لهداية العالمين.

وقد جاء الربط القرآني المتكرر بين البيت الحرام والوحي المنزل ليؤسس علاقة عضوية بين المكان والرسالة؛ فالهداية في المنظور القرآني لا تكتمل إلا باجتماع الكتاب والقبلة، وامتزاج الوحي بالواقع، حيث تكون مكة هي الموطن الذي يحتضن الرسالة، ويجسّد النموذج العملي للدين. فالقرآن هو مصدر النور والهداية، ومكة هي مهبط الوحي، ومركز الإشعاع الإيماني، ونقطة الارتكاز التي تنتظم حولها الأمة في عبادتها، ووحدتها، ومسيرتها الحضارية.

وإذا كانت كل أمة تعتزّ بموطن تنطلق منه هويتها، وتتمركز حوله رؤيتها، فإن البيت الحرام هو العاصمة الروحية للأمة الإسلامية، والنموذج الذي أراده الله لها في التوحيد، والطهارة، والطاعة وغيرها لتحمله وتتمثّله. ومن هنا، كان هذا الارتباط بين الوحي والبلد الحرام مقصودًا في كتاب الله، تثبيتًا للهوية، وربطًا للأمة بمصدر عزّها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ

يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأَنْعَام: ٩٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشُّورَى : ٧].

وكان معاني كونها «هدًى للعالمين» أنها تدعو الناس إلىٰ النظر في أسرار هذا الموضع، والتأمل في موقعه في تاريخ النبوات، ومكانته في بناء الدين، لتبقىٰ منارًا لا يُطفأ، ومهوىً للقلوب لا يغيب. هو عماد الدين والدنيا»[1].

فأمّ القرىٰ هي موطن التنزيل، ومركز الدعوة، وموقع الانطلاق نحو العالمين، وجعلها الله منارة الهداية التي يشعّ منها النور الرباني، فيبقىٰ البيت العتيق وعاءً من أوعية الهداية، لا تنفصل رسالته عن رسالة الوحي، بل هما معًا يشكّلان الوحدة المرجعية الكبرىٰ التي تنهض بها الأمة وتسترد بها فاعليتها الحضارية والرسالية.

لقد كانت مكة عبر التاريخ مهبط الوحي، ومهد الرسالات، ومنطلق الهداية إلىٰ العالمين، وجعلها الله تعالىٰ هدًىٰ للبشرية لتكون مركز إشعاع روحي وتوحيد دائم.

وكما حفظ الله كتابه ليبقىٰ الهدىٰ حيًّا في النفوس، فقد حفظ بيته ليبقىٰ هداه مشعًّا في العالمين، نورًا لا يخبو، وصوتًا لا يُطفأ، ومهوىً للقلوب لا ينقطع. فالأمة شجرةٌ واحدة، أصلها في مكة، وبنيانٌ متماسكٌ قواعده قائمة في البيت العتيق، وارتباط المؤمنين بها كرباط الأبناء بأمّهم: حُبًّا، وعطفًا، وافتتانًا، واجتماعًا حولها في الدين والهوية والمصير.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٦/ ٣٠٦).

ثانيًا: أوجه الهداية في البيت الحرام:

ينبغي لنا أن نعلم أنّ الهداية التي أودعها الله في بيته العتيق كثيرة ومتنوعة، وهي تفوق ما كتبه العلماء أو دُوِّن في الكتب، فكل ما تأمل القلب وتدبر العقل، انكشفت له آفاق جديدة من النور والإرشاد لكثرة ما فيه من آيات وبصائر وبيِّنات لأُولي الألباب، سأكتفي هنا بذكر عشر نقاط تفصيلية، وعشر نقاط إجمالية من أوجه هداية هذا البيت العتيق، ونترك الباقي بعد ذلك لكل صاحب قلب واعٍ لاستنباط المزيد.

أوَّلاً: هداية البيت للتوحيد الخالص:

إنَّ البيت الحرام بكل ما يحمله من تاريخ عريق وآيات بيّنات هو شاهد خالد على وحدانية الله تعالىٰ، فهو أول بيت وضع للناس لعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده لا شريك له، والموضع الأقدس الذي اصطفاه الله ليكون محور التوحيد، ومركز العبودية الخالصة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمْرَان : ٩٦] ، أوَّليَّة تدلُّ على العتاقة والفضل، قال تعالىٰ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٣٣]. فهو أُسس من أول يوم على التوحيد الخالص، ورفع قواعده إمامًا في الحنفية السمحة، خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الذي حطَّم الأصنام، وجابه بقوة عبدة الأوثان، وأرسىٰ معالم التوحيد والإيمان، قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عِمْرَان : ٦٧].

قال ابن عاشور: فهو «أوَّل من حاجَّ الوثنيين بالأدلة، وأوَّل من قاوم الوثنية بقوَّة يده، فجعل الأوثان جذاذًا، ثمَّ أقام لتخليد ذكر الله وتوحيده ذلك الهيكل العظيم؛ ليعلم كل أحد يأتي أنَّ سبب بنائه إبطال عبادة الأوثان، وقد مضت علىٰ هذا البيت العصور، فصارت رؤيته مذكِّرة بالله تعالىٰ»[1].

وحين أظهر الله تعالىٰ لخليله إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موضع البيت العتيق، قرن ذلك بأمر عظيم، وهو التحذير من الإشراك به، رغم كمال توحيده وعظيم غيرته علىٰ العقيدة، تأكيدًا علىٰ مقاصد رفعه وبنيانه علىٰ أساس التوحيد الخالص، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [الحج : ٢٦]، فهو أسَّس علىٰ التوحيد، وأسَّسه إمام الحنيفيَّة السمحة؛ لتظلَّ رسالة التوحيد خالدة بخلود هذا البيت من خلال هذا التأكيد.

وما يزال هذا البيت العتيق شاهدًا ناطقًا برسالة التوحيد الخالدة، يبعث بمعانيها السامية إلىٰ القلوب المؤمنة، ويجسدها في كل ما يتصل به، فهو قبلة الموحدين التي تتوجه إليها وجوههم في صلاتهم، وكعبتهم التي يفدون إليها من كل فجٍّ عميق، يطوفون حولها بخشوع، ويؤدون عندها مناسكهم بإخلاص، متجردين لله تعالىٰ في صلاتهم ودعائهم، وحجهم وسعيهم، ونحرهم وحلقهم، وسائر عباداتهم، كما أمر الله تعالىٰ، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج : ٣٤].

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٣٢).

وكما جعله الله تعالىٰ مهوىٰ أفئدة الموحدين، جعله -أيضًا- موئلاً لاجتماعهم، وميدانًا يلتقي فيه عباده من شتىٰ أصقاع الأرض، علىٰ اختلاف ألوانهم وألسنتهم، وأشكالهم وصفاتهم، متجردين من فوارق الدنيا كلها، متساوين في العبودية، مصطفين خلف إمام واحد، متوجهين إلىٰ بيت واحد، خاضعين لربٍّ واحد، وملبِّين كلهم بكلمة التوحيد، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ تَلْبِيَةَ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ، وَالنِّعْمَةَ، لَكَ وَالْمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ» [1]، فسبحان من جمعهم حول بيته، وجعلهم ملبِّين جميعًا له بالوحدانية في هذا المشهد المهيب.

ولمَّا شاء الله تعالىٰ أن يكون بيته العتيق موئلًا للموحِّدين، ومهوًىٰ لأفئدة العابدين، طهَّره من كلِّ دنس، فلا يدنو منه إلا من تحقق بالإيمان، ولا يلجأ إليه إلا من أخلص التوحيد للرحمن، قال تعالىٰ: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الحَج : ٢٦].

ومن عظيم اصطفاء الله تعالىٰ وتقديسه لهذا البيت، حرَّم علىٰ المشركين أن يقتربوا من ساحته، فلا حظَّ لهم في زيارته، ولا نصيب لهم في التنعُّم ببركته، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التَّوْبَة : ٢٨].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الحج، باب التلبية، ح١٥٤٩، ٢/ ١٣٨)، ومسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، ح١١٨٤، ٢/ ٨٤١).

فهو بيتٌ اختصَّه الله بمن وحَّده، وحرَّمه علىٰ من أشرك به، فاصطفىٰ له الطاهرين، وأقصىٰ عنه المدنسين، فكان قبلة القلوب النقيَّة، وموطن العبودية الخالصة، لا يحطّ رحاله إلا مؤمن، ولا يطوف بساحاته إلا موقن، جزاءً لمن أخلص لله قلبه، ونقَّىٰ توحيده من شوائب الشرك والضلال.

وهكذا، يظلّ التوحيد هو الرسالة الخالدة لهذا البيت العظيم، وهو العهد الذي أقيمت عليه دعائمه، وستظل أفئدة الموحدين تهوي إليه، وتجتمع عليه، كما اجتمعت منذ فجر التاريخ، معلنةً ولاءها المطلق لله الواحد الأحد، لا شريك له في ملكه، ولا ندّ له في عبادته، فالحمد لله الذي جعل بيته العتيق منارًا للتوحيد، ورمزًا للإيمان، ومهوًىٰ لقلوب العابدين الخاشعين، كما أمر الله تعالىٰ بقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

ثانيـًا: هداية البيت للإيمان بالنبي محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ واتِّباع هديه:

يعدُّ المسجد الحرام والبلد الأمين بشواهده ومعالمه شهادة حيَّة علىٰ صدق الرسالة المحمدية، حيث يروي قصّة مولد النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ونشأته في هذه البقعة الطاهرة، وما ارتبط بذلك من أحداث تاريخية عظيمة. وكيف كانت بداية نزول الوحي عليه مكانًا وزمانًا، وكيف واجه قومه؛ بل القرآن الكريم يربط بين هذا البيت وبعثة النبي محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو يخبرنا بقصة إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ عندما وقف بجوار هذا المكان الطاهر بعد أن رفع قواعد البيت داعيًا الله أن يبعث في هذه الأمَّة نبيًّا منهم، يعرفون نسبه ولغته، ويعرفهم هو أيضًا. قال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البَقَرَة: ١٢٩]. وقد استجاب الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهذا الدعاء، فبعث النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في نفس هذه البقعة المقدسة ليكون هاديًا للأمَّة إلىٰ دين الله القويم.

كما ارتبط ميلاد النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في مكة المكرمة بحدثٍ تاريخي عظيم يتعلق بهذا البيت، وهو بمنزلة تجديد العهد في قلوب الناس لصيانة وحماية بيته الحرام، وإحياء معاني التوحيد في النفوس، وتهيئة الأمَّة لميلاد الرسالة الخالدة من جوار بيته المصان؛ ولأهمية هذه الحادثة ودلالاتها العميقة، جعلها الله تعالىٰ قرآنًا يتلىٰ عبر الأزمان، بعد أن أضافه إليها عند ذكرها تشريفًا وتبجيلًا، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۢ﴾ [الفِيل: ١ - ٥] . وبهذا، أصبح مولد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ علامة فارقة، فهو تاريخ صان الله فيه بيته الحرام من كل عدوان.

كما تحكي السيرة المباركة كيف عاش صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وتربىٰ في شعاب مكة المكرمة بين قومه وعشيرته، في بيئة تسودها عبادة الأصنام والشرك بالله، ورغم ما كان يراه من ضلال حوله، كان قلبه يملؤه التوق إلىٰ عبادة الله وحده. فابتعد عن ممارسات قومه، وتوجه إلىٰ غار حراء في جبل النور، حيث كان يقضي لياليه ذوات العدد في تأمُّل وتعبُّد خالص لله تعالىٰ، وكيف نزل عليه الوحي لأول مرة هناك، وكيف تناقلت بعد ذلك أخباره بين مصدق ومكذب، في روايات تحمل دلائل الصدق لكل من يتأملها، كما جاء عن عَائِشَةَ أُمِّ

الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ؛ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ- قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العَلَق: ١ - ٥]، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ. فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّىٰ أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ، ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَىٰ،

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟! قَالَ: نَعَمْ. لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ»[1].

إنَّ الوقوف بغار حراء، والتأمل في بداية نزول الوحي، يكشف لنا بوضوح الصراع الداخلي الذي عاشه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو يبحث عن الحق في وسط ظلمات الجاهلية وعبادة الأصنام، وكيف كان قلبه يبحث عن النور، حتىٰ جاءه الوحي، فكان بداية تحول عظيم ليس له وحده، بل للعالم أجمع. هذا الوحي أضاء له الطريق، وأعطاه اليقين بأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو المعبود الحق، وأنَّ الطريق المستقيم هو طريق التوحيد.

وهكذا، يظل «حراء» رسالة هدائية لكل إنسان يعيش صراع العقيدة والفكر الذي تضيق معه الحياة مع رحابتها، وهي تبحث في معالم الوحدانية والمعبود الحق والطريق المستقيم، ويظل الإنسان في وسط هذه الحيرة وظلمات الجاهلية يتخبط حتىٰ يفتح الله تعالىٰ قلبه إلىٰ نور وحيه فيتلوه حق تلاوته؛ ليذكره بالخالق الذي خلق الكون كله، وخلقه خاصة ليكون منطلقًا لوحدانية الله تعالىٰ، وبداية مسيرة ربانية ليأخذ من علوم الوحي ما يفارق به كل معبود سواه، ويفارق أهله وعشيرته التي عبدت غيره، ويصبح الغار

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ح٣، ١/ ٧)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ح١٦٠، ١/ ١٣٩).

الصغير البعيد قريبًا كبيرًا فسيحًا بنور الوحي، تتسع معه الصدور والحياة، كما أنَّ الدنيا وعلىٰ رأسها مكة بجمالها ومكانتها والكعبة التي بها تمسي طاردة بدنس أصنامها، ورجس المشركين فيها، بما يعلمنا أنَّ الحياة أساسها وقوامها ومنطلقها وحدانية الله تعالىٰ الذي هو لب رسالة الإسلام، ويظل هذا الحدث التاريخي نقطة تحول لكل من يريد الحقِّ.

كما أنَّ الذي يقف في جبل ثور متأملًا التاريخ ومراجعًا دلالات الوحي يعلم عظم الصراع بين الحق والباطل، بين حزب الرحمن وحزب الشيطان، وكيف واجه قومًا لُدًّا، بعدما وجد منهم الإعراض والأذىٰ، وكيف خرج مهاجرًا واختفىٰ في غار ثور في جنوب مكة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، بما يعطي درسًا لحملة الحق أنَّ الملاحقة لهم ستظل قائمة، والاستهداف لهم سيكون موجَّها كما حدث لإمام الهدىٰ؛ ولكن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم تزده هذه المواجهات إلا صلابة وثباتًا وثقة في ربه، وهو يطمئن صاحبه بأنَّهما وإن تخلا عنهما الخلق فإنَّ الله معهما، ومن كان الله معه فهو المنتصر لا محالة، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ٤٠]، ممَّا يعلمنا ويهدينا عبر التاريخ أنَّ القيادة ثقة في الله، وثبات علىٰ المبدأ، وحسن تخطيط، وصبر حتىٰ يأتي نصر الله تعالىٰ، فغار حراء هداية ربَّانية لأزمة المعتقد والفكر، وغار ثور هداية نبوية في أزمة الصراع والمواجهة.

لقد ضلّ الناس في التعامل مع الآثار التاريخية ذات الصلة بالدين بين طرفي إفراط وتفريط؛ فقومٌ غلوا فيها حتىٰ اتخذوها ذريعةً للشرك والبدع والخرافات، وقومٌ آخرون جفوا عنها، فعطَّلوا دلالاتها التاريخية وهداياتها الأثرية، بما فيها من عِبَر ومعاني إيمانية وتربوية عميقة.

وهذا الخلل في الموقف يتطلّب مراجعةً علمية فاحصة، تؤصل للتعامل الرشيد مع تلك الآثار، وفق ضوابط العقيدة، ومقاصد الهداية، وأسس الوعي الحضاري، لاسيما في البيئة المكية التي تمثل موضع التنزيل الأول للوحي، وموئل التاريخ النبوي، والمركز الأول للرسالة الخاتمة.

ففي مكة، لا تزال أماكن كـ غار حراء وغار ثور وغيرهما، شاهدةً علىٰ لحظات التكوين الأولىٰ للرسالة، ومواضع الاصطفاء والعناية والمجاهدة، التي حفظها الله بخصوصيتها عبر التاريخ، وبقيت موضع تدبُّر واعتبار لا تعظيم مادي ولا تقديس بدعي.

ومن هنا، فإن المنهج القرآني يدعونا إلىٰ استخلاص الهداية من معالم الزمان والمكان، دون أن يُفضي بنا ذلك إلىٰ الغلو في التقديس، ولا إلىٰ الجفاء في الإهمال، تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٣٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصَّافَّات : ١٣٧ – ١٣٨].

كما أنَّ المسلم يتربىٰ في مكة علىٰ تعظيم سنة النبي ﷺ، والاقتداء به في أدق تفاصيل العبادة والسلوك. ففي هذه البقاع الطاهرة، يتعلّم

المسلم كيف يبدأ رحلة الحج أو العمرة من حيث أحرم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكيف ينوي ويُهلّ بالتوحيد، وماذا يقول بعد الإحرام، وكيف يلبِّي بصيغة التوحيد الخالصة التي نطق بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يسير على خُطى المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الطواف بالبيت، حيث كان يبتدئ طوافه من الحجر الأسود، فيستلم الركن ويقبّله إن استطاع، أو يشير إليه قائلًا: «الله أكبر». ثم يسعى بين الصفا والمروة كما سعى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يواصل تأسيه بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الوقوف بعرفة، وكيف أتمّ عبادته بمزدلفة، حيث جمع بين المغرب والعشاء وبات هناك، ثم كيف أفاض إلى منى ورمى الجمار، ونحر هديه، ثم حلق رأسه، كل ذلك اتِّباعًا لأمر الله، واقتداءً بنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قال: «لِتَأْخُذُوا عنِّي مناسِككم»[1] ففي الحرم يتربى أن تُؤدّى جميع العبادات كما أمر الله، فلا اجتهاد في الطواف أو السعي أو الرمي وغيره، بل كما شرعه الله ورسوله، فيتعلم المسلم أنَّ الطاعة لا تُبنى على الهوى، بل على الاتِّباع الكامل لأوامر الله ورسوله.

وهكذا، يتعلَّم المسلم في مكة كيف تكون السُّنّة نورًا يضيء حياته، وكيف يكون الامتثال لها سببًا لنيل رضا الله، فيخرج من هذه الرحلة المباركة وقد امتلأ قلبه بمحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعزم على اتِّباعه في كل شأنه، فتصبح سنَّته منهاج حياته، وسيرته مصباح طريقه، كما أراد الله لهذه الأمَّة أن تسير على خطى نبيِّها حتى تلقَّاه على الحوض.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم الحديث ١٢٩٧).

ففيها يهتدي الخلق إلىٰ الإيمان به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاقتداء بسنَّته؛ لأنَّ معالم مكة كلها شواهد ناطقة بصدقه، وصبره، وعزمه، وجهاده، وتولّىٰ الله سبحانه له، كما يتعلَّموا منها أهمية الاقتداء بسنَّته، وحمل راية دعوته، ومنزلة نصرة الحقِّ والهدىٰ علىٰ الدين كله؛ بما يجعل من سيرته العملية هدىً متَّبعًا في كلِّ أهل ملَّته، وهم يتجوَّلون في رحاب بلده الطاهر وبيته العتيق، يؤدون مناسكهم في رحابه الطاهرة.

ثالثًا: هداية البيت للإيمان بالبعث والجزاء:

الإيمان بالبعث والجزاء من أعظم أركان الإيمان، فهو الإقرار بأنَّ الله سيبعث الخلائق جميعًا، ليجازي كل عبدٍ بما قدمت يداه، وقد جعل الله تعالىٰ لهذا اليوم العظيم شواهد في الدنيا، تستنير بها القلوب، وتتذكرها النفوس، وتتهيأ لها الأرواح، ومن أعظم هذه الشواهد اجتماع الحجيج في المشاعر المقدسة، وحول بيته العتيق وهم يطوفون به.

فكما أنَّ الله يجمع الأوائل والآخرين في صعيد واحد يوم القيامة، فقد جعل من اجتماع الحجاج حول بيته الحرام صورة مصغرة تُذكّر بذلك اليوم الموعود، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هُود: ١٠٣ - ١٠٥].

فالحج مشهدٌ محسوس من مشاهد البعث، حيث يتجمع الناس من كل أقطار الأرض، علىٰ اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، يأتون من كل فجٍّ عميق، ويلبّون نداء واحدًا، ويلبسون ثوبًا واحدًا، ويقفون في زمانٍ ومكانٍ واحد، خاشعين متذللين لربٍّ واحد، وهو مشهد تتجلَّىٰ فيه صورة المحشر، حيث يجتمع الخلق جميعًا في يوم الحشر العظيم.

وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ هذا التناسب العجيب بين الحج والبعث، فجاءت سورة الحج مفتتحةً بالتحذير من أهوال يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١ - ٢].

وكما افتتح الحديث عن الحجّ في سورة الحج بالتذكير بالبعث، اختتم الحديث عن الحج في سورة البقرة بالتأكيد علىٰ حتمية الحشر، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٣].

وهنا تتجلَّىٰ العبرة العظيمة، فكما جمع الله تعالىٰ عباده في هذه المشاعر المقدسة، علىٰ مرّ الدهور والأزمان، بنداء واحد وأعمال واحدة، فهو قادر علىٰ جمعهم يوم المعاد في صعيد واحد للحساب والجزاء، فمن تأمل مشهد الحج أدرك عظمة ذلك اليوم، واستعدّ له إيمانًا وعملًا، ليكون في زمرة السعداء الذين كتب الله لهم النجاة والرضوان.

رابعًا: هداية البيت للاجتماع والوحدة:

إنَّ من أعظم ما أمر الله تعالىٰ به أمَّة الإسلام الاعتصام والاجتماع وعدم التفرُّق والاختلاف، قال تعالىٰ: ﴿ٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٣]، وبيَّن لهم أنَّ التفرق هو داء الأمم التي قبلهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ

عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٥]، وبيَّن لهم عواقب تفرُّق الأمَّة، وكيف يؤدي إلىٰ ذهاب قوَّتهم والقضاء علىٰ دولتهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأَنفَال: ٤٦].

ولأهمية هذا الأصل ومكانته في الإسلام، جعل الله تعالىٰ بيته الحرام مكانًا لاجتماع الأمَّة علىٰ مدار الزمان، يجتمعون نحوه خمس مرات في اليوم، ويتوافدون إليه من كل أصقاع الأرض في موسم الحج، فتذوب بينهم الفوارق، وتجتمع كلمتهم تحت راية الإسلام، متآخين متحابين، يلبّون نداءً واحدًا، ويرددون شعارًا واحدًا، ويجتمعون علىٰ دينٍ واحدٍ، وتحت قيادة رسولٍ واحدٍ، وفي مكانٍ واحدٍ، لا فرق بين غني وفقير، ولا بين عربي وأعجمي إلَّا بالتقوىٰ، وهذه الصورة من أهم مظاهر الاجتماع والوحدة، وفي اجتماعهم هذا يحصل فيما بينهم التعارف، والتآخي، والتشاور، والتناصح، والتعاون، بما يهديهم لقوَّتهم وعزَّتهم، كما يحصل بينهم من التعليم والدعوة والنصرة والتكافل والتراحم ما يجعلهم أمَّة واحدة، أصحاب دين واحد، لا يقبل التحريف مهما تباعدت الديار بين أهله، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مثلُ الجسدِ، إذا اشتكىٰ منه عضوٌ تداعىٰ له سائرُ الجسدِ بالسَّهَرِ والحُمَّىٰ»[1]. وقد ربَّاهم الله تعالىٰ من خلال هذا الاجتماع عل أعلىٰ جوانب الآداب والأخلاق التي تجمع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم الحديث ٦٠١١)، ومسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم الحديث ٢٥٨٦).

قلوبهم وتوحِّد كلمتهم، فقد قال تعالىٰ في سياق الحديث عن الحج: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧].

وهكذا، فإنَّ الحج يجسِّد أمام المسلم صورة حيَّة للوحدة الإسلامية، حيث يرىٰ التنوع الهائل للمسلمين من كل بقاع الأرض، لكنَّه في الوقت ذاته يشعر بأنَّه جزءٌ من أمَّة واحدة، متحدة في عقيدتها، متراصة في عبادتها، متماسكة في أخوتها، بعيدًا عن الفروقات الوطنية والعرقية. فيدرك أنَّ الإسلام لا يفرّق بين إنسان وآخر إلَّا بالتقوىٰ، وأنَّ هذه الوحدة هي سرّ قوَّته وعزَّته، وهي الحصن المنيع الذي يحميه من التفرّق والضعف والهوان.

فهو البيت الذي وحَّد المسلمين علىٰ اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأشكالهم واختلاف عاداتهم وبلدانهم، وأزكىٰ فيهم روح التضامن، وعزَّز فيهم معاني الأخوة، فلا تفرّق بينهم الحدود، ولا تشتتهم النزاعات، بل يجتمعون حول هذا البيت كما تجتمع الكواكب حول مركزها المضيء.

خامسًا: هداية البيت للقيم والأخلاق الفاضلة:

من أعظم الهدايات التي يُدركها المسلم في بيت الله الحرام ومكة المكرمة، تربية النفس علىٰ مكارم الأخلاق، إذ إنَّ الإسلام جعل الأخلاق الفاضلة جوهر رسالته، وبعث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لإتمامها، فقال: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**»[1].

(١) أخرجه مالك في الموطأ (كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق) بلاغًا مرسلاً، =

وقد خصّ الله الحرم المكي بآداب وأحكام تهذب سلوك المسلم وتزكي نفسه، فمن قصد البيت العتيق حاجًّا أو معتمرًا، وجب عليه التخلق بأسمىٰ الصفات الطيبة والأخلاق الكريمة، مع الابتعاد عن الصفات والأخلاق السيئة كالفحش والجدال والفسوق، قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧].

فالتزام الأخلاق الفاضلة في هذه البقعة المباركة ليس اختيارًا، بل هو فرضٌ تعبديّ، حيث يعلّم المسلم كيف يحفظ لسانه، ويصون حقوق إخوانه، ويسمو بسلوكه، حتىٰ يكون سفرًا محقِّقًا لمكاسب دينه ودنيا، كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ ولدته أمه»(١).

ولم تقتصر هذه التربية علىٰ الحجاج فقط، بل جعل الله لمن سكن هذا البلد الطاهر أو قصده أحكامًا خاصة، تحرّم الظلم والإلحاد فيه، وتؤكد أنَّ انتهاك حرمته ليس كغيره من الأماكن، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحَج: ٢٥]، فمكة لها خصوصية في التشريع، إذ لا يُقبل فيها إلَّا الصفاء والطهارة، ولهذا أمر الله بتطهير بيته من كل رجس ظاهرٍ أو باطن، فقال: تعالىٰ: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[الحَج: ٢٦].

= وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (باب حسن الخلق، رقم الحديث ٢٧٣)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (رقم ٢٠٥٧٢)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب البر والصلة، رقم الحديث ٤٢٢١) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، رقم الحديث ١٥٢١)، ومسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، رقم الحديث ١٣٥٠).

وهذه الطهارة ليست فقط حسية، بل تشمل طهارة القلوب والجوارح من مساوئ الأخلاق، فكما يُطهَّر المكان من الأنجاس، يجب أن تُطهَّر القلوب من الضغائن، والألسن من اللغو، والجوارح من الظلم والاعتداء.

ومن الأحاديث التي تؤكد خصوصية مكة في تهذيب الأخلاق، ما جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال يوم فتح مكة: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا، وَلَا يُخْتَلَىٰ خَلَاه»[1]. فهذا المنع من الإيذاء حتىٰ للحيوان والنبات، دليل علىٰ أنَّ مكة موطن السكينة والسلام، ومدرسة تربّي المسلم علىٰ ضبط النفس، والتخلق بأعلىٰ درجات الأمانة والرفق.

ولهذا، فإنَّ المسلم في مكة يتدرب علىٰ التخلّص من الأثرة والأنانية، ويتعلّم كيف يُراعي حقوق الآخرين، ويتجنب الجدال والخصومة، ويهذب سلوكه، ليحمل معه هذه الأخلاق في سائر حياته، فتكون زاده الحقيقي الذي يعود به من رحلته المباركة.

سادسًا: أمن البيت الحرام وهداياته للحياة المعاصرة:

يُعدُّ الأمن في البيت الحرام مظهرًا هادئًا لهداية إلهية متكاملة، جسّدها الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها، رقم الحديث ١٨٣٢)، ومسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، رقم الحديث ١٣٥٣).

تعالىٰ في أقدس بقاع الأرض، فجعله موئلًا للسكينة، ومثابةً للناس، ومظهرًا عمليًا لقيمة الأمن في الإسلام. قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القَصَص: ٥٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عِمۡرَان:٩٧]. فالحرم الشريف بيئةً يُصان فيها الدم، وتُحترم فيها الحياة، وتُمنع فيها مظاهر العدوان، فلا يُنفَّر صيد، ولا تُقطع شجرة، ولا يُروّع آمن.

وما يميز هذا الأمن أنه لا يقتصر علىٰ المظاهر الخارجية، بل يتغلغل في وجدان الداخل إلىٰ الحرم، إذ يشعر فيه بانفراج الكرب، وسكون النفس، وطمأنينة الروح، حتىٰ ليبدو كأنّ الأمن قد تحوّل من مجرد نظام مفروض إلىٰ شعور باطني يغمر القلب.

وهذا يرسّخ في النفس أن الأمن في التصور القرآني ليس مجرد ضرورة اجتماعية، بل هو حالة إيمانية، ومقصد شرعي، ومنهج حياة.

والأمن في البيت الحرام ليس مجرّد خصوصية مكانية فحسب، بل هو نموذجٌ إلهي يُراد استلهامه في سائر الحياة، ليغدو المسلم صانعًا للأمان، وحارسًا له، ومبثوثًا به في محيطه وأمته. فمن تأمّل كيف جعل الله تعالىٰ الحرم واحةً للأمان المطلق، أدرك أن الأمن قيمة من قيم الوحي، وركن من أركان عمارة الأرض، وسِمةٌ من سمات المجتمعات المؤمنة.

فالهداية التي تتجلىٰ في أمن الحرم، تُرشدنا إلىٰ أن الأمن نعمةٌ تُشكر، وسلوكٌ يُمارس، ومقصدٌ يُرعىٰ، بدءًا من أمن النفس، وأمن الأسرة، وأمن المجتمع، إلىٰ الأمن الفكري، والأخلاقي، والديني. ويخطئ من يحصر الأمن في غياب الخوف الجسدي، فالهداية القرآنية تدلنا علىٰ أن الأمن الحقّ هو الطمأنينة الممتدة في الفكر والوجدان والواقع.

وإن إدراك هذه المعاني يدفع المسلم إلىٰ توسيع دائرة الأمن من الحرم إلىٰ حياته كلّها: في بيته، وعلاقاته، ومجتمعه، وسائر ممارساته. فالهداية المتحققة في الحرم ترسم معالم الأمن الشامل: أمن الفكر، وأمن الأخلاق، وأمن العلاقات، وأمن المعتقد، وتربط ذلك كله بالإيمان والتقوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأَنْعَام : ٨٢].

وعليه، فإن أمن الحرم مدرسة هُدائية تعليم الناس كيف يصنعون الأمن في حياتهم، وكيف يُشِيعون السكينة في مجتمعاتهم، وكيف يكون كل واحدٍ منهم واحةً للأمان، وسراجًا للهداية، وحارسًا لنعمة من أعظم نِعَم الله في الأرض: نعمة الأمن.

سابعاً: البيت العتيق: هداية القبلة ومقام الاصطفاء:

يمثل البيت الحرام محورًا أساسيًا في تكوين الهوية الإيمانية للأمة الإسلامية، ليس فقط باعتباره قبلة للمصلين، وركنًا من أركان دينها، وإنما لكونه علامةً قرآنية كبرىٰ علىٰ اصطفاء هذه الأمة وتميّزها. وقد ارتبطت الأمة بالبيت الحرام ارتباطًا يتجاوز حدود الزمان والمكان، فكان البيت هدايةً للقبلة، ومقامًا للاصطفاء، وتجليًا لعزّة الأمة واستقلالها عن سائر الأمم.

١/ هداية القبلة وإعلان التميز:

من أبرز صور الهداية في ارتباط الأمة بالبيت الحرام: هداية التوجّه والقبلة. فقد تحولت القبلة من بيت المقدس إلىٰ المسجد الحرام، استجابةً لرغبة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وإرادة ربانية بإظهار استقلال الأمة عن أهل الكتاب،

وتميّزها في قبلتها ومنهجها، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤].

فجعل الله التحول إلىٰ الكعبة إعلانًا لهوية الأمة، ورفضًا للاتباع الأعمىٰ لأمم مضت، وجعل ذلك مظهرًا من مظاهر الهداية إلىٰ الصراط المستقيم: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:١٤٢].

بل وجعل هذا التحوّل اختبارًا إيمانيًا حاسمًا، يميز بين من يتبع الرسول بإخلاص، ومن ينقلب علىٰ عقبيه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة : ١٤٢ - ١٤٣].

٢/ شعيرة الحج وتكريس الاصطفاء:

ومن مظاهر الاصطفاء أيضًا: أن فرض الله الحج إلىٰ هذا البيت، وجعله ركنًا من أركان دينها، فلا يكتمل إسلام العبد المستطيع حتىٰ تطأ قدماه تلك الديار المقدسة، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عِمْرَان : ٩٧].

فالحج لم يُفرض علىٰ أمة سابقة بهذا الشكل الجامع، ولم تُمنح شعيرة تجمع الأبدان والقلوب وتوحد الأعراق واللغات كما منحت لهذه الأمة،

فجعل الحج ركنًا جامعًا لهوية الأمة وتميّزها، ومظهرًا من مظاهر تعظيم شعائر الله، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج : ٣٢].

٣/ مقام إبراهيم والتجذّر الإبراهيمي:

ومن هدايات هذا البيت أن الله تعالىٰ ربط الأمة بالإرث الإيماني الخالص من خلال مقام إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حين قال: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البَقَرَة : ١٢٥]، ليدلّ علىٰ أن هذه الأمة هي الامتداد الحقيقي لملة إبراهيم، وليرسّخ في وجدانها أن التوحيد الخالص هو أساس هويتها، وأنها أولىٰ الناس بإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ٦٨].

٤/ البيت العتيق والشهادة علىٰ الأمم:

ومن أعظم هدايات البيت الحرام أنه كان سببًا في بيان مقام الأمة الوسط الشاهدة علىٰ غيرها من الأمم، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البَقَرَة : ١٤٣].

فالأمة لا تستمد تميزها من تفوق مادي، بل من الارتباط الصادق بالبيت، والثبات علىٰ القبلة، والاستقامة علىٰ الصراط. ومن هنا، صار البيت الحرام علامة عزّة الأمة واستقلالها عن سائر الأمم، فلا تتبع أهواء أهل الكتاب، ولا تستبدل الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير، قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٤٥].

٥/ البيت وحفظ دين الأمة:

إنّ البيت الحرام ليس بناءً من حجارة، بل هو مهوىٰ الأفئدة، ومركز التوحيد، ومحور الهداية، ومأرز الإسلام عند غربته، فعن ابن عمر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا»(١).

كما حفظ الله كتابه ليظل نور الهداية مشرقًا، حفظ بيته العتيق وجعله موئل الإسلام وراية التوحيد الخالدة. وهذا الاصطفاء الإلهي ليس للبيت وحده، بل لأمةٍ ارتضاها الله لحمل رسالته، فجعلها خير أمة أخرجت للناس، ثابتةً علىٰ ميراثها، ماضيةً في طريق عزتها، لا يزعزعها تهكم السفهاء، ولا تحيد عن نهجها المستقيم، بل تستمسك بعزّ الدين وشرف المكانة التي منحها الله، سائرةً بثبات نحو صراطه المستقيم.

الخلاصة:

يمثل البيت الحرام محور الهوية الإيمانية للأمة الإسلامية، إذ جعله الله قبلةً لها ومظهرًا لاصطفائها واستقلالها عن سائر الأمم. ومن خلال شعائر الحج والارتباط بمقام إبراهيم، تتجلىٰ حقيقة انتماء الأمة إلىٰ ملة التوحيد الخالص. كما أن ثباتها علىٰ قبلتها واستقامتها علىٰ الصراط المستقيم يعكسان مقامها في الشهادة علىٰ الأمم، مما يؤكد أن عزتها مستمدة من ارتباطها الوثيق ببيت الله الحرام.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب بيان أنَّ الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وإنَّه يأرز بين المسجدين، رقم الحديث ١٤٦).

ثامناً: هدايات البيت الحرام من خلال فيوض بركاته:

يمثل البيت الحرام في مكة المكرمة مركزًا محوريًا في المنظومة الإيمانية الإسلامية، ليس فقط من حيث كونه القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في صلاتهم، وإنما أيضًا لما خصه الله تعالىٰ به من بركات روحية ومادية، جعلت منه موضعًا فريدًا في جغرافية الهداية الربانية.

أولًا: بركته الذاتية:

يقرر القرآن الكريم أن البيت الحرام مبارك في ذاته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦]، فهو أول بيت وضع لعبادة الله علىٰ وجه الأرض، وقد وُصف بـ«مباركًا» أي كثير الخير، دائم الفيض، واسع العطاء. وهذه البركة الذاتية تعلمنا أن بعض الأماكن تُشرف باصطفاء الله لها، وتغدو مواضع للتنزل الإلهي وموارد للهداية.

ثانيًا: بركة الرزق:

رغم أن البيت مقام في وادٍ غير ذي زرع، إلا أن الله تعالىٰ قد أنزل عليه فيضًا من البركات المادية، فجعل أرزاق الدنيا تُجلب إليه من أطراف الأرض، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، هذا يُعلّم الأمة ويهديها إلىٰ أن البركة الإلهية قادرة علىٰ تجاوز حدود الجغرافيا والمناخ والموارد، وأن التوكل علىٰ الله مقرون بالإمداد والتيسير من حيث لا يُحتسب.

ثالثًا: بركة الماء:

يُعدّ ماء زمزم مظهرًا من مظاهر الهداية الربانية، حيث تفجّر بأمر الله تحت أقدام إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ليكون سقيًا مباركًا، متجاوزًا السنن الطبيعية في نبع الماء واستمراريته، إذ لم ينضب رغم تعاقب الأجيال وكثرة الحجاج والمعتمرين. وقد وصفه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ماء زمزم:«إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ. إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ»[1]، وفي رواية أخرىٰ:«ماء زمزم لما شرب له، وهو طعام طُعم، وشفاء سُقم»[2] ، مما يؤكد بركته التي تتجاوز مجرد الإرواء إلىٰ معاني التكوين الروحي والانتفاع الإيماني. وهذا يبرز حقيقة الهداية، حيث يرتبط النفع والبركة بصدق النية وسلامة القصد، مما يجعل ماء زمزم شاهدًا حسيًا علىٰ العناية الإلهية بأوليائه، ودليلًا علىٰ أن الإيمان هو مفتاح البركة الحقيقية، فمن شربه بنية الشفاء شُفي، ومن شربه بنية الرزق بورك له، ومن شربه بنية العلم نال منه، وأن من نال إكرام الله تعالىٰ سعدت حياته.

رابعًا: مضاعفة الأجر ورفعة العمل: هداية تعظيم الشعائر

يتميز البيت الحرام بخصوصية إيمانية تتجلّىٰ في مضاعفة الأجور والرفع

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ح٢٤٧٣، ٤/ ١٩٢٢)، وجاء عند غير مسلم (طَعامُ طُعْم، وَشِفَاءُ سُقْم).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (كتاب المناسك، باب في الشرب من زمزم، رقم الحديث ٣٠٦٢)، بلفظ: «ماء زمزم لما شرب له، وهو طعام طُعم، وشفاء سُقم»، وهو حديث حسن لغيره كما قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٨٣)، وله شواهد متعددة تعضده.

من قدر الأعمال الصالحة، حيث أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الصلاة فيه تعدل مئة ألف صلاة فيما سواه، كما أن الحج المبرور جزاؤه الجنة، فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلَاة فِي مَسْجِدِي هَذَا بِأَلف صَلَاة فِيمَا سواهُ إِلَّا الْمَسْجِد الْحَرَام، فَإِنَّ الصَّلَاة فِيهِ بِمِائَة الف صَلَاة فِي غَيره، وَصَلَاة فِي الْمَسْجِد الْأَقْصَىٰ بِخَمْسِمِائَة صَلَاة» (١). كما أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الحج المبرور لا جزاء له إلا الجنة، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» (٢)، وفي حديث آخر: «وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةَ» (٣). وهو تطهير للعبد يعود منه كيوم ولدته أمه.

وهذه المضاعفة ليست مجرد امتياز مكاني، بل هي هداية ربانية تُرشد إلىٰ أثر تعظيم الشعائر، وأهمية استشعار قدسية الزمان والمكان، مما يستدعي

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (ح١٧١، ١/ ٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان (ح٣٨٤٥، ٦/ ٣٩)، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات وفي بعضهم كلام، وهو حديث حسن. مجمع الزوائد (٤/ ٧). وقد روي جزء من هذا الحديث عند البخاري ومسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» البخاري (ح١١٩٠، ٢/ ٦٠)، ومسلم (ح١٣٩٤، ٢/ ١٠١٢)، كما أخرجه ابن ماجه في سننه (كتاب إقامة الصلاة، باب فضل الصلاة في المسجدين، رقم الحديث ١٤٠٦) بلفظ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة»، وقال الألباني في صحيح ابن ماجه: حديث صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الحج، باب قول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾، ح١٨٢٠، ٣/ ١١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الحج، باب وجوب العمرة وفضلها، ح١٧٧٣، ٣/ ٢).

الاجتهاد في الطاعات في المواطن المباركة كالمسجد النبوي والمسجد الأقصىٰ، وشهر رمضان، والعشر الأوائل من ذي الحجة، تحقيقًا لأعلىٰ مراتب القرب من الله.

خامسًا: شرف الحُرمة ومقام الاصطفاء: هداية التعظيم والطهارة

اصطفىٰ الله البيت الحرام واختصه بقداسة لا تضاهيها بقعة، فجعله موضعًا للتطهير ومحلًا لتعظيم الحرمات، حتىٰ إن الإلحاد فيه موجب للعذاب الأليم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحَج : ٢٥]. وهذه الحُرمة ليست شكلية، بل تمتد إلىٰ سلوك العبد وقلبه، إذ لا يبلغ المرء شرف الحرم إلا بتعظيمه في الظاهر والباطن. ومن هنا، كانت الهداية العظمىٰ في هذا الموطن المبارك هي إدراك أن الطهارة القلبية والسلوكية هي السبيل لنيل بركات الاصطفاء، وأن تعظيم شعائر الله في هذا المكان هو من دلائل التقوىٰ وسبيلٌ إلىٰ القرب والرضوان.

يعدّ البيت الحرام منارة للهداية الربانية، حيث تتجلىٰ فيه فيوض البركة التي ترشد إلىٰ حقائق الإيمان والتقوىٰ. فبركته الذاتية تؤكد شرف الاصطفاء الإلهي، وبركة الرزق فيه تعلم أن العطاء الإلهي لا تحدّه الأسباب، أما ماء زمزم فيجسد ارتباط البركة باليقين وحسن القصد. وتضاعف الأجور فيه يهدي إلىٰ أثر تعظيم الشعائر، بينما تميزّه بالحُرمة يرشد إلىٰ أن الطهارة القلبية والسلوكية هي مفتاح القرب من الله، مما يجعل البيت الحرام أعظم موطن لتحقيق الهداية والسير إلىٰ الله بصفاء وإخلاص.

تاسعاً: البيت الحرام: هداية الآيات البينات وبراهين اليقين:

يمثل البيت الحرام في مكة المكرمة موطنًا لهداية عظيمة، تتمثل في الآيات البينات التي أودعها الله فيه، لتكون أدلة مشاهدة علىٰ صدق الدين، وعظمة الوحي، وتحقيق وعد الله لأنبيائه، مما يجعل هذا البيت منارةً للإيمان، ومصدرًا لليقين، ومثبتًا للنفوس علىٰ صراط الله المستقيم. وقد أشار القرآن إلىٰ هذه الحقيقة بقوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وهذه الآيات البينات لا تقتصر علىٰ معجزات حسية، بل تشمل مشاهد متجددة ومعانٍ إيمانية تربوية، تشهد بها الأبصار وتقر بها القلوب، وتتمثل فيما يلي:

١/ مشهد التوافد من كل فجٍّ عميق: تجلي الاستجابة لدعوة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

من أعظم الآيات البينات التي يراها كل مؤمن بعينيه: تدافع الحجيج والعمار إلىٰ البيت من كل أقطار الأرض، علىٰ اختلاف لغاتهم وألوانهم وأجناسهم، استجابة لنداء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: حيث قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، وقد تحققت هذه الدعوة بأعجب صورها، كما دعا بها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لتهوي إليه القلوب قبل الأجساد، وتتحرك الأرواح قبل الخطىٰ، في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، في مشهد لا نظير له علىٰ وجه الأرض، يُجدّد الإيمان، ويُعمّق يقين العبد بأن الله مُنجزٌ وعده، ناصرٌ دينه.

٢/ مقام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: شاهد حي علىٰ الامتثال والتسليم:

من الآيات البينات الخالدة في البيت: مقام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي حفظه الله علىٰ مرّ العصور، وشهد عليه القرآن: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عِمْرَان: ٩٧].

وهو موضع وقف فيه نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أثناء رفع القواعد، فخلّده الله عَزَّوَجَلَّ، وأمر الأمة أن تتخذه مصلّىٰ، هذا المقام، الذي حفظه الله علىٰ مر العصور، يُعد بمثابة دعوة مفتوحة للمؤمنين للاقتداء بالنبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في طاعته المستمرة لله، وللتأكيد علىٰ أهمية السعي في بناء الدين ورفع مؤسساته. إذ أن اتخاذ المقام مصلّىٰ ليس مجرد تذكّر للأنبياء، بل هو دعوة حية للالتزام بالمنهج الإيماني والعمل علىٰ تحقيق مقاصده في حياتنا اليومية.

٣/ أرزاق تُجبىٰ إليه رغم قساوة الأرض:

ومن الآيات الجليّة التي يشاهدها كل زائر: فيض الرزق والثمار في بيئة لا زرع فيها ولا ماء، مع كثرة الأفواج تحقيقًا لدعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البَقَرَة : ١٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٣٧]، وقد قال تعالىٰ تصديقًا لذلك: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القَصَص : ٥٧].

وهذه الآية البينة تؤكد للمؤمن أن الرزق لا يتوقف علىٰ الظروف المادية، بل يتجلىٰ في الاستجابة لله، حيث تُفتح أبواب البركة في الأرض والماء والثمار بفضل الطاعة واليقين في وعد الله.

٤/ البيت مثابة ومهوىً للأفئدة: آية من آيات الفطرة:

من أصدق الآيات التي لا تخفىٰ علىٰ قلب مؤمن: محبة القلوب للبيت الحرام، وتعلّق الأرواح به تعلقًا يفوق الوصف، فلا يملّ زائره، ولا يشبع منه الطائف، ولا يغادره حاجٌّ أو معتمر إلَّا وهو يتمنىٰ العودة إليه، متلهفًا إلىٰ لحظة أخرىٰ في رحابه الطاهرة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، فلا تزال النفوس المؤمنة تهفو إليه، وتتوق إلىٰ رحابه، مستجيبة لنداء الفطرة، ومشاعر الشوق الإيماني الذي لا ينطفئ. يُبذل في سبيل الوصول إليه النفيس من المال والجهد، فلا يبخل عليه محبٌّ، ولا يتوانىٰ عنه مشتاق، بل يجد السائر إليه لذةً في عناء الطريق، ومتعةً في تحمل المشقة، بما يشير أن البيت الحرام يمثل حاجة فطرية للأمن الروحي، حيث يظل المؤمنون يطمحون إلىٰ زيارته ويلتمسون من خلاله تعزيز علاقتهم بالله، معبرة عن شوق لا يتوقف.

٥/ حفظ الله لبيته آية للمعتبرين:

من أعظم الآيات البينات: حفظ الله لبيته من كيد المعتدين والطغاة، كما في قصة، فكم من حضارات درست ومعالم بيوت وقصور هدمت، وظل هذا البيت شامخًا عزيزاً عامرا بوفود المؤمنين، وقد جعل الله في بيته عبرة لكل من أراد العبث بحرمة هذا المكان، فمن حاول الاعتداء عليه وقصده بسوء من الجبابرة العتاة قصمه الله، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفِيل: ١ - ٥]، فهو بيت محروس بعين العناية الربانية، ومن تعرّض له بسوء قصمه الله، وهذه آية بينة مستمرة، تذكّر الأمة بأنّ حرمة البيت من حرمة الدين، وأنّ الاعتداء عليه اعتداء علىٰ ما عظّمه الله.

الخلاصة:

إنّ الآيات البينات في البيت الحرام ليست فقط دلائل تاريخية أو مشاهد تقليدية، بل هي براهين إيمانية متجددة تُغذّي اليقين، وتُثبت القلوب، وتُعمّق معاني التوحيد في النفوس. فمن تأملها بعين القلب، ازداد إيمانًا، واستقرّ في نفسه أن هذا الدين هو الحق، وأن هذا البيت هو مركز الهداية، وموطن الطمأنينة، ومهوىٰ القلوب علىٰ مر العصور.

عاشراً: البيت الحرام: هداية إلى النموذج الرباني لبيوت العبادة:

من أوجه الهداية العظيمة التي تجلّت في البيت الحرام أن الله تعالىٰ جعله نموذجًا ربانيًا فريدًا لبيوت العبادة في الأرض، بحيث تكون متميّزة في مكانها عن سائر الأماكن، وتتولىٰ بناءه وطاهرته وعنايته النفوس الطاهرة، وتكون الغاية التعبدية الخالصة من تأسسيه من أول يوم ظاهرة البناء. فقد شكَّل هذا النموذج تصور عمليا للأمة عن مكان العبادة الحق، من حيث الصفاء، والتقوىٰ، والإخلاص، والتجرد من كل دنسٍ حسيّ أو معنوي.

١/ التأسيس الإيماني علىٰ يد المرسلين:

لم يكن بناء البيت الحرام بناءً بشريًّا محضًا، بل تمّ باختيار رباني لمكانه، واصطفاء نبوي لقائميه، حيث رفع قواعده خليل الله إبراهيم، وابنه إسماعيل، عليهما السلام في مشهد يجمع بين العبودية والامتثال، والخشية والإخلاص، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البَقَرَة: ١٢٧].

فالبناء في أصله شعيرة تعبّدية، لا عملًا هندسيًا فقط، وهو ما يرسّخ الهداية القرآنية بأنّ العبادة لا تقوم إلا على تقوى القلوب، ونقاء النية، وخلوص العمل لله وحده.

٢/ تكريس مبدأ الطهارة الشاملة لبيوته:

ليبقى هذا البيت طاهرًا نقيًّا للطائفين والعاكفين والركع السجود، أمر الله سبحانه بتطهيره من كل دنسٍ حسيّ أو معنويّ منذ رفع قواعده، قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ﴾ [البَقَرَة: ١٢٥]، فهو بيتٌ مطهّرٌ في ذاته، ومطهّرٌ لعباده، تطهر فيه الأجساد، وتصقل فيه الأرواح، وتتحرر فيه القلوب من أدران الذنوب، فأهله هم التوابون الطاهرون على مر العصور.

فالأمر الإلهي بتطهير البيت لا يُفهم على أنّه مجرد إزالة النجاسة، بل هو تطهير شامل:

تطهير مادي: إزالة القاذورات وكل ما يشين.

تطهير معنوي: من مظاهر الشرك، والرياء، والبدع، والذنوب.

تطهير مقصدي: بإخلاص النية لله وحده، والتجرد من كل ما يفسد العبادة.

وهذا يرسّخ الهداية الكبرى في النموذج القرآني لبيت العبادة، وهي أن الطهارة في بيوت الله شرطٌ لازمٌ لقبول الطاعة، وركيزة لسكينة الروح.

٣/ منع النجاسة الاعتقادية والبدنية:

ومن تمام هذا التطهير أن حُرِّم على أهل الشرك والنجاسة الاعتقادية الدخول إلى المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التَّوْبَة: ٢٨].

وهذا تأكيد قرآني علىٰ الحماية العقائدية لبيت الله، وإشارة إلىٰ أن مكان العبادة يجب أن يُصان من التلويث، سواء كان تلويثًا فكريًا أو سلوكيًا أو بدنيًا.

فهو بيت التوبة، ومحراب التطهير، ومحل التحول من الذنب إلىٰ النقاء، ومن الغفلة إلىٰ الخشوع.

٤/ تكامل الأمن والطهر والرزق في بيئة العبادة:

لقد وسّع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دعاءه ليشمل أبعادًا ثلاثة متكاملة في مقومات العبادة الراسخة، الأمن والرزق، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البَقَرَة: ١٢٥ - ١٢٦].

إضافة للتعلق القلبي، فلم تكن دعوات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لهذا البيت قاصرةً علىٰ الأمن والرزق فحسب، بل توسعت لتشمل إشعال جذوة المحبة في قلوب الناس تجاهه، قال تعالىٰ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٣٧].

فالمسجد الحرام ليس موضع طهارة جسدية فقط، بل هو مركز لتزكية الروح، وتفعيل التوحيد، وإنبات القلوب علىٰ محبة الله وشكره، بما يجعله نموذجًا شاملًا لما ينبغي أن تكون عليه بيوت الله في الأرض.

٥/ مقام إبراهيم: الرمز الخالد للطاعة المؤسسة:

ولأن الطاعة التأسيسية تُخلّد، فقد أمر الله تعالىٰ الأمة باتخاذ مقام إبراهيم مصلىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البَقَرَة: ١٢٥]،

فجعل هذا الموضع رمزًا عيانيًا للطاعة المؤسسة للعبادة، والتجرد من الهوىٰ، والاستسلام الكامل لأمر الله، ليكون بيت الله مركزًا لتجديد الميثاق مع الله علىٰ نقاء القلب وصحة الاعتقاد.

الخلاصة:

إن من أعظم هدايات البيت الحرام أنه يؤسس في وعي الأمة مفهوم «البيت الطاهر» كمعيار قرآني لبيوت العبادة، فيجمع بين:

- التأسيس علىٰ الإخلاص.
- التطهير الشامل للذات والمكان.
- الحماية من التلويث الاعتقادي.
- تهيئة بيئة الأمن والرزق والمحبة.
- تخليد معالم الطاعة الصافية.

فهو نموذج تطبيقي للعبادة الخالصة، والتجرد الكامل، والطهر الذي يليق بأن يُنسب إلىٰ الله، مما يجعل من المسجد الحرام مرجعًا للأمة في تصورها لبيوت العبادة، ومعيارًا تقيس عليه صدق توجهها لله، وصفاء عبادتها له.

وقد أوجز الإمام ابن القيم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عظمة هذا البيت المبارك في تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عِمْرَان: ٩٦ - ٩٧]، فذكر خمس صفات لهذا البيت المبارك: «أحدها: أنَّه أسبق بيوت العالم وَضْعًا في الأرض.

الثاني: أنَّه مبارك؛ والبركة: كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه، ولا أكثر خيرًا ولا أدوم ولا أنفع للخلائق.

الثالث: أنَّه هدىٰ، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة حتىٰ كأنَّه هو نفس الهدىٰ.

الرابع: ما تضمَّنه من الآيات البيِّنات التي تزيد علىٰ أربعين آية.

الخامس: الأمن الحاصل لداخله. وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصدِه ما يبعث النفوسَ علىٰ حجِّه، وإن شطَّت بالزائرين الديار، وتناءت بهم الأقطار، ثمَّ أَتْبَع ذلك بصريح الوجوب المؤكّد بتلك التأكيدات، وهذا يدلُّك علىٰ الاعتناء منه -سبحانه- بهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلَّا إضافته إيَّاه إلىٰ نفسه بقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج : ٢٦] ، لكفىٰ بهذه الإضافة فضلًا وشرفًا. وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسَهم حبًّا له، وشوقًا إلىٰ رؤيته، فهو المثابة للمحبِّين، يثوبون إليه، ولا يقضون منه وطرًا أبدًا، كلّما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حبًّا، وإليه اشتياقًا، فلا الوِصَال يشْفيهم، ولا البعاد يسليهم»[1].

ختامًا:

فالحديث عن هداية البيت الحرام لا يحصىٰ ولا يعد، نجمل هنا كذلك عشر هدايات لهذا البيت، وهي:

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٦١، ٤٦٢).

- **هداية الإكثار من الذكر والدعاء**: المناسك كلها هي تربية للمسلم علىٰ المداومة علىٰ الذكر والدعاء من خلال المشاعر والعبادات كلها.

- **هداية الاستغفار والتوبة**: فهو المكان الذي تتنزل فيه الرَّحمات، وتغفر فيه الزلات، وتسكب فيه العبرات، وتنصلح فيه القلوب والأحوال، فكم رأينا من نفوس تغيَّرت بالإيمان وتبدلَّت في هذا المكان، وكم من عاصٍ أقلع عن معاصيه وتاب، وكم من غافل رجع عن غفلته وأناب، وكم من جاهل فتح الله تعالىٰ له حول بيته بصيرته، فهو ميدان تجديد العهد والعودة إليه مهما عظمت الذنوب.

- **هداية الارتباط بالقرآن والسنة**: كل شعيرة في البيت الحرام مرتبطة بآية أو حديث، ممَّا يجعل المسلم أكثر تمسُّكًا بالقرآن والسنة. يتعلم أنَّ كل شيء في الإسلام له أصل شرعي، وأنَّ الاقتداء بالأنبياء والصالحين هو طريق النجاة.

- **هداية التواضع وكسر الكبرياء**: عندما يطوف المسلم مع آلاف البشر من مختلف الأجناس، يشعر بأنَّه مجرد عبد من عباد الله، لا ميزة له إلا بالتقوىٰ.

- **هداية الزهد والتجرد من الدنيا**: في الحج والعمرة يتجرد الإنسان من الفوارق أثناء الإحرام ليذكره بمحبة الله تعالىٰ للمتواضعين المخبتين من عباده، كما ذكره بيوم البعث ودار الجزاء بما يزهده في الدنيا.

- **هداية الصبر والمجاهدة**: والحج والعمرة هما مدرستان عمليتان علىٰ الصبر والمجاهدة.

- **هداية العدل والمساواة**: فلا فرق في البيت الحرام بين غني وفقير، ولا سيد ومسود، فالكل عباد لله.

- **هداية الاستقامة الاستمرار على الطاعة:** فالمسلم الذي ذاق روحانية الحرم لا يعود كما كان، بل يسعى إلى حياة أقرب إلى الله، وطوافه بالبيت يربي في نفسه أنَّ حياته كلها ينبغي أن تدور حول الطاعة والعبادة.

- **هداية الحب والارتباط بالأماكن المقدسة:** يغرس في المسلم حب مكة والمشاعر المقدسة، ويشعر بأنَّه مرتبط بهذا البيت رغم بُعد المسافة. هذا الارتباط يجعله أكثر التزامًا بدينه وحرصًا على زيارة هذا المكان المبارك بقدر ما استطاع.

- **هداية الشكر ودوام النعمة:** وهو يرى الألوف من الناس وقد اصطفاه الله تعالى لزيارة بيته الحرام. يدرك قيمة النعم، فيزداد شكرًا لله على نعمة الهداية، والصحة، والقدرة على العبادة وغيرها.

- **هداية المنافع المتنوعة:** فهو المكان الذي يجتمع المسلمون فيه من شتى بقاع الأرض ليحققوا فوائد روحية، واجتماعية، واقتصادية، وثقافية، تجعل من هذا المكان المبارك مركز إشعاع حضاري ومصدر نفعٍ مستدام للأمَّة.

وهكذا، يبقى البيت الحرام هدى للعالمين، منبعًا لا ينضب بالهدايات المتنوعة، وموضعًا تتجدد فيه طاقات الأمَّة، وسيظل هذا العموم موضع تأملٍ دائم، تتفجر منه البركات، وتتنزل عنده الرحمات، وتقضى به مصالح الدين والدنيا، في مشهدٍ يرسّخ أنَّ هذا البيت بيت الله ليس مجرد بيت للعبادة فحسب، بل هو نظام هداية متكامل يُحيِي الأمَّة، ويجدِّد عزَّتها، ويقوِّي وحدتها، ويعزِّز مكانتها بين الأمم.

المبحث الثالث

ورثة الأنبياء ونوّابهم في الهداية

هذا الموضوع العظيم الكبير الذي من خلاله تتم حراسة الدين وقيامه في الأمَّة، يحتوي علىٰ عناصر مهمة متنوعة، سوف أتناولها من خلال النقاط الآتية:

أولاً: العلماء ورثة الأنبياء:

العلماء هم ورثة الأنبياء في علم النبوة، وهو خير ما يُورَّث عن خير مورِّث، وكفىٰ بذلك فضلًا ومكانة ومنزلة لهم، قال تعالىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النَّمل: ١٦].

قال ابن القيم: «فهو ميراث العلم والنبوة لا غير، وهذا باتِّفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم؛ وهذا لأنَّ داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان له أولاد كُثر سوىٰ سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلو كان الموروث هو المال وحده لم يكن سليمان مختصًّا به.

وأيضًا فإنَّ كلام الله يصان عن الإخبار بمثل هذا، فإنَّه بمنزلة أن يقال: مات فلان وورثه ابنه، ومن المعلوم أنَّ كلَّ أحد يرثه ابنه وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة.

وأيضًا فإنَّ ما قبل الآية وما بعدها يبيِّن أنَّ المراد بهذه الوراثة: وراثة العلم والنبوة، لا وراثة المال، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النَّمل: ١٥]»[1].

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٦٧).

وكذلك في دعاء ذكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ حين طلب الولد، في قوله تعالىٰ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مَرْيَم: ٥ - ٦]، أي «ميراث العلم والنبوة والدعوة الىٰ الله، وإلَّا فلا يظنّ بنبيٍّ كريم أنَّه يخاف عصبته أن يرثوه ماله؟»[١].

وجاء في الحديث عن أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بما يصنع، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حتىٰ الْحِيتَان فِي الْمَاءِ، وفَضْلَ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، **وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا إِنَّما وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[٢]، فهذا نصٌّ صريح في أنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء في العلم، وهو ميراث من أخذه، فقد نال حظًّا عظيمًا.

ثانياً: مكانة العلماء وفضلهم:

ولمَّا كان العلماء هم ورثة الأنبياء، نالوا من المنزلة والفضل ما لم ينله غيرهم من الناس، فقد أشهدهم الله تعالىٰ علىٰ أعظم شهادة، وهي توحيده، قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عِمْرَان: ١٨].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، رقم الحديث ٣٦٤١)، والترمذي في سننه (كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه علىٰ العبادة، رقم الحديث ٢٦٨٢) وقال: حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

قال ابن القيم: «وهذا يدلّ علىٰ فضل العلم وأهله من وجوه:

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته.

والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته.

والرابع: أنَّ في ضمن هذا تزكيتَهم وتعديلَهم؛ فإنَّ الله لا يستشهِدُ من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المروي عن النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عُدولُه؛ ينفونَ عنه تحريفَ الغالين، وانتحال المُبْطِلين، وتأويلَ الجاهلين»[1]»[2].

وممَّا يدلُّ علىٰ عظيم منزلتهم أنَّ الله تعالىٰ رفعهم علىٰ سائر الخلق، قال تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المُجَادلَة: ١١]، فيبيِّن الله تعالىٰ أن أهل العلم لهم خصوصية في الرفعة، تميّزهم حتىٰ علىٰ سائر المؤمنين، فجاء عطفهم بعد ذكر المؤمنين عمومًا، مع التخصيص بأن رفعهم «درجات»، للدلالة علىٰ تفاوت منازلهم، وكثرة مراتبهم، وعلو منزلتهم عند الله عز وجل.

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (ح٩٤٢٣، ١٦/ ٢٤٧)، والطبراني في مسند الشاميين (ح٥٩٩، ١/ ٣٤٤)، والآجري في الشريعة (١/ ٢٦٩)، والبيهقي في مجمع الزوائد (ح٦٠١، ١/ ١٤٠)، قال الخطيب سئل أحمد بن حنبل عن هذا الحديث، وقيل له: كأنَّه كلام موضوع؟ قال: لا، هو صحيح، سمعته من غير واحد. انظر: كنز العمال للمتقي الهندي (١٠/ ١٧٦)، وقال ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ٧): «هو من كلام أهل العلم، لا يُعرف مرفوعًا بإسناد صحيح، ولكن معناه حق».

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٣١).

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩]، افادت صيغة الاستفهام الإنكاري النفي القطعي لاستواء العالم والجاهل، وهي صيغة في غاية البلاغة لإظهار التفاوت البيّن بينهما.

وقد جعلهم الله تعالىٰ أولياء أمور الأمَّة وأوجب طاعتهم فيما يأمرون به مما فيه طاعة لله والرسول، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٥٩].

قال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، يعني: أهل الفقه والدين»[(١)]، وقال مجاهد «يَعْنِي: أولي الْفِقه فِي الدِّين والعقل»[(٢)].

وكذلك قال تعالىٰ في وجوب الرجوع إليهم: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النَّحل: ٤٣].

وهم الذين نالوا وصف «خير البرية»؛ الذين ذكرهم الله تعالىٰ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البَيِّنَة: ٧ - ٨]، لأنَّهم أكثر الناس خشيةً لله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: ٢٨].

وفي الحديث عن أبي هُريرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلا ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالاهُ، وَعَالِمًا ومُتَعَلِّمًا»[(٣)].

---

(١) تفسير مجاهد (ص:٢٨٥).

(٢) جامع البيان (٨/ ٥٠٠).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنّفه (ح٣٨٠٦٨، ١٩/ ٥٦٨)، والدارمي مسنده (ح١٣٣١، ١/ ٣٥٠)، والترمذي في سننه (ح٢٣٢٢، ٤/ ٥٦١)، وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ح٤١١٢، ٢/ ١٣٧٧).

وكيف لا يكونون خيار أهل الأرض وهم حملة كتاب الله، أهل الفقه والحكمة والبصيرة، المبصِّرون للناس بهديه، والدَّالُّون لهم علىٰ الخير، والمرغِّبون لهم في العمل به؟ قال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩].

وفي الصحيحين عن حميد بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، وَهُوَ يَخْطُبُ يَقُولُ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[(١)].

ومن فضل العلم أنَّه مقدَّمٌ علىٰ القول والعمل، ولذا بوَّبَ الإمامُ البخاري في صحيحه: باب الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [مُحَمَّد: ١٩] فبدأَ بالعِلم؛ لعموم الحاجَة إليه، ويتوقَّف كمال العبد ونَجَاته في مَعاشِهِ وَمَعادِهِ عليهِ.

قال الشافعي: «ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم»[(٢)].

وقال الزهري: «ما عُبِد الله بمثل الفقه»[(٣)].

وقال ابن وهب: «كنت بَين يَدي مَالك بن أنس، فَوضعت ألواحي وَقمت إلىٰ الصَّلَاة، فَقَالَ: مَا الَّذِي قُمْت إليه بِأَفْضَل من الَّذِي تركته»[(٤)]. والظاهر أنها كانت صلاة نافلة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب العلم، باب: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، ح٧١، ١/ ٢٥)، ومسلم في صحيحه (كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، ح١٠٣٧، ٢/ ٧١٨).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٢٠).

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن رجب (١/ ١١٩).

(٤) انظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٢٠).

ثالثًا: أعظم العلماء علماء الشريعة الإسلامية:

وأعظم علمٍ يرثه الإنسان ويفرح به ويسعد هو علم الكتاب والسنة؛ إذ لا يُقارن بغيره من العلوم في نفعه وهدايته، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يُونُس: ٥٧- ٥٨].

وقد «فسر الله الفضل بالإيمان، ورحمته بالقرآن، والإيمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح، والهدىٰ ودين الحق، وهما أفضل علم، وأفضل عمل»(١).

وقد جاء في الحديث عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»(٢).

ولمَّا عدَّد الله تعالىٰ نعمه العظيمة علىٰ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جعل من أعظمها أنَّه آتاه الكتاب والحكمة، وعلّمه ما لم يكن يعلم، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١١٣].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (١٢/ ١١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ح٥٠٢٧، ٦/ ١٩٢).

في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾، حيث جعل التعليم من الله تعالىٰ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بما يشمل العلم بالوحي، وبحقائق الدين، وبأصول الهداية - هو مظهر الفضل العظيم، ثم ختمها بقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، ليدل علىٰ أن أعظم الفضل وأجله هو فضل التعليم والوحي والعلم.

وهي نعمة عظيمة امتنّ الله بها علىٰ عباده المؤمنين، وأَمرهم بشكرِها، فقال تَعَالىٰ: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥١].

فدلّ هذا الترتيب علىٰ أن تعليم الوحي - كتابًا وحكمةً - هو المقصود الأصيل من البعثة، وأنه من أعظم النعم التي توجب الشكر، وسببٌ رئيس في تكوين الوعي الإيماني والتزكية الأخلاقية للأمة.

فالعلم بالكتاب والسنة هو مصدر السعادة الحقيقية، ومنبع الهداية، وأساس النجاة في الدنيا والآخرة.

رابعًا: جهود العلماء في حفظ الدين وهداية الناس:

وقد منح الله تعالىٰ العلماء هذه المنزلة العظيمة؛ لأنَّهم الأمناء علىٰ حفظ الدين، إذ آياته البيِّنات مستقرة في صدورهم، قال تعالىٰ: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العَنكَبُوت: ٤٩].

فقد افادة الآية أنّ من أعظم أوجه فضل الله علىٰ العلماء أنهم أوتوا صدورًا حافظة، وقلوبًا مؤمنة بالآيات، وأنهم الحاملون لرسالة الوحي، العاملون علىٰ بيانه للناس، فهم بذلك ورثة النبوة، وأمناء الهداية، وحُرّاس الدين.

وهم الذين يبيِّنون الحق للناس، وينشرونه في العالمين، فوجودهم صمّام أمان من الضلال والانحراف، فقد جاء عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ؛ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رؤوسًا جُهَّالًا؛ فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1].

وجاء عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا؛ فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَىٰ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[2].

يُبيّن هذا الحديث الشريف فضل العلم والعلماء، إذ يشبّه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العلم بالغيث الذي يُحيي الأرض، فمنهم من يفقه في الدين

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، ح١٠٠، ١/ ٣١)، ومسلم في صحيحه (كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، وظهور الجهل والفتن، في آخر الزمان، ح٢٦٧، ٤/ ٢٠٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، ح٧٩، ١/ ٢٧)، ومسلم في صحيحه (كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الهدىٰ والعلم، ح٢٢٨٢، ٤/ ١٧٨٧).

وينتفع بما بلّغه الله من العلم، فيتعلم ويُعلّم غيره، ومنهم من يحمل العلم لكنه لا يستفيد منه بنفسه، وإنَّما ينفع به غيره، بينما هناك فئة لا تستفيد ولا تُفيد، فيضيع عليها الخير.

فتعلم القرآن من العلماء والعمل بهديه هو سبب القوامة والاستقامة والسعادة، فهو النور الذي يهدي في الظلمات، والعلم الشافي من داء الجهل، والهدىٰ العاصم من الضلالة، والرحمة، والخير، والبركة. فمن طلب علمه وعمل به، نال به ما يوصل لسعادة الدارين.

وقد جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» (١).

وهذا الحديث يبرز فضل طلب العلم الشرعي، ويبيِّن أنَّ السير في طريق العلم سبب لتيسير طريق الجنة، كما يوضِّح فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن وتدارسه، وما يترتَّب علىٰ ذلك من نزول السكينة، وغشيان الرحمة، وإحاطة الملائكة، وذكر الله تعالىٰ لهم في الملأ الأعلىٰ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الدعاء والتوبة والذكر والاستغفار، باب فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن، وعلىٰ الذكر، ح٢٦٩٩، ٤/ ٢٠٧٤).

فالسعيد من اغتنم هذه النعمة، وسعىٰ لتحصيلها، وجعل القرآن منهاج حياته، علمًا وعملًا، قولًا وفعلًا.

خامسًا/ مقام العلماء في الهداية امتدادٌ لمقام الأنبياء:

من المعلوم أنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء في تبليغ الهدىٰ وإرشاد الخلق إلىٰ طريق الحق، وقد أكرمهم الله بمقام الهداية الإرشادية، فجعلهم أئمةً يهتدي بهم الناس، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٨١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السَّجْدَة: ٢٤]، وقال تعالىٰ في نفس المعنىٰ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٥٩].

غير أنَّ هدايتهم مقصورة علىٰ بيان الحقِّ وإيضاح معالمه، وإقامة الحجَّة وتبليغ الرسالة، كما قال تعالىٰ عن الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأَنبِيَاء: ٧٣].

أمَّا هداية التوفيق والثبات، فهي محض فضلٍ من الله، لا يملكها أحد من البشر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القَصَص : ٥٦] ، وقال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة : ٢٧٢].

فالعلماء مصابيح الدجىٰ، وحرَّاس الشريعة، وأمناء الوحي، يبصِّرون العقول بنور العلم، ويقيمون الحجَّة علىٰ الخلق، غير أنَّ قلوب العباد بيد خالقها، فهو الذي يشرحها للهدىٰ أو يتركها في العمىٰ. فالبيان واجبهم، أمَّا

الاستقامة فبيد علَّام الغيوب، يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، وهو أحكم الحاكمين.

سادسًا/ خير الأمَّة في حمل الهداية وتوريثها عبر الأجيال:

خير أهل الأرض علمًا بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم أهل القرون الثلاثة المفضلة، وفي مقدمتهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلىٰ رأسهم المهاجرون والأنصار الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَة: ١٠٠].

تُقرّر قاعدةً ربانيةً خالدة: أن الفضل عند الله، والرضا منه، والخلود في جناته، إنما هو لأهل السبق في الإيمان، والصدق في النُّصرة، ومن تبعهم بإحسان، ممن سار علىٰ نهجهم، واقتفىٰ أثرهم، وتمسّك بهديهم.

فالصحابة الكرام ـ وعلىٰ رأسهم المهاجرون والأنصار ـ هم صفوة الخلق بعد الأنبياء، اختارهم الله لصحبة نبيه، وأعدّهم لحمل الرسالة، وأثنىٰ عليهم في كتابه، وخلّد ذكرهم برضاه عنهم، فلا يبلغ أحدٌ مرتبة الهداية إلا من كان علىٰ طريقتهم، ولا تُنال السلامة في الدين إلا باتباعهم.

إنهم حملة النور الأول، وروّاد الهداية الخالدة، ومفاتيح الخير للأمة، وموازين الاستقامة في الفهم والعمل، فكل تجديد في الدين لا يَنهض علىٰ أصولهم، ولا يستمد من بصيرتهم، فهو ابتداع وضلال، وإن تزيَّا بلبوس الإصلاح.

ومن ثمّ، فإن أعظم ما تُورّثه الأمة لأجيالها المنهج الواضح الذي تركه الصحابة ومن تبعهم بإحسان: عقيدةً، وعبادةً، وسلوكًا، وفهمًا للوحي، وتعظيمًا لله ورسوله، واتباعًا بلا ابتداع.

فهؤلاء هم الجسر الأمين الذي يصل بين الرسالة الأولىٰ وواقع الأمة، وهم المعيار الحق في زمن التزييف، فمن أراد الفلاح في الدين والدنيا والآخرة، فليعضّ علىٰ طريقتهم بالنواجذ، فإنها الصراط المستقيم.

وقد جاء في الحديث الصحيح عن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (خَيْر القرون قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) [1].

وقد قرَّر أهل السُّنَّة والجماعة أنَّ خير هذه الأمَّة هم القرن الأول، ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ الذين يلونهم، كما ثبت عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال ابن تيمية: «ومن المعلوم بالضَّرورة لمن تدبَّر الكتاب والسُّنَّة وما اتَّفق عليه أهل السُّنَّة والجماعة من جميع الطوائف: أنَّ خير قرون هذه الأمَّة - في الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كلِّ فضيلة- أنَّ خيرها: القرن الأول ثمَّ الذين يلونهم ثمَّ الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير وجهٍ، وأنَّهم أفضل من الخلف في كلِّ فضيلة: من علم، وعمل، وإيمان، وعقل، ودين، وبيان، وعبادة، وأنَّهم أولىٰ بالبيان لكلِّ مشكل. هذا لا يدفعه إلَّا من كابر المعلوم بالضَّرورة من دين الإسلام وأضلَّه الله علىٰ علم» [2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقاق، باب: ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (ح٦٤٢٩، ٨/ ٩١)، ومسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (ح٢٥٣٣، ٧/ ١٨٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٥٧).

وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ الصحابة في القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم علىٰ لسان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم.

قال الإمام الشافعي: «وقد أثنىٰ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ علىٰ أصحاب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، في القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم علىٰ لسان رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم، فرحمهم الله وهنَّاهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلىٰ منازل الصدِّيقين والشهداء والصالحين، هم أدَّوْا إلينا سنن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وشاهدوه والوحي ينزل عليه، فعلموا ما أراد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عامًّا وخاصًّا، وعَزْمًا وإرشادًا. وعرفوا من سنَّته ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كلِّ علم واجتهاد، وورع وعقل، وأمرٍ استدرك به علم واستنبط به. وآراؤهم لنا أَحْمَدُ وأولىٰ بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا، والله أعلم»[1].

وبيّن الإمام اللالكائي سبب اختصاصهم بالفضل، فقال: «لاختصاصهم برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ واتِّباعهم لقوله، وطول ملازمتهم له، وتحملهم علمه، وحفظهم أنفاسه وأفعاله، فأخذوا الإسلام عنه مباشرة، وشرائعه مشاهدة، وأحكامه معاينة، من غير واسطة ولا سفير بينهم وبينه واصلة. فجاولوها عيانًا، وحفظوا عنه شفاهًا، وتلقَّنوه من فيه رطبًا، وتلقَّنوه من لسانه عذبًا، واعتقدوا جميع ذلك حقًّا، وأخلصوا بذلك من قلوبهم يقينًا... فهؤلاء الذين تعهدت بنقلهم الشريعة، وانحفظت بهم أصول السُّنَّة، فوجبت لهم بذلك المنَّة علىٰ جميع الأمَّة، والدعوة لهم من الله بالمغفرة؛ فهم حملة علمه، ونقلة دينه،

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٤٢).

وسفرته بينه وبين أمَّته، وأمناؤه في تبليغ الوحي عنه، فحري أن يكونوا أولىٰ الناس به في حياته ووفاته. وكل طائفة من الأمم مرجعها إليهم في صحة حديثه وسقيمه، ومعولها عليهم فيما يختلف فيه من أموره»[1].

فاتباع منهج الصحابة رضي الله عنهم هو السبيل إلىٰ الهداية والاستقامة، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّ إِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البَقَرَة : ١٣٧]. وبقيَّة علماء الأمَّة ينوبون عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وفق منهجهم الذي رضيه الله تعالىٰ بعد أن رضوا عنه ورضي عنهم.

فالهداية مقترنة بالإيمان الذي كان عليه الصحابة، والضلالة في مخالفة سبيلهم، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّ إِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البَقَرَة : ١٣٧] ، فالخطاب موجه للصحابة رضوان الله عليهم، أي: إن آمن غيركم بنفس ما آمنتم به ـ عقيدة ومنهجًا وسلوكًا ـ فقد اهتدوا. فجعل الله معيار الهداية هو الإيمان المطابق لإيمان الصحابة، لا إيمانًا مبتدعًا ولا منقوصًا ولا مشوهًا.

وهذا يدل بوضوح علىٰ أن الهداية الحقيقية لا تكون إلا علىٰ وفق ما كان عليه أصحاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهم المعيار الذي يوزن به إيمان من جاء بعدهم.

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٢٣).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النِّسَاء : ١١٥].

ففي قوله تعالىٰ: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي غير طريق الصحابة والجيل الأول من المؤمنين، فإن الله يتوعّده بالتولي عنه، وإدخاله النار، وسوء المصير. وهذا يقرّر أن سبيل المؤمنين، أي الصحابة، ليس مسلكًا تاريخيًا يُحترم فحسب، بل هو جزء من الدين، واتباعه من أركان الهداية، ومخالفته من أبواب الهلاك.

سابعًا/ تفاوت منازل العلماء في فهم الهدى وتنزيل الأحكام:

ومع أنَّ القرآن الكريم والسنة النبوية قد اشتملَا علىٰ كل ما يحتاج إليه الخلق، كما قال الشافعي:«فليستْ تنزلُ بأحدٍ من أهل دين الله نازلةٌ إلَّا وفي كتاب الله الدليل علىٰ سبيل الهدىٰ فيها»[1]، إلَّا أنَّ الفهم والاستيعاب لذلك يتفاوت بين الناس، وهذا ما أشار إليه الخطابي بقوله: إنَّ البيان في الشريعة علىٰ ضربين، فقال:«الله تعالىٰ لم يترك شيئًا يجب له حكمٌ إلَّا وقد جعل فيه بيانًا، ونصب عليه دليلًا، ولكن البيان ضربان:

- بيانٌ جليٌّ يعرفه عامة الناس كافة.

- وبيانٌ خفيٌّ لا يعرفه إلا الخاصّ من العلماء الذين عُنوا بعلم الأصول فاستدركوا معاني النصوص، وعرفوا طرق القياس والاستنباط، وردِّ الشيء

(١) الرسالة (ص:٢٠).

إلىٰ المثل والنظير»[١]؛ وذلك لأنَّ «الشريعة لم تنصّ علىٰ حكم كلِّ جزئيةٍ علىٰ حِدَّتها، وإنَّما أتت بأمورٍ كلِّيَّةٍ وعباراتٍ مطلقةٍ تتناول أعدادًا لا تنحصر»، وبناءً علىٰ ذلك فإنَّ «كلُّ حكمٍ لله أو لرسوله وُجِدت عليه دلالةٌ فيه أو في غيره من أحكام الله أو رسوله بأنَّه حُكِم به لمعنىً من المعاني، فنزلت نازلةٌ ليس فيها نصُّ حكمٍ: حُكِم فيها حكمُ النازلة المحكومِ فيها، إذا كانت في معناها» ، ويعدُّ الاجتهاد في استنباط الأوصاف والمعاني التي أنيطت بها أحكام الشريعة، وتنزيلها علىٰ الوقائع والمستجدات المختلفة في كل عصرٍ ومصرٍ من أدقِّ أنواع الاجتهاد في الشريعة.

وهذا يبرز أهمية العلماء في الاجتهاد لفهم نصوص الشريعة وتنزيلها علىٰ الوقائع والمستجدات في كل زمان ومكان.

قال ابن تيمية:«فالكتاب والسُّنة بيَّنَا جميعَ الأحكام بالأسماء العامة، لكن يحتاج إدخال الأعيان في ذلك إلىٰ فهمٍ دقيقٍ ونظرٍ ثاقبٍ لإدخال كلِّ»[٢].

وممَّا لاريب أنَّ العموم في خطاب المكلَّفين وأحكام الواقعات يستلزم الاجتهاد في استنباط المعاني التي أنيطت بها الأحكام في الكتاب والسُّنَّة، ثم الاجتهاد في إدراج الأشخاص المعينة والحوادث المستجدة في كل زمانٍ ومكانٍ تحت تلك المعاني التي أنيطت بها أحكامها[٣].

---

(١) معالم السنن مع التهذيب (٣/ ٥٦).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٤٢).

(٣) انظر: الاجتهاد في مناط الحكم الشرعي دراسة تأصيلية تطبيقية (ص:٧).

فالاجتهاد من أدقّ الأعمال الشرعية وأعلاها منزلة، إذ يُعدّ الوسيلة الأساسية لفهم الأحكام الشرعية واستنباطها، وتنزيلها على الوقائع المستجدة بما يراعي تغيّر الزمان والمكان والحال. ومن هنا كان إسناد هذا العمل إلى أهل العلم المؤهّلين، الذين يقومون باستنباط الأحكام من أدلتها التفصيلية، ويُعملون قواعد الأصول ومقاصد الشريعة في فقه النوازل والمستجدات، تحقيقًا للامتثال الشرعي وضبطًا لنزول الحكم على محله.

ثامنًا/ وجوب استجابة الناس للعلماء في الدعوة إلى الهداية:

إنَّ استجابة الناس لدعوة العلماء فيما يبينونه من الهدي والعمل بالحقِّ تُعدُّ من أعظم الواجبات في الإسلام، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد اختار العلماء ليكونوا ورثة الأنبياء، وخصص لهم مهمة هداية الأمَّة وتوجيهها إلى طريق الحقِّ والخير، وهم الأقدر على تبيين مراد الله ورسوله في مسائل الدين وأحكامه؛ ولذا أوجب الله تعالى على الناس أن يسألوا أهل العلم فيما لا يعلمون، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النَّحل : ٤٣]. وهذه دعوة صريحة على وجوب الرجوع إلى العلماء في الأمور التي تتعلق بالأحكام الشرعية، سواء في مسائل العبادة أو المعاملات إغلاقًا لباب الجهل والانحراف، والارتقاء في فهم الدين.

وتظهر الحاجة الكبيرة إلى العلماء في الأمور التي تحتاج إلى فهم عميق وبصيرة واسعة تجمع بين فهم الأدلة وفقه تنزيلها على الواقع، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النِّسَاء:٨٣]، في هذه الآية توجيه واضح للأمَّة بردِّ المعضلات إلى العلماء الذين لديهم القدرة على استنباط الحقائق الشرعية من مصادرها.

وكما أوجب الله تعالىٰ علىٰ العلماء بيان الحق والهدىٰ للناس، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عِمْرَان : ١٨٧]، فيجب علىٰ الناس الرجوع إليهم وأن يستبصروا بفقههم وتوجيهاتهم، ويضعوا ثقتهم فيهم، خاصة في المسائل التي قد تكون معقدة أو بحاجة إلىٰ تفسير يراعي الواقع المعاصر.

إنَّ الاستجابة لدعوة العلماء لا تقتصر علىٰ الأوامر والفتاوىٰ فحسب، بل تشمل أيضًا الالتزام بما يقدمه العلماء من رؤىٰ مستنيرة تتناسب مع تطورات العصر وتحدياته، ما دامت مبنية علىٰ نور الوحي وهداه.

ففي الحديث الشريف، قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ»[1]، ممَّا يشير إلىٰ أهمية استشارة العلماء والاستشفاء برأيهم عند تشابه المسائل أو الجهل بالأحكام الشرعية.

لقد جعل الله تعالىٰ العلماء - وأنا اعني هنا العلماء الربانيين - بمنزلة نور يهدي به عباده في ظلمات الحياة، فهم الأقدر علىٰ الجمع بين التفسير الصحيح للآيات والأحاديث وبين فهم الواقع المعاصر، ممَّا يتيح للناس الفهم السليم الذي يعينهم علىٰ تطبيق الدين في حياتهم اليومية.

(١) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الطهارة، باب في المجروح يتوضأ، رقم الحديث ٣٣٦)، وابن ماجه في سننه (كتاب الطهارة، باب من سأل وهو يسمع، رقم الحديث ٥٧٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[1]، فهو يدلُّ علىٰ أنَّ التفقه في الدين هو سبيل الخيرية، كما يفهم منه أنَّ التوجيه الذي يقدِّمه العلماء هو طريق للهداية والبركة في الدنيا والآخرة.

وبذلك، يصبح لزامًا علىٰ المسلمين أن يستجيبوا لدعوة العلماء ويعتنوا بما يقدِّمونه من علم وتوجيه، لأنَّ هذه الاستجابة هي الطريق الأمثل للابتعاد عن الجهل والضلال، والعيش وفق تعاليم الإسلام علىٰ بصيرة وهدىٰ يحقق سعادة الدنيا والآخرة.

فنسأل الله أن يوفِّق علماء الأمَّة للقيام بهذه الأمانة العظيمة، وأن يجعلنا جميعًا من أهل الفهم الصحيح لكتابه وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يرزقنا السير علىٰ منهج السلف الصالح، إنَّه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب العلم، باب من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، رقم الحديث ٧١)، ومسلم في صحيحه (كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم الحديث ١٠٣٧).

الفصل الثالث

أنواع الاهتداء بالهدى ومجالاته ومراتبه

وفيه ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول**: أنواع الاهتداء بالهدىٰ ومستلزماته.
- **المبحث الثاني**: مجالات الاهتداء بالهدىٰ.
- **المبحث الثالث**: مراتب الاهتداء بالهدىٰ ومستوياته.

المبحث الأول

أنواع الاهتداء بالهدى ومستلزماته

إنَّ الاستهداء بالهُدىٰ واجبٌ شرعيٌّ علىٰ المسلم، وهو من لوازم الإيمان الصادق، وسبيلٌ إلىٰ الاستقامة علىٰ أمر الله، كما دلّ علىٰ ذلك صريح القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية. فقد أمر الله نبيَّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالتمسُّك التامّ بالوحي الذي أنزل عليه، وهذا الأمر ـ بحسب قواعد الأصول ـ موجَّه لأمته تبعًا له، قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الزُّخۡرُف : ٤٣].

فقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ﴾، وهو فعل أمر يفيد الوجوب، ويدل علىٰ لزوم الالتزام الجازم بالوحي، لا مجرد الأخذ الجزئي أو الانتقاء منه، بل التمسك الشامل بأصوله وفروعه، عقيدةً وشريعةً وسلوكًا. كما أن وصف الوحي بأنه صراط مستقيم في قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يؤكّد أن هذا التمسك هو عين الهداية، وأن الاستقامة لا تُنال إلا باتباع الوحي الكامل، وهو ما يقتضي من المؤمن أن يجعل الوحي مرجعيته الأولىٰ في الفهم والسلوك والمنهج، ليضمن سلوكه صراط الله المستقيم، ويصون نفسه من سبل الغواية والانحراف.

ومن أبرز الأدلة من السنة النبوية علىٰ وجوب التمسك بالوحي والاهتداء به: حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، قال: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ،

فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَأَوْصِنَا، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١)

في هذا الحديث النبوي تأكيد علىٰ أن التمسك بالوحي -سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنة خلفائه الراشدين- هو سبيل النجاة عند اختلاف الطرق وتعدد المناهج، وقد جاء التعبير بـ: «تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ»، وهو أسلوب بلاغي بليغ يفيد شدة الالتزام وعدم التفريط، مما يوازي -في دلالته- قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾، فكلا النصين يدلّ علىٰ أن الهداية لا تتحقق إلا بالاستمساك الكامل الجاد بما أوحاه الله إلىٰ نبيه، في العقيدة والمنهج والسلوك.

كما أمر الله تعالىٰ المؤمنين أن يدخلوا في الإسلام دخولًا كاملًا شاملًا لا تجزئة فيه ولا انتقائية، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٨]. فقد دلّت هذه الآية علىٰ وجوب التزام الإسلام بجملته، اعتقادًا وتشريعًا ومنهجًا، والوقوف عند حدوده، من غير تبعيض ولا تفريق بين أجزائه. فكلمة ﴿كَآفَّةً﴾ تفيد الشمول والاستغراق، وهو ما يدلّ علىٰ أن المطلوب من المؤمن أن يستسلم لأمر الله

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند برقم ١٧١٤٤، وأبو داود في سننه برقم ٤٦٠٧، والترمذي في سننه برقم ٢٦٧٦، وقال: حديث حسن صحيح.

استسلامًا كاملًا لا ينتقي منه، ولا يجزّئه تبعًا للأهواء أو الضغوط، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأَحْزَاب : ٣٦] .

وقد نهىٰ الله تعالىٰ عن مسلك تجزئة التعامل مع الوحي، وذلك بذمّه الصريح لمن وقع فيه من بني إسرائيل، في قوله سبحانه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة : ٨٥]، فقوله : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، وهو استفهام إنكاري تقريري، يُفصح عن شناعة هذا الفعل، خاصة وقد بينت الآية أن التبعيض في الاتباع بأنه إيمان ببعض وكفر ببعض، وهي مقابلة شديدة، تكشف أن التفريط في بعض الوحي ليس خفّة في الالتزام، بل هو نقض لأصل الدين، إذ لا يتحقق الإيمان الحق إلا بالقبول الكامل لجميع ما أنزله الله.

ثم بين خطورة هذا المسلك من خلال ما يترتب عليه من عقوبات قاسية في الدنيا والآخرة، فقال تعالىٰ:﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي هوانٌ وفضيحةٌ وسقوطٌ في أعين الخلق، ثم قال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾، تنبيهًا إلىٰ أن هذه الجناية العظمىٰ ليست خافية علىٰ الله، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ليبيّن أن عدله وعقوبته لاحقة حتمًا بكل من يحرف الوحي أو يتعامل معه بانتقائية.

ومن هنا، فإن الواجب في الاستهداء بالوحي أن يكون استهداءً شاملًا، لا يتوقف عند بعض الجوانب العقدية أو العبادية فقط، ولا عند بعض الآيات والسور، بل يشمل جميع مجالات الحياة، وكل ما أنزله الله تعالىٰ، وينطلق من وعي علمي ومنهجي بأبعاد الاهتداء.

بالنظر إلىٰ طبيعة الاهتداء بهدىٰ الوحي، يتبيَّن أنه لا يتحقّق دفعةً واحدة، سواء في ميدان المعرفة أو في مجال السلوك، بل هو مسارٌ تراكميٌّ يتطلّب تدرّجًا واستمرارية في الفهم والتطبيق. وقد درج العلماء، في سيرهم العلمي والتربوي، علىٰ تفعيل هذا الاهتداء من خلال مسالك متعدّدة، يمكن تصنيفها إلىٰ ثلاثة أنماط كبرىٰ:

- الاهتداء بالهدايات الجزئية.
- الاهتداء بالموضوعات القرآنية.
- الاهتداء بالكليّات والرؤىٰ العلمية.

ويشتمل كل نمط من هذه الأنماط علىٰ مجموعة من الجوانب الفرعية التي تُشكِّل بمجموعها صورة متكاملة لذلك النمط، وتُعين علىٰ استيعاب أبعاده المنهجية وآلياته الإجرائية، وتفعيله في الواقع الفردي والجماعي.

ويقوم هذا التصنيف علىٰ رصد الممارسات التأصيلية والتطبيقية التي انتهجها العلماء في تعاملهم مع القرآن الكريم، سعيًا لفهم هُداه وتفعيله في واقع الحياة.

وسنعرض في ما يلي بيانًا موجزًا لكل نمط من هذه الأنماط الثلاثة، متضمِّنًا العناصر التفسيرية اللازمة لفهمه، علىٰ نحو يخدم أهداف هذه الدراسة، ويسهم في تحقيق مقاصدها العلمية والتربوية.

النوع الأول: الاهتداء بالهدايات الجزئية:

سوف سنتناول هذا النوع الاستهداء من خلال عدة نقاط:

أولاً: مفهوم الاهتداء بالهدايات الجزئية:

لقد اعتاد العلماء، في مسيرتهم التفسيرية، علىٰ استنباط هدايات جزئية من نصوص الوحي، اعتمادًا علىٰ تحليل الألفاظ، وتراكيب الجمل، وتنوّع القراءات، والأساليب البيانية، وما يكتنف النص من قرائن السياق، وأسباب النزول، والمناسبات ذات الصلة. ويشمل هذا الاستنباط ما دلّ عليه منطوق النص وما أُخذ من مفهومه، استنادًا إلىٰ قواعد الدلالة المقرّرة في علوم التفسير وأصول الفقه.

ويُعدّ الاهتداء بالهدايات الجزئية نمطًا من أنماط التفاعل العملي مع الوحي، يُقبل فيه المسلم علىٰ تفعيل ما توصّل إليه العلماء من هدايات تفصيلية مستنبطة من آيةٍ مفردة، أو مجموعةٍ من الآيات، أو من نصوص نبوية ذات صلة. ويتمثل هذا النوع من الاهتداء في تحويل تلك المعاني المستنبطة إلىٰ ممارسات واقعية وسلوكيات ملموسة، تعكس أثر الوحي في حياة الفرد والمجتمع، وتسهم في بناء الشخصية المؤمنة علىٰ بصيرة من هدىٰ الله ووحيه.

ينبغي علىٰ المسلم أن يعمل بكل ما دلّ عليه الوحي من هدايات، سواء كانت تلك الهدايات مستنبطة من ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه، أو من أوامره ونواهيه، أو من وعده ووعيده، أو من قصصه وأمثاله، أو من سننه وأخباره، وغيرها من مظان الهداية.

ويشمل هذا التكليف كذلك ما ورد في السنة النبوية الصحيحة من معانٍ وإرشادات، لكونها مكمّلة للقرآن ومبيّنة له، وداخلة في دائرة الوحي الملزِم، كما قرر الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النَّجْم: ٣ - ٤].

وتتوزع هذه الهدايات علىٰ سائر مجالات الدين ومناحي الحياة، من العقائد والعبادات، إلىٰ الأخلاق والمعاملات، وما يتصل بالتشريعات والأحكام، فتغدو الهداية الربانية بذلك نظامًا كليًّا محكمًا، يتغلغل في بنية التفكير والسلوك، ويهدي الإنسان في جميع أحواله، نحو التزكية والتسديد، والتحقيق لمراد الله في الخلق والأمر.

يُعدّ هذا النوع من الاهتداء «جزئيًّا» من هذه الجهة التطبيقية؛ إذ يركّز فيه المكلَّف علىٰ هداية معيّنة استُنبطت من آية أو حديث، دون أن يمتدّ نظره - أثناء التطبيق - إلىٰ ما قد يشتمل عليه النص ذاته من هدايات أخرىٰ، قد تكون متعددة ومتنوعة المجالات، أو إلىٰ ما يرتبط به من نصوص قرآنية أو نبوية تُكوِّن معه وحدة موضوعية أو سياقًا هدايتيًّا مشتركًا. غير أنّ هذا الاقتصار لا يُفهم منه القطيعة مع الهداية الكليّة، ولا يعني تبنّي مبدأ التجزئة في الاهتداء أو الاكتفاء بها، بل هو مرحلة من مراحل التفاعل مع الوحي، ينبغي أن تتكامل لاحقًا في إطار رؤية شمولية.

ويمثّل هذا النمط من الاهتداء خطوة أولىٰ ومهمة في مسار التفاعل الإيجابي مع القرآن الكريم والسنة النبوية؛ إذ يُترجم الاستجابة لتوجيهات الوحي إلىٰ واقع عملي ملموس، من خلال تفعيل دلالاته في الحياة اليومية.

فهو يُشكّل مدخلًا أساسيًّا للارتباط العملي بالوحي، بما يُفضي إلىٰ تهذيب النفس، وتقويم السلوك، وتوجيه الفرد نحو معاني الخير والصلاح، كما يُمهِّد السبيل للترقّي في مدارج الهداية، والانتقال إلىٰ مراتب أوسع من الفهم الكلي والتفاعل الشامل مع مقاصد الوحي وبنيته المتكاملة.

ثانيًا: المنهج النبوي في التفاعل العملي مع الهدايات الجزئية للوحي:

مهمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأساسية بعد تبليغ الناس القرآن حملهم علىٰ العمل وتزكية نفوسهم وتطهيرها به، خاصَّة أنَّ القرآن أنزله الله تعالىٰ لتزكية النفوس، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عِمْرَان : ١٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجُمُعَة : ٢] .

قال الشيخ إسماعيل حقي في تفسيره:«﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يحملكم علىٰ ما تصيرون به أزكياء طاهرين من دنس الذنوب المكدرة لجوهر النفس؛ لأنَّ شأن الرسل الدعوة والحث علىٰ أعمال يحصل بها طهارة نفوس الأمَّة من الشرك والمعاصي لا تطهيرهم

إياهم بمباشرتهم من أول الأمر ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي ما في القرآن من المعاني والأسرار والشرائع والأحكام التي باعتبارها وصف القرآن بكونه هدىٰ ونورًا ، فانَّه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يتلوه عليهم ليحفظوا نظمه ولفظه؛ فيبقىٰ علىٰ ألسنة أهل التواتر مصونًا من التحريف والتصحيف، ويكون معجزة باقية إلىٰ يوم القيامة، وتكون تلاوته في الصلاة وخارجها نوعًا من العبادة والقربة. ومع ذلك، كان يعلم ما فيه من الحقائق والأسرار ليهتدوا بهداه وأنواره، وَالْحِكْمَةَ هي الإصابة في القول والعمل. ولا يسمىٰ حكيمًا إلا من اجتمع له الأمران ... واعلم أنَّ العمل بالقرآن متفرع علىٰ معرفة معناه، وهو متفرع علىٰ معرفة ألفاظه، والتزكية غاية أخيرة؛ لأنَّها متفرعة علىٰ العمل، لكنَّها قدمت في الذكر نظرًا إلىٰ تقدمها في التصور »[1].

وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو القدوة المثلىٰ في التفاعل مع هداية القرآن الكريم وتطبيقها واقعًا حيًّا، فقد جسَّد الهداية القرآنية في أقواله وأفعاله، فيعمل بكل هدية دلَّ عليها القرآن ونزلت عليه، فيخذ الهداية من الآية ويطبِّقها عمليًّا في حياته اليومية، سواء من خلال ألفاظه أو معانيه أو دلالاته.

ومن أروع الأمثلة علىٰ هذا التفاعل النبوي، ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، في مشهد عجيب من مشاهد التعبّد والخشية، قالت:

وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو القدوة المثلىٰ في تطبيق هداية القرآن الكريم، حيث كان يتبع القرآن الكريم في تفاصيل حياته كلها، لما كانت ليلةٌ من الليالي، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«يا عائشةُ، ذريني أتعبَّدُ الليلةَ لربِّي»، فقلتُ: واللهِ إني لأحبُّ قربك، وأحبُّ ما سرَّك.

(١) روح البيان (١/ ٢٥٥).

قَالَتْ: «فَقَامَ فَتَطَهَّرَ ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ حِجْرَهُ، ثُمَّ بَكَىٰ ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ لِحْيَتَهُ، ثُمَّ بَكَىٰ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ الْأَرْضَ »، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: «أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمْرَان : ١٩٠ - ١٩١]»[1]، ففي هذا المشهد المهيب تتجلّىٰ صورة حيّة للاهتداء الجزئي بآية واحدة، فقد تفاعل النبي ﷺ مع هداها التوجيهي نحو التفكر والتدبر، فجعل منها مادة عبادة وبكاء وخشوع، وهكذا كانت علاقته بالقرآن الكريم: تفكُّرًا، واستحضارًا، وتخلُّقًا، وعملًا.

وقد تفاعل مع هذه الآية من خلال البكاء والتعبد، مما يدل علىٰ مدىٰ تأثير القرآن في نفسه ﷺ ومدىٰ سعيه في تطبيق كل هداية جاءت في القرآن الكريم.

وقد جاء عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً فَكَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ عَذَابٍ تَعَوَّذَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَنْزِيهٌ لِلَّهِ سَبَّحَ»[2].

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (رقم ٦٢٠)، والطبراني في المعجم الكبير، وأبو يعلىٰ في مسنده، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٥٢): رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح رقم ٦٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في الصلاة عند المرور بآيات الرحمة والعذاب، رقم الحديث ٧٧٢).

يُعَدُّ هذا الحديث الشريف نموذجًا نبويًّا رفيعًا لممارسة الاهتداء بالهدايات الجزئية للقرآن الكريم، حيث يُظهر كيف كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يمر علىٰ آيةٍ إلا ويقف عند هدايتها الخاصة، متفاعلًا معها بموقف تعبدي يناسب مضمونها، في لحظة فورية من التفاعل الروحي والفكري والوجداني.

فإذا مرّ بآية رحمة، لم يكتفِ بتلاوتها، بل سأل الله تعالىٰ رحمته، لأن الهداية المستنبطة منها تقتضي رجاء الفضل الإلهي.

وإذا مرّ بآية عذاب، تعوّذ بالله منه، لما فيها من دلالة علىٰ الخوف من العقوبة والحذر من أسبابها.

وإذا مرّ بآية تسبيح وتنزيه، سبّح الله عز وجل، متلبسًا بمعاني التقديس ومفعّلًا الهداية العقدية التي تحملها الآية.

إنَّ تطبيقات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهدايات القرآن الكريم لم تكن مواقف جزئية أو أمثلة عارضة، بل كانت تجسيدًا شاملاً ومنهجيًا للهداية القرآنية في مختلف ميادين الحياة؛ فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعيش مع القرآن لحظةً بلحظة، يستلهم هداياته في كل شأن، ويُفعّل توجيهاته في كل موقف، حتىٰ غدت سيرته الكاملة صورة عملية متكاملة للوحي الإلهي. لقد تشرّبت شخصيته المباركة معاني القرآن في عباداته، ومعاملاته، وأقواله، وقراراته، سواء في حال السِّلم أو الحرب، في موطن العدل أو الرحمة، في مقام الشورىٰ أو الحُكم، بل حتىٰ في خصوصياته الشخصية وأوقاته العادية.

لذلك، من المهم أن نفهم أنَّ هداية القرآن الكريم كانت تُترجم عمليًّا في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ نحوٍ كامل، وأنَّ تطبيقاته كانت شاملة لكل ما جاء في القرآن، من عقيدة، وعبادات، وأخلاق، وتشريعات. كل جانب من جوانب حياته كان يتوافق مع الهداية التي أرشدنا إليها القرآن الكريم، ممَّا يجعل من حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تجسيدًا حيًّا للقرآن الكريم.

مثال ذلك:

في الصلاة، حيث كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطبق آيات الخشوع والتفكر في معاني القرآن أثناء الصلاة.

وفي جهاده كان نموذجا في الثبات والشجاعة وذكر الله تعالىٰ عند ملاقاة الأعداء وفي التعامل مع الآخرين، كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطبق آيات العدل والرحمة، وكان في غاية الإحسان في كل تصرفاته.

في مواجهة الصعوبات والأذىٰ، كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُظهر تطبيقًا عمليًّا لصبره، كما ورد في القرآن الكريم.

إذاً، ليس من السهل حصر التطبيقات في أمثلة معينة، لأنَّ سلوكه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في ذاته تطبيقًا حيًّا للقرآن الكريم بكامله، في جميع الأوقات والمواقف.

ثالثًا: التطبيق العملي للهدايات الجزئية عند الصحابة:

وقد كان منهج خيار الأمَّة بعد رسوله يتعلمون معاني القرآن ويعملون بكل ما دلَّ عليه القرآن من خلال آياته التي نزلت علىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكانوا إذا قرؤوا عشر آيات، أو أقل أو أكثر، لم يتجاوزوها حتىٰ يعرفوا معانيها وهديها، ويحققوا ما دلَّت عليه من الإيمان والأعمال، فيطبَّقون ما دلَّت عليه من الأحكام في الأوامر والنواهي، ويهتدون بعلومه، ويتخلقون بأخلاقه وآدابه، ويعلمون أنَّه خطاب من عالم الغيب والشهادة موجَّه إليهم، ومطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه، كما جاء عن أبي عبد الرحمن السلمي: «حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ، كَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ

مَسْعُودٍ، وَغَيْرِهِمَا: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُجَاوِزُوهَا، حَتَّىٰ يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا»[1].

وهم يرون أنَّ نزوله أساسه للعمل؛ ولذا كانوا يسارعون للاستجابة لكل ما ينزل عليهم ولو كان مخالفًا لهوىٰ نفوسهم، كما جاء عن أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلُهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ. قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمْرَان: ٩٢]. قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا، يَا رَسُولَ اللهِ، حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَىٰ أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ». فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ»[2].

(١) أخرجه أحمد في المسند (رقم ٢٢٩٦٤) عن جماعة من الصحابة، وأخرجه الطبري في تفسيره، والبيهقي في المدخل، وقال ابن كثير في تفسيره: «إسناده جيد»، وهو أثر صحيح يُستدل به في منهج تلقي القرآن من النبي ﷺ، والربط بين الحفظ والعلم والعمل.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الوصايا، باب إذا وقف أرضًا أو بئرًا كوقف المسجد، رقم الحديث ٢٧٦٩)، ومسلم في صحيحه (كتاب الزكاة، باب فضل الصدقة علىٰ الأقربين، رقم الحديث ٩٩٨).

وقد جاء عن عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النُّور: ٣١]. شققن مروطهن فاختمرن بها»[(١)].

وقد جاء وفي رواية أخرىٰ قالت: «إنَّ لنساء قريش لفضلًا، وإنّي والله ما رأيتُ أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقًا بكتاب الله، ولا إيمانًا بالتنزيل. لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النُّور: ٣١]. انقلب رجالهنَّ إليهنَّ يتلون عليهنَّ ما أنزل إليهنَّ فيها، ويتلو الرجل علىٰ امرأته وابنته وأخته، وعلىٰ كل ذي قرابته، ما منهنَّ امرأة إلا قامت إلىٰ مرطها المرحل[(٢)]، فاعتجرت به؛ تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن يصلين وراء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصبح معتجرات كأنّ علىٰ رؤوسهنَّ الغربان»[(٣)].

وقد كان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينفق علىٰ مِسْطح بن أَثَاثَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لقرابته منه، وبسبب فقره، فلمَّا قال مِسْطح عن السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما قال في حادثة الإفك، قال أبو بكر: والله لا أُنْفِق علىٰ مِسْطح شيئًا أبداً بعد الذي قال في عائشة، فأنزل الله ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التفسير، باب ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ من سورة النور، رقم الحديث ٤٧٥٨).

(٢) المرط: هو الكساء أو الرداء، والمرحل يعني المزين بصور الرحال أو الموشىٰ.

(٣) خرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري في تفسيره، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (رقم الحديث ١٣٤٠٢)، وقال ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٤٩٠): إسناده صحيح.

ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النُّور : ٢٢] ، فقال أبو بكر: بلىٰ والله إنِّي أحب أن يغفر لي، فرجع إلىٰ النفقة وقال: والله لا أَنْزِعُها أبداً»[١] .

وكانوا وقَّافين علىٰ حدود الله، كما جاء عن عبد الله بْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حذيفة، فَنَزَلَ عَلَىٰ ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولًا كانوا أو شبابًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لِي عَلَيْهِ، قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلمَّا دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ. فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّىٰ هَمَّ به، فقال له الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأَعْرَاف : ١٩٩]. وإِنَّ هذا من الجاهلين. والله مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وقَّافًا عند كتاب الله»[٢]. فوقف عمر بن الخطاب عند هدي هذه الآية ولم يتجاوزها، وتراجع عن الغضب، بل تصرف بما يوافق هدي الآية الكريمة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الشهادات، باب إذا زكىٰ رجلٌ رجلاً وهو لا يعرف، رقم الحديث ٢٧٥٠)، ومسلم في صحيحه (كتاب التوبة، باب حديث الإفك وقبول التوبة، رقم الحديث ٢٧٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يُذكر في القرّاء، رقم الحديث ٧٢٨٦).

وكانوا يحاسبون أنفسهم في أدقِّ الأمور كما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحُجُرَات : ٢] ، وَكَانَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ رَفِيعَ الصَّوْتِ، فَقَالَ: أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَرْفَعُ صَوْتِي عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَبِطَ عَمَلِي، أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ! وَجَلَسَ فِي أَهْلِهِ حَزِينًا، فَتَفَقَّدَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَانْطَلَقَ بَعْضُ الْقَوْمِ إِلَيْهِ، فَقَالُوا لَهُ: تَفَقَّدَكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا لَكَ؟ فَقَالَ: أَنَا الَّذِي أَرْفَعُ صَوْتِي فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ، وَأَجْهَرُ بِالْقَوْلِ، حَبِطَ عَمَلِي وَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَأَتَوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ بِمَا قَالَ، فَقَالَ: «لَا، بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[1]. والأمثلة في هذا كثيرة.

وقد ضرب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، خيار هذه الأمة بعد نبيها أروع الأمثلة في تعلم القرآن والعمل بكل ما جاء فيه، والاستجابة لأوامره، والوقوف عند حدوده، في كل تفاصيل حياتهم، بما يجعلهم موضع الاقتداء.

وهذه الأمثلة وغيرها كثير تعكس فقه الصحابة العميق للقرآن الكريم، حيث كانوا لا يتعاملون مع القرآن علىٰ أنه مجرد نصوص ثابتة، بل كانوا يحيون به ويحولونه إلىٰ سلوك عملي في حياتهم اليومية. وقد نزل القرآن الكريم علىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجزأً خلال ثلاثة وعشرين عامًا، وكلما نزلت آية كانوا يُعلمون بها، ويُطبقونها في حياتهم، حتىٰ اكتمل القرآن الكريم في حياتهم علمـًا وعملاً.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب بيان أن من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، رقم الحديث ١١٩).

إذن، يبرز لنا من خلال هذه الأمثلة والمواقف التطبيق الواقعية لهداية القرآن الكريم في حياة الصحابة، ما يجعل من حياتهم نموذجًا عمليًا للاتباع والتطبيق الصحيح لما جاء في القرآن الكريم.

رابعًا: استنباط الهدايات الجزئية وتطبيقاتها عند العلماء:

اعتاد العلماء في تفاسيرهم ودروسهم العلمية على إبراز الهدايات التي تتضمنها الآيات القرآنية وبيان كيفية تطبيقها في الجوانب الاعتقادية والعملية للحياة اليومية. وقد يُستنبط من الآية الواحدة العديد من الهدايات الجزئية التي تؤثر في مختلف مجالات الحياة، بعضها يتطلب التطبيق المستمر في حياة المسلم، بينما قد يحتاج البعض الآخر إلى تطبيقه في مواقف معينة.

هناك هدايات قرآنية يتطلب تطبيقها على وجهٍ دائمٍ في حياة المسلم، مثل الهدايات المتعلقة بالجوانب الاعتقادية الأساسية، مثل: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتب، والرسل، والقضاء، والقدر. هذه الهدايات يجب أن تؤثر في حياة المسلم وتُطبق تطبيقًا دائمًا. وكذلك الهدايات المتعلقة بالعبادات الأساسية مثل: الصلاة، وذكر الله، والإكثار من الدعاء، والتوبة.

أيضًا، هناك هدايات تتعلق بالقيم والأخلاق التي يجب أن يتصف بها المسلم في تعامله مع الآخرين، مثل الصدق، الأمانة، العدل، والصبر. هذه الهدايات دائمة التأثير في سلوك المسلم، وتنعكس في تصرفاته اليومية.

من جهة أخرى، هناك هدايات جزئية يتطلب تطبيقها في مواقف خاصة، مثل دفع الأذى بالتي هي أحسن، وكظم الغيظ عند تعرض المسلم للأذى من

شخص جاهل، أو الإعراض عن الجاهلين، وغض البصر، وكتابة الدَّين في المعاملات المالية. هذه الهدايات تتطلب فقهًا ومعرفة، حيث يعرف المسلم متىٰ وكيف يتعامل مع مواقف معينة استنادًا إلىٰ ما ورد في القرآن الكريم.

وقد اعتاد علماء التفسير من خلال بيانهم لمعاني القرآن ذكر عشرات، بل مئات الأمثلة من تلك الأنواع من الهدايات التي استنبطوها، والنص عليها حتىٰ تتحول إلىٰ سلوك وعمل، مثل ذلك:

في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عِمۡرَان : ٢١] .

قال أبو حيان الأندلسي:«قال الحسن: تدلُّ الآية علىٰ أنَّ القائم بالأمر بالمعروف تلي منزلته في العظم منزلة الأنبياء»[1]. وهو يريد أن يحث علىٰ طلب العلم وتوقير العلماء.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾ [طه : ٤٩ – ٥٣].

قال الرازي:«تدلُّ الآية علىٰ أنَّه يجوز حكاية كلام المبطل؛ لأنَّه تعالىٰ حكىٰ كلام فرعون في إنكاره الإله، وحكىٰ شبهات منكري النبوة، وشبهات منكري الحشر، إلا أنَّه يجب أنَّك متىٰ أوردت السؤال فاقرنه بالجواب لئلا يبقىٰ الشك كما فعل الله تعالىٰ في هذه المواضع»[2].

(١) البحر المحيط في التفسير (٣/ ٧٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٥٦).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البَقَرَة : ٢٩].

قال ابن بدران: «تفيد الآية، أنَّنا إذا أهملنا استعمال ما خلق لنا، وتركنا أمر الزراعة مهملًا، ولم نعمل إلىٰ استخراج المعادن من مكامنها لنفع عباد الله تعالىٰ، ولم ننظر في خصائص الأشياء للانتفاع بها، وأعرضنا عن هذه النعم ونأينا عنها جانبًا، كان ذلك إعراضًا منَّا عمَّا خلق لأجلنا من النعم، فيوشك أن تسلب منا وتعطىٰ إلىٰ غيرنا ممَّن ينتفع بها، ففي الآية دليل وبيان واستبصار»[(١)].

خامسًا: أهمية تواصل الجهد العلمي في استنباط الهدايات الجزئية وتفعيلها تطبيقيًّا:

لقد ظلَّ العلماء علىٰ مرِّ العصور يقومون بتدبر القرآن الكريم واستنباط هداياته العملية، ويبيِّنونها للناس وفق احتياجات الواقع المتغيرة؛ بهدف تفعيل تأثير هدىٰ القرآن في حياة الأمَّة. ومن الأمثلة الشهيرة في ذلك:

الزمخشري الذي ركَّز علىٰ الجوانب البلاغية في القرآن، مستنبطًا معاني ودلالات أسلوبية تنير الفهم العميق للنصوص القرآنية، وتبرز دلالاته وهداياته الإعجازية.

القرطبي الذي اهتم بالهدايات الفقهية العملية من خلال كتابه «الجامع لأحكام القرآن»، حيث استنبط العديد من الأحكام الشرعية التي تتعلق بمختلف القضايا الفقهية.

(١) جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار (ص:١٤٩).

محمد رشيد رضا ومصطفىٰ المراغي اللذان ركَّزا علىٰ الهدايات الاجتماعية وطرحا رؤىٰ علمية حول كيفية تطبيق هداية القرآن في الواقع الاجتماعي.

تُظهر هذه الجهود المباركة أهمية التدبر القرآني في استنباط هدايات القرآن وتطبيقها في مختلف مجالات الحياة المعاصرة. لذا، نحن اليوم بحاجة ماسة إلىٰ المزيد من تدبر القرآن واستنباط هداياته في عدة مجالات جديدة تتلاءم مع تحديات العصر الراهن، مثل:

التدبر الاقتصادي: كيف يمكن تطبيق الهدايات القرآنية في التعاملات الاقتصادية؟ مثل: تدبير المال، ومعاملات البيع والشراء، وتحقيق العدالة المالية.

التدبر التربوي: ما هي الهدايات التي يقدمها القرآن لتربية الأجيال؟ وكيف يمكن الاستفادة من تعاليم القرآن في بناء أسس التربية الإسلامية التي تهدف إلىٰ تنشئة جيل واعٍ، صالح ومؤمن؟

التدبر النفسي: وذلك بإمكانية تطبيق القرآن في معالجة المشاعر والضغوط النفسية. مثل: كيف يساعد القرآن في تهدئة النفوس وتوجيه المؤمنين نحو السكينة والاطمئنان في أوقات التوتر؟

التدبُّر الدعوي: وذلك بإسهام القرآن في تطوير الأساليب الدعوية؟ مثل: إيجاد طرق مؤثرة في الدعوة إلىٰ الله ورفع مستوىٰ الوعي الديني بين الناس.

التدبر القيادي: كيف يمكن استخدام هداية القرآن في بناء قادة يقتدىٰ بهم؟ إذ يوفر القرآن أسسًا واضحة للقيادة الرشيدة المبنية علىٰ العدل والمساواة والأمانة، وكل ما يرشد إلىٰ ممارسات قويمة.

إنَّ هذه المجالات تحتاج إلىٰ استنباطات جديدة تُظهر العلاقة الوثيقة بين القرآن الكريم وتحديات الحياة المعاصرة. وبذلك يجب أن يستمر العلماء والمفكرون في بذل الجهود لاستنباط هدايات القرآن الكريم ووضعها في قوالب تطبيقية بما يتناسب مع متطلبات العصر الحديث، وذلك لخدمة الأمَّة في شتىٰ ميادين الحياة.

النوع الثاني: الاهتداء بالموضوعات القرآنية:

سوف أتناول هذا النوع من الاستهداء من خلال عدة نقاط:

أولاً: مفهوم الاستهداء بالموضوعات القرآنية:

سلك العلماء مسلكًا علميًّا متميّزًا في تناول موضوعات القرآن الكريم، تمثّل في استقراء الآيات المتعلّقة بموضوعٍ معيّن والموزّعة في سور متعددة، مع ضمّ ما ورد في السنة النبوية من نصوص ذات صلة، وذلك في إطار منهجي رصين يُفضي إلىٰ بناء تصوّر قرآني متكامل حول ذلك الموضوع، بقصد التبصّر به، والاهتداء بهديه، وتفعيله في الواقع العملي.

ولا يقتصر هذا النمط من الاهتداء علىٰ مجرد الجمع النصّي للآيات والأحاديث ذات الصلة، بل يتجاوزه إلىٰ الربط بين النصوص، وتحليل دلالاتها ومضامينها في ضوء سياقاتها المختلفة، واستحضار مقاصدها الكليّة.

في هذا النمط من الاستهداء، لا يقتصر المستهدي علىٰ التعامل مع آيةٍ مفردة أو هداية جزئية، بل ينتقل إلىٰ مستوىٰ أوسع، يُعنىٰ فيه باستقراء جميع

نصوص الوحي التي تتناول موضوعًا معينًا، فيقوم بجمعها وربطها وتحليلها في ضوء سياقاتها المختلفة، ليستخلص منها تصورًا كليًّا متكاملًا، تتولّد عنه هدايات عملية مركّبة تتجاوز ما يمكن استنباطه من النصوص بصورة فردية.

ويتميّز هذا النمط من الاهتداء بتفعيله للبنية التكاملية للخطاب القرآني في تناول الموضوع الواحد، حيث يتمّ من خلال التفاعل المنهجي مع النصوص ذات الصلة استنباط دلالات مترابطة من المعاني والهدايات، تُجسّد شمول المنهج الرباني، وعمق معالجته لموضوعات جوهرية تمسّ مختلف مجالات الحياة.

فهو يمتدّ من قضايا العقيدة والعبادات، إلىٰ منظومة الأخلاق والمعاملات، ويتّسع ليشمل الاجتماع والسياسة وسائر ميادين الإصلاح الإنساني، علىٰ نحوٍ يجعل من الوحي الإلهي مرجعًا كليًّا شاملاً، ومصدرًا أصيلًا للهداية المنهجية في مختلف شؤون الإنسان، أفرادًا ومجتمعات.

ثانيًا: أهمية الاستهداء بالموضوعات القرآنية في العصر الحديث:

في ظل التحديات المعاصرة، تبرز الحاجة إلىٰ تفعيل منهج الاستهداء الموضوعي بالقرآن الكريم، لما له من أثر محوري في فهم هداياته وتطبيقها علىٰ الواقع. **وتتجلىٰ أهمية هذا المنهج في الجوانب التالية:**

١/ إحياء منهج السلف في الاستهداء بالقرآن الكريم:

لم يكن استقراء الموضوعات القرآنية أمرًا مستحدثًا، بل هو منهج أصيل مارسه الصحابة والتابعون. فقد كانوا يجمعون النصوص القرآنية المتعلقة بموضوع معين لاستنباط معانيه وهداياته، كما ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قوله:

«الصبر علىٰ ثلاثة أوجهٍ: صبر علىٰ الطاعات، وصبر عن المحرَّمات، وصبر علىٰ المصائب»[1]. وهذه الخلاصة هي نتيجة استقراء عام للقرآن الكريم.

٢/ الفهم الشمولي للقرآن الكريم وتطبيقه تطبيقًا صحيحًا:

لفهم القرآن الكريم فهمًا دقيقًا شاملًا، لا بدَّ من دراسة الموضوع الواحد من خلال جميع الآيات التي تناولته، إذ إنَّ بعض الأحكام والتوجيهات القرآنية لا تتَّضح صورتها الكاملة إلَّا عند جمع الآيات المتعلقة بالموضوع وتحليلها في سياقها المتكامل. ومن الأمثلة علىٰ ذلك: عدَّة المطلقة في القرآن الكريم:

تناولت آيات متعددة في القرآن الكريم حكم عدة المطلقة، موضحةً الفروق بين الحالات المختلفة، ممَّا يستلزم الجمع بينها لفهم الحكم الشرعي فهمًا صحيحًا:

- **عدَّة المطلقة التي وقع عليها الدخول:** وردت في سورة البقرة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٨]، حيث بيَّنت أنَّ المرأة المطلقة بعد الدخول عليها يجب أن تعتد بثلاثة قروء.

- **المطلقة قبل الدخول بها لا عدَّة لها:** وردت في سورة الأحزاب، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأَحْزَاب : ٤٩] ، ممَّا يوضِّح أنَّه لا عدَّة للمرأة المطلقة قبل الدخول.

---

(١) جامع البيان، لابن جرير الطبري (١١/ ٢٣١).

- عدَّة المطلقة التي بلغت سنَّ اليأس، والتي لم تحض، والحامل:

وردت في سورة الطلاق، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطَّلَاق : ٤]، حيث بينت عدة المرأة الكبيرة التي انقطع عنها الحيض، والصغيرة التي لم تحض، والحامل التي تنتهي عدتها بوضع الحمل.

يتضح من هذا المثال: أنَّ الجمع بين الآيات المتعلقة بعدة المطلقة في القرآن الكريم هو السبيل لفهم الحكم فهمًا متكاملاً، ممَّا يبرز أهمية الاستهداء الموضوعي في تفسير القرآن واستنباط الأحكام الشرعية منه علىٰ وجهٍ دقيق.

٣/ تعميق التدبر في القرآن الكريم:

الاستهداء الموضوعي يسهم في بناء تدبر أكثر عمقًا للقرآن الكريم، حيث إنَّه لا يقتصر علىٰ تفسير الآيات منفصلة حسب موضعها من السورة، بل يسعىٰ إلىٰ إبراز دلالات الموضوع في سائر القرآن، ممَّا يساعد في استخراج هداياته علىٰ وجهٍ أشمل وأدق، خاصة من خلال الجمع والربط بين الآيات تظهر هدايات جديدة.

٤/ معالجة القضايا المعاصرة في ضوء القرآن:

يوفر منهج الاستهداء الموضوعي بالقرآن الكريم أداة فعالة لفهم القيم والتوجيهات القرآنية في سياق الموضوعات الحديثة، ممَّا يساعد في تقديم حلول قائمة علىٰ الهدي الإلهي لمختلف التحديات التي يواجهها الأفراد والمجتمعات. ومن أبرز المجالات التي يمكن معالجتها من خلال هذا المنهج:

- **القيم الأخلاقية والمجتمعية**: تعزيز مفاهيم العدل، والرحمة، والأمانة، والمسؤولية، والتي تعد أساسًا لبناء مجتمعات متماسكة تسودها الأخلاق الرفيعة.

- **المشكلات الأسرية**: معالجة قضايا الزواج، الطلاق، التربية، والعلاقات الأسرية بما يحقق الاستقرار الأسري ويحفظ الحقوق.

- **الإدارة والقيادة**: استلهام مبادئ الحكم الرشيد، والحكمة في اتخاذ القرار، ومبدأ الشورىٰ والعدل في التعامل مع الناس.

- **الاقتصاد والمعاملات المالية**: تحقيق التوازن في الإنفاق، تشجيع العمل والإنتاج، محاربة الربا، وتحقيق العدالة الاقتصادية.

- **العلاقات الدولية**: ترسيخ مبادئ السلم، والعدل، والوفاء بالعهود، والتعاون بين الأمم علىٰ الخير.

ويُسهم هذا النهج في تمكين الخطاب القرآني من الحضور الفاعل في الواقع المعاصر، من خلال تقديم معالجات منهجية لموضوعات مهمة تمسّ حاجات الإنسان الراهنة، استنادًا إلىٰ هدىٰ الوحي، واستنطاقًا لمقاصده وهداياته الكلية.

وبذلك يُعزِّز هذا النمط من الاستهداء قدرة المسلمين علىٰ التعامل مع التحديات الفكرية والاجتماعية والسياسية المعاصرة، بمنهج قرآني أصيل.

٥/ إنتاج دراسات قرآنية تطبيقية:

يعدّ منهج الاستهداء الموضوعي بالقرآن الكريم من الأدوات الفاعلة

في معالجة القضايا المعاصرة برؤية علمية منهجية، تُفضي إلىٰ بناء تصوّرات قرآنية راسخة، تُسهم في صياغة حلول مستمدة من الهدي الإلهي، تكون قابلة للتنفيذ في الواقع العملي، وتُراعي تعقيدات الحياة المعاصرة وتحدياتها.

وتكمن أهمية هذا المنهج في قدرته علىٰ تحويل الهدايات القرآنية من مستوىٰ التنظير المجرد إلىٰ مستوىٰ التفعيل العملي، بحيث تُترجم مبادئ الوحي إلىٰ آليات واقعية تعالج مشكلات العصر بمقاربات قابلة للتطبيق بصورة جزئية للموضوع أو بصورة كلية لبعض الجوانب التي تتطلب ذلك، تتجاوز التناول النظري العام، الذي بات سمةً غالبة علىٰ كثير من الدراسات الموضوعية والإسلامية المعاصرة، والتي غالبًا ما تُغفل البُعد العملي والتطبيقي في معالجاتها.

إليك مجموعة من النماذج التطبيقية في موضوعات معاصرة في الاستهداء الموضوعي بالقرآن الكريم:

١-في مجال العلاقات الأسرية (الطلاق - الخلافات الزوجية):

المشكلة: ارتفاع نسب الطلاق وضعف الحوار الأسري.

الهدي القرآني: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النِّسَاء : ٣٥]

الرؤية التطبيقية:

إنشاء مراكز أسرية متخصّصة

تُعنىٰ هذه المراكز بتفعيل مبدأ التحكيم الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾

وذلك من خلال جمع الحكمين من أهل الزوج والزوجة - برضاهما - ضمن آلية مؤسسية مدروسة، تُستلهَم من روح الآية ومقاصدها، وتُفعّل مبادئ الإصلاح، وتُراعي خصوصية العلاقة الزوجية وحرمة الحياة الأسرية، بما يُسهم في معالجة الخلافات بعيدًا عن التصعيد القضائي المباشر.

صياغة برامج لتدريب «الوسطاء الأسريين» علىٰ فَهْم أعمق لموضوعات الحياة الزوجية ومراحلها، وتعزيز قدراتهم في التعامل مع النزاعات بأسلوب حكيم، مستمد من قيم القرآن ومقاصده.

ويركّز التدريب علىٰ مفاهيم أساسية مثل: العدل، الإحسان، الكتمان، الوفاء، الإصلاح، والتثبّت، مع تنمية المهارات العملية في الإصغاء، والتواصل، وتقدير السياقات النفسية والاجتماعية.

٢- في مجال تعزيز الأخلاق المهنية (الوظيفية):

المشكلة: انتشار الفساد الإداري والوظيفي، ضعف الأمانة في أداء المهام.

الهدي القرآني: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القَصَص : ٢٦]

الرؤية التطبيقية:

١- اعتماد المعايير القرآنية في التوظيف والترقية

من خلال تبنّي مبدأي القوة والأمانة معيارًا ثنائيًّا لاختيار الكفاءات الوظيفية، بحيث يُربط التعيين والترقية بمدىٰ تحقق هذين البُعدين في الشخصية المهنية.

٢- تصميم برامج تقييم وظيفي مستدامة

تُبنىٰ هذه البرامج علىٰ مؤشرات سلوكية وأدائية تستمد روحها من الهدي القرآني، فتقيس:

جانب الكفاءة: الإنجاز، الجودة، الإتقان، المبادرة.

جانب الأمانة: الالتزام، الشفافية، الصدق، احترام الأنظمة.

٣- دمج التزكية الأخلاقية في بيئة العمل

من خلال ورش عمل ودورات تدريبية تعزّز المفاهيم القرآنية المرتبطة بأداء الأمانة، مثل: التقوىٰ، المسؤولية، المحاسبة الذاتية، والخوف من الله، مما يرسّخ ثقافة النزاهة في الممارسة المهنية.

٣- في إدارة الموارد الاقتصادية (الاستهلاك - الإنفاق - الترشيد):

المشكلة: الهدر المالي والإفراط في الاستهلاك.

الهدي القرآني: قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسْرَاء: ٢٦ - ٢٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأَعْرَاف: ٣١]

الرؤية التطبيقية:

١. وضع سياسات مؤسسية لترشيد الاستهلاك

تقوم هذه السياسات علىٰ مفاهيم قرآنية مركزية مثل: **الاعتدال، القوام، كراهية الإسراف، وميزان العدل**، وتُفعّل في المؤسسات من خلال:

- تقنين النفقات التشغيلية.
- تقليل الهدر الغذائي في الفعاليات والمناسبات.
- اعتماد أنظمة ذكية لمراقبة الاستهلاك وتحسين الكفاءة.

٢. إطلاق تطبيق إلكتروني بعنوان: «ميزان»

يُعنىٰ التطبيق بمساعدة الأسر علىٰ تحقيق التوازن المالي، ويستند إلىٰ قيم قرآنية في:

- ضبط المداخيل والمصروفات.
- ترتيب الأولويات في الإنفاق.
- تقييم سلوك الأسرة الاستهلاكي وفق موازين القرآن.
- تقديم تنبيهات وإرشادات يومية مأخوذة من آيات الهدي الاقتصادي.

٣. تحويل الهدي القرآني إلىٰ وعي سلوكي عملي

فهذا المنهج لو طبق بفاعلية سيسهم في تقديم فهم متجدد للقرآن الكريم، بحيث لا يبقىٰ مجرد نص يُتلىٰ، بل يتحول إلىٰ مصدر حيّ للحلول العملية في شتىٰ مجالات الحياة.

٦/ تطوير مناهج تربوية مستمدة من القرآن الكريم:

تصميم مناهج تربوية مستوحاة من القرآن الكريم يمكن أن يعتمد علىٰ الاستهداء الموضوعي، بحيث تُبنىٰ المناهج علىٰ القيم والمبادئ القرآنية. يسهم ذلك في تنمية شخصية متكاملة للفرد وفقًا للتوجيهات الإلهية، ممَّا يعزِّز القيم الأخلاقية والاجتماعية، ويؤسس لمجتمع متماسك يقوم علىٰ أسس إسلامية راسخة.

مثال ذلك بناء نموذج تطبيقي لموضوع (الصدق في القرآن الكريم)، بحيث يصمم محتوىٰ تربوي يشمل علىٰ عناصر تربوية تحول الهدىٰ إلىٰ أنشطة وممارسات سلوكية، مثال ذلك:

- **الموضوع**: الصدق.

- **الآيات المركزية**: يتم اختيار عدد من الآيات في بيان منزلة وأهمية الصدق وفي الحث عليه.

- **النماذج القرآنية**: تحدد نماذج من القرآن الكريم، مثل إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مَرۡيَم : ٤١] ، يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يُوسُف : ٤٦].

- **الأنشطة الصفية**: سرد قصص واقعية لأثر الصدق - مسرحية قصيرة - مقابلات مع أشخاص مشهورين بالصدق

- **الأنشطة اللاصفية**: نشاط مدرسي «أسبوع الصدق» - نشر تجارب طلابية عبر الإذاعة المدرسية.

- **التقويم**: ملاحظة سلوكية من المعلم - تقييم ذاتي من الطالب - تقرير ولي أمر.

٧/ تعزيز التفاعل مع القرآن الكريم وربطه بالواقع:

يهدف هذا المنهج إلىٰ تعزيز التفاعل مع القرآن الكريم وجعله جزءًا أساسيًّا من حياة الأفراد، من خلال ربط تعاليمه بالواقع المعاصر. فهو يبرز القرآن كمصدر رئيس للهداية والإرشاد في مختلف مجالات الحياة، ممَّا يسهم في ترسيخ التدبر العميق والتفاعل الواعي مع نصوصه، وتحفيز تطبيقها في السلوك اليومي. مثال ذلك:

- بناء نموذج تطبيقي لدرس قرآني يتعلق: «بالرفق واللين في التعامل»

- يحدد الهدف التربوي: أن يفعّل الطالب خُلق الرفق في سلوكه اليومي، مسترشدًا بالهدي القرآني.

- بناء المحتوىٰ في خطوت تعليمية تربوية وأمثل تطبيقية واقعية تعزز الممارسة السلوكية للموضوع.

فالاستهداء الموضوعي بالقرآن الكريم يمثِّل أداة علمية ومنهجية تعزِّز فهمنا لرسالة القرآن وتطبيقها في الحياة اليومية، ممَّا يجعله أكثر تأثيرًا وفاعلية في توجيه الأفراد والمجتمعات نحو الهداية والصلاح.

ثالثًا: أهداف الاستهداء بالموضوعات القرآنية:

يهدف منهج الاستهداء الموضوعي بالقرآن الكريم إلىٰ تحقيق عدد من الغايات الرئيسة، التي تسهم في تعزيز فهمنا وتفاعلنا مع القرآن الكريم. من هذه الأهداف:

١/ بناء الفهم المتكامل للموضوعات:

يتم الفهم المتكامل للموضوعات القرآنية من خلال النظر إلىٰ جميع الآيات التي تتعلق بالموضوع المعين، ثم جمعها وتحليلها في سياق واحد، ثم الربط بين هذه الآيات ببعضها البعض لتقديم الموضوع علىٰ وجهٍ شامل، ومتسق ومترابط، في بناء موضوعي واحد، وهذا المنهج يتضمن استيعاب جميع جوانب الموضوع، ويكشف عن التفاصيل التي قد تكون غير واضحة عند قراءة آية واحدة في سياقها فقط، كما يسهم في فهم الآيات فهمًا أفضل دون تشويش أو تناقض.

٢/ تسهيل الفهم والتطبيق العملي للآيات:

إنَّ جمع الآيات المتناثرة حول موضوع معين وتنظيمها في سياق واحد يساعد في تقديم تصور متكامل حول الموضوع المطروح، ممَّا يسهِّل علىٰ القارئ إدراك المعاني القرآنية بوضوح. فعندما تُعرض الآيات المرتبطة ببعضها في نسق موضوعي، يصبح من السهل استنباط الأحكام والمقاصد الإلهية المتعلقة بذلك الموضوع، ممَّا يعزِّز الفهم العميق للنصوص القرآنية.

إضافة إلىٰ ذلك، فإنَّ هذا الأسلوب يساعد في تفعيل القرآن في الحياة اليومية، حيث يصبح من اليسير علىٰ الأفراد الربط بين الآيات ومواقفهم المختلفة، سواء في الأخلاق، أو المعاملات، أو القضايا الاجتماعية. فبدلًا من التعامل مع الآيات علىٰ وجهٍ منفصل، تُقدَّم كمنظومة متكاملة، ممَّا يسهِّل استيعابها والعمل بها في الواقع العملي علىٰ وجهٍ أكثر وعيًّا وفاعلية.

٣/ تحقيق الهداية العملية للموضوعات:

الاستهداء الموضوعي بالقرآن الكريم هو منهج علمي وعملي يتجاوز الدراسة النظرية للآيات، حيث يقوم علىٰ جمع الآيات المتعلقة بموضوع معين وتنظيمها في سياق متكامل، ممَّا يسهِّل فهمها واستيعابها علىٰ وجهٍ شامل. هذا النهج لا يقتصر علىٰ المعرفة فقط، بل يهدف إلىٰ تحويل التعاليم القرآنية إلىٰ خطوات عملية قابلة للتطبيق في الحياة اليومية.

يُعد منهج الاستهداء الموضوعي بالقرآن الكريم أداة فعّالة في تمكين الأفراد من إيجاد حلول واقعية للتحديات اليومية، من خلال ربطهم المباشر بالهدي الإلهي في سياقات الحياة المختلفة. فبدلًا من الاقتصار علىٰ التلقي المجرد، يتحول القرآن إلىٰ مرجعية سلوكية عملية، يُستنبط منها التوجيه المباشر في المواقف الحياتية.

في معالجة النزاعات المجتمعية:

عند التأمل في الآيات التي تتناول السلم الاجتماعي، مثل قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأَعْرَاف : ١٩٩]، يتعلّم الفرد مفاهيم عليا كالعفو، والإصلاح، وكظم الغيظ، والصفح الجميل، بما يُعيد ضبط انفعالاته ويؤسس لثقافة مجتمعية قائمة علىٰ التسامح والتوازن والانضباط الأخلاقي.

في فقه التعامل مع الوالدين:

يُتيح التفاعل مع آيات بر الوالدين – كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسْرَاء : ٢٣]، أن يبني الفرد تصورًا عمليًّا حول كيفية التعبير عن الاحترام، والرعاية، والتواضع في المعاملة، والتعبير اللفظي والسلوكي عن الحب والتقدير، مما ينعكس بشكل مباشر علىٰ جودة العلاقة داخل الأسرة.

وهكذا، يَعمل هذا المنهج علىٰ تفعيل دور القرآن في تشكيل الوعي الفردي، وتوجيه السلوك اليومي، وبناء شخصية مهتدية، تنطلق من النص الرباني لتعيش قيمه، لا حفظًا وتلاوةً فقط، بل سلوكًا وإصلاحًا وعطاءً في الواقع الملموس.

٤/ تعزيز التفاعل المستمر مع القرآن الكريم:

يعمل الاستهداء الموضوعي علىٰ تعزيز ارتباط الأفراد والمجتمعات بالقرآن الكريم من خلال ربط الآيات القرآنية بمواقفهم الحياتية المختلفة. هذا المنهج يجعل القرآن مصدرًا دائمًا للإرشاد في كل جوانب الحياة، سواء كانت فردية أو اجتماعية. من خلال الفهم العميق والمستمر للآيات المتصلة بالموضوعات الحياتية، يصبح القرآن مرشدًا عمليًّا يوجِّه الأفراد نحو أفضل السلوكيات والقرارات. ممَّا يعمِّق التفاعل المستمر مع القرآن، ويجعل تعاليمه مصدرًا للإلهام والاستنارة في جميع الأوقات.

٥/ زيادة اليقين بالقرآن الكريم من خلال الاستهداء الموضوعي:

يؤدي الاستهداء الموضوعي بالقرآن الكريم إلىٰ تعميق اليقين بصدق

هذا الكتاب العظيم، من خلال الكشف عن وجوه جديدة لإعجازه. فالآيات التي تتناول موضوعًا معينًا في مواضع متفرقة من القرآن، رغم كونها معجزة في سياقها الخاص داخل السورة التي وردت فيها، فإنَّها تزداد وضوحًا وإعجازًا عند جمعها مع نظائرها من الآيات التي تعالج نفس الموضوع.

عند دراسة هذه الآيات وربطها ببعضها، يظهر ترابطها العجيب، وكأنَّها نزلت دفعة واحدة لمعالجة القضية التي تتناولها، ممَّا يكشف عن وحدة موضوعية وتكامل منهجي يثبت أنَّ القرآن كلام الله المحكم، المحفوظ من التناقض والاختلاف، مصداقًا لقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء : ٨٢].

قال ابن كثير:«أي لو كان مفتعلاً مختلقًا، كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم لوجدوا فيه اختلافًا، أي اضطرابًا وتضاداً كثيراً، وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند اللّه»[1]

فهو يبرز وجهًا آخر من أوجه انتظام وتناسق معان موضوعات القرآن وهداياته، وعدم اختلافها وتناقضها.

إنَّ هذه الطريقة في دراسة القرآن الكريم تجعل القارئ يدرك مدىٰ انسجام آياته ودقَّة بنائه، ممَّا يعزِّز يقينه بأنَّ هذا الكتاب ليس من كلام البشر، بل هو وحي إلهي منزل بترتيب محكم؛ ليكون مصدر هداية للبشرية في كل زمان ومكان.

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٦٤).

٦/ تعميق التفكير المنهجي والاحترافي:

يعد الاستهداء الموضوعي بالقرآن الكريم أداة فعالة في تطوير القدرات العقلية، وتوسيع آفاق التفكير البشري. من خلال دراسة الآيات المتعلقة بموضوع معين في القرآن، يتمكن الفرد من فهم الموضوع من زوايا متعددة وشاملة. القرآن الكريم يعرض الموضوعات من خلال تنوع واسع في الأساليب والأبعاد، ممَّا يعزِّز قدرة العقل علىٰ التحليل والتفكير المتعمق. هذه الطريقة في التفكير لا تقتصر علىٰ مجرد جمع الآيات، بل تمتد لتشمل فهم العلاقات بين الأفكار وتفسير النصوص في سياقات متنوعة، وهو ما يُسهم في تطوير التفكير الاحترافي في مختلف المجالات. فبذلك، يصبح التفكير القرآني منهجًا لتنمية عقلية مرنة وقادرة علىٰ التعامل مع التحديات الحياتية علىٰ وجهٍ احترافي وعميق.

٧/ تعزيز قدرة الأفراد علىٰ التكيف مع التحديات المعاصرة:

يُمكّن الاستهداء الموضوعي بالقرآن الكريم الأفراد من استنباط حلول واقعية وفعالة للمشكلات والتحديات التي يواجهونها في العصر الحديث. فمن خلال دراسة الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع معين وربطها بالواقع المعاصر، يصبح من الممكن استخراج توجيهات عملية تساعد علىٰ التعامل مع مختلف القضايا مثل: التطور التكنولوجي، وسائل الإعلام، التحديات الاجتماعية، والسياسية.

فعلىٰ سبيل المثال، يمكن الاستفادة من القيم القرآنية في ضبط استخدام التقنية الحديثة، بحيث تُوجّه نحو تحقيق المنفعة وتجنب الأضرار الأخلاقية والاجتماعية. وبالمثل، فإنَّ دراسة الآيات المتعلقة بالعدل والمسؤولية يمكن أن توفر رؤية متكاملة لمواجهة التحديات السياسية والاجتماعية بأسلوب حكيم ومستدام.

بهذا النهج، يصبح القرآن الكريم مصدرًا فاعلًا في بناء الوعي وصياغة الحلول، ممَّا يمكِّن الأفراد من التكيف مع متغيرات العصر، واتخاذ قرارات مستنيرة مستمدة من الهداية الإلهية، تعزز استقرارهم الشخصي والمجتمعي.

رابعًا: منهجية الاستهداء الموضوعي:

الخطوات المنهجية للاستهداء الموضوعي بالقرآن الكريم

يتطلّب منهج الاستهداء الموضوعي بالقرآن الكريم اتباع خطوات علمية متكاملة، تبدأ من تحديد الموضوع وتنتهي بتحويل الهدي القرآني إلىٰ واقع سلوكي ومجتمعي ملموس. وهذه الخطوات هي:

١- تحديد الموضوع المراد دراسته:

ويشمل ذلك ضبط المصطلح اللغوي والشرعي للموضوع، وتحديد نطاقه وحدوده ومجالاته المتصلة به.

٢-جمع النصوص القرآنية ذات الصلة:

يُستقرأ القرآن الكريم لاستخراج كل الآيات المرتبطة بالموضوع، سواء بشكل مباشر (نصيّ) أو غير مباشر (ضمني أو مقاصدي)، اعتمادًا علىٰ أدوات البحث التفسيري.

٣- تصنيف الآيات ضمن محاور علمية

تُنظّم الآيات المجموعة في محاور رئيسة وفرعية، وفق وحدة الموضوع ومقاصده، لتكوين صورة نسقية متكاملة تسهل التحليل والاستنباط.

٤-تحليل الآيات واستنباط الهدايات

يُنظر في سياق كل آية، وأسباب نزولها، ومعاني مفرداتها، وموقعها في السورة، والعلاقة بين الآيات، لاستنباط الهدايات القرآنية الدقيقة والعميقة.

٥-الربط بالسنة النبوية:

يُستكمل البناء الاستهدائي بالرجوع إلىٰ السنة الصحيحة، بما فيها من بيان وتفسير وتطبيق عملي للمعاني القرآنية، تعضد بها الهدايات وتُثبِّت دلالاتها.

٦-استخلاص التطبيقات العملية

تُترجم الهدايات المستنبطة إلىٰ إرشادات سلوكية ومقترحات عملية قابلة للتنفيذ، تُراعي احتياجات الفرد والمجتمع، وتنسجم مع واقع الناس ومشكلاتهم.

٧- تحقيق التفعيل السلوكي والاجتماعي

يُختَتم المسار بتقديم نماذج تطبيقية حية، تساعد الأفراد والمجتمعات علىٰ تمثُّل الهدي القرآني في حياتهم اليومية، وتُعدّ بمثابة جسر يصل بين المعاني الإيمانية والممارسة الواقعية في مختلف الميادين.

وهذا النوع من الدراسات يعتمد علىٰ محاولة تقنين الموضوعات القرآنية وربطها بمفهوم عملي قادر علىٰ التأثير في حياة الناس. وهذه الدراسات ما زال غالبيتها تتناول الموضوعات من زاوية إيمانية وتربوية نظرية، ممَّا يبرز الحاجة الماسة **إلىٰ** تطوير المنهجية لتشمل استهداء عمليًّا يساعد علىٰ فهم أعمق وتطبيق فعّال لتوجيهات القرآن في واقع الحياة المعاصرة.

خامسًا: أمثلة تطبيقية علىٰ الاستهداء الموضوعي:

الصبر في القرآن الكريم: حيث تُستقرأ الآيات التي تناولته، وبناؤه بناء موضوعيًّا من كل الزوايا التي تناولها القرآن، مثل: بيان مفهومه، أنواعه، مجالاته، ثماره، والنماذج التي جسّدته من قصص الأنبياء، وكيفية تفعيله في الواقع.

الصدق في القرآن الكريم: يشمل ذلك بيان معنىٰ الصدق، أنواعه (الصدق في القول والعمل، الصدق مع الله ومع الناس)، فضله، آثاره، وعواقب الكذب، وكيفية تفعيله في الواقع.

الصلاة في القرآن الكريم: يكون بتحليل جميع الآيات المتعلقة بالصلاة، من حيث فرضيتها، أهميتها، آثارها الروحية والتربوية، وشروطها وأركانها، وكيفية تفعيلها في الواقع.

القيادة في القرآن الكريم: حيث تكون باستقراء الآيات التي تتحدث عن صفات القائد الناجح، وأسلوب القيادة في القرآن، مع إبراز نماذج قيادية من الأنبياء والصحابة، وكيفية تفعيلها في الواقع.

فالخلاصة:

يعد الاستهداء الموضوعي بالقرآن الكريم أحد المناهج الفعالة لفهم القرآن الكريم والعمل به، والتفاعل معه علىٰ وجهٍ أعمق، حيث يتيح للمسلم بناء تصور متكامل عن الموضوعات القرآنية، والعمل بها في حياته اليومية. ومن الضروري أن تتضافر الجهود العلمية والدعوية لنشر هذا المنهج وتعزيزه، ليظل القرآن الكريم مصدر هداية ونور في كل زمان ومكان.

النوع الثالث: الاهتداء بالكليات والرؤى العلمية:

سوف أتناول هذا النوع من الاستهداء من خلال النقاط الآتية:

أولاً: مفهوم الاهتداء بالكليات والرؤىٰ:

أ/ مفهوم الاهتداء في الكليات:

يتجاوز منهج الاهتداء بالكليات القرآنية نطاق الهدايات الجزئية المحدودة، ليؤسس لقواعد كليّة محكمة، تنتظم تحتها جزئيات الهدايات المتناثرة في سياقات متعددة من آيات الكتاب وسوره، وهي تُعدّ بمثابة منظومات مرجعية شاملة.

فمن خلال هذا المنهج، لا تُفهم الهدايات بوصفها توجيهات منعزلة، بل يُردّ كل جزئي منها إلىٰ أصل كلي يحكمه، ويُربط بسياق منظومي يُعطيه بعدًا معرفيًّا وتربويًّا وتشريعيًّا أعمق. وهو ما يحقق:

تكامل الفهم بين آيات الموضوع الواحد مهما تنوعت سياقاتها.

وحدة البناء الديني في التصور والعمل.

انسجام التطبيق العملي للإسلام في الواقع الفردي والجماعي.

إن الكليات القرآنية والقواعد العامة المضمّنة في الخطاب الإلهي تُعدّ من أهم مفاتيح الفهم المنهجي للوحي، إذ تمنح العقل المسلم قدرةً علىٰ تجاوز التوجيهات الجزئية المتناثرة، والنفاذ إلىٰ البنية المعرفية الكلية التي تنتظم تلك التوجيهات، وتوحّدها في نسق متكامل. فبهذه الكليات يُعاد تشكيل الذهن لفهم مراد الله تعالىٰ في كتابه، وتتحقق أهلية فقه التنزيل الصحيح لأحكام الوحي علىٰ الواقع المتغيّر، وفق منطق الشمول والاتساق.

ومن أبرز هذه الكليات المحكمة: قاعدة «أصل الدين: أن لا يُعبد إلا الله، بأي نوع من أنواع العبادة، ولا يُعبد الله إلا بما شرع»، وهي قاعدة جامعة تؤسس لمقصد التوحيد الخالص، وتشكل معيارًا فاصلًا بين الهداية والضلالة، والسنة والبدعة، والطاعة والمعصية.

فما من توجيه تعبّدي، أو أمر شرعي، أو حدّ فقهي، إلا وهو فرع من هذه القاعدة الكبرىٰ، ومُندرج تحتها في أصل المشروعية والتقرب، كما قال تعالىٰ:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: ٣]

وبالتالي، فإن مئات الأحكام والهدايات المتعلقة بأفعال القلوب، والعبادات، والمعاملات، وحتىٰ الأنظمة الاجتماعية والسياسية، تندرج في ضوء هذه الكلية ضمن مبدأ التوحيد، ومقتضىٰ الاتباع، وحدود المشروع، والممنوع.

وهذه الكليات قد تكون قاعدة يستنبطها العلماء، وقد تكون نصاً جامعاً لعشرات المسائل والهدايات الفرعية، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البَقَرَة : ٢١]، فالأمر بالعبادة هنا موجه لكل الناس، وهي تمثل قاعدة تأسيسية للدين كلّه، لأن العبادة في القرآن تشمل: الإيمان، والطاعة، والخضوع، والامتثال، والبعد عن الشرك، وسائر التكاليف. فهي أصل الهداية، ومحور العلاقة بين العبد وربه، ومن هنا تفرّعت عنها سائر الأحكام العقدية والسلوكية.

وكقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النَّحل : ٩٠]، فالآية تُعدّ من أعظم الآيات في شمول القيم الأخلاقية والاجتماعية، إذ يأمر الله فيها بأصلين جامعَين:

العدل: الذي يشمل كل ما هو واجب من الحقوق في المعاملات والقضاء والسياسة والاقتصاد.

الإحسان: الذي يتجاوز العدل إلىٰ الفضل، ويدخل فيه الإحسان في العبادة، وفي المعاملة، والعفو، والبرّ، والجود.

فالآية تصلح أن تكون قاعدة قرآنية كلية تؤسس لمنظومة التعامل البشري والتكليف الرباني، وتُستنبط منها عشرات الأحكام والمقاصد.

وكقوله تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزُّمَر : ٣] الآية تقرر قاعدة التوحيد الكبرىٰ، وهي أن الدين لا يُقبل إلا إذا كان خالصًا لله، منزّهًا عن الشرك والرياء والتقليد الأعمىٰ. فـ«الدين الخالص» يشمل توحيد العبادة، وتطهير النية، وموافقة العمل للشرع.

ومن هذه القاعدة تفرّعت مسائل الإخلاص، والنهي عن الشرك والرياء، والتحذير من الابتداع، ومراقبة النية، وغير ذلك من أبواب العقيدة والسلوك..

وخلاصة القول:

إن إدراك هذه الكليات، والربط المنهجي بينها وبين الجزئيات، لا يمنح الفهم القرآني بعدًا أعمق فحسب، بل يُمكّن المسلم من ضبط فقهه وعمله، ويجنّبه الغلوّ أو التفريط، ويؤهله للارتقاء من مستوىٰ المعرفة المتفرقة إلىٰ الرؤية القرآنية الجامعة، التي بها يكون الهُدىٰ، ويستقيم السير إلىٰ الله.

ب/ الاهتداء بالرؤىٰ العلمية القرآنية:

يُقصد بها: تجاوز المستهدي حدود الهدايات الموضوعية والجزئية، لبناء تصور قرآني شامل ومتكامل حول قضية كبرىٰ من قضايا الإنسان أو الوجود أو الحضارة، تندرج تحتها موضوعات متفرعة، وهدايات متوزعة في سور شتىٰ.

فهذا المنهج لا يقتصر علىٰ جمع الآيات ذات الصلة، بل يعيد تركيبها ضمن إطار معرفي كلي يُنتج رؤية متماسكة تسهم في تشكيل الفكر، وتوجيه السلوك، وضبط المواقف. وتتجلىٰ هذه الرؤىٰ في مجالات كبرىٰ، منها:

التصور القرآني للإنسان والكون والحياة: من حيث الخَلق، والغائية، والتكريم، والابتلاء، والبعث.

القضايا الحضارية الكبرىٰ: كالرؤية القرآنية للاقتصاد، والسياسة، والاجتماع، والعلاقات الدولية.

القضايا الجوهرية: مثل الأسرة، السلم، الحرب، العدل، الفطرة، والعمران.

وهذه الرؤىٰ العلمية تُعد من أعلىٰ مراتب الاهتداء، إذ ترتقي بالفهم من مستوىٰ التلقي المجزأ إلىٰ مستوىٰ البصيرة الكلية، فتُمكّن العقل المسلم من قراءة الواقع برؤية قرآنية موحّدة، واستنباط الحلول من هدي الوحي، وجعل القرآن مرجعية فكرية وحضارية شاملة.

وهي التي تؤهّل الأمة لأن تكون شاهدةً علىٰ الناس، حاملةً رسالةً حضاريةً قوامها الهدي الرباني، والمنهج الرباني في فهم الوجود والتاريخ والمصير.

ثانيـًا: أهمية الاهتداء بالكليات والرؤىٰ العلمية:

يعد الاستهداء بالكليات والرؤىٰ ركيزة محورية في البناء العلمي والفكري والإصلاحي للإسلام، ويتضح أهمية هذا النوع في الاستهداء في الآتي:

١/ ضبط التصورات العقدية والتشريعية وفق المحكمات والثوابت:

تعد الكليات القرآنية: المحكمات وأصول الدين الجامعة، فهي «أم الكتاب»، التي تقوم عليها معالم الإسلام الكبرىٰ، ممَّا يجعلها مرجعًا ثابتًا في ضبط التصورات الشرعية والعقدية وما تفرق من هدايات جزئية، فهي بمنزلة الأساس الجامع لها، ولا يكون رسوخ العلم وعدم اضطرابه والتمييز بين ما يشتبه فيه من مسائله إلا بعد الإلمام بكلياته.

يقول ابن تيمية: «لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية تُرد إليها الجزئيات؛ ليتكلم بعلم وعدل ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت؟ وإلا فيبقىٰ في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل مظلم في الكليات فيتولد فساد عظيم»[1]

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٢٣٠).

٢/ توحيد كلمة الأمَّة علىٰ الثوابت والمحكمات:

بتوجيه الاهتمام إلىٰ الكليات الجامعة، تتقلص مساحات الخلاف، وتترسخ وحدة الصف الإسلامي علىٰ المبادئ الثابتة التي لا تقبل التغيير، ولا تحتمل النزاع أو الاجتهاد المتضارب، ممَّا يعزِّز الانسجام الفكري والتماسك الاجتماعي للأمَّة.

إنَّ إبراز هذه الثوابت وتعميق الوعي بها يسهم في تحقيق الانسجام الفكري والتماسك الاجتماعي للأمَّة، حيث يصبح الحوار قائمًا علىٰ المشتركات بدلاً من الاختلافات، ممَّا يعزِّز روح التعاون والتكامل بين المسلمين، ويدفعهم للعمل المشترك نحو نهضة حضارية متماسكة ومستدامة.

٣/ إعادة تنظيم الهدايات الجزئية والموضوعية في سياق يسهل فهمها:

يسهم الجمع بين الهدايات الجزئية والموضوعية ضمن إطار كلي شامل في تقريب المعاني، وتيسير الفهم، وتسهيل العمل بها وتعليمها، ممَّا يجعل الاستفادة من القرآن أكثر وضوحًا ويسرًا. وهذا النهج يمكّن العامَّة والخاصَّة من إدراك معالم الإسلام واستيعاب تفاصيل قضاياه المتشعبة، وفق منهج متكامل يربط بين الجزئيات والكليات.

٤/ تحقيق التوازن بين التفصيلات التشريعية والتوجهات الكلية:

يشكل التركيز علىٰ الكليات الجامعة في الشريعة ميزانًا دقيقًا لضبط الفهم الإسلامي، بحيث يتحقق التكامل بين المقاصد العليا والتفاصيل التشريعية. فالإفراط في التركيز علىٰ الجزئيات دون ربطها بالكليات قد يؤدي إلىٰ غياب الرؤية الشاملة، بينما يؤدي إهمال التفاصيل بدعوىٰ الاكتفاء بالمبادئ العامة إلىٰ خلل في التطبيق العملي للأحكام.

إنَّ التوازن بين هذين الجانبين يعزِّز الاعتدال الفكري والعملي، حيث يكون استيعاب الجزئيات في إطارها الصحيح دون تعارض مع الأصول الكبرىٰ. وبهذا، يتحقق الفهم العميق والمتزن للإسلام، الذي يجمع بين دقة التشريع ومرونة التطبيق، وفق ما يحقق مقاصد الشريعة في بناء مجتمع مستقر ومتزن.

٥/ استخراج الحلول القرآنية لمستجدات العصر:

يوفر القرآن الكريم من خلال الاستهداء في الكليات والرؤىٰ منهجًا متجددًا يساعد العلماء علىٰ استنباط حلول عملية للقضايا المستجدة، وذلك عبر فهم مقاصده العامَّة في ضوء المتغيِّرات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية. فمن خلال دراسة المبادئ القرآنية الكبرىٰ، مثل: العدل، والشورىٰ، والرحمة، والتيسير، يمكن توجيه الاجتهادات الفقهية والفكرية لمعالجة التحديات المعاصرة بأسلوب يتماشىٰ مع روح الشريعة ومتطلبات الواقع.

بهذا، يظل القرآن الكريم مرجعًا حيًّا وفاعلًا، لا يقتصر أثره علىٰ تقديم الأحكام الجزئية فحسب، بل يتجدد عطاؤه باستمرار ليقدم حلولًا عملية ومرنة لمختلف القضايا التي تواجه الأفراد والمجتمعات، ممَّا يعزِّز مكانته كدستور إلهي خالد قادر علىٰ مواجهة تحديات الزمن.

٦/ حماية الإسلام من التأويلات المنحرفة والتفسيرات القاصرة:

يوفر الاستهداء في الكليات والرؤىٰ إطارًا معرفيًّا يضبط الاجتهادات، ويوجِّهها نحو فهم صحيح ومتزن للنصوص الشرعية، ممَّا يحمي من التطرف الفكري أو التساهل في تأويل النصوص بعيدًا عن مقاصدها الأصلية.

هذا الإطار المعرفي يساعد في الحماية من التطرف الفكري الذي قد يؤدي إلىٰ التشدد، وكذلك من التساهل الذي قد يفتح المجال لتحريف النصوص بما يتناسب مع الأهواء الشخصية أو الاتجاهات المغلوطة. كما أنَّ فهم الهدايات الكلية يساعد في تجنب الاجتهادات القاصرة التي قد تضعف الرسالة الإسلامية أو تخرج بها عن سياقها الصحيح، ممَّا يسهم في الحفاظ علىٰ التوازن والوسطية التي تميِّز الشريعة الإسلامية.

٧/ تعزيز التكامل بين العلوم الشرعية والعلوم الحديثة:

تسهم الكليات القرآنية في ربط المبادئ الإسلامية بالحقائق العلمية والإنسانية المعاصرة، ممَّا يعزِّز بناء رؤية إسلامية متكاملة وواقعية. من خلال هذا التكامل، يمكن للإسلام أن يتفاعل مع التطورات العلمية الحديثة، مستفيدًا منها في فهم أعمق للواقع المعاصر، دون أن يتأثر بثوابته الشرعية أو يتجاوزها.

هذا التكامل يعزِّز من قدرة المسلمين علىٰ الاستفادة من المعرفة العلمية في مجالات مثل: الطب، والتكنولوجيا، والبيئة، دون المساس بالمفاهيم الدينية الأساسية. كما يساعد علىٰ إبراز مرونة الإسلام؛ وقدرته علىٰ التكيف مع التغيرات العالمية، ممَّا يعزِّز الوعي العلمي والإسلامي في آنٍ واحد، ويسهم في بناء مجتمع متوازن يلتزم بالثوابت ويواكب التقدم المعرفي.

٨/ فتح آفاق أعمق للتدبر والدراسات القرآنية:

من خلال التركيز على الكليات والرؤى القرآنية، يُتاح للباحثين والدارسين الوصول إلى مستويات أعمق في تدبر القرآن الكريم. فالاهتمام بالمبادئ العامَّة لا يقتصر على فهم الجزئيات المنفصلة، بل يتسع لاستكشاف النسق العام الذي يربط بين المعاني المختلفة المبثوثة في القرآن. هذا التكامل بين الآيات والمفاهيم يعمّق الفهم ويزيد من الوعي بالهداية القرآنية، حيث يتضح الرابط بين الأبعاد الروحية، والأخلاقية، والعملية في النصوص.

إنَّ هذا المنهج يُسهم في تعزيز قدرة الباحثين على تفسير القرآن الكريم بصورة أوسع وأشمل، مما يفتح آفاقًا جديدة لاستكشاف أبعاد النصوص القرآنية من زوايا متعددة. وبهذا، يُسهم في تطويع التفسير القرآني ليتماشى مع التحديات المعاصرة، ويُقدِّم حلولًا عملية ومستنيرة نابعة من وعيٍ عميق بالهداية القرآنية.

٩/ إرساء منهجية التدرج في الدعوة والتعليم:

تقتضي سنن الدعوة والتعليم أن يكون تقديم الأصول قبل الفروع، والكليات قبل الجزئيات، وذلك لتحقيق أكبر أثر في نشر الإسلام وتعليمه. فكما بيّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن، كانت دعوته تعتمد على التدرج في تعليم الناس، بدءًا من الأساسيات الكبرى ثم الانتقال إلى التفاصيل. في حديثه، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ

اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[1].

هذه الطريقة في التدرج تعكس ضرورة التركيز علىٰ الأصول والمبادئ الأساسية التي تشكل قاعدة ثابتة لفهم الدين، مثل: الإيمان بالله، ثم الصلاة، ثم الزكاة. هذا المنهج يُعد ضروريًّا لتقديم الإسلام بمنهجية متسلسلة، ممَّا يسهِّل علىٰ الأفراد استيعاب تعاليم الدين وتطبيقها تدريجيًّا، ويضمن استقرارهم الروحي والتعليمي قبل الانتقال إلىٰ التفصيلات الأخرىٰ.

١٠/ تمكين البحث العلمي الجماعي في الدراسات القرآنية:

شهد العصر الحالي حاجة ملحة لإنشاء مراكز بحثية متخصصة تركز علىٰ الهدايات الكلية في القرآن الكريم، وبناء رؤىٰ علمية عميقة ومعاصرة. ومن خلال هذه المراكز، يمكن ابتكار منهجيات علمية دقيقة تضمن دمج التراث الإسلامي مع معطيات البحث العلمي الحديث، ممَّا يعزِّز استنباط حلول علمية ترتبط بواقع المجتمع وتواكب تطوراته.

تتمثل أهمية هذه المراكز في تطوير تفسير متكامل للقرآن الكريم يعكس فهمًا يتَّسم بالمرونة والعمق، ويأخذ في اعتباره المتغيرات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية المعاصرة. من خلال التعاون بين الباحثين في العلوم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم الحديث ١٣٩٥)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب الدعاء إلىٰ الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم الحديث ١٩).

الشرعية والمتخصصين في المجالات العلمية الأخرىٰ؛ تبرز إمكانية تطبيق هداية القرآن الكريم علىٰ القضايا المستجدة، ممَّا يعزِّز من مكانة القرآن كمرشد عملي في مواجهة تحديات العصر.

الخلاصة:

الهدايات الكلية ليست مجرد تجميع لمفاهيم متفرقة، بل هي إطارٌ معرفي شامل يعكس عظمة القرآن الكريم، ويمكّن الأمَّة من فهم دينها برؤية متماسكة، تحقق التوازن، وتوائم بين الثوابت والتطورات، وتضع القرآن في قلب مسيرة النهضة الإسلامية.

ثالثًا: أهداف الاهتداء بالكليات والرؤىٰ العلمية:

١- بناء تصور شامل لقضايا الإسلام الكبرىٰ، من خلال ترسيخ فهم متين للدين يجاوز الجزئيات، بواسطة نظمها في رؤىٰ كلية متكاملة تُبرز المنهج الإسلامي في شتَّىٰ القضايا المحورية.

٢- وضع معالم واضحة للاهتداء القرآني في القضايا التي تشهد اضطرابًا فكريًّا واجتماعيًّا، ممَّا يسهم في توجيه الأمَّة نحو المنهج الصحيح.

٣- بلورة مشروع إسلامي متكامل مستمد من الوحي يمكن تقديمه للأمم والشعوب الباحثة عن الهداية، لإبراز عظمة القرآن الكريم وجمال تعاليم الإسلام.

٤- تصحيح المفاهيم القاصرة أو المغلوطة التي قد تنشأ نتيجة الاقتصار علىٰ بعض الأدلة الجزئية أو التناول المحدود للقضايا، وذلك من خلال تقديم رؤية كلية متكاملة.

٥- تحقيق التوازن بين الهدايات الجزئية والكليات القرآنية، بحيث لا يقتصر الفهم القرآني علىٰ الأحكام التفصيلية فقط، بل يمتد إلىٰ إدراك المنهجية الكلية التي تحكم التصورات والتشريعات، ممَّا يؤدِّي إلىٰ بناء وعي إسلامي شامل ومتَّزن يعالج قضايا الواقع برؤية مستنيرة مستمدّة من الوحي.

٦- توحيد كلمة الأمَّة علىٰ الثوابت والقطعيات والمحكمات، باعتبارها «أم الكتاب» وعماد الدين وأصوله الجامعة، ممَّا يعزِّز وحدة المنهج والفهم الإسلامي الصحيح.

٧- استثمار الهدايات الكلية للقرآن الكريم في تقديم حلول واقعية لمستجدات العصر، من خلال توظيف مبادئه التوجيهية في المجالات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بما يسهم في نهضة الأمَّة وتحقيق العبودية الكاملة لله.

رابعًا: الحاجة المعاصرة إلىٰ الهدايات الكلية والرؤىٰ والعلمية:

يبدو أنَّ وضوح معالم الكليات والمحكمات في العقول والسلوكيات عند سلف هذه الأمَّة، وقرب عهدهم بالنبوة، قد جعلهم في غنىً عن الخوض العميق في دراستها، حيث لم تكن هناك حاجة ملحة لتفصيلها في أقوالهم وكتاباتهم، إذ كانت هذه الكليات حاضرة بوضوح في حياتهم ومنهجهم.

كما أنَّ الانشغال المطوَّل للمتأخِّرين باستخراج المعاني الجزئية للقرآن الكريم أدَّىٰ إلىٰ انصراف كثيرين عن بناء الكليات والتصوُّرات والرؤىٰ العلمية للقضايا الكبرىٰ، ممَّا أوقع البعض في التركيز علىٰ المسائل الفرعية دون إدراك المنهجية الكلية التي تحكمها، وهو ما أضعف الوعي بالمفاهيم القرآنية الجامعة.

وفي ظل تعقيدات العصر الحديث وما يشهده الواقع من تحدِّيات فكرية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، إلىٰ جانب تشعُّب العلوم وتطوُّر منهجيَّات البحث وظهور مراكز دراسات متقدمة في تطوير آليات الفهم والمعرفة، أصبح من الضروري إعادة النظر في كيفية الاهتداء بالقرآن الكريم، واستثمار دلالاته في تصحيح مسيرة العبودية لله، وتوجيه البشرية نحو الصراط المستقيم في عقيدتها وتصوراتها.

وكما أنَّ الأمَّة بحاجة إلىٰ الاهتداء بالقرآن الكريم في جزئيَّات المسائل العقدية والعبادية، كالصلاة والصيام والزكاة والحج، فهي أيضًا بحاجة ماسة إلىٰ الاهتداء به في تصوُّر قضاياه الكلية، والإلمام برؤاه الشاملة في القضايا الكبرىٰ والعلوم المتنوعة، مثل العلوم النفسية، التربوية، الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، وغيرها. فلم تَعُد هذه الجوانب أقل أهمية من الهدايات الجزئية التي تُطبَّق علىٰ حياة الأفراد والمجتمعات، بل إنَّها تُكملها وتُرشد مسيرتها ضمن إطار قرآني متكامل.

وقد أشار ابن عاشور إلىٰ هذه القضية بقوله: «إنَّ حقَّ التفسير أن يشتمل علىٰ بيان أصول التشريع وكلياته فكان بذلك حقيقًا بأن يسمَّىٰ علمًا؛ ولكن المفسرين ابتدأوا بتقصي معاني القرآن فطفحت عليهم وحسرت دون كثرتها قواهم، فانصرفوا عن الاشتغال بانتزاع كليات التشريع إلا في مواضع قليلة»[1].

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٣).

إنَّ فهم الهدايات الكلية للقرآن الكريم يمثِّل مرتكزًا أساسيًّا لبناء رؤية حضارية إسلامية متكاملة، قادرة علىٰ مواجهة التحدِّيات الفكرية والاجتماعية، وتقديم حلول مستمدة من الوحي الرباني لمختلف قضايا العصر. ومن خلال الجمع بين الهدايات الجزئية والكليات الجامعة، يمكن للأمَّة أن تستعيد توازنها في الفكر والعمل، وتحقق الغاية من استخلاف الإنسان في الأرض علىٰ بصيرة من نور الوحي الإلهي.

خامسًا: الفرق بين الهدايات الجزئية والموضوعية والكلية والرؤىٰ العلمية:

يمكن التمييز بين هذه الأنواع من الهدايات من خلال النقاط التالية:

١/ من حيث نطاق الاهتداء:

- **الهدايات الجزئية:** تُركز علىٰ الآيات في سياقها الموضعي، حيث يستخرج الباحث الهدايات التي تدل عليها ألفاظ الآية وجملها وما يرتبط بها من معانٍ.
- **الهدايات الموضوعية:** ينطلق الباحث من فكرة موضوع معين، ثم يبحث عن جميع الآيات التي تحدثت عنه في القرآن الكريم، ليُبنىٰ منها هداية موضوعية متكاملة.
- **الكليات والرؤىٰ:** تتجاوز الهدايات الجزئية والموضوعية إلىٰ توظيف الآيات والموضوعات المختلفة في بناء تصورات كلية تجاه القضايا الكبرىٰ والموضوعات الجامعة.

٢/ من حيث المنهجية في البحث والاستدلال:

- **الهداية الجزئية:** تُستنبط مباشرة من ألفاظ وجمل الآية الواحدة أو مجموعة آيات مرتبطة بسياق معين.
- **الهداية الموضوعية:** تُستخلص من جمع الآيات المتعلقة بموضوع واحد ودراستها دراسة شاملة لاستخراج الهداية القرآنية الخاصة بذلك الموضوع.
- **الرؤىٰ والكليات:** تعتمد علىٰ تتبع دلالات الآيات والموضوعات المتعددة، ودمجها في بناء شامل يبرز التصور الكلي لقضية كبرىٰ، ممَّا يساعد في تنظيم الجزئيات وترتيبها وفق نسق متكامل ومتناسق.

٣/ من حيث الكم والتنوع:

- **الهدايات الجزئية:** كثيرة لا حصر لها، وهي ذات مجالات متعددة ومتشعبة.
- **الهدايات الموضوعية:** أقل من الهدايات الجزئية، لكنها تُبرز موضوعات القرآن الكريم علىٰ وجهٍ أكثر تركيزًا وشمولًا.
- **الرؤىٰ والكليات:** أضيق من حيث العدد، لكنها أشد عمقًا واتساعًا من حيث تأثيرها في الفهم والبناء العلمي، حيث تدمج عدة موضوعات وقضايا جزئية متفرقة في إطار علمي متكامل.

٤/ من حيث نطاق التطبيق والممارسة:

- **الهدايات الجزئية:** تركيز علىٰ دلالة الألفاظ والجمل والسياق والمناسبات وغيرها للوصول للهداية.

- **والموضوعية**: تُركز على موضوعات محددة تناولها القرآن الكريم بصورة واسعة مثل: الصلاة أو الزكاة أو الحج، حيث يجمع الآيات المتعلقة بكل موضوع ودراستها لاستخراج هداياته الخاصة.
- **الرؤى والكليات**: تتجاوز الموضوع الواحد إلى ما يجمع بين عدة موضوعات وقضايا جزئية متداخلة، ممَّا يتيح بناء تصورات شاملة مثل رؤية القرآن عن الإنسان، أو عن الضعفاء، أو عن الأسرة، أو عن السلم المجتمعي.

٥/ من حيث الحاجة إلى البحث والتطوير العلمي:

على الرغم من أهمية بناء الرؤى والكليات، فإنَّه لم يكتمل بعد كمنهج علمي ناضج، إذ لا تزال هناك حاجة لتطوير طرق دراسته، ومنهجيات تحريره، وأدواته البحثية.

وهو مجال اجتهادي تتفاوت فيه القدرات والملكات والمهارات وطرق الفهم والاستيعاب، إضافةً إلى أساليب العرض والصياغة من عالم لآخر، ممَّا يجعل الجهود الفردية غير كافية للوصول إلى تصورات كلية دقيقة وشاملة.

ونحن اليوم في حاجة ماسة إلى مراكز بحثية متخصصة تعتمد العمل الجماعي وفق معايير بحثية عالية المستوى، بحيث تخضع الدراسات ونتائجها للتحكيم العلمي والمناقشة في ملتقيات أكاديمية، حتى تتكامل جهود العلماء وتثمر عن رؤية أكثر دقة وشمولًا.

وينبغي أن تجمع هذه الرؤى بين تراث سلفنا الصالح وما أنتجته العقول المعاصرة، مع توظيف منهجيات وأدوات البحث الحديثة، لضمان تقديم هدى القرآن الكريم على وجهٍ أكثر قدرة على تلبية حاجات الواقع ومتطلباته المتجددة.

أما الهدايات الجزئية والكلية فواضح عند العلماء منهج تناوله وتطبيقها بصورة كبيرة.

الخلاصة:

يمثل الاهتداء الجزئي والموضوعي مدخلًا مهمًّا لفهم القرآن، لكنه لا يغني عن بناء الرؤى والكليات، التي توفر تصورًا أعمق وأشمل للقضايا الكبرى، ممَّا يساعد في تحقيق منهج متكامل للاهتداء بالقرآن في شتى مجالات الحياة.

المبحث الثاني

مجالات الاهتداء بالهدى

القرآن الكريم هو كتاب هداية شاملة، يرشد إلىٰ الصراط المستقيم في جميع نواحي الحياة، ويحقق للخلق كمال حاجاتهم الدينية والدنيوية، فهو ليس مجرد كتاب تشريع أو أخلاق، بل منهج إلهي متكامل ينظم حياة الإنسان في كل جوانبها، سوف أتناول هذا الموضوع المهم من عدة نقاط.

أولاً: أدلة شمولية القرآن لكل مجالات الحياة:

وقد جاءت أدلة صريحة في بيان هذا الشمول، وأدلة ضمنية استنبطها العلماء، إليك بيان ذلك:

أولا: الأدلة الصريحة:

فقد وصف الله تعالىٰ كتابه بأنَّه تبيان لكل شيء، قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النَّحل : ٨٩]، قال ابن مسعود: «قد بين لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء». وقال مجاهد: «كل حلال وحرام».

قال ابن كثير بعد أن أورد هذه الآثار: «وقول ابن مسعود: أعم وأشمل؛ فإنَّ القرآن اشتمل علىٰ كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم»[1].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ٥٩٤).

وقال السعدي: «وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة ومعان جلية... فلمَّا كان هذا القرآن تبيانًا لكل شيء صار حجة الله علىٰ العباد كلهم. فانقطعت به حجة الظالمين وانتفع به المسلمون فصار هدىً لهم يهتدون به إلىٰ أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالهدىٰ ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح. والرحمة ما ترتب علىٰ ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبره وطمأنينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته علىٰ معانيه التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع والنصر علىٰ الأعداء بالقول والفعل ونيل رضا الله تعالىٰ وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العَنكَبُوت: ٥١]. فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ القرآن الكريم يكفي وحده كحجة إلهية كاملة، تتضمن الرحمة والهداية والبيان لكل من أراد الاستبصار بالحق. فلا يُستغنىٰ عنه بأي مصدر آخر، وهو المعيار الذي يُقاس عليه كل قول وفعل.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص:٤٤٧).

وقد وردت أدلة صريحة من السنة على شمولية هداية القرآن لكل شيء في جميع شؤون الحياة، ومنها: قول النبي ﷺ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ. كِتَابُ اللهِ»[1] فهذا الحديث يدل على أنَّ القرآن فيه هداية كاملة تمنع من الضلال في أي جانب من جوانب الحياة.

ومنها ما جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه»[2] فهذا الأثر صريح في أنَّ القرآن تبيان لكل شيء، يهدي الناس في جميع الأمور، وأنَّ من ابتغى الهداية في غيره أضله الله.

ومنها ما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إنَّ هذا القرآن مأدبة الله، فاقبلوا مأدبته ما استطعتم، إنَّ هذا القرآن حبل الله المتين، والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم الحديث ١٢١٨).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (كتاب فضائل القرآن، رقم الحديث ٢٩٠٦) وقال: غريب، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم ٢٨٢٩): إسناده ضعيف، لكن معناه صحيح، وتلقاه العلماء بالقبول، وهو أثر موقوف على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويُستشهد به في فضائل القرآن.

(٣) أخرجه الدارمي في سننه (رقم الحديث ٣٢٦٨)، والطبراني في المعجم الكبير (رقم الحديث ٨٦٤٢)، وإسناده ضعيف، إلا أن معانيه صحيحة وموافقة لما ورد في فضل القرآن الكريم وضرورة التمسك به.

وغيرها من أحاديث وآثار جاءت لتؤكد أنَّ القرآن الكريم شامل للهداية في جميع المجالات، فهو كتاب أحكام وتشريع، وكتاب هداية وأخلاق، وكتاب إصلاح للمجتمع، وكتاب علم ونور، وكتاب تربية وإرشاد.

ثانيًا الأدلة الضمنية:

هنالك أدلة كثيرة ذكرها العلماء في بيان شمولية هداية القرآن الكريم علىٰ كل ما يحتاج إليه الإنسان في دينه ودنياه، وهي تدل علىٰ ذلك بالتضمن والالتزام، من ذلك:

١/ القرآن هو المرجع الأعلىٰ لحسم كل نزاع وخلاف:

أمر الله تعالىٰ عباده بالرجوع إلىٰ كتابه عند الاختلاف، ممَّا يدلُّ علىٰ شموله وكماله وتمامه، وكونه المعيار الفاصل بين الحق والباطل، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النِّسَاء : ٥٩].

فهذه الآية تؤكد أنَّ القرآن كافٍ في حسم كل خلاف، وفي بيان الحق بحججه القاطعة ورد الباطل وكشفه، ولو لم يكن شاملًا لكل شيء ما أمر الله تعالىٰ بردِّ كل نزاع إليه.

٢/ القرآن يهدي للتي هي أقوم وأعدل في كل مجال:

وممَّا يدلُّ علىٰ شمول هدي القرآن وصف الله تعالىٰ له بأنَّه يرشد إلىٰ الطريق الأعدل والأصوب في جميع المجالات، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإِسْرَاء : ٩]، فهو يهدي كل من اهتدىٰ به واسترشد

للتي هي أعدل وأصوب وأحسن في العقائد والأخلاق والآداب والعبادات والمعاملات علىٰ اختلاف أنواعها، فكل من استهدىٰ به في كل شيء كان علىٰ الحق والصواب، وكل من أعرض عنه كان علىٰ الباطل والانحراف، فالتي هي أقوم صفة لموصوف محذوف يمكن تقديره بشتىٰ المجالات.

قال الزمخشري:«وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه»[١].

وقال الشاطبي في هدايته للتي هي أقوم:«يعني: الطريقة المستقيمة، ولو لم يكمل فيه جميع معانيها؛ لما صح إطلاق هذا المعنىٰ عليه حقيقة»[٢].

وقال السعدي:«ووصفه بأنَّه كله صلاح، ويهدي إلىٰ الإصلاح، وإلىٰ أقوم الأمور وأرشدها وأنفعها في كل شيء من دون استثناء، وهذا الوصف المحيط لا يخرج عنه شيء، فهو إصلاح للعقائد والقلوب، وللأخلاق والأعمال، ويهدي إلىٰ كل صلاح ديني ودنيوي بحيث تقوم به الأمور، وتعتدل به الأحوال، ويحصل به الكمال المتنوع من كل وجهٍ بالإرشاد إلىٰ كل وسيلة نافعة تؤدي إلىٰ المقاصد والغايات المطلوبة، فلا سبيل إلىٰ الهداية والصلاح والإصلاح لجميع الأمور إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها القرآن، وحث العباد عليها»[٣].

---

(١) تفسير الكشاف – ومعه الانتصاف ومشاهد الإنصاف والكافي الشاف (٢/ ٦٥١).

(٢) الموافقات (٤/ ١٨٤).

(٣) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (١/ ٧).

٣/ القرآن مُهيمِن على الكتب السماوية السابقة ومكمل لها:

وممَّا يدلُّ على شمول هديه أنَّ الله تعالى جمع فيه محاسن ما قبله من كتب، فقد اشتمل على كل علوم الكتب السابقة وزاد عليها حتى بلغ الكمال والتمام، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائِدَة : ٤٨] ، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [فَاطِر : ٣١].

فهو الكتاب الجامع لكل علم نافع، وأخبار ما سبق، وأحكام الحلال والحرام، وما يحتاج إليه البشر في دينهم ودنياهم.

٤/ القرآن بلغ تمام الكمال، فلا يحتاج إلى إضافة أو تعديل:

وممَّا يدلُّ على شمول هديه وصف الله تعالى له بالتمام، والكمال في رسالته، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأَنْعَام : ١١٥] ، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائِدَة : ٣] ، فتمامه وكماله يدلُّ على شمول هديه، وهذا دليل على أنَّه لا نقص فيه، ولا حاجة إلى زيادة أو تبديل، فهو المرجع الأخير لكل تشريع.

٥/ القرآن فصل فيه كل شيء يحتاج إليه العباد:

وممَّا يدلُّ على شمول هديه أنَّ الله تعالى بيَّن أنَّه لم يترك أمرًا إلَّا وبيَّن فيه غاية الإحكام والبيان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأَعْرَاف:٥٢] ، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإِسْرَاء : ١٢].

قال ابن باديس: «فكل ما يحتاج إليه العباد لتحصيل السعادتين من عقائد الحق، وأخلاق الصدق، وأحكام العدل، ووجوه الإحسان ... كل هذا فصل في القرآن تفصيلًا: كل فصل علىٰ غاية البيان والأحكام. وهذا دعاء وترغيب للخلق أن يطلبوا ذلك كله من القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في العلم والعمل، ويأخذوا منه ويهتدوا به؛ فهو الغاية التي ما وراءها غاية في الهدىٰ والبيان»[1].

٦/ القرآن شفاء للأمراض الفكرية والروحية:

وممَّا يدلُّ علىٰ شمول هديه وصفه بأنَّه شفاءٌ للناس ولما في الصدور، فلا يوجد مرض قلبي أو فكري إلا وفي القرآن علاجه، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونُس : ٥٧] .

قال ابن القيم: «وكيف يشفي ما في الصدور كتاب لا يفي بعشر معشار ما الناس محتاجون إليه علىٰ زعمهم الباطل؟... نعوذ بالله من الخذلان؛ ولكن من أوتي فهما في الكتاب وأحاديث الرسول استغنىٰ بهما عن غيرهما بحسب ما أوتيه من الفهم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[2].

وقال الشاطبي: «ولا يكون شفاء لجميع ما في الصدور إلَّا وفيه تبيان كل شيء»[3]. فهو شفاء من كل داء.

(١) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (ص:٤٩).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٥٦).

(٣) الموافقات (٤/ ١٨٤).

٧/ القرآن بصائر للقلوب، وهدىً لمن أراد الاستبصار:

وممَّا يدلّ علىٰ شمول هديه وصفه بأنَّه بصائر لكل مستبصر طريق الحقّ والهدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ٢٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [الجَاثِيَة : ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ [الأَنْعَام : ١٠٤] .

أي أنَّ كل من أراد الحقَّ، وطلب الاستبصار به وجد في القرآن النور الذي يهديه ويزيل عنه الغشاوة.

فهذا الشمول والسعة لعلومه هي موضع اتفاق بين العلماء، بل عدوه واحد من أوجه إعجازه، فقد »اشتمل القرآن علىٰ علوم ومعارف تهدي البشر إلىٰ طريق الحق والصواب والسعادة في جميع شؤونهم في حياتهم الدنيا والآخرة، وتجنبهم الشر بحذافيره، في كل زمان ومكان، وقد بلغت هذه العلوم من دقة المعلومات، وصحة الأخبار، ونبالة القصد، ونصاعة الحجة، وحسن الأثر، وعموم النفع مبلغًا يستحيل علىٰ محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو رجل أمّي نشأ بين أمّيين- أن يأتي بها من عند نفسه؛ بل يستحيل علىٰ أهل الأرض جميعًا من علماء وأدباء وفلاسفة وأخلاقيين أن يأتوا بمثلها من تلقاء أنفسهم ولو تظاهروا علىٰ ذلك، فالعلوم التي في القرآن تدل كل عاقل ومنصف علىٰ أنَّه من عند الله، ولا يمكن أن تكون من عند غيره«[1].

(١) بينات الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ومعجزاته (ص:٢٠٥).

ثانياً: منهجية فهم شمولية القرآن لكل مجالات الحياة:

يتضمن القرآن الكريم كل ما يحتاج إليه الناس في أمور دينهم ودنياهم، ومعاشهم ومعادهم، إلَّا أنَّ فهم هذا الشمول يتطلب إدراك نقطتين جوهريتين:

الأولىٰ: تنوع أساليب القرآن في بيان شمول هدايته:

شمولية القرآن لا تعني دائمًا أنَّ كل المسائل ترد فيه بنصوص صريحة مباشرة، بل يتجلىٰ بيانه بطرق مختلفة، ومنها:

التصريح الواضح بالنصوص القاطعة في بعض القضايا.

البيان الظاهر الذي يدلُّ علىٰ المعنىٰ دون لبس.

الإيماء والإشارة التي يفهم منها المعنىٰ ضمنًا.

الشمول والعموم اللذان يستوعبان قضايا متعددة تحت مفهوم جامع.

الدلالة باللزوم، حيث يستنبط الحكم كنتيجة ضرورية من النصوص الشرعية.

وهذا ما أشار إليه العلماء حين قالوا إنَّ القرآن يبيِّن كل شيء، إمَّا أنَّ يكون » علىٰ وجهٍ صريح، أو علىٰ وجهٍ ظاهر، أو علىٰ وجه الإيماء والإشارة، أو علىٰ وجه الشمول والعموم، أو علىٰ وجه اللزوم، فالمهم أنَّ القرآن مبين لكل شيء، تارة يذكر الدليل علىٰ المسألة، وتارة يذكر التوجيه إلىٰ الدليل«[1].

والثانية: تكامل القرآن مع السنة في تحقيق الهداية الشاملة:

لا يقتصر بيان القرآن علىٰ آياته فقط، بل يتضمَّن أيضًا ما ورد في السنة

(١) تفسير العثيمين: سورة يس (ص:٢٥٠).

النبوية المفسرة له، قال ابن عاشور في قوله تعالىٰ:﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النَّحل : ٨٩] وقوله:﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النَّحل : ٤٤] بحيث صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنة، كافيًا في هدي الأمَّة في عبادتها، ومعاملتها، وسياستها، في سائر عصورها، بحسب ما تدعو إليه حاجاتها، فقد كان الدين وافيًا في كل وقت بما يحتاجه المسلمون »[1].

فأشار إلىٰ أنَّ مجموع التشريع الوارد في القرآن والسنة كافٍ لهداية الأمَّة في العبادات، والمعاملات، والسياسات، في جميع العصور، بما يتلاءم مع حاجاتها المتجددة، ممَّا يؤكّد وفاء الدين لكل متطلبات الحياة في كل زمان ومكان.

وقال ابن القيم في بيان كفاية الوحي في تحقيق الهداية الشاملة، فقال : «عموم رسالته بالسنة إلىٰ كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم التي بها صلاحهم في معاشهم ومعادهم، وأنَّه لا حاجة إلىٰ أحد سواه البتة وإنَّما حاجتنا إلىٰ من يبلغنا عنه ما جاء به، فمن لم يستقر هذا في قلبه لم يرسخ قدمه في الإيمان بالرسول؛ بل يجب الإيمان بعموم رسالته في ذلك كما يجب الإيمان بعموم رسالته بالنسبة إلىٰ المكلفين، فكما لا يخرج أحد من الناس عن رسالته البتة فكذلك لا يخرج حقّ من العلم به والعمل عمَّا جاء به، فما جاء به هو الكافي الذي لا حاجة بالأمَّة إلىٰ سواه وإنَّما يحتاج إلىٰ غيره من قبل نصيبه من معرفته وفهمه فبحسب قلة نصيبه من ذلك تكون حاجته »[2].

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ١٠٣).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٥٥، ١٥٦).

فالخلاصة:

إنَّ شمولية القرآن الكريم تتحقَّق من خلال أساليبه المتنوعة في البيان، وتكامله مع السنة النبوية، ممَّا يجعله المصدر الأوحد والكامل لهداية البشرية في كل شؤونها، دون حاجة إلىٰ مصادر أخرىٰ، سوىٰ الاجتهاد في فهمه واستنباط معانيه وفق أصول العلم الشرعي.

ثالثاً: مجالات الاهتداء بالقرآن مع نماذج تطبيقية:

إنَّ الإيمان بشمولية هداية القرآن الكريم يقتضي التسليم التام بأنَّه المصدر الأعلىٰ للهدىٰ، وأنَّه يرشد إلىٰ كل ما يصلح حال الإنسان في الدنيا والآخرة، ويوجه إلىٰ كل ما فيه الخير، وينهىٰ عن كل ما فيه الضرر. وهذا يوجب علىٰ المؤمن أن يجعل القرآن المرجع الأول في كل شؤونه، وأن ينزّل هديه علىٰ واقعه في مختلف الظروف والأحداث، إذ لا يمكن لمن لم يستهد به أن يجد الطريق المستقيم، قال تعالىٰ: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المَائِدَة : ١٦]، وقال تعالىٰ علىٰ لسان الجنّ: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأَحْقَاف : ٣٠ - ٣٢].

فهو كتاب هداية شامل، يرشد الإنسان إلىٰ الحق في كل مجالات حياته، سواءً في العقيدة، والعبادات، والأخلاق، والعلاقات الأسرية، والمعاملات

المالية، والحكم، والدعوة والتربية وغيرها من مجالات كثيرة يصعب حصرها، **سوف أكتفي ببيان بعض هذه المجالات مع نماذج تطبيقية من القرآن الكريم نفسه:**

١/ الاهتداء في مجال العقيدة (التوحيد والإيمان):

هو الاهتداء الذي يصحح العقيدة، ويرسخ التوحيد، ويحرر الإنسان من الشرك والضلال، فالقرآن يهدي إلىٰ أوضح السبل في الإيمان بالله واليوم الآخر وملائكته ورسله وكتبه والقدر خيره وشره، ويوضح الغاية من الخلق، ويجيب عن الأسئلة الكبرىٰ التي حارة فيها الإنسانية فيما يتعلق بالله والإنسان والكون والحياة، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غَافِر: ٦١ - ٦٦].

تُبرز هذه الآيات الهداية العقدية الكبرىٰ التي يقدّمها القرآن، حيث تُرسّخ توحيد الربوبية والألوهية بأدلة الخلق والرزق والإحياء، وتُقيم الحُجّة علىٰ بطلان الشرك، وتدعو إلىٰ إخلاص العبادة لله وحده بوصفه الحي الذي لا إله إلا هو، وتحرير الإنسان من كل ولاء تعبّدي لغيره، وهو لبّ الإيمان وأصل الدين.

وقد جاءت مئات الأدلة التي تدعو إلىٰ التوحيد الخالص لله، ونبذ الشرك بكل صوره، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البَقَرَة : ٢٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النِّسَاء : ١١٦].

نموذج تطبيقي من القرآن: قد جاءت عشرات النماذج للأنبياء والمرسلين والهداة المهديين في بيان التوحيد ونبذ الشرك، وعلىٰ رأسهم إمام الحنيفة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأَنبِيَاء: ٥١ – ٥٤].

هذا النموذج القرآني يجسد الهداية التوحيدية في أبلغ صورها، ويوضح منهج الأنبياء في تحرير الإنسان من عبادة المخلوق إلىٰ عبادة الخالق، ومن أسر التقليد إلىٰ نور الرشد والهداية.

ومنها قصة سحرة فرعون الذين كانوا علىٰ الكفر، ثم لمَّا سمعوا كلام الله علىٰ لسان موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ورأوا آية العصا، اهتدوا إلىٰ الإيمان فورًا، وقالوا: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ

ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِى هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه : ٧٠ – ٧٦].

يبين هذا النموذج القرآني عظمة أثر الهداية حين يخالط نورُها الفطرة، مهما كان حال الإنسان قبلها، فبمجرد أن استبانت الحجة وانكشفت آية الله، انتقل السحرة من الكفر العميق إلىٰ الإيمان الراسخ. وتؤكد القصة أن الهداية الربانية تغيّر المواقف وتبني الثبات، وتُخرج الإنسان من طاعة الطاغوت إلىٰ العبودية لله وحده.

٢/ الاهتداء في مجال العبادات:

يتمثل في تعلّم كيفية أداء العبادات الصحيحة والتقرب إلىٰ الله، والقرآن يرشد إلىٰ الطريقة المثلىٰ في العبادة، ويبيِّن مفهومها الشامل بحيث تشمل كل حياة المؤمن، قال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحۡيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢ – ١٦٣]، فحياة المسلم كلُّها عبادة إذا قصد بها وجه الله ووافق فيها شرعه.

وقد جاءت عشرات الأدلة التي تأمر بالصلاة والزكاة والصيام والحج غيرها من العبادات وتحث علىٰ المحافظة عليها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البَقَرَة : ٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البَقَرَة : ٢٣٨].

ومنها الأمر بأمر الأهل بالصلاة، قال تعالىٰ: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ [طه:١٣٢].

نموذج تطبيقي من القرآن: ما ذكره الله تعالىٰ عن إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ [مَرۡيَم : ٥٥]، ومثله قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لُقۡمَان : ١٧]، ومثله قوله تعالىٰ عن زكريا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عِمۡرَان : ٣٩].

العبادات العملية من أعظم ما دلّ عليه القرآن، فقد تواترت الأوامر بإقامتها والمحافظة عليها، وبرز في ذلك خطاب الصلاة والزكاة بشكل متكرر، مقرونًا بالتأكيد علىٰ أدائها الفردي والأُسَري، كما في نماذج إسماعيل ولقمان وزكريا عليهم السلام، مما يبين أن العبادة سلوك متوارث ومُتَجَذّر في حياة الأنبياء، ومقوم أساس في بناء الهُدىٰ والرضوان.

٣/ الاهتداء في مجال الأخلاق:

يهدي القرآن إلىٰ مكارم الأخلاق وأحسنها، فيأمر بالصدق والعدل،

والأمانة، والصبر، والحلم، والعفو، كل خلق حسن، وينهىٰ عن مساوي الأخلاق ورذائل الأعمال، فينهىٰ عن الكذب، والظلم، والخيانة، والجزع وغيرها، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النَّحل:٩٠].

وممَّا أمر الله تعالىٰ به الأمر بالصبر والعفو وكظم الغيظ، قال تعالىٰ في صفات المتقين: ﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٣٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ [فُصِّلَت : ٣٤ – ٣٥].

نموذج تطبيقي من القرآن: موقف يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع إخوته: وهو يكظم غيظه ويعفو عنهم ويحسن إليهم، قال تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [يُوسُف : ٧٧]، وقال تعالىٰ عن عفوه: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف : ٩٢].

يمثل موقف يوسف عليه السلام نموذجًا قرآنيًا راقيًا في كظم الغيظ والعفو والصفح الجميل، فقد قابل الإساءة بالصبر والإحسان، وكتم مشاعره المؤلمة، ثم أعلن العفو الكامل بقوله: ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾، مما يجسد قمة الأخلاق النبوية في التعامل مع الأذىٰ، ويقدمه القرآن مثالًا عمليًا للمهتدين.

٤/ الاهتداء في مجال العلاقات الأسرية:

القرآن الكريم يحثُّ بشدَّة على الإحسان إلى الوالدين وترك العقوق، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

الآية الكريمة تؤكد على عظمة البرّ بالوالدين بربطه الوثيق بتوحيد الله، حيث قرن الله بين عبادة ذاته والإحسان إليهما، محذرًا من أدنى مظاهر العقوق لفظًا وسلوكًا، وأمر بخفض الجناح رحمةً وتواضعًا، مما يجعل البرّ واجبًا إلهيًا جوهريًا لا يختزل في فعل اجتماعي، بل هو دليل واضح على صدق الإيمان وكمال العبادة.

تطبيقي من القرآن: موقف إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في طاعته لأبيه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصَّافَّات: ١٠٢]، فهو نموذج في بر الوالدين والتسليم لأمر الله، ومثل ما ذكره عن يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مَرْيَم: ١٤].

مثل موقف إسماعيل عليه السلام نموذجًا بارزًا في الطاعة الكاملة للوالد والرضوخ لأمر الله، حيث أظهر تسليمًا تامًا وصبرًا عظيمًا على ما أُمر به، مجسدًا بذلك أعلى مراتب البر والتقوى. ويُكمل القرآن هذا المعنى بذكر يحيى عليه السلام، الذي تميّز ببره بوالديه وابتعاده عن العصيان، ليؤكد أن البرّ والطاعة أساسان لا ينفصلان في حياة الإنسان المؤمن.

٥/ الاهتداء في مجال المعاملات المالية:

يهدي القرآن الكريم إلىٰ المنهج الأقوم في نظام إدارة الأموال، فله رؤية واضحة في أوجه كسبه بحيث يكون حلالًا طيبًا، كما يوضح أوجه صرفه علىٰ وجهٍ دقيق، وكيفية إخراج زكاته وإنفاقه، وميراثه، بل حتىٰ كيفية تدينه بين الناس، مع التحذير من الممارسات الفاسدة، مثل: الربا، الغش، الكذب، الخيانة، التطفيف والبخس، وغيرها بما يضمن رعاية حقوق الخلق، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة:٢٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة : ١٨٨] .

ومن ذلك: أمره بالوفاء في الكيل والميزان، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ [الإِسْرَاء : ٣٥]

نموذج تطبيقي من القرآن: موقف شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه في تحذيرهم من الغش في الميزان، قال تعالىٰ: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ [الشُّعَرَاء : ١٨١ – ١٨٢].

يمثّل موقف النبي شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ نموذجًا قرآنيًا راسخًا في أمر العدل والنزاهة، حيث دعا قومه إلىٰ الوفاء بالميزان والوزن وعدم الغش، مؤكدًا علىٰ أهمية القياس بالقسطاس المستقيم كأساس للتعامل الشريف والاقتصاد العادل.

هذا التحذير القرآني يجسد موقف الهداية العملية التي تصون الحقوق وتؤسس لسلامة المعاملات الاجتماعية، ويبرز العدل كركيزة أساسية في منهج الإيمان والتقوىٰ.

٦/ الاهتداء في مجال الدعوة إلىٰ الله:

يهدي القرآن الكريم إلىٰ المنهج الأقوم في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ؛ فأمر بالحكمة واللين في الدعوة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النَّحل : ١٢٥].

فالآية تؤسس لمنهج دعوي متوازن يرتكز علىٰ الحكمة في تقديم الأدلة، والموعظة الحسنة لتأثير القلب، والجدال بأفضل الأساليب التي تحترم كرامة الإنسان، مما يعكس رحمة الله ورعايته في سبيل الهداية.

نموذج تطبيقي من القرآن: موقف موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون وهو يدعوه بحكمة ولين: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ١١٢ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤

قَالُوٓاْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ [الأَعْرَاف : ١٠٤ – ١٢٠].

يمثل موقف موسىٰ عليه السلام مع فرعون نموذجًا عمليًا لمنهج الدعوة القرآني القائم علىٰ الحكمة واللين، حيث بدأ بالبيان الواضح والرسالة الصادقة، ثم واجه التحدي بسلوك متزن، واستخدم الآيات الباهرة كدليل قوي دون تعنيف أو تجريح.

ورغم قسوة فرعون وطغيانه، حافظ موسىٰ علىٰ أسلوب الدعوة الرصين، مما يبرز كيف أن اللين والحكمة أسمىٰ أدوات الهداية حتىٰ في مواجهة أشد الخصوم..

٧/ الاهتداء في مجال الحرب والقتال:

القرآن الكريم يوجه بقتال الأعداء المعتدين، قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البَقَرَة : ١٩٠]، ويشدد علىٰ مسألة الثبات في مواجهة العدو، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الأَنفَال : ١٥ – ١٦].

نموذج تطبيقي من القرآن: موقف نبي الله داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قتاله لجالوت:

قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٩ - ٢٥١].

مثل موقف نبي الله داوود عليه السلام في مواجهة جالوت نموذجًا واضحًا لشجاعة المؤمن وثباته علىٰ الحق، حيث اجتاز الابتلاء بالصبر والتوكل علىٰ الله، مستعينًا بالإيمان واليقين بنصر الله. وقد أكرمه الله بالنصر علىٰ جالوت، ووهبه الملك والحكمة، مما يؤكد أن التوكل علىٰ الله والعدل في القضية هما سبب النصر والثبات في وجه التحديات الكبرىٰ.

٨/ الاهتداء في مجال الحكم والسياسة:

يهدي القرآن الكريم إلىٰ أعظم السياسات الحكيمة في الحكم والسياسة، مثل الأمر بالحكم بالعدل وإقامة الحق، وتولية الأصلح، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٥٨]، ويوجب الشورىٰ في الحكم واتخاذ القرارات، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشُّورَى: ٣٨].

نموذج تطبيقي من القرآن: موقف ملكة سبأ من خطاب سليمان، قال تعالىٰ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النَّمل:٢٩ - ٣٢] . فهذا الموقف يظهر التواضع والحرص علىٰ المشورة قبل اتخاذ القرار، مما يعكس روح الشورىٰ والتعاون في الحكم.

ومثله ما فعل سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في حكمه في الحرث، قال تعالىٰ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأَنبِيَاء : ٧٨ - ٧٩].

وفي حكم سليمان عليه السلام في قضية نفش الغنم تجلّىٰ نموذج القضاء العادل المبني علىٰ الفهم العميق للوقائع، إذ أثنىٰ الله علىٰ فطنته في الترجيح بين وجهَي الحكم، مقرًّا في الوقت ذاته فضل كلٍّ من داود وسليمان في العلم والحكم، مما يدل علىٰ أن التوفيق الإلهي والفهم الدقيق ركنان أساسيان في ممارسة الحكم الرشيد.

ومثله طلب يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لتولي وزارة مصر، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف : ٥٥].

وفي طلب يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تولي خزائن الأرض، إبراز لمبدأ الكفاءة في تولي المناصب، إذ جمع بين الأمانة والعلم، فدلّ علىٰ أن إدارة الشأن العام لا تقوم إلا علىٰ الكفء الأمين، القادر علىٰ حفظ الحقوق، المحسن لتدبير الموارد.

٩ / الاهتداء في مجال الحياة الاجتماعية:

يوجه القرآن الكريم الإنسان إلىٰ إقامة علاقات اجتماعية قائمة علىٰ العدل والرحمة، فيأمر المؤمنين بالتمسك بروح الأخوة، ونبذ الفرقة والتنازع: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحُجُرَات : ١٠] .

كما ينهىٰ عن السخرية والتنابز بالألقاب والظن السيئ والتجسس والغيبة، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجُرَات : ١١ - ١٢].

كما يأمر الله بالعدل والإحسان مع غير المسلمين الذين لا يعادون المسلمين: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المُمْتَحنَة: ٨] ؛ أما في حالة الحرب، فقد وضع القرآن ضوابط تمنع الظلم والعدوان: ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البَقَرَة:١٩٠].

نماذج تطبيقية من القرآن للحياة الاجتماعية:

نموذج في الرحمة والمروءة: قصة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الفتاتين: عندما وجد موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فتاتين عند البئر لا تستطيعان السقي بسبب الزحام، سقىٰ لهما دون انتظار مقابل، كما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القَصَص : ٢٣ - ٢٤]. هذا النموذج يعلّم قيم المروءة والشهامة، والتعاون الاجتماعي، ممَّا يرسخ روح التكافل بين أفراد المجتمع.

وفي موقف موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الفتاتين تتجلىٰ المروءة والشهامة والرحمة العملية، والتعاون الاجتماعي، إذ بادر إلىٰ نصرة الضعيف من غير تكليف ولا مصلحة، فكان مثالًا للإنسان الصالح الذي يبادر إلىٰ خدمة الضعيف بدافع المروءة والإحسان، ممَّا يرسخ روح التكافل بين أفراد المجتمع.

نموذج الرحمة في العلاقات الزوجية: قصة زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وصبره علىٰ زوجته العاقر ودعاء الله أن يرزقه الذرية منها: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَالِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مَرْيَم : ٥]. ويُظهر هذا الموقف عمق الرحمة والوفاء في العلاقة الزوجية، حيث لم يمنع العقم زكريا عليه السلام من ملازمة زوجته ودعاء الله أن يرزقه منها، فكان مثالًا في الصبر والرحمة وحسن العشرة، بما يعزز قيم الاستقرار الأسري.

١٠/ الاهتداء في مجال العلوم والبحث:

القرآن يحث علىٰ طلب العلم والتفكر والصناعة وسائر مجالات العلوم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزُّمَر: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأَنفَال: ٦٠].

يهدي القرآن إلىٰ أهمية العلم والعمل والبحث، ويحث علىٰ التفكر والإعداد بكل وسيلة ممكنة، بما يعكس شمول الهداية القرآنية لمجالات المعرفة والتطوير الحضاري، ويجعل العلم قوة في البناء والدفاع وتحقيق الاستخلاف.

نموذج تطبيقي من القرآن: موقف نبي الله داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في العلم والحكمة في تسخير العلم لصناعة الدروع، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سَبَإ: ١٠ – ١١].

ومثله ذو القرنين، قال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكَهْف: ٩٤ – ٩٧].

تعرض الآيتان نموذجين تطبيقيين لهداية القرآن في مجال تسخير العلم والمعرفة لخدمة الإنسان وبناء القوة، حيث استخدم داوود عليه السلام الحديد بصناعة متقنة للدروع، وأقام ذو القرنين مشروعًا هندسيًّا ضخمًا لردّ الفساد، مما يدل علىٰ تكامل الهداية بين الإيمان والعمل والصناعة.

فخلاصة القول:

أنَّ القرآن الكريم منهج حياة متكامل، يهدي الإنسان في العقيدة، العبادات، الأخلاق، العلاقات، المعاملات، الإصلاح، الدعوة، الحكم، وغيرها من المجالات.

قال السعدي في القاعدة التاسعة والخمسين: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، ما أعظمَ هذه القاعدةَ، وما أحكم هذا الأصلَ العظيمَ الذي نص الله نصًّا صريحًا علىٰ عموم ذلك، وعدم تقيد هذا الهدىٰ بحالة من الأحوال فكل حالة هي أقوم، في العقائد، والأخلاق، والأعمال، والسياسات الكبار والصغار، والصناعات، والأعمال الدينية، والدنيوية. فإنَّ القرآن يهدي إليها ويرشد إليها، ويأمر بها ويحث عليها. معنىٰ ﴿أَقْوَمُ﴾، أيْ أكرم وأنفس وأصلح وأكمل استقامة، وأعظم قيامًا وصلاحًا للأمور.

فأمَّا العقائد فإنَّ عقائد القرآن هي العقائد النافعة التي فيها لصلاح القلوب وحياتها وكمالها، فإنَّها تملأ القلوب عزة وكرامة بشعورها بالتجرد من الذل لمخلوق مثلها، وشرفها بتخصصها لمحبة الله تعظيمًا له وتألُّهًا وتعبُّدًا وإنابة، وهذا المعنىٰ هو الذي أوجد الله الخلق لأجله.

وأمَّا أخلاقه التي يدعو إليها فإنَّه يدعو إلىٰ التحلي بكل خلق جميل، من الصبر، والحلم، والعفو، والأدب، وحسن الخلق، وجميع مكارم الأخلاق، ويحث عليها بكل طريق ويرشد إليها بكل وسيلة.

وأمَّا الأعمال الدينية التي يهدي إليها: فهي أحسن الأعمال التي فيها القيام بحقوق الله وحقوق العباد علىٰ أكمل الحالات وأجلها وأسهلها وأوصلها إلىٰ المقاصد.

وأمَّا السياسات الدينية والدنيوية: فهو يرشد إلىٰ سلوك الطرق النافعة في تحصيل المقاصد والمصالح الكلية، وفي دفع المفاسد، ويأمر بالتشاور علىٰ ما لم تتضح مصلحته والعمل بما تقتضيه المصلحة في كل وقت بما يناسب ذلك الوقت والحال. حتىٰ في سياسة الوالد مع أولاده وزوجه وأهله وخادمه وأصحابه ومعامليه، فلا يمكن أنَّه وجد أو يوجد حالة يتفق العقلاء أنَّها أقوم وأصلح من غيرها، إلا القرآن يرشد إليها نصًّا وظاهرًا، أو دخولاً تحت قاعدة من قواعده الكلية. وتفصيل هذا الأصل لا يمكن استيفاؤه في هذه القواعد الإجمالية، فكل التفاصيل الواردة في الكتاب والسنة، وما تقتضيه المصالح تفصيلاً لهذا الأصل المحيط. وبهذا وغيره تبيَّن لك أنَّه لا يمكن أن يرد علم صحيح أو معنىٰ نافع أو طريق صلاح ينافي القرآن. والله ولي الإحسان»[1].

إنَّ الإيمان بشمولية هداية القرآن يفرض علىٰ المؤمن أن يجعل منه مرجعًا أساسيًّا في كل شؤونه، فلا يقتصر علىٰ جانب دون آخر، بل يجعله منهجًا شاملاً للحياة، يستمد منه عقيدته وعبادته وأخلاقه ومعاملاته، فهو الهداية التامة التي تكفل للإنسان السعادة في الدارين.

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص:١٤٦-١٤٧).

وكلَّما توغَّل الإنسان في اتباع هديه كمل في عقيدته وعبادته وأخلاقه وسائر أمور حياته، وكان أعدل الناس حكمًا، وأصدقهم لهجة، وأكثرهم حكمة، وأرشدهم رأيًا، وأقواهم بصيرة، وأهداهم سبيلاً، وأحسنهم طريقة.

قال السعدي: «يخبر تعالىٰ عن شرف القرآن وجلالته وأنَّه ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي: أعدل وأعلىٰ من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدىٰ بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره»[1].

رابعاً: حاجة الأمة اليوم إلى الاهتداء بالقرآن في شتى المجالات:

والأمة اليوم وهي تعاني كثيرًا تفرُّقًا في عقيدتها، وتخبطًا في عبادتها، وانحرافًا في أخلاقها، وجورًا في نظم حياتها، وتشتُّتًا في مناهجها التربوية وطرقها الإصلاحية؛ لاختلاف مصادر التلقي عندها، تحتاج إلىٰ عودة صادقة جادة إلىٰ القرآن لتستهدي بنوره في الظلمات، وتستشفي بهديه من كل العلل والأمراض، وتجتمع عليه لتهتدي إلىٰ سبل السلام والصراط المستقيم، وتنال سعادة الدارين.

والأمة اليوم لو استهدت بكتاب ربها لحلت جميع مشاكلها ومشكلات الإنسانية كلها، فلا علاج لواقعنا السيئ اليوم إلا بالرجوع لكتاب الله تعالىٰ والاهتداء بهديه لتقوىٰ الأمة في عقيدتها، وترقىٰ في أخلاقها وقيمها، وتتوحد في كلمتها، وتجمع صفها المتصدع، وتقهر عدوها. فالذي أصلح الله به أول هذه الأمة هو القرآن، وهو الذي به يكون صلاح آخرها في كل زمان ومكان، «فإذا

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٥٤).

كانت الأمة شاعرة بسوء حالها، جادة في إصلاحه، فما عليها إلا أن تعود إلىٰ كتاب ربّها فتحكمه في نفسها، وتحكم به، وتسير علىٰ ضوئه وتعمل بمبادئه وأحكامه، والله يؤيّدها ويأخذ بناصرها وهو علىٰ كل شيء قدير»[1].

الجوانب الأكثر حاجة إلى الاهتداء بالقرآن في الواقع المعاصر

في ظل التحديات الكبرىٰ التي تواجه الأمة الإسلامية اليوم، تبرز الحاجة الملحة للعودة إلىٰ هدي القرآن الكريم، الذي يحمل الحلول الجذرية لأعقد المشكلات التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية. وإليك أبرز هذه الجوانب التي تتطلب تصحيح المسار والاهتداء بنور القرآن:

١/ تصحيح العقيدة الإسلامية وتحريرها من الانحرافات:

إنَّ تعدد مصادر التلقي والانحرافات الفكرية أدَّىٰ إلىٰ تمزُّق الأمَّة، وظهور الفرق الضَّالة، وغياب العقيدة الصحيحة لدىٰ كثير من المسلمين. كما تسللت الشركيات، والخرافات، فكان الابتعاد عن التوحيد سببًا رئيسًا في ضعف الأمَّة وذلِّها.

● **العلاج القرآني:**

القرآن يدعو إلىٰ التوحيد الخالص ونبذ الشرك بجميع صوره، ويوحد الأمة تحت راية التوحيد والإسلام، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٤/ ٢٢٩).

٢/ إصلاح العبادات والتقرب إلىٰ الله علىٰ الوجه الصحيح:

كثرت البدع والممارسات الخاطئة التي أبعدت العبادات عن مقاصدها، ممَّا جعل بعض المسلمين يؤدون الطاعات أداءً شكليًّا بلا روح ولا استشعار للقرب من الله، ومنهم من يمارسان العبادة بغير ما ورد في الشرع؛ ممَّا يجعل جهدهم هباء منثورًا.

● **العلاج القرآني:**

والقرآن يرشد إلىٰ العبادات الخالصة لله، الموافقة للشرع، ويؤكد أنَّ العبادة الحقة تثمر التقوىٰ والإخلاص، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكَهْف : ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزُّمَر : ٣].

٣/ تهذيب الأخلاق ونشر القيم الفاضلة:

انتشرت السلوكيات المنحرفة كالفساد، والرشوة، والكذب، والخيانة؛ ممَّا أدىٰ إلىٰ ضعف الثقة بين الناس، وتهديد تماسك المجتمع.

● **العلاج القرآني:**

والقرآن يزكي النفوس، ويحث علىٰ مكارم الأخلاق، ويجعل الأخلاق الحسنة معيار التفاضل الحقيقي، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النَّحْل : ٩٠].

٤/ إرساء العدل وبناء مجتمع مستقر وآمن:

أدىٰ تفشي الظلم وانتشار الأنظمة الفاسدة، التي سلبت الحقوق وانتهكت الحريات، إلىٰ اضطرابات اجتماعية وصراعات تهدد استقرار المجتمعات الإسلامية. إنَّ غياب العدل يولّد الفوضىٰ، ويزرع الأحقاد، ويفكك النسيج الاجتماعي، ممَّا يجعل تحقيق الأمن والاستقرار أمرًا مستحيلًا في ظل غياب الإنصاف والمساواة.

● **العلاج القرآني:**

جعل القرآن الكريم العدل أساس قيام المجتمعات، وأمر الحكام والمحكومين بإقامته، باعتباره ركيزة من ركائز الإيمان والاستقامة. فلا يتحقق الاستقرار إلا بإعطاء كل ذي حقٍّ حقّه، والتعامل مع الجميع وفق مبدأ العدل دون تحيز أو ظلم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النِّسَاء : ٥٨].

كما حثَّ القرآن علىٰ إقامة العدل حتىٰ مع الأعداء، ليكون أساسًا للحياة الاجتماعية والسياسية، فقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المَائِدَة : ٨].

فالعدل هو السبيل الوحيد لتحقيق الأمن الاجتماعي، والتعايش السلمي، والنهوض بالأمة نحو مستقبل قائم علىٰ الحقوق المتساوية والاستقرار الدائم.

٥/ إصلاح الأسرة وتعزيز مكانة المرأة:

التفكك الأسري وغياب التربية السليمة أدَّيَا إلىٰ انتشار الطلاق والعنف الأسري، ممَّا أثَّر علىٰ استقرار المجتمعات الإسلامية.

● **العلاج القرآني:**

القرآن يضع منهجًا متكاملًا للأسرة، قائمًا علىٰ المودة والرحمة والعدل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرُّوم : ٢١].

٦/ تحقيق الوحدة والتآلف بين المسلمين:

الانقسامات المذهبية والطائفية والسياسية أضعفت الأمَّة وجعلتها عرضة للأعداء.

● **العلاج القرآني:**

القرآن يدعو إلىٰ الوحدة ونبذ الخلاف، ويحذِّر من التفرق والاختلاف، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عِمْرَان : ١٠٣]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأَنفَال : ٤٦].

٧/ تحقيق التنمية والنهضة الحضارية.

تخلف الأمَّة سببه التقاعس عن العلم والعمل الجاد في جوانب الحياة المتنوعة، ممَّا جعلها تعتمد علىٰ غيرها في التطور الاقتصادي والتكنولوجي.

● **العلاج القرآني:**

والقرآن يحث على العلم والعمل والتخطيط، قال تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المُجَادلَة : ١١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤].

٨/ مواجهة الأعداء وحماية الهوية الإسلامية:

الأمة تواجه غزوًا فكريًّا وثقافيًّا يهدف إلىٰ تشويه هويتها وإضعاف عقيدتها.

● **العلاج القرآني:**

والقرآن يحث على الثبات والاعتزاز بالإسلام، قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٤٦ - ١٤٨].

٩/ حل الأزمات العالمية والمشكلات الإنسانية:

العالم يعاني من الحروب، والظلم، والفقر، ممَّا يتطلب حلولًا عادلة.

● **العلاج القرآني:**

القرآن يضع الأسس لتحقيق السلام والعدالة الاجتماعية، من خلق توازن القوة، وجعل السلام بين الأمم هو الأصل في العلاقات، قال تعالىٰ:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦٠ - ٦١].

١٠/ ترسيخ الإيمان بالآخرة وتحفيز العمل الصالح:

الانشغال بالدنيا والتوسع فيها وطغيان المادة ونسيان الآخرة جعل الناس تعيش حياة مادية، تغفل عن الدار الآخرة والعمل لها، ومحاسبة النفس، فأفسد ذلك حياتهم.

● **العلاج القرآني:**

القرآن الكريم يذكِّر دائما بحقيقة الدنيا وأهمية السعي للآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العَنكَبُوت: ٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأَنْعَام: ٣٢].

فالاهتداء بالقرآن هو السبيل الوحيد لإنقاذ الأمَّة من أزماتها، فهو النور الذي يهدي البشرية إلىٰ الحق، ويقيم العدل، ويصلح النفوس، وينهض بالحياة كلها في أبهىٰ صورة.

خامساً: أسباب عدم الاهتداء بالقرآن في شتى مجالات الحياة:

رغم أنَّ القرآن الكريم هو المصدر الأسمىٰ للهداية، والموجِّه الأول للإنسان في جميع شؤون حياته، فإنَّ الكثيرين لا ينتفعون به علىٰ الوجه المطلوب، ممَّا أدىٰ إلىٰ افتقاد الأمة لكثير من بركاته.

ومن أهم الأسباب التي تحول دون الاهتداء به في شتىٰ مجالات الحياة ما يلي:

١/ الاكتفاء بتلاوة الحروف دون التدبر والعمل به:

أصبح تعامل الكثيرين مع القرآن مقتصرًا علىٰ الإيمان به وتلاوة حروفه وحفظ كلماته، دون فهم معانيه والتدبر في آياته، وإنَّما أنزل ليكون منهاجًا تقوم حياة الحياة علىٰ بصيرة ووعي، وحتىٰ تتحقق الهداية به لا بدَّ من فهمه فهمًا صحيحًا، وتدبر آياته تدبرًا عميقًا، كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص : ٢٩].

والاكتفاء بتلاوة الحروف دون فهم المعنىٰ يعطل العمل بالقرآن، هو فرض لازم علىٰ كل مسلم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القَصَص: ٨٥]، قال عطاء ابن أبي رباح: «فرض عليك العمل بالقرآن»[(١)]. وهذا يعني أنَّ التهاون في الالتزام بتعاليم القرآن وأحكامه يحول دون الاستفادة الفعلية من هدايته، ويُعيق تطبيق ما جاء فيه علىٰ أرض الواقع.

فمن أعظم موانع الاهتداء بالقرآن الكريم الإعراض عن العمل به، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكَهْف : ٥٧].

---

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٢٠/ ٥١٧).

فالالتزام العملي بتوجيهات القرآن الكريم هو الطريق الوحيد لتحقيق الهداية الكاملة، ويُسهم في تحسين حياة الأفراد والمجتمعات. فعندما يطبق المسلم ما يتعلمه من القرآن في حياته اليومية، يتحقق تأثيره الحقيقي في سلوكه الاجتماعي، والأخلاقي، والروحي، ممَّا يؤدي إلىٰ بناء مجتمع متماسك ومتوازن.

والقرآن الكريم هو الذي بنىٰ أمَّة فاضلة، جمعهم علىٰ التوحيد بعد أن فرقتهم الوثنية والديانات المنحرفة، وألَّف بين قلوبهم بعد أن مزقتهم الحروب القبلية الجائرة، وزكىٰ نفوسهم بعد أن دنستها المعاصي والذنوب، وحرَّر عقولهم بعد أن تبلدت بالتبعية والتقليد للآباء والسادة والكبراء، وجمَّل حياتهم بالآداب والأخلاق القويمة بعد أن ساءت أحوالهم بالأخلاق الذميمة، وأقام دولتهم علىٰ العلم والعدل والشورىٰ والرحمة والطاعة بعد أن دمرتهم حياة الجاهلية وجورها وطغيانها، وأقام حياة آمنة بعد أن مزقتهم الحروب والعداءات، وبنىٰ حياة متكاملة بين الرجل والمرأة بعدما كانوا عليه من التنافر والاختلاف حتىٰ كانت تعد من سقط المتاع، فهو شريعة ربانية لا نقص فيها ولا خلل، وهدىٰ متكامل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خالفه، محفوظ من الزيادة والنقصان. ومن هنا، كانت وصية النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لأمَّته بالقرآن الكريم تلاوة وحفظًا وفهمًا واستهداء عملًا بأوامره واجتنابًا لنواهيه، كما جاء في الصحح عن طَلْحَة بْن مُصَرِّفٍ قَالَ: «سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أَوْفَىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أَوْصَىٰ؟ فَقَالَ: لَا، فَقُلْتُ: كَيْفَ كُتِبَ عَلَىٰ النَّاسِ الْوَصِيَّةُ أَوْ أُمِرُوا بِالْوَصِيَّةِ؟ قَالَ: أَوْصَىٰ بِكِتَابِ اللهِ» [1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الوصايا، باب ما جاء في وصية النبي ﷺ، رقم الحديث ٢٧٣٠).

وجاء في صحيح مسلم في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في صفة حجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قوله: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ. كِتَابُ اللهِ»[1].

٢/ حصر الهداية في بعض الجوانب دون غيرها:

بعض الناس حرموا الانتفاع بكمال هدايات القرآن؛ لأنَّهم ظنوا أنَّ الهداية في أبواب محددة لا تتجاوز جوانب العقيدة والعبادة والأخلاق، تاركين الجوانب التربوية، والنفسية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والدعوية، وغيرها. فهذا الفهم القاصر يجعل المسلمين بعيدين عن تطبيق القرآن في واقع حياتهم بصورة صحيحة، وفي الحقيقة أنَّ الله تعالىٰ جعله هاديًا في جميع شؤون الإنسان، فالهدايات القرآنية لها أفانين متعددة، ومرامٍ متنوعةٍ، لا تكون في مجالٍ واحدٍ. قال ابن عاشور: «معاني القرآن ومقاصده ذات أفانين كثيرة بعيدة المدىٰ مترامية الأطراف موزَّعة علىٰ آياته»[2].

ومن هنا، نجد أنَّ مسلك العلماء في الاستهداء: أنَّهم يوضحون ما فيها من هداية في شتىٰ المجالات كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[التحريم:٣]، قال الشيخ مصطفىٰ المراغي: «وفي الآية إيماء إلىٰ أمور اجتماعية هامة:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم الحديث ١٢١٨).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٨).

(١) أنَّه لا مانع من الإباحة بالأسرار إلىٰ من تركن إليه من زوجة أو صديق.

(٢) أنَّه يجب علىٰ من استكتم الحديث أن يكتمه.

(٣) أنَّه يحسن التلطّف مع الزوجات في العتب والإعراض عن الاستقصاء في الذنب»[١].

من هنا، نجد تصنيفات العلماء لمجالات الهدايات متعددة ومتنوعة ويصعب حصرها، فقد قسمها الراغب الأصفهاني إلىٰ ستة أقسام، فقال:«الأحكام التي تشتمل عليها الشرائع ستة: الاعتقادات، والعبادات، والمشتهيات والمعاملات، والزاجرات، والآداب الخلقية. فالاعتقادات خمسة: إثبات وجود البارئ - جل ثناؤه - بصفاته، وإثبات الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين خلقه، والكتاب والرسل، والمعاد، وقد انطوىٰ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَـٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النِّسَاء : ١٣٦].

وأمَّا العبادات فثمانية: الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، والاعتكاف، والقرابين، والكفارات.

والمشتهيات أربع: المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملبوسات.

والمعاملات أربع: المعاوضات كالبيع والإجازة وما يجري مجراهما،

(١) تفسير المراغي (٢٨/ ١٥٨).

والمخاصمات - كالدعوىٰ والبيانات، والأمانات كالودائع والعواري، - والتركات - كالوصايا والمواريث. والمزاجر خمس: مزجرة عن فوات الأرواح حفظًا للنفوس - كالقصاص والدية، ومزجرة لحفظ الأعراض - كحد القذف والفسق. ومزجرة لحفظ الأنساب - كالجلد والرجم -، ومزجرة لحفظ الأموال - كالقطع والصلب - ومزجرة لحماية البيضة - كالقتل للمرتد، وقتال البغاة.

وأمَّا الآداب الخلقية فثلاثة: ما يختص به الإنسان في نفسه وإصلاح أخلاقه كالعلم، والحلم، والسخاء، والعفة، والشجاعة، والوفاء، والتواضع. وما يختص به في معاشرة ذويه ومختصيه: كبر الوالدين، وصلة الأرحام، وحفظ الجار، ورعاية الحقوق، ومواساة أهل الفقر، ونصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف، وما يختص به أولو الأمر من سياسة الرعية... وأشرف هذه الأنواع الستة: الاعتقادات؛ لأنَّه في حيز العلم، والباقيات في حيز العمل، والعلم: هو المبدأ. والعمل تمامه، ولا يكون تمام بلا مبدأ»[1].

وقد قسمه بعض العلماء إلىٰ أكثر من ذلك، وكله هو نوع من الاجتهاد، وما في القرآن أوسع من كل ما ذكر. وكلّما توسعت حاجة الأمَّة وتجددت أحوالها وجدت في هديه ما يكفي لحاجاتها علىٰ مقدار اتساعها، بشرط أن تعمل علىٰ مزيد من النظر والتدبر في كتاب الله تعالىٰ، ولو سلك الناس مسلك

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٢٩).

الاهتداء به في شتىٰ مجالات الحياة لفازوا بالسعادة في الدنيا والآخرة، قال الشيخ مصطفىٰ المراغي في تفسيره: «ولو سلك الناس مسلك الاهتداء بالقرآن في فهم أسرار الخلق ومعرفة منافعه لاستفادوا السعادة في معاشهم والاستعداد لمعادهم»[1].

٣/ التحريف وسوء الفهم لمعاني القرآن:

من الأخطاء الشائعة أن يُفهم القرآن فهمًا خاطئًا، أو أن يكون تأويله بما يخالف مقاصده، أو تحريف معانيه لخدمة أغراض شخصية أو سياسية، وهو فعل اليهود الذي حذَّر الله تعالىٰ منه، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البَقَرَة: ٧٥].

تُبرز الآية خطورة تحريف معاني الوحي بعد إدراكها، إذ يجمع صاحبه بين العلم بالحق وتعمد مخالفته، فيكون الإثم مضاعفًا. وتحريف الفهم، كما تحريف اللفظ، جناية علىٰ الدين وتضليل للناس. لذا وجب علىٰ من يتعامل مع القرآن أن يتحرىٰ الأمانة والصدق، لا الهوىٰ والانتقاء.

كما أن بعض الناس يتعاملون مع القرآن بانتقائية، فيأخذون منه ما يناسبهم، ويتركون ما يعارض أهواءهم، ممَّا يؤدي إلىٰ فقدان الهداية الكاملة.

---

(١) تفسير المراغي (٩/ ١١٥).

٤/ التقصير في طلب الهداية وعدم التعمق في المعاني والدلالات:

بعض الناس يظنون أن الهداية بالقرآن تتحقق تلقائيًّا دون سعي أو مجاهدة، فيحرصون علىٰ التفوق في شؤون دنياهم، لكنهم يُهملون تعلم دينهم وأصل ذلك هو التلقي عن كتاب الله تعالىٰ. والحقيقة أن الهداية لا تُنال إلا ببذل الجهد في تعلم القرآن وتدبّره والاستهداء به، كما دلّت علىٰ ذلك الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العَنكَبُوت : ٦٩]، إذ يربط الله تعالىٰ بين المجاهدة في سبيله، والسعي الجاد في طلب الحق، وبين الهداية المؤكدة منه لعباده. وهذا يدل علىٰ أن الهداية ليست ثمرةً عشوائية، بل هي جزاءٌ لمن بذل وسعه في طريق الله، وأن طريق القرآن لا يُفتح نوره إلا لمن طرقه بالمجاهدة والتعلم والعمل.

فالاجتهاد في استنباط هدايات القرآن يساعد علىٰ استخراج كنوزه المخفية، وفهم كيفية تطبيقها في مختلف مجالات الحياة.

وكثير من المسلمين يقتصرون علىٰ الفهم الأوَّلي لآيات القرآن الكريم، حيث يكتفون بتفسير الألفاظ والمعاني الظاهرة دون أن يغوصوا في التدبر والتفكير العميق في معانيها. هذا التفسير المختصر لا يتيح لهم إدراك الأبعاد الكاملة التي تحتويها آيات القرآن، ممَّا يؤدي إلىٰ فهم محدود قد يقتصر علىٰ المعاني الظاهرة دون الاستفادة الكاملة من الهداية التي يقدمها الكتاب الكريم.

إنَّ القرآن ليس مجرد كلمات تُقرأ، بل هو كتاب هداية يتطلب فهمًا دقيقًا يتجاوز الظاهر إلىٰ فهم المقاصد الحقيقية لكل آية. فالتفسير الحقيقي للقرآن يتطلب تدبرًا عميقًا في معانيه، والتفكير في سياقاته وأهدافه الربانية التي تتخطىٰ حدود الزمان والمكان.

لذا، من الضروري أن يسعىٰ المسلمون إلىٰ الاجتهاد في فهم القرآن، والبحث عن تفسير يتماشىٰ مع المقاصد العليا للكتاب. وهذا يفتح لهم أبواب الهداية العميقة التي تستنير بها حياتهم علىٰ جميع الأصعدة، سواء أكانت اجتماعية أم أخلاقية أم روحية.

٥/ الاكتفاء بأقوال السابقين وترك الاجتهاد:

من المعوقات الكبرىٰ للاهتداء بالقرآن أن يكتفي الناس بتكرار فهم السابقين دون اجتهاد وتدبر يوصل لهدايات جديدة مع عدم النظر في كيفية تنزيل الهدايات علىٰ واقعهم الذي يعيشون فيهم.

قال ابن عاشور: «إنَّ القرآن أنزله الله تعالىٰ كتابًا لصلاح أمر الناس كافَّة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النَّحل: ٨٩]، فكان المقصد الأعلىٰ منه: صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية. فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد؛ لأنَّ الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر.

وأمَّا الصلاح الجماعي فيحصل أوَّلًا من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد علىٰ ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض علىٰ وجهٍ يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوىٰ النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويُعبَّر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية.

وأمَّا الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك؛ إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض علىٰ وجهٍ يحفظ مصالح الجميع، ورَعْيُ المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمىٰ هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الرُّوم : ٤٢] ، مما يشير إلىٰ أهمية التأمل والتجديد في فهم سنن القرآن.

٦/ الغزو الفكري والتأثيرات الخارجية:

مرَّت الأمَّة الإسلامية بفترات تعرَّضت في أثنائها لغزوات فكرية وثقافية أدَّت إلىٰ تغيير جذري في كيفية تعامل المسلمين مع القرآن الكريم. فقد غزا الفكر الغربي والفلسفات المادية الكثير من العقول، ممَّا جعل بعض المسلمين يبتعدون عن الاستفادة الكاملة من القرآن كمرجع شامل في بناء الحضارة والعلم والتنمية. وبدلاً من النظر إلىٰ القرآن كمنهج حياتي متكامل، بدأ البعض يعتمدون علىٰ الفلسفات المستوردة في تفسير حياتهم ومعالجة قضاياهم، ممَّا أدَّىٰ إلىٰ تراجع فهمهم للقرآن وتهميشه كمصدر رئيس للهداية.

القرآن الكريم، الذي جاء ليكون مرشدًا لكل جوانب الحياة، من العقيدة إلىٰ الأخلاق والسياسة والاقتصاد، أصبح في بعض الأحيان يُقتصر علىٰ كونه

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٨).

نصًّا دينيًّا يُقرأ في العبادات فقط، وفي الحقيقة يحتوي علىٰ مناهج شاملة لبناء الإنسان والمجتمع. ومن خلال التمسك بتوجيهات القرآن يمكن بناء مجتمع متماسك، عادل، ومزدهر، بعيدًا عن التأثر بالمفاهيم المادية التي قد تُبعِد الأمَّة عن هويتها الحقيقية.

إنَّ إعادة فهم القرآن الكريم بعمق، بعيدًا عن التأثيرات الفكرية الخارجية، يُمكن أن يعيد للأمَّة الإسلامية قوَّتها ويضعها علىٰ الطريق الصحيح لبناء حضارة مستدامة، تُحقق توازنًا بين الروحانية والواقع المعاصر.

٧/ إهمال تطبيق هدايات القرآن في مواجهة تحديات العصر:

من أبرز الأسباب التي تحول دون الاستفادة الكاملة من هداية القرآن الكريم هو إهمال تطبيق تعاليمه ومبادئه في مواجهة التحديات المعاصرة التي تعصف بالأمة الإسلامية، سواء في الجوانب الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو السياسية. فعلىٰ الرغم من أنَّ القرآن يتضمن حلولاً شاملة وراسخة لعديد من قضايا الحياة اليومية، فإنَّ غياب الربط بين هذه المبادئ والواقع المعاصر يؤدي إلىٰ إفراغ القرآن من تأثيره الفعلي، ليصبح مجرد نصوص تُقرأ دون أن يكون لها أثرها في معالجة المشكلات المستعصية التي نواجهها اليوم.

إنَّ تطبيق القرآن في قضايا العصر يتطلب اجتهادًا مستمرًا لفهم كيفية استفادة الأمَّة من مبادئه في معالجة التحديات التي تتغير مع الزمن. فعلىٰ سبيل المثال، يمكن الاستفادة من قيم العدالة الاجتماعية في مواجهة الفقر والبطالة، أو من مبادئ الاقتصاد الإسلامي لمواجهة الأزمات المالية، أو من روح التعاون والتضامن لتسوية النزاعات السياسية والاجتماعية.

وفي غياب هذا التطبيق العملي، يظل القرآن كتابًا يُحتفظ به في رفوف المكتبات، ويبقىٰ السؤال الأهم: كيف يمكن أن يتحقق التغيير إذا لم يُترجم العلم القرآني إلىٰ ممارسات فعلية تسهم في حل مشكلات العصر؟

الخلاصة:

إنَّ عدم الاهتداء بالقرآن في شتىٰ المجالات ليس بسبب قصور في هدايته، بل بسبب سوء تعامل المسلمين معه، سواء بالاكتفاء بتلاوته دون تدبر، أو حصر هدايته في مجالات محددة، أو التقليد الأعمىٰ دون اجتهاد. لذلك، يجب أن نعيد النظر في كيفية تعاملنا مع كتاب الله، ونتعمَّق في فهمه، حتىٰ يكون النور الذي يضيء لنا طريق الحياة في جميع مجالاتها.

المبحث الثالث

مراتب الناس في الاهتداء بالهدى ومستوياته

أولاً: أدلة تفاوت مراتب الناس في الاهتداء بالهدى:

يتفاوت الناس في مدىٰ انتفاعهم بالقرآن الكريم والسنة النبوية علمًا وعملاً، وليس الجميع علىٰ درجة واحدة في استيعاب هداياتهما. وقد بينت النصوص الشرعية هذا التفاوت، وأوضحت أنَّ لكل فرد نصيبه من الفهم بحسب قابليته، واستعداده، وسعيه في طلب الهداية. وفيما يلي أبرز الأدلة علىٰ هذا التفاوت:

١/ الدليل من القرآن الكريم :قال تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرَّعْد : ١٧].

في هذا المثل، يُشبِّه الله تعالىٰ الوحي النازل من السماء بالغيث الذي يُحيي الأرض، ويُشبِّه القلوب بالأودية التي تستوعب هذا الماء كلٌّ بحسب قدرته. فمن القلوب ما يحمل علمًا غزيرًا كالوادي الكبير، ومنها ما لا يسع إلا القليل، ومنها ما لا يحتفظ بشيء، تمامًا كما يحمل السيل الماء مع الزبد، فيذهب الزبد هباءً ويبقىٰ الماء النافع في الأرض.

قال ابن القيم:«فهذا هو المثل المائي، شبَّه الوحي الذي أنزله بحياة القلوب بالماء الذي أنزله من السماء، وشبَّه القلوب الحاملة له بالأودية

الحاملة للسيل، فقلب كبير يسع علمًا عظيمًا كوادٍ كبير يسع ماء كثيرًا، وقلب صغير كوادٍ صغير يسع علمًا قليلاً، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها، كما سالت الأودية بقدرها»[1].

وقال الشنقيطي: «والناس في فهمه مراتب ودرجات وأنَّ منهم من يفهم في الآية حكمًا أو حكمين. ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك. ومنهم من يقتصر في الفهم علىٰ مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه، وإشارته، وتنبيهه، واعتباره. وأخص من هذا وألطف ضمه إلىٰ نص آخر متعلق به، فيفهم من اقترانه به قدرًا زائدًا علىٰ ذلك اللفظ بمفرده»[2].

٢/ الدليل من السنة: وقد أكد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفاوت القلوب في الانتفاع به، كما جاء عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طائفة أخرىٰ، إِنَّما قيعان لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) [3].

---

(١) الوابل الصيب (ص:٥٧).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/ ٢٩٠).

(٣) الوابل الصيب (ص:٥٧).

فقد بيَّن هذا الحديث أنَّ الناس في تعاملهم مع الوحي على ثلاث مراتب:

العالم العامل المعلِّم غيره: وهو مثل الأرض الخصبة التي تمتص الماء فتنبت الزرع، فينتفع بها صاحبها وينتفع بها الناس، وهو من يجمع بين العلم والعمل وتعليم غيره.

حامل العلم غير العامل به: فهو جامع للعلم، مستغرق زمانه فيه، غير أنَّه لَمْ يعمل بعلمه، فهو جمع العلم، وأدَّاه لغيره، فهو بمنزلة الأرض التي تحتفظ بالماء لكنَّها لا تُنبت، فهو يحفظ العلم وينقله للناس لكنَّه لا يعمل به بنفسه.

المعرض عن العلم غير المنتفع به ولا المبلِّغ له: وهو مثل الأرض القاحلة التي لا تحفظ الماء ولا تُنبت زرعًا، فهو من لا يستفيد من العلم ولا ينقله لغيره.

قال النووي: «من الناس لهم قلوب حافظة لكن ليست لهم أفهام ثاقبة ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به فهم يحفظونه حتىٰ يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم أهل للنفع والانتفاع فيأخذه منهم فينتفع به فهؤلاء نفعوا بما بلغهم»[1].

ومنهم: من يسمع العلم فلا يحفظه، ولا يعمل به، ولا ينقله لغيره، فهو بمنزلة الأرض السَّبْخَة، أو الملساء التي لا تقبل الماء، أو تفسده علىٰ غيرها، فمعنىٰ «من لم يرفع بذلك رأسـًا» أي أعرض عن العلم، فلم ينتفع به، ولم ينفع به، ومعنىٰ «ولم يقبل هدىٰ الله الذي جئت به» أي بلغه وكفر به»[2].

---

(١) شرح النووي علىٰ مسلم (١٥/ ٤٨).

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر (١/ ١٧٧)، والبحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج (٣٧/ ٢٦٧)، وتطريز رياض الصالحين (ص١٣١).

قال الطيبي:«بقي من أقسام الناس قسمان، أحدهما: الذي انتفع بالعلم في نفسه ولم يعلمه غيره، والثاني: من لم ينتفع به في نفسه وعلمه غيره»[١].

وقال ابن حجر:«والأول داخل في الأول؛ لأنَّ النفع حصل في الجملة وإن تفاوتت مراتبه وكذلك ما تنبته الأرض فمنه ما ينتفع الناس به ومنه ما يصير هشيمًا، وأمَّا الثاني: فإن كان عمل الفرائض وأهمل النوافل فقد دخل في الثاني كما قررناه، وإن ترك الفرائض أيضا فهو فاسق لا يجوز الأخذ عنه، ولعله يدخل في عموم من لم يرفع بذلك رأسًا، والله أعلم»[٢].

كذلك فتباين القلوب في فهم الوحي واستيعابه وحمله، قرَّره العلماء من عهد الصحابة إلىٰ يومنا هذا، فقد جاء عن الشَّعْبِيِّ قَالَ:«سَمِعْتُ أَبَا جُحَيْفَةَ قَالَ: سَأَلْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِمَّا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ؟ -وَقَالَ مَرَّةً: مَا لَيْسَ عِنْدَ النَّاسِ- فَقَالَ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا عِنْدَنَا إِلَّا مَا فِي الْقُرْآنِ؛ إِلَّا فَهْمًا يُعْطَىٰ رَجُلٌ فِي كِتَابِهِ...»[٣].

قال البغوي:«وقد يفتح الله علىٰ المتدبِّر والمتفكِّر في التأويل والمعاني ما لا يفتح علىٰ غيره، وفوق كل ذي علم عليم »[٤].

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٢/ ٦١٨).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١/ ١٧٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الديات، باب: العاقلة، ح رقم ٦٩٠٣.

(٤) معالم التنزيل (١/ ٦٩).

ثانياً: استمرار الاجتهاد في فهم القرآن الكريم عند العلماء:

لم يتوقَّف العلماء خلال القرون عن التفكر والتدبر في معاني القرآن الكريم، بل ظلوا يستنبطون منه فوائد وهدايات جديدة، ولم يكتف الأواخر بما قاله الأوائل، بل شادوا علىٰ بنيانهم وزادوا علىٰ علومه ومعارفهم، فالقرآن بحرٌ لا تنقضي عجائبه، كلما تعمق الإنسان في تدبره، انكشفت له كنوز جديدة من المعاني والدلالات.

قال سفيان بن عيينة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إِبْرَاهِيم : ٤٢] ، هي تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، فقيل له: من قال هذا؟ فغضب، وقال: إنَّما قاله من علمه يريد نفسه »[1]، مشيرًا بذلك إلىٰ أنَّ الفهم العميق للقرآن ليس محصورًا بقول واحد، بل هو اجتهاد مستمر وفق العلم والتدبر.

والعلماء كثيرًا ما يؤكدون أنَّ القرآن يشتمل علىٰ معارف لا يحيط بها أحد من الخلق، بل كل جيل يستنبط منه مسائل لم يدركها من سبقه.

قال أبو بكر ابن العربي:«وأنزل عليه القرآن معجزًا للخلق، فذكر قصة نوح في خمس وعشرين آية، أملينا عليكم فيها خمسمائة مسألة، وذكر قصة موسىٰ في تسعة آية، أملينا عليكم فيها ثمانمائة مسألة، وأفرد ليوسف سورة، أملينا عليكم فيها ألف مسألة. وليس يقدر أحد من الخلق علىٰ أن يجمع في قدر ذلك من الحروف، مقدارها من العلوم»[2].

---

(١) تفسير الكشاف – ومعه الانتصاف ومشاهد الإنصاف والكافي الشاف (٢/ ٥٦٣).

(٢) العواصم من القواصم (ص:٢٣٥).

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ كل آية من القرآن الكريم تحمل دلالات ومعانٍ واسعة، ويمكن استخراج عشرات المسائل التشريعية والعلمية منها.

واجتهد العلماء في استخراج الأحكام من القرآن الكريم عبر العصور، ولم يتوقف الاستنباط عند الأجيال الأولىٰ، بل استمر مع تعاقب الأزمنة، كما أشار ابن عاشور بقوله:«وهل استنباط الأحكام التشريعية من القرآن في خلال القرون الثلاثة الأولىٰ من قرون الإسلام إلا من قبيل التفسير لآيات القرآن بما لم يسبق تفسيرها به قبل ذلك؟

واستشهد بقول الإمام الشافعي عندما بحث عن دليل علىٰ حجية الإجماع حتىٰ وجده في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النِّسَاء : ١١٥] ، حيث قال :«تطلبت دليلا علىٰ حجية الإجماع فظفرت به في قوله تعالىٰ »[1].

وهذا يوضح أنَّ الاجتهاد في فهم القرآن أمرٌ مستمر، ولا يصح القول بأنَّ الأوائل قد استنبطوا كل شيء، بل كما أُمروا بتدبر القرآن للاهتداء به، فالأواخر مأمورون بذلك أيضًا، ومن حقهم أن يستفيدوا من علم السابقين، ويواصلوا البحث عن المزيد من كنوز القرآن الكريم.

ولذلك، نجد أنَّ العلماء في كل عصر يستخرجون هدايات جديدة لم تكن واضحة لأسلافهم، معتمدين علىٰ ما تراكم لديهم من معارف، وقد أكد العلماء أنَّ التفسير ليس محصورًا فيما قاله الأولون، بل يمكن للمتأخرين أن يستخرجوا معانٍ جديدة دون مخالفة لأصول الدين.

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٩).

قال الإمام الرازي: «وقد ثبت في أصول الفقه أنَّ المتقدمين إذا ذكروا وجها في تفسير الآية فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها، ولولا جواز ذلك وإلا لصارت الدقائق التي استنبطها المتأخرون في تفسير كلام الله مردودة باطلة، ومعلوم أنَّ ذلك لا يقوله إلا مقلد خلف»[1].

وقد ظل العلماء خلال العصور يكتشفون المزيد من كنوز القرآن، ويضيفون إلىٰ معارف الأوائل، دون أن يكون ذلك خروجًا عن أصول الفهم الصحيح، وقواعده وضوابطه، بل هو استمرار للتدبر والتفكر في كلام الله الذي أمرا به. فلا يصح الادعاء بأنَّ الاجتهاد في فهم القرآن قد انتهىٰ، بل يبقىٰ التدبر بابًا مفتوحًا لمن أراد الاستزادة من هدايات القرآن، مستعينًا بعلم السلف، مستنيرًا بروح التجديد والبحث العلمي، ليستخرج منه المزيد من الفوائد والمعارف.

ثالثاً: أسباب تفاوت الناس في فهم القرآن الكريم:

يظل التفاوت في فهم القرآن الكريم قائمًا بين الناس، ولن يكون الجميع علىٰ درجة واحدة من الإدراك لهداياته، وذلك لاختلاف القدرات العلمية، وتفاوت مستويات التدبر، وتنوع الاختصاصات والمناهج التي يعتمدها كل فرد في استنباط معانيه؛ ولأنَّ القرآن لا تنقضي عجائبه وأسراره، ولا تنقطع فوائده وحكمه وهداياته، ولا تبلغ عقول البشر غايته، ولا يشبع منه العلماء، فهم مع كثرة بحثهم فيه في كلّ عصر ومصر ما زالوا يحتاجون دائما إلىٰ الزيادة منه، ويرددون قوله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤]، فهو طود شامخ، وكنز زاخر، لجّ عميق.

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٩٠).

وقد أشار الراغب الأصفهاني إلىٰ هذا التفاوت بقوله:«إنَّ القرآن وإن كان في الحقيقة هداية للبرية، فإنَّهم لن يتساووا في معرفته، وإنَّما يحيطون به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم. فالبلغاء تعرف من فصاحته، والفقهاء من أحكامه، والمتكلمون من براهينه العقلية، وأهل الآثار من قصصه ما يجهله غير المختص بفنه، وقد علم أنَّ الإنسان بقدر ما يكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه، وعلىٰ ذلك أخبار النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولهذا قال عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ:«نَضَّرَ الله أمْرءاً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا كَمَا سمَعِهَا حَتَّىٰ يُؤدِّيها إلىٰ مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ»[1]»[2].

والقرآن بحرٌ لا يُدرَك مداه، وكنز لا يحاط بمحتواه، فهو ليس كتابًا جامدًا يقتصر فهمه علىٰ جيل دون آخر، بل هو كتاب معجز تتجدد دلالاته بتجدد الزمان وتطور العلوم، قَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا:«وعلوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له »[3].

وقال سَهْلُ بن عبد الله:«لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنَّه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنَّه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه وإنَّما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله

(١) أخرجه الترمذي في سننه (كتاب العلم، باب ما جاء في الحث علىٰ تبليغ السماع، رقم الحديث ٢٦٥٦)، وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه (رقم ٢٣٢) وأحمد، وصححه الألباني في صحيح الترمذي وصحيح الجامع.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ١٠).

(٣) الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٢١٦).

عليه. وكلام الله غير مخلوق ولا تبلغ إلىٰ نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة. ولمَّا كانت علوم القرآن لا تنحصر ومعانيه لا تستقصىٰ وجبت العناية بالقدر الممكن» [(١)].

وقال الخطيب الإسكافي: «إنَّ كلام الله -جل ذكره وعلا شأنه وأمره- بحر لا تستنفد جواهره، وذو عجائب لا تستدرك بواطنه وظواهره، وذو عمق لا يبلغ آخره، وذو طول وعرض لا يقطعه مزاخره، وهو المغنم الذي من حازه ظفرت يداه، ولم يجزع لفوت ما عداه» [(٢)].

وهذا البحر اللجي لهداياته كلّما تدبرته العقول، واجتهدت النفوس في تلاوته حق التلاوة أخرج لها من درره المكنونة.

قال ابن القيم: «الذكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء، والنزل الكريم الذي لا يشبع منه العلماء، لا تفنىٰ عجائبه، ولا تقلع سحائبه، ولا تنقضي آياته، ولا تختلف دلالاته، كلما ازدادت البصائر فيه تأملًا وتفكيرًا، زادها هداية وتبصيرًا، وكلَّما بجست معينه فجر لها ينابيع الحكمة تفجيرًا، فهو نور البصائر من عماها، وشفاء الصدور من أدوائها وجواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح، حيَّ علىٰ الفلاح» [(٣)].

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٩).

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل (١/ ٥).

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٢٧).

ولمَّا كان عطاء القرآن لا ينقضي، وعلومه لا تنتهي، وضع العلماء أصولًا وقواعد وضوابط للفهم، وترك بعد ذلك التدبر والاستنباط مفتوحًا لاجتهاد العلماء، كلٌّ يأخذ منه بما فتح له بحسب اتساع مداركه وقدراته، وتمكنه من علومه وأدواته، وشدة جهده واجتهاده، ووضوح أهدافه من التدبر، وتوفيق الله تعالىٰ له، ومن هنا اختلفت مخرجات جهود هم من عالم لآخر، ومن زمان لزمان آخر بحسب ما توفر لك واحد منهم من مقومات علمية وقدرات وخبرات عملية، وصدق وعزيمة وصبر واجتهاد، وما زالت جهود العلماء في استخراج هداياته يكمل بعضها بعضًا، ولا يغني جهد عن جهد في بيان هديه، أو في كيفية صياغته، أو في طرق تقديمه وعرضه وبيانه للناس غالبًا، وقد تطور مفهوم الاهتداء بالقرآن في جوانب العلم والمعرفة بحسب تطور الزمان واختلاف حاجة الإنسان من الهدىٰ إما في المحتوىٰ، أو في الأساليب والوسائل، وهو أمر متروك لاجتهاد العلماء واستنباطهم.

فالاهتداء به في الجملة ميسَّر لغالب الناس، والوصول إلىٰ دقائق الاهتداء في الأحكام وغيرها هو خاص بالعلماء أهل القدرة علىٰ الاستنباط، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النِّسَاء : ٨٣] .

فالتفاوت في فهم القرآن سنة كونية، وهو أمرٌ مستمرٌّ لأسبابٍ متعددة، وهذا التفاوت لا يعني القصور، بل هو جزءٌ من عظمة القرآن، حيث يظل بحرًا متجددًا، يستخرج منه العلماء في كل عصر ما يناسب زمانهم، ويضيفون إلىٰ معارف الأوائل دون أن يتوقف الاجتهاد.

رابعاً: تفاصيل مراتب الناس في الاهتداء بالقرآن الكريم:

الناس في مراتب الاهتداء بالقرآن الكريم ينقسمون إلىٰ قسمين:

القسم الأول: مراتبهم في هداية العلم.

والقسم الثاني: مراتبهم في هداية العمل.

وتحت كل قسم عدد من المستويات لكل فريق منهم، إليك بيان ذلك.

القسم الأول: مراتب الناس في الاهتداء العلمي:

يختلف الناس في درجاتهم ومنازلهم في استيعاب الهدايات العلمية للقرآن الكريم، وقد قسم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الناس من حيث الاهتداء العلمي بالقرآن الكريم إلىٰ ثلاث مراتب رئيسة، حيث قال: «إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا لِلْخَيْرِ، وَالنَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَىٰ سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رِعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَؤوا إِلَىٰ رُكْنٍ وَثِيقٍ»[1].

وقد وصف الخطيب البغدادي هذا التقسيم بأنَّه من أبلغ ما قيل في تصنيف الناس، حيث لا يخرج الإنسان عن إحدىٰ هذه المراتب الثلاث، إما أن يكون عالمًا، أو متعلمًا ساعيًا في طلب العلم، أو مغفلاً معرضًا عن العلم وهداياته. فقال: «هذا الحديث من أحسن الأحاديث معنىٰ، وأشرفها لفظًا، وتقسيم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الناس في أوله تقسيم في غاية الصحة، ونهاية السداد؛ لأنَّ الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام الثلاثة التي ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العلل، إما أن يكون عالمًا أو متعلمًا أو مغفلًا للعلم وطلبه، ليس بعالم ولا طالب له»[2].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٢٧).

(٢) الفقيه والمتفقه (١/ ١٨٤).

ومن خلال هذا التقسيم، تتحدد مراتب الناس في الاهتداء العلمي بالقرآن الكريم على النحو التالي:

المنزلة الأولى: العالم الرباني:

وهي أعلى المراتب، وتخص العلماء الذين يجمعون بين العلم والتعليم والعمل، فهم الذين يحملون نور القرآن، ويهدون به الناس، ويقومون بتربية الأمة علميًّا وعمليًّا. وقد أمر الله تعالى بهذه المرتبة في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴾ [آل عِمۡرَان : ٧٩].

معنى الرباني وصفاته:

اختلف العلماء في تحديد معنى «الربّاني»، لكنَّهم اتفقوا على أنَّه يشمل كل من يجمع بين العلم، والبصيرة، والعمل، والتربية. ومن أبرز التعريفات:

«قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: معناه: فقهاء علماء.

وقال في رواية أخرى عنه: فقهاء معلّمون.

وقيل: الربّانيّ هو الذي يربّي النّاس بصغار العلم وكباره.

وقيل: الربّانيّ: العالم الّذي يعمل بعلمه.

وقيل: الرّبانيّ: العالم بالحلال والحرام، والأمر والنهي.

وقيل: الربّانيّ الذي جمع بين علم البصيرة، والعلم بسياسة الناس»[1].

(١) انظر: جامع البيان (٦/ ٥٤٣)، ومعالم التنزيل للبغوي (٢/ ٦٠)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٤٦٢)، والجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٢٢).

وبالنظر إلىٰ هذه التفسيرات وغيرها، نجد أنَّ هذا الاختلاف اختلاف تنوع، من باب ذكر الشيء ببعض أوصافه، يجمع بين الفهم العميق للكتاب والسنة، والقدرة علىٰ تربية الناس وتعليمهم، والعمل بما يعلم، فهو قدوة للناس في قوله وعمله.

صفات العالم الرباني كما دل عليها القرآن والسنة:

المتأمل في دلالة ألفاظ الآية يجد أنَّ من أبرز صفاته ما يلي:

العلم الراسخ بالله وبشرعه: فهو يعلم التوحيد وأسماء الله وصفاته، ويحيط بأحكام الحلال والحرام، والأمر والنهي، فهو منسوب إلىٰ الربّ. والألف، والنون زيدتا للمبالغة في النسب، كما تقول: رجل شعراني، ولحياني، ورقباني، إذا خص بكثرة الشعر، وطول اللحية، وغلظ الرقبة، وهو قول سيبويه، وأبي بكر بن الأنباري وغيرهما من النحويين[1].

فالعالم الرباني هو عارف بربه؛ بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، معظمًا ومحبًّا له، عالم بشرعه من الحلال والحرام والأمر والنّهي، ويعرف وعده ووعيده، وغيره، عامل بعلمه يبتغي بذلك وجه الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩].

(١) تهذيب اللغة (١٥/ ١٢٩).

قال القرطبي:«الرباني العالم بدين الرب الذي يعمل بعلمه، لأنَّه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم»، قال ابن جبير: حكماء أتقياء»[١].

قال الخطيب البغدادي قرأت علىٰ الحسن بن أبي بكر، عن أبي عمر الزاهد، محمد بن عبد الواحد قال: سألت ثعلبًا عن هذا الحرف، (رباني)، فقال: سألت ابن الأعرابي، فقال:«إذا كان الرجل عالمًا، عاملًا، معلمًا، قيل له: هذا رباني، فإن خرم عن خصلة منها، لم يقل له رباني»[٢].

ثانيًا: أن يكون مربيًا لنفسه ولغيره بالعلم: فهو ليس مجرد ناقلٍ للمعرفة، بل يطبقها في حياته، ويسعىٰ إلىٰ نشرها وتعليمها للناس، فهو منسوب إلىٰ ربّان، والرّبّان هو معلم الخير، ومن يسوس النّاس، ويعرّفهم أمر دينهم، فالألف والنون دالان علىٰ زيادة في الوصف.

قال المبرد:«هم أرباب العلم سُمُّوا به لأنَّهم يُرَبُّون العلم، ويقومون به ويُرَبُّون المتعلِّمين بصغار العلوم قبل كبارها». وكل من قام بإصلاح الشيء وإتمامه فقد ربَّه يربِّه، واحدها: ربَّان كما قالوا: ريَّان وعطشان وشبعان وغرثان، ثم ضمت إليه ياء النسبة، كما يقال: الحياني ورقباني، وحُكي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: هو الذي يربي علمه»[٣].

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٢٢).

(٢) الفقيه والمتفقه (١/ ١٨٦).

(٣) معالم التنزيل (١/ ٤٦٣).

قال ابن جرير: «وأولىٰ الأقوال عندي بالصواب في «الرَّبَّانيين» أنهم جمع «ربَّاني»، وأنَّ «الرَّبَّاني» المنسوب إلىٰ «الرَّبَّان»، الذي يَرُبُّ الناسَ، وهو الذي يُصْلح أمورهم، و«يَرُبُّها»، ويقوم بها... فالربانيون إذًا، هم عمادُ الناس في الفقه، ووالعلم، وأمورالدين والدنيا.

فهو يربي العلم، يربي نفسه بالعلم فيزكيها، فإنّ العلم معرفة الحق واتباعه بالعمل، فيعمل بعلمه ويخشىٰ الله ويتقيه، ويربي غيره به فيعلمهم صغار العلم قبل كباره، ويربيهم بالعمل شيئًا فشيئًا، وهذا ما دلَّ عليه تنوع القراءات في الآية، «قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بضم «التاء»، وتشديد «اللام» من التعليم، بمعنىٰ: بتعليمكم الناسَ الكتابَ ودراستكم إياه» وقرأ الآخرون (بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) بفتح «التاء» وتخفيف «اللام»، من العلم يعني: بعلمكم الكتابَ ودراستكم إيَّاه وقراءتكم، فهم علماء بالكتاب، معلمين لغيرهم فلا يعلِّمون إلا بعد علمهم بما يعلِّمون، فالوصف بالعلم لا يلزم منه التعليم، فتنوع القراءة كان مكملاً لوصفهم بالعلم والتعليم لغيرهم. قال ابن عيينة: ما علَّموه حتىٰ علِموه! فهم أهل علم وصلاح وإصلاح، فهم سادة الناس وقادتهم في العلم والعمل في أمر دينهم ودنياهم[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي تدرسون القرآن، قال البقاعي: «فإنَّ فائدة الدرس العلم، وفائدة العلم العمل، ومنه الحث علىٰ الخير والمراقبة للخالق»[2]، وبسبب كونكم دارسين له، فالعالم الرباني: هو الذي عَلِم وعمل ودعا وعَلَّم.

---

(١) انظر: جامع البيان (٦/ ٥٤٣، ٥٤٤)، ومعالم التنزيل (١/ ٤٦٣).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤/ ٤٦٨).

الحكمة في التربية والتعليم: فهو يدرك أنَّ التربية تحتاج إلىٰ تدرج، ولذلك يبدأ بتعليم الأساسيات قبل الفروع، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (الرَّبَّاني هو الذي يربِّي الناس بصغار العلم قبل كباره) [(١)].

وقال مجاهد:«وهم فوق الأحبار»، لأنَّ «الأحبارَ» هم العلماء، و «الرَّبّانِي» الجامعُ إلىٰ العلم والفقه، البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم»[(٢)].

قال الخطيب البغدادي:«فالعالم الرَّبَّاني: هو الذي لا زيادة علىٰ فضله لفاضل ، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد ، وقد دخل في الوصف له بأنَّه ربَّاني وصفه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله ، ويمنع وصفه بما خالفها ، ومعنىٰ الرَّبَّاني في اللغة: الرفيع الدرجة في العلم ، العالي المنزلة فيه، وعلىٰ ذلك حملوا قول الله تعالىٰ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المَائِدَة:٦٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ٧٩]» [(٣)].

فالأمَّة لا تستغني من عالم ربَّاني، يأخذ الناس شيئًا فشيئًا علمًا وعملاً، والعلم قبل أن يكون معرفة هو روح وقيم يتحلَّىٰ به الفرد والمجتمع، وغياب العالم الرباني ينشئ في الأمَّة جيلًا بغير أخلاق وقيم ومثل.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقا (كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل)، وهو أثر صحيح موقوف علىٰ ابن عباس.

(٢) جامع البيان (٦/ ٥٤٣).

(٣) الفقيه والمتفقه (١/ ١٨٤).

كما أنَّ غياب العالم الرباني الذي له القدرة في تربية الناس شيئًا فشيئًا علىٰ نحوٍ متدرجٍ بحسب الحاجة وقدرة المتلقي؛ يؤدي إلىٰ اضطراب وصورة مشينة ومنحرفة في طلب العلم وطلابه، فتجدهم يخوضون في المتشابهات قبل المحكمات، والظنيات قبل القطعيات، والفروع قبل الأصول؛ لأنَّ العالم الرباني تجده بصيرًا بمنهج الأوليات ويبدأ دائمًا بالأهم، كما جاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إنَّما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصَّل فيها ذكر الجنة والنار، حتىٰ إذا ثاب الناس إلىٰ الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر؛ لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا؛ لقالوا: لا ندع الزنا أبداً...»[1].

وقد جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذاً إلىٰ اليمن قال: «إنَّك ستأتي قومـًا من أهل الكتاب فادعهم إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله؛ فإن هم أطاعوا ذلك فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمسَ صلواتٍ في كل يومٍ وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلِمهم أن الله قد افترض عليهم صدقةً تُؤخذ من أغنيائهم فتُردُّ علىٰ فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك، فإياك وكرائمَ أموالهم، واتقِ دعوةَ المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب فضائل القرآن، باب تعلُّم القرآن علىٰ عهد النبي ﷺ، رقم الحديث ٤٩٩٣)، وهو أثر صحيح عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم الحديث ١٣٩٥)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب الدعاء إلىٰ الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم الحديث ١٩).

وروىٰ البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب معلقًا قال: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

وجاء عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ»[2]. وهكذا كانت طريقة الربانيين الذين امتدحهم الله فقال: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عِمْرَان : ٧٩].

ففهم القرآن يحتاج إلىٰ علم وخبرة وتوفيق رباني قبل ذلك، فكل ما كان الإنسان «حظه في العلوم أوفر، كان نصيبه من علم القرآن أكثر، ولذلك، إذا ذكر «تعالىٰ» حجة علىٰ ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافتها إلىٰ أولي العقل، ومرة إلىٰ أولي العلم، ومرة إلىٰ السامعين، ومرة إلىٰ المفكرين، ومرة إلىٰ المتذكرين - تنبيهًا «علىٰ» أنَّ بكل قوة من هذه القوىٰ يمكن إدراك حقيقة منها، وذلك نحو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرَّعْد:٤]، وغيرها من الآيات -»[3].

المنزلة الثانية: المتعلم علىٰ سبيل النجاة:

وهم الذين يسعون للعلم بجد وإخلاص، لكنَّهم لم يصلوا إلىٰ درجة العلماء، وهم طلاب المعرفة الذين يسلكون طريق العلم من أجل النجاة، ويطلبون الهداية من القرآن، ويجتهدون في التعلم والعمل بما يستطيعون.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا، رقم الحديث ١٢٧)، وهو أثر صحيح موقوف علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (باب النهي عن الحديث بكل ما سُمع، رقم الأثر ١٤).

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٢٧).

فتعلم الوحي - الكتاب والسنة - هما السبيل إلىٰ الهدىٰ والبصيرة والشفاء والرحمة والنجاة والفوز والصلاح والفلاح، ومن هنا كان طلبه مسهلا لبلوغ الجنة، لأنَّ الجنة تحتاج إلىٰ علم نافع يهتدي به الإنسان، وإلىٰ عمل صالح يترجم العلم سلوكًا في الحياة، ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لهُ به طَرِيقًا إلىٰ الجَنَّةِ»(١).

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيان فضله: «وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم بما يعمل» (٢).

وقد كثر كلام العلماء عن فضل طلب العلم، ومن أجلّ ما قيل في ذلك ما نسب لمعَاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: «تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ ، فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُدَارَسَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ، لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْأَنِيسُ فِي الْوَحْشَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الْأَخِلَّاءِ، وَالْقُرْبُ عِنْدَ الْغُرَبَاءِ، يَرْفَعُ اللهُ بِهِ أَقْوَامًا، فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَلْقِ قَادَةً يُقْتَدَىٰ بِهِمْ، وَأَئِمَّةً فِي الْخَلْقِ تُقْتَصُّ آثَارُهُمْ، وَيُنْتَهَىٰ إِلَىٰ رَأْيِهِمْ، وَتَرْغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي حُبِّهِمْ، بِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ ، حَتَّىٰ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ لَهُمْ مُسْتَغْفِرٌ، حَتَّىٰ حِيتَانُ الْبَحْرِ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الذِّكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن وعلىٰ الذكر، رقم الحديث ٢٦٩٩).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، رقم الحديث ٣٦٤١)، والترمذي في سننه (كتاب العلم، باب فضل الفقه علىٰ العبادة، رقم الحديث ٢٦٨٢)، وقال الترمذي: حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

وَهَوَامُّهُ، وَسِبَاعُ الْبَرِّ وَأَنْعَامُهُ، وَالسَّمَاءُ وَنُجُومُهَا، لِأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْعَمَىٰ، وَنُورُ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ، وَقُوَّةُ الْأَبْدَانِ مِنَ الضَّعْفِ، يَبْلُغُ بِهِ الْعَبْدُ مَنَازِلَ الْأَحْرَارِ، وَمُجَالَسَةَ الْمُلُوكِ، وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالْفِكْرُ بِهِ يُعْدَلُ بِالصِّيَامِ، وَمُدَارَسَتُهُ بِالْقِيَامِ، بِهِ يُطَاعُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَبِهِ يُعْبَدُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَبِهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ ، وَبِهِ يُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ ، إِمَامُ الْعَمَلِ، وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ ، يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءُ ، وَيُحْرَمُهُ الْأَشْقِيَاءُ»[1] .

شروط نجاة المتعلم:

والمتعلم ليكون علىٰ سبيل نجاة، يجب أن تتوفر فيه شروط أساسية، منها:

إخلاص النية لله: فلا بدَّ أن يبتغي بتعلمه وجه الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يطلب العلم للرياء أو المنافع الدنيوية، لأنَّ الأعمال بالنيات، ولما ورد في الحديث عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَن طَلَبَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَىٰ بِهِ وَجْهُ اللهِ، لا يَطْلُبُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَومَ القِيَامَةِ»[2].

تعلم الكتاب والسنة: فأعظم العلوم هو علم القرآن والسنة، كما قال بعضهم:

العلمُ قالَ اللهُ قالَ رسولُهُ ❊❊❊ قال الصَّحابةُ ليسَ بالتَّمويهِ

ما العلمُ نَصْبَك للخلافِ سفاهةً ❊❊❊ بينَ الرَّسولِ وبين رأيِ فقيهِ »[3].

---

(١) هذا الأثر رواه ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله (رقم ٢٦٨)، ورواه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء (١/ ٢٣٩) وهو ضعيف لكن يستأنس به.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله، رقم الحديث ٣٦٦٤)، وابن ماجه في سننه (كتاب الزهد، باب ما جاء في طلب العلم لغير الله، رقم الحديث ٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٣) الفوائد لابن القيم (ص: ١٥٤).

الصبر والاجتهاد في طلب العلم: فالعلم لا يُنال براحة الجسد، فطلب العلم مراحل والدرجات فيه متفاوتة، وعلىٰ حسب اليقين والصبر تكون الثمرة والفائدة المرجوة، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السَّجْدَة : ٢٤].

المنزلة الثالثة: منزلة العوام (الهمج الرعاع):

وهذه أدنىٰ المراتب، وهم الذين لا يهتمون بالعلم، ولا يسعون لطلبه، بل يعيشون في جهلٍ وضلال، متأثرين بأي فكر يسمعونه دون تمييز بين الحق والباطل، وهم الذين سمَّاهم علي بن أبي طالب (الهمج الرعاع)، الذين تميل بهم الأهواء والشهوات كما تميل الريح بالغصن الرطيب ، وذلك لأنَّهم:«لم يستضيئوا بنور العلم» الذي به يميّز الإنسان بين الهدىٰ والضلال، والخير والشر، والنافع والضار،«ولم يلجؤوا إلىٰ ركن وثيق» أي: إلىٰ عالم يهتدون بعلمه، بل ظلوا في تيه بلا بصيرة وبينة من أمرهم، يتخبطون في ظلمات الجهل والهوىٰ، وطريقهم طريق هلاك.

والمؤسف حقًّا في هذا الزمان زهد غالب الناس في تعلم علوم الكتاب والسنة، واكتفوا من الهدىٰ بالمعلومات العامة التي يسمعونها في خطب الجمعة، وبعض المواعظ والدروس العامة، فصار حظهم من الهدىٰ هي تلك العموميات التي أخذوها، ومنهم من يجهل حتىٰ تلك العموميات فصار في الدرك الحضيض من الجهل؛ وقد حذَّر العلماء من هذه المنزلة، فقالوا:«كن عالمًا أو متعلمًا ولا تكن الثالث فتهلك».

فالخلاصة:

يتفاوت الناس في اهتدائهم بالقرآن الكريم، فمنهم العالم الرباني الذي يجمع بين العلم والعمل والتعليم، ومنهم المتعلم الذي يسير في طريق النجاة، ومنهم الجاهل المعرض عن العلم. وهذا يدعو كل مسلم إلىٰ الحرص علىٰ طلب العلم والاهتداء بالقرآن، حتىٰ يكون من أهل الهداية والفلاح في الدنيا والآخرة.

القسم الثاني: مراتب الناس في الاهتداء العملي:

هداية العمل تتجلىٰ في انشراح الصدر للحق والهدىٰ، ثم التوفيق للاهتداء والعمل به، والثبات عليه، والسعي المستمر للزيادة منه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأَنْعَام : ١٢٥].

وهذه الهداية العملية تختلف عن هداية العلم، إذ ليس بالضرورة أن يكون كل من عرف الحق موفَّقًا للعمل به، فقد يكون هناك أسباب وموانع أخرىٰ تحرم العبد من التوفيق والإعانة الربانية للعمل، كما قال ابن القيم في بيان عدم تلازمهما: «وهذه الهداية - يقصد هداية العلم- لا تستلزم حصول التوفيق واتِّباع الحق، وإن كانت شرطًا فيه أو جزء سبب، وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبَّب؛ بل قد يتخلف عنه المقتضي إما لعدم كمال السبب، أو لوجود مانع»[1].

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (١/ ٢٦٦).

وقد وضَّح القرآن الكريم أنَّ بعض الناس يُهدون إلىٰ الحق علمًا، ولكنهم لا يُوفَّقون إلىٰ العمل به، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فُصِّلَت : ١٧]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التَّوْبَة : ١١٥]،«فهداهم هدىٰ البيان والدلالة فلم يهتدوا، فأضلهم عقوبة لهم علىٰ ترك الاهتداء أوَّلًا بعد أن عرفوا الهدىٰ فأعرضوا عنه، فأعماهم عنه بعد أن أراهموه»[1].

مراتب المؤمنين في وراثة الهداية والكتاب المجيد:

يقسم القرآن الكريم المؤمنين، الذين اصطفاهم الله تعالىٰ لحمل الهداية والكتاب، إلىٰ ثلاث مراتب ودرجات، يتفاوتون فيما بينهم داخل كل مرتبة تفاوتًا عظيمًا، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فَاطِر : ٣٢ - ٣٣].

وقد اتَّفق المفسرون علىٰ أنَّ المقصود بالكتاب هنا هو القرآن الكريم، كما دلَّ علىٰ ذلك السياق في الآيات السابقة واللاحقة، ما قبله وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [فَاطِر : ٣١] ، وما بعده قوله تعالىٰ في شأن هؤلاء الورثة جميعًا: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فَاطِر : ٣٣] .

---

(١) المرجع السابق.

قال ابن عطية: «والأصناف الثلاثة هي كلها في أمَّة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... والضمير في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ عائد على الأصناف الثلاثة، قالت عائشة: دخلوا الجنة كلهم، وقال كعب الأحبار: استوت مناكبهم ورب الكعبة وتفاضلوا بأعمالهم»[1].

وقال ابن كثير: «والصحيح أنَّ الأقسام الثلاثة من هذه الأمَّة يدخلون الجنة»[2].

وقال ابن تيمية: «وأمَّة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم الذين أورثوا الكتاب بعد الأمم المتقدمة، وليس ذلك مختصًّا بحفَّاظ القرآن؛ بل كل من آمن بالقرآن فهو من هؤلاء، وقسمهم إلى ظالم لنفسه ومقتصد وسابق؛ بخلاف الآيات التي في الواقعة والمطففين والانفطار فإنَّه دخل فيها جميع الأمم المتقدمة كافرهم ومؤمنهم»[3].

وقال المراغي: «إنَّ الأمَّة في العمل أقسام ثلاثة: مقصّر في العمل بالكتاب، مسرف على نفسه. ومتردد بين العمل به ومخالفته. ومتقدم إلى ثواب الله بعمل الخيرات وصالح الأعمال بتيسير الله وتوفيقه. وقال الحسن: الظالم الذي ترجح سيئاته على حسناته، والمقتصد الذي استوت حسناته وسيئاته، والسابق من رجحت حسناته على سيئاته»[4].

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٤٣٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٤٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ١٨٣).

(٤) تفسير المراغي (٢٢/ ١٣٠).

وقال السعدي:«اشترك هؤلاء الثلاثة في أصل الإيمان، وفي اختيار الله لهم من بين الخليقة، وفي أنَّه مَنَّ عليهم بالكتاب، وفي دخول الجنة، وافترقوا في تكميل مراتب الإيمان، وفي مقدار الاصطفاء من الله وميراث الكتاب، وفي منازل الجنة ودرجاتها بحسب أوصافهم»[1].

وقد رتَّبهم الله تعالىٰ في الآية تصاعديًّا، بدءًا من الأقل عملًا، وصولًا إلىٰ الأعلىٰ منزلة، ووصف كل مجموعة بوصف شامل يدلُّ عليها، فوصف أهل المرتبة الأدنىٰ: بالظالم لنفسه، ثم ثنىٰ بالمرتبة الأعلىٰ منها: فوصف بالمقتصد، ثم ختمهم بالمرتبة الثالثة علوًّا: السابق بالخيرات، قال الراغب:«وجعلها علىٰ ثلاثة مراتب حسب ما سنه تعالىٰ في سياسة الأصناف الثلاثة من الناس الخاصة والعامة»[2].

وقد تباينت أقوال العلماء في بيان حقيقة أهل كل رتبة تباينًا عظيمًا، وهي في غالبها من باب اختلاف التنوع، وذكر المسمىٰ ببعض أوصافه، إليك بيان صفة أهل رتبة بما يقرب وصفهم، وهم في كل رتبة كذلك أنواع ودرجات.

المرتبة الأدنىٰ: مرتبة الظالم لنفسه:

وهذه أدنىٰ المراتب، وهو المؤمن الذي يرتكب المعاصي ويسيء إلىٰ نفسه، ومع ذلك فهو ما زال من أهل التوحيد، وليس من الكافرين، وقد بدأ الله بذكره في الآية قيل: علاجًا لتوهم خروجه منهم.

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (١/ ٣٣٠).

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ١٢٠).

قال ابن عاشور: «وقدم في التفصيل ذكر الظالم لنفسه لدفع توهم حرمانه من الجنة وتعجيلًا لمسرته»[1].

وقال الحوفي بدأ بهم: «للإيذان بكثرته، وأنَّ معظم الخلق عليه، ثم أتىٰ بعده بالمقتصدين؛ لأنَّهم قليل بالإضافة إليه، ثم أتىٰ بالسابقين وهو أقل من القليل -أعني من المقتصدين- فقدم الأكثر، وبعده الأوسط، ثم ذكر الأقل آخرًا»[2]. فيكون قدم الأكثر، لأنَّ أكثر الخلق ظالم لنفسه، ثم ثنىٰ بمن يلونهم، فهم بالنسبة للظالم لنفسه أقل، «ثم ثلث بالسابقين وهم أقل من المقتصدين، فلا جرم قدم الأكثر، ثم بعده الأوسط، ثم ذكر الأقل آخرًا »[3].

وقال ابن عطية: «وقدم الشر لأنَّ الابتداء به أكثر، ولأنَّ العرب من عادتها أن تقدم الأقل والأردىٰ»[4]، وقد تكون هنالك أسباب أخرىٰ كبيان سعة فضله ورحمته بعباده بما يرغب المفرط في الإقبال عليه والإنابة إليه، والله أعلم.

والظلم للنفس هنا يكون بمعصية الله تعالىٰ دون الشرك، كشرب الخمر والزنا والسرقة وتضييع بعض الأمانات وغيرها.

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ يقول: فمن هؤلاء الذين اصطفينا من عبادنا من يظلم نفسه بركوبه المآثم واجترامه المعاصي واقترافه

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣١٢).

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/ ١٨٣).

(٣) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٢/ ٤١).

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٨١).

الفواحش»[1]، فهم في أهل التوحيد كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البَقَرَة : ٢٢٩]، قال السُّدِّيُّ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، يعني: أصحاب الكبائر من أهل التوحيد ظلموا أنفسهم بذنوبهم من غير شرك»[2].

والمعصية ظلم للنفس لأنَّها تنقص من قدرها وتجرها للعقوبة الربانية، كما أنَّ الطاعة تزيد من قدر النفس، وتؤهلها لحسن الجزاء، قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشَّمْس : ٧ - ١٠]، فالمعصية ظلم للنفس، قال تعالىٰ حكاية عن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأَعْرَاف : ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّسَاء : ١١٠].

وظلم النفس كما يكون بفعل المعصية يكون بالتفريط في أداء الواجب كالتفريط في أداء الزكاة أو صلاة الجماعة مع وجوبها أو صلة الأرحام، قال ابن كثير في تعريف الظالم لنفسه:«وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات»[3].

---

(١) جامع البيان الطبري (٢٠/ ٤٧١).

(٢) تفسير يحيىٰ بن سلام (٢/ ٧٨٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٤٦).

قال المراغي:«ظالم لنفسه، مفرّط في فعل بعض الواجبات، مرتكب لبعض المحرمات»[1]، وقد زاد السعدي الوصف بيانًا وتوضيحًا من خلال استقراء مفهومه في القرآن فقال:«أمَّا الظالم لنفسه فهو المؤمن الذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيِّئًا، وترك من واجبات الإيمان ما لا يزول معه الإيمان بالكلية، **وهذا القسم ينقسم إلىٰ قسمين:**

أحدهما: من يرد القيامة وقد كفّر عنه السيئات كلها، إمَّا بدعاء، أو شفاعة، أو آثار خيرية ينتفع بها في الدنيا، أو عذب في البرزخ بقدر ذنوبه، ثم رفع عنه العقاب وعمل الثواب عمله، فهذا من أعلىٰ هذا القسم، وهو الظالم لنفسه.

القسم الثاني: من ورد القيامة وعليه سيئات، فهذا توزن حسناته وسيئاته، ثم هم بعد هذا ثلاثة أنواع:

أحدها: من ترجح حسناته علىٰ سيئاته، فهذا لا يدخل النار، بل يدخل الجنة برحمة الله وبحسناته، وهي من رحمة الله.

ثانيها: من تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فهؤلاء هم أصحاب الأعراف، وهي موضع مرتفع بين الجنة والنار يكونون عليه، وفيه ما شاء الله، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة، كما وصف ذلك في القرآن.

ثالثها: من رجحت سيئاته علىٰ حسناته فهذا قد استحق دخول النار، إلا أن يمنع من ذلك مانع، من شفاعة الرسول له، أو شفاعة أحد أقاربه أو

(١) تفسير المراغي (٢٢/ ١٣٠).

معارفه ممَّن يجعل الله لهم في القيامة شفاعة لعلو مقاماتهم على الله وكرامتهم عليه، أو تدركه رحمة الله المحضة بلا واسطة، وإلا فلا بد له من دخول النار يعذب فيها بقدر ذنوبه، ثم مآله إلى الجنة، ولا يبقى في النار أحد في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان، كما تواترت بذلك الأحاديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأجمع عليه سلف الأمَّة وأئمتها »[1].

المرتبة الوسطى: مرتبة المقتصد:

وهو المؤمن الذي يقوم بالفرائض، ويجتنب المحرمات، ولكنه لا يجتهد في نوافل الطاعات، فهو في منزلة وسط بين الظالم لنفسه والسابق بالخيرات، فظاهر أنَّهم قاموا بالواجبات، وتركوا المحرمات في الجملة، وإذا حدث منهم تقصير في الواجبات، أو ارتكاب لمحرم سارعوا إلى التوبة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٣٥ - ١٣٦] .

قال ابن كثير:«وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات»[2].

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (١/ ٣٣٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٤٦).

وقال ابن عاشور فهو: «غير الظالم نفسه كما تقتضيه المقابلة، فهم الذين اتقوا الكبار ولم يحرموا أنفسهم من الخيرات المأمور بها، وقد يلمون باللمم المعفو عنه من الله، ولم يأتوا بمنتهىٰ القربات الرافعة للدرجات»[1].

وقال السعدي: «وأمَّا المقتصد فهو الذي أدَّىٰ الواجبات وترك المحرمات، ولم يكثر من نوافل العبادات، وإذا صدر منه بعض الهفوات بادر إلىٰ التوبة فعاد إلىٰ مرتبته، فهؤلاء أهل اليمين»[2].

وقال المراغي: «مقتصد مؤدّ للواجبات، تارك للمحرمات، تقع منه تارة بعض الهفوات، وحينا يترك بعض المستحسنات»[3].

فصفاته العملية:

١. يؤدِّي الفرائض لكنَّه لا يكثر من النوافل.

٢. يجتنب الكبائر لكنَّه قد يقع في بعض الصغائر.

٣. يعيش حياته ملتزمًا بالدين، لكنَّه لا يسعىٰ للوصول إلىٰ أعلىٰ الدرجات.

المرتبة العليا: مرتبة السابق بالخيرات:

فهي منزلة تدلُّ علىٰ شدة الاجتهاد والعناية لنيل رضا الله تعالىٰ، من خلال الإكثار من الخيرات والبر والطاعات؛ لأنَّ «السابق أصله: الواصل إلىٰ غاية معينة قبل غيره من الماشين إليها»[4]، كما هي تدلُّ بمفهوم المخالفة عدم

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣١٠).

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (١/ ٣٣١).

(٣) تفسير المراغي (٢٢/ ١٣٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣١٣).

توجهه نحو المعاصي والسيئات، كما هي صفة أهل النار، قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المَائِدَة : ٦٢].

والسبق بالخيرات في القرآن يكون بأوجه متنوعة، منه سبق غيرهم إلىٰ الإيمان كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التَّوْبَة : ١٠٠].

أو سبق غيرهم في فعل العمل الصالح، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحَدِيد:١٠].

أو سبق غيرهم بالأعمال الصالحة حيث حققوا فيها الفضل علىٰ غيرهم، قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النِّسَاء : ٩٥].

وقد يكون السبق بكل ما ذكر لغيرهم كما في الآية، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الوَاقِعَة: ١٠ - ١٤].

قال ابن كثير في تعريف السابق بالخيرات:«وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات»[1].

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٤٦).

قال السعدي:«وأمَّا السابق إلىٰ الخيرات فهو الذي كمل مراتب الإسلام، وقام بمرتبة الإحسان، فَعَبَدَ الله كأنَّه يراه، فإن لم يكن يراه فإنَّه يراه، وبذل ما استطاع من النفع لعباد الله، فكان قلبه ملآنًا من محبة الله والنصح لعباد الله، فأدَّىٰ الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات المنقصة لدرجته، فهؤلاء هم صفوة الصفوة، وهم المقربون في جنات النعيم إلىٰ الله، وهم أهل الفردوس الأعلىٰ، فإنَّ الله كما أنَّه رحيم واسع الرحمة فإنَّه حكيم ينزل الأمور منازلها، ويعطي كل أحد بحسب حاله ومقامه، فكما كانوا هم السابقين في الدنيا إلىٰ كل خير كانوا في الآخرة في أعلىٰ المنازل، وكما تخيروا من الأعمال أحسنها جعل الله لهم من الثواب أحسنه؛ ولهذا كانت عين التسنيم أعلىٰ أشربة أهل الجنة، يشرب منها هؤلاء المقربون صرفًا، وتمزج لأصحاب اليمين مزجًا في بقية أشربة الجنة، التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه»[1].

وقال الشيخ العثيمين:«﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ هذا يأتي بالواجبات ويزيد ما شاء الله تعالىٰ من الخيرات، ويأتي بالواجبات أيضا علىٰ الوجه الأكمل الأتم؛ فالصلاة مثلا لا يقتصر فيها علىٰ تسبيحة واحدة، بل يزيد، لا يقتصر علىٰ الفاتحة، بل يزيد، لا يقتصر علىٰ أن يضع يديه مثلا مطلقة هكذا، بل يضعها في موضعها في حال القيام، وفي حال الركوع، وفي حال السجود، وهكذا.

نقول: هذا سابق بالخيرات، يؤدّي الزكاة ويتصدَّق، يحجّ الواجب ويتطوَّع، يصوم رمضان ويتنفَّل بغيره من الصيام، هذا نقول: إنَّه سابق بالخيرات»[2].

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (١/ ٣٣١).

(٢) تفسير العثيمين: فاطر (ص:٢٢٥).

فصفات السابقين بالخيرات:

١. يجمعون بين الفرائض والنوافل، فيؤدون الصلوات ويكثرون من قيام الليل والصدقة وغيرها.

٢. يتسابقون إلىٰ الأعمال الصالحة، فلا يرضون بالقليل من الخير.

٣. يجاهدون أنفسهم لزيادة الإيمان والتقوىٰ.

فهذا الذي ذكرناه هو القول الجامع في تقسيم الناس في مراتب الهداية العملية.

قال ابن تيمية:«فالقول الجامع أنَّ «الظالم لنفسه» هو المفرط بترك مأمور أو فعل محظور، و«المقتصد»: القائم بأداء الواجبات وترك المحرمات و«السابق بالخيرات»: بمنزلة المقرب الذي يتقرب إلىٰ الله بالنوافل بعد الفرائض حتىٰ يحبه الحق»[1] .

وقال السعدي:«لمَّا كانت هذه الأمَّة أكمل الأمم عقولًا وأحسنهم أفكارًا، وأرقّهم قلوبًا، وأزكاهم أنفسًا، اصطفاهم الله تعالىٰ، واصطفىٰ لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن علىٰ سائر الكتب، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [فَاطِر:٣٢]، وهم هذه الأمَّة. ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالمعاصي، [التي] هي دون الكفر. ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ [فَاطِر : ٣٢] ، مقتصر علىٰ ما يجب عليه، تارك للمحرم. ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه. فكلهم اصطفاه الله تعالىٰ،

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٦١).

لوراثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته، حتىٰ الظالم لنفسه، فإنَّ ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثة الكتاب، لأنَّ المراد بوراثة الكتاب، وراثة علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه»[1].

وهذه المنازل الثلاثة ذكرها الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَة : ١٠٠]، وهؤلاء ثلة من الأولين وقليل من الآخرين.

والمنزلة الثانية في قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ١٠٢].

والمنزلة الثالثة جاءت في قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ١٠٦].

قال: الماتريدي:«فالذين اعترفوا بذنوبهم هم المقتصد، والآخرون هم الظالم لنفسه»[2].

وقال النسفي:«﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلىٰ يوم القيامة لأنَّ اصطفاهم علىٰ سائر الأمم وجعلهم أمة وسطًا ليكونوا شهداء علىٰ الناس واختصهم بكرامة الانتماء إلىٰ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٨٩).

(٢) تأويلات أهل السنة (٨/ ٤٨٩).

أفضل رسله ثم رتبهم علىٰ مراتب فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو المرجأ لأمر الله ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ هو الذي خلط عملاً صالحًا وآخر سيِّئًا ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وهذا التأويل يوافق التنزيل فإنَّه تعالىٰ قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَة: ١٠٠]، وقال بعده: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ١٠٢]، وقال بعده: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ١٠٦]»[1]، فهم علىٰ تلك المراتب الثلاث لا يتعدون.

أسباب تفاوت الناس في مراتب الهداية العملية:

وكما أنَّ الناس يتفاوتون في درجات الهداية العلمية، فهم كذلك متفاوتون في مراتب العمل بالهدىٰ، وهذا التفاضل يشمل حتىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - فضل الله تعالىٰ بعضهم علىٰ بعض، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإِسْرَاء: ٥٥].

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٣/ ٨٨).

فإذا كان الأنبياء، مع عصمتهم، متفاوتين في الفضل والهداية، فأولىٰ بالناس أن يدركوا أن الكمال في الهداية لا يكون إلا بالترقي المستمر في طلب العلم والعمل، وأن من وقف تراجع.

وكذلك يتفاوت أهل الإيمان في العمل، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [مُحَمَّد : ١٧] . وهو يدل علىٰ أن الهداية قابلة للزيادة، وأن المؤمن كلما صدق في سعيه واهتدائه، زاده الله نورًا وهدًىٰ.

فالآية تُثبت أن الهداية ليست حالة ثابتة، بل هي مسار تصاعدي يرتقي فيه العبد بحسب إخلاصه وتقواه، مما يُبرز الفارق بين أهل الإيمان في درجات العمل والقرب من الله.

وسبب التفاضل يرجع إلىٰ تفاضلهم في العمل،«فالأعمال تتفاضل، ويلزم من تفاضل العمل تفاضل العامل، وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة أنَّ الأعمال تتفاضل، والعمال يتفاضلون، وأنَّ الإيمان يزيد وكذلك ينقص»[1].

وهذا التفاوت في الهداية العملية يرجع إلىٰ تفاضل الأعمال وأحوال العاملين بها، وفيما يلي بيان لأهم أسباب هذا التفاضل:

١/ تفاوت الأعمال في ذاتها: الأعمال الصالحة تتفاوت من حيث جنسها، ونوعها، وأفرادها، ومن ذلك:

- **جنس العمل:** فأعمال القلوب (كالإخلاص والتوكل) أعظم أجرًا من أعمال الجوارح.

(١) تفسير العثيمين: المائدة (١/ ١٥٠).

• **نوع العمل**: فالصلاة أفضل من غيرها من أركان الإسلام، والجهاد أعظم من أعمال التطوع.

• **أفراد العمل الواحد**: فالفرائض أعظم أجرًا من النوافل، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النِّسَاء : ٩٥].

وقال النَّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث القدسي، قال الله تعالىٰ: «وما تَقرَّب عَبدي بشَيءٍ أحبُّ إِلَيّ ممَّا افترضتُ عليه»[1].

٢/ تفاوت أحوال العاملين: يتفاوت الناس في كيفية أداء العمل، ومن ذلك:

• **الإخلاص لله تعالىٰ وإحسان العمل**: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكَهْف : ٧]، فبيَّن أنَّ التفاضل ليس بكثرة العمل وإنَّما بحسنه وكماله من العامل. فإنَّ أحوال العاملين في أداء الأعمال فيه تفاوت كبير من حيث إحسان الباطن في الإخلاص والصدق والإنابة، ومن حيث إحسان الظاهر وإتمامه في التزام ما ورد في الكتاب والسنة.

• **الخشوع وحضور القلب**: قد يتساوىٰ الناس في العمل كالصلاة، ويتفاوتون في الدرجة والمنزلة بما في قلوبهم من الإيمان والخشوع، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المُؤْمِنُون : ١ - ٢]، فالصلاة الخاشعة أفضل من صلاة بلا خشوع، قال ابن القيم: «تفاضل الأعمال عند الله تعالىٰ بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم الحديث ٦٥٠٢).

(٢) الوابل الصيب (ص:١٥).

- **المسارعة إلىٰ العمل**: فالمبادرون إلىٰ الطاعات أرفع منزلة من المتأخرين، ولهذا عندما سأل ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أي الأعمال - أو العمل - أحب إلىٰ الله؟ فقال: «الصَّلاةُ عَلَىٰ وَقْتِهَا»[1].

٣/ تفاوت الأعمال بحسب الزمان والمكان والحاجة:

تفاضل الزمان: هناك أوقات يكون فيها العمل مضاعف الأجر، كرمضان والعشر الأوائل من ذي الحجة.

تفاضل المكان: الأعمال الصالحة في مكة والمدينة أعظم أجرًا من غيرها، كما أنَّ أداء العبادات في المساجد أفضل من البيوت. كما قد يجتمع فضل الزمان والمكان كاجتماعهما للحاج، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البَقَرَة : ٢٠٣].

تفاضل العمل بحسب الحاجة: أحيانًا يكون العمل أكثر أجرًا بسبب شدّة الحاجة إليه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ [الحَدِيد : ١٠]، فشدة الحاجة إلىٰ الإنفاق لنصرة الدين في تلك الفترة هي التي رفعت درجة العاملين علىٰ غيرهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم الحديث ٥٢٧)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال، رقم الحديث ٨٥).

قال ابن العربي: «إطعام الطعام مع السغب، الذي هو الجوع: أفضل من إطعامه لمجرد الحاجة، أو علىٰ مقتضىٰ الشهوة، وإطعام اليتيم الذي لا كافل له: أفضل من إطعام ذي الأبوين لوجود الكافل وقيام الناصر»[1].

٤/ تفاوت كثرة العمل وإتقانه:

المكثر من الطاعات أعظم أجـرًا من المقل، فالمكثر من ذكر الله تعالىٰ ليـس كالمقل منـه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُـرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُـمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجُمُعَـة : ١٠] ، وقـال تعالـىٰ: ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَـدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِـرَةً وَأَجْرًا﴾ [الأَحْزَاب : ٣٥] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَمَرَّ عَلَىٰ جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ، فَقَالَ: «سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ»[2].

الخلاصة:

كلَّما كان العمل صالحًا، وأُدِّيَ بإتقان وإخلاص علىٰ الوجه المشروع ظاهراً وباطنـًا، ووافق الحاجة إليه، ووقع في زمان أو مكان فاضل؛ عظمت منزلته عند الله، فتفاوت منازلهم ودرجاتهم علىٰ قدر تفاوتهم في الالتزام بالطاعات وترك المعاصي والمنكرات في الجملة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ

(١) أحكام القرآن (٤/ ٣٧٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر، رقم الحديث ٢٦٧٦).

ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التَّوْبَة : ١٠٠ - ١٠٢]، وهكذا، يتفاوت الناس في هدايتهم العملية بحسب أعمالهم، فمنهم السابقون بالخيرات، ومنهم أصحاب اليمين، ومنهم المقصرون الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا .

وقال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأَنْعَام : ١٣٢] . وهذا يدعونا جميعًا إلىٰ الاجتهاد في العمل الصالح، والسعي للارتقاء في مراتب الهداية العملية، لنكون من السابقين إلىٰ رحمة الله.

مراتب الناس في الاهتداء بالهدى

- مراتب الناس في الاهتداء العلمي:
  - المنزلة الأولى: العالم الرباني
  - المنزلة الثانية: المتعلم على سبيل النجاة
  - المنزلة الثالثة: منزلة العوام
- مراتب الناس في الاهتداء العملي
  - المرتبة الأدنى: مرتبة الظالم لنفسه
  - المرتبة الوسطى: مرتبة المقتصد
  - المرتبة العليا: مرتبة السابق بالخيرات

الفصل الرابع

فقه الاستهداء بالهدى وممكِّناته وعلاماته وثماره

وفيه أربعة مباحث:

- **المبحث الأول**: فقه الاستهداء بالهدىٰ.
- **المبحث الثاني**: ممكِّنات الاستهداء بالهدىٰ.
- **المبحث الثالث**: علامات المهتدين بالهدىٰ.
- **المبحث الرابع**: ثمرات الاستهداء بالهدىٰ.

المبحث الأول

فقه الاستهداء بالهدى: أساليبه ومنهجه التطبيقي

يعد موضوع فقه الاستهداء بالهدىٰ من الأبحاث الأساسية التي تعين المسلمين علىٰ استلهام الهداية الإلهية عبر الأزمان والأمكنة، وتحويلها إلىٰ منهج عملي ينعكس علىٰ حياة الفرد والمجتمع. فهو ليس مجرد تأمل نظري في النصوص، بل يمثل مدخلًا لفهم كيفية استخراج الدلالات العميقة من القرآن الكريم والسنة النبوية واستثمارها في بناء سلوك متكامل يحقق النهضة والإصلاح.

إن الوصول إلىٰ هذا الفقه يتطلب منهجية شاملة تتجاوز التفسير التقليدي إلىٰ استيعاب أساليب القرآن المختلفة في تقديم الهداية، فالقرآن الكريم لم يقتصر علىٰ الخطاب المباشر بالأمر والنهي، بل وظّف عشرات الأساليب المتنوعة كالوعظ، والقصص، والأمثال، والحِكم والترغيب والترهيب والحوار وغيرها، مما يستدعي تدبرًا عميقًا لفهم آفاق كل أسلوب لاستنباط الهداية منه، وكيفية توظيف الهداية في مسارات الحياة المختلفة.

يقول محمد رشيد رضا:«وأما أسلوب القرآن فالكلام فيه هو البحر الخضم، والقاموس المحيط الأعظم، فإنه أظهر وجوه الإعجاز اللفظية، وذلك أن يمزج فنون الكلام. وينظم مقاصد الهداية والإرشاد علىٰ اختلاف أنواعها، وتباين موضوعاتها، مزجا متلائما، ونظما متناسبا متناسقا، موافقا للذوق السليم، مطابقا لنكت البلاغة. فالعقائد الإلهية والدلائل العلمية

والعقلية، والأخبار الغيبية، والسنن الكونية والاجتماعية، والمواعظ الأخلاقية والأدبية، وأحكام العبادات والمعاملات القضائية والسياسية، وقصص الأنبياء، ووصف الأرض والسماء، وما فيهما من جمادات وأحياء، وما بينهما من هواء وهباء، تراه كله في السورة الواحدة، وترىٰ الكثير منه في آية واحدة، بعبارة بديعة مؤثرة، ينتقل فيها العقل من فائدة إلىٰ فائدة ويتقلب فيها القلب من موعظة إلىٰ موعظة، مع منتهىٰ الإحكام والمناسبة، بحيث لا تمل تلاوته، ولا تفتأ تتجدد هدايته»[1].

والمتأمل في المنهج القرآني يجد أن كل أسلوب من أساليبه يحمل تنوعًا يثري الفهم، ويعمّق الاستفادة من النص القرآني في الاستهداء، ويجعل عطاؤه متجددًا لا ينضب. فعلىٰ سبيل المثال، عند قراءة القصص القرآني، لا يقتصر الأمر علىٰ مجرد سرد تاريخي للأحداث، بل ينقل القارئ إلىٰ أبعاد تشريعية ومقاصد تربوية ودعوية عميقة.

فحين نتأمل قصة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون، نجدها نموذجًا خالدًا عمليًا في مقاومة الظلم والاستبداد بكل صوره وأشكاله، بينما تقدم قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ درسًا متكاملًا في الصبر والثبات أمام الابتلاءات، لا سيما تلك التي تأتي من الأقربين، إلىٰ جانب ما تحمله من دروس ربانية لا تُحصىٰ تمتد إلىٰ مجالات الإيمان والأخلاق، والسياسة، والاقتصاد، وغيرها.

وقد أكد القرآن الكريم علىٰ أهمية استلهام العبرة من القصص بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ

(١) تفسير المنار (٩/ ٢٩٨).

ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يُوسُف : ١١١]، كما أكد علىٰ استلهام الهداية من أسلوب الأمثال، قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العَنكَبُوت : ٤٣].

ولما كان القرآن الكريم كتاب هداية شامل، وقد تنوعت أساليبه في توجيه الإنسان إلىٰ الصراط المستقيم، كان الاستهداء به يتطلب معرفة كيفية الاستفادة من كل أسلوب في ترجمة هدايات القرآن في حياتنا اليومية، وهذا الموضوع من أوسع وأعمق وأدق موضوعات الاستهداء، بل غالب فقه الاستهداء يقوم عليه، سنذكر في ما يلي عشرين أسلوبـًا من الأساليب القرآنية المتنوعة، مع بيان كيفية الاستهداء من كل أسلوب، مع الاكتفاء غالبًا بنموذج أو نموذجين لكل أسلوب، خشية الإطالة والخروج عن منهجية البحث، وقد جعلت ذلك في خطوات عملية تعين في كيفية الاستهداء بالقرآن الكريم في العقيدة والسلوك.

١/ الهداية بأسلوب الموعظة الحسنة:

الأسلوب: تقديم النصح بأسلوب لين ورفيق بعيد عن العنف والشدة لإيصال الرسالة بطريقة تعزز الفهم والمحبة، لتحقيق التغيير الإيجابي في نفوس الناس، مثل التذكير بالموت، والآخرة، ومصير الأمم السابقة.

كيفية الاستهداء: التأمل في هذه المواعظ، وربطها بالواقع، والاتعاظ بها في حياتنا اليومية، مع تبني أسلوب اللطف والرحمة في الدعوة، والعمل بالموعظة في حياتنا.

النموذج التطبيقي: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٨١].

هذه الآية آخر ما نزل من القرآن، وهي تحمل أعظم موعظة جامعة؛ إذ تُذكِّر بلحظة الرجوع إلىٰ الله، ومحاسبة كل نفس علىٰ عملها، وهو مشهد تهتز له القلوب، وتبعث الموعظة فيه علىٰ الخوف من التقصير، والاستعداد ليوم لا مجاملة فيه ولا ظلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٨٥] .

تبدأ الآية بحقيقة لا يختلف عليها اثنان: الموت، ثم تبين أن الجزاء الكامل مؤجل ليوم القيامة، فتوجه النفس لتقدير المآل لا الحال، وتكشف خداع متاع الدنيا، وتربط الفوز الحقيقي بالنجاة من النار، لا بملذات الدنيا. وهي موعظة قوية تُعيد ترتيب الأولويات في القلب والعقل.

٢/ الهداية بأسلوب ضرب الأمثال:

الأسلوب: تصوير المعاني المجردة بأمثلة محسوسة، لتكون أكثر وضوحا في القناعة والتطبيق، أو تصور الغائب بصورة الحاضر.

كيفية الاستهداء: التفكير في هذه الأمثال، والبحث عن تطبيقها في الواقع.

فالهداية بضرب الأمثال هي وسيلة قوية لتوضيح المفاهيم المجردة وتقريبها إلىٰ الأذهان عبر تمثيلها بأمثلة حسية ملموسة. هذه الطريقة تُسهم في جعل المعاني أكثر وضوحًا وتساعد في تقوية القناعة بتطبيق هذه المبادئ في الحياة العملية.

النموذج التطبيقي: قوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ [إبْرَاهِيم : ١٨] .

هذا المثل يصور الأعمال الباطلة للكافرين بصورة رمادٍ تذروه الرياح العاتية، في مشهدٍ حيٍّ حسّي يبرز ضياع تلك الأعمال وهشاشتها. ومن خلال هذا التمثيل البليغ، يوقظ القرآن العقل والقلب إلىٰ ضرورة التحقق من صلاح العمل وقبوله، وأنه لا قيمة لعمل يخلو من الإيمان. فهو يدعونا إلىٰ إدراك قيمة العمل الصالح، الذي يبقىٰ، عكس العمل الباطل الذي يتلاشىٰ.

ومثله قوله تعالىٰ في الترغيب في الصدقة: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة :٢٦١].

يضرب الله مثلاً ماديًّا محسوسًا لتجسيد أثر الإنفاق، عبر مشهد زراعي مألوف متكرر، يصور الحبة الواحدة وقد أثمرت سبعمائة ضعف. هذا التمثيل يحرك الوجدان والعقل في آنٍ واحد، ليعزز القناعة بأن العطاء في سبيل الله لا ينقص المال، بل يضاعفه، ويثمر في الدنيا والآخرة، فيكون باعثًا علىٰ المبادرة بالإنفاق بثقة ويقين، فهو من أعظم الأمثال التي ترغّب في الإنفاق في سبيل الله، لما يتضمنه من تصوير بديع للثمرة المضاعفة التي يجنيها المنفق.

٣/ الهداية بأسلوب الحوار والمناظرة:

الأسلوب: عرض حجج الحق مقابل حجج الباطل في سياق حواري منطقي.

كيفية الاستهداء: تعلم أسلوب الحوار الهادئ، والاقتناع بالحق من خلال الحجة القوية، والأسلوب المناسب مع كل فئة وشخص.

النموذج التطبيقي: حوار إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع النمرود في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة : ٢٥٨].

يبرز هنا قوة الحجة في الحوار، حيث استخدم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أسلوبًا عقليًا هادئًا لكشف زيف ادعاء النمرود الألوهية، فانتقل من حجة إلىٰ أخرىٰ حتىٰ ألزمه بالحجة وأسقطه في العجز، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾. وهو درس في أن الهداية تُنال بالحوار الحكيم، والمنطق السليم، والأسلوب المناسب لكل مخاطب.

وحوار إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع أبيه وقومه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشُّعَرَاء : ٦٩ - ٨٢].

هذا الحوار يُعلّمنا أن الهداية تبدأ بإثارة التساؤلات، ثم بكشف الباطل بالحجة، ثم بعرض الحق بأسلوب محبّب وواضح، كما فعل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فكان نموذجًا للداعية الحكيم الذي يخاطب العقل والقلب معًا.

٤/ الهداية بأسلوب الترغيب والترهيب:

الأسلوب: تحفيز المؤمنين وترغيبهم بالثواب للحث علىٰ الطاعة، وتحذير العصاة وترهيبهم بالعقاب للردع عن المعاصي.

كيفية الاستهداء: التشويق للجنة ووعد الله تعالىٰ للمؤمنين والعمل لنيلها بالإيمان والعمل الصالح، والتخويف من الوعيد الذي يلحق بالعاصين للردع عن المعاصي.

النموذج التطبيقي: قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلْزَلَة : ٧ - ٨].

فهي تؤكد أن كل خير محفوظ عند الله، ولو كان صغيرًا كذرّة، وكذلك كل شر، مما يغرس في النفس الرقابة الدائمة، ويدفعها نحو الاستقامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزُّخْرُف : ٧٠ - ٧٣].

الآيات الكريمة هنا تُعبِّر عن الهداية بالترغيب في الجنة، من خلال وصف الجنة بما فيها من نعم لا تُعد ولا تُحصىٰ، مثل الطعام والشراب والملابس، وجعلهم يشعرون بالتشوق لنيل تلك المكافآت.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ [إِبْرَاهِيم : ١٥ – ١٧].

فهي تفيد تحذيراً صارمـًا من عذاب النار، فالهداية بالتحذير من النار هي أسلوب قرآني يعرض عذاب النار كوسيلة للردع عن المعاصي والذنوب، فالآيات الكريمة تُصوِّر عذاب النار بشكل مُرعب، حيث يصف القرآن الظلال من النار فوقهم ومن تحتهم، مما يبعث في النفوس الخوف والرهبة. في الآية الثانية، يتم تصوير عذاب الجهنم بشدة شديدة، بدءًا من الماء الحار الذي يتجرعه الكافر حتىٰ الموت الذي لا يأتي.

هذه الصور تؤكد أهمية التقوىٰ والإقلاع عن الذنوب لتجنب هذا العذاب الأليم، وتحفز المؤمنين علىٰ اتقاء الله والابتعاد عن المعاصي خشية الوقوع في هذا العذاب.

هذا الأسلوب يساعد في ترسيخ الإيمان والتقوىٰ في نفوس المسلمين، من خلال التذكير بالثواب العظيم للمؤمنين والعقاب الشديد للعصاة.

٥/ الهداية بأسلوب الأوامر والنواهي:

الأسلوب: تقديم أوامر واضحة ونواهٍ محددة تنظم الحياة.

كيفية الاستهداء: تطبيق هذه الأوامر في حياتنا، واجتناب النواهي بوعي.

النموذج التطبيقي: قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البَقَرَة:٤٣].

يدعونا إلىٰ المواظبة علىٰ الصلاة وأداء الزكاة.

ومثله في المحرمات قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة : ١٧٣].

وقد يكون أمره ونهيه عاما في كليات يصلح بها عباده، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النَّحل:٩٠].

قال أبو حفص النسفي: «فإنَّه أمرَ بثلاثةِ أشياءَ هي جامعةٌ جميعَ ما أمر الله به في القرآن، ونهىٰ عن ثلاثة أشياء هي جامعة جميعَ ما نهىٰ الله عنه في القرآن، ولذلك يقرأ كلُّ خطيبٍ علىٰ المنبر في آخر كلِّ خطبةٍ هذه الآية لإتيانها علىٰ كلِّ مأمور ومنهيٍّ؛ لتكونَ عِظةً جامعةً للنَّاس كلِّهم»[(١)].

الهداية بالأوامر والنواهي هي أسلوب قرآني يستخدم لتوجيه الإنسان نحو الطريق المستقيم من خلال أوامر واضحة ونواهٍ محددة. هذه الأوامر والنواهي تهدف إلىٰ تنظيم حياة الفرد والمجتمع، والارتقاء بهما من خلال تطبيق القيم الدينية والأخلاقية في سلوك الإنسان.

٦/ الهداية بأسلوب ذكر آيات الله في الأنفس والآفاق:

الأسلوب: لفت النظر إلىٰ مظاهر قدرة الله في الكون والنفس البشرية.

كيفية الاستهداء: التأمل في هذه الآيات لتعزيز الإيمان بالله والتسليم له.

(١) التيسير في التفسير (٩/ ٣١٨).

النمـوذج التطبيقي: قولـه تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ - ٨].

تلفت الآيات النظر إلىٰ السماء المحكمة البناء، والأرض الممدودة بما فيها من رواسي ونباتات بهيجة، وتبيّن أن الغرض من هذا العرض الكوني ليس الإبهار الجمالي فقط، بل هو «تبصرة وذكرىٰ»، أي وسيلة لإبصار القلب وتذكير النفس، شريطة أن يكون المتلقي «عبدًا منيبًا»، فالهداية مرهونة بقابلية القلب، كما أن المشهد الكوني نفسه قائم لكل الناس.

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرَّعْد: ٣ - ٤].

يستعرض الله آياتٍ في الأرض والثمار والأنهار، تتكرر فيها مظاهر الخلق والاختلاف والتنوع رغم وحدة المصدر، لتكون دلائل علىٰ القدرة الإلهية الباهرة. والآيتان تشتركان في جعل التفكر والعقل مناطًا للهداية، إذ إن من لا يفكر في هذه المشاهد تفكيرًا يُفضي إلىٰ التعقّل، يفوته المقصود الأعظم منها: معرفة الله والإيمان به.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذَّارِيَات : ٢١].

وجّه الآية الإنسان إلىٰ التفكر في نفسه، جسدًا وروحًا، تركيبًا ووظيفة، ليكتشف عظمة الخالق في تفاصيله الدقيقة. وجاء الأسلوب بصيغة الاستفهام الاستنكاري «أفلا تبصرون؟»، وهو توبيخ لطيف علىٰ الإعراض عن النظر، مما يدل علىٰ أن الهداية ممكنة وقريبة لو أن الإنسان أبصر ما في داخله بعين العقل والإيمان.

خلاصة:

الهداية بآيات الأنفس والآفاق قائمة علىٰ تفعيل أدوات الفكر والبصيرة، ومرهونة بحضور التأمل والتجرد من الغفلة. فالكون كتاب مفتوح، والذات مرآة للحق، ولكن لا يهتدي بهما إلا «عبد منيب»، أو «قوم يعقلون».

الهداية بذكر آيات الله في الأنفس والآفاق هي أسلوب قرآني يدعو الإنسان للتأمل في الكون من حوله وفي نفسه ليتعرف علىٰ عظمة الله وقدرته.

٧/ الهداية بأسلوب التذكير بنعم الله:

الأسلوب: تعداد نعم الله علىٰ الإنسان، وربطه بالخالق.

كيفية الاستهداء: شكر الله علىٰ نعمه، واستشعار الامتنان لله بالطاعة.

النموذج التطبيقي: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النَّحل: ٨٠ - ٨١].

سياق الآيات يستعرض نِعَمًا مادية متعددة، تتصل بأدق تفاصيل الحياة: المسكن، التنقل، الكساء، والوقاية لِنوقن أن كل تفاصيل حياتنا من عطائه وفضله، فيبعث في النفس شعورًا عميقًا بالامتنان.

ومن هذا الامتنان تنشأ الهداية، لأن القلوب التي تعرف الفضل، تُسارع إلىٰ الشكر، والطاعة، والخضوع لله. ولذا ختمت الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي: لتستجيبوا لله طائعين، عن وعي وشكر واعتراف بالفضل. فدلّ ذلك علىٰ أن تذكير النفس بالنِّعَم يُثمر التسليم، والتسليم هو قمة الهداية.

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النَّحل: ١٠ - ١٨].

في هذه الآيات دعوة إلىٰ التفكر، والتعقل، والتذكّر، والشكر، وهي مفاتيح الهداية.

فمن يرىٰ هذه النعم بعين التدبّر، يدرك أن وراءها ربًا حكيمًا كريمًا، فيُوقن، ويؤمن، ويشكر. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُم تَهتدون﴾ و ﴿لعلّكم تشكرون﴾، إشارة إلىٰ أن الهداية ثمرة من ثمار التأمل في نِعَم الله، والاعتراف بفضله.

فالهداية بأسلوب ذكر النعم ترتكز علىٰ استثارة مشاعر الامتنان في النفس، وتذكير الإنسان بأن وراء كل نعمة فضلًا، ووراء كل فضلٍ ربًّا كريمًا. ومتىٰ استيقظت هذه المشاعر، صارت الطاعة استجابة تلقائية، لا تكلفًا، فكان ذلك من أعظم أبواب الهداية.

٨/ الهداية بأسلوب قصص الأنبياء والأمم السابقة:

الأسلوب: عرض قصص الأنبياء والأمم السابقة لبيان عاقبة الطغيان والفساد، وجزاء الإيمان والطاعة، فهي مصدر للعبرة والتوجيه.

كيفية الاستهداء: استلهام الدروس من تاريخ الأمم الماضية، وتجنب الوقوع في أخطائهم، والاقتداء بالصالحين.

النموذج التطبيقي: وهذا من أوسع الأساليب في القرآن الكريم، فقد يتحدث القرآن عن قصص أقوام وأمم ورجال ونساء وشباب صالحين للاستفادة من جميل صفاتهم، كقوم يونس لما آمنوا، وكفتية الكهف، وصاحب مدين وبنتاه، وقصة مريم وامرأة فرعون وغيرها، كما قال تعالىٰ عن قصة أصحاب الكهف في الثبات علىٰ الإيمان: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٢].

وقد يتحدث عن قصص أقوام وأمم ورجال ونساء للاعتبار والتفكر فيما حل بهم، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وأصحاب الجنة، وقارون وفرعون وأبو لهب وأصحاب الفيل، وامرأة نوح، ولوط، وغيرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العَنكَبُوت : ٣٩ - ٤٠].

الهداية بالعبرة من الأمم السابقة هي أسلوب من أساليب القرآن الكريم التي تسلط الضوء علىٰ قصص الأقوام الماضية لبيان عواقب الطغيان والفساد، وكذلك جزاء الإيمان والطاعة. من خلال هذه القصص، يقدم القرآن دروسًا عظيمة للمسلمين لتجنب الوقوع في الأخطاء نفسها.

ففي هذه الآيات، يتحدث القرآن عن أقوام استكبروا وعاندوا الحق. رغم أن الله أرسل إليهم رسله بالآيات الواضحة، إلا أنهم استمروا في الطغيان، وكان جزاؤهم أن أخذهم الله بذنوبهم بطرق مختلفة (الحاصب، الصيحة، الخسف، الغرق). هذه القصص تبرز عاقبة الاستكبار ورفض الإيمان، وتدعونا إلىٰ التواضع والانقياد للحق

٩/ الهداية بأسلوب إظهار الحقائق الغيبية:

الأسلوب: بيان أمور الغيب كالبعث، والجنة، والنار، مما يعزز الإيمان.

كيفية الاستهداء: الإيمان بالغيب، والعمل للآخرة كما لو كانت حاضرة أمامنا.

النموذج التطبيقي: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المُطَفِّفِين : ٢٢ – ٢٨].

الهداية هنا تتحقق بتقريب الغيب إلىٰ الوعي، فحين يقرأ المؤمن عن نعيم الأبرار، ونضرة وجوههم، والرحيق المختوم، والتسنيم، يُصبح الغيب في قلبه كأنه مُشاهد، فيتنافس للعمل، ويتحفّز للإيمان. ولذا قال تعالىٰ: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾، لأن معرفة الغيب تورث الهمّة، وتُلهب الشوق، وتهدي الطريق نحو الآخرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكَهْف : ٢٩ – ٣١].

هذه الآيات تُجسِّد بوضوح الهداية بإظهار الحقائق الغيبية، من خلال مشهدين متقابلين: وعيدٌ شديد للظالمين، ووعدٌ كريم للمؤمنين.

فيها تحفيزٌ وترهيب، فذكر النار وسرادقها والماء المهين يُرهب القلوب، ويصدّ العصاة عن الظلم. وفي المقابل، وصف الجنان والأنهار والثياب والحُلَل يُنعش الأرواح، ويُشجّع علىٰ الإيمان والعمل الصالح.

فمن آمن بالغيب، تهتدي نفسه إلىٰ الطريق الذي يُنجيه من العذاب، ويُوصله إلىٰ الثواب.

١٠/ الهداية بأسلوب التحدي والإعجاز:

الأسلوب: طرح التحديات لإثبات الحقائق، مثل تحدي البشر أن يأتوا بمثل القرآن.

كيفية الاستهداء: إدراك أن القرآن كلام الله المعجز، والتمسك به كمصدر رئيس للهداية.

النموذج التطبيقي: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٣ - ٢٤].

القرآن هنا يُثبِت مصدره الإلهي بالإعجاز، ويقود العقول للتسليم أنه وحيٌ من عند الله، لا يُمكن لبشر أن يُضاهيه. فمن أدرك ذلك، اهتدىٰ به، وتمسّك بهديه، ونجا من وعيد النار الذي خُتمت به الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٩٤].

هذه الآية تُظهر الهداية بالتحدي أيضًا، حيث يُحدَّد بوضوح عجز الأوثان أو من يُدعىٰ من دون الله عن الاستجابة. من خلال هذا التحدي، تُهدي القلوب إلىٰ التفرد بالتوكل علىٰ الله والدعاء له وحده، لأنه لا يُستجاب إلا له.

١١/ الهداية بأسلوب النداء المباشر (يا أيها الناس، يا أيها الذين آمنوا):

الأسلوب: توجيه الخطاب بشكل مباشر لاستدعاء انتباه المخاطبين.

كيفية الاستهداء: الانتباه عند ورود النداء، وتطبيق ما بعده من أوامر أو نواهٍ.

النموذج التطبيقي: قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢١].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأَحْزَاب: ٤١ - ٤٢].

الهداية بالنداء المباشر هي أسلوب من أساليب القرآن الكريم لجذب انتباه المخاطبين وتحفيزهم علىٰ الاستجابة لما يُطلب منهم.

فالنداء المباشر مثل «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» و «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» يُستخدم لتحفيز الناس علىٰ الانتباه لما يليه من أوامر أو نواهٍ. في الآية الأولىٰ، يُوجه النداء إلىٰ الناس ليعبدوا الله ويخشوه، ويُشَجَّعُون علىٰ التقوىٰ التي هي ثمرة العبادة. في الآية الثانية، يُخاطب المؤمنون مباشرة ليزيدوا من ذكر الله وتعظيمه. هذه النداءات تُحفِّز المؤمنين علىٰ التفاعل مع أوامر الله بجدية، مما يعزز الهداية والتوجيه الروحي.

١٢/ الهداية بأسلوب القَسم (الحلف):

الأسلوب: استخدام القسم لتأكيد الحقائق المهمة.

كيفية الاستهداء: التحقق من أهمية ما يلي القسم، والاستدلال به علىٰ الحق.

النمـــوذج التطبيقي: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العَصر: ١ - ٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الوَاقِعَة: ٧٥ - ٨٠].

الهداية بالقَسم هي أسلوب قرآني يُستخدم لتأكيد الحقائق الهامة والمفاهيم التي يتوجب علىٰ الناس أن يدركوها.

فالقَسم في القرآن يُستخدم لتأكيد الحقائق العظيمة والتوجيهات المهمة. في سورة العصر، يُقسم الله بالزمن ليُؤكد علىٰ خسارة الإنسان إلا من آمن وعمل الصالحات.

كما في سورة الواقعة، حيث يُقسم الله بمواقع النجوم ليُلفت الأنظار إلىٰ عظمة القرآن الكريم وتقديره. هذا الأسلوب يحث المؤمنين علىٰ الانتباه لأهمية ما يلي القسم، ويدعوهم للتأمل والعمل بما يطابق الحقيقة التي أكدها القسم.

١٣/ الهداية بأسلوب المقارنة بين مصير المؤمنين والكافرين:

الأسلوب: إظهار الفرق بين مصير أهل الإيمان وأهل الضلال.

كيفية الاستهداء: اختيار طريق الإيمان عند رؤية عاقبة الكافرين.

النموذج التطبيقي: قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فَاطِر: ٣٢ - ٣٧].

الهداية بالمقارنة بين المؤمنين والكافرين هي أسلوب قرآني يظهر التباين بين عواقب الإيمان والكفر، ويُحفز المؤمنين علىٰ التمسك بالإيمان والعمل الصالح، ويُنفر من الكفر من خلال بيان عواقب الكافرين.

فالآية من سورة فاطر تبرز الفرق بين المؤمنين والكافرين، حيث يُظهر الله جزاء المؤمنين بالجنة ونعيمها، بينما يعرض عذاب الكافرين في جهنم. تُحرض هذه المقارنة الناس علىٰ اتباع طريق الإيمان، معتبرين العواقب الوخيمة للكافرين.

١٤/ الهداية بأسلوب التحذير من الشيطان ومكره:

الأسلوب: بيان خطر الشيطان، والتحذير من وساوسه.

كيفية الاستهداء: اتخاذ الحذر، والاستعاذة بالله، وعدم اتباع خطوات الشيطان.

النموذج التطبيقي: قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس : ٦٠ - ٦٢].

الهداية بالتحذير من الشيطان ومكره هي أسلوب في القرآن يركز علىٰ توعية المؤمنين بخطر الشيطان ووساوسه التي تسعىٰ إلىٰ إبعادهم عن طريق الحق.

فالآية من سورة يس تحذر الناس من اتباع الشيطان الذي هو عدو واضح. هذه التحذيرات تأتي لتبين خطورة الشيطان ووساوسه التي يمكن أن تُضل كثيرين عن طريق العبادة الصحيحة لله. لذلك، يجب علىٰ المؤمنين أن يتجنبوا طاعته، ويتبعوا طريق الله المستقيم، وأن يطلبوا الحماية والنجاة من الله من مكر الشيطان.

١٥/ الهداية بأسلوب إظهار رحمة الله ومغفرته:

الأسلوب: بيان سعة رحمة الله لفتح باب الأمل للتائبين.

كيفية الاستهداء: عدم اليأس من رحمة الله، والعودة إليه مهما عظمت الذنوب.

النمـوذج التطبيقـي: قوله تعالـىٰ: ﴿ قُـلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِيـنَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِـهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَـةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّـهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيـمُ ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

الهداية بإظهار رحمة الله ومغفرته هي أسلوب قرآني يفتح باب الأمل للمذنبين ويشجعهم علىٰ التوبة والرجوع إلىٰ الله، مهما كانت الذنوب عظيمة.

فالآية من سورة الزمر تقدم رسالة قوية للمؤمنين الذين أسرفوا في المعاصي. الله يفتح باب التوبة والرحمة لجميع عباده، ويوضح أن رحمته وسعت كل شيء وأنه يغفر الذنوب جميعًا. هذه الآية ترفع معنويات التائبين وتشجعهم علىٰ العودة إلىٰ الله دون يأس من مغفرته ورحمته، مهما كانت ذنوبهم.

١٦/ الهداية بأسلوب ذكر سنن الله في الحياة:

الأسلوب: بيان القوانين الإلهية التي تحكم المجتمعات والأفراد.

كيفية الاستهداء: التعرف علىٰ هذه السنن والتعامل معها بوعي.

النموذج التطبيقي: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرَّعْد:١١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشُّورَى:٣٠].

الهداية بذكر سنن الله في الحياة تُظهر أن الله قد وضع قوانين ثابتة تحكم مجريات الأحداث في حياة الأفراد والمجتمعات. هذه السنن تعدّ وسيلة هداية لفهم كيف يمكن أن يتغير الإنسان والمجتمع.

فالآية الأولىٰ من سورة الرعد تبيّن أن التغيير الحقيقي يبدأ من داخل الفرد، وأن الله لا يغير حال قوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم. إذا أراد الإنسان التغيير في حياته أو في مجتمعه، فعليه أن يبدأ بإصلاح نفسه أولًا.

أما الآية الثانية من سورة الشورىٰ، فهي تبيّن أن المصائب تأتي نتيجة أعمال الإنسان نفسه، لكن الله أيضًا يعفو عن الكثير من الذنوب. فالتعامل مع المصائب يتطلب الاعتراف بالأخطاء والتوبة، مما يساعد في إصلاح النفس وتحقيق التغيير الإيجابي.

١٧/ الهداية بأسلوب الوصايا الإلهية:

الأسلوب: تقديم وصايا جامعة تهدي الإنسان إلىٰ السلوك المستقيم.

كيفية الاستهداء: تطبيق الوصايا الإلهية في الحياة اليومية، وجعلها دستورًا للأخلاق والمعاملات.

النموذج التطبيقي: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأَنْعَام : ١٥٢].

الهداية بالوصايا الإلهية تتضمن تعليم الإنسان كيف يسلك طريق الخير والعدل من خلال اتباع مجموعة من المبادئ والقيم التي وردت في القرآن الكريم. هذه الوصايا تساعد علىٰ تنظيم سلوك الإنسان في جميع جوانب حياته.

فالآية التي ذكرتها من سورة الأنعام تقدم مجموعة من الوصايا التي إذا اتبعها الإنسان سيكون علىٰ الطريق المستقيم:

- عدم الاقتراب من مال اليتيم إلا بطريقة حسنة، حفاظًا علىٰ حقوقه.
- الوفاء بالميزان والكيل بالعدل في التعامل مع الآخرين.
- العدل في القول والعمل، حتىٰ لو كان المقابل قريبًا أو ذو سلطة.
- الوفاء بالعهد الذي قطعه الإنسان مع الله ومع الآخرين.

تطبيق هذه الوصايا يجعل الإنسان يتحلىٰ بالأخلاق الفاضلة ويعيش حياة عادلة ومبنية علىٰ احترام الحقوق والواجبات.

١٨/ الهداية ببيان صفات المتقين والكافرين والمنافقين:

الأسلوب: بيان صفات كل فريق لتمييز الإنسان نفسه بين المذكورين.

كيفية الاستهداء: مقارنة النفس بصفات كل فئة، والسعي للاتصاف بصفات المتقين، وتجنب صفات الكافرين والمنافقين.

النموذج التطبيقي:

- **مثال عن المتقين:** قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عِمۡرَان : ١٣٤ - ١٣٥].
- **مثال عن الكافرين:** قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البَقَرَة : ٢٧].

• **مثال عن المنافقين:** قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النِّسَاء : ١٤٢ – ١٤٣].

الهداية ببيان صفات المتقين والكافرين والمنافقين تعد من الأساليب المهمة التي تستخدم في القرآن الكريم لتوجيه الناس نحو الطريق الصحيح. من خلال هذه الآيات، يتعرف الإنسان علىٰ صفاته الحقيقية ويستطيع تحديد موقعه بين الفئات المختلفة من المؤمنين والكافرين والمنافقين.

فينبغي مقارنة النفس مع صفات كل فئة: يجب أن يقارن الإنسان نفسه مع هذه الصفات ويتأمل في سلوكه، وإذا وجد نفسه يتصف بصفات المتقين، عليه أن يثبت عليها. وإذا وجد نفسه يتصف بصفات الكافرين أو المنافقين، عليه أن يسعىٰ لتغيير سلوكه والتوبة إلىٰ الله.

١٩/ الهداية بأسلوب التكرار والتأكيد:

الأسلوب: تكرار المعاني المهمة لترسيخها في الذهن.

كيفية الاستهداء: التفكر في سبب تكرار بعض الآيات، والاستفادة منها في تثبيت الإيمان.

النموذج التطبيقي: تكرار قوله تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرَّحْمَٰن : ١٣] .

هذا التكرار البديع يأتي عقب عرض نعم الله المتنوعة: في الخلق، والتدبير، والجزاء، والجنّة، والنار. ويُخاطب به الثقلان (الجن والإنس) بصيغة توبيخ وتذكير معًا. فكل نعمة تُذكَر، يعقبها سؤال تقريعي: هل تُكذِّب هذه الآلاء؟ مما يُولّد في النفس تأنيبًا ذاتيًّا، وشعورًا بالامتنان، يدفع إلىٰ الاعتراف بالفضل، والخضوع لله، وهذا جوهر الهداية.

وكقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء : ٨].

هذا التكرار في ختام كل قصة من قصص الأنبياء، يُثبت حقيقتين: أن ما ورد هو آية دالة علىٰ صدق الرسل، وأن الاستجابة قليلة رغم وضوح البيّنة. فيتولد في نفس القارئ وعيٌ بعاقبة التكذيب، واعتبار من مصير السابقين، مما يحفّزه علىٰ الإيمان، ويهديه إلىٰ طريق الحق بالاعتبار والاستبصار.

فالهداية بالتكرار والتأكيد هي أسلوب من أساليب القرآن الكريم التي تهدف إلىٰ تثبيت المعاني المهمة في ذهن المتلقي من خلال تكرارها في أكثر من موضع. التكرار يعمل علىٰ تعزيز الفهم العميق والتذكير المستمر، مما يساعد علىٰ استحضار الدروس القرآنية في الحياة اليومية. فكل تكرار في القرآن يحمل زيادة معنًىٰ، أو تجديدَ دعوةٍ للهداية، أو استدعاءً لليقظة.

٢٠/ الهداية بأسلوب السؤال والاستفهام:

الأسلوب: إثارة التساؤلات في ذهن القارئ أو السامع، بأسلوب استنكاري أو تقريري أو توبيخي، يُحرّك الوجدان، ويُشعل الفكر، ويدفع المتلقي إلىٰ إعادة النظر في معتقداته وأفعاله.

كيفية الاستهداء: تفعيل العقل للتفاعل مع الأسئلة القرآنية، وتأملها

تأملًا يُفضي إلىٰ الاعتراف بالحق، ورفض الباطل، وتصحيح الموقف، مع تنزيل السؤال علىٰ واقع النفس والمجتمع.

النمـوذج التطبيقي: قال تعالـىٰ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُـمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ [النَّمْل : ٦٠].

وكرر مثل هذا السؤال الاستنكاري في نفس السورة عدّة مرات: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، ليكشف زيف الشرك، ويهدم التصورات الباطلة، ويثبت بالأدلة العقلية والنقلية أنه لا إله إلا الله.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرَّحْمَن : ٦٠].

سؤال تقريري يدعو للتفكر في عدل الله وجمال سننه، وأن الجزاء من جنس العمل، وأن من أحسن فله عند الله ما يليق بكرمه.

ومثال توبيخي تقريعي: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المُرْسَلَات : ١٦ - ١٨].

هذا السياق يعرض سؤالًا تذكيريًا يحمل وعيدًا، ليدفع القارئ إلىٰ المقارنة بين مصير المكذبين الأولين، ومصيره هو إن سلك دربهم.

فأسـلوب السـؤال في القـرآن ليـس غاية في ذاتـه، بل وسـيلة لإيقاظ الضميـر، وتحريـك الفهم، ودفـع العقول إلىٰ المسـاءلة الذاتيـة. إنه منهج في التربيـة القرآنيـة يزرع في الإنسـان فقـه المحاسـبة، والتفكـر، والتأمل، والاعـتراف بالحقائـق من ذاته، لا بالإلـزام الخارجي. فكلما سـأل القرآن، وجـب علىٰ القلـب أن يُجيـب ويتأدّب.

الخلاصة:

يتضح مما سبق أن فقه الاستهداء بالقرآن الكريم يمثل منهجًا شاملًا وعميقًا يساعد المسلم علىٰ استلهام الهداية الإلهية بأساليب متعددة، تتناسب مع مختلف الأفراد والظروف. فالقرآن الكريم ليس مجرد نصوص تُتلىٰ، بل هو منهج حياة متكامل يعالج مختلف قضايا الإنسان الدينية، والاجتماعية، والفكرية، والتربوية، ويوجهه إلىٰ الصراط المستقيم، ويعرض نماذج بشرية طبيقية في الاستهداء .

إن تعدد أساليب الهداية في القرآن يعكس رحمة الله بعباده، حيث لم يقتصر علىٰ الأوامر والنواهي المباشرة، بل استخدم القصص، والأمثال، والحوار، والموعظة، والترغيب والترهيب، والتحدي وغيرها، مما يفتح أمام القارئ آفاقًا جديدة للتدبر والتطبيق. ولذلك، فإن المسلم مطالب ليس فقط بقراءة القرآن، بل بتأمله واستنباط هداياته العملية، وتوظيفها في واقعه الشخصي والمجتمعي، حتىٰ يكون القرآن نورًا يهديه في كل شأن من شؤون حياته.

المبحث الثاني

ممكِّنات الاستهداء بالهدى

خلق الله تعالىٰ الإنسان بفطرة تميل إلىٰ الحقِّ، وجعل له قدرة وإرادة يختار بها ما يشاء؛ من طريق الهدىٰ والخير، أو طريق الشَّرِّ والضَّلال، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسَان: ٣]، وأنزل الله تعالىٰ القرآن الكريم هدىٰ للناس، يهدي للتي هي أقوم، وإلىٰ سبل السَّلام، والصِّراط المستقيم، ويعصم من سبل الضَّلال، وسبيل المجرمين، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المَائِـدَة : ١٥ – ١٦] .

فالقرآن الكريم جاء ليهدي الخلق في كل ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم، ولكن هذا الهدىٰ قيد بمن هم أهل للانتفاع به من المتقين والمؤمنين، ولقوم يعقلون ويتفكرون ويفقهون ويتذكرون، وما نعانيه اليوم من ضعف في الاستهداء ليس في فاعلية الهدىٰ وإنما الخلل دائماً يكون من جانب المستهدي، فالهدىٰ لا خلل فيه ولا عوج، وتأثيره باقي وفاعليته مستمرة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكَهْف : ١ – ٢]؛ فإذا «تخلّف الهدىٰ عن الهداية فليس لشائبةِ قصورٍ من جهتها؛ بل إنَّما هو لفقد سببه الموجبِ له من جهة المهديّ بعد تكاملِ ما يتمّ من قِبَل الهادي»[1].

(١) إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم (١/ ٢٧).

فالمستهدي إذا كان معرض عن الإيمان بالهدىٰ لن يهتدي، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النَّحل : ١٠٤] ، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ [الكَهْف : ٥٧].

كما أنه إذا كان محرفًا للهدىٰ لن يهتدي، قال تعالىٰ: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة : ٧٥] .

أو كان عنده قصور في طلب الهدىٰ وعدم بذل الجهد للوصول إليه لن يهتدي، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العَنكَبُوت : ٦٩]، مفهوم المخالفة من لم يجاهد نفسه في الوصول للهدىٰ لن يهديه الله تعالىٰ، فالخلل دائما والعيب في الاستبصار والاستهداء وليس في البصائر أو الهدىٰ.

قال السعدي:«وقيد هدايته في بعض الآيات بعدة قيود: قيد هدايته بأنه هدىٰ للمؤمنين المتقين؛ لقوم يعقلون، ويتفكرون، ولمن قصده الحق، وهذا بيان منه تعالىٰ لشرط هدايته؛ وهو أن المحل لا بد أن يكون قابلا وعاملا، فلا بد لهدايته من عقل وتفكير وتدبر لآياته؛ فالمعرض الذي لا يتفكر ولا يتدبر آياته لا ينتفع به، ومن ليس قصده الحق ولا غرض له في الرشاد، بل قصده فاسد، وقد وطن نفسه علىٰ مقاومته ومعارضته، ليس له من هدايته نصيب؛

فالأول حرم هدايته لفقد الشرط، والثاني لوجود المانع؛ فأما من أقبل عليه، وتفكر في معانيه وتدبرها بحسن فهم، وحسن قصد، وسلم من الهوىٰ، فإنه يهتدي به إلىٰ كل مطلوب، وينال به كل غاية جليلة ومرغوب»[1].

وقد بيَّن الله تعالىٰ في كتابه الكريم عوامل وأسبابًا كثيرة ومتنوعة تعين المسلم علىٰ تحقيق الهداية والعمل بها، والتزكي بالقرآن عقيدةً وسلوكًا ومنهجًا للحياة، بما يحقق أمن الفرد وسعادته، وصلاح المجتمع واستقامته. وهذه العوامل ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية، مما يجعل معرفتها والأخذ بها أمرًا بالغ الأهمية، فهي ممكن ومعين في ترجمة تعاليم القرآن إلىٰ واقع عملي في حياة الأفراد والمجتمع. وقد ركز الباحث علىٰ الممكِّنات التي نصَّ عليها القرآن الكريم وأكدها، وجعل بعضها من ضرورات الاهتداء ولوازمه؛ بل لا يتم الهدىٰ إلا من خلال بعضها.

أولًا: الإيمان بالقرآن الكريم بلا ريب:

الإيمان بالقرآن الكريم هو أحد أصول الاعتقاد الكبرىٰ التي أمر الله تعالىٰ بها في كتابه، قال تعالىٰ: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التَّغَابُن: ٨] ، وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ١٣٦] ، ورغَّب في ذلك من خلال بيان ما يترتَّب عليه من الأجر العظيم والثواب الجزيل، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ [مُحَمَّد : ٢].

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (١/ ٥).

وقد جعل الله تعالىٰ الإيمان بالقرآن من شروط الهداية ولوازمها حينما نصَّ علىٰ حرمان من لا يؤمن به منها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ [النَّحل:١٠٥]، ويلزم من ذلك: أنَّ قوَّة الاهتداء بقوَّة الإيمان به، وضعفه بضعف الإيمان به.

قال الطبري في تفسير قوله: ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ أي: «لا يوفِّقهم الله لإصابة الحقّ، ولا يهديهم لسبيل الرشد في الدنيا، ولهم في الآخرة، وعند الله إذا وردوا عليه يوم القيامة عذاب مؤلم موجع»[(١)].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالىٰ أنَّه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عمَّا أنزله علىٰ رسوله، ولم يكن له قصد إلىٰ الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلىٰ الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا»[(٢)].

فالإيمان بالقرآن شرط للاهتداء به، فالآية تدلُّ بمفهوم المخالفة علىٰ تمكُّن الهداية في الذين يؤمنون به، كلما علا الإيمان بالقرآن في القلب تمكنت أسباب الهداية في النفس؛ فالهداية تدور مع الإيمان بالقرآن الكريم وجودًا وعدمًا، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ [فُصِّلَت : ٤٤] ؛ وذلك لأنَّ الإيمان به هو الذي يؤهِّل لحسن الاستماع إليه، والاستجابة له، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن

(١) جامع البيان (١٧/ ٣٠٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٠٤).

ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [النَّمل : ٨١] ، وهو الذي يعصم القلب من فتن الأهواء، قال تعالىٰ: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [البَقَرَة : ٢١٣].

والإيمان بالقرآن الكريم، الذي لا يداخله ريب في حقيقته شُعَب كثيرة، تنقسم من حيث الأثر إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: شُعب الإيمان التي تورث التعظيم والإجلال:

هنالك شُعب في حقيقة الإيمان تورث التعظيم والإجلال للقرآن الكريم، الذي هو شرط لتأثيره في القلوب، مثل: الإيمان بأنَّه كلام الله تعالىٰ غير مخلوق،«منه بدأ وإليه يعود»، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التَّوۡبَة : ٦] ، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴾ [الكَهۡف : ٢٧] ، وقال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [السَّجۡدَة : ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَىٰ ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾[طه : ٤ – ٨].

نزل بواسطة أعظم الملائكة -جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ- على قلب أطهر الخلق -النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البَقَرَة : ٩٧].

ونزل بأعظم لسان - عربي مبين- قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يُوسُف : ١ - ٢]، نزل ليكون معجزة الرسالة الخالدة، الناطقة بصحَّة هذا الدين، وأنَّ الخلق لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة : ٢٣ - ٢٤].

وكذلك ممَّا يورث التَّعظيم والإجلال: ما وصف الله تعالى به كتابه من صفات كثيرة تدلُّ على ذلك، مثل: وصفه بعظيم، مجيد، عزيز، مُهيمِن، علِيٍّ، فرقان، برهان، وغير ذلك من الأوصاف.

قال الماتريدي: «من نظر في آيات الله، بعين الاستهداء والاسترشاد، واستقبلها بالتَّبجيل والتَّعظيم لها؛ وفَّقه الله تعالى، ومَنَّ عليه بالهداية؛ وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فُصِّلَت : ٤٤] »[1].

(١) تأويلات أهل السنة (١٠/ ٣٢٠).

القسم الثاني: شُعب الإيمان التي تورث المحبَّة والتسليم:

هنالك شُعب في حقيقة الإيمان بالقرآن الكريم تورث المحبَّة والتسليم وحسن الإقبال، منها: الإيمان بصفاته التي يتجلَّىٰ فيها النَّفع العظيم، فهو نور يهدي في الظُّلمات، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إِبْرَاهِيم : ١]، وهدىٰ ينقذ من الضَّلال، ويهدي إلىٰ سواء الصِّراط، قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المَائِدَة : ١٥ - ١٦]، وموعظة وذكر وشفاء لما في الصُّدور وهدىٰ ورحمة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يُونُس : ٥٧]، وهو بصائر، يهدي العقول الحائرة، قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ٢٠٣]، وهو من أعظم أسباب البركة والرحمة والحياة الآمنة الفاضلة السعيدة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البَقَرَة : ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه : ١٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأَنْعَام : ١٥٥].

وكذلك ممَّا يورث المحبَّة والتسليم: ما وصف الله تعالىٰ به كتابه من صفات كثيرة تدلُّ علىٰ ذلك، منها: وصفه بأنَّه كتاب كريم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقِعَة: ٧٧] ، وحكيم، قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يُونُس: ١]، ومبارك، قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأَنْعَام: ٩٢]، ونور، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النِّسَاء: ١٧٤]، وذِكْر، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عِمْرَان: ٥٨] ، ورُوح، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشُّورَى : ٥٢] ، وأحسن الحديث، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزُّمَر: ٢٣]، وحبل الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عِمْرَان : ١٠٣] ، وغيرها من أوصاف الجمال التي ذكرها الله تعالىٰ لكتابه، فكيف لعاقل وهو يسمع هذه الأوصاف لكتاب الله تعالىٰ ولا يحبه ويسلم له ويقبل عليه.

القسم الثالث: شُعَب الإيمان التي تعزِّز الثِّقة واليقين بكلام الله تعالىٰ:

هناك شُعبٌ في حقيقة الإيمان بالقرآن الكريم تعزِّز الثقة واليقين بكلام الله تعالىٰ، ومن ذلك: بيان حفظ السماء من استراق السمع عند نزوله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجِن : ٧ – ٩] .

وقد تكفَّل الله عز وجل بحفظ القرآن الكريم من أي تحريف أو تغيير بعد نزوله، فجعل له الحماية التامة من الباطل، فلا يمكن أن يُحرَّف أو يُبدَّل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجر : ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت : ٤١ - ٤٢] .

وبيَّن الله تعالىٰ كماله دون نقص أو عوج أو خلل، وأنَّه احتوىٰ علىٰ أخبار صادقة، وأحكام عادلة، في غاية من الحسن والتَّمام، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأَنْعَام : ١١٥] ، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا﴾ [الكَهْف : ١ - ٢] ، ليس فيه اختلاف ولا تناقض، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء : ٨٢].

وأنَّه مهيمِّن وناسخ لما قبله من الكتب، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائِدَة : ٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يُونُس : ٣٧].

وبيّن أنَّ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بلَّغه كما أنزله الله جَلَّجَلَالُهُ، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المَائِدَة : ٦٧]، وأنَّه - صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - بيَّن هديه للنَّاس أتمَّ بيان من خلال ما جاء في سنَّته القوليَّة والفعليَّة والتَّقريريَّة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النَّحل: ٤٤].

قال الحارث المحاسبي:«لقد عظَّم الله عَزَّوَجَلَّ القرآن وسمَّاه: برهانًا، ونورًا، ورحمة، وموعظة، ومجيدًا، وبصائر، وهدىٰ، وفرقانًا، وشفاء لما في الصُّدور، وذلك ليعظم قدره عند المؤمنين؛ فيقبلوا عليه منبهرين، ومقدِّرين، ومتدبِّرين، فينالوا به شفاء قلوبهم، وأخبرنا كذلك عن قوة تأثيره ليزدادوا ثقة فيه، وأخبرنا أنَّه أحسن من أيِّ حديث ومن كلِّ قصص ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾[يُوسُف : ٣]. ثمَّ أخبرنا عَزَّوَجَلَّ أنَّه قد وصل إلىٰ منتهىٰ الحكمة، فقال: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القَمَر : ٥]، وأخبرنا أنَّه لا يفنىٰ ولا ينفد ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكَهْف : ١٠٩]»[1].

فالإيمان بحقيقة القرآن له أثر عظيم في الانتفاع به، فهو يمثِّل البداية الصَّحيحة في التَّعامل مع كلام الله والاهتداء به؛ لأنَّه هو الذي يعلي مكانة القرآن في قلب المؤمن، ويجعله مدركًا لقيمته وفوائده في حياته، معظِّمًا ومحبًّا له، واثقًا من أخباره وأحكامه، لا يخالط قلبه ريب، فالإيمان هو الذي يصنع في دواخل العبد وقلبه دافعيَّة قويَّة نحوه، ويجعله أكثر استجابة لكلِّ ما جاء فيه، وكلّما رسخ الإيمان بكتاب الله تعالىٰ في القلب وبلغ منزلة اليقين عظم اهتمام الإنسان به، وازداد حظَّه من نوره وهديه، وتحوَّل اهتمامه نحو الغاية التي أنزل القرآن من أجلها وهو الاهتداء به في شتَّىٰ ضروب الحياة، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السَّجْدَة : ٢٤]، فمن ينطلق في التعامل مع القرآن من منطلق اليقين به يختلف في تعامله معه تمامًا ممَّن يتعامل معه وهو ضعيف الإيمان أو يخالطه ريب وشك.

(١) فهم القرآن للمحاسبي (ص: ٢٨٢).

فإذا أردنا أن نجدِّد الاهتداء بالقرآن في الأمَّة فعلينا أن نبدأ بتجديد إيمانهم بكتاب الله تعالىٰ أوَّلًا حتَّىٰ يتجدَّد تعظيمهم له، وثقتهم به، وإقبالهم عليه، وتتفتَّح كنوز هديه بين أيديهم، لأنَّ عطاء القرآن فتحه الله تعالىٰ لمن آمن به، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ٥٢] ، فبقدر إيمان العبد ويقينه بكلام ربِّه يكون حسن تعامله معه، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٢١]، فالكفر والهوىٰ مانعان من وصول نور الهداية للقلب، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وقد كان من هدي الصَّحابة في التَّعامل مع القرآن تعلُّم الإيمان به أوَّلًا قبل تعلُّم أحكامه، كما جاء عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ قالَ: «لقد عِشنا برهةً مِن الدهرِ وأَحدُنا يُؤتىٰ الإيمانَ قبلَ القرآنِ، وتنزلُ السورةُ علىٰ محمدٍ ﷺ فنتعلَّمُ حلالَها وحرامَها، وآمِرَها وزاجِرَها، وما يَنبغي أَن نقفَ عندَه مِنها، كما تتعلَّمونَ أنتُم القرآنَ اليومَ، ثمَّ لقد رأيتُ اليومَ رجالًا يُؤتىٰ أحدُهم القرآنَ قبلَ الإيمانِ، فيقرأُ ما بينَ فاتحتِهِ إلىٰ خاتمتِهِ ما يَدري ما آمِرُه ولا زاجِرُه، ولا ما يَنبغي له أنْ يقفَ عندَه، ينثُرُه نثرَ الدَّقل» [(١)].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين (١/ ٩١) رقم (١٠١)، وقال: «هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولا أعرف له علة ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وعَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ غِلْمَانٌ حَزَاوِرَةٌ فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا»[1].

وعَنْ أَبِي السَّفَرِ، قَالَ: قَالَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّا قَوْمٌ أُوتِينَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نُؤْتَىٰ الْقُرْآنَ، وَإِنَّكُمْ أُوتِيتُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُؤْتَوَا الْإِيمَانَ»[2].

فالتَّعامل مع القرآن يبدأ بالإيمان قبل التلاوة والحفظ والتدبر؛ لأنَّه هو الذي يولِّد الدَّافعيَّة إليه، ويفتح منافذ القلب لتلقِّيه والإقبال عليه، «إنَّ الكلمة لا تعطي مدلولها الحقيقي إلَّا للقلب المفتوح لها، والعقل الذي يستشرفها ويتقبَّلها، وإنَّ هذا القرآن لا يفتح كنوزه، ولا يكشف أسراره، ولا يعطي ثماره، إلَّا لقوم يؤمنون»[3]، فهو هدىً للنَّاس جميعًا، ولكن الذين يؤمنون به هم الذين ينتفعون به، ويفتح الله تعالىٰ عليهم كنوز كتابه.

ثانيًا: التسليم والطاعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيانه للقرآن:

فإنَّ من سنن الله تعالىٰ الجارية في الخلق إرسال الرسل بالآيات البيِّنات لهداية النَّاس إلىٰ الصِّراط المستقيم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرَّعْد: ٧].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، (١/ ٢٣) رقم (٦١)، والطبراني في المعجم الكبير (٢/ ١٦٥) رقم (١٦٧٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرىٰ - البيهقي» (٣/ ١٧١) رقم (٥٢٩١).

(٣) أين المخرج فالصخرة أغلقت الغار (ص:١٥).

وبيَّن تعالىٰ في كتابه أنَّ أهل العلم وحدهم هم من يدركون هذه الحقيقة في كلِّ زمان ومكان، وأهل الضَّلال هم من يشكُّون في ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [سَبَإ: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۝٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ [سَبَإ: ٦ - ٨]، فهم مَن يبلِّغون رسالة الله تعالىٰ ويبيِّنونها لخلقه، ويهدونهم إليها، ومن هنا، كانت الهداية مرهونة بطاعة الرسول المرسل.

و الرسول محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بلَّغ القرآن الكريم وبيَّنه من خلال: أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته؛ فيجب طاعته في كل ما أمر به أو نهىٰ عنه، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمۡرَان: ٣١ - ٣٢]، والرَّدّ إلىٰ سنَّته عند الاختلاف واجب من أعظم الواجبات، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٥٩]، وهو من دلائل الإيمان، وأسباب الرحمة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأَنفَال: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٣٢].

فطاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أعظم ممكِّنات الهداية بالقرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النُّور : ٥٤]، قال ابن عباس وغيره: «جعل الاهتداء مقرونًا بطاعته»[١].

وقال ابن جرير: «يقول تعالىٰ ذكره: وإن تطيعوا -أيُّها النَّاس- رسول الله -فيما يأمركم وينهاكم- ترشدوا وتصيبوا الحقّ في أموركم»[٢].

وقال المرَّاغي: «أي وإن تطيعوا الرسول فيما أمركم به ونهاكم عنه- تهتدوا إلىٰ الحقِّ الموصل إلىٰ كل خير، المنجّي من كلِّ شرٍّ، وما الرسول إلا ناصح وهاد ومبلّغ لكم، فإن أطعتموه لحظوظ أنفسكم أصبتم طريق الصواب، وإن خالفتموه أوقعتم أنفسكم في الهلكة»[٣].

وقال السعدي: «﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ إلىٰ الصِّراط المستقيم، قولًا وعملًا، فلا سبيل لكم إلىٰ الهداية إلَّا بطاعته، وبدون ذلك، لا يمكن، بل هو محال»[٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأَعْرَاف : ١٥٨]، فإنَّ مَن أطاعه هداه الله تعالىٰ؛ لأنَّه هو الذي جاء بالحقِّ وبيَّنه، ودعا الخلق إليه، وهو المعصوم في بلاغه وبيانه، ولا يدعُو إلَّا إلىٰ الصِّراط المستقيم والهدي القويم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٩٦).

(٢) جامع البيان (١٩/ ٢٠٧).

(٣) تفسير المراغي (١٨/ ١٢٥).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٧٢).

والهداية بالقرآن لا تتحقَّق إلَّا باتِّباع السُّنَّة تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحَشْر: ٧]، ولأنَّ من القرآن ما لا يمكن العمل به دون بيانه من سنَّة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لذا حذَّر تعالىٰ من مخالفة أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣]، فضلًا علىٰ ما في سُنَّته والأسوة به من تطبيقات عملية جعلت منه في الاستهداء بالقرآن نموذجًا معصومًا في أقواله وأفعاله في قمَّة الاتزان والاعتدال العاصم من كل تفريط وإفراط.

قال ابن جرير: «فقد تبيَّن ببيان الله -جلَّ ذكره- أنَّ ممَّا أنزل الله من القرآن علىٰ نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لا يوصَل إلىٰ علم تأويله، إلَّا ببيان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك تأويل جميع ما فيه: من وجوه أمره - واجبه، وندبه، وإرشاده-، وصنوف نهيه، ووظائف حقوقه، وحدوده، ومبالغ فرائضه، ومقادير اللازم بعض خلقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آيه، التي لم يدرك علمها إلا ببيان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمَّته. وهذا وجهٌ لا يجوز لأحدٍ القول فيه، إلَّا ببيان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتأويله، بنصٍّ منه عليه، أو بدلالة قد نصبها دالة أمَّته علىٰ تأويله»[1].

وقال ابن القيم في بيان أهمية طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للاهتداء: «فليس الشَّأن في أن تحبَّ الله، بل الشَّأن في أن يحبّك الله. ولا يحبّك الله إلَّا إذا اتَّبعت حبيبه ظاهرًا وباطنًا، وصدَّقته خبرًا، وأطعته أمرًا، وأجبته دعوة، وآثرته طوعًا.

(١) جامع البيان (١/ ٦٨).

وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبَّته غيره من الخلق بمحبَّته، وعن طاعة غيره بطاعته. وإن لم يكن ذلك فلا تَتَعَنَّ، وارجع من حيث شئت فالتمس نورًا، فلست علىٰ شيء»[1]، فاتِّباع الرسو ل وطاعته من أعظم ممكِّنات الهداية، ومن دونه فليس الإنسان علىٰ هدىٰ؛ بل هو علىٰ ضلال.

ثالثاً: العلم بمعاني القرآن وهداياته وأحكامه:

من أعظم ممكِّنات الاهتداء بالقرآن الكريم والعمل به: العلم بمعانيه وهداياته، فيعلمون أوَّلًا أنَّه الحقُّ، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [البَقَرَة : ٢٦] ، فكلُّ مَن كذَّب بالقرآن فقد كذَّب به عن جهل وافتراء، قال تعالىٰ: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يُونُس : ٣٩].

ثم يعلمون أحكامه وهداياته، فالقرآن الكريم أنزله الله تعالىٰ وفصَّله لقوم يعلمون، ويفقهون، ويعقلون، ويذكرون، فهم المنتفعون به حقًّا، قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأَنْعَام: ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[فُصِّلَت: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأَنْعَام: ٩٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرَّعْد : ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأَنْعَام : ١٢٦].

فالسَّبيل إلىٰ الاهتداء بالقرآن الكريم ببيان المعنىٰ للمتلقِّي، والعلم بفقهه، فالاهتداء رهن البيان، قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٠٣].

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٩).

تدلّ علىٰ العلاقة الوثيقة بين البيان وتحقيق الهداية، فالله سبحانه لم يجعل الهداية أمراً يُنال بالتخمين أو الاستحسان، بل رتّبها علىٰ بيان الآيات، أي توضيحها وتفصيلها وتفسيرها للمكلّفين، حتىٰ تنجلي دلالتها ويتضح مرادها، فيسلك العبد طريق الهدىٰ عن علم وبصيرة، فالغاية من البيان هي حصول الهداية، فكلما تمّ البيان، وتلقّاه العبد بوعي وتدبّر، ازداد اهتداءً، والعكس بالعكس؛ فمن أعرض عن البيان، أو تلقّاه بلا فهم ولا فقه، ضلّ الطريق وإن تلا الآيات.

والآية تشير ضمناً إلىٰ أهمية وظيفة البيان التي أسندها الله إلىٰ الوحي والرسول، وضرورة تلقي القرآن بفهم صحيح، لأن الاهتداء ليس نتاج مجرد التلاوة أو التقديس اللفظي، بل هو ثمرة البيان والفهم.

فالهداية الحقة إذًا لا تتحقق إلا عبر بوابة البيان، وهي وظيفة قرآنية مستمرة، تقتضي من الداعية والمفسر والمعلم أن يسلك منهج البيان الرباني، ليكون القرآن هادياً لا محفوظاً فقط.

ولذا، كانت مهمة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تبليغ الوحي وتعليمه وبيانه للنَّاس: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عِمْرَان : ١٦٤]، فالجهل سبب الضَّلال، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحَج : ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحَج: ٨]، والهداية في

حقيقتها هي العلم بالحقِّ والعمل به: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النِّسَاء : ٦٦ – ٦٨].

فتعلُّم الحروف دون تعلُّم المعاني لا يوصل للهداية؛ لذا، ذمَّه الله تعالىٰ في كتابه علىٰ من سبقنا من الأمم، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البَقَرَة : ٧٨].

قال ابن تيمية:«فإنَّ الله ذمَّ الذين يحرِّفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسُّنَّة علىٰ ما أصله هو من البدع الباطلة، وذمّ الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن، ولم يعلم إلَّا مجرَّد تلاوة حروفه، ومتناول لمن كتب كتابًا بيده مخالفًا لكتاب الله لينال به دينًا، وقال: إنَّه من عند الله»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجُمُعَة : ٥].

قال القرطبي:«وينبغي له أن يَتَعَلّم أحكام القرآن، فيَفْهَم عن الله مراده، وما فرض عليه؛ فيَنْتَفِع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟! وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه! فما مثل من هذا حاله إلا كمثل الحمار يحمل أسفارًا»[2].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٧٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢١).

فلا بدَّ من العلم الصحيح الذي يقود إلىٰ العمل المستقيم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾[آل عِمۡرَان:٧٩]، وعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[1].

كما أنَّ تعلُّم المعاني دون عمل كذلك ذمَّه الله تعالىٰ في كتابه، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصَّف : ٢ - ٣] ، وقال تعالىٰ: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البَقَرَة:٤٤].

ومعاني القرآن تحتاج إلىٰ تعلُّم ما جاء عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ من بيان، والأخذ به، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحَشر : ٧].

وتعلُّم ما جاء عن الصحابة والتابعين ممَّن رضي الله تعالىٰ عنهم وعن منهجهم وممَّن سار علىٰ دربهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَة : ١٠٠] .

ويحتاج إلىٰ إلمام بلغة العرب؛ فالقرآن الكريم نزل بسان عربي مبين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يُوسُف: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣]، ووفق هذا لسان العربي يفهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ح رقم٤٧٣٩.

قال الشاطبي: «القرآن نزل بلسان العرب علىٰ الجملة، فطلب فهمه إنمَّا يكون من هذا الطريق خاصة... فمن أراد تفهُّمه، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلىٰ تطلُّب فهمه من غير هذه الجهة»[1].

وقال ابن تيمية: «ولا بدَّ في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدلُّ علىٰ مراد الله ورسوله من الألفاظ وكيف يفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها ممَّا يعين علىٰ أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ علىٰ المعاني؛ فإنَّ عامَّة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب؛ فإنَّهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله علىٰ ما يدعون أنَّه دالّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك»[2].

ومن أهم ذلك معرفة معاني الغريب، وأساليب العرب في البيان من حيث الاختصار والإطناب، والحذف والإظهار والإضمار، والتقديم والتأخير، وغير ذلك؛ «فمعرفة هذا الفن للمفسر ضروري، وإلَّا فلا يحل له الإقدام علىٰ كتاب الله تعالىٰ، قال يحيىٰ بن نضلة المديني سمعت مالك بن أنس يقول: «لا أوتىٰ برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب إلَّا جعلته نكالًا»، وقال مجاهد: لا يحلُّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب»[3].

---

(١) الموافقات (٢/ ١٠٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ١١٦).

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٩٢).

كما أنَّ فهمه يحتاج كذلك إلىٰ التزود ببعض العلوم؛ كأصول التفسير وقواعده، وعلوم القرآن، وأصول الفقه، وعلم العام والخاص، والمجمل والمبين وغيرها، وتكون له مهارة يستطيع بها القراءة في كتب التفسير، وكيفية تقرير الأحكام من مسائل الترجيح، والاختيار، والتحليل، والاستنباط، والاستدلال، والعلم بالمحكم، وكيفية رد المتشابه إليه، والعلم بحمل العام علىٰ الخاص، والمطلق علىٰ المقيد، وتميز الناسخ من المنسوخ.

فالجهل بكتاب الله تعالىٰ من أعظم موانع الاهتداء، وكلّما ازداد الإنسان علمـًا ازداد رسوخًا في الهدىٰ، وبصيرة في الدين، ومن لم يجعل الله له منه علم ونور فليس للهدىٰ إليه سبيل، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: ٤٠].

قال الشافعي: «النَّاس في العلم طبقات موقعُهم من العلم بقدْر درجاتهم في العلم به، فحقَّ علىٰ طلبة العلم بلوغُ غاية جهدِهم في الاستكثار من علمه والصبرُ علىٰ كلِّ عارض دون طَلَبِه وإخلاص النية لله في استدراك علمه نصًّا واستنباطًا، والرغبة إلىٰ الله في العون عليه؛ فإنَّه لا يُدرَك خيرٌ إلا بعونه، فإنَّ من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصًّا واستدلالًا ووفَّقه الله للقول والعمل بما علم منه؛ فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الرِّيَب، ونَوَّرت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة»[1].

(١) الرسالة للشافعي (ص:١٩).

فتلاوة القرآن، وتدبر معانيه ومقاصده وفهمها من أعظم أسباب الهداية، كما أنَّ الإعراض عنه، والجهل بمعانيه من أعظم أسباب الضَّلال. فالاهتداء يكون بمعرفة الوحي؛ ولذا أمر الله تعالىٰ بتدبُّر القرآن الكريم، والاستماع لتلاوته والإنصات لها، وحضَّ علىٰ التفكُّر والتذكُّر والعقل لآياته، فاكتفاء البعض بالتلاوة مع جهلهم من معانيه وأحكامه حرمهم الانتفاع من القرآن الكريم والتمكُّن من الاهتداء به.

رابعًا: مجاهدة النفس في العمل بالقرآن الكريم:

العلم بما هدىٰ إليه القرآن الكريم وأرشد، لا يلزم معه حصول الاهتداء، فهو ممكِّن من ممكِّنات الاهتداء، ولكنَّه قد يتخلَّف عنه لأسباب كثيرة تمنع من العمل بالعلم؛ لهوىٰ في النفس، أو خوف علىٰ مال أو جاه، أو وجود مرض في القلب كالكبر والحسد وغير ذلك، ولكن من أعظم ممكِّنات الاهتداء: النية الصادقة، والرغبة الجادة، ومجاهدة النفس لإقامة أمر الله تعالىٰ، والسعي الدائم وبذل الجهد لنيل مرضاته، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العَنكَبُوت : ٦٩] .

قال الزمخشري:«أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول، ليتناول كل ما يجب مجاهدته من: النفس الأمّارة بالسوء، والشيطان، وأعداء الدين فِينا وفي حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصًا ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ لنزيدنَّهم هداية إلىٰ سبل الخير وتوفيقًا، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [مُحَمَّد : ١٧] .

وعن أبي سليمان الداراني: «والذين جاهدوا فيما علموا ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾: لنهديَنّهم إلىٰ ما لم يعلموا. وعن بعضهم: مَن عمل بما يعلم وفِّق لما لا يعلم. وقيل: إنَّ الذي نرىٰ من جهلنا بما لا نعلم، إنمَّا هو من تقصيرنا فيما نعلم»[1].

فلا بدَّ للعبد من همَّة لاتباع العلم بالعمل؛ فالمطلوب بعد فهم هدايات القرآن العمل بها، قال ابن تيمية: «والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به، فإن لم تكن هذه همَّة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين»[2].

والعمل بأحكام القرآن وهداياته يتطلَّب عزيمة متجدِّدة بتجدُّد الحكم من حيث الزمان والمكان والحال، بلا غفلة ولا تفريط، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأَعۡرَاف: ٢٠٣ – ٢٠٥]. وبهذا، يكون القلب قد لزم كلمة التقوىٰ، وأصبح مؤهلًا للانتفاع بكتاب الله تعالىٰ؛ لأنَّ تقوىٰ الله التي تعني اجتهاد العبد لالتزام حدود الله تعالىٰ بفعل ما أمر الله تعالىٰ وترك ما حرَّمه ونهىٰ عنه، والسعي الدائم إلىٰ مرضاته، وهي من أعظم ممكِّنات الاهتداء بالقرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢]، «ومن فوائد الآية: فضيلة

(١) تفسير الكشاف – ومعه الانتصاف ومشاهد الإنصاف والكافي الشاف (٣/ ٤٦٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٣/ ٥٥).

التقوىٰ، وأنَّها من أسباب الاهتداء بالقرآن، والاهتداء بالقرآن يشمل: الهداية العلمية، والهداية العملية؛ أي هداية الإرشاد، والتوفيق»[1]، وكلّما كان العبد أكثر إنابة كان أكثر اهتداء بالقرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [ق : ٨].

ودافعية الناس نحو القرآن مختلفة؛ فهنالك الكثير من الناس دافعيته فقط نحو التلاوة والحفظ لكتاب الله تعالىٰ، وتضعف همَّته في الفهم والتدبر، وتضعف بصورة أكبر في جوانب الاستجابة والعمل والاهتمام بتطبيق هدايات القرآن وأحكامه في حياته.

قال ابن عطية:«قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القَمَر : ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المُزَّمِّل : ٥]؛ أي: علم معانيه، والعمل به، والقيام بحقوقه ثقيل، فمال الناس إلىٰ المُيسَّر، وتركوا الثقيل، وهو المطلوب منهم»[2].

فلا ينبغي أن تختصر الهمَّة علىٰ التلاوة والحفظ كما نشاهد عند الكثير من الناس، وتضعف هممهم في جانب العلم والعمل، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال في بيان المراد بقوله تعالىٰ: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البَقَرَة:١٢١]:«والذي نفسي بيده، إنَّ حقَّ تلاوته: أن يحلَّ حلاله ويحرِّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرِّف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوَّل منه شيئًا علىٰ غير تأويله»[3].

---

(١) الكفاية في التفسير بالمأثور والدراية (٢/ ٤١).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٣٩).

(٣) جامع البيان (٢/ ٥٦٧).

وعن عكرمة: «يَتَّبِعُونه حَقَّ اتِّباعِه، باتِّبَاعِ الأمر والنهي؛ فَيُحِلُّون حلاله، ويُحَرِّمُون حرامه، ويعملون بما تضمنه»[1].

«ولم يفرض الله علىٰ عباده أن يحفظوا القرآن كلّه، ولا أن يختموه في التعلم، وإنمَّا أنزله ليعملوا بمحكمه، ويؤمنوا بمتشابهه، ويأتمروا بأمره. وينتهوا بزجره، ويحفظوا للصلاة مقدار الطاقة، ويقرؤوا فيها الميسور.

قال الحسن البصري: «أُنزِل القرآن ليعمل به فاتَّخذ الناس تلاوته عملاً»[2]، يعني: أنَّهم اقتصروا عَلَىٰ التلاوة، وتركوا العمل به»[3].

وقال ابن الجوزي: «ولو تفكَّروا لَعَلِموا أنَّ المراد: حفظ القرآن، وتقويم ألفاظه، ثمَّ فهمه، ثمَّ العمل به، ثمَّ الإقبال علىٰ ما يُصْلِح النفس ويُطهِّر أخلاقها»[4].

فالقرآن جاء ليهتدي به الإنسان في أقواله وأفعاله، فثمرة الانتفاع بالكتاب حينما تنعكس هدايته في عقيدة المؤمن وسلوكه ومعاملاته، فالتمسك بالوحي واجب، قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخْرُف : ٤٣ - ٤٤]، والتحاكم إليه فرض، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأَحْزَاب : ٣٦] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٩٥).

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص:١٤٨).

(٣) تلبيس إبليس (ص:١٠١).

(٤) المصدر السابق.

قال الشنقيطي: «فإذا علمت أيها المسلم أنَّ هذا القرآن العظيم هو النور الذي أنزله الله ليستضاء به، ويهتدىٰ بهداه في أرضه، فكيف ترضىٰ لبصيرتك أن تعمىٰ عن النور؟! ... يجب عليك الجدّ والاجتهاد في تعلُّم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبالوسائل النافعة المنتجة، والعمل بكل ما علَّمك الله منهما علمًا صحيحًا»[1].

فهو كتاب جاء ليهتدي الناس به، ويعملون بهديه في حياتهم، فيستنيرون به في الظلمات، ويفرِّقون به بين الحلال والحرام، والهدىٰ والضَّلال، ويحيون به القلوب والنفوس بعد موتها بداء الجهل والضَّلال، قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأَنْعَام : ١٢٢] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأَنفَال : ٢٤].

وكيف لا يعمل عاقل بالقرآن وهو خطاب الله تعالىٰ إليه، فكل ما فيه من أمر أو نهي أو وعد أو عيد هو خطاب لك قبل غيرك، وكل قصة أو مثل هو عبرة وتثبيت لك، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يُوسُف : ١١١]، وكل إنذار وتذكرة هي لك قبل غيرك، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة : ٢٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأَنْعَام : ١٩]، قال محمد بن كعب

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٤٦٥).

القرظي: «من بلغه القرآن فكأنَّما كَلَّمَهُ الله عَزَّوَجَلَّ»[1]، إذا تحقق له هذا الفهم، لم يتعامل مع القرآن كدراسة مهنية أو مادة بحثية، بل جعله موضع محبة وخشية، يقرؤه بعين العبد الذي يتلقىٰ رسالة من سيده، رسالة كتبها له بنفسه، لينظر فيها بتأمل، ويعمل بما جاء فيها بإخلاص. ولذلك، قال بعض العلماء: «هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عَزَّوَجَلَّ بعهوده نتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذّها في الطاعات والسنن المتبعات»[2].

وكيف يغفل عن العمل به عاقل وهو يدرك ذمّ الله تعالىٰ لمن هجر كتابه وأعرض عنه، وجعله خلفه ظهريًّا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكَهْف : ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه : ٩٩ - ١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السَّجْدَة : ٢٢].

فالقرآن الكريم لتنال من عطائه، وتتمكَّن من هداياته، ويفتح عليك كنوز من معارفه وعلومه لا بدَّ أن تُقبِل عليه بقلب منيب، مستسلم لجلاله وعظمته، متأدِّب بآدابه، ومتحلٍّ بأحكامه، لا تقدم بين يديه فكر ولا فكرة، ولا قول ولا عمل، وإنَّما اجعل معتقدك وعبادتك وأخلاقك كلها مستقاة من نبع

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ٤٥٢).

(٢) الإحياء (١/ ٢٨٥).

علومه الفيَّاضة، وسلم نفسك له تسلم من كلِّ شرٍّ وآفة، وأخلع عند بابه كل ثوب لبسته قبله، وألبس لباسه فهو لباس عز وشرف، وتقوىٰ وصلاح، وهدىٰ وإيمان ، وَاسْعَ أن تطبق تعاليمه في كل تفاصيل حياتك اليومية، وأقبل عليه بقلب سليم من كل مقررات سابقة يهديك للتي هي أقوم، ويصنعك صناعة ربانية تسمو بها فوق السحاب، فهو كتاب هداية وعلم وعمل، يدلّنا علىٰ عبودية الله تعالىٰ، وكيفية عبادته، كما يدلُّنا علىٰ مكارم الأخلاق، وجميل الصفات، ويحذِّر من مساوئ الأخلاق، وقبيح الصفات.

خامسًا: الاقتداء بسير المهتدين بالوحي:

من أعظم ممكِّنات الاهتداء: ما جاء في القرآن الكريم من ذكر نماذج متنوعة للمهتدين؛ من الأنبياء والمرسلين، والعلماء، والحكام، والشباب، والنساء، وهي نماذج في جوانب شتىٰ وصور متنوعة، من يتأمّلها يتعلَّم -من خلالها- ممارسات واقعية، أمرنا الله تعالىٰ أن نقتدي بهم، قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّ إِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البَقَرَة : ١٣٦ - ١٣٧] ، وقال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأَنْعَام : ٩٠] ، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَة : ١٠٠]، **سوف أكتفي هنا بذكر عشرة نماذج باختصار؛ حتىٰ لا يخرج البحث عن مساره.**

النموذج الأول: الجهر بالتوحيد ومواجهة المشركين:

أمر الله تعالىٰ في كثير من الآيات ببيان التوحيد والبراءة من المشركين، وبيان ما هم عليه من ضلال دون خوف أو وجل، قال تعالىٰ: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غَافِر : ١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحِجر : ٩٤] .

وذكر الله تعالىٰ في سيرة جميع الأنبياء نماذج في ذلك، قال تعالىٰ عن نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥٩ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأَعۡرَاف : ٥٩ – ٦٢] .

وقال تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأَنبِيَاء : ٥١ – ٥٨] .

وقال تعالىٰ عن هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هُود : ٥٠ - ٥٣]، وغيرها من آيات كثيرة.

النموذج الثاني: الولاء والبراء:

أمر الله تعالىٰ بموالاة المؤمن والبراءة من الكافر، دون النظر إلىٰ قرابة أو مصلحة وغير ذلك، قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المُجَادلَة : ٢٢].

وذكر الله تعالىٰ في سيرة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع أبيه، وامرأة فرعون مع زوجها النموذج في ذلك: قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التَّوْبَة : ١١٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التَّحْرِيم : ١١].

النموذج الثالث: الجهر بالدعوة وتحمُّل الأذىٰ:

وممّا أمر الله تعالىٰ به -أيضًا- تبليغ الدعوة للناس، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المَائِدَة: ٦٧]، وهو فرض كافية علىٰ الأمَّة.

النموذج لذلك: مؤمن آل ياسين، قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٠ - ٢٧].

وكذلك فتية الكهف، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكَهْف: ١٤ - ١٥]، وغيرهما.

النموذج الرابع: العفو والحلم:

الله تعالىٰ أمرنا بكظم الغيظ والعفو عمَّن ظلمنا، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٣٤]، قال تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فُصِّلَت: ٣٤ - ٣٥].

النموذج في ذلك يوسف مع إخوته، فهو يكظم غيظه، في قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف : ٧٧]، وعفا عنهم وهو قادر علىٰ الانتقام منهم، قال تعالىٰ: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف : ٩٠ – ٩٢].

والصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا عفا عن مِسْطح بن أُثَاثَةَ بن عبَّاد بن المُطَّلب الذي كان ينفق عليه لقرابة وفقر، فقال: (وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ)، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النُّور: ٢٢]، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: (وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَىٰ مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ)[1].

النموذج الخامس: الثبات علىٰ المبادئ:

أمر الله تعالىٰ بالثبات علىٰ المبادئ حتىٰ الموت والتضحية في سبيل ذلك بالغالي والنفيس، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٠٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الشهادات، باب: تعديل النساء بعضهن بعضا (٣/ ١٧٣) رقم (٢٦٦١)، ومسلم في كتاب: التوبة، باب: في حديث الإفك، وقبول توبة القاذف (٨/ ١١٢) رقم (٢٧٧٠).

النموذج لذلك: أصحاب الأخدود، قال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [البُرُوج : ٤ – ١٠].

وسحرة آل فرعون، قال تعالىٰ: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ۝٧١ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه : ٧٠ – ٧٣] .

النموذج السادس: الطهر والعفاف:

وأمر الله تعالىٰ –أيضًا– بحفظ الفروج، وبيَّن أنَّها من صفات المتقين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المُؤمِنُون : ٥ – ٧] .

وجعل الله تعالىٰ نماذج للنساء: مريم بنت عمران، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۝١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ۝١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ [مَرْيَم : ١٦ – ٢٠] .

وبنات شعيب في مدين، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ [القَصَص : ٢٣ - ٢٥] .

ونموذج للشباب: يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع امرأة العزيز، قال تعالىٰ: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يُوسُف : ٢٣].

النموذج السابع: الصبر علىٰ البلاء بالمرض:

وأمر الله تعالىٰ -أيضًا- بالصبر عند البلاء والضُّرِّ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة : ١٧٧] .

وجعل النموذج لذلك أيوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ، الذي قال الله تعالىٰ عنه: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ﴾ [ص : ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الأَنبِيَاء : ٨٣ - ٨٤]، فصبر فنال خير الجزاء، وجعله الله تعالىٰ نموذجًا وذكرًا للعابدين.

النموذج الثامن: الثقة بالله وكفايته:

وأمر الله تعالىٰ -أيضًا- بالتوكل عليه والثقة بكفايته، وعدم الخوف من مواجهة الأعداء، قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النِّسَاء : ٨١].

وذكر نماذج متعددة في ذلك، منها: موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشُّعَرَاء : ٦١ - ٦٨] .

والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع صاحبه في الغار، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التَّوْبَة : ٤٠].

النموذج التاسع: العدل في الحكم:

وأمر الله تعالىٰ -أيضًا- بالعدل عند الحكم بين الناس، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النِّسَاء : ٥٨] ، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النَّحل: ٩٠].

وذكر في ذلك نماذج، منهم: سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال تعالىٰ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأَنبِيَاء : ٧٨ - ٧٩] .

وذو القرنيين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف : ٨٤ - ٨٨].

النموذج العاشر: الأمر ببناء المساجد ورفعها:

وأمر الله تعالىٰ -أيضًا- ببناء المساجد لإقامة ذكره، قال تعالىٰ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [النُّور: ٣٦].

جعل النموذج في ذلك: إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وابنه إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البَقَرَة : ١٢٧].

وممَّا سبق، يتبين أنَّ القرآن الكريم مليء بالنماذج والقدوات الحيَّة في كل جوانب التديُّن، فهي من ممكِّنات الاهتداء المهمة، فالناس دائمًا يتطلعون في كل جانب إلىٰ مَن يقتدون بهم؛ لأنَّهم مولعون بالقدوات حتىٰ في الباطل، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزُّخْرُف:٢٣].

سادسًا: ربط الواقع بهدايات القرآن الكريم:

القرآن الكريم نزل في بضع وعشرين سنة، في الوقت الذي كان يمكن أن ينزله الله تعالىٰ في ليلة واحدة لحِكَم كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ [الفُرْقَان : ٣٢]، فمن أهمها: ارتباطه بالواقع وأحداثه المتنوعة. وهذا من أعظم ممكِّنات الاهتداء، كما حدث ذلك عند نزوله، كحادثة الإفك، جعلها الله تعالىٰ نموذجًا واقعيًّا للخوض في أعراض الناس دون علم، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النُّور : ١١ – ١٤] .

وكغزوة بدر التي جعلها الله تعالىٰ نموذجًا في كيفية نصر الله لفئة قليلة مؤمنة علىٰ فئة كثيرة كافرة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [آل عِمْرَان : ١٢٣ – ١٢٦]، مع دروس أخرىٰ كثيرة في أهمية اجتماع الكلمة، وترك الشقاق والاختلاف من أجل عرض دنيوي زائل.

كما جعل من غزوة الأحزاب نماذجَ لحالة تتكرَّر في الأمَّة عندما يحيط بها الأعداء من كل ناحية، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأَحْزَاب : ١٠ - ١١] .

كما نتعلَّم من واقعة غزوة أحد دروسًا كثيرة عن أسباب الهزيمة، وكيفية تجاوزها، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمْرَان : ١٦٥].

فالقرآن كتاب خالد، ومعايش لحاجة الإنسان في كل زمان ومكان، قادر علىٰ دحض شُبَه أهل الباطل مهما كان تنوُّعها واختلافها اختلافًا مستمرًّا، فأصول ضلالاتهم كلّها واحدة، والتغيَّر يكون غالبًا في المواقف والأسماء والأساليب، قال تعالىٰ لرسوله: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فُصِّلَت : ٤٣] ، فهو صراع واحد بين الحقِّ والباطل، والهدىٰ والهوىٰ، والرشد والغي، وقدرة القرآن علىٰ دحض الباطل وهدمه باقية خالدة، مهما كانت أقوالهم وشبههم، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأَنبِيَاء : ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفُرْقَان:٣٣].

فالواجب علينا تدبُّر القرآن الكريم بصورة مستمرة، وفهم هداياته، وتحريرها من قيود الزمان والمكان، وجعل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

السبب، وأنَّ ما كان خطابًا لأهل الكتاب أو المشركين والمنافقين هو كذلك خطاب لنا، وأنَّ قصص الأمم السابقة هي عبر مستمرَّة عبر الزمان، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يُوسُف : ١١١]، وما دحض به القرآن الباطل القديم قادر أن يدحض به الباطل الجديد، فكلُّه باطل وهباء منثور ليس له القدرة علىٰ البقاء والصمود، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سَبَإ : ٤٩].

فالذي يجب علينا ونحن نتلو القرآن ونتدبَّره لنهتدي به في حياتنا أن نتذكَّر ونستصحب الأحداث والأحوال التي نزل فيها القرآن الكريم، وكيف أحدث فيها التوجيه والإصلاح والتقويم لتحقيق الرشد في حياة الفرد والمجتمع، وكيف نستطيع أن نستوعب أحداث الواقع بأحواله المختلفة، ونجعل القرآن موجّهًا وهاديًّا فيها، فهنالك الكثير من الوقائع نظن لعلمنا القاصر لا يخاطبها القرآن وهي داخلة تحت خطابه.

قال ابن القيم:«أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمَّنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن. ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك، ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّما تنقض عرىٰ الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية. وهذا لأنَّه إذا

لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عاب القرآن وذمّه وقع فيه وأقرَّه، ودعا إليه وصوَّبه وحسَّنه، وهو لا يعرف أنَّه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية، أو نظيره، أو شرّ منه، أو دونه، فينقض بذلك عرىٰ الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والبدعة سُنَّة، والسُّنَّة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرىٰ ذلك عيانًا، والله المستعان»[1].

وقال الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ: «والعجب كل العجب أنَّ مثل هؤلاء يقرؤون كتاب الله ويتعبَّدون بتلاوته، وربَّما عرفوا شيئًا من قواعد العربية، وهم في هذا الباب: من أضلّ خلق الله وأبعدهم عن فهم وحيه وتنْزيله؛ ومن الأسباب المانعة عن فهم كتاب الله: أنَّهم ظنّوا أنَّ ما حكىٰ الله عن المشركين، وما حكم عليهم به، ووصفهم به، خاصّ بقوم مضوا، وأناس سلفوا وانقرضوا، لم يعقبوا وارثًا. وربَّما سمع بعضهم قول من يقول من المفسرين: هذه نزلت في عبَّاد الأصنام، هذه في النصارىٰ، هذه في الصائبة، فيظنّ الغمر أنَّ ذلك مختصّ بهم، وأنَّ الحكم لا يتعدَّاهم؛ وهذا من أكبر الأسباب التي تحول بين العبد وبين فهم القرآن والسنة»[2].

سابعًا: إبراز محفِّزات الأعمال الصالحة، وعواقب الأعمال السيئة:

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل محفِّزات كثيرة متنوِّعة متعدِّدة، تدفع العبد للقيام بما أمر الله تعالىٰ به، كما جعل عقوبات كبيرة تنهىٰ وتنفِّر العبد عن ارتكاب

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٥١).

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٢/ ٢٠٥).

ما نهى الله تعالىٰ عنه أو التفريط فيما أمر به، وهذه واحدة من أهمَّ ممكِّنات الهداية التي استخدمها القرآن الكريم، وقد استخدمها بأوجه متنوِّعة للأخذ بأيدي المهتدين نحو الحقِّ والهدىٰ، من ذلك:

١/ التحفيز للعمل ببيان محبَّة الله تعالىٰ لمن قام به، من ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البَقَرَة : ١٩٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة : ٢٢٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عِمْرَان : ٣١]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمْرَان : ٧٦] ، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٤٦] ، وقوله تعالىٰ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٥٩] ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المَائِدَة : ٤٢] ، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصَّف : ٤]، أو بيان معيَّته الخاصَّة لمن اتصفوا ببعض الصفات، قال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأَنفَال : ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّ ٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النَّحْل : ١٢٨].

٢/ التنفير من بعض المنهيات ببيان عدم محبَّته تعالىٰ لمن فعلها: كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النِّسَاء : ٣٦] ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١٠٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ [المَائِدَة : ٦٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ

ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [المَائِـدَة : ٨٧] ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأَنْعَام: ١٤١]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ [النَّحل: ٢٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الرُّوم : ٤٥].

٣/ التحفيز للعمل ببيان فوائد عاجلة يحبّها العبد: فكلّ من يفعل ما أمر الله تعالىٰ به يجد أثر ما وعد الله تعالىٰ به، مثل: حصول الطمأنينة بملازمة ذكر الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرَّعْد : ٢٨]، وتحقّق الحياة الطيِّبة بالإيمان والعمل الصَّالح، قال تعالىٰ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النَّحل: ٩٧] .

قال ابن كثير: «والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت»[(١)].

وحصول الزيادة في العلم والمال وغيرهما بالإنفاق، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سَبَإ : ٣٩] ، وقال تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥].

وحصول الزيادة في الهدىٰ بالمجاهدة في العمل بالعلم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العَنكَبُوت: ٦٩]، وحصول الزيادة في النعم بالشكر، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٧]، وهذا باب واسع في القرآن الكريم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٠١).

٤/ التنفير عن بعض الأعمال ببيان ضرر ها العاجل: كبيان ضرر جماع المرأة وهي حائض، قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢]، وكبيان أضرار الخمر، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المَائِدَة: ٩٠ - ٩١]، وكبيان عاقبة النِّزاع والاختلاف قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأَنفَال: ٤٦]، وكبيان عاقبة الطغيان بالنعمة، قال تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١]، وكبيان خطورة التَّبذير، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإِسْرَاء: ٢٦ - ٢٧]، وكبيان عواقب الزِّنا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإِسْرَاء: ٣٢].

٥/ التنفير من بعض الأعمال ببيان عاقبة ما حلَّ بأصحابها: كقوله تعالىٰ عمَّا حلَّ بقوم ثمود الذين طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النَّمْل: ٥٠ - ٥٢].

وكقوله تعالىٰ عمَّا حلَّ بقوم سبأ الذين بدَّلوا نعمة الله تعالىٰ كفرًا وأحلّوا قومهم الهلاك: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن

رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سَبَإ : ١٥ – ١٧].

وكقوله تعالىٰ عن قوم لوط وما حلَّ بهم بسبب انحرافهم الأخلاقي، الذي لم يسبقهم فيه أحد من العالمين: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحِجر : ٧٣ – ٧٧] ، وغيرها.

٦/ التحفيز للعمل ببيان آثاره علىٰ العبد في الدنيا: كقوله تعالىٰ في بيان أثر القصاص: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٩]، وكقوله تعالىٰ في بيان أثر إعداد القوَّة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأَنفَال : ٦٠]، وكقوله تعالىٰ في بيان أثر الثبات وذِّكر الله تعالىٰ عند ملاقاة العدو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأَنفَال : ٤٥]، وكقوله تعالىٰ في بيان أثر الصبر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عِمْرَان : ٢٠٠].

٧/ التَّحفيز للعمل ببيان الأجر العظيم المترتّب عليه في الآخرة: كقوله تعالىٰ عن أجر الشهادة في سبيل الله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٥٧]، وكقوله

تعالىٰ في بيان أجر اجتناب كبائر الذنوب: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النِّسَاء : ٣١]، وقوله تعالىٰ في بيان العمل بالمواعظ، حيث بيَّن مع فوائدها الدنيوية ما يترتب عليها في الآخرة:﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النِّسَاء : ٦٦ – ٦٨]، وقوله تعالىٰ في بيان أجر الاتصاف ببعض الصفات: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المُؤْمِنُون : ١ – ١١]، وغيرها.

٨/ التنفير من ارتكاب العمل ببيان سوء عاقبته في الدنيا والآخرة:

كقوله تعالىٰ في بيان عاقبة أكل الربا: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البَقَرَة : ٢٧٥ – ٢٧٦].

وكقوله تعالىٰ في بيان عاقبة قتل المؤمن: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النِّسَاء : ٩٣].

وكقوله تعالىٰ مخالفة أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النِّسَاء : ١١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور : ٦٣] .

وكقوله تعالىٰ في بيان عاقبة منع زكاة المال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التَّوْبَة : ٣٤ - ٣٥]، وهذا ممكّن نفيس، ينبغي أن يعتني به الدعاة علىٰ وجهٍ خاصٍّ؛ لما له من أثر في التحفيز إلىٰ الاهتداء بالوحي.

ثامنًا: دعاء الله تعالى والاستعانة والاستعاذة به:

من أعظم ممكِّنات الاهتداء بالقرآن الكريم هي الاستعانة بالله تعالىٰ ودعائه، ليهديه لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنه ويثبّته عليه، ويزيده منه، مع التَّبرُّؤ من الحول والقوَّة، فالهداية تبدأ بطلبها من الله كما جاء ذلك في عدد من الآيات، فقد علَّمنا تعالىٰ من خلال سورة الفاتحة دعاء الله تعالىٰ المستمرّ؛ ليوفِّقنا للهداية إلىٰ صراطه المستقيم والثبات عليها، قال تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الفَاتِحَة: ٦]، وقال تعالىٰ في الثبات علىٰ الهدىٰ عليه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عِمْرَان : ٨] ،

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٤٦ - ١٤٧].

فالاعتصام بالله والتَّوكُّل عليه هو عين الهداية، ولبُّ التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عِمْرَان : ١٠١].

قال ابن كثير: «فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلىٰ الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد»[١].

وقال السعدي: «﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ أي: يتوكل عليه، ويحتمي بحماه، ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهذا فيه الحث علىٰ الاعتصام به، وأنَّه السبيل إلىٰ السلامة والهداية»[٢].

وقد كان من دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ». كما جاء عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، قَالَ: عَلَّمَنِي جَدِّي كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي قُنُوتِ الْوِتْرِ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَىٰ عَلَيْكَ، فَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبَّنَا تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٨٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٧١).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ٢٥٢) رقم (١١٧٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٧٤) رقم (٢٧٠٣)، وقال الأرنؤط في سنن ابن ماجه: حديث صحيح.

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُلِ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي، وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ بِالْهُدَىٰ هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ»[1].

وعن أبي سَلَمَةَ بْن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[2].

وكان يكثر في دعائه وهو ساجد بما جاء عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ «كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَىٰ وَالتُّقَىٰ، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَىٰ»[3].

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَاجْبُرْنِي»[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه،كتاب: الذكر، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل (٨/ ٨٣) رقم (٢٧٢٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٨/ ١٨٥) رقم (٧٧٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الذكر، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل (٨/ ٨١) رقم (٢٧٢١).

(٤) أخرجه البيهقي في معرفة السنن والآثار (٣/ ٣٩) رقم (٣٥٩٤).

فالهداية شيء عظيم، والذي يملكها هو الله تعالىٰ وحده، والعبد عاجز بقوَّته وحوله عن تحقيق ذلك، فليس له إلَّا أن يستعين بمن يهدي إلىٰ الحقِّ والصِّراط المستقيم، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يُونُس : ٣٥] .

ومع لزوم الاستعانة بالله تعالىٰ، لا غنىٰ للعبد عن الاستعاذة به جلّ وعلا من شياطين الجن والإنس الذين لا همّ لهم إلا صدّ السالكين عن الصراط المستقيم، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأَعْرَاف : ١٦ – ١٧] ، لذا أمر الله تعالىٰ بها عند بداية كل تلاوة للقرآن وعمل، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النَّحْل : ٩٨ – ١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المُؤْمِنُون : ٩٧ – ٩٨].

تاسعًا: الاستعمال الأمثل لأدوات الفهم والإدراك:

الله تعالىٰ خلق الإنسان في أحسن تقويم، وزوَّده بالأدوات التي تمكِّنه من العلم والهداية، وهي السَّمع والبصر والفؤاد، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النَّحْل : ٧٨] ، فإنَّ استعملها بطريقة صحيحة قادته إلىٰ الهداية

والاستجابة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

قال ابن القيم: «وذلك، أنَّ تمام التأثير لمَّا كان موقوفًا علىٰ مُؤثِّرٍ مُقْتَضٍ، ومحلٍّ قابل، وشرطٍ لحصول الأثرِ، وانتفاء المانع الذي يمنعُ منه، تضمَّنَتِ الآيةُ بيانَ ذلك كلّه بأوجز لفظٍ وأبينِهِ وأدلِّه علىٰ المُراد. فقولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾: إشارةٌ إلىٰ ما تقدَّمَ من أول السورةِ إلىٰ ها هنا، وهذا هو المؤثِّرُ. وقولُه: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: فهذا هو المحلُّ القابلُ، والمرادُ به: القلبُ الحيُّ الذي يَعْقِلُ عن الله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠]؛ أي: حيَّ القلبِ. وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾، أي: وجَّه سمعَه وأصغَىٰ حاسَّةَ سمعِهِ إلىٰ ما يُقال له، وهذا شرطُ التأثُّر بالكلام. وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، أي: شاهدُ القلبِ حاضرٌ غيرُ غائبٍ ... فإذا حصل المؤثِّرُ وهو (القرآنُ)، والمحلُّ القابلُ وهو (القلبُ الحيُّ)، ووُجِد الشرطُ وهو (الإصغاءُ)، وانتفىٰ المانعُ وهو (اشتغالُ القلبِ وذهولُه عن معنىٰ الخطاب وانصرافُه عنه إلىٰ شيءٍ آخر)؛ حَصَل الأثرُ وهو (الانتفاعُ والتذكُّرُ)»[1].

(١) الفوائد (١/ ٣).

ومن عطَّل أدوات الإدراك ضاع في متاهات الضَّلال والانحراف والغواية، وجَعل بينه وبين الهداية حجبًا وموانع، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يُونُس : ٤٢ - ٤٣] ، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفُرْقَان : ٤٤] ، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [النَّمْل : ٨٠ - ٨١] ، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [الرُّوم : ٥٢ - ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأَعْرَاف : ١٧٩] .

قال الزحيلي:«وأسباب استحقاق أهل الضَّلالة دخول جهنم هي أنَّهم عطلوا وسائل المعرفة الصحيحة التي توصلهم إلىٰ الخير والإيمان، والخير فيما أمر الله به، والشَّر فيما نهىٰ الله عنه، فهم معرضون عن آيات الله؛ لأنَّ لهم قلوبًا لا تفقه ولا تفهم، وأعينًا لا تبصر الحقائق، وآذانًا لا تسمع سماع تدبُّر وإصغاء لآيات الله المنزلة علىٰ أنبيائه، وليس الغرض من ذلك نفي هذه الإدراكات عن حواسهم جملة، وإنَّما الغرض نفيها وعدم استعمالها في

الطريق الصحيح، فكأنَّ هؤلاء القوم لمَّا لم ينفعهم النظر بالقلب ولا بالعين ولا ما سمعوه من الآيات والمواعظ؛ استوجبوا الوصف: بأنَّهم لا يفقهون، ولا يبصرون، ولا يسمعون. إنَّهم لا يفقهون في قلوبهم شيئًا من أمر الآخرة، ولا يبصرون بأعينهم الهدىٰ، ولا يسمعون بآذانهم الحق.

هؤلاء المتصفون بهذه الأوصاف، الذين عطَّلوا عقولهم وحواسهم هم كالأنعام السائمة، لا همّ لهم إلَّا التَّمتُّع بلذائذ الحياة الدنيوية، بل هم أضلّ سبيلًا منها؛ لأنَّ الأنعام تحرص علىٰ ما ينفعها، وتنفر ممَّا يضرّها، ولا تسرف في أكلها وشربها، وهؤلاء قوم متهوِّرون يقدمون علىٰ النَّار معاندة، يسرفون في جميع اللَّذات، ولا يهتدون إلىٰ ثواب، فتكون غفلتهم بمعنىٰ ترك التَّدبُّر والاتِّعاظ، والإعراض عن الجنَّة والنَّار»[1].

فالقلوب القاسية والمريضة التي أصابها الرَّان والطبع، والأسماع التي أصابها الختم، والأبصار التي عليها غشاوة محجوبة عن الاهتداء بالوحي، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجَاثِيَة : ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البَقَرَة : ٦ - ٧].

(١) التفسير الوسيط (١/ ٧٥٥).

وقد حذَّر الله تعالىٰ من تعطيل أدوات الفهم والإدراك، وبيَّن عواقب ذلك علىٰ الإنسان في الدنيا والآخرة. ففي الدنيا: حرمان الهداية، وفي الآخرة: الحسرة والنَّدامة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٢١ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢١ - ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلْك: ١٠ - ١١].

عاشرًا: تعظيم حدود الله تعالى:

الواجب علىٰ المسلم أن يكون عالمًا بحدود الله تعالىٰ التي بيَّنها لعباده، التي قيل: هي محارمه ونواهيه العظام التي منع من ارتكابها وانتهاكها؛ كالقتل، والزنىٰ، والسرقة، وغيرها، أو المسائل التي بيّن حدودها ومقاديرها؛ كالميراث، والحدود، والعدة، والإيلاء، والفدية، ممَّا حدَّه الشَّرع، فلا تجوز فيه الزِّيادة ولا النُّقصان، وقيل: أوامره ونواهيه وأحكامه التي حدَّها لعباده وبيَّنها، ومنع الشَّرع مجاوزتها[1]، قال تعالىٰ: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٠].

كما يجب علىٰ المسلم أن يكون معظِّمًا لحدود الله، حافظًا لها، فلا يتعدَّ حدوده، لما فيها من طاعة لله والرسول، ولما يترتَّب علىٰ تعدِّيها من عقوبات

(١) انظر: جامع البيان للطبري (٣/ ٤٤٨)، ومعالم التنزيل للبغوي (١/ ٢٧٣)، والموسوعة الفقهية (٣/ ٢٠٧).

عظيمة، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البَقَرَة : ٢٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطَّلَاق : ١]؛ بل يجب عليه أن لا يقرب هذه الحدود، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة : ١٨٧].

قال ابن القيم: «وقد نهىٰ الله سبحانه عن تعدِّي حدوده وقربانها فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ و ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ ، فإنَّ الحدود يراد بها أواخر الحلال وأول الحرام، فحيث نهىٰ عن التَّعدِّي فالحدود هناك أواخر الحلال، وحيث نهىٰ عن القربان فالحدود هناك أوائل الحرام»[1].

وإذا اتَّضح للعبد ما بيَّنه الله تعالىٰ في كتابه بيانًا شافيًا بأنَّ الفوز والنَّجاة في الدنيا والآخرة برعاية حدود الله تعالىٰ، والوقوف عند نواهيه من غير تعدٍّ، والضَّلال والخسران في الدارين بتعدِّي حدوده؛ كان ذلك واحدًا من أقوىٰ الممكِّنات للاهتداء بالقرآن عمومًا، وما جاء في الباب خصوصًا، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النِّسَاء : ١٣ - ١٤]، وكيف لا يقوم بذلك وهو يتلو كتاب الله تعالىٰ الذي بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ فيه أنَّ رعاية حدوده من صفات المؤمنين: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٤٥).

﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التَّوْبَة : ١١٢] وأنّ تعدِّي حدود الله تعالىٰ صفة الكافرين والمنافقين، وحزب الشيطان الخاسرين، قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التَّوْبَة : ٩٧] .

الحادي عشر: عرض النفس على القرآن الكريم:

المقصد من تلاوة القرآن: الفهم والعمل، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البَقَرَة : ١٢١] ، قال ابن تيمية:«لفظ (التلاوة) فإنَّها إذا أطلقت في مثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦ﴾ تناولت العمل به، كما فسره بذلك الصحابة والتابعون، مثل: ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وغيرهم، قالوا:«يتلونه حق تلاوته» يتَّبعونه حقَّ اتِّباعه، فيحلُّون حلاله ويحرِّمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه. وقيل: هو من التلاوة بمعنىٰ الاتباع؛ كقوله: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشَّمْس : ٢] »[1].

والمسلم وهو يتلو القرآن يتفحَّص نفسه عند تلاوته؛ ليرىٰ: هل هو متَّبع للقرآن، مؤتمر بأمره، منتهٍ عن نهيه، مُتحلٍّ بقيمه كما أمر الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ٢ - ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا

(١) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ١٦٧).

كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الأَنْعَام : ١٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأَنْعَام : ١٠٦] ، أم هو مفرِّط في اتباع كلام ربه، متَّبع لهواه، فيدخل في مَن ذمَّهم الله جَلَّجَلَالُهُ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾ [الكَهْف : ٢٨]، فالقرآن نزل لهداية النَّاس عامَّة وإسعادهم ، لا يهتدي به إلَّا من كان عنده استعداد للانتفاع به، وإقبال علىٰ تعلُّمه والعمل به، واجتهاد لمحاسبة النَّفس في ضوء توجيهاته.

فمن استعرض نفسه علىٰ كتاب الله تعالىٰ وجد أنَّ كلَّ خير يريد أن يتحقَّق له في الدنيا والآخرة مقرون بالعمل بهدي القرآن الكريم، فليس هو مجرَّد كلام يتلىٰ، بل هو هدىٰ يستهدىٰ بكل آية منه، فلا مجال لنكون من المتقين أو المؤمنين أو من المحسنين أو من عباد الرحمن من غير أن نتصف بصفاتهم، ونهتدي بهديهم، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البَقَرَة : ٢ - ٥]، فهل يمكن أن يتحقَّق لك وصف الهدىٰ والفلاح دون إيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق ممَّا رزق الله تعالىٰ ، وما ذكره من صفات المتقين.

ومثله: قول تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤

وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ - ١١]، فهل هنالك فلاح يمكن أن يتحقق للمؤمنين دون عمل بهذه الصفات التي ذكرها الله تعالىٰ؟! .

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحُجُرَات : ١٥]، فلا بدَّ لمن أراد الفوز والنجاة أن يعرض نفسه علىٰ القرآن، وينظر أين هو ممَّن مدحهم الله تعالىٰ، وممَّن ذمَّهم الله تعالىٰ، ومن صفات الفائزين والخاسرين، ومن كل أمر ونهي وحكم جاء في كتابه، فإنَّ من أعظم ممكِّنات الاهتداء بالقرآن الكريم: فحص النفس في ضوء هداياته.

قال محمد بن الحسين:«فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرىٰ بها ما حسن فعله وما قبح. فما حذَّره مولاه حذِره، وما خوَّفه به من عقابه خافه، وما رغَّبه فيه مولاه رَغِب فيه، ورجاه، فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة، فقد تلاه حقّ تلاوته، ورعاه حقّ رعايته، وكان له القرآن شاهدًا وشفيعًا وأنيسًا وحِرْزًا»[1].

(١) جمال القراء وكمال الإقراء (ص: ٢٠٦).

وقال أيضـًا:«ينبغي لأهل القرآن أن يتأدبوا به، ولا يغفلوا عنه، فإذا انصرفوا عن تلاوة القرآن اعتبروا نفوسهم بالمحاسبة لها، فإن تبيَّنوا منها قبول ما ندبهم إليه مولاهم الكريم ممَّا هو واجب عليهم: من أداء فرائضه، واجتناب محارمه، فحمدوه في ذلك، وشكروا الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ما وفَّقهم له، وَإنْ علموا أنَّ النفوس مُعرضة عمَّا ندبهم إليه مولاهم الكريم، قليلة الاكتراث به استغفروا الله عَزَّوَجَلَّ من تقصيرهم، وسألوه النقلة من هذه الحالة التي لا تحسن بأهل القرآن، ولا يرضاها لهم مولاهم إلىٰ حال يرضاها، فإنَّه لا يقطع من لجأ إليه. ومن كانت هذه حاله وجدَ منفعة تلاوة القرآن في جميع أمورِه، وعاد عليه من بركة القرآن كما يحب في الدنيا والآخرة»[1].

وقال الآجري:«ومن تدبَّر كلامه عرف الرب عَزَّوَجَلَّ، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضُّله علىٰ المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر ممَّا حذره مولاه الكريم، ورغَّب فيما رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره، كان القرآن له شفاء فاستغنىٰ بلا مال، وعزَّ بلا عشيرة، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همُّه عند التلاوة للسورة إذا افتتحها متىٰ أتعظ بما أتلو؟ ولم يكن مراده متىٰ أختم السورة؟ وإنَّما مراده متىٰ أعقل عن الله الخطاب؟ متىٰ أزدجر؟ متىٰ أعتبر؟ لأنَّ تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة، والله الموفق»[2]، وبيَّن أنَّ المسلم «يتصفَّح القرآن ليؤدِّب به نفسه، لا يرضىٰ من نفسه أن يؤدِّي ما فرض الله بجهل، قد جعل العلم والفقه دليله إلىٰ كل خير، إذا درس القرآن

(١) المصدر السابق (ص:٢٠٨).

(٢) أخلاق أهل القرآن (ص:٣٦، ٣٧).

فبحضور فهم وعقل، همته إيقاع الفهم لما ألزمه الله: من اتِّباع ما أمر، والانتهاء عمَّا نهىٰ، ليس همَّته متىٰ أختم السورة؟ همَّته متىٰ أستغني بالله عن غيره؟ متىٰ أكون من المتقين؟ متىٰ أكون من المحسنين؟ متىٰ أكون من المتوكلين؟ متىٰ أكون من الخاشعين؟ متىٰ أكون من الصابرين؟ متىٰ أكون من الصادقين؟ متىٰ أكون من الخائفين؟ متىٰ أكون من الراجين؟ متىٰ أزهد في الدنيا؟ متىٰ أرغب في الآخرة؟ متىٰ أتوب من الذنوب؟ متىٰ أعرف النعم المتواترة؟ متىٰ أشكره عليها؟ متىٰ أعقل عن الله الخطاب؟ متىٰ أفقه ما أتلو؟ متىٰ أغلب نفسي علىٰ ما تهوىٰ؟ متىٰ أجاهد في الله حقَّ الجهاد؟ متىٰ أحفظ لساني؟ متىٰ أغض طرفي؟ متىٰ أحفظ فرجي؟ متىٰ أستحي من الله حقَّ الحياء؟ متىٰ أشتغل بعيبي؟ متىٰ أصلح ما فسد من أمري؟ متىٰ أحاسب نفسي؟ متىٰ أتزود ليوم معادي؟ متىٰ أكون عن الله راضيًا؟ متىٰ أكون بالله واثقًا؟ متىٰ أكون بزجر القرآن متعظًا؟ متىٰ أكون بذكره عن ذكر غيره مشتغلًا؟ متىٰ أحبُّ ما أحبَّ؟ متىٰ أبغضُ ما أبغضَ؟ متىٰ أنصح لله؟ متىٰ أخلص له عملي؟ متىٰ أقصر أملي؟ متىٰ أتأهَّب ليوم موتي وقد غُيِّب عنِّي أجلي؟ متىٰ أعمر قبري، متىٰ أفكر في الموقف وشدَّته؟... فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة، يرىٰ بها ما حسن من فعله، وما قبح منه، فما حذره مولاه حذره، وما خوفه به من عقابه خافه، وما رغبه فيه مولاه رغب فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة، فقد تلاه حقَّ تلاوته، ورعاه حقَّ رعايته، وكان له القرآن شاهدًا وشفيعًا وأنيسًا وحرزًا، ومن كان هذا وصفه، نفع نفسه ونفع أهله، وعاد علىٰ والديه، وعلىٰ ولده كل خير في الدنيا وفي الآخرة»[1].

(١) أخلاق أهل القرآن (ص:٧٩- ٨١).

وقال السيوطي فيما ينبغي على التالي للقرآن: «أن ينشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرف كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان ممَّا قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرَّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوّذ، أو تنزيه نزّه وعظّم، أو دعاء تضرَّع وطلب»[1].

واستعراض النفس على القرآن يحتاج إلى حضور قلب عند تلاوته.

قال ابن القيم: «إذا أردتَ الانتفاعَ بالقرآن فاجمعْ قلبك عند تلاوته وسماعه، وألْقِ سمعَك، واحضُرْ حُضورَ من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه؛ فإنَّه خطابٌ منه لك على لسان رسوله»[2].

وعليه أن يقدر عند كل تلاوة «أنَّه المقصود بكلِّ خطاب في القرآن، فإن سمع أمرًا أو نهيًا قدر أنَّه المنهي والمأمور، وإن سمع وعدًا أو وعيدًا فكذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أنَّ السَّمَر غير مقصود، وإنَّما المقصود ليعتبر به، وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حقِّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمَّته»[3].

وقال أيضًا ابن القيم: «وبالجملة فمن قُرِئ عليه القرآن، فَلْيُقَدِّر نفسه كأنَّما يسمعه من الله يخاطبه به، فإذا حصل له مع ذلك السماع به وله وفيه،

(١) الإتقان في علوم القرآن(١/ ٣٠٠).

(٢) الفوائد (١/ ٣).

(٣) الإحياء (١/ ٢٨٥).

ازدحمت معاني المسموع ولطائفه وعجائبه علىٰ قلبه، وازدلفت إليه بأيّهما يبدأ، فما شئت من علم وحكمة، وتَعَرُّفٍ وبصيرة، وهداية وغَيْرَة»[1].

الثاني عشر: التفكر في آيات الله تعالى الكونية:

إنَّ التفكر في آيات الله تعالىٰ الكونية هي إحدىٰ ممكِّنات الهدىٰ في النفس، قال تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النَّحل: ١٥ - ١٦]، فالهداية هنا حسية ومعنوية لتوحيد الله تعالىٰ ودينه، من خلال ما بسطه من أدلة وشواهد مرشدة وهادية إلىٰ وحدانيَّته.

قال الماتريدي: «وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يحتمل: تهتدون الطرق والسبل التي تفضيهم إلىٰ الحوائج. ويحتمل: تهتدون الهدىٰ المعروف؛ بما ذكر من نعمه ومننه»[2].

وقال ابن عطية: «وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ في مشيكم وتصرّفكم في السبل، ويحتمل: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بالنَّظر في هذه المصنوعات علىٰ صانعها، وهذا التأويل هو البارع، أي سخَّر وألقىٰ وجعل أنهارًا وسبلًا لعلَّ البشر يعتبر ويرشد، ولتكون علامات»[3].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٦٦).

(٢) تأويلات أهل السنة (٦/ ٤٨٨).

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٣٨٤).

وقال ابن عاشور:«جملة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ معترضة، أي رجاء اهتدائكم. وهو كلام موجَّه يصلح للاهتداء إلىٰ المقاصد في الأسفار من رسم الطرق وإقامة المراسي علىٰ الأنهار واعتبار المسافات... ويصلح للاهتداء إلىٰ الدين الحقِّ وهو دين التوحيد، لأنَّ في تلك الأشياء دلالة علىٰ الخالق المتوحد بالخلق»[1].

فالله تعالىٰ خلق السموات ورفعها بلا عمد، وزيَّنها بنجوم بلا عدد، وخلق الأرض وأرساها بالجبال، وأحاطها بالبحار، وأحياها بالأمطار والأنهار، وزيَّنها بالنبات، فضلًا عن آية الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحار، وخلقه للإنسان والأنعام، بل والنمل والطير وسائر الحيوانات أدلة علىٰ وجوده ووحدانيته وعظمته وعظيم فضله ومنَّته، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطَّلَاق : ١٢]، فجعل خلقهنَّ من أدلة وحدانيته وعظيم صفاته.

قال ابن رجب:«وأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّه إنَّما خلق السموات والأرض، ونزل الأمر؛ لنعلم بذلك قدرته وعلمه، فيكون دليلًا علىٰ معرفته، ومعرفة صفاته»[2].

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ١٢٢).

(٢) ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء (ص:٤٠).

فإنَّ التفكر في خلقها ممَّا أمر الله تعالىٰ به؛ لما له من أثر عظيم في الهداية، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق : ٦ - ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغَاشِيَة : ١٧ - ٢٠]، ومن هنا، ذمَّ الله تعالىٰ الذين أعرضوا عن آياته الكونية، ولم تكن لهم دلائل هداية، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأَنبِيَاء : ٣٠ - ٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يُوسُف : ١٠٥].

قال ابن كثير: «يخبر تعالىٰ عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السماوات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات، في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذي الأسماء والصفات»[1].

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤١٨).

فواحدة من مقاصد الحديث عن آياته الكونية: تحقيق الاهتداء وتمكينه في النفس، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غَافِر: ٧٩ - ٨١]، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غَافِر: ١٣].

قال ابن كثير:«وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة علىٰ كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾، وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه، وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء، ويستدل بها علىٰ عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي: من هو بصير منيب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ»[1].

وقال الشنقيطي:«ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنَّه جل وعلا هو الذي يري خلقه آياته، أي الكونية القدرية، ليجعلها علامات لهم علىٰ ربوبيته، واستحقاقه العبادة وحده. ومن تلك الآيات: الليل والنهار، والشمس والقمر... ومنها: السماوات والأرضون، وما فيهما، والنجوم، والرياح والسحاب، والبحار والأنهار، والعيون والجبال والأشجار... وبيَّن -أيضًا-

(١) المرجع السابق (٧/ ١٣٤).

أنَّ من آياته التي يريهم ولا يمكنهم أن ينكروا شيئًا منها: تسخيره لهم الأنعام ليركبوها ويأكلوا من لحومها، وينتفعوا بألبانها وزبدها وسمنها وأقطها، ويلبسوا من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها»[1].

فمن تأمَّل في هذا الكون، علم أنَّ له ربًّا قادرًا عليمًا حكيمًا قاهرًا، بيده الأمر، ومنه كل خير وفضل، مستحقّ للعبادة بلا منازعة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمْرَان : ١٩٠ - ١٩١] ، وقال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصِّلَت : ٥٣] .

فالتَّفكُّر هو الذي يكشف للإنسان حقيقة نفسه؛ كيف خلقه الله تعالىٰ من تراب ونطفة، وطوَّره في الخلق طورًا بعد طور، حتىٰ بلغ أشدّه واستوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾ [الحج:٥]، وكيف جعلهم شعوبًا وقبائل، وجعلهم مختلفين في لغاتهم وألوانها، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٨٠).

ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةٗۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾ [الرُّوم : ٢١ – ٢٢]، بل كيف جعل منهم من الماء نسبًا وصهرًا، أيليق بعد ذلك التَّمردّ عليه والكفر به؟! قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴾ [يس:٧٧].

وهو الذي بيَّن لهم أعظم نعمة؛ كيف يكون تكوينها وتصريفها، بل لا يقدر عليها غيره، وكيف يحيي بها الأرض، ويخرج بها الثمرات لعباده، ويدَّخر لهم ما تبقَّىٰ من ذلك في الأرض، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [النُّور: ٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١ ﴾ [الزُّمَر : ٢١].

وبيَّن لهم كيف خلق السموات بغير عمد، وكيف بسط الأرض ودحاها، قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ

بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لُقْمَان : ١٠ - ١١] ، وكيف جعل لهم الليل لباسًا، وجعل النهار نشورًا، وجعل لكلٍّ منهما آية تدلُّ عليه؛ ليعلموا عدد السنين والحساب، وكيف مدَّ الظِّلَّ وقبضه، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفُرْقَان : ٤٥ - ٥٠].

وقد تحدَّث القرآن الكريم كثيرًا عن الآيات الكونية بما يمكن الإيمان والهداية في القلب، ويزيد التعظيم والمحبَّة لله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأَنبِيَاء : ٣٠ - ٣٣]، وقال تعالىٰ :﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إِبْرَاهِيم : ٣٢ - ٣٤]، وقال تعالىٰ :﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النَّحْل : ١٠ - ١٤]، وغيرها من آيات كثيرة.

فكل آية كونية جاءت في القرآن الكريم هي واحدة من ممكِّنات الهداية في القلب لأولي النهىٰ وأولي الألباب؛ لأنَّها ناطقة بعظمة الخالق، وعظيم فضله، وبصدق القرآن الكريم، وأنَّه من عند الله تعالىٰ، فالكون كتاب منظور محقِّق للهداية، مثل كتابه المسطور. والغفلة عن هذه الآيات أضعفت الإيمان في نفوس المسلمين والاستجابة لله رب العالمين.

فالقرآن كتاب الكون، جعل من حديثه عن الكون شاهدًا علىٰ الهداية لمن كان له عقل، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البَقَرَة : ١٦٤].

الثالث عشر: معرفة السنن الإلهية والأخذ بها:

لقد بصَّرنا القرآن الكريم على وجهٍ محكمٍ بسنن الله تعالىٰ الثابتة في الآفاق والأنفس، ففي الآفاق، يراد بها السنن الكونية، كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وفي الأنفس، يراد بها السنن الاجتماعية، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرَّعْد: ١١]، فمعرفة هذه السنن - الاجتماعية خاصَّة- والأخذ بها مهمة جدًّا؛ لما لها من الدلالة علىٰ صدق الرسالة، وثبوت دلائل اليقين حول القرآن الكريم، ولأنَّها واحدة من الممكِّنات التي تدفع للعمل بكتاب الله تعالىٰ والتمسك به، والاهتداء بهداه، فالقرآن جاء ليبيِّن سنن الله تعالىٰ ويهدي العباد للأخذ بها، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النِّسَاء: ٢٦] ، وكذلك جاء ليبيِّن «ما به صلاحكم ومعاشكم في أمر دينكم ودنياكم... قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: سبيل الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وأهل الهدىٰ والطاعة منهم؛ ليعلموا ما عملوا هم وينتهوا عمَّا انتهوا... ويحتمل أي: يبيِّن لكم أن كيف كان سنَّته في الذين خلوا من قبل في إهلاك من عاند الله ورسوله، واستئصال من استأصلهم بتكذيب الرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ والخلاف لهم، ويحتمل: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ بمعنىٰ: جعل تلك السنن هداية لكم»[1]، فجعل هذه السنن هداية لكل مهتدٍ، وإذا قرأ الإنسان هذه السنن في

(١) تأويلات أهل السنة (٣/ ١٣٣، ١٣٤).

ضوء التاريخ البشري كان أكثر وعيًا وبصيرة بما هدىٰ إليه القرآن، وأكثر حرصًا للأخذ بأسباب العز والنصر والتمكين، وأبعد ما يكون عن أسباب الذل والخزي والخسران، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٣٧ - ١٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه : ١٢٨] ، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السَّجْدَة : ٢٦] ، وقال تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةًۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فَاطِر : ٤٣ - ٤٤] .

فهي سنن مطردة لا تتغير ولا تتبدل ولا تتخلف ، فكما حدثت في الماضين تحدث في اللاحقين، وهذا يستوجب فهم هذه السنن والأخذ بأسبابها، في النصر والتمكين والفلاح، والبعد عن أسباب الهزيمة والهلاك والخسران المبين، فإنَّ قيام الحضارات والدول وسقوطها قائم عليها، وهو سُنَّة الله القائم في من يحارب الحقّ ورسوله، قال تعالىٰ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾

[الأَحْزَاب : ٦٠ - ٦٢] ، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفَتْح: ٢٢ - ٢٣] .

وهذه السنن الإلهية الاجتماعية كثيرة، وليس المقصود هنا استقصائها، وإنَّما المقصود هنا إبرازها كممكِّن من ممكِّنات الهداية؛ لما تحدثه في النفس من وعي وبصيرة، كسنة الله تعالىٰ في الظالمين، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يُونُس : ١٣ - ١٤]،«فكما فعل السابقون أفعالًا منكرة فعذّبوا، كذلك يفعل بالأجيال المتلاحقة بسبب التّشابه في الأسباب واقتراف السّيئات... وقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأَحْقَاف: ٢٥] معناه: مثل ذلك الجزاء أي الإهلاك، نجزي كل مجرم»[(١)].

وكسنة الله تعالىٰ في الاختلاف، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأَنفَال : ٤٦]، وكسنة الله في المذنبين، وما تجلبه الذنوب من المصائب والبلايا عليهم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشُّورَى : ٣٠]، حتىٰ خيار الأمة لم يخرجوا من هذه السُّنَّة، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمْرَان : ١٦٥].

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي (٢/ ٩٥١).

وكسُنَّة بقاء الحق والباطل، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هُود : ١١٨ - ١١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يُونُس : ٩٩].

فمعرفة هذه السنن التي بيَّنها الله تعالىٰ لنا في كتابه، مع تدبر ما جاء في القرآن الكريم من أخبار الأنبياء والمرسلين والصالحين، وكيف كان عاقبة أمرهم في النصر والتمكين والنجاح والفوز المبين بما يتوافق مع ما بيَّنه من سنن، وما حدث لمن كفروا وكذبوا بهم من الهلاك والتدمير والخسران المبين، جعله أكثر إقبالًا للاهتداء بالقرآن الكريم، الذي جاء لبناء أمة قوية راشدة، وفق سنن الله تعالىٰ في الكون، من خلال ربط الأسباب بمسبباتها، وبيان ما يفضي إليه كل سبب من غايات ونتائج.

الرابع عشر: استحضار نعم الله تعالى وفضله:

لقد أنعم الله تعالىٰ علىٰ عباده بنعم لا تعد ولا تحصىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٣٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النَّحْل: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النَّحْل: ٥٣]؛ نعمة الأمن بعد خوف، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قُرَيْش: ٤]، ونعمة الهداية بعد ضلال، قال تعالىٰ: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفَتْح: ٢٠]،

ونعمة الاجتماع بعد تفرق واختلاف، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عِمۡرَان : ١٠٣]، ونعمة الغيث بعد قنوط، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الشُّورَى : ٢٨] ، ونعمة الأزواج والذرية والأحفاد، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ [النَّحۡل: ٧٢] ، وغيرها من نعم كثيرة ذكرها الله تعالىٰ في كتابه، وذكَّر به عباده حتىٰ يعرفوا فضله، ويقوموا بواجب شكره، قال تعالىٰ: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] ، وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المَائِـدَة : ٨٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الرُّوم:٤٦].

والشكر الحقيقي يكون من خلال العمل بكتابه؛ بالاستجابة لأمره والانتهاء عن نهيه، فمن تذكَّر نعم الله تعالىٰ عليه حيث خلقه من العدم وغمره بوافر النعم، وما زال يغمره، وهو فقير إليه، ليس بمستغنٍ عنه، استجابة لأمره، وسخَّر له نعمه فيما خُلقت له وسخِّرت، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النَّحۡل : ٨٠ – ٨١].

قال ابن رجب: «أنعم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علىٰ عباده بنعم كثيرة ظاهرة وباطنة، لا تعد ولا تحصىٰ؛ منها: نعمة السمع والبصر، ونعمة الخلق والإيجاد وغيرها من النعم... فالنعم الكثيرة التي أنعم الله بها علينا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تدل علىٰ تفرُّده بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة، والضر والنفع، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المستحق للعبادة دون سواه»[1].

الخامس عشر: الصحبة الصالحة:

فإنَّ من مكنات الهداية مصاحبة الطيبين، فإنها تكسب القلب طيبة وهدىٰ، ومصاحبة السيئين ترد النفس عن الهدىٰ بعد بلوغه، وتجرّه إلىٰ المعصية بعد أن ذاق حلاوة الطاعة، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفُرْقَان : ٢٧ - ٢٩] ، فمن صاحب أهل القلوب الخاشعة خشع قلبه، ومن صاحب أهل النفوس الطيبة طابت حياته، ومن صحب أهل الاستقامة استقام أمره علىٰ طاعة الله، والعكس بالعكس، فهم لا يريدون لك الهداية والاستقامة.

وقد بيَّن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك فيما جاء عن أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ والسَّوء، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحذيَك، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحرق ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تجد ريحًا خبيثة)[2].

---

(١) ابن رجب الحنبلي وأثره في توضيح عقيدة السلف (ص: ١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الذبائح والصيد والتسمية علىٰ الصيد، باب: المسك (٧/ ٩٦) رقم (٥٥٣٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء (٨/ ٣٧) رقم (٢٦٢٨).

والمرء يحشر مع من أحبَّ، ويعذَّب مع من أحبَّ، وإذا كان العاقل ينفر من أصحاب الأمراض المعدية المؤذية فكيف بمن وصفهم الله تعالىٰ بأنَّهم نجس ومرض؟! قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا﴾ [التَّوْبَة : ٢٨] ، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ [الأَحْزَاب : ١٢].

فالصحبة الصالحة تعين علىٰ التمسك بالقرآن، تشجيعًا وتعليمًا واقتداء، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ) [1].

وخلاصة القول: إنَّ الصحبة الصالحة ليست مجرد علاقة اجتماعية عابرة، بل هي وسيلة هداية عظيمة، وركن ركين من أركان الثبات علىٰ طريق الله، بها تشرق القلوب بنور الطاعة، وتُعان النفس علىٰ مجاهدة الهوىٰ، وتُبعث الهمم للسير في دروب الهدىٰ. فالمرء وحده قد يضعف أو يتعثر، أما إذا أحاط نفسه بأهل الإيمان والقرآن، فإنه يجد فيهم العون بعد الله، والسند في لحظات الفتور، والدافع في مواطن الفتن. وإن كان الشيطان لا يزال يترصَّد بالمؤمن، فإن الصحبة الصالحة من أعظم ما يُستعان به عليه، فطوبىٰ لمن اختار لنفسه رفقةً تذكره إذا نسي، وتعينه إذا ذكر، وتأخذ بيده إلىٰ الجنة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن، وعلىٰ الذكر (٨/ ٧١) رقم (٢٦٩٩).

فهذه جملة من الممكنات التي تجعل من القرآن منهج حياة متكاملًا، يقود من تمسّك به إلىٰ النجاح والفلاح في الدنيا، والفوز العظيم في الآخرة، وقد وردت بشأنها أدلّة مباشرة من الكتاب والسنة. ولما لها من أهمية بالغة، ولفشوِّ الغفلة عنها بين الناس، آثرنا الإطالة فيها والتنبيه علىٰ شأنها.

ممكّنات الاستهداء بالهدى

- الإيمان بالقرآن الكريم
- التسليم والطاعة للرسول ﷺ
- العلم بمعاني القرآن وهداياته
- مجاهدة النفس في العمل بالهدى
- الاقتداء بسير المهتدين بالوحي
- ربط الواقع بهدايات القرآن
- الأخذ بمحفّزات الأعمال الصالحة
- دعاء الله تعالى والاستعانة والاستعاذة به
- الاستعمال الأمثل لأدوات الفهم والإدراك
- تعظيم حدود الله تعالى
- عرض النفس على القرآن الكريم
- التفكر في آيات الله تعالى الكونية
- معرفة السنن الإلهية والأخذ بها
- استحضار نعم الله تعالى وفضله
- الصحبة الصالحة

المبحث الثالث

علامات المهتدين بالهدى

المهتدين بكتاب الله تعالىٰ لهم علامات كثيرة يُعرفون بها، يصعب حصرها؛ لأنَّ الاهتداء بالقرآن هو اجتهاد مستمر من العبد للتحلِّي بكل ما أمر الله تعالىٰ به في كتابه ورغَّب فيه، والتخلِّي عن كل ما نهىٰ عنه وحذَّر؛ ولكن هنالك علامات فاصلة لا تنعدم في أي شخص وجَّه قلبه ووجهته للاهتداء بالقرآن الكريم في حياته، ويمَّن شطره نحو نوره المبين وهديه المستقيم، فهي علامات أساسية لا تتخلف في حياة المهتدين، وهي تميز المتبع للقرآن حقًّا ممَّن أعرض عنه، فوجود هذه العلامات يعكس التزام الفرد بتعاليم الكتاب والسنة، وحرصه علىٰ تحقيق رضا الله في جوانب حياته جميعها، ومن هذه العلامات:

أولًا: تحقيق التوحيد: علامة الهداية البارزة:

من أخصِّ صفات المهتدين في القرآن الكريم: توحيد الله تعالىٰ، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، ونبذ الشرك وأهله، والبراءة من كل ولاء لغير الله. فقد جعل الله التوحيد مِلاك الهداية، وأساس الصراط المستقيم، والدعوة الجامعة التي نادىٰ بها جميع الأنبياء، فهو الأصل الذي تتفرع عنه سائر معاني الهداية، والميزان الفاصل بين المهتدين والضالين، والعلامة الأبرز علىٰ صفاء القلب، واستقامة المسير، وسلامة الوجهة.

وقد قرن الله تعالىٰ بين تحقيق التوحيد والهداية، فجعل عبوديته الخالصة هي الصراط المستقيم، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عِمْرَان: ٥١]. فالهداية لا تُنال إلا بتحقيق العبودية الخالصة لله، فهي الغاية والطريق معًا.

وبيّن أن الاعتصام به تعالىٰ هو السبيل الأوحد للهداية، فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عِمْرَان : ١٠١].

فجعل الله تعالىٰ الاعتصام به – توكلًا واستعانةً ولجوءًا – سببًا ضامنًا للهداية، دالًّا علىٰ أن من صدق في التجائه إلىٰ ربه، هداه الله بلا شك إلىٰ صراطه المستقيم.

وقد دلّ القرآن الكريم علىٰ أن صفوة المهتدين هم الذين خلص توحيدهم، وسلم إيمانهم من شوائب الشرك، فجمعوا بين صفاء العقيدة وكمال الاستقامة، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأَنْعَام : ٨٢] .

وقد جعل الله تعالىٰ التوحيد علامة فارقة للمهتدين، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مَرْيَم : ٥٨]، حيث جعل الهداية والاصطفاء قرينَي التوحيد والخضوع، فهؤلاء المهتدون المختارون هم الذين إذا تُليت عليهم آيات الرحمن سجدوا باكين، في دلالة علىٰ توحيدهم وإخلاصهم وخشوعهم، فكان ذلك علامة علىٰ تمام اهتدائهم.

فهؤلاء هم الموحدون حقًّا، الذين صدّقوا الإيمان بالعمل، فخشعت قلوبهم، وسجدت جوارحهم، وتواضعوا للحق، فاستحقوا نعمة الهداية والاجتباء التامة، وكان من خاصة المهتدين.

وقد تعجَّب سبحانه ممن يكفر به وآياته تُتلىٰ عليهم، ورسوله فيهم، قال تعالىٰ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عِمْرَان : ١٠١]؛ بل أمر بملازمة توحيده حتىٰ الممات، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٠٢].

وإذا كانت الهداية غاية عظمىٰ، فإن التوحيد هو ملتقىٰ هذه الغاية، والجامع الذي ينبغي أن تلتفّ حوله الأمة؛ بل جميع أهل الملل والنحل، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَان : ٦٤].

القرآن الكريم بأكمله دعوة صادحة إلىٰ توحيد الله تعالىٰ وإفراد العبادة له، ويقيم الحجة القاطعة علىٰ وجوب الإيمان بوحدانيته، ويبيّن فساد الشرك وأباطيله. تتجلىٰ هذه الحقيقة في العديد من السور، مثل الأنعام، والرعد، وإبراهيم، والنحل، والنمل، حيث تتوالىٰ الأسئلة الاستفهامية التي تهدم الشرك وتعود بالإنسان إلىٰ فطرته السليمة. في هذا السياق، يظهر التوحيد كعلامة فارقة بين المهتدين وغيرهم.

فالمهتدي لا يشرك بربه، ولا يدعو غيره، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يرفض عبوديته أبدًا، بل يُسلم وجهه لله في كل وقت، ويظل ثابتًا في الإيمان بتوحيده في السراء والضراء. وهذا ما يتجسد في قول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأَنْعَام : ٥٦]، حيث ربط بين عبادة غير الله واتباع الأهواء وبين الضلال، مما يدل علىٰ أن الهداية مشروطة بتحقيق التوحيد ورفض الشرك والهوىٰ، وأن من سلك غير سبيل العبودية الخالصة خرج عن دائرة المهتدين.

وقد بين تعالىٰ هذا المعنىٰ في قوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عِمْرَان:٢٠]، دلالةً علىٰ أن التسليم لله وحده هو سبيل الهداية الفعلي، وأن من أسلم وجهه لله، فقد أقبل علىٰ الطريق الصحيح.

وقال تعالىٰ أيضًا: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السَّجْدَة : ١٥] ، فالمهتدون هم الذين يذعنون لله، ويقبلون علىٰ عبادته بلا كبر ولا استكبار، متحققين بتوحيده في كل مجريات حياتهم.

مما سبق، يتبين أن التوحيد هو الأصل الأصيل للهداية، وأنه لا هداية بغيره. وبناءً عليه، يُعتبر التوحيد الصفة الفارقة بين المهتدين الذين يعبدون الله وحده، وبين الذين يضلون ويشركون بالله في عبادتهم. فإذا أُريد تمييز المهتدين حقًّا، فإن أول ما يُبحث عنه هو توحيدهم، وتسليمهم، وخضوعهم لله. وبهذا، يكونون أولىٰ الناس بالهداية الربانية والرحمة القرآنية.

ثانيًا: تعظيم الوحي ومحبته واتباعه:

من أبرز سمات المهتدين في القرآن الكريم: تعظيمهم للوحي -قرآن وسنة-، وإقبالهم عليه حبًا وفهمًا واتباعًا، لا كرهًا ولا استهزاءً ولا إعراضًا.

فالمهتدي يعظِّم كلام الله عز وجل، ويحب تلاوته وتدبره، ويحرص علىٰ العمل به، ويتلقىٰ أوامر الله ونواهيه بالقبول والانقياد. كما يعظم الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويوقره، ويقدِّمه علىٰ النفس والأهل والناس أجمعين، اتباعًا وطاعةً ومحبةً.

وقد تقرر في القرآن أن من أبغض الوحي أو سخر منه أو أعرض عنه، فهو من الضالين الخاسرين. قال تعالىٰ في وصف المنافقين الذين استهزؤوا بالوحي والرسول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التَّوْبَة : ٦٥]. فقد جعل الاستهزاء بالله وآياته ورسوله مخرجًا من الهداية، وسببًا للضلال والفضيحة، ولو زعم فاعله أنه مازح أو لاعب، مما يدل علىٰ خطورة التعرض للوحي بسخرية أو تهكم.

وقال عن الكافرين: وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [مُحَمَّد:٩]. فقد بيّن الله تعالىٰ أن مجرد كراهية الوحي سبب كافٍ لإحباط العمل، مما يدل علىٰ أن الهداية لا تجتمع مع البغض أو الإعراض عن وحي الله، فالإيمان الحق يقتضي القَبول والمحبة والتسليم.

أما أهل الإيمان والهداية، فكانوا علىٰ الضد من ذلك، يفرحون بالوحي ويسعدون به، ويجدون فيه النور والرحمة والشفاء. قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يُونُس : ٥٧ – ٥٨].

حيث أمر الله المؤمنين بالفرح بالوحي، لأنه فضلٌ ورحمة وهداية وشفاء، وهو أعظم من كل ما يجمعه الناس من حطام الدنيا، فدلّ ذلك علىٰ أن من كمال الهداية الفرح بالقرآن، وأن التلذذ بالوحي من علامات صدق الإيمان وسلامة الفطرة

كما وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأَنفَال : ٢]. إذ بيّن أن تلاوة آيات الله توجب في قلوب المؤمنين زيادة الإيمان واليقين، فهي لا تمرّ عليهم مرور الغافلين، بل تحرك وجدانهم، وتزيدهم هدىٰ علىٰ هدىٰ، مما يدل علىٰ شدة تعلّقهم بالوحي وعمق تأثرهم به، وذلك من دلائل الهداية الحقة.

بل إن أهل العلم واليقين كانوا يسجدون ويخشعون عند سماع آيات الله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإِسْرَاء : ١٠٧ – ١٠٩].

حيث دلَّ علىٰ أن أهل العلم الحق واليقين الصادق يُقابلون آيات الله بالسجود والخشوع والبكاء، لا بالصدود والجفاء، فكان تفاعلهم مع الوحي دليلاً علىٰ كمال إيمانهم وتمام هدايتهم، وهذا من أعظم علامات الانتفاع بالقرآن.

ومن ثمار هذه المحبة والتعظيم: انشراح الصدر للهدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأَنْعَام : ١٢٥]. حيث جعل الله انشراح الصدر علامة علىٰ إرادته الهداية للعبد، فالهداية تُثمر طمأنينة وسعة في الصدر لقبول الحق، بخلاف من أُريد به الضلال، فإن صدره يضيق ويحرج عن سماع الوحي، وهذه علامة فاصلة بين أهل الإيمان وأهل الإعراض.

ومن مظاهره كذلك: الاستجابة المطلقة لله ورسوله، والانقياد لأمره، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزُّمَر : ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النُّور : ٥١ – ٥٢] .

فهذه المحبة الصادقة، والفرح بالوحي، والتعظيم للقرآن والرسول، والاستجابة للهدىٰ، هي من أوضح علامات المهتدين، الذين زكت نفوسهم، واستنارت قلوبهم، وأبصروا طريق الله، فثبتوا عليه، وسعدوا به في دنياهم وأخراهم.

ثالثًا: المحافظة على الفرائض:

من أبرز علامات المهتدين: محافظتُهم علىٰ فرائض الدين، وحرصهم علىٰ أداء أركانه، وفي مقدّمتها الصلاة التي هي عمود الإسلام، والزكاة التي هي قرينة الصلاة في كتاب الله. فالهداية الحقيقية لا تثمر إلا التزامًا صادقًا، واستقامة ظاهرةً وباطنة، علىٰ ما أمر الله به وفرضه.

وقد قرن الله بين الإيمان الصادق وعمارة المساجد، وجعل من دلائل الهداية: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والخشية الصادقة من الله دون سواه، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التَّوْبَة : ١٨].

إنها آيةٌ ترسم ملامح المهتدين: إيمانٌ يملأ القلب، وعبادةٌ تعمُر الجوارح، وخشيةٌ لا تتوزّع بين الخلق، بل تتجه خالصة إلىٰ الحقّ سبحانه، وأملٌ صادق في أن يكون هؤلاء من أهل الهداية.

وفي المقابل، فإن من سمات المجرمين الذين ضلّوا عن سواء السبيل: تضييعهم لفرائض الله، وأوّل ما أقرّوا به في عذابهم: تضييع الصلاة، والتقصير في الزكاة، والانغماس في اللهو والتكذيب، قال تعالىٰ علىٰ لسانهم: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المُدَّثِّر : ٣٨ - ٤٧].

فهؤلاء لم يكونوا كفارًا منكرين فحسب، بل كانوا مفرِّطين في أهم مظاهر العبودية، غافلين عن أعظم صلة تربط العبد بربه: الصلاة، والزكاة، والإحسان للفقراء، فكان ذلك سببًا في هلاكهم الأبدي.

بل حتىٰ المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر، فضحتهم الصلاة، إذ يقومون إليها كُسالىٰ، بلا روح ولا إخلاص، إنما يفعلونها رياءً

للناس لا تقرّبًا إلىٰ الله، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّسَاء : ١٤٢].

وقال عنهم في موضع آخر: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التَّوْبَة : ٥٤].

فالصلاة هنا مِحكّ الإيمان، وميزان الهداية، ومن لم يقُم بها بحقها، فهدايتُه موضعُ شكّ، وصدقُ إيمانه بحاجة إلىٰ مراجعة.

وفي زماننا هذا، كم من الناس يزعمون الهداية، ويُظهرون الصلاح، لكنهم يُضيعون الصلاة، أو يتهاونون بها، أو يختصرون الدين في شعارات وأقوال، بلا عمل ولا التزام. فالهداية ليست مجرد دعوىٰ تُقال، وإنما هي طاعة تُرىٰ، واستقامة تُلمس، والتزامٌ يتجلّىٰ في المحافظة علىٰ ما افترضه الله، في وقتها وهيئتها وروحها.

من كان مهتديًا بحق، فلن يُفرّط في صلاته، ولا في زكاته، ولا في شعائر دينه، لأن الهداية نور، وأوّل ما يضيء في القلب: محبة الفرائض، وتعظيم أمر الله، والمسارعة إلىٰ مرضاته.

رابعًا: التحلي بمكارم الأخلاق:

من أبرز صفات المهتدين: تحلِّيهم بالأخلاق الكريمة، وتخلِّيهم عن الأخلاق السيئة، والرذائل والسيئات، إذ إن الهداية الحقَّة تُثمر في النفس سموًّا

خُلقيًّا، وترتقي بالإنسان في تعامله مع خالقه وخلقه. والقرآن الكريم ما نزل إلا ليُهذِّب الأرواح، ويُزكِّي النفوس، ويُنشئ مجتمعًا فاضلًا، أساسه مكارم الأخلاق.

فالقرآن يأمر بالصدق وينهىٰ عن الكذب، ويحث علىٰ العدل وينهىٰ عن الظلم، ويُعلي من قيمة الأمانة ويحذِّر من الخيانة، ويحبب التواضع ويذم الكِبر، ويرغِّب في حسن القول وينفِّر من الفُحش والبذاءة. ولا عجب، فالمهتدون بالقرآن يتخلَّقون بأخلاقه، ويتعاملون مع الناس بلطف ورحمة، وحِلمٍ وسَماحة، يقتدون في ذلك بإمام المهتدين، الذي مدحه ربُّ العالمين بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القَلَم:٤].

فإذا كانت شهادة الله لنبيّه بالخُلق العظيم، فإن أعظم الهداية أن يسير الإنسان علىٰ خُطاه، كما جاء عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند ما سئلت عن خلق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: (كان خُلُقُه القرآن) (١)، أي: أن سلوكَه كان ترجمة حية لهدي الكتاب.

قال ابن رجب الحنبلي: «تعني: أنَّه كان تأدَّب بآدابه، وتخلَّق بأخلاقه، فما مدحه القرآن، كان فيه رضاه، وما ذمه القرآنُ، كان فيه سخطه» (٢).

(١) أخرجه أحمد في المسند، برقم٢٤٦٠١، والبخاري في الأدب المفرد، باب من دعا الله أن يحسن خلقه بنحوه، برقم ٣٠٨، وأبو داود برقم١٣٤٢، وابن ماجه برقم ٢٣٣٣، والنسائي في السنن الكبرىٰ، برقم ١١٣٥٠، والحاكم في المستدرك كتاب التفسير، سورة المؤمنون] به، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) جامع العلوم والحكم (ص:٣٥٣).

فالمهتدون يسعون لتنقية نفوسهم عن مساوئ الأخلاق، خاصة التي تتعلق بالقلب؛ لأن الهداية لا تستقيم مع الحقد والحسد وسوء الظن وغيرها، فهذه الظلمات تحجب أنوار الإيمان. ولذلك وصف اللهُ عبادَه المهتدين بقوله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفُرْقَان : ٦٣]. إذ ابتدأ وصف المهتدين بالتواضع ولين الجانب، دلالةً علىٰ صفاء نفوسهم من الكِبر والغلظة، واتباعهم سبيل السكينة والسلام، وهذه الأخلاق القلبية من ثمار الهداية، فلا يجتمع نور الهدىٰ مع ظلمات الكبر والعدوان.

فهذا مشهد أخلاقي راقٍ، يعبِّر عن التواضع والحِلم وضبط النفس، وكلها ثمار للهداية الراسخة.

كما بيَّن الله أن الجنة الموعودة لا تكون إلا لمن تخلَّق بأخلاق أهل التقوىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٣٣ - ١٣٤]، فهذه الآيات فيها دلالة بيِّنة علىٰ أن الجنة لا تكون إلا لأصحاب النفوس المصفاة، التي تخلّقت بأخلاق أهل الهداية، من الإنفاق في الشدة والرخاء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، والإحسان في كل حال. فالهداية ليست دعوىٰ تُرفع، وإنما هي خُلقٌ يُتَرجَم، وزكاةُ نفسٍ تُثمر صلاحًا في السر والعلن، وهذه الأخلاق هي برهان التقوىٰ، وعلامة الصدق في طلب الهُدىٰ.

وفي واقع الناس اليوم، كم نرىٰ من يُحسن الظاهر ويُجمّل الشعارات، لكنه يسيء في تعامله، ويظلم في حكمه، ويغش في معاملته، ويطعن في أعراض الناس، فهذا تناقضٌ فادح بين الدعوىٰ والحقيقة. إن الأخلاق هي المِحكّ الصادق للهداية، وهي الشاهد العملي علىٰ الإيمان، فإذا افتقدها الإنسان، فقد افتقد نور الهداية، ولو كثر علمه وصلاته.

الهداية لا تُقاس بكثرة المحفوظات، وإنما تُقاس بحجم التحوُّل الخلقي في واقع الإنسان، فإذا تحوَّل الغضوب إلىٰ حليم، والمتكبّر إلىٰ متواضع، والخائن إلىٰ أمين، علمنا أن الهداية قد مست قلبه، وأن القرآن قد أثمر في سلوكه، وتلك أعظم البشائر.

خامسًا: الابتعاد عن كبائر الذنوب والمحرَّمات:

من صفات المتقين، وعباد الرحمن المهتدين: أنَّهم يبتعدون عن كبائر الذنوب والآثام، التي تجلب غضب الرحمن؛ كالقتل، الزنا ، الربا، السرقة، الخمر، أكل أموال الناس بالباطل وغيرها، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفُرْقَان: ٦٨ - ٧٠] . توضح هذه الآية الكريمة أن المهتدين يبتعدون عن الكبائر، وإذا وقعوا في خطأ أو معصية، فإن التوبة والإنابة إلىٰ الله هما الطريق إلىٰ المغفرة والرحمة.

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البَقَرَة:٢٧٨] ، وقد جاء التحذير من الربا مشروطًا بالإيمان، في قوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، مما يدل علىٰ أن الالتزام بالحلال واجتناب الحرام في المعاملات المالية هو مظهر من مظاهر صدق الإيمان وعلامة علىٰ الهداية الراسخة. فالمهتدون يُنقُّون مكاسبهم من الشبهات، ويَتورَّعون عن المحرَّمات، حفظًا لنقاء دينهم، وابتعادًا عن الآثام التي يجُرّها أكل المال بالباطل.

وقال تعالىٰ في صفات المهتدين: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النَّجم:٣٢] . فقد صرّحت الآية أن المهتدين هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، إلا ما كان من اللمم، أي الذنوب الصغيرة التي يُعفىٰ عنها بالتوبة والمغفرة، فكان اجتناب الكبائر علامة مميزة في طريق الاستهداء.

وإذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم أنابوا إلىٰ الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عِمۡرَان : ١٣٥] ، وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٨ – ٢٧٩].

نجد أن المهتدين لا يُصرون علىٰ الذنب، بل إذا وقعوا في فاحشة أو ظلم، تذكروا الله وتابوا إليه. هذه سمة بارزة للمؤمنين الحقيقيين الذين يتصفون بالتواضع والاعتراف بخطاياهم.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ)[1].

فهذا الحديث فيه تأكيد علىٰ حرمة الدماء والأعراض والأموال بين المسلمين، وهي من الكبائر التي يحرمها الإسلام ويُعدُّ الابتعاد عنها علامة علىٰ التزام المهتدين بهدي الله ورسوله.

فالمهتدون يمتنعون عن كبائر الذنوب والمحرمات التي تجلب غضب الرب، وإذا وقع منهم ذنب سارعوا إلىٰ التوبة والإنابة.

وبذلك، يشير القرآن إلىٰ أن الابتعاد عن الكبائر والمحرمات، والتوبة عند الوقوع فيها، من خصائص المهتدين الذين يستحقون الهداية والرحمة الإلهية.

سادسًا: الولاء للمؤمنين والبراءة من الكافرين:

من أعظم علامات المهتدين في القرآن الكريم هو ولاؤهم وحبهم للمؤمنين، وبغضهم وبراءتهم من الكافرين والمشركين. حيث بيّن القرآن أن المؤمنين الحق لا يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بل إنهم يوفون ولاءهم فقط لله ورسوله والمؤمنين. قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره، ودمه، وعرضه، وماله (٨/ ١٠) رقم (٢٥٦٤).

تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [المُجَادلَة : ٢٢]. هذه الآية توضح أن الحب في الله والولاء للمؤمنين لا يتأثر حتىٰ بالعلاقات الأسرية، إذ يتفوق الولاء لله ورسوله علىٰ أي مصلحة دنيوية أو روابط عائلية، فالهداية الحقة تُثمر ولاءً لله ولرسوله وعداوةً لأعدائه، ولو كانوا أقارب، فذلك برهان الإيمان المغروس في القلب، وعلامة من علامات المهتدين.

أما الذين يتخذون الكافرين أولياء ويُفضّلونهم علىٰ المؤمنين، فقد حذرهم القرآن الكريم من مغبة هذا الفعل، حيث قال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [آل عِمۡرَان : ٢٨]. فهذه الآية تظهر أن موالاة الكافرين علىٰ حساب المؤمنين نقيض للهداية والإيمان، فهي دليل علىٰ ضعف الولاء الديني، واستحقاق للبراءة من الله، إلا في حال الضرورة والاتقاء، مما يدل علىٰ خطورة هذا المسلك وخروجه عن مقتضىٰ الهداية.

وفي سياق آخر، بيّن القرآن خطر التولي للكافرين خاصة في قوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ [المَائِدَة : ٨٠ - ٨١]. ففي هذه الآية يبيّن الله تعالىٰ أن التولي للكافرين علامة علىٰ ضعف الإيمان

وخروج عن مقتضىٰ الهداية، وأن سببه الحقيقي هو الفسق، ولهذا استحق أصحابه سخط الله والخلود في العذاب، مما يؤكد أن الولاء الصحيح من أوضح دلائل المهتدين.

أما عن المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء، فقد بيّن القرآن أن ذلك من أعظم مظاهر الضلال، حيث قال: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النِّسَاء: ١٣٨ - ١٣٩]. هنا يُبرز أن موالاة المنافقين للكافرين من دون المؤمنين من أعظم صور الضلال، ودليل علىٰ انطماس البصيرة، إذ يطلبون العزة ممن لا يملكها، وقد حصرها الله في نفسه، فجاءت الآية فاصلة بين منهج النفاق والهداية الحقّة.

وبيَّن حكم من يتولَّاهم، فهو منهم ، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المَائِدَة: ٥١]، يظهر هنا خطورة موالاة أعداء الدين، فهي ليست مجرد معصية؛ بل مؤشرٌ علىٰ الانتماء إليهم، مما يُخرج صاحبه من دائرة الهداية، ويوقعه في وصف الظلم الذي يُحجب به التوفيق، إذ قال: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾.

وبيَّن تعالىٰ بيانًا واضحًا ضلال من يفعلون ذلك وبعدهم عن الهدىٰ والهداية، قال تعالىٰ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأَعْرَاف : ٣٠].

لذلك، فالمهتدون هم الذين يثبتون علىٰ ولائهم لله ورسوله والمؤمنين، ويتجنبون موالاة الكافرين والمشركين، لأنهم يعلمون أن الهداية والنجاح مرتبطان بمدىٰ التزامهم بقيم الإيمان الحقة.

سابعًا: التدبر والتفكر في آيات الله:

من أبرز صفات المهتدين تدبرهم في آيات الله تعالىٰ المقروءة، وتفكرهم في آياته المنظورة؛ فإن الله أنزل كتابه ليتدبره الناس ويعقلوا معانيه، ويتذكّر أولو الألباب بما فيه من الهدىٰ والنور، قال تعالىٰ عن صفات عبد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفُرْقَان : ٧٣] . فهم يتلقون آيات الله بسمعٍ واعٍ وبصرٍ بصير، لا كمن يمر عليها معرضًا أو يسمعها بقلبٍ مغلق، بل يعظمونها، ويفقهونها، ويتأثرون بها، فهؤلاء هم المهتدون حقًا.

وقال تعالىٰ: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. فالتدبر سِمة أهل اللبّ والعقل، الذين لم تُغلق قلوبهم، ولم تُغلّفها الأقفال كما هي حال من أعرضوا عن الهدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [مُحَمَّد : ٢٤].

وكما أن التدبر في الوحي سبيل للهداية، فإن التفكر في آيات الله الكونية في السماوات والأرض دليل آخر علىٰ رسوخ الإيمان وعمق الهداية، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى

خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمْرَان : ١٩٠ – ١٩١]. فهذه الآيات تؤكد أن التفكر في الكون يقود إلىٰ الإيمان الحق والخشية من الله، بخلاف الغافلين الذين يمرّون علىٰ آيات الله دون أن تعني لهم شيئًا، قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يُوسُف: ١٠٥]. فالكافر أو الضال يمرّ علىٰ الآيات الكونية دون أن يتفكر، وهذه علامة علىٰ أنه ليس من المهتدين، إذ لو كان كذلك لكانت تلك الآيات مثيرة لإيمانه ويقينه.

فالآيات الكونية ليست مجرد مشاهد طبيعية، بل هي آيات لله تفتح باب الهداية للمتفكرين. ومن تأمل في صنيع الله بتفكرٍ خالص، قاده ذلك إلىٰ الإيمان واليقين ، وهذا غاية الهداية.

فالتدبر في آيات الوحي، والتفكر في آيات الكون، سِمتان لازمتان للمهتدين، يقودانهم إلىٰ تعظيم الله، واليقين بلقائه، والفرار إليه، والعمل بشرعه، بعكس الغافلين الذين سُدّت عليهم منافذ الهداية فأعرضوا عن الكتاب والكون معًا.

ثامنًا: الإكثار من ذكر الله تعالى:

من أبرز صفات المهتدين: الإكثار من ذكر الله تعالىٰ في جميع الأحوال، قيامًا وقعودًا وعلىٰ جنوبهم، فهم لا يغفلون عن ربهم، ولا ينسون نعمته، ولا يملّون من تسبيحه وتمجيده، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عِمْرَان: ١٩١].

وأما المنافقون، فقلوبهم غافلة، وألسنتهم جافة، وذكرهم لله لا يكاد يُسمع، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّسَاء: ١٤٢].

فقلّة الذكر دليل نفاق، وقلّة حياة في القلب، بل هو من صفات الذين استحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم ذكر الرحمن، قال تعالىٰ: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المُجَادلَة: ١٩].

فالتفاوت البيِّن بين أهل الهداية والمنافقين في صلتهم بالله، فالمهتدون حيّة قلوبهم بذكره في كل حال، أما المنافقون فذكرهم قليل، ثقيل، لا ينبع من قلب، وإنما رياء لا يُرضي الله ولا يُقرِّب إليه.

كما أن الإعراض عن الذكر سمة الكافرين، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ﴾ [الصَّافَّات:١٣]. والمؤمن المهتدي عكس ذلك، إذا ذكر انتفع بالتذكير، وانتبه من الغفلة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ٢٠١]

فالغفلة عن ذكر الله تعالىٰ من صفات الضالين الخاسرين؛ لذا حذَّر الله تعالىٰ منها المؤمنين المهتدين، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المُنَافِقُون: ٩].

فالإكثار من ذكر الله ليس مجرد عملٍ لسانيّ، بل هو أثرٌ لإيمانٍ حيّ، وعلامةُ قلبٍ سليم، ودليلُ عقلٍ راشد؛ فهو عنوان الهداية، وسمة أولي الألباب، وسبيل النجاة في الدنيا والآخرة. ومن أقلّ ذكر الله أو أعرض عنه،

فقد أغفل قلبه، وأطفأ نوره، وسار في درب الخاسرين. فاعمر قلبك بذكر الله، فإن الذّاكرين هم المهتدون حقًّا، الذين اصطفاهم الله لولايته، وجعلهم من حزبه المفلحين.

تاسعاً: حمل هم الدعوة والإصلاح:

من أبرز سمات المهتدين في القرآن الكريم: انشغالهم بهمّ الدعوة إلىٰ الله، وسعيهم المتواصل في إصلاح مجتمعاتهم، من خلال الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلىٰ الحق، والتواصي به، والمشاركة الفاعلة في نشر الهداية بين الناس. فالهداية الصادقة لا تكتمل إلا إذا اقترنت بحمل رسالتها، والتبليغ بها، والعمل علىٰ إقامتها في واقع الحياة.

وقد جمع الله تعالىٰ صفات المهتدين الحقيقيين في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التَّوْبَة : ٧١].

ففي هذه الآية عدّ الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أوائل صفات المؤمنين المستحقين لرحمته، مما يدل علىٰ أن الإصلاح والدعوة من علائم الإيمان الراسخ والهداية الحقة.

كما بيّن تعالىٰ أن نور الهداية يُثمر أثراً اجتماعيـًا، لا يظل حبيس القلب، بل يسري في واقع الحياة، قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأَنْعَام:١٢٢].

فالهداية الحقّة تُحيي القلب، وتجعل لصاحبها نوراً عملياً يهتدي به ويهدي غيره، فهو لا يكتفي بأن ينجو بنفسه، بل يمشي في الناس بذلك النور، مؤثِّراً ومُصلحاً، كما بين تعالىٰ نماذج من هؤلاء في كتابه، قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠ - ٢١].

فهذا الرجل دعا قومه إلىٰ اتباع المرسلين، فوصفهم بالهداية، مما يدل علىٰ أن الصادقين في دعوة الخلق إلىٰ الله هم من المهتدين، بل هم وسائط الهداية.

كما بين تعالىٰ أنَّ كتم الحق وعدم بيانه للناس علامة علىٰ صفات الضالين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: ١٧٤ - ١٧٥].

وبهذا، يظهر أن المهتدين لا يقتصرون علىٰ الاهتداء لأنفسهم فقط، بل يسعون دائمًا لنشر الخير بين الناس، وتحقيق الإصلاح في المجتمع، وهو ما يميزهم عن غيرهم من الضالين الذين يرفضون تبليغ الحق ويكتفون بالجهل والضلال.

عاشرًا: خشية الله والسعي لتحقيق مرضاته:

من أبرز صفات المهتدين التي يُذكرها القرآن الكريم، خشيتهم الدائمة لله تعالىٰ، وسعيهم الحثيث لتحقيق مرضاته، والفوز بجنته، والنجاة من عذابه. فقد بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه العزيز أن المهتدين يسيرون في حياتهم علىٰ هدىً من الله، يتطلعون إلىٰ مرضاته في كل قول وفعل. قال تعالىٰ في وصف عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفُرْقَان: ٦٣ - ٦٦].

في هذه الآية الكريمة، يُظهر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن عباد الرحمن يتحلون بخُلقٍ عظيم من الخشية لله، ويشفقون من عذابه، ويحرصون علىٰ أن يتجنبوا الأسباب التي قد تؤدي بهم إلىٰ جهنم. إن خشية الله تعالىٰ وتجنب غضبه هو من أبرز ملامح المهتدين الذين يسعون دائمًا لإرضاء الله بالقول والعمل.

كما نجد في آية أخرىٰ تأكيدًا علىٰ أن المهتدين يحرصون علىٰ الإيمان بالله ورسالاته، ويتجنبون الشرك به، ويعيشون في شفقة دائمة من الوقوع فيما يغضب ربهم، ولا يحقق لهم مرضاته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المُؤْمِنُون: ٥٧ - ٦١].

تُظهر هذه الآية الكريمة أن المهتدين هم أولئك الذين يعيشون في حالة من الخشية المستمرة من الله تعالىٰ، ويشفقون من العواقب السلبية لأفعالهم، مما يدفعهم إلىٰ تحري الأعمال الصالحة والابتعاد عن كل ما يبعدهم عن مرضاة الله. وهذه الخشية تدفعهم للتوبة المستمرة، والالتزام بما يرضي الله، ويحرصون علىٰ أن تكون أعمالهم في كل وقت تقربهم إلىٰ الله. إذ يرون أن كل عمل صالح يقدمونه هو استعداد للقاء الله في الآخرة، مما يجعلهم يسارعون في فعل الخيرات ويحرصون علىٰ الإحسان في كافة مجالات حياتهم.

كما أن قلوبهم تبقىٰ مشفقة وواجلة من أن لا ينالوا مرضاة الله، مما يعزز فيهم السعي المستمر نحو الأعمال الصالحة. وفي هذا السياق، يتسابق المهتدون في الخيرات، متطلعين إلىٰ الفوز برضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يكتفون بالقليل من العمل، بل يحرصون علىٰ التفوق في كل جانب من جوانب حياتهم من عمل صالح وعبادة.

علامات المهتدين بالهدى

تحقيق التوحيد	تعظيم الوحي ومحبته واتباعه	المحافظة على الفرائض	التحلي بمكارم الأخلاق	الابتعاد عن كبائر الذنوب
الولاء للمؤمنين والبراءة من الكافرين	التدبر والتفكر في آيات الله	الإكثار من ذكر الله تعالى	حمل هم الدعوة والإصلاح	خشية الله والسعي لمرضاته

المبحث الرابع

ثمرات الاستهداء بالهدى

الله تعالىٰ أمر بالاهتداء بكتابه والاستقامة علىٰ هديه القويم، والاستجابة لأمره ونهيه، ووعد المهتدين به، المستقيمين عليه بمكتسبات كثيرة، وثمرات عديدة، وبركات كبيرة تتحقَّق لهم في الدنيا والآخرة، تحدَّث عنها العلماء كثيرًا، وتناولوها بأوجهٍ عديدة، أذكر هنا فقط أهم عشر ثمرات يجنيها العبد في الدنيا والآخرة، من باب التنبيه بالقليل عن الكثير، فإنَّ ثمرات اتباع الهدىٰ علىٰ الفرد والمجتمع لا يحصيها إلا الله تعالىٰ، وهي لمن عرفها واستحضرها من أعظم الممكِّنات للهداية.

أولًا: الهداية إلى الحقِّ والصِّراط المستقيم:

من أعظم ثمرات الاهتداء بالقرآن الكريم هي الهداية إلىٰ الصِّراط المستقيم، وللتي هي أقوم في العقيدة، الأخلاق، العبادات، وسائر الأمور ، مع العصمة من طرق الضَّلال والغواية، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسْرَاء : ٩] ، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المَائِـدَة: ١٥ – ١٦].

وقال تعالىٰ عن الجن: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجِن : ١ – ٢]، وقال تعالىٰ عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأَحْقَاف: ٣٠] .

فعن عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاتَّبَعَ مَا فِيهِ هَدَاهُ اللهُ مِنَ الضَّلَالَةِ فِي الدُّنْيَا، وَوَقَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْحِسَابَ» قَالَ: «فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]»[(١)].

وعن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجُحْفَةِ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟» ، قُلْنَا: بَلَىٰ، قَالَ: «فَأَبْشِرُوا فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَهْلِكُوا وَلَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا»[(٢)].

فهو الهدىٰ والنور والعلم والحكمة التي بصَّر الله تعالىٰ به عباده، وأخرج به من الظلمات إلىٰ النور، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١٧٤ - ١٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يُونُس: ١٠٨ - ١٠٩].

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٧٩).

(٢) أخرجه البزار في مسنده برقم٣٤٢١، الطبراني في المعجم الصغير برقم١٠٤٤، والمنذري في صحيح الترغيب والترهيب، وصححه الألباني في صحيح الجامع وزيادته برقم٣٤.

ثانيًا: تحقُّق السعادة في الدارين:

فمن ثمرات اتِّباع الوحي: تحقق السعادة، وتجنُّب الشقاء في الدارين، فالناس جميعًا يسعون لنيل هذه السعادة، فهي الضالة المنشودة، والغاية المطلوبة لذاتها، والمعنىٰ الحقيقي للحياة الذي من دونه تفقد الحياة طعمها ورونقها؛ ولكن سبل الخلق وسعيهم للوصول إليه شتَّىٰ، وقليل من الناس من يهتدي إلىٰ سبيلها، وقد بيَّن تعالىٰ سبيلًا واحدًا لتحقيقها، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه : ١٢٣]، وإذا أبعد الله تعالىٰ عنك الضَّلال أثبت لك كمال الهدىٰ، وإذا نفىٰ عنك الشقاء أثبت لك كمال السعادة، وهي لا تكون إلَّا باتِّباع القرآن.

قال ابن تيمية في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]:«ونسيانها هو ترك الإيمان والعمل بها وإن حفظ حروفها، قال ابن عباس:«تكفَّل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضلّ في الدنيا ولا يشقىٰ في الآخرة » وقرأ هذه الآية. فمن اتبع ما بعث الله به رسوله محمدًا ﷺ من الكتاب والحكمة؛ هداه الله وأسعده، ومن أعرض عن ذلك ضلَّ وشقي، وأضلَّه الشيطان وأشقاه»[(١)].

وقال ابن القيم:«الآيةُ نفَت مسمَّىٰ الضَّلال والشَّقاء عن متَّبع الهدىٰ مطلقًا»[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٨٤).

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٩٣).

وقال العز بن عبد السَّلام: «فالسَّعادة كل السَّعادة اتِّباع القرآن، والتمسك بشريعة الإسلام وسنَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَن خالف ذلك فقد بعد من الله بقدر ما خالف منه، فمن شاء فليقل، ومن شاء فليستكثر»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١ - ٢].

قال قتادة: «لا والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونورًا، ودليلًا إلىٰ الجنة»[2].

فالله تعالىٰ ما أنزل كتابه إلا لسعادة الفرد والجماعة والأمة المؤمنة به، فمن يظن خلاف ذلك فقد أساء الظن بربه الكريم، وما علم عظيم صفاته الحكيم، العليم، الرحيم، فالسعادة بكل معانيها في الاهتداء بالقرآن الكريم، والشقاء بكل معانيه في الإعراض عنه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

ثالثًا: الطمأنينة والسكينة القلبية:

من أعظم ثمرات الاهتداء بالقرآن الكريم: طمأنينة القلب، وراحة النفس، وصلاح البال، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرَّعْد: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ [مُحَمَّد: ٢].

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٢/ ٦٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٢).

فمن نعم الله تعالىٰ علىٰ المهتدين بالقرآن: «أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ينزع من قلب المهتدي الاضطراب والحيرة، ويزرع في قلبه الطمأنينة، والهدوء، والسكون، والارتياح، وهذه وحدها كافية لتعدل كل لذة في الدنيا؛ فإنَّ القلق داء العصر، والاضطراب والحيرة مرض هذا الزمان، وسببه: البعد والضَّلال عن منهج الله»[1].

فإنَّ الضَّلال كله خوف، وقلق، وحيرة، واضطراب، ودواؤه: اتباع الهدىٰ، الذي من فعله أطمأن وسلم في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣ - ١٤].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيت مِنْ بُيُوتِ اللهِ تَعَالَىٰ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَنْ عِندَهُ»[2]، فالاهتداء بالقرآن من أعظم ثماره: ما يتحقَّق في النفس من أمن، وطمأنينة، ورضًا، وسكينة، وراحة.

رابعًا: السَّلامة من شرور الضَّلال ومخازيه:

إنَّ اتباع القرآن رحمة، يسلِّم الله تعالىٰ به العبد من شرور كثيرة يقوده

---

(١) الهداية (ص: ٤١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن، وعلىٰ الذكر (٨/ ٧١) رقم (٢٦٩٩).

الشيطان إليها، فهو يسعىٰ دائمًا مع الإنسان ليوقعه في الشر والفساد، الذي يجلب له الخزي والخسران في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأَنْعَام : ١٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البَقَرَة : ٢٠٨ – ٢٠٩]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النُّور : ٢١] .

فالشيطان يريد أن يسوق الإنسان إلىٰ عكس الطريق الذي يريد القرآن أن يهديه إليه، فهو يريد أن يصدَّه عن التوحيد ليوقعه في الذُّلِّ و الخذلان، قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإِسْرَاء : ٢٢]، ويريد أن يبعده عن الطهر والعفاف ليوقعه في الزنا والفساد، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإِسْرَاء : ٣٢] ، ويريد أن يسوقه إلىٰ الخمر ليوقعه في العداوات والمنكرات، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المَائِـدَة: ٩١] ، وغيرها كثير.

فمن ثمرات الاهتداء بالقرآن الكريم: سلامة النفس من مئات الشرور والآفات والمشكلات والآثام التي هي سبب كل ذلٍّ وخسران، فأهل الهدىٰ

هُدوا لكل طيب من الأقوال والأفعال؛ بل حتىٰ في الصحبة من الناس، وأهل الضَّلال وقعوا في كلِّ سيِّئ من الأقوال والأفعال؛ بل حتىٰ من الزوجات والأصحاب، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النُّور : ٢٦].

خامسًا: سعة الرزق وبركته:

الرزق كله من الله تعالىٰ، فهو الرزاق ذو القوة المتين، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العَنكَبُوت : ٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الرُّوم : ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فَاطِر : ٢ - ٣].

ومن ثمار الهداية أنَّ الله تعالىٰ يبسط رزقه للمهتدين، فقد وعد من يقيم هذا الكتاب بالعيش الكريم، والرزق الوفير، والبركة حتىٰ في القليل، قال تعالىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجِن : ١٦]. فالاستقامة علىٰ طريق الهداية سبب في فيض الرزق وبركته، فالله يسوق الغدق - أي الرزق الوفير - للمهتدين المستقيمين، جزاءً لثباتهم علىٰ الحق.

قال ابن جرير:«وأن لو استقام هؤلاء القاسطون علىٰ طريقة الحق والاستقامة ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ يقول: لوسعنا عليهم في الرزق، وبسطناهم في الدنيا (لنفتنهم فيه) يقول: لنختبرهم فيه»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المَائِـدَة: ٦٦].

تدل بوضوح علىٰ أنَّ الهداية من خلال الالتزام بما أنزل الله علىٰ عباده – سواء كان في التوراة، الإنجيل، أو القرآن – تفضي إلىٰ بركة ورزق في الدنيا، وأن من يلتزم بهداية الله، سواء كان في الكتاب السابق أو في القرآن، ينال من الفضل ما لا يُقدَّر، حيث يُفتح له أبواب الرزق والبركة من أعلىٰ ومن أسفل.

إقامة التوراة والإنجيل تعني الاستهداء بهما والعمل بما فيهما، فيعيش المؤمن في استقرار ورغد. لذا، فالاهتداء بالوحي الذي أنزله الله يحقق للإنسان البركة في رزقه وفي حياته العامة، ويُفجر في قلبه الطمأنينة والسكينة، وذلك من خلال الالتزام بما يرضي الله، علىٰ عكس ما يفعله كثيرٌ من الناس من إعراض عن أوامر الله فيقعون في الشقاء والضيق.

وقد بيَّن تعالىٰ أنَّ كلَّ مَن اتَّقاه كفاه، ولا تتحقق التقوىٰ إلَّا باتِّباع القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق : ٢ – ٣]. حيث بيَّن الله تعالىٰ أن من

(١) جامع البيان (٢٣/ ٦٦٢).

يتقيه ويسير في طاعته، فإنَّه يفتح له أبواب الرزق من حيث لا يدري، ويمده بما ينفعه في دنياه وآخرته. هذه الآية تؤكد أن الاهتداء والاتقاء بالله يؤديان إلىٰ رضا الله، الذي يحقق للعبد بركة ورزقًا لا حدود له.

إذن، الاستهداء بالقرآن والتقوىٰ بالله هما السبب الرئيس في الرزق والبركة، فالتقوىٰ تجعل الإنسان في معية الله ورعايته، والاهتداء يفتح له أبوابًا من الرزق غير متوقعة، وتجعله في دائرة رحمة الله التي تشمل سائر جوانب الحياة.

سادسًا: الوحدة والاجتماع:

من أبرز ثمار الاستهداء بالقرآن الكريم هو تحقيق وحدة الصف واجتماع الكلمة، إذ إن القرآن الكريم هو السبيل الأسمىٰ لتحقيق الوفاق بين المسلمين ودرء أسباب التفرقة بينهم. وقد ورد في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عِمۡرَان : ١٠٣].

هذه الآية الكريمة تدل علىٰ أن الاهتداء بكتاب الله تعالىٰ هو الذي يؤلف بين القلوب ويجمع الأمة في صف واحد بعد أن كانت متفرقة، بل وأكثر من ذلك، فقد كانت هذه الفرقة قابلة للهلاك والانقسام الذي يهددها. فالقرآن هو العامل الأساسي في توحيد الأمة وجعلها في حالة من القوة والتماسك.

وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آية أخرىٰ كيفية معالجة الاختلافات والتنازع بين المؤمنين، فقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النِّسَاء : ٥٩].

هذه الآية تشير بوضوح إلىٰ أن الحل لأي نزاع بين المسلمين هو العودة إلىٰ الكتاب والسنة، وليس إلىٰ الهوىٰ أو الاختلافات الشخصية أو الحزبية.

وفي سياق آخر، بين الله تعالىٰ ما يترتب علىٰ عدم الالتزام بالهداية والاختلاف، فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأَنفَال: ٤٦]، أي أن التنازع يفضي إلىٰ الضعف والفشل، بينما الوحدة والتعاون علىٰ طاعة الله تقوي الأمة وتزيد من عزمها.

بذلك، يظهر بجلاء أن الاهتداء بالقرآن الكريم هو السبيل الوحيد لحماية الأمة من الفرقة والتشرذم، وهو الأساس الذي يضمن لها الاجتماع علىٰ الحق والتوحد في مواجهة التحديات.

سابعًا: ولاية الله تعالى ونصرته:

من أعظم ثمار اتِّباع القرآن الكريم: تحقق الولاية الربانية لعباده المؤمنين، حيث يحقق الله لهم النصر والتأييد ويجعلهم في حمايته ورعايته، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد : ٧]، ففيها أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعد من ينصره باتباع أوامره وأداء واجباته بأن ينصرهم ويثبت أقدامهم في ميادين الحياة، بينما من يعرض عن نصرته سبحانه وتبتعد عن العمل بما أنزل الله، فإن أعمالهم تكون محبطة ويقعون في الفشل والخسران.

كما بيَّن القرآن الكريم أن الله تعالىٰ هو ولي المؤمنين والمتقين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عِمْرَان: ٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجَاثِيَة : ١٩]. وهذه الآيات تؤكد أن الله هو من يحفظ المؤمنين والمستقيمين علىٰ منهجه، ويفيض عليهم بركاته ونصره، ويؤيدهم في كل شؤون حياتهم.

وأما بالنسبة لمن يتبع غير هدي الله ويتخذ ولاءه من غيره، فقد بيَّن الله تعالىٰ في القرآن الكريم خذلناه وخسارته، قال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البَقَرَة : ١٢٠].

ففي هذه الآية تحذر من الخذلان الذي يترتب علىٰ اتباع غير هدي الله، وتبين أنه لا وليّ ولا نصير لمن يعرض عن هدي الله تعالىٰ ويلتفت إلىٰ ولاء أهل الأهواء، لأن الهداية الحقيقية لا تكون إلا باتباع ما أنزل الله، وما يعين المسلم علىٰ ذلك هو التمسك بكتاب الله والسنة النبوية.

إذن، الولاية الربانية هي من أعظم ثمار الاهتداء بالقرآن الكريم، حيث يضمن الله لمن يلتزم به نصرًا وتوفيقًا وتثبيتًا في الدنيا والآخرة، ويجعله في حماية ورعاية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثامنًا: شفاء الصدور والنفوس:

من أعظم ثمرات الاهتداء بالقرآن: تحقُّق الشفاء من الأمراض المعنوية والحسية، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونُس : ٥٧] . هذه الآية تجمع بين

أعظم ثمرات الهداية: فهي موعظة تشحذ القلوب، وشفاء يطهّر الصدور من أمراض الشبهات والشهوات، وهداية تسلك بصاحبها سبيل النجاة، ورحمة تنزل بالمؤمنين، فالاهتداء بالقرآن دواء شامل للروح والعقل والنفس.

قال الماتريدي:«وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ إنَّ للدِّين آفات وداء تضرُّ به وتتلفه، كما لهذه الأبدان آفات وأمراض تعمل في إتلافها وإهلاكها، ثم جعلت لآفات الأبدان وأمراضها أدوية يشفىٰ بها الأبدان المؤرقة المريضة؛ فعلىٰ ذلك، جعل هذا القرآن شفاء لهذا الدِّين ودواء يداوىٰ به، فيذهب بآفات الدِّين وأمراضه؛ كما تعمل الأدوية في دفع آفات الأبدان وأمراضها؛ لذلك سمَّاه موعظة وشفاء لما في الصدور، والله أعلم»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسْرَاء : ٨٢] .

قال ابن القيم:«(من) ها هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فإنَّ القرآن كله شفاء، كما قال في الآية الأخرىٰ. فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن»[2].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فُصِّلَت : ٤٤] .

---

(١) تأويلات أهل السنة (٦/ ٥٥).

(٢) الداء والدواء (١/ ٦).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا فَنَزَلْنَا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمٌ، وَإِنَّ نَفَرَنَا غَيَبٌ، فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ؟ فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مَا كُنَّا نَأْبُنُهُ بِرُقْيَةٍ، فَرَقَاهُ فَبَرَأَ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ شَاةً، وَسَقَانَا لَبَنًا، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً، أَوْ كُنْتَ تَرْقِي؟ قَالَ: لَا، مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِأُمِّ الْكِتَابِ، قُلْنَا: لَا تُحْدِثُوا شَيْئًا حَتَّىٰ نَأْتِيَ، أَوْ نَسْأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ»[1].

تاسعًا: تحقيق الرحمة والبركة:

من أعظم ثمرات الاهتداء بالقرآن الكريم: تحقُّق الرحمة والبركة، فهو كثير الخير والبركة لمن اتَّبعه، قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأَنْعَام: ١٥٥]. هذه الآية تُبرز جانبًا عظيمًا من بركات القرآن، فهو مبارك في ذاته، مبارك في أثره، مبارك في نتائجه، ومن اتبعه نال من رحمات الله ما لا يُحصىٰ، فالهداية به ليست نجاةً فقط، بل رحمةٌ وبركة تُغمر بها الحياة، وتُثمر بها القلوب، وتُصلح بها الأحوال.

قال الحسن: «هو المبارك لمن أخذه، واتَّبعه، وعمل به، فهو مبارك له، وسُمِّي هذا القرآن مباركًا؛ لما يبارك فيه لمن اتَّبعه، هو مبارك لمتَّبعه والعامل به، وإلَّا مَن لم يتَّبعه فليس هو بمبارك له، بل هو عليه شدَّة ورجس»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: فاتحة الكتاب (٦/ ١٨٧) رقم (٥٠٠٧).

(٢) تأويلات أهل السنة (٤/ ٣٢٠).

وقال ابن كثير: «فيه الدَّعوة إلىٰ اتِّباع القرآن، ووصفه بالبركة لمن اتَّبعه وعمل به في الدنيا والآخرة»[1].

وقال السَّعدي: ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلَّا وقد دعا إليه ورغَّب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحثّ عليه، وما من شرٍّ إلَّا وقد نهىٰ عنه وحذَّر منه، وذكر الأسباب المنفِّرة عن فعله وعواقبها الوخيمة، ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ فيما يأمر به وينهىٰ، وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه، ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ الله تعالىٰ أن تخالفوا له أمرًا ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن اتَّبعتموه ﴿تُرْحَمُونَ﴾؛ فأكبر سبب لنيل رحمة الله: اتِّباع هذا الكتاب، علمًا وعملًا»[2].

فالخير والبركة المتحققان بالاهتداء بالقرآن الكريم لا يعلم حدودهما إلا الله تعالىٰ، فيكفي أنَّه هدىٰ إلىٰ كلِّ ما فيه مصلحة للعباد، وفيه نهي وتحذير عن كل ما فيه ضرر عليهم، فهو كتاب العدل والرحمة والبركة لمن قام به حقَّ القيام.

عاشرًا: الفوز بالجنة والنجاة من النار:

يكفي أنَّ من أعظم ثمار اتِّباع هذا الكتاب: الفوز بالجنة والنجاة من النار، وصحبة الأخيار في دار السَّلام، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٦٨ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٦٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٨١).

وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النِّسَاء: ٦٦ - ٦٩]. الآية تؤكد أن طاعة الله ورسوله تؤدي إلىٰ مصاحبة هؤلاء النماذج العليا من المؤمنين في الجنة، مما يشير إلىٰ العواقب الحميدة للطاعة في الدنيا والآخرة.

ويبشِّر القرآن الكريم المتبعين للهدىٰ بالسلام من العذاب في الآخرة، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه : ٤٧ - ٤٨] .

في المقابل، بيَّن القرآن مصير الذين يكذبون بآيات الله، حيث وصفهم بأنهم «أصحاب الجحيم»، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [المَائِـدَة : ١٠]. فهذا يعد تحذيرًا من عواقب الكفر والتكذيب بالآيات، التي تؤدي إلىٰ الخسران والهلاك.

كما وضَّح القرآن الكريم في آية أخرىٰ مصير الكفار الذين يستكبرون عن الحق ويعرضون عن هداه، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأَعْرَاف: ٤٠].

ختامًا:

لقد قدمنا في هذا المبحث أبرز الثمار العظيمة التي يثمرها اتباع القرآن الكريم، من هداية إلىٰ صراط الله المستقيم، إلىٰ تحقيق النصر والرزق والبركة في الدنيا، وصولًا إلىٰ الفوز بالجنة والنجاة من النار في الآخرة. إن هذه الثمار

ما هي إلا غيض من فيض عطاء هذا الكتاب الكريم الذي لا تنقضي عجائبه ولا تحصىٰ بركاته.

وفي ظل التحديات التي تواجه أمتنا اليوم، لا بد لنا من العودة إلىٰ هذا الكتاب العظيم، والتمسك بهديه، لعلنا نستعيد عزنا ورفعة شأننا، ونحقق ما وعدنا الله به من النصر والتوفيق. فإنا إن تمسكنا بالقرآن في عقيدتنا، وفي سلوكنا، وفي حياتنا اليومية، أصبحنا في مأمن من الفتن، وحققنا موجبات النصر والتمكين.

اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين يتلونه حق تلاوته، ويتبعون هديه في كل جوانب حياتهم، واجعل القرآن شافعًا لنا يوم القيامة، وارزقنا الفردوس الأعلىٰ بغير حساب، واجنبنا النار وما قرب إليها من قول أو فعل. اللهم ثبت قلوبنا علىٰ طاعتك، ووفقنا لاتباع سُبُل السلام، واجعلنا من أهل الجنة الذين يسيرون علىٰ صراطك المستقيم.

ثمرات الاستهداء بالهدى

الهداية إلى الحقّ والصِّراط المستقيم	تحقُّق السعادة في الدارين	الطمأنينة والسكينة القلبية	السَّلامة من شرور الضَّلال ومخازيه	سعة الرزق وبركته.
الوحدة والاجتماع	ولاية الله تعالى ونصرته	شفاء الصدور والنفوس	تحقيق الرحمة والبركة	الفوز بالجنة والنجاة من النار

الفصل الخامس

ترتيب الأَولويَّات في الاستهداء بالهدى

المفهوم، الأهمية، الأسس والموجهات

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: مفهوم ترتيب الأولويَّات في الاستهداء بالهدىٰ.
- المبحث الثاني: أهمية ترتيب الأولويَّات في الاستهداء بالهدىٰ.
- المبحث الثالث: أسس وموجهات ترتيب أولويَّات الهدىٰ.

مدخل:

يُعدّ فقه الأولويات من القضايا الجوهرية في فهم الشريعة الإسلاميَّة، حيث يعتمد علىٰ معرفة البنية العامَّة للإسلام، وإدراك التصوّر الكلي لما أمر الله به ونهىٰ عنه، مع مراعاة مراتب الأعمال ودرجاتها وفق ميزان الشرع. ويكمن جوهر هذا الفقه في إعطاء كل أمر حقه من التقديم والتَّأخير، والأولوية والاهتمام، ممَّا يحقق التوازن والعدل في تطبيق الإسلام.

والإسلام ليس مجرد مجموعة من الأحكام المتفرقة، بل هو شجرة مترابطة الأجزاء، لها أصول ثابتة وفروع متشعبة، كما أنَّه بنيان مرصوص يقوم علىٰ أساس متين من العقيدة والأحكام والمقاصد، قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾[الشورىٰ:١٧]، أي إنَّ الله أنزل الميزان لتحقيق العدل.

قال القرطبي:«﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ والعدل يسمَّىٰ ميزانًا؛ لأنَّ الميزان آلة الإنصاف والعدل. وقيل: الميزان ما بُيِّن في الكتب ممَّا يجب علىٰ الإنسان أن يعمل به»[(١)].

وكما أنَّ الميزان الحسي مطلوب لتحقيق العدل في الأمور المادية، فإنَّ ميزان الهدىٰ القرآني مطلوب لتحقيق العدل في ترتيب الأعمال والأوامر والنواهي؛ حتىٰ يُعطىٰ كل موضوع ما يناسبه من الوقت والجهد والاهتمام. قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[الحديد:٢٥]، قال قتاده:«الميزان العدل فيما أمر به ونهي عنه»[(٢)]،

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/ ١٥).

(٢) المصدر السابق (١٦/ ١٥).

أي إنَّ الميزان التشريعي الذي أُنزل مع الكتاب، هو الأساس في الحكم علىٰ الأفعال ومعرفة الأولويات. فاختلال هذا الميزان يُؤدي إلىٰ ضياع الحقوق واضطراب الفهم، وهو ما ذمّه الله، قال تعالىٰ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة:١٩، ٢٠]، حيث فرّق الله بين الأعمال وفقًا لأولويتها وميزانها الصحيح.

ومن مميزات الاستهداء بالقرآن الكريم أنَّه يحقِّق الاستهداء المتوازن ويُنتج شخصية إسلامية متوازنة، بخلاف الذين يعتمدون في تعلم الهدىٰ علىٰ جهود بشرية قاصرة لا تستوعب التصوّر الشامل للإسلام، فإنَّ من يترك عقله للقرآن ويستسلم لهدي الله تعالىٰ، سيجد نفسه قادرًا علىٰ معرفة الأولويات، ومن أين يبدأ وأين ينتهي.

فالقرآن الكريم يرسم في الذهن خريطة شاملة وواضحة للإسلام، ويُعطي كل موضوع من الاهتمام بما يناسب أهميَّته ووزنه، كما هو يوجِّه الإنسان إلىٰ إدراك أنَّ الأعمال الصالحة ليست علىٰ درجة واحدة؛ فهناك الفرائض، والواجبات، والمستحبات، ولكلٍّ منها مراتب متفاوتة، كما أنَّ الأعمال السيئة تتفاوت بين المحرَّمات والمكروهات، وبين الكبائر والصغائر، ولكلٍّ منها درجات.

فالاستهداء بهُدىٰ القرآن يقتضي مراعاة ترتيب الأولويَّات في الامتثال للأوامر واجتناب النواهي، بحيث يبدأ المسلم بالأهم فالأهم، وفق ميزان التشريع الإلهي، ممَّا يعينه علىٰ تحقيق التوازن والاعتدال في العبادة والعمل، وتجنب العشوائية في الامتثال، والتمييز بين الواجب والمستحب، وبين الكبائر والصغائر، وصولًا إلىٰ الامتثال الأكمل لمنهج الله في الحياة. ففهم هذه المسألة مهم جدًّا في منهج الاستهداء والسعي لتطبيق الإسلام وتنزيل أحكامه في الواقع. وهذا ما سنتناوله في هذا الفصل المهم الدقيق.

المبحث الأول

مفهوم ترتيب الأولويَّات في الاستهداء بالهدى

أولاً: مفهوم ترتيب الأَولويَّات:

١/ تعريف الترتيب:

أ/ تعريف الترتيب في اللغة:

الترتيب في اللغة مأخوذ من الفعل رتَّب، ويقال: رتوبًا إذا استقرَّ ودام، فهو راتب. ومن هنا، جاء قولهم: الحِزْب الرَّاتب: الوِردُ من القرآن الكريم يقرأه الرَّجل كلَّ يوم، والسُّنن الرَّواتب: الصَّلوات المسنونة الثابتة التَّابعة للفرائض، وأَمْرٌ تُرْتَبٌ؛ كَأَنَّهُ تُفْعَلُ، أي يُفعل علىٰ نحو معين. والرُّتْبَةُ بالضَّمِّ، والمرْتَبَةُ: المنْزِلَةُ عندَ المُلُوكِ ونَحْوِهَا [١].

«ويُطلق الترتيب علىٰ جعل كل شيء في مرتبته ومحله المناسب، كترتيب المجالس أو ترتيب الكتب علىٰ الرفوف. ومن معانيه أيضًا:

- انتظام الأمور، كما يقال: «ترتَّبت الكتبُ في رفوف المكتبة»، أي انتظمت.

- ثبوت الأمور واستقرارها، كقولهم: «ترتَّب له مئة جنيه شهريًّا»، أي تحدد له هذا المبلغ بانتظام.

---

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٤٨٦)، وتاج العروس (٢/ ٤٨٢)، ولسان العرب (٣/ ١٥٧٥)، ومجمع البحرين (٢/ ٦٧)، ومعجم اللغة العربية المعاصرة (٢/ ٨٥٣).

– النتائج المترتبة علىٰ شيء ما، مثل: «ترتَّب علىٰ إهمالك أن رسبت في الامتحان»، أي كان الرسوب نتيجة الإهمال»[١].

ب/ تعريف الترتيب في الاصطلاح:

هو: «جعل الأشياء المتعدّدة في نظامٍ معيَّن بحيث يطلق عليها اسمٌ واحد، ويكون لبعض أجزائها نسبة إلىٰ البعضِ الآخر من حيث التقدُّم والتأخُّر، وأصله مراعاةُ مراتب المذكورات»[٢].

٢/ تعريف الأولويَّات:

أ/ في اللغة:

الأولويَّة مأخوذة من أصل «وَلَيَ»، وهو يدلُّ علىٰ القُرب. قال ابن فارس: «الواو واللام والياء: أصل صحيح يدلُّ علىٰ قرب. من ذلك، الْوَلْيُ: القرب. يقال: تباعد بعد ولي، أي قرب. وجلس ممَّا يليني، أي يقاربني. والولي: المطر يجيء بعد الوسمي، سُمِّي بذلك لأنَّه يَلِي الْوَسْمِيَّ»[٣]أي يأتي بعده مباشرةً.

أمَّا «أَوْلَىٰ» فهي أفعل تفضيل بمعنىٰ الأحق، والأجدر، والأقرب. قال ابن منظور: «يقال: فلان أَوْلَىٰ بِكَذَا أَيْ: أَحْرىٰ بِهِ وأَجْدَرُ. يُقَالُ: هو الأَولىٰ، وَهُمُ الأَوالي والأَوْلَوْنَ عَلَىٰ مِثَال الأَعلىٰ والأَعالي والأَعْلَوْنَ»[٤].

---

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٢/ ٨٥٣).

(٢) معجم لغة الفقهاء (ص: ٢١٧)، والتعريفات الفقهية (ص: ٥٥)، ومعجم مصطلح الأصول (ص: ٨١).

(٣) المعجم الوسيط (٢/ ١٠٥٧).

(٤) لسان العرب (١٥/ ٤٠٨)، وانظر: الصحاح تاج اللغة (٦/ ٢٥٣١)، مختار الصحاح (ص:٣٤٥).

فتعني أَوْلَوِيَّة الشيء أحقيَّته، وأسبقيَّته، وأفضليَّته، وهي جمع من «أَوْلَوِيَّاتٌ»، له حقّ «الأَوْلَوِيَّة»: أي الأَسْبَقِيَّة »[1] في الحصول علىٰ شيء.

ب/ معنىٰ الأولويَّة في القرآن والسنة:

ورد معنىٰ أَوْلَوِيَّة الشيء أحقيَّته، وأسبقيَّته، وأفضليَّته في القرآن الكريم في عدد من المواضع، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:٦٨].

قال ابن جرير: «إنّ أحقّ الناس بإبراهيم ونصرته وولايته ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾، يعني: الذين سلكوا طريقَه ومنهاجه»[2]، فهم الأحق به من اليهود والنصارىٰ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال:٧٥]، أي إنَّ الأقرباء أحقّ وأجدر ببعضهم من غيرهم.

وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم:٧٠]، أي أحقّ بجهنم دخولاً واحتراقًا.

كما وردت في السنة النبوية بنفس المعنىٰ، في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَلِأَوْلَىٰ رَجُلٍ ذَكَرٍ»[3]. أي: الأحقّ والأجدر بالإرث بعد أصحاب الفروض.

---

(١) انظر: معجم المغني (ص: ٢٣٧١) معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ٢٤٩٧).

(٢) جامع البيان (٦/ ٤٩٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب: الفرائض، باب: ميراث الجد مع الأب والإخوة ح رقم ٦٧٣٧، ومسلم في كتاب: الفرائض، باب: ألحقوا الفرائض بأهلها ح رقم ١٦١٥.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ وَجَدَ اليَهُودَ يَصُومُونَ عَاشُورَاءَ، فَسُئِلُوا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: هَذَا اليَوْمُ الَّذِي أَظْفَرَ اللهُ فِيهِ مُوسَىٰ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَنَحْنُ نَصُومُهُ تَعْظِيمًا لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَحْنُ أَوْلَىٰ بِمُوسَىٰ مِنْكُمْ، ثُمَّ أَمَرَ بِصَوْمِهِ»[1]. أي: نحن أحق وأجدر باتباع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ منكم.

الخلاصة:

فالأولىٰ، والأولويَّة، والأولويَّات في اللغة والقرآن والسنة تعني: الأحقيَّة، والأسبقيَّة، والأفضليَّة، والأجدر، والأرجح، والأقرب في الاختيار والتقديم.

ج/ في الاصطلاح:

لا يخرج معنىٰ الأولويات في الاصطلاح عن معناها اللغوي، فهي تعني مراعاة أحقيَّة الأشياء، وسبقها، وأفضليَّتها في الاختيار والتقديم، وفق أسس ومعايير معتبرة.

أي أن ترتيب الأولويات يعتمد علىٰ درجة الأهميَّة والأسبقيَّة، بحيث يُقدَّم الأهم فالأهم، والأولىٰ فالأقل أولويَّة، وفق مقتضيات الحكمة والمصلحة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب: مناقب الأنصار، باب: إتيان اليهود النبي ﷺ ومسلم ح رقم ٣٩٤٣، ومسلم في كتاب: الصيام، باب: صوم يوم عاشوراء ح رقم ١١٣٠.

ثانياً: مفهوم ترتيب الأَولويَّات في الاستهداء بالهدى:

لم يجد الباحث تعريفًا محددًا لمفهوم ترتيب الأولويات، خاصةً في ضوء الهدىٰ؛ إذ إنَّ العلماء الأوائل لم يضعوا تحديداتٍ اصطلاحية دقيقة لهذا المفهوم، بل اكتفوا بالإشارة إليه ضمن حديثهم عن تقديم الأهم في كتاباتهم. أمَّا المعاصرون، فقد تناولوا الموضوع في مقالاتٍ ورسائل ذات طابع عام، دون تحريرٍ علمي دقيق أو ربطٍ مباشر بهدي القرآن.

وانطلاقًا من ذلك، اجتهد الباحث في وضع تعريفٍ اصطلاحي لمفهوم ترتيب الأولويات في الهدي القرآني، علىٰ النحو التالي:

«تقديم الأهم فالأهم من الأشياء، بناءً علىٰ فقه الشرع ومتطلبات الواقع».

شرح مفردات التعريف:

تقديم الأهم فالأهم من الأشياء:

أي إنَّ الأحكام الشرعية تتفاوت في مراتبها، فمنها الفرائض، والواجبات، والمستحبات، وكذلك المحرمات والمكروهات، ولكلٍّ منها درجات مختلفة من الأهمية.

فعند أداء الطاعات، ينبغي معرفة أيها أحب إلىٰ الله وأكثر أجرًا، فيُبدأ بها.

وعند اجتناب المعاصي، يجب التمييز بين ما هو أشد خطورة وأعظم وزرًا لتقديمه في الترك والإنكار.

وفي حالة تزاحم المصالح أو المفاسد، يكون الاختيار بين «خير الخيرين وشر الشرين»، أي تقديم الأقل ضررًا وتأخير الأكثر ضررًا، أو تقديم العمل الأكثر نفعًا وأجرًا عند التزاحم.

استخدم الباحث لفظ «الأشياء» ليشمل الأقوال، والتصورات، والأعمال، وغير ذلك.

بناءً على فقه الشرع:

أي معرفة مراتب الأعمال ودرجاتها في الشرع ضرورية حتى لا يُؤخَّرُ ما حقّه التقديم، ولا يُقدَّمُ ما حقّه التأخير، ولا يُصغَّرُ الأمر الكبير، ولا يُكبَّرُ الأمر الصغير، أو يقدَّم ما هو مهم على ما هو أهم، وهو فقه يحتاج إليه المسلم في سائر أمور دينه ودنياه، فيما يتعلمه أو يعمله، أو يدعو إليه، فأحكام هذا الجانب هو تحقيق الحكمة والرشد في الدين والدنيا، وإلَّا ضاعت على الإنسان فرص عظيمة من الثواب حيث ضيَّع وقته وجهده في غير المطلوب، أو وقع في مفاسد كبيرة ومآثم عظيمة وهو يظن أنَّه يصلح ويؤجر، كما قد يسبب ارتباكًا في العمل الدعوي والتربوي، والسبب في كلِّ ذلك اختلال مراتب الأعمال وفقه الموازنة بين الأعمال.

ومتطلبات الواقع:

القرآن الكريم راعى في نزوله متغيرات الواقع وتحولاته ومتطلباته، وهذا مبدأ عام في خطاب جميع الأنبياء؛ وذلك لأنَّ للزمان والمكان والحال تأثيرهما فيما يقدَّم ويؤخَّر شرعًا وعقلاً، وهذا ما يسمَّى بفقه الواقع ومتطلباته، ومن هنا اختلف القرآن المكي عن القرآن المدني من حيث الموضوعات والأسلوب بما يتناسب مع متطلبات الواقع، فالصيام في رمضان أولى من الصيام في شعبان، والصلاة في المسجد الحرام أولى من الصلاة في غيره،

والجهاد مع أنَّه فرض؛ ولكن قد يزاحمه ما هو أولىٰ منه فيقدَّم عليه، كما جاء في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ: «أَحَيٌّ وَالِدَاكَ»؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»[1]، حيث راعىٰ أولويَّات المجاهد بحسب حاله، فقدَّم بره للوالدين وهو (واجب عيني) علىٰ الجهاد وهو (واجب كفائي)؛ بل الواجب الكفائي أحيانًا يؤخَّر مراعاة لفقه الحال، حيث لم يفرض الجهاد إلا في حال القوة، كما قال تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩]، فلمَّا قويت شوكتهم أنزل الله تعالىٰ عليهم تبعًا للحال قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣].

خلاصة المفهوم:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد، باب: الجهاد بإذن الوالدين، ح رقم ٣٠٠٤، ومسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به، ح رقم ٦٦٦٨.

ترتيب الأولويَّات في هدىٰ القرآن يعني: ترتيب وتنظيم الأشياء وفق حقها في التقديم والتأخير، بناءً علىٰ أسبقيتها وأفضليتها ورجحانها في الفعل أو الترك، وفقًا لهدي القرآن الكريم والسنة النبوية، ومتطلبات الواقع، بهدف تحقيق أعظم المصالح أو دفع أشد المفاسد، خاصة عند التعارض.

المبحث الثاني

أهميَّة ترتيب الأولويَّات في الاستهداء بالقرآن

قد تضافرت أدلة كثيرة في القرآن الكريم والسنة النبوية تؤكد أهميَّة مراعاة ترتيب الأولويَّات، سوف أذكر نقاطًا منها، مكتفيًا في كل نقطة ببعض الأدلة التي تفرضها طبيعة مثل هذه البحوث، فاتحًا المجال لدراسات أوسع في التتبع والتَّقصِّي.

وقد حرصت في كل نقطة علىٰ تنويع الأدلة وعدم التكرار، حتىٰ يظهر العمق والبعد الحقيقي لموضوع فقه الأولويات في القرآن الكريم.

أولاً: مراعاة الأولويَّات من خصائص الخطاب القرآني:

المتأمِّل في الخطاب القرآني الكريم يجده قائمًا علىٰ فقه الأولويَّات، حيث يبدأ بالأهم فالأهم، فلا نجد تقديم العبادات العمليَّة علىٰ قضايا الاعتقاد، ولا الزكاة علىٰ الصلاة عند الحديث عن أركان الإسلام، ولا تقديم حق عموم الأرحام علىٰ حق الوالدين عند الحديث عن صلة الأرحام. ويظهر هذا الترتيب بوضوح في:

١/ بيان الحقوق والواجبات:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[البقرة:٨٣].

توضح هذه الآية أنَّ الميثاق الذي أُخِذَ على بني إسرائيل قائم على ترتيب الأولويَّات، حيث بدأ بأعظم الحقوق، وهو عبادة الله وحده وعدم الإشراك به، ثم تلاه الأمر بالإحسان إلى الوالدين، ثم الأقربين، ثم اليتامى لضعفهم وحاجتهم، ثم المساكين. وبعد أن أمر بإحسان الفعل، أمر بإحسان القول، إذ إنَّ الفعل أولى، فقال: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، ثم انتقل إلى العبادات، فبدأ بإقامة الصلاة، ثم إيتاء الزكاة.

قال الشيخ أبو زهرة: «وجاء الترتيب في الآية بتقديم الأهم فالأهم، فقدَّم حقَّ الله تعالى؛ لأنَّه المنعم في الحقيقة على حقِّ العباد، ثم ذكر الوالدين لحقِّهما في تربية الولد، ثم القرابة؛ لأنَّ فيهم صلة الرحم، ثم اليتامى لقصورهم، ثم المساكين لضعفهم»[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[النساء:٣٦]، فبدأت الآية بأعظم الحقوق، وهو حقُّ الله تعالى، ثم حقُّ الوالدين، ثم حقُّ الأقربين من جهة الأب والأم، ثم الأيتام لصغرهم وضعفهم، ثم المساكين لحاجتهم، ثم حق الجار القريب نسبًا أو دينًا أو مكانًا.

قال السعدي: «بعدما أمر بالقيام بحقِّ الله المقدَّم على كل حقٍّ أمر بالقيام بحقوق ذوي الحقوق من الخلق: الأهم فالأهم...»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٧/ ٤٦٠).

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (١/ ٥٥).

٢/ بيان المحرَّمات والمنهيَّات:

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الأنعام:١٥١].

في هذه الآية، بدأ الله تعالىٰ بأعظم المحرَّمات، وهو الإشراك به، إذ لا ذنب أعظم منه، ثم ثنَّىٰ ببرِّ الوالدين، وهو متضمن النهىٰ عن العقوق الذي يلي الشرك في شدَّة الإثم، ثم جاء التحذير من قتل الأولاد، مقدَّمًا علىٰ سائر أنواع القتل، لما فيه من ظلم بيِّنٍ لمن هم في أشدِّ الحاجة إلىٰ الرعاية والرحمة، ولضعفهم عن الدفاع عن أنفسهم.

٣/ بيان مراتب المحبوبات وتأثيرها:

لمَّا كانت مراتب المحبوبات من الشهوات مختلفة، قدَّم الأهمَّ والأخطرَ في رُتب المحبوبات، فقال تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[آل عمران:١٤].

قال أبو حيان الأندلسي:«وبدأ في تفصيلها بالأهم فالأهم، بدأ بالنساء لأنَّهنَّ حبائل الشيطان وأقرب وأكثر امتزاجًا... وثنَّىٰ بالبنين لأنَّهم من ثمرات النساء، وفروع عنهنَّ، وشقائق النساء في الفتن، الولد مبخلة مجبنة... وقُدِّموا علىٰ الأموال لأنَّ حبَّ الإنسان ولده أكثر من حبِّه ماله... ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ ثلَّث بالأموال لما في المال من الفتنة، ولأنَّه يحصل به غالب الشهوات...»[(١)].

(١) البحر المحيط في التفسير (٣/ ٥٠ - ٥٣).

وقال السمين الحلبي:«وقد تَضَمَّنَتْ هذه الآية الكريمةُ أنواعاً من الفصاحةِ والبلاغةِ؛ فمنها: البَدَاءَةُ بالأهمِّ فالأهمِّ، فَقَدَّم أوَّلاً النساءَ لأنَّهنَّ أكثرُ امتزاجاً ومخالطةً بالإنسانِ، وهُنَّ حبائِلُ الشيطان... وقُدِّمَتْ على الأموال لأنَّها أحبُّ إلى المرءِ مِنْ ماله، وأمَّا تقديمُ المالِ على الولد في بعضِ المواضع فإنَّما ذلك في سياقِ امتنانٍ وإنعامٍ أو نصرةٍ ومعاونة وغلبة؛ لأنَّ الرجال تُستمال بالأموال، ثم أتى بذكرِ تمام اللذة وهو المركوبُ البهيُّ من بينِ سائر الحيوانات، ثم أتى بِذِكْر ما يَحْصُل به جَمالٌ حين تُريحون وحين تَسْرحون، كما تشهد به الآية الأخرى، ثم ذَكَرَ ما به قِوامُهم وحياةُ بنيهم وهو الزروع والثمار، ويشمل الفواكهَ أيضاً»[1].

٤/ بيان أداء واجب النفقات:

قال تعالى في البدء بالأهم في الصدقات: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[التوبة:٦٠].

قال الخازن:«فبدأ بالفقراء، وإنَّما يُبدأ بالأهم فالأهم، فلو لم تكن حاجتهم أشدَّ من حاجة المساكين لما بدأ بهم»[2].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا:«والترتيب في هذه الأصناف لبيان الأحق فالأحق بالصدقات، على القاعدة الغالبة عند فصحاء العرب في تقديم الأهم فالأهم على ما دونه في الموضوع»[3].

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٣/ ٦١ - ٦٣).

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ٣٧٣).

(٣) تفسير المنار (١٠/ ٤٣٧).

وقال السعدي: «أي: إنَّما الصَّدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم، لأنَّه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف. الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهما في هذا الموضع صنفان متفاوتان، فالفقير أشد حاجة من المسكين؛ لأنَّ الله بدأ بهم، ولا يُبدأ إلا بالأهم فالأهم. ففُسِّر الفقير بأنَّه الذي لا يجد شيئًا، أو يجد بعض كفايته دون نصفها. والمسكين: الذي يجد نصفها فأكثر، ولا يجد تمام كفايته، لأنَّه لو وجدها لكان غنيًّا، فيُعطَون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكنتهم»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢١٥]، فقدّم في الذكر الأهم فالأهم.

قال الشيخ ابن عثيمين في فوائد الآية: «فقدّم في الذكر الأهم فالأهم، منها: فضل الإنفاق علىٰ الوالدين، والأقربين، وأنَّه مقدَّم علىٰ الفقراء والمساكين؛ لأنَّ الله بدأ بهم، ولا يُبدأ إلا بالأهم فالأهم»[2].

ولا شك أنَّ الأولية لها مدخل في الأولوية، ومراعاة الأولويَّات تُعدُّ سمة عامَّة من سمات الخطاب القرآني، لا تخرج عنها إلَّا بعض الجوانب لاعتبارات بلاغية دقيقة، نبَّه العلماء علىٰ غالبها، وهو موضوع يستحق أن يُفرد بالدراسة.

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٤١).

(٢) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٦).

ثانياً: مراعاة ترتيب الأولويَّات هدي جميع الأنبياء والمرسلين:

ممَّا يدلُّ علىٰ اعتبار فقه الأولويات والعناية به ما نجده في القرآن الكريم وهو يُحدِّثنا عن دعوة جميع الأنبياء الذين أُمرنا بالاقتداء بهم، قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠].

فدعوة الأنبياء كانت قائمة من أوَّلها إلىٰ آخرها علىٰ فقه الأولويات، حيث تُقدَّم الدعوة إلىٰ توحيد الله تعالىٰ علىٰ كل شيء، ثم تأتي بعدها الأمور الأخرىٰ.

قال تعالىٰ عن دعوة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف:٥٩].

وقال تعالىٰ عن دعوة هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥].

وقال تعالىٰ عن دعوة صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف:٧٣].

وقال تعالىٰ عن دعوة شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [الأعراف:٨٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ [هود:٨٤].

قال الخازن:«كانت عادة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يبدؤون بالأهم فالأهم، ولمَّا كانت الدعوة إلىٰ توحيد الله وعبادته أهم الأشياء قال شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ثم بعد الدعوة إلىٰ التوحيد شرع فيما هم فيه، ولمَّا كان المعتاد من أهل مدين البخس في الكيل والوزن دعاهم إلىٰ ترك هذه العادة القبيحة، وهي تطفيف الكيل والوزن فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ »[1].

وقال الشيخ محمد صديق خان:«وقد كان شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يسمَّىٰ (خطيب الأنبياء) لحسن مراجعته لقومه، وهذه عادة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يبدؤون بالأهم فالأهم؛ ولمَّا كان الدعوة إلىٰ توحيد الله وعبادته أهم الأشياء دعاهم إليه ثم نهاهم عن أن ينقصوا المكيال والميزان؛ لأنَّهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف، وكان المعتاد منهم البخس في الكيل والوزن»[2].

منهج يوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدعوة بالأهم:

وقال تعالىٰ عن يوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كيفية بدء الدعوة مع صاحبيه في السجن: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ٤٩٨).

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن (٦/ ٢٢٨).

هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يُوسُف : ٣٦ - ٤١] .

فيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قبل أن يعبِّر لهما الرؤية التي سئل عنها خاطبهما بتعليمهما ما هو أهم وأنفع لهما، وهو معرفة الله تعالىٰ وعبوديته.

قال السعدي في فوائد هذه القصة:«ومنها: أنَّه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنَّه إذا سُئل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشدّ، فينبغي له أن يُعلِّمه ما يحتاج إليه قبل أن يُجيب عن سؤاله، فإنَّ هذا علامة علىٰ نصح المعلم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه؛ فإنَّ يوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا سأله الفتيان عن رؤياهما، وكانت حاجتهما إلىٰ التوحيد والإيمان أعظم من كل شيء، قدّمها»[1].

فهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بدأ مراعيًا الأولويات ومراتب المخاطر، فهي من أهم دعائم فقه التدرُّج، الذي هو أهم من مجرد تعبير الرؤىٰ.

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (١/ ٢٨١).

وقال تعالىٰ عن لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي أنار الله تعالىٰ بصيرته بالحكمة، فقد كان ترتيب الأولويَّات حاضرًا في وصيَّته لابنه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٢-١٤]، فبدأ في الوصية بالتوحيد لأنَّه الأهم والأولىٰ، ثمَّ ثنَّىٰ بحقِّ الوالدين.

فالانطلاق في الدعوة بالأهم ثم الأقل أهمية هو هدي جميع الأنبياء، وعلىٰ رأسهم سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو من الحكمة التي أمر الله تعالىٰ بها في الدعوة، قال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾[النحل:١٢٥].

قال السعدي:«ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلىٰ الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب»[1].

ثالثاً: تفاضل مراتب الأعمال يستلزم مراعاة الأولويَّات:

ممَّا يدلُّ علىٰ اعتبار ترتيب الأولويات والعناية به، ورود أدلة كثيرة في القرآن الكريم توضِّح تفاوت مراتب ودرجات الأعمال في الخير، كما تختلف مراتبها ودرجاتها في الشر، وهذا يستوجب معرفة ترتيب الأولويَّات.

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٥٢).

قال تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[البقرة:٢٧١].

قال ابن كثير:«فيه دلالة علىٰ أنَّ إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنَّه أبعد عن الرياء، إلَّا أنْ يترتَّب علىٰ الإظهار مصلحة راجحة، من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية... والأصل أنَّ الإسرار أفضل؛ لهذه الآية»[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة:١٩].

فهذه الآية تُبيِّن التفاضل الكبير بين الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله في مقابل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام.

وقال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١].

فبيَّنت هذه الآية أنَّ السيِّئات منها كبائر وصغائر، والصغائر منها اللَّمم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورىٰ:٣٧]، وقال تعالىٰ:﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢].

قال ابن كثير:«وهذا استثناء منقطع؛ لأنَّ اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال»[(٢)]، وغيرها من أدلة أخرىٰ وردت في القرآن الكريم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٧٠١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٠).

تفاضل مراتب الأعمال في السنة النبوية

وكما ورد بيان تفاضل مراتب الأعمال في القرآن، فقد وردت أدلة كثيرة في السنة النبوية تؤكد تفاضلها، وتفاوت مراتبها ودرجاتها في الأمر والنهي بما يستوجب معرفة ترتيب الأولويَّات، من ذلك:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»[1].

فبيَّن الحديث تفاضل الأعمال، وأنَّ هنالك ما هو أعلىٰ وأدنىٰ في العمل والثواب والأجر حتىٰ ينتبه المسلم لذلك.

وقد بوَّب الإمام البخاري في صحيحه باب: «أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟»[2]، وبوَّب الإمام النووي في صحيح مسلم باب: «بيان تفاضل الإسلام، أو أي أموره أفضل؟»[3]، وأوردوا فيها الأحاديث التي توضِّح ذلك.

كما جاء عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب: الإيمان: باب: شعب الإيمان، ح رقم ١٦٢.

(٢) صحيح البخاري (١/ ١٤).

(٣) صحيح مسلم (١/ ٤٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الإيمان، أي الإسلام أفضل ح رقم١١، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام، أو أي أموره أفضل، ح رقم ١٧٢.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَىٰ مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ)[2].

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلاَةُ لِوَقْتِهَا»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»[3].

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ؟ قَالَ: «أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ»[4].

وقد وردت كذلك أدلة أخرىٰ في السنة توضِّح أنَّ السيِّئات مراتب ودركات، من ذلك: ما جاء عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ -ثَلَاثًا- قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام، أو أي أموره أفضل، ح رقم ١٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان باب: مَنْ قَالَ إِنَّ الإِيْمَانَ هُوَ الْعَمَلُ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾...ح رقم٢٦.

(٣) كتاب: الإيمان، باب: بيان كَوْنِ الإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَىٰ أَفْضَلَ الأَعْمَالِ، ح رقم ٢٦٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين، باب: فضِيلَة الْعَمَلِ الدَّائِمِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَغَيْرِهِ، ح رقم ١٨٦٤.

اللهِ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ -وَكَانَ مُتَّكِئًا- فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ) قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ)[1].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: (أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ) قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: (ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ)، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ قَالَ: (ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ) فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ تَصْدِيقَهَا: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[الفرقان:٦٨])[2].

فكل هذه الأحاديث وغيرها كثير تؤكد وتبيِّن تفاضل الأعمال واختلاف درجاتها ومنزلتها عند الله تعالىٰ، كما هي توضح تفاوت درجات السيئات.

رابعاً: عناية المفسرين بأهمية ترتيب الأولويَّات في تفسيرهم للآيات:

ممَّا يؤكِّد أهميَّة مراعاة ترتيب الأولويَّات والبدء بالأهم فالأهم، عناية علماء التفسير بتأصيل هذا الموضوع وتأكيده في كتبهم أثناء تفسير عدد من الآيات، ولو كان المسلك بعيدًا. وقد سبق نقل أقوال بعضهم، ومنها:

١/ **قول الرازي**: في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب:٢٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور ح رقم ٢٦٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، ح رقم ٢٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الديات، باب: قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ ح رقم ٦٨٦١، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أَقْبَحَ الذُّنُوبِ وَبَيَانِ أَعْظَمِهَا بَعْدَهُ، ح رقم ٢٦٨.

فقال:«فإن قيل: هل في تقديم المفعول حيث قال: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، وتأخيره حيث قال: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ فائدة؟ قلت: قد أجبنا أنَّ ما من شيء من القرآن إلا وله فوائد منها ما يظهر ومنها ما لا يظهر، والذي يظهر من هذا -والله أعلم- أنَّ القائل يبدأ بالأهم فالأهم، والأعرف فالأعرف، والأقرب فالأقرب، والرجال كانوا مشهورين فكان القتل واردًا عليهم، والأسرىٰ كانوا هم النساء والصغار ولم يكونوا مشهورين والسبي والأسر أظهر من القتل؛ لأنَّه يبقىٰ فيظهر لكلِّ أحد أنَّه أسير فقدم من المحلين ما هو أشهر علىٰ الفعل القائم به وما هو أشهر من الفعلين قدَّمه علىٰ المحلِّ الأخفىٰ»[1].

٢/ قول أبي حيان الأندلسي: في قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣] :«وترتيب الصلاة علىٰ حسب الإلزام. فالإيمان بالغيب لازم للمكلف دائما، والصلاة لازمة في أكثر الأوقات، والنفقة لازمة في بعض الأوقات، وهذا من باب تقديم الأهم فالأهم»[2].

٣/ قول ابن كثير: في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] :«وإِنَّما قدَّم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عَلَىٰ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأنَّ العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم»[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٦٤).

(٢) البحر المحيط في التفسير (١/ ٦٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٣٥).

٤/ قول السعدي: في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء:٧٧] :«كان المسلمون -إذ كانوا بمكة- مأمورين بالصلاة والزكاة أي: مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة ذات النُّصُب والشروط، فإنَّها لم تفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء لعدَّة فوائد:

منها: أنَّ من حكمة الباري تعالىٰ أن يشرع لعباده الشرائع علىٰ وجه لا يشق عليهم؛ ويبدأ بالأهم فالأهم، والأسهل فالأسهل.

ومنها: أنَّه لو فرض عليهم القتال -مع قلَّة عَدَدِهِم وعُدَدِهِم وكثرة أعدائهم- لأدَّىٰ ذلك إلىٰ اضمحلال الإسلام، فرُوعي جانب المصلحة العظمىٰ علىٰ ما دونها ولغير ذلك من الحِكَم»[(١)].

٥/ قول الشيخ العثيمين: وهو يتحدث عن فوائد من قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٣٤٧] :«ومنها: أنَّ المجيب يختار ما يكون به الإقناع بادئًا بالأهم فالأهم؛ لقول نبيِّهم في جوابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾، فبدأ بذكر ما لا جدال فيه -وهو اصطفاء الله تعالىٰ له عليهم- ثم ذكر بقيَّة المؤهّلات، وهي:

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٨٧).

أنَّ الله زاده بسطة في العلم، وتدبير الأمَّة، والحروب، وغير ذلك.

وأنَّ الله زاده بسطة في الجسم: ويشمل القوة، والطول ...

وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يؤتي ملكه من يشاء، وفعله هذا لابدَّ وأن يكون مقرونـًا بالحكمة»[1]. وغيرها كثير.

الخلاصة:

تبيَّـن من خلال أقـوال المفسـرين أنَّ مراعاة ترتيـب الأولويَّات أصلٌ راسـخٌ في القـرآن الكريـم، وأنَّ علماء التفسـير نبهوا علىٰ ذلـك في مواضع كثيـرة، موضِّحيـن أنَّ التقديم والتأخيـر في الآيات لـه دلالات مهمة تتعلَّق بالأهميـة والتدرج.

خامساً: عناية الأصوليين بأهمية مراعاة ترتيب الأولويَّات وتفاضل الأعمال:

ممَّا يـدلُّ علىٰ أهميَّـة مراعاة ترتيـب الأولويَّات عنايـة علماء أصول الفقه بتأصيل فقه تفاضـل الأعمال، وبيان تفاوت مراتـب الأوامر والنواهي ودرجاتهمـا. فقـد وضَّحـوا أنَّ المأمـورات منهـا ما هـو واجـب ومنها ما هـو مسـتحب، وأنَّ الواجب نفسـه درجـات، وكذلك المسـتحب، كما أنَّ المنهيَّـات منهـا ما هو محـرم ومنها ما هو مكـروه، وهذا ممَّا اتفـق الفقهاء والمتكلمـون عليه[2].

(١) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢١٥).

(٢) انظر: المسودة في أصول الفقه (ص: ٦٥).

وقد بيَّـن الأصوليون تعريف كل نوع من الأحكام التكليفية الخمسـة، ووضَّحـوا تفاصيل دقيقة في كيفيـة تقرير كل نوع من الأحـكام، وتمييزه عن غيره، وأكَّـدوا ضرورة إنـزال كل نوع منزلتـه في الاعتقاد والقـول والفعل. كمـا تحدثوا مطولًا عن تقسـيم الأوامـر والنواهي وفق المصالح الشـرعية التي تتعلق بـ:

الضروريَّات

الحاجيَّات.

التحسينيَّات.

وحددوا مراتبها في ذلك. من هؤلاء الذين تكلموا في ذلك:

١/ الشاطبي، حيث قال في تفاضل الأوامر والنواهي:«إنَّ الأوامر في الشريعة لا تجري في التأكيد مجرىٰ واحدًا، وأنَّها لا تدخل تحت قصد واحد؛ فإنَّ الأوامر المتعلقة بالأمور الضرورية ليست كالأوامر المتعلقة بالأمور الحاجية ولا التحسينية، ولا الأمور المكملة للضروريات كَالضَّرُورِيَّاتِ أَنْفُسِهَا، بل بينها تفاوت معلوم؛ بل حتىٰ الأمور الضرورية ليست في الطلب علىٰ وزن واحد؛ فالطلب المتعلق بأصل الدين ليس في التأكيد كالطلب المتعلق بالنفس، ولا النفس كالعقل، وهكذا إلىٰ سائر أصناف الضروريات.

أمـا الحاجيات، فليـس الطلب بالنسـبة للتمتعـات المتاحـة التي لا معارض لها كالطلب بالنسـبة لمـا له معارض؛ كالتمتع بالـذات المباحة مع اسـتعمال القرض، والسلم، والمسـاقاة، وأشـباه ذلك. ولا أيضًا طلب هذه

كطلب الرخص التي يلزم في تركها حرج على الجملة، ولا طلب هذه كطلب ما يلزم في تركه تكليف ما لا يُطاق. وكذلك التحسينيات تسير على هذا النسق حرفًا بحرف»[1].

فقوله يوضح كيف تتفاوت الأعمال والأوامر، وذلك حسب ارتباطها بمقاصد الشرع من الضروريات، والواجبات، والتحسينات، ممَّا يستوجب فهمًا دقيقًا أثناء التطبيق.

٢/ العز بن عبد السلام، وإرساء فقه ترتيب الأولويَّات:

يُعد العز بن عبد السلام (ت: ٦٦٠هـ) من أوائل العلماء الذين تحدثوا عن هذا الموضوع، وبيَّن في مقدمة كتابه «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» أنَّ هذا هو الغرض من تأليفه، فقال: «الغرض بوضع هذا الكتاب بيان مصالح الطاعات والمعاملات وسائر التصرفات لسعي العباد في تحصيلها، وبيان مقاصد المخالفات ليسعى العباد في درئها، وبيان مصالح العبادات ليكون العباد على خبر منها، وبيان ما يقدم من بعض المصالح على بعض، وما يؤخر من بعض المفاسد على بعض، وما يدخل تحت اكتساب العبيد دون ما لا قدرة لهم عليه ولا سبيل لهم إليه»[2].

---

(١) الموافقات (٣/ ٤٩٢).

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ١٠، ١١).

٣/ ابن تيمية، وقوله في مراعاة مراتب الأعمال في الدين:

بيَّن ابن تيمية أنَّ مراعاة مراتب الأعمال من حقيقة الدين، وحقيقة العمل بما جاءت به الرسل، وخاصة عند العلماء، فقال: «فتفطن لحقيقة الدين، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية، والمفاسد، بحيث تعرف ما مراتب المعروف، ومراتب المنكر، حتىٰ تقدّم أهمها عند الازدحام، فإنَّ هذا حقيقة العلم بما جاءت به الرسل»[١].

الخلاصة:

يظهر ممَّا سبق أنَّ علماء أصول الفقه أولوا عناية كبيرة بموضوع ترتيب الأولويات وتفاضل الأعمال، وذلك من خلال:

- تصنيف الأوامر والنواهي وفق مراتبها الفقهية.
- ربط الأحكام بالمقاصد الشرعية من ضروريات، وحاجيات، وتحسينيات.
- تأكيد فقه الموازنات في التطبيق العملي للأحكام، بحيث يُقدَّم الأهم فالأهم.
- تحديد مراتب المعروف والمنكر كما قرَّره ابن تيمية.

وبذلك، يتَّضح أنَّ فقه ترتيب الأولويات ليس مجرد اجتهادات معاصرة، بل هو أصل راسخ في أصول الفقه الإسلامي، أكَّده كبار الأئمة والعلماء، وقد جعل ابن تيمية مراعاة مراتب الأعمال من حقيقة الدين، وحقيقة العمل بما جاءت به الرسل.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٢٧).

سادساً: نيل أعظم الثواب يستلزم مراعاة ترتيب الأولويات:

ممَّا يدلُّ على أهميَّة مراعاة ترتيب الأولويَّات أنَّها وسيلة لتحقيق التجارة الرابحة في العمل الصالح، إذ إنَّ ترتيب الأعمال وفق الأهم فالأهم يؤدي إلى التعبُّد إلى الله تعالى بما هو أفضل وأولى وأكثر ثوابًا وأجرًا، حتى في العمل الواحد.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وقال تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾[البقرة:٢٧١].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨٠].

فهذه الآيات وغيرها تؤكِّد رعاية الأولى فالأولى، لما يترتب عليه من زيادة الخير والثواب.

يقول العز بن عبد السلام في أهمية اختيار الأعمال الأكثر ثوابًا:«ومن السعادة أن يختار المرء لنفسه المواظبة على أفضل الأعمال فأفضلها بحيث لا يضع بذلك ما هو أولى بالتقديم منه »[1].

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ١٩).

تفاضل الأعمال في السنة النبوية:

سبق بيان أدلة السنة في تفاضل الأعمال، وقد وردت عشرات الأحاديث التي تحث علىٰ بعض الأعمال وتبيِّن فضلها لما فيها من زيادة الأجر والثواب، ومنها:

أ/ فضل صلاة الجماعة وصلاة الفجر:

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (تَفْضُلُ صَلَاةُ الْجَمِيعِ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ وَحْدَهُ بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا، وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]) [1]. وفي رواية أخرىٰ لمسلم، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلَاةٌ مَعَ الإِمَامِ أَفْضَلُ مِنْ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ صَلَاةً يُصَلِّيهَا وَحْدَهُ» [2].

ب/ فضل الصلاة في المسجد الحرام والمسجد النبوي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» [3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الآذان، باب: فضل صلاة الفجر في جماعة، ح رقم٦٤٨، ومسلم في كتاب: المساجد، باب: فَضْلِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ وَبَيَانِ التَّشْدِيدِ فِي التَّخَلُّفِ عَنْهَا. ح رقم ١٥٠٦.

(٢) في كتاب: المساجد، باب: فَضْلِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ وَبَيَانِ التَّشْدِيدِ فِي التَّخَلُّفِ عَنْهَا. ح رقم ١٥٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضل الصَّلاَةِ فِي مَسْجِدِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، باب: فضل الصَّلاَةِ فِي مَسْجِدِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، ح رقم١١١٩، ومسلم في كتاب: الحج، باب: فَضْلِ الصَّلاَةِ بِمَسْجِدَيْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ. ح رقم ٣٤٤٠.

ج/ فضل العمل الصالح في العشر الأوائل من ذي الحجة:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ، الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ، مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ» يَعْنِي الْعَشْرَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»[1].

وغيره كثيرًا ممَّا يحتاج أن يفرد بالدراسة.

فمعرفة مراتب الأعمال فرصة عظيمة في كسب الثواب، وهو الميدان الذي به فاز العلماء وتقدَّموا علىٰ سائر المؤمنين، كما جاء عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ جُوَيْرِيَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّىٰ الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَىٰ، وَهِيَ جَالِسَةٌ فَقَالَ: «مَا زِلْتِ عَلَىٰ الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا». قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»[2]. والأدلة في هذا الباب كثيرة لا يسع مثل هذه الدراسة البسط أكثر ممَّا ذُكر.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضل الصَّلاَةِ فِي مَسْجِدِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، باب: فضل الصَّلاَةِ فِي مَسْجِدِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، ح رقم١١١٩، ومسلم في كتاب: الحج، باب: فَضْلِ الصَّلاَةِ بِمَسْجِدَيْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ. ح رقم ٣٤٤٠.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم. ح رقم ٧٠٨٨.

فاختيار الأعمال ذات الثواب الأعظم والقيام بها وفق ترتيب الأولويات هو السبيل إلىٰ نيل رضا الله وتحقيق أعلىٰ المراتب.

سابعاً: غياب الأولويَّات يؤدِّي إلى مفاسد عظيمة:

ممَّا يدلُّ علىٰ أهمية مراعاة ترتيب الأولويات والعناية به، ما يترتب علىٰ إهماله من آثار سيئة وخلل عظيم ومفاسد كبيرة، وقد نبَّه القرآن الكريم علىٰ خطورة الانشغال بالمفضول عن الفاضل، وتقديم الأمور الدنيوية علىٰ ما هو أولىٰ في نصرة الدين، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فالانشغال بهذه الأمور عن الأولىٰ في نصرة الدين من أعظم أسباب الخزي والخسران المبين، وهو باب عظيم يلبس به الشيطان علىٰ العبَّاد الذين لم يرزقوا فقها في الدين فيشغلهم بالنوافل عن الفرائض، وبالأعمال المفضولة عن الأعمال الفاضلة، حتىٰ يضيِّع عليهم الفرائض. وكما قال أبو عبيدة: «من شغل نفسه بغير المهم أضرَّ بالمهم»[1].

وقد حذَّر ابن الجوزي من غياب الأولويات في العبادة في كتابه (تلبيس إبليس) فقال: «قد لبَّس إبليس علىٰ جماعة من المتعبِّدين فأكثروا من صلاة الليل، وفيهم من يسهره كله، ويفرح بقيام الليل وصلاة الضحىٰ أكثر ممَّا يفرح بأداء الفرائض، ثم يقع قبيل الفجر فتفوته الفريضة، أو يقم فيتهيَّأ لها فتفوته الجماعة، أو يصبح كسلان فلا يقدر علىٰ الكسب لعائلته.

(١) الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح (١/ ٤٠٥).

ولقد رأيت شيخًا من المتعبِّدين يقال له (حسين القزويني) يمشي كثيرًا من النهار في جامع المنصور. فسألت عن سبب مشيه، فقيل لي: لئلا ينام. فقلت: هذا جهل بمقتضىٰ الشرع والعقل»[1].

ويقول ابن القيم في بيان عقبات الطريق إلىٰ الله، والتي لا يمكن تجاوزها إلا بفقه الأولويَّات:«العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها وحسَّنها في عينه وزيَّنها له وأراه ما فيها من الفضل والربح ليشغله بها عمَّا هو أفضل منها وأعظم كسبًا وربحًا.

لأنَّه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب طمع في تخسيره كماله وفضله ودرجاته العالية؛ فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الرَّاجح، وبالمحبوب لله عن الأحبِّ إليه، وبالمرضي عن الأرضىٰ له.

وبيَّن أنَّه لا ينجو من هذه العقبة إلا أهل البصائر، الذين يعرفون مراتب الأعمال ويفرِّقون بين ما هو أكثر أجرًا وأهمية، فقال:«ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم السائرين علىٰ جادَّة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حقٍّ حقه»[2].

وقد أدىٰ الخلل في ترتيب الأولويَّات إلىٰ مفاسد عظيمة وتخبطات كبيرة في فهم الإسلام وتطبيقه والدعوة إليه عند بعض المسلمين، سواء علىٰ مستوىٰ الفرد أو الجماعة.

---

(١) تلبيس إبليس (ص: ١٧٣).

(٢) مدارج السالكين (٩/ ١٠٨).

ثامناً: ترتيب الأولويات الطريق السليم للعمل بالدين والدعوة إليه:

ممَّا يدلُّ علىٰ أهمية ترتيب الأولويَّات: أنَّه يعطي كل ذي حقٍّ حقَّه، وهو الطريق السليم في التوغُّل في الدين، وتطبيق أحكامه، والدعوة إليه.

وقد جاء في الحديث عن أنس بن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ»[1].

ولا يكون ذلك إلا بمراعاة الأولويَّات، والتَّدرُّج منها لبقية الأعمال، وهي من السنن الربانية في الخلق والأمر، حيث رُوعيت في جميع ما فرضه الله تعالىٰ من فرائض، وما حرَّمه من محرَّمات، وما سنَّه من تشريعات في الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وغيرها.

فترتيب الأولويات هو من الأسس المهمَّة في أخذ الدين وتطبيقه، حتىٰ لا يكون هناك غلو في جانب وتضييع لجوانب أخرىٰ مهمَّة. وقد وردت أدلة كثيرة في السُّنَّة تحذِّر من الغلو وتؤكِّد مبدأ ترتيب الأولويَّات والموازنة بين الحقوق والواجبات، منها:

ماجاء عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ؟» قُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: «فَلاَ تَفْعَلْ، قُمْ وَنَمْ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ؛ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا...)[2].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ح رقم١٣٣٩٣، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع ح رقم ٢٢٤٦ (١/ ٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، بَابُ حَقِّ الضَّيْفِ، ح رقم (٦١٣٤).

ومن هذا الباب، النهي عن التشدد في بعض العبادات وتحميل النفس ما لا تطيق لما ينعكس سلباً علىٰ حقوق وواجبات أخرىٰ قد تكون أهم وأرضىٰ لله تعالىٰ، كما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ:«مَا هَذَا الحَبْلُ؟» قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«لاَ، حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»[1].

فلا بدَّ في الدعوة من تقديم الأهم علىٰ المهم، والفرض علىٰ النافلة، والتَّدرُّج مع المدعو حسب الأولويَّات، فلا نَدْعُ غير المسلم إلىٰ الصلاة وهو لم يؤمن بالله، ولا نَدْعُ تارك الصلاة إلىٰ قيام الليل وهو لم يؤدِّ الفرائض. فعلىٰ الداعية أن يقدِّم الأولىٰ، فمن لم يكن عنده علم بترتيب الأولويَّات لا يصلح أن يقوم بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ؛ لما يقع في دعوته من المفاسد. وقد أكَّد شيخ الإسلام ذلك، خاصَّة عند تعارض المصالح والمفاسد، والسَّعي لتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا، ودفع شر الشرين إذا لم يمكن أن يندفعا، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما.

فقال:«إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت؛ فإنَّه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح

(١) أخرجه البخاري، كتاب التهجد، بَاب: مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّشْدِيدِ فِي العِبَادَةِ، ح رقم (١١٥٠)، ومسلم، كتاب الصلاة وقصرها، باب أمر من نعس في صلاته، أو استعجم عليه القرآن، أو الذكر بأن يرقد، أو يقعد حتىٰ يذهب عنه ذلك، ح رقم (٧٨٤).

والمفاسد وتعارضت المصالح والمفاسد. فإنَّ الأمر والنهي وإن كان متضمنًا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له فإن كان الذي يفوت من المصالح، أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأمورًا به؛ بل يكون محرَّمًا إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته؛ لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة »[1].

فانظر إلىٰ هذا الفقه الدقيق في تنزيل الأحكام علىٰ الواقع وكيف يراعىٰ فيها فقه الأولويَّات، وتقديم الأرجح منها، ولا يستقيم عمل دعوي اليوم إلا بمراعاة ترتيب الأولويَّات، حتَّىٰ تكون الدعوة علىٰ هدي القرآن ومنهج النبوة، فيكون الأمر التَّقديم لأهم معروف وهو التوحيد، والنهي عن أعظم منكر وهو الشرك، ثم المنكر الأصغر منه. ولهذا، عندما بعث النبي ﷺ مع وجود الخمر والزِّنا وسفك الدماء ووأد البنات وقطع الأرحام فبدأ ﷺ دعوته بالنهي عن أعظم منكر وهو الشرك، وهو الذنب الذي لا يغفره الله تعالىٰ ويغفر ما دونه لمن يشاء، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[النساء:١١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾[المائدة:٧٢]، فكيف نبدأ بغير التوحيد وهو الأساس الذي يقوم عليه الإسلام، وهو ذنب تحرم معه الجنة؟

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ١٢٩).

فلا بدَّ لنجاح الداعية في دعوته من معرفة مراتب الأعمال في الشريعة حتىٰ يميز بين الفروض والمستحبات، وبين المحرمات والمكروهات، كما عليه فقه الواقع الذي يريد تنزيل الأحكام والهدايات عليه، فإنَّ الحكم علىٰ الشيء فرع عن تصوره.

فإن فقه ترتيب الأولويات هو المنهج السليم في فهم الإسلام وتطبيقه والدعوة إليه، وهو المسلك الذي اتبعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة الكرام، وهو الميزان الذي يضبط التوازن بين العبادات، والمعاملات، والعقيدة، والدعوة.

تاسعاً: ترتيب الأولويَّات من سنن النجاح العامة:

ممَّا يدلُّ علىٰ أهمية ترتيب الأولويات والعناية بها، أنَّ الإنسانية بفطرتها وعقولها السليمة تهتدي إلىٰ ضرورة ترتيب الأولويات، وتعد ذلك من أسس النجاح في الحياة. فكلٌّ من المدير ورب الأسرة والتاجر والمعلم والصانع والزارع، إذا لم يرتب أولوياته فشل في عمله، ووقع في التخبط والتضييع.

قال العز بن عبد السلام: «إنَّ تقديم الأصلح فالأصلح، ودرء الأفسد فالأفسد مركوز في طبائع العباد، نظرًا لهم من رب الأرباب، كما ذكرنا في هذا الكتاب.

فلو خيَّرت الصبي الصغير بين اللذيذ والألذ لاختار الألذ، ولو خُيِّر بين الحسن والأحسن لاختار الأحسن، ولو خُيِّر بين فلس ودرهم لاختار الدرهم، ولو خُيِّر بين درهم ودينار لاختار الدينار.

لا يقدم الصالح علىٰ الأصلح إلا جاهل بفضل الأصلح، أو شقي متجاهل لا ينظر إلىٰ ما بين المرتبتين من التفاوت»[1].

يتفق الجميع علىٰ أنَّ من لا يراعي ترتيب الأولويات في حياته، تضطرب أموره، ويفوته الكثير من المصالح، **فلا بدَّ قبل أيّ عمل من:**

- ✓ دراسة أهميَّته، ودرجة أولويَّته.
- ✓ تحديد الأنسب للاشتغال به زمانًا ومكانًا وحالًا.
- ✓ ترتيب قائمة الأعمال وفق الأهم فالأهم، فيما يُقدَّم وما يُؤخَّر، وما يُهتم به وما لا يُهتم به.

وهذا ينطبق علىٰ كل المجالات، سواء كانت: اقتصاديَّة، أو سياسيَّة، أو عسكريَّة، أو اجتماعية، حتىٰ علىٰ مستوىٰ ترتيب الأمور المنزلية، خاصة عندما تتزاحم الأعمال.

ونجد اليوم من أسباب فشل كثير من الناس في حياتهم: أنَّهم يركِّزون علىٰ جانب معيَّن علىٰ حساب جوانب أخرىٰ مهمَّة، ممَّا يؤدِّي إلىٰ التقصير فيها، فيقع الإفراط أو التفريط بالاشتغال بفرض مع تضييع فرائض أخرىٰ، أو الاشتغال بالنوافل والسنن مع التفريط في الفروض.

حتىٰ العالَم غير الإسلامي يعترف بأهمية ترتيب الأولويات، ويجعلونه أساس النجاح في إدارة الوقت وإدارة الأعمال، **فيقسم خبراء الإدارة والتنمية البشرية الأولويات إلىٰ أربعة أقسام:**

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ٧).

مهم وعاجل - يجب إنجازه فورًا.

مهم غير عاجل - يجب تخصيص وقت له وتنظيمه.

غير مهم وعاجل - يجب تفويضه لغيرك.

غير مهم وغير عاجل - يجب تجنبه.

ويَعدُّونه من الأسس التي تقوم عليها الحياة الرشيدة للفرد والمجتمع، في أمور الدين والدنيا، وهي من أهم خطوات النجاح في سائر الأمور؛ بل هي الموجِّه لأهداف وسير عمليات الإنسان في الحياة، فالتعليم مثلاً: لا بدَّ فيه من مراعاة ترتيب الأولويَّات والبدء بالأهم فالأهم في قائمة الأعمال والواجبات والمسؤوليَّات؛ **فلا يصلح مثلاً**:

- حفظ كلام البشر قبل كلام الله تعالىٰ.
- دراسة فقه العبادات قبل فقه العقيدة.
- دراسة فتح الباري قبل الأربعين النووية.

كما أنَّ الجسد ينمو طبيعيًّا بالتدرج في الغذاء، فكذلك العقول تحتاج إلىٰ نموٍّ طبيعي بالتدرج في التعليم. كما جاء عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً»[1].

فترتيب الأولويات هو مفتاح النجاح في الدين والدنيا، وهو الموجه الأساسي لأهداف الإنسان في الحياة. سواء كان الأمر متعلقًا بالعبادات، أو العلم، أو الدعوة، أو الإدارة، أو التنمية الشخصية، فإنَّ النجاح مرهون بمدىٰ قدرتنا علىٰ ترتيب أولوياتنا علىٰ النحو الصحيح.

---

(١) أخرجه مسلم، في مقدمته، بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْحَدِيثِ بِكُلِّ مَا سَمِعَ. انظر: صحيح مسلم (١/ ١١).

فلا بدَّ من التخطيط السليم، ووضع الأولويات، وتقديم الأهم علىٰ المهم، حتىٰ تتحقق المصالح، وتندفع المفاسد، ويصل الإنسان إلىٰ الرشد والنجاح في حياته.

عاشراً: ترتيب الأولويَّات يسد مداخل الشيطان:

الشيطان له مداخل كثيرة ومتنوعة لإضلال الإنسان، ومن أخطرها إشغال الإنسان بالعمل المفضول عن العمل الفاضل. فإذا لم يكن الإنسان علىٰ دراية بمراتب الأعمال وأولوياتها، وقع بسهولة في هذه المصيدة الشيطانية. فكثير من الناس لا يفكر في مراتب الأعمال وأكثرها ثوابًا وأعظمها أجرًا، بل يفكر فقط في صلاح العمل نفسه، فيضيع الشيطان عليه خيرًا كثيرًا دون أن يشعر.

وقد وضع العلماء قاعدة ذهبية في الاختيار بين الأعمال، فقالوا:

«إذا أراد أحدكم أن يفعل شيئًا، فلينظر: هل في فعله خير أم أنَّ الخير في تركه؟

وإذا كان في فعله خير، فلينظر: هل يشغله عمَّا هو أهم وأفضل أم لا؟

فإن كان يشغله عمَّا هو أهم منه وأفضل، فليتركه؛ لأنَّ العاقل لا يمكنه أن يشتغل بالمفضول عن الفاضل؛ لأنَّ ذلك إضاعة لفضل الفاضل»[1].

وهنالك أمثلة عملية علىٰ مصيدة الشيطان في الأولويات من ذلك:

أن يشغل الشيطان العابد عن الفرائض بالنوافل: فيوسوس له أن يطيل قيام الليل، حتىٰ يفوته الفجر أو يصليه متأخرًا أو بلا خشوع.

ويشغله بالاشتغال بصيام التطوع، حتىٰ يهمل عمله أو حقوق أهله.

(١) الضياء اللامع من الخطب الجوامع (١/ ٩٣).

أن يشغل الشيطان طالب العلم عن الأهم بالمفضول:

يجعله ينشغل بدراسة الحديث، في حين يهمل دراسة القرآن الكريم وتفسيره.

يجره إلىٰ الجدال في المسائل الخلافية، فينشغل عن العلم والعمل به وتطبيقه.

أن يشغل الشيطان الداعية عن القضايا العظمىٰ بالتفاصيل الصغيرة:

يدفعه إلىٰ التركيز علىٰ جزئيات الأحكام، في حين يغفل عن دعوة الناس إلىٰ أصول الإيمان وأركان الإسلام.

فعلىٰ المستهدي بالهدىٰ أن يراعي الآتي في مواجهة مداخل الشيطان:

- يقدم دائما «الأهم فالأهم» .
- إذا تعارض عملان، قدم الأهم منهما.
- لا يشتغل بالمفضول عن الفاضل، حتىٰ لو كان كلاهما طاعة.
- أعط كل عمل حقه، لكن لا تجعل المستحب يعطلك عن الواجب.

فترتيب الأولويات هو حصن المؤمن من مداخل الشيطان، فمن لم يكن عنده فقه في الأولويات، وقع في فخاخ الشيطان، وانشغل بما هو أقل نفعًا عمّا هو أعظم وأجدىٰ.

أهميَّة ترتيب الأولويَّات في الاستهداء بالهدى

1. مراعاة الأولويَّات من خصائص الخطاب القرآني.
2. مراعاة ترتيب الأولويَّات هدي جميع الأنبياء والمرسلين.
3. تفاضل مراتب الأعمال يستلزم مراعاة الأولويَّات.
4. عناية المفسرين بأهمية ترتيب الأولويَّات في تفسيرهم للآيات.
5. عناية الأصوليين بأهمية مراعاة ترتيب الأولويَّات وتفاضل الأعمال.
6. نيل أعظم الثواب يستلزم مراعاة ترتيب الأولويات.
7. غياب الأولويَّات يؤدّي إلى مفاسد عظيمة.
8. ترتيب الأولويات الطريق السليم للعمل بالدين والدعوة إليه.
9. ترتيب الأولويَّات من سنن النجاح العامة.
10. ترتيب الأولويَّات يسد مداخل الشيطان.

المبحث الثالث

أسس وموجِّهات ترتيب الأولويَّات في الهدى

البحث في ترتيب الأولويات المتعلقة بالهدىٰ يقوم علىٰ أسس محددة وموجِّهات متنوعة، نسعىٰ من خلال هذا المبحث إلىٰ الكشف عن أهم الأسس والموجهات التي دلَّت عليها شواهد الأدلة وذكرها العلماء.

وسنبدأ بالأسس، ثم يأتي الحديث عن الموجِّهات.

المطلب الأول: أسس ترتيب الأولويَّات:

عند البحث عن الأسس التي يقوم عليها بناء الأولويات نجدها في الجملة تقوم علىٰ ثلاثة أسس رئيسة، ويتفرع عن كل أساس عدة فروع.

الأساس الأول: الأولويات حسب ترتيب القرآن للموضوعات:

عند النظر في موضوعات الهدىٰ في الكتاب والسنة نجد أنَّ الأولويات تتوزَّع ضمن قسمين رئيسين: المأمورات (ما أمر الله به)، والمنهيات (ما نهىٰ الله عنه).

أولًا: ترتيب الأولويات في المأمورات:

وهي الأوامر التي حثَّ الله تعالىٰ علىٰ فعلها ورغَّب فيها، وتنقسم إلىٰ:

- ✓ واجبات (فرض عين أو كفاية).
- ✓ مستحبات (سنن ومستحبات).

قال تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

تحليل ترتيب الأولويات في الآية:

هذه الآية شملت عشرة أوامر مرتبة وفق أولويات الحقوق:

١. عبادة الله وتوحيده، فهو أهم الواجبات علىٰ الإطلاق.
٢. الإحسان إلىٰ الوالدين، فهم أولىٰ الناس بالبرِّ.
٣. الإحسان إلىٰ الأقارب، وأولاهم أقربهم.
٤. الإحسان إلىٰ اليتامىٰ، وأولاهم أقربهم وأحوجهم.
٥. الإحسان إلىٰ المساكين.
٦. الإحسان إلىٰ الجار القريب (نسبًا أو سكنًا).
٧. الإحسان إلىٰ الجار البعيد.
٨. الإحسان إلىٰ الصاحب في السفر.
٩. الإحسان إلىٰ ابن السبيل.
١٠. الإحسان إلىٰ المماليك والخدم.

وفي داخل كل مرتبة، هناك موازنة بين الرتب، مثل: اليتيم القريب أولىٰ من اليتيم البعيد، والجار الذي يجمع بين القرب والنسب أولىٰ من الجار الذي يجمع صفة واحدة فقط.

ثانيًا: ترتيب الأولويات في المنهيات:

هي المحرمات التي نهىٰ الله عنها، وتنقسم إلىٰ:

- محرمات (كبائر وصغائر).
- مكروهات (تنزيهية أو تحريمية).

قال تعالىٰ: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٣].

تحليل ترتيب الأولويات في الآية:

هذه الآية رتَّبت المحرمات الغذائية وفقًا لأعظمها ضررًا، فقدم ما فيه أثم وضرر وأخَّر ما كان كله إثم وإن كَبُر، فالشرك بالله من حيث الإثم أكبر من أكل الميتة:

١. الميتة (لأنَّها قد تكون مضرّة صحيًّا).
٢. الدم (لأنَّه محمل للجراثيم والأمراض).
٣. لحم الخنزير (لما فيه من خبث وقذارة).
٤. ما أُهِلَّ به لغير الله (لأنَّه شرك بالله).

فهذه المحرمات ليست في درجة واحدة، بل تختلف في الحكم والتأثير.

فالقرآن الكريم يضع منهجًا واضحًا في ترتيب الأولويات، حيث يقدم:

- أعظم الحقوق علىٰ ما دونها.
- أهم الواجبات علىٰ المستحبات.
- وفي الترك يقدم أكبر الكبائر علىٰ الصغائر.

التطبيق العملي لهذا الأساس يساعد في ضبط الحياة الدينية والاجتماعية، بحيث لا ينشغل الإنسان بالمفضول عن الفاضل، ولا يقدِّم الأقل أهمية علىٰ الأهم.

الأساس الثاني: الأولويات حسب حاجة الواقع:

الأولويات كما ينظر في ترتيبها وما يقدّم منها وما يؤخّر حسب ترتيب أولويات الموضوعات في الهدىٰ القرآني، فإنَّه يُنظر فيه أيضًا وفق متطلَّبات الواقع وحاجته، حيث تختلف الأولويات باختلاف الزمان، والمكان، والظروف، والفئات.

فقد نجد أنَّ بعض الظواهر تنتشر علىٰ وجهٍ يفرض أولويات معينة تتناسب مع:

زمان دون زمان.

مكان دون مكان.

حالة دون حالة.

فئة دون أخرىٰ.

وقد ظهر هذا التفاوت بوضوح في دعوات الأنبياء -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- حيث كان لكل نبي أولوية تناسب حال قومه وظروفهم الخاصة.

١/ شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأولوية محاربة الغش التجاري:

عندما كانت ظاهرة تطفيف الكيل والميزان منتشرة في قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، جعلها من أهم الأولويات في دعوته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ ﴾ [هود: ٨٤ – ٨٥]. جعل شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد التوحيد الأولوية محاربة الفساد الاقتصادي في قومه؛ لأنَّ التلاعب في الميزان كان من أكبر مظاهر الفساد في زمانهم.

٢/ لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ وأولوية محاربة الفساد الأخلاقي:

علىٰ عكس شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان الانحراف الأخلاقي هو الفساد الأكبر عند قوم لوط، لدرجة أنَّ الطهر والعفاف صار مستنكرًا بينهم.

قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٠ – ١٧٤].

لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ركَّز علىٰ أولوية محاربة الشذوذ الجنسي؛ لأنَّ الفساد الأخلاقي كان أعظم ما فشا في قومه؛ لأنَّه الأساس الذي سيصلح المجتمع.

٣/ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأولوية مواجهة الترف والطغيان العمراني:

كان قوم صالح منغمسين في الترف والتباهي بالعمران، فكانت أولويته حسب التوجهات الربانية محاربة الغرور والتكبر علىٰ الله.

قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٤١ – ١٥٢]. فدعاهم إلىٰ الخشوع لله بدلاً الترف والانشغال بالمظاهر الدنيوية.

٤/ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأولوية مقاومة الظلم والطغيان:

كان فرعون في زمن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو قمة الطغيان والفساد القيادي، لذلك كانت أولوية موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حسب التوجهات الربانية مواجهة ذلك الطغيان.

قال تعالىٰ لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٧ –٢٦].

فجعل مواجهة فرعون أولوية؛ لأنَّ الفساد الأكبر في زمانه كان في استعباده للناس وقتل الأبرياء منهم، فركَّز علىٰ إصلاح السلطة الحاكمة؛ لأنَّ الإصلاح القيادي للحاكم والوالي يؤثر في مناحي الحياة جميعها.

٥/ ترتيب الأولويات في القرآن المكي والمدني:

نجد أنَّ القضايا التي تناولها القرآن المكي وركَّز عليها وفرضها، تختلف عن الموضوعات التي ركَّز عليها القرآن المدني. والسبب في ذلك: واقع مكة والمدينة، وحال الدعوة.

في القرآن المكي، كان التركيز علىٰ: محاربة الشرك، وبيان انحرافات المشركين عبدة الأصنام، وموضوع وأد وكره البنات، ونسبة البنات إلىٰ الله تعالىٰ وغيرها.

أمَّا في القرآن المدني، فكان التركيز علىٰ: قضيَّة أهل الكتاب، والنفاق، وتشريع المعاملات والحدود والجهاد في سبيل الله وغيرها.

فالجهاد مع أنَّه ذروة سنام الإسلام؛ لكنَّه أُخِّر من حيث فرضيته؛ مراعاة للبناء الإيماني المهم الذي ينبغي أن يسبقه، وكذلك مراعاة لأحوال أهل الدعوة وما هم فيه من ضعف وقلة عَدَدٍ وعُدَدٍ، والخمر مع أنَّها أم الكبائر؛ ولكن لاعتبارات واقعية تدرج التشريع في تحريمها والنهي عنها، وكذلك الربا مع أنَّه من كبائر الذنوب، ولكن تحريمه تأخَّر لاعتبارات واقعية، وغيرها.

الأساس الثالث: الأولويات حسب واجب الوقت:

إنَّ أفضلية العمل في ذاته لا تمنحه بالضرورة أفضلية دائمة، إذ إنَّ واجب الوقت يُقدِّم العمل المطلوب شرعًا في لحظة معينة أو الذي يفرضه ظرف معين علىٰ غيره من الأعمال. فمثلًا: الجهاد في وقته يكون أفضل من طلب العلم ونوافل الطاعات، والصلاة عند دخول وقتها تُقدَّم علىٰ غيرها من الأعمال. وعليه، يجب علىٰ المسلم أن يُدرك واجب الوقت والظرف فيقدمه علىٰ غيره.

قال ابن القيم:«فقراءة القرآن أفضل الأذكار، وهي أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، وهذا من حيث النظر إلىٰ كل واحد منهما مجرَّدًا، وقد تعرض للمفضول ما يجعله أولىٰ من الفاضل، بل تعينه، فلا يجوز أن

يعدل عنه إلىٰ الفاضل، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود، فإنَّه أفضل من قراءة القرآن، وكذلك التشهد، وكذلك قول (رب اغفر لي) بين السجدتين، وقول (رب اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني) بين السجدتين أفضل من القراءة.

وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة، ذكر (التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد) أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة. وكذلك إجابة المؤذن، والقول كما يقول، أفضل من القراءة، وإن كان فضل القرآن علىٰ كل كلام كفضل الله علىٰ خلقه، لكن لكل مقام مقال...

وهذا باب نافع يحتاج إلىٰ فقه نص وفرقان بين فضيلة الشيء في نفسه وبين فضيلته العارضة، فيعطي كل ذي حقٍّ حقّه ويضع كل شيء موضعه، فللعين موضع، وللرجل موضع، وللماء موضع، وللحم موضع، وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التي هي نظام الأمر والنهي، والله الموفق»[1].

ويُضيف ابن القيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في موضع آخر قائلاً: «قال ابن القيم: قلت لشيخ الإسلام ابن تيمية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا: سئل بعض أهل العلم أيهما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقيًّا فالبخور وماء الورد أنفع له، وإذا كان دنسًا فالصابون والماء الحار أنفع له. فقال لي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فكيف والثياب لا تزال دنسة؟

ومن هذا الباب أنَّ سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ تعدل ثلث القرآن ومع هذا فلا تقوم مقام آيات المواريث والطلاق والخلع والعدد ونحوها، بل هذه الآيات في وقتها وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص.

---

(١) الوابل الصيب (ص:٩١).

ولمَّا كانت الصلاة مشتملة علىٰ القراءة والذكر والدعاء، وهي جامعة لأجزاء العبودية علىٰ أتم الوجوه، كانت أفضل من كل من القراءة والذكر والدعاء بمفرده، لجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء.

فهذا أصل نافع جدًّا يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وتنزيلها منازلها، لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها فيربح إبليس الفضل الذي بينهما، أو ينظر »[1] .

الخلاصة:

هذا المبدأ يُعين العبد علىٰ إدراك مراتب الأعمال وترتيبها وفق أهميتها، بحيث لا ينشغل بالمفضول علىٰ حساب الفاضل، فلا يُحقق إبليس مكسبًا من هذا الفرق الكبير بينهما، ولا يُهمل المفضول حين يكون وقته الأنسب بسبب ظنه أنَّ الفاضل دائمًا أعظم أجرًا. فهناك أوقات يكون فيها تقديم المفضول هو الواجب والأكثر أهمية، إذ قد تترتب عليه مصلحة أعظم من الانشغال بالفاضل في غير وقته.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٣٣).

المطلب الثاني: موجِّهات في ترتيب أولويات الهدى:

تُعدُّ معرفة الموجِّهات والمحددات المساعدة في ترتيب أولويات الهُدىٰ أمرًا في غاية الأهمية، إذ تمثل خارطة طريق لمن أراد التعمق في الدين تعلُّمًا وتعليمًا، وعملاً ودعوةً، بحيث يتسنىٰ له معرفة الأولىٰ ثم الأولىٰ، وما القضايا التي ينبغي البدء بها وتقديمها، وتلك التي يمكن تأخيرها.

وبعد البحث والتتبع في كتابات العلماء، لم أجد - حسب علمي واطلاعي - من تطرَّق لهذا الموضوع علىٰ وجهٍ مستقل، ممّا دفعني إلىٰ استقراء أدلة القرآن الكريم والسنة النبوية لاستنباط موجهات تعين علىٰ ذلك؛ وذلك لأنَّ «مصالح الدارين وأسبابها ومفاسدها لا تعرف إلَّا بالشرع، وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس المعتبر والاستدلال الصحيح.

وأمَّا مصالح الدنيا وأسبابها ومفاسدها فمعروفة بالضرورات والتجارب والعادات والظنون المعتبرات، فإن خفي شيء من ذلك طلب من أدلته، ومن أراد أن يعرف المتناسبات والمصالح والمفاسد راجحهما ومرجوحهما فليعرض ذلك علىٰ عقله بتقدير أنَّ الشرع لم يرد به ثم يبني عليه الأحكام فلا يكاد حكم منها يخرج عن ذلك إلا ما تعبد الله به عباده ولم يقفهم علىٰ مصلحته أو مفسدته، وبذلك تعرف حسن الأعمال وقبحها»[1].

(١) الوابل الصيب (ص:٩٢).

ومن خلال هذا الاستقراء، توصَّلت إلىٰ عشرة موجِّهات تساعد وتُيسر تحديد أولويات موضوعات الهُدىٰ، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولاً: نسبة وحجم اهتمام القرآن الكريم بالموضوع:

يُعدّ مدىٰ عناية القرآن الكريم واهتمامه بالموضوع من أهم الموجهات في تحديد أولويات موضوعات الهُدىٰ القرآني، إذ نجد أنَّ القرآن الكريم عند تناوله لمسائل العقيدة، أو الأخلاق، أو العبادات، أو المعاملات، وغيرها، يعطي كلَّ قضيَّة كلية أو جزئيَّة وزنها المناسب من التناول والاهتمام حسب ما لها من الأولوية؛ بل أعطىٰ كل قضية فرعية داخل القضية الكلية ما يناسبها من الاهتمام والعناية.

فعلىٰ سبيل المثال، نجد أنَّ معرفة الله تعالىٰ بصفاته، وإفراده بالعبوديَّة، وعدم الإشراك به هي أعظم القضايا وأعلاها شأنًا، أطال القرآن في بيانها وأكثر من تناولها في السور والآيات المكية والمدنية؛ بل نجد أنَّ هناك سورًا كاملة كان هذا الموضوع محورها الرئيس، مثل: الأنعام، الأعراف، يونس، هود، الرعد، إبراهيم، الحجر، النحل، طه، الأنبياء، الحج، الفرقان، النمل، الروم، وغيرها.

وكذلك قضيَّة الإيمان باليوم الآخر، التي لم تخلُ سورة من الإشارة إليها، بل خُصّصت لها عدَّة سور ومئات الآيات، وكانت هذه القضية بارزة في مسميات بعض السور وموضوعها الرئيس، مثل: الزمر، الدخان، الجاثية، الواقعة، التغابن، الحاقة، المعارج، القيامة، النبأ، النازعات، الانفطار، الانشقاق، الغاشية، وغيرها.

ومن القضايا التي حظيت باهتمام واسع في القرآن إثبات صحة نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإثبات أنَّ القرآن الكريم وحي من الله، ووجوب اتباعهما، حيث وردت هذه القضية في عدد كبير من السور وعشرات الآيات بأساليب متنوعة، كما في سورة: الإسراء، طه، الفرقان، الأحزاب، ص، وفصِّلت، الشورىٰ، محمد، الفتح، وغيرها.

ومن هنا، قرَّر العلماء أنَّ شرف الموضوع وفضله وأهميَّته تظهر من حجم ونسبة تناوله في القرآن الكريم.

قال ابن تيمية: «فمن المعلوم، أنَّ أشرف مسائل المسلمين، وأهم المطالب في الدين ينبغي أن يكون ذكرها في كتاب الله أعظم من غيرها. وبيان الرسول لها أولىٰ من بيان غيرها، والقرآن مملوء بذكر توحيد الله، وذكر أسمائه وصفاته، وآياته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقصص، والأمر، والنهي، والحدود، والفرائض بخلاف الإمامة، فكيف يكون القرآن مملوءًا بغير الأهم الأشرف؟»[1].

بناءً علىٰ هذا الميزان، يظهر الخلل المنهجي عند بعض الفرق والجماعات التي تعظّم أعمالًا جزئية لم يذكرها القرآن إلَّا في مواضع محدودة، ثم تجعلها شغلها الشاغل، بل تبني عليها الولاء والبراء، كما هو الحال في موضوع الإمامة عند الشيعة، في حين تهمل موضوعات ذات أولوية

(١) منهاج السنة النبوية (١/ ٩٨).

قصوىٰ، مثل: التوحيد وإفراد الله تعالىٰ بالعبادة، والولاء والبراء علىٰ أساس ذلك؛ بل إنَّ بعضهم يقع فيما يضاد التوحيد من عبادة القبور، ودعاء الأموات، والاستعانة بهم، والطواف بقبورهم، ونحو ذلك من الممارسات التي تخالف العقيدة الصحيحة.

وعليه، فإنَّ الواجب أن يُعطىٰ كل موضوع من الأولوية بقدر حجم اهتمام القرآن به، حتىٰ يكون المنهج العلمي متزنًا ومتوافقًا مع هدي القرآن الكريم.

ثانياً: تقدُّم الموضوع في النزول والتشريع:

من الموجهات والدلائل التي يُميَّز بها ترتيب أولويات موضوعات الهُدىٰ القرآني تتبُّع نزول القرآن الكريم. فقد راعىٰ القرآن في نزوله مُنَجَّمًا الأولويات بوجهٍ عامٍّ، ابتداءً من صدر سورة العلق، وهي أول ما نزل بغار حراء بمكة، إلىٰ آخر ما نزل من سورتي التوبة والنصر بالمدينة. وقد جاء محكم البناء في مراعاة الأولويات؛ فكان أول ما نزل من القرآن المكي مُؤَسِّسًا لقضايا الإيمان الكبرىٰ، خاصة إفراد الله تعالىٰ بالعبادة، والإيمان باليوم الآخر، والتصديق بنبوة محمد ﷺ، وأنَّ القرآن كلام رب العالمين، وبيان مكارم الأخلاق، وأصول العبادات. ثم جاء ما نزل بعده من القرآن المدني مكمِّلًا لذلك البناء، حيث تضمن تفاصيل العبادات والأحكام والتشريعات، وتنظيم بناء المجتمع وغيرها من القضايا.

وبتتبُّع حركة النزول، نجد أنَّ القرآن الكريم نزل مراعياً ثلاثة جوانب رئيسة:

الجانب الأول: بناء الأمة:

وهذا الجانب يشمل معظم الآيات التي لم ترتبط بسبب نزول خاص، وقد جاء بناؤها مُحكمًا من حيث الأولويات العامة. فعلىٰ سبيل المثال، لمَّا كان العلم والقراءة وتعلم علوم الوحي، وفي مقدمتها إفراد الله تعالىٰ بالعبادة، هو أساس التغيير والإصلاح، اشتمل أول ما نزل من صدر سورة العلق علىٰ ذلك.

كما أنَّ سورة القلم (ن) كانت من أوائل السور نزولًا، جاءت «فاتحتها وخاتمتها في بيان تعظيم شأن الرسول صاحب الدعوة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودفع شبهة الجنون عنه »[1]، وهي تشير كذلك إلىٰ منزلة العلم والكتابة وأثرهما في إقامة هذا الدين. ونجد هذه العناية بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما أُنزل عليه تتكرر في هذه السور: المدثر، المزمل، الشرح، والمسد، وهي من أوائل ما نزل بمكة. وكذلك سورة الضحىٰ، التي كانت أول ما نزل عليه بعد فتور الوحي، جاءت كلها في بيان مكانة هذا النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الجانب الثاني: علاج علل الأمَّة:

وهذا الجانب يشمل جميع الآيات والسور التي نزلت مرتبطةً بأسباب نزول خاصة، حيث راعت أولويات معالجة القضايا الواقعية التي كان يعيشها الناس آنذاك، سواء في القرآن المكي أو المدني.

علىٰ سبيل المثال، عالج القرآن تشكّك المشركين في صدق القرآن الكريم بتحدّيهم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة. كما تناول القرآن مسألة تحويل القبلة والنسخ في التعامل مع اليهود، وكذلك قضية تحريم الخمر للمسلمين، حيث جاءت المعالجة تدريجية وفق حكمة بالغة.

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٢٦٣).

وقد اختار الله تعالىٰ أحداثًا محورية دون غيرها لينزل فيها كلامه، وكانت هذه الأحداث في معظمها تمثل قضايا جوهرية متجذرة في الواقع، تحتاج إلىٰ خطاب قرآني يُحدث تحوُّلًا عظيمًا في نفوس الناس وعقولهم، ليوجههم نحو الهُدىٰ والحق.

والقرآن الكريم، وهو يعالج هذه القضايا، لا يقف كثيرًا عند الأسباب والأشخاص المحددين، بل يرتقي بالخطاب ليصل إلىٰ التوجيه الإلهي والتقويم والتربية والإصلاح، كما في حادثة الإفك، وتخلّف بعض الصحابة عن غزوة تبوك، وانفضاض بعضهم إلىٰ التجارة أثناء خطبة الجمعة وترك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائمًا في المحراب. ومن هذه الحوادث ونزول القرآن فيها، وأسلوبه في معالجتها، نتعلم الكثير من القواعد والأسس في فهم الأولويات الدعوية والإصلاحية في حسب متطلبات الواقع.

الجانب الثالث: التوجيه الوقائي:

وهو في الغالب يتناول قضايا تحسُّبية لما قد يواجهه المسلمون مستقبلًا في مسيرة الدعوة، وهو يحمل توجيهات وقائية. ومن ذلك قوله تعالىٰ:

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الفتح: ١٥].

نظرًا لأهمية هذا الموضوع وسعته، وما يحمله من تفصيلات دقيقة حول أولويات الهُدىٰ القرآني، فإنَّه يحتاج إلىٰ دراسة متخصصة تحت عنوان: «أولويات الهُدىٰ القرآني في ضوء تتابع نزول الآيات والسور»، ليتم التعمق في منهجية القرآن في معالجة القضايا الكبرىٰ وفق ترتيب نزوله وتشريعاته.

ثالثاً: اقتران الموضوع بالإيمان بالله تعالى وعبادته:

من الدلائل والموجِّهات التي يُميَّز بها أولويَّة الموضوعات القرآنيَّة ارتباط الموضوع بالإيمان بالله تعالىٰ، الذي يُعدّ أهم موضوعات القرآن بإجماع العلماء، حيث لم يُنقل مخالف في ذلك. ومن أمثلته:

أ/ الاقتران بين الإيمان بالله تعالىٰ واليوم الآخر:

وهذا كثير في القرآن الكريم، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[البقرة:٢٣٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران:١١٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾[النساء:١٣٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

وقوله تعالىٰ: ﴿تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢].

ب/ الاقتران بين الإيمان بالله تعالىٰ ورسوله:

وهذا أيضًا كثير في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالىٰ:

﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[المائدة:٨١].

وقوله تعالىٰ:﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور:٦٢].

ج/ الاقتران بين الإيمان بالله تعالىٰ وكتابه:

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء:١٣٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٨١].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن:٨].

د/ الاقتران بين عبادة الله تعالىٰ وبر الوالدين:

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣].

قال ابن عاشور:«وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ اهتمام بشأن الوالدين؛ إذ جعل الأمر بالإحسان إليهما عقب الأمر بالعبادة، كقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾[لقمان: ١٣، ١٤]»[(١)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء:٣٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[الإسراء:٢٣].

قال الخازن:«إنَّما قرن بر الوالدين بعبادته وتوحيده لتأكد حقهما علىٰ الولد»[(٢)].

وقال أبو السعود:«صُدِّر بما يتعلق بحقوق الله عَزَّوَجَلَّ التي هي آكَدُ الحقوقِ وأعظمهما تنبيهاً علىٰ جلالة شأنِ حقوقِ الوالدين بنظمها في سلكها كما في سائر المواقعِ»[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٤٩).

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ٣٧٣).

(٣) إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم (٢/ ١٧٥).

وهكذا نظر العلماء إلىٰ موضوع الاقتران، كما في الاقتران بين الإيمان والإطعام، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة:٣٣، ٣٤].

وكالاقتران بين الإيمان والجهاد، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الصف: ١٠ – ١١].

وهذه الأمثلة كثيرة وتحتاج إلىٰ مزيد من التتبع والبحث.

رابعاً: تنوع أساليب عرض الموضوع ذي الأولويَّة:

من الدلائل والموجِّهات التي يُميَّز بها مدىٰ أولويَّة الموضوعات القرآنيَّة تنوُّع الأساليب التي عُرِض بها الموضوع الواحد، من حيث التكرار وتأكيده، وورود في سياقات مختلفة مثل: القصص، والأمثال، والقَسَم، والترغيب، والترهيب. فكلَّما ازداد تناول القرآن لموضوعٍ معيَّنٍ، وأُكِّد بأساليب متعدِّدة، دلَّ ذلك علىٰ تقدُّمِه في سُلَّم الأولويَّات.

فما من قضيَّة كبرىٰ إلَّا وأكثر القرآن من تناولها، وأكَّدها بأساليب شتَّىٰ. ومن ذلك، مثلًا: قضيَّة الإيمان بالله تعالىٰ، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالنبيِّ ﷺ وطاعته واتباعه. فلو تأمَّلنا موضوع توحيد الله تعالىٰ، لوجدنا أنَّ القرآن الكريم قد تناوله بأساليب متنوِّعة؛ فقد عالجه بأسلوب الجدل والمناظرة، والحوار، وضرب الأمثال، وسرد القصص، والترغيب، والتحذير من الشِّرك. كما استخدم أساليب أخرىٰ، مثل: الاستفهام، والقَسَم، والتكرار، وغيرها، ممَّا يرسِّخ العقيدة في النفوس ويُقوِّي القناعة بها.

ومثل ذلك: موضوع الإيمان بكتاب الله تعالىٰ، فهو من الموضوعات ذات الأولويَّة العالية في ترتيب موضوعات الهُدىٰ القرآني. لذا، عرضه القرآن بأساليب متنوِّعة؛ فنفىٰ عنه الرَّيب لإثبات اليقين، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وتحدَّىٰ في مواضع متعددة المرتابين أن يأتوا بمثله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٢٣].

وفي موضع آخر، يدافع القرآن عمَّا ضَرَبَه من أمثال، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦].

كما أقسم الله تعالىٰ علىٰ عظمة كتابه، فقال: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥- ٨٠]، وكرَّر القسم في عدَّة مواضع أخرىٰ، مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة:٣٨-٤٣].

وفي موضعٍ آخر، يوضِّح كيف تكفَّل الله بحفظه، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وفي موضع آخر، يبيِّن القرآن مدىٰ تأثيره، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

وهكذا نجد أنَّ الموضوعات ذات الأولويَّة أكثر القرآن من ذكرها، وتنوَّعت أساليبه في عرضها، وأكَّد عليها بأدوات متعدِّدة، ممَّا يستدعي دراستها دراسة متأنِّية ومستفيضة.

خامساً: تقدُّم الموضوع والعناية به في الهدي النبوي:

السُّنَّة النبويَّة وحيٌ جاء لبيان القرآن الكريم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

فمن المُوجِّهات التي يُميَّز بها أولويَّة الموضوعات القرآنيَّة ما جاء من أدلَّةٍ صريحةٍ في ترتيب بعض الأولويَّات في الأحاديث النبويَّة، أو من خلال استقراء السيرة العمليَّة للنبيِّ ﷺ، خاصَّةً وأنَّه هو المُبيِّن والمُترجِم للقرآن الكريم. ومن أوضح الأدلَّة علىٰ ذلك:

ما جاء ما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَىٰ اليَمَنِ، قَالَ: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ

أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ»[1]. فانظر كيف رتَّب له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولويَّات الدعوة، وحدَّد له التدرُّج فيها.

ومثال ذلك في المحرَّمات، ما ورد عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ - أَوْ قَالَ: وَشَهَادَةُ الزُّورِ - »[2].

وفي رواية عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ب، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الكَبَائِرُ؟ قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ» قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «ثُمَّ عُقُوقُ الوَالِدَيْنِ» قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «اليَمِينُ الغَمُوسُ» قُلْتُ: وَمَا اليَمِينُ الغَمُوسُ؟ قَالَ: «الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ»[3].

والمُتتبِّع لسيرة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته وتعليمه يجدها قائمةً علىٰ فقه الأولويَّات، وهو القُدوةُ للعالمين، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]. وهذا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب: الزكاة، باب: لا تُؤْخَذُ كَرَائِمُ أَمْوَالِ النَّاسِ فِي الصَّدَقَةِ ح رقم ١٤٥٨، ومسلم في صحيح في كتاب الإيمان، باب: الدعاء إلىٰ الشهادتين وشرائع الإسلام ح رقم٣١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب: الديات، باب: قوله تعالىٰ: (ومن أحياها) ح رقم ٦٨٧١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب: استتابة المرتد والمعاندين وقتالهم، باب: إثم مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ، وَعُقُوبَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ح رقم ٦٩٢٠.

التَّأسِّي عامٌّ في جميع الأمور، وخاصَّةً فيما يتعلَّق بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، حيثُ يلزمُ السيرُ علىٰ هديه ونور بصيرته، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف: ١٠٨].

وقد جاء في السيرة النبويَّة أنَّه عندما سأل النجاشيُّ الصحابةَ الذين هاجروا إليه عن دعوة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي بسببها فارقوا قومهم، أجابه جعفر بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بخطابٍ رصينٍ يُظهِر فيه أولويَّات دعوة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، متوافقةً مع هدي القرآن توافقًا واضحًا، فقال: «أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَىٰ اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ قَوْلِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ، قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ اللهُ، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ اللهُ، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا؛ لِيَرُدُّونَا إِلَىٰ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا؛ خَرَجْنَا إِلَىٰ بِلَادِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَىٰ مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ»[1].

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (ص: ٢٤٨).

ومن خلال ما سبق، يُظهر الهدي النبوي اهتمامًا واضحًا بفقه الأولويَّات في الدعوة والتوجيه، حيث كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرتِّب القضايا وفق أهميَّتها، بدءًا من التوحيد، ثم العبادات، ثم المعاملات، وكذلك في التحذير من الكبائر، حيث قدَّم الشرك، ثم عقوق الوالدين، ثم غيرهما من المحرَّمات. وتُؤكِّد السيرة النبويَّة هذا النهج، كما في حديث معاذٍ عند إرساله إلىٰ اليمن، وخطاب جعفر بن أبي طالب للنجاشي، ممَّا يؤكِّد بوضوح ترتيب الأولويَّات في التعاليم النبويَّة وفقًا لهدي القرآن الكريم.

سادساً: مراعاة ترتيب ذكر الموضوعات في القرآن الكريم:

تظهر أولويَّات موضوعات الهَدْي القرآني من خلال ذكر الفرائض والواجبات التي يجب القيام بها، أو عند بيانه للمحرَّمات والمنهيَّات التي يجب التخلِّي عنها، أو عند ذكر الوصيَّة المتعددة، أو عند ذكر بعض الصفات والفضائل التي ينبغي التَّحلِّي بها. ويتجلىٰ ذلك بوضوح في تقديم الأهم فالأهم، ثم التدرج في بقيَّة الأمور[1].

أولًا: في ذكر الفرائض وأعمال البرِّ:

يبدأ القرآن الكريم بذكر الأهم، ثم ما يليه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

(١) قد تجد مخالفة لهذا الأصل في بعض المواضع لاعتبارات نبَّه العلماء عليها في كتب التفسير لاعتبارات متنوعة.

وكذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣].

ويظهر هذا الترتيب أيضًا في تنفيذ الواجب الواحد، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٥].

ثانيًا: في ذكر المحرَّمات:

يبدأ القرآن الكريم بالأشد تحريمًا، ثم ما يليه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٢٣].

وكذلك في قوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:١٧٣].

ثالثًا: عند ذكر بعض الصِّفات والفضائل والوصايا:

يُقدِّم القرآن الكريم عند ذكر بعض الصِّفات والفضائل التي يجب التَّحلِّي بها الأهم ثم يتدرَّج إلىٰ غيره، كما في قوله تعالىٰ في صفات المتقين: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣]. فبدأ بالإيمان، ثم الصلاة، ثم الإنفاق.

وكذلك في صفات المهتدين، حيث قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨]. فبدأ بالإيمان بالله، ثم الإيمان باليوم الآخر، ثم الصلاة، ثم الزكاة.

وفي وصايا لقمان لابنه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٢- ١٤].

رابعًا: عند ذكر أهل الفضل من السابقين:

يبدأ القرآن الكريم بذكر المقرَّبين، ثمَّ أصحاب اليمين، ثم أصحاب الجحيم، كما في سورة الواقعة.

وكذلك في سورة الحشر عند الحديث عن المؤمنين، بدأ بالمهاجرين، ثم الأنصار، ثم من تبعهم بإحسان، في قوله تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:٨-١٠].

خامسًا: في مراعاة حال المخاطَبين:

يُرتِّب القرآن الكريم ذكر الفئات وفق أهميَّتها من حيث أحوال المخاطبين، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[المائدة:٣٨]. حيث قُدِّم الرجال في السرقة لأنَّ انتشارها فيهم أكثر.

وفي حدِّ الزنا، قدَّم ذكر النساء لأنَّ مداخلهنَّ إليه أكثر، والجريمة في حقِّهنَّ أبشع، كما في قوله تعالىٰ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢].

سادسًا: في الرُّخص والعُذر الشرعي:

يبدأ القرآن الكريم بذكر الفئات الأكثر استحقاقًا للرُّخص، كما في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١].

وكذلك في قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:٩١].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبة:٢٤].

الخلاصة:

القرآن الكريم يُرتِّب موضوعاته وفقًا للأهم فالأهم، سواء في الفرائض والواجبات، أو المحرَّمات والمنهيَّات، أو الصفات والفضائل وغيرها.

سابعاً: تخصيص المخصوص بالذِّكر بعد عموم يشمله:

من الدَّلائل والموجهات التي يُميز بها أولويَّة الموضوعات القرآنيَّة، تخصيص المخصوص بالذِّكر بعد وروده في سياق عام يشمله، ومن باب أولىٰ إذا تمَّ تأكيده دون غيره من الموضوعات في موضع معين. ومن الأمثلة علىٰ ذلك:

تخصيص الإنذار بيوم القيامة بعد عموم الأمر به، ممَّا يجعله في قمة أولويات مسائل الإنذار، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[الشورىٰ:٧]، وقد تمَّ تأكيده دون غيره من الموضوعات في قوله تعالىٰ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

تخصيص الإيمان بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد عموم يشمله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ [محمد: ٢].

قال القاسمي: «وقوله: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ أي بما أنزل الله به جبريل علىٰ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وإنَّما خصَّه بالذكر مع دخوله فيما قبله، تعظيمًا لشأنه وتعليمًا؛ لأنَّه لا يصح الإيمان ولا يتمّ إلَّا به، إذ يفيد بعطفه أنَّه أعظم أركانه، لإفراده بالذكر»[1]. وقد جاء تأكيده منفصلاً كثيراً.

تخصيص خلق الإنسان بالذكر مع دخوله في سائر الخلق لما له من أولوية التفكر، كما في قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١ – ٢].

(١) محاسن التأويل (٨/ ٤٦٤).

قال أبو السعود:«تخصيص خلق الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقاتِ لاستقلالِه ببدائعِ الصنعِ والتدبيرِ، وَعَلىٰ الثاني إفرادٌ للإنسانِ منْ بينِ سائرِ المخلوقاتِ بالبيانِ وتفخيمٌ لشأنِه إذْ هُو أشرفُهم وإليهِ التنزيلُ وهُو المأمورُ بالقراءةِ... »[1]. وقد جاء تأكيده منفصلاً، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

وكقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾[السجدة: ٧ – ٩].

قال البقاعي:«ولمَّا كان الحيوان أشرف الأجناس، وكان الإنسان أشرفه، خصَّه بالذكر ليقوم دليل الوحدانية بالأنفس كما قام قبل بالآفاق»[2].

وتخصيص الحث علىٰ الجهاد بالذكر بعد عموم يشمله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠ – ١١] »ومن المعلوم، أنَّ الإيمان بالله ورسوله يتضمن توحيد الله وإخلاص العبادة له سبحانه، كما يتضمن أداء الفرائض وترك المحارم، ويدخل في ذلك: الجهاد في سبيل الله لكونه من أعظم الشعائر الإسلامية، ومن أهم الفرائض، ولكنَّه سبحانه خصَّه بالذكر لعظم شأنه »[3]. وقد جاء تأكيده منفصلاً كثيراً في القرآن الكريم.

---

(١) إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم (٩/ ١٧٧).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٦/ ٥٢).

(٣) المفصل في شرح آية لا إكراه في الدين (٣/ ٨٦).

وتخصيص تلاوة القرآن بالذكر بعد عموم يشملها كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس:٦١].

قال الرازي: «تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هو معظم شأنه، وعلىٰ هذا التَّقْدِيرِ، فكان هذا داخلًا تحت قوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ إلَّا أنَّه خصَّه بالذِّكر تنبيها علىٰ علوِّ مرتبته »[1]. وقد جاء تأكيده منفصلاً كثيراً.

وتخصيص الرمي من بين سائر أنواع القوة التي أمرنا بالتَّقوِّي بها في الحرب لما لها من أولوية التأثير، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقد جاء في حديث ثُمَامَةَ بْنِ شُفَيٍّ، أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ، يَقُولُ: «﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ) [2]، ولعله عليه الصلاة والسلام خصه بالذكر لأنَّه أقواه[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب: الإمارة، باب: فَضْلِ الرَّمْيِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ، وَذَمِّ مَنْ عَلِمَهُ ثُمَّ نَسِيَهُ، ح رقم ١٩١٧.

(٣) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٦٥).

وتخصيص الوصية بالحفاظ علىٰ الصلاة الوسطىٰ بعد الأمر بعموم الحفاظ علىٰ الصلوات لما لها من أولوية العناية مع عموم المحافظة علىٰ الصلوات، كما في قوله تعالىٰ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

تخصيص التسبيح بالذكر مع الغدوِّ والآصال بعد عموم الأمر بذكر الله، لما له من الأولوية بين سائر الأذكار وفي هذين الوقتين، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ – ٤٢]، «والوجه في تخصيصه بالذكر، الإشعار ببيان فضله علىٰ سائر الأذكار، لكون معناه تنزيه ذاته عمَّا لا يجوز عليه من الصفات والأفعال، وفي سر تقييده بالغدو والآصال بيان لفضل هذين الوقتين علىٰ سائر الأوقات لتعاقب ملائكة الليل والنهار بهما، ولما يتجدد فيهما من نعم الله الظاهرة»[1].

تخصيص الفاتحة بالذكر مع عموم يشملها في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧].

قال السمعاني: «أَمَّا قَوْله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ المُرَاد مِنْهُ سَائِر الْقُرْآن سوىٰ الْفَاتِحَة، وَفِي هَذَا شرف عَظِيم للفاتحة؛ لِأَنَّهُ خصَّها بِالذِّكر والامتنان عَلَيْهِ بهَا، ثمَّ ذكر سَائِر الْقُرْآن وغيرها من موضوعات»[2]، فهو يدلُّ علىٰ أولوية العناية بها بين سائر السورة، ويكفي لذلك أنَّها أعظم سورة في القرآن الكريم.

(١) من بلاغة القرآن في التعبير بالغدو والآصال (ص: ٨٣).

(٢) تفسير القرآن (٣/ ١٥٠).

تخصيص سفك الدماء من بين سائر أنواع الفساد، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠]، لبيان عظمته وخطورته وأولوية الانتهاء عنه من بين سائر صور الفساد.

تخصيص البغي في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

قال القاسمي:«وَالْبَغْيَ أي: الاستطالة علىٰ الناس وظلمهم؛ إنَّما أفرده بالذكر، مع دخوله فيما قبله، للمبالغة في الزجر عنه؛ وذلك لأنَّ تخصيصه بالذكر يقتضي أنَّه تميّز من بينها حتىٰ عدَّ نوعًا مستقلًّا»[1].

وتخصيص الأشهر الحرم بالنهي عن الظلم فيها من بين سائر الأشهر لما لها من أولوية النهي لعظم الظلم فيها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

تخصيص الإيتاء لذوي القربىٰ من بين سائر وجوه الإحسان كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، فقد خصّ إيتاء ذي القربىٰ بالذّكر مع أنَّه داخل في الإحسان لما لهم من أولوية الإيتاء من عموم الإحسان.

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٤٨).

قال السيوطي: ﴿وَإِيتَآيِ﴾: إعْطَاء ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: الْقَرَابَة خَصَّهُ بِالذِّكْرِ اهْتِمَامًا بِهِ»[1]. وكذلك في تخصيص البغي فيها، قال ابن عطية:«والبغي: هو الكبر والظلم والحقد والتَّعدِّي، وحقيقته: تجاوز الحد، وهو داخل تحت المنكر، لكنَّه تعالىٰ خصَّه بالذِّكر اهتمامًا به لشدة ضرره»[2]، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورىٰ: ٤٢].

قال ابن عطية:«المعنىٰ إنَّما سبيل الحكم والإثم عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ، أي: الذين يضعون الأشياء غير مواضعها من القتل، وأخذ المال، والأذىٰ باليد وباللسان، والبغي بغير الحقِّ، وهو نوع من أنواع الظلم، خصَّه بالذِّكر تنبيهًا علىٰ شدَّته وسوء حال صاحبه»[3]، وكتخصيص أكل السحت بالذكر بعد عموم يدخل فيه، قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢].

قال أبو السعود:«﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ﴾ أي الحرام خصَّه بالذِّكر مع اندراجه في الإثم للمبالغة في التقبيح»[4] وغيرها من أمثلة ونماذج تحتاج إلىٰ أن تفرَّد بالدراسة والتتبع.

وهناك العديد من الأمثلة الأخرىٰ التي تحتاج إلىٰ تتبع ودراسة مستقلة.

(١) تفسير الجلالين (ص: ٣٥٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٦٧).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٠).

(٤) إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم (٣/ ٥٧).

ثامناً: عِظَم الثواب أو العقاب المترتّب على العمل:

من الدلائل والموجِّهات التي يُميَّز بها أولويَّة الموضوعات القرآنيَّة ما يُذكر من عِظَم الأجر المترتِّب على بعض الأعمال؛ كدخول الجنة، أو نيل الأجر فيها بغير حساب، أو رفعة الدرجات، وغير ذلك. وكذلك عِظَم العقوبة المترتِّبة على الذنوب في الدنيا والآخرة، مثل: الخلود في نار جهنم، أو وقوع غضب الله ولعنته، وخزيه وخسرانه على مرتكبها.

على سبيل المثال، توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية هو سبب لدخول الجنة وقبول سائر الأعمال، في حين أنَّ الشرك والكفر سبب لدخول النار وحبوط الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَة : ٧٢] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٢١٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾[التوبة: ٥٤].

كما بيَّن الله تعالى العقوبات العظيمة المترتبة على النفاق، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[التوبة: ٨٤].

وكذلك بيَّن عقوبة الكفر بآيات الله، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ [آل عمران: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ [الجاثية: ١١].

وكذلك بيَّن عقوبة عدم الإيمان بالبعث والنشور، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

وكذلك بيَّن جزاء محاربة الله ورسوله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣].

وكذلك بيَّن عقوبة ترك الصلاة كما في قوله تعالىٰ: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٢- ٤٧].

وكذلك بيَّن عقوبة ترك الزكاة في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ

عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤ – ٣٥].

وكذلك بيَّن عقوبة الربا قال تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢٧٨، ٢٧٩].

ومن الأعمال العظيمة التي بيَّن الله أجرها الكبير الصبر عند المصيبة، حيث جعله من أولىٰ ما يقوم به العبد عند نزول البلاء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٥ – ١٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠].

كما عظَّم الله تعالىٰ أجر ذكره والإكثار منه، فجعل ذلك من أفضل ما ينشغل به العبد في حياته، قال تعالىٰ: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، قال تعالىٰ: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤١-٤٣].

ومن الأعمال التي ورد في القرآن عِظَم جزائها الصدق، كما قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة:١١٩].

فعِظَم الثواب أو العقاب دليل علىٰ أولويَّة الموضوعات القرآنية، فالتوحيد يرفع الدرجات ويدخل الجنة، في حين أنَّ الشرك والكفر يوجبان الخلود في النار. وقد جاءت النصوص ببيان جزاء الأعمال، كعقوبة النفاق، وترك الصلاة، والزكاة، والربا، ومحاربة الله ورسوله، كما أكدت عظمة ثواب الصبر والذكر وسائر الطاعات.

تاسعاً: شدة حاجة الواقع إلى الموضوع:

من أهم الموجهات التي تحدد أولويات الموضوعات القرآنية النظر إلىٰ مدىٰ حاجة الواقع أو الفئة المستهدفة له، فالقرآن الكريم نزل مرتبطًا بأحداث الواقع الذي تنزل فيه، وعالج مشكلاته بعمق وحكمة. وعلىٰ الرغم من ارتباطه ببعض الوقائع المحددة، فقد جاء خطابه في أغلبه عامًّا، ليُعلِّم الأمَّة كيف تجعل خطاب القرآن مستجيبًا لحاجات كل زمان ومكان. وبهذا يتضح أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، إذ إنَّ لكلِّ عصر أحداثه، ولكلِّ مشكلة حلها المستمد من هدي القرآن الكريم. لذا، من الضروري دراسة الواقع وتحليل مدىٰ قربه أو بعده عن توجيهات القرآن. ومِن ثَمَّ، تحديد الأولويات وفق ذلك، حتىٰ نكون ممَّن يتلونه حقّ تلاوته، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يقرؤونه كَمَا أُنْزِلَ وَلَا يُحَرِّفُونَهُ، وَيُحِلُّونَ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: يَعْمَلُونَ بِمُحْكَمِهِ وَيُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِهِ، وَيَكِلُونَ علم ما أشكل عليه إِلَىٰ عَالِمِهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ»[1].

(١) معالم التنزيل، البغوي (١/ ١٦١).

ولعل من حكم نزول القرآن مفرَّقًا على مدى ثلاث وعشرين سنة، أنَّه يعكس الحاجة إلى معالجة الواقع حسب متطلباته، وهذا يوجِّه إلى ضرورة إجراء دراسات ميدانية للكشف عن الظواهر المؤثرة، مثل: انتشار ظاهرة الزنا أو أكل أموال الناس بالباطل، أو تفشي ظاهرة الظلم، أو العقوق، أو النعرات القبلية وسفك الدماء المعصومة، فيركّز عليها من باب معالجتها في ذلك الواقع الذي فشت فيه.

وعند الحديث عن أولوية التوحيد، فإنَّ مضمون الخطاب الذي يُقدَّم يجب أن يتوافق مع طبيعة الفئة المستهدفة. كما نرى أنَّ خطاب التوحيد في العهد المكي الموجّه للمشركين يختلف عن ذلك الموجّه لأهل الكتاب والمنافقين في المدينة. وهكذا.

فإنَّ فقه الأولويات يتغيَّر وفق تغيّر الزمان والمكان وظروف الأمَّة، بين قوَّة وضعف، وقدرة وعجز. وهذه سُنَّة قرآنية جليَّة. فعندما كانت الجماعة المسلمة قبل الهجرة في حالة ضعف جاءت الآيات التي تحثّ على الصبر وتحمُّل الأذى، وتأخّر فرض الجهاد. أمَّا بعد أنْ قويت شوكة المسلمين في المدينة، نزل الإذن بالجهاد وردّ العدوان، كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩]. فمع أنَّ الجهاد ذروة سنام الإسلام، فإنَّ تشريعه تأخَّر مراعاةً لحالة الأمَّة في بداية الدعوة. وبذلك، فإنَّ الأولويات قد تختلف من زمن إلى آخر ومن مكان إلى آخر، وفقًا لمتغيرات متعددة.

وقد كان هذا الفقه واضحًا عند السلف الصالح، إذ كانوا يدركون أهمية مراعاة الواقع في ترتيب الأولويات، كما جاء في صحيح البخاري عن يُوسُف بْن مَاهَكٍ قَالَ: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، إِذْ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ، فَقَالَ: أَيُّ الكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيْحَكَ، وَمَا يَضُرُّكَ؟ «قَالَ: يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، أَرِينِي مُصْحَفَكِ؟ قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُوَلِّفُ القُرْآنَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ، قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟ » إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّىٰ إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَىٰ الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦]، وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ »[1].

وهذا يبيِّن أنَّ بعض الأحكام لم تنزل دفعة واحدة، بل تأخَّرت حتىٰ يقوىٰ إيمان المسلمين ليكونوا قادرين علىٰ تطبيقها.

وبناءً علىٰ ذلك، فإنَّ موضوع أولوية معالجة قضايا الواقع من منظور قرآني موضوع واسع ومهم، ويستحق أن تُخصَّص له دراسات متعددة لفهمه فهمًا عميقًا والاستفادة منه في واقعنا المعاصر.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب: فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن ح رقم ٤٩٩٣.

عاشراً: مراعاة تفاوت المصالح والمفاسد:

من الدلائل والموجّهات التي يُميز بها أولويَّة موضوعات الهُدىٰ القرآني النظر في تفاوت المصالح والمفاسد بينها، وعند تنزيلها في الواقع. فالله تعالىٰ هو العليم الحكيم، وشرعه قائم علىٰ علمه وحكمته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي:«مبالِغًا في العلمِ والحكمة فيعلمُ جميعَ الأشياءِ من المصالحِ والمفاسدِ فلا يأمرُك إلَّا بما فيه مصلحةٌ، ولا ينهاك إلَّا عمَّا فيه مفسدةٌ، ولا يَحكُم إلَّا بما تقتضيهِ الحكمةُ البالغةُ»[1].

فالشريعة الإسلامية مبنيَّة علىٰ رعاية مصالح الخلق في معاشهم ومعادهم في كلِّ ما أمرت به أو نهت عنه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة : ١٧٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣] ، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩٠، ٩١]، وغيرها من أدلة كثيرة.

قال ابن القيم :«فإنَّ الشريعة مبناها وأساسها علىٰ الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلىٰ الجور، وعن الرحمة إلىٰ ضدها، وعن المصلحة إلىٰ المفسدة، وعن الحكمة إلىٰ العبث؛ فليست من الشريعة

(١) إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم (٧/ ٨٩).

وإن أدخلت فيها بالتأويل؛ فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلىٰ صدق رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتمَّ دلالة وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهداه الذي به اهتدىٰ المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام علىٰ سواء السبيل»[1].

وقال الشاطبي: «إِنَّ وضع الشرائع إنَّما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معًا»[2].

وهذه المصالح منها منصوص عليها، ومنها استنبطها العلماء بما فتح الله بصائرهم من الفهم، وهي مطَّردة حتىٰ في الجوانب التعبدية البحتة التي قد لا تعلم مصالحها إلَّا في الجملة، قَالَ الشاطبي: «إنَّ العبادات وضعت لمصالح العباد في الدنيا أو في الآخرة علىٰ الجملة وإن لم يعلم ذلك علىٰ التفصيل»[3]، كما قال تعالىٰ عن الصلاة: ﴿ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وقال تعالىٰ عن الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال تعالىٰ عن الصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٨٣]، وقال تعالىٰ عن الحج: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ١١).

(٢) الموافقات (٢/ ٩).

(٣) الموافقات (١/ ٣٢١).

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج:٢٧- ٢٨].

ولمَّا كان مبنىٰ الشريعة قائمًا علىٰ رعاية المصالح، كانت درجات الأعمال وفقًا لها وترتيب أولوياتها متفاوتة بحسب هذه المصالح. يقول العز بن عبد السلام:«المصالح والمفاسد في رتب متفاوتة، وعلىٰ رتب المصالح تترتب الفضائل في الدنيا، والأجور في العقبىٰ، وعلىٰ رتب المفاسد تترتب الصغائر والكبائر وعقوبات الدنيا والآخرة»[(١)].

ومن هنا، كان من الموجّهات المهمَّة مراعاة فقه المصالح والمفاسد عند تنزيل أولويات الهدىٰ القرآني علىٰ الواقع، وذلك من خلال النظر في مآلات الأمور وما ينتج من أثر إيجابي أو سلبي. قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام:١٠٨]. ووجه النهي هنا باعتبار ما تؤول إليه الأمور من المصلحة والمفسدة. فالسبُّ هنا لا تترتَّب عليه مصلحة دينية، بل يحصل العكس من نفور عن الحق وتصلب علىٰ الباطل، فلمَّا أصبح هذا السب متمحِّضًا للمفسدة ولم يكن مشوبًا بمصلحة، نهىٰ عنه الشرع[(٢)].

قال الشاطبي:«النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعًا كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أنَّ المجتهد لا يحكم علىٰ فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلَّا بعد نظره إلىٰ ما يؤول إليه ذلك الفعل،

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ٣٠).

(٢) انظر: التفسير الوسيط لطنطاوي (٥/ ١٥٣).

مشروعًا لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل علىٰ خلاف ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل علىٰ خلاف ذلك، فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية، فربَّما أدَّىٰ استجلاب المصلحة فيه إلىٰ المفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعًا من إطلاق القول بالمشروعية»[1].

يقول العزُّ بن عبد السلام:«فما كان من الاكتساب محصلًا لأحسن المصالح فهو أفضل الأعمال، وما كان منها محصّلًا لأقبح المفاسد فهو أرذل الأعمال. فلا سعادة أصلح من العرفان، والإيمان، وطاعة الرحمن، ولا شقاوة أقبح من الجهل بالديان، والكفر، والفسوق، والعصيان. ويتفاوت ثواب الآخرة بتفاوت المصالح في الأغلب، ويتفاوت عقابها بتفاوت المفاسد في الأغلب، ومعظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها »[2].

وقال ابن تيمية:«إنَّ الشريعة مبناها علىٰ تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلَّا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات. ويرىٰ ذلك من الورع؛ كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرىٰ ذلك ورعًا، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور

(١) الموافقات (٥/ ١٧٧).

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ٨).

ويرى ذلك من الورع، ويمتنع عن قبول شهادة الصادق وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفية، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سماعه من الورع »[1].

يُعدُّ النظر في مآلات الأمور وما يترتَّب عليها من مصالح ومفاسد عند تنزيل الهدى القرآني على الواقع موضوعًا بالغ الأهمية، ويتطلب فقهًا عميقًا، خاصة عند تعارض المصالح والمفاسد. وهذا الفهم ضروري لاستيعاب الأولويات الشرعية والتعامل معها بحكمة. وقد قرَّر علماء الشريعة موجِّهات وقواعد مهمة في هذا الباب، تُعين على تحقيق التوازن بين المصالح ودفع المفاسد.

الشريعة الإسلامية قائمة على تحقيق المصالح ودفع المفاسد، ويتفاوت ترتيب الأولويات وفقًا لهذا الميزان. فالنظر في مآلات الأمور ضروري لفهم الأولويات الشرعية، إذ يتطلب موازنة دقيقة بين المصالح والمفاسد عند تطبيق الأحكام. وقد قرَّر العلماء قواعد تضبط هذا الفقه لتحقيق العدل والرحمة والحكمة في التشريع.

موجهات ترتيب أولويات الهدى

نسبة وحجم اهتمام القرآن الكريم بالموضوع	تقدُّم الموضوع في النزول والتشريع	اقتران الموضوع بالإيمان بالله تعالى وعبادته	تنوع أساليب عرض الموضوع ذي الأولويَّة	تقدُّم الموضوع والعناية به في الهدي النبوي
مراعاة ترتيب ذكر الموضوعات في القرآن الكريم	تخصيص الموضوع بالذِّكر بعد عموم يشمله أو التأكيد عليه	عَظم الثواب أو العقاب المترتِّب على العمل	شدة حاجة الواقع للموضوع	مراعاة تفاوت المصالح والمفاسد

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥١٢).

المطلب الثالث: مصفوفة ترتيب الأولويّات في الهدى القرآني:

بهدف تسهيل تطبيق موجّهات ترتيب الأولويات في الهُدىٰ القرآني، تم تصميم «مصفوفة قياس» تتضمن عشرة مقاييس فرعية، بحيث يُمثِّل كل موجّه مقياسًا فرعيًّا مستقلًّا. وقد أُعدّ الجدول وفق تدرج خماسي يُقوّم مستوىٰ كل موجّه، نظرًا للتداخل بين بعض درجات التقييم. وتم تحديد نطاق الدرجات من درجتين حتىٰ عشر درجات، بحيث تمثل الفقرة الأولىٰ أعلىٰ درجة، ثم تتناقص تدريجيًّا حتىٰ تصل إلىٰ أدناها في آخر فقرة.

طُبِّقت هذه المصفوفة علىٰ نماذج متنوعة من الموضوعات، وأظهرت نتائج دقيقة في ترتيب الأولويات القرآنية، ممَّا يجعلها أكثر موضوعية مقارنةً بالصور العامَّة التي تفتقر إلىٰ أدوات القياس المنهجي، بشرط أن يُحسن استخدامها.

ولتحقيق أقصىٰ درجات الدقة والمصداقية في النتائج، ينبغي مراعاة الأمور الآتية:

١/ تخصص المصفوفة:

هذه المصفوفة موجَّهة لقياس ترتيب أولويات الموضوعات الرئيسة في الهُدىٰ القرآني، وليست مخصَّصة للموضوعات الفرعية. فمثلًا: «الصلاة» تُعد موضوعًا رئيسًا، أمَّا المسائل المتعلقة بها فتُقاس كمؤشرات فرعية ضمنها، لتحديد درجات أولويتها.

٢/ الفهم الدقيق للمقاييس:

يُشترط قبل التطبيق فهم كل مؤشر فرعي بالرجوع إلىٰ الشرح الوارد في الدراسة، وذلك لضمان دقة القياس وعدم الوقوع في التقدير العشوائي.

٣/ مؤشِّر شدَّة حاجة الواقع:

هذا المعيار قد يتطلب إجراء دراسات ميدانية في بعض الحالات، في حين يمكن استنتاجه في حالات أخرىٰ من خلال وضوح الفئة المستهدفة أو بروز الظاهرة وخطورتها.

٤/ التساوي في الدرجات:

في حال تساوي الدرجات بين موضوعين، فإنَّ ذلك يدلُّ علىٰ تساوي مرتبتهما في الأولوية.

٥/ تباين تراتبية القضايا تتطلب مقاييس متنوعة:

تتصدر قضايا الإيمان قائمة الأولويات، لذا يُفضّل قياس ترتيبها داخليًّا فيما بينها، تليها الفرائض والأركان التعبدية، ثم تأتي الواجبات العامة، ثم المحرمات، فالحقوق، فالوصايا، فالأخلاق، ثم سائر الموضوعات.

إنَّ معرفة تفاضل الأعمال وتقديم الأهم منها يساعد في حسن الفهم والتطبيق، ويثمر ثمرات عظيمة، منها:

تمييز مراتب الأعمال: حيث يجب إعطاء كل عمل حقه وفق مرتبته الشرعية، وعدم الانشغال بما هو أقل أهمية علىٰ حساب ما هو أعظم أثرًا.

معرفة التقديم والتأخير: عند تزاحم الأعمال وضيق الوقت، يُقدم ما لا يمكن تداركه لاحقًا، ولو كان مفضولًا، علىٰ ما يمكن الرجوع إليه، وإن كان فاضلًا؛ كمن يقطع تلاوة القرآن لرد السلام أو تشميت العاطس. فرغم أنَّ القرآن أفضل، فإنَّ فوات مصلحة رد السلام لا يمكن تداركها، بخلاف تلاوته.

وقد أشار ابن القيم إلىٰ صعوبة هذه »المقايسة« علىٰ من لا يملك ثلاثة أشياء: نور الحكمة، وسوء الظن بالنفس، وتمييز النعمة من الفتنة، حيث قال:«وهذه المقايسةُ تشقُّ علىٰ من ليس له ثلاثة أشياء: نورُ الحكمة، وسوءُ الظّنِّ بالنّفس، وتمييزُ النِّعمة من الفتنة.

يعني: أنّ هذه المقايسة والمحاسبة تتوقَّف علىٰ نور الحكمة، وهو النُّور الذي نوَّر الله به قلوبَ أتباع الرُّسل، وهو نور الحكمة، فبقدره يرىٰ التَّفاوت، ويتمكَّن من المحاسبة.

ونورُ الحكمة هاهنا: هو العلم الذي يميِّز به بين الحقِّ والباطل، والهدىٰ والضّلال، والضَّارِّ والنَّافع، والكامل والنَّاقص، والخير والشَّرِّ؛ ويُبصر به مراتبَ الأعمال: راجحها ومرجوحها، ومقبولها ومردودها. وكلَّما كان حظُّه من هذا النُّور أقوىٰ كان حظُّه من المحاسبة أكملَ وأتمَّ.

وأمّا سوءُ الظّنِّ بالنّفس، فإنّما احتاج إليه لأنَّ حسنَ الظّنِّ بالنّفس يمنع من كمال التّفتيش ويُلبِّس عليه، فيرىٰ المساوئَ محاسنَ، والعيوبَ كمالًا، فإنَّ المحبَّ يرىٰ مساوئ محبوبه وعيوبه كذلك.

فعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ... كما أنَّ عينَ السُّخط تُبدي المَساويا

ولا يسيءُ الظّنَّ بنفسه إلّا مَن عرفها. ومَن أحسن ظنَّه بها فهو من أجهل النّاس بنفسه!

وأمّا تمييزُه النِّعمةَ من الفتنة، ليفرِّقَ بين النِّعمة التي يراد بها الإحسانُ واللُّطفُ، ويُعانُ بها علىٰ تحصيل سعادته الأبديّة، وبين النِّعمة التي يراد بها الاستدراجُ. فكم من مستدرَجٍ بالنِّعم وهو لا يشعُر، مفتونٍ بثناء الجهَّال عليه، مغرورٍ بقضاء الله حوائجَه وسَتْرِه عليه!» [1].

نماذج تطبيقية على مصفوفة ترتيب الأولويات في الهُدى القرآني

انطلاقًا من أهمية التمثيل العملي في توضيح الجوانب النظرية، ستُعرض مجموعة من النماذج التطبيقية التي تُبيِّن كيفية استخدام مصفوفة القياس وفق الموجهات العشرة المؤصّلة في هذا البحث. إذ يُسهم المثال التطبيقي في تسهيل تصوّر المعايير النظرية، ويُعين علىٰ فهم آلية تطبيق المصفوفة علىٰ وجهٍ دقيقٍ ومنهجي.

النموذج التطبيقي رقم (١): أولوية موضوع «توحيد الله تعالى» ضمن موضوعات الإيمان

ضمن إطار مصفوفة قياس ترتيب الأولويات في الهُدىٰ القرآني، طُبِّقت المصفوفة علىٰ موضوع «توحيد الله تعالىٰ» لتحديد رتبته بين موضوعات الإيمان. وقد أظهرت نتائج القياس تحقق أعلىٰ درجة ممكنة (١٠٠٪)، وفق المؤشرات العشرة الآتية:

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٦٢).

م	الموجِّهات	درجات قياس المؤشرات				
		عالي جدًّا	عالي	متوسط	قليل	لم يذكر
١	نسبة اهتمام القرآن بالموضوع	☆				
٢	تقدُّم الموضوع في النزول والتشريع	☆				
٣	اقتران الموضوع بالإيمان بالله وعبادته	☆				
٤	تنوع أساليب عرض الموضوع ذات الأولوية	☆				
٥	تقدم الموضوع والعناية به في الهدي النبوي	☆				
٦	مراعاة ترتيب ذكر الموضوعات في القرآن الكريم	☆				
٧	تخصيص الموضوع بالذِّكر مع وبعد عموم يشمله وتأكيده	☆				
٨	عظم الثواب أو العقاب المترتب على العمل	☆				
٩	شدة حاجة الواقع إلى الموضوع	☆				
١٠	مراعاة تفاوت المصالح والمفاسد	☆				
	المجموع	١٠٠٪				

أولاً: التحليل والتعليق على النتائج:

- يظهر بوضوح أنَّ موضوع «توحيد الله تعالى» يحتلُّ المرتبة الأعلى بين موضوعات الإيمان، وذلك لتكامل تحقُّق المؤشِّرات العشرة دون استثناء.

- يتوافق هذا مع الحقائق الشرعية المستقرة؛ إذ يُعَدُّ التوحيد أصل الدين، وأساس قبول الأعمال، ومحور الرسالات السماوية كافَّة.
- تنوّع أساليب القرآن في عرض التوحيد، وتقدّمه في التشريع، وكثرة تأكيده في السنة النبوية كلها تعكس علو رتبته.
- الحاجة الواقعية المتجددة إلىٰ هذا الموضوع في ظل انتشار صور الغلو أو الانحراف العقائدي تدعم أيضًا أولوية التناول والدعوة إليه.

ثانيًا: توصية منهجية:

ينبغي أن يُعطىٰ موضوع «توحيد الله تعالىٰ» أولوية مطلقة في البرامج التربوية، والخطاب الدعوي، والمقررات التعليمية، مع بناء ذلك علىٰ الفهم العميق والشامل لمفهوم التوحيد في القرآن الكريم.

النموذج التطبيقي رقم (٢): أولوية موضوع «الإيمان باليوم الآخر» ضمن موضوعات الإيمان

في ضوء مصفوفة قياس ترتيب الأولويات في الهُدىٰ القرآني، طُبِّقت المؤشرات العشرة علىٰ موضوع «الإيمان باليوم الآخر»، وقد حققت نتيجة مرتفعة جدًّا بلغت ٩٨٪، ممَّا يدلُّ علىٰ رتبته المتقدمة ضمن موضوعات الإيمان.

م	الموجِّهات	درجات قياس المؤشرات				
		عالي جدًّا	عالي	متوسط	قليل	لم يذكر
١	نسبة اهتمام القرآن بالموضوع	☆				

٢	تقدُّم الموضوع في النزول والتشريع	☆				
٣	اقتران الموضوع بالإيمان بالله وعبادته	☆				
٤	تنوع أساليب عرض الموضوع ذات الأولوية	☆				
٥	تقدم الموضوع والعناية به في الهدي النبوي	☆				
٦	تقدم الموضوع في الذِّكر بين عددٍ من الأشياء		☆			
٧	تخصيص الموضوع بالذِّكر بعد عموم يشمله وتأكيده	☆				
٨	عظم الثواب أو العقاب المترتب على العمل	☆				
٩	شدة حاجة الواقع إلى الموضوع	☆				
١٠	مراعاة تفاوت المصالح والمفاسد	☆				
المجموع		٪٩٨				

التحليل والتعليق على النتائج:

- الإيمان باليوم الآخر يُعدُّ أحد أعمدة الإيمان الستة، وقد تكرَّر ذكره في مواضع كثيرة من القرآن، مقرونًا غالبًا بالإيمان بالله.
- احتلت جميع المؤشرات درجة «عالي جدًّا» ما عدا مؤشر تقدّمه في الذكر ضمن عدد من الموضوعات، حيث جاء بدرجة «عالي»، ممَّا يفسّر الفارق الطفيف عن النموذج الأول.

• يُعدُّ هذا الموضوع محوريًّا في إصلاح السلوك، وتقويم النفوس، وبناء التصورات حول المصير، ممَّا يُبرز حاجة الواقع المعاصر إليه، خصوصًا في ظل مظاهر الغفلة عن الآخرة.

• كما أنَّ الترغيب والترهيب القرآني المرتبط بالآخرة من أبرز الأساليب التي تُعيد الإنسان إلىٰ جادة الصواب.

توصية منهجية:

ينبغي أن يُعزَّز حضور موضوع «الإيمان باليوم الآخر» في المقررات التربوية والدعوية، لا بوصفه مجرد معرفة غيبية، بل كعنصر مؤثر في بناء الضمير الإيماني، وضابط سلوكي أخلاقي بالغ الأثر.

النموذج التطبيقي رقم (٣): أولوية موضوع «الإيمان بالقرآن» ضمن موضوعات الإيمان

استنادًا إلىٰ مصفوفة قياس ترتيب الأولويات في الهُدىٰ القرآني، قُيِّم موضوع «الإيمان بالقرآن الكريم» عبر المؤشِّرات العشرة المحددة. وقد أظهرت نتائج القياس حصوله علىٰ نسبة ٩٦٪، ممَّا يدلُّ علىٰ رتبته العالية في سُلّم أولويات موضوعات الإيمان.

م	الموجِّهات	درجات قياس المؤشرات				
		عالي جدًّا	عالي	متوسط	قليل	لم يذكر
١	نسبة اهتمام القرآن بالموضوع	☆				
٢	تقدُّم الموضوع في النزول والتشريع	☆				

٣	اقتران الموضوع بالإيمان بالله وعبادته	☆				
٤	تنوع أساليب عرض الموضوع ذات الأولوية	☆				
٥	تقدم الموضوع والعناية به في الهدي النبوي	☆				
٦	تقدم الموضوع في الذِّكر بين عدد من الأشياء			☆		
٧	تخصيص الموضوع بالذِّكر بعد عمومٍ يشمله، وتأكيده	☆				
٨	عظم الثواب أو العقاب المترتب على العمل	☆				
٩	شدة حاجة الواقع إلى الموضوع	☆				
١٠	مراعاة تفاوت المصالح والمفاسد	☆				
المجموع		٪٩٦				

التحليل والتعليق على النتائج:

- موضوع «الإيمان بالقرآن الكريم» يُعدُّ من صلب أصول الاعتقاد؛ إذ لا يُتصور إيمان بالله ورسوله إلَّا بتصديق كتابه والعمل به.
- يشير التحليل إلى تحقق جميع المؤشرات بدرجة «عالي جدًّا» ما عدا تقدّمه في الذكر بين عدد من الموضوعات، الذي حصل على «متوسط»، ممَّا أثَّر بنسبة بسيطة على النتيجة النهائية.
- هذا التفاوت الطفيف لا يُنقص من أهمية الموضوع، بل يشير إلى

خصوصيته؛ فالإيمان بالقرآن الكريم غالبًا ما يُذكر في إطار شمولي جامع لأصول الإيمان.

- تبرز أهمية تعزيز الإيمان بالقرآن في الواقع المعاصر، خاصَّة مع تزايد الشبهات حول مصادر التلقي، وضعف التفاعل الوجداني والتعبدي مع كلام الله تعالىٰ.

توصية منهجية:

يُوصىٰ بالتركيز علىٰ ترسيخ الإيمان بالقرآن الكريم في البرامج التعليمية والدعوية، ليس فقط من حيث الإقرار بصدقه، بل بإحياء معاني التعظيم، والمحبة، والتلقي، والتدبر، والتطبيق العملي لمحتواه.

النموذج التطبيقي رقم (٤): أولوية موضوع «الإيمان بالرسول ﷺ» ضمن موضوعات الإيمان

طُبِّقت مؤشرات مصفوفة ترتيب الأولويات في الهُدىٰ القرآني علىٰ موضوع «الإيمان بالرسول ﷺ»، وكانت النتيجة الإجمالية ٩٦٪، ممَّا يضعه في مرتبة متقدمة جدًّا ضمن موضوعات الإيمان.

م	الموجِّهات	درجات قياس المؤشرات				
		عالي جدًّا	عالي	متوسط	قليل	لم يذكر
١	نسبة اهتمام القرآن بالموضوع	☆				
٢	تقدُّم الموضوع في النزول والتشريع	☆				

٣	اقتران الموضوع بالإيمان بالله وعبادته	☆				
٤	تنوع أساليب عرض الموضوع ذات الأولوية	☆				
٥	تقدم الموضوع والعناية به في الهدي النبوي	☆				
٦	تقدم الموضوع في الذِّكر بين عدد من الأشياء			☆		
٧	تخصيص الموضوع بالذِّكر بعد عموم يشمله، وتأكيده	☆				
٨	عظم الثواب أو العقاب المترتب على العمل	☆				
٩	شدة حاجة الواقع إلى الموضوع	☆				
١٠	مراعاة تفاوت المصالح والمفاسد	☆				
المجموع		٪٩٦				

التحليل والتعليق على النتائج:

- الإيمان بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو ركن أساس لا يكتمل الإيمان من دونه، وقد أفرده القرآن الكريم بالذكر، وربطه بطاعة الله، بل جعله شرطًا لقبول الإيمان والعمل.
- جاءت معظم المؤشرات بدرجة «عالي جدًّا»، ممَّا يؤكِّد حضور الموضوع في بنية الهُدى القرآني، وفي حياة الأمَّة.
- المؤشر الوحيد الذي جاء بدرجة «متوسط» هو تقدّمه في الذكر ضمن

جملة من الموضوعات، ويُلاحظ أنَّ هذا النمط من الذكر غالبًا ما يتكرر بصيغة «آمنوا بالله ورسوله»، ممَّا يبرر هذه الدرجة مقارنة بمواضيع تقدّمت في الذكر علىٰ وجهٍ مستقلٍّ.

- في ظل ما يشهده الواقع المعاصر من حملات تشويه أو غلوّ، تتأكَّد الحاجة إلىٰ تعزيز الإيمان بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتقديم سيرته كمنهج حياة شامل، لا مجرد رمز ديني.

توصية منهجية:

ينبغي دعم الخطاب الإيماني الذي يعزز العلاقة بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك عبر:

- إبراز جوانب الاقتداء العملي به.
- وتفسير معاني محبته الحقة.
- وتحصين الشباب من دعاوىٰ التشكيك أو الجمود علىٰ المظاهر دون جوهر الاتباع.

الجدول المقارن لأركان الإيمان:

الركن	النتيجة الكلية	الملحوظات الرئيسة
توحيد الله تعالىٰ	١٠٠٪	يحتل المرتبة الأولىٰ، يظهر اهتمامٌ مكثف بالموضوع في القرآن والهدي النبوي، يُعدُّ الأساس الذي يُبنىٰ عليه الإيمان.

الإيمان باليوم الآخر	٪٩٨	ذو أهمية عالية، يُقترن بالإيمان بالله رغم اختلاف بسيط في درجته بسبب تقدمه في الذكر ضمن موضوعات متعددة.
الإيمان بالقرآن الكريم	٪٩٦	يشكل أساسًا لإقرار الإيمان، يتداخل مع موضوعات أخرىٰ من حيث العرض، لكن يحتفظ بمكانته الجوهرية في الترسيم الإيماني.
الإيمان بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ	٪٩٦	قريب من الإيمان بالقرآن، يبرز من خلال العناية في الهدي النبوي والتأكيد القرآني، يتكامل مع الإيمان بالله والقرآن.

التحليل والتعليق العام:

توحيد الله تعالىٰ: يحتلَّ الصدارة بنسبة (١٠٠٪)، ممَّا يؤكِّد أنَّ أساس الإيمان يقوم علىٰ إدراك وحدانية الله تعالىٰ، وقد حظي بأعلىٰ درجات الاهتمام والتأكيد في النصوص القرآنية والنبوية.

الإيمان باليوم الآخر: جاء بنسبة (٩٨٪) ممَّا يدلُّ علىٰ أهميته الكبيرة في تقويم السلوك البشري وإدراك المصير بعد الموت، مع بعض التفاوت الطفيف الناتج عن مكانته في الذكر القرآني ضمن سياقات شمولية.

الإيمان بالقرآن الكريم: حصل علىٰ نسبة (٩٦٪)، ممَّا يعكس مكانته الأساسية كمعيار للتوجيه والعقيدة، وإن كان عرضه في النصوص يأتي ضمن إطار عام للإيمان، فإنَّه يظلُّ ركيزة أساسية.

الإيمان بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيضـًا حصل علىٰ نسبة (٩٦٪)، ممَّا يؤكِّد أنَّ تبني سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاقتداء به من الأمور المحورية في بناء

هوية الإيمان؛ مع التركيز علىٰ جوانب الهدي النبوي وتأكيداته القرآنية.

التوصيات المنهجية

- **التوازن في التعليم والتطبيق**: ينبغي تعزيز كل من هذه الأركان في البرامج التربوية والدعوية علىٰ وجهٍ متكاملٍ، مع التأكيد علىٰ أنَّ تكاملها يشكِّل العمود الفقري للإيمان الصحيح.

- **التطبيق العملي**: يمكن استغلال النتائج لتحفيز المبادرات التي تُركز علىٰ تعزيز الفهم العميق لكل ركن، ممَّا يسهم في بناء مجتمع واعٍ دينيًّا ومتماسكًا.

- **الربط بين النصوص والسياق العملي**: ينبغي ربط النتائج المستخلصة من القياس بالنواحي الحياتية، خاصة فيما يتعلق بتفعيل مبادئ التوحيد والاقتداء بسيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحياة اليومية.

الفصل السادس

الصَّادون عن الهدى والعوامل الصَّادة وعواقب الصَّد

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأوَّل: الصَّادون عن الاستهداء بالهدىٰ.
- المبحث الثَّاني: العوامل الصَّادة عن الاستهداء بالهدىٰ.
- المبحث الثَّالث: عواقب الصَّد عن الاستهداء بالهدىٰ.

المبحث الأوَّل

الصَّادون عن الاستهداء بالهدى

مدخل:

يُعَدُّ الصدُّ عن سبيل الله من أعظم الجرائم التي يُمكن أن يرتكبها الإنسان، لما يتضمنه من انحرافٍ عن الحق، وعدوانٍ على طريق الهداية، ومحاولةٍ لصرف الآخرين عن نور الإيمان والهدى، وقد جاء التنبيه على خطورته في مواضع متعددة من القرآن الكريم، مقرونًا غالبًا بالكفر بالله، والضلال البعيد، والتوعد بالعذاب الشديد، ممَّا يدلُّ على فداحة هذا الجُرم وعمق أثره في ميزان الشريعة.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النِّسَاء:١٦٧]، ففي هذه الآية بيان أنَّ اجتماع الكفر والصد عن سبيل الله يؤدي إلى ضلال مركب عميق، لا يقف عند حدود الضياع الذاتي، بل يتعداه إلى تضليل الغير، وتوسيع دائرة الانحراف والإثم والعدوان، كما قال تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النَّحل : ٢٥].

ويُبيِّن الله تعالى في موضع آخر أنَّ هذا الصد ليس مجرد سلوك عارض، بل هو موقف اختياري نابع من انحياز باطني للدنيا وزخرفها، على حساب الآخرة وحقائقها، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ بَعِيدٍ﴾ [إِبْرَاهِيم : ٢ - ٣]. وفيها إشارة إلىٰ أنَّ دافع الصد غالبًا ما يكون دنيويًّا ولمصلحة، لا بحثًا عن الحقيقة، بل حرصًا علىٰ النفوذ والمكاسب.

أمَّا من حيث المآل، فإنَّ الله تعالىٰ قد توعَّد هؤلاء بفساد الأعمال وحبوطها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [مُحَمَّد : ١]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [مُحَمَّد: ٣٢]. وهي نهاية تؤكد أنَّ من يحاول إطفاء نور الله لا يزيد بذلك إلَّا في خسرانه الشخصي؛ أمَّا دين الله فباقٍ، لا تضره حملات التشويش ولا أساليب الصد.

ومن خلال تتبّع النصوص القرآنية واستقراء النماذج التي تصدّت للهداية وحاولت عرقلة مسيرتها، **يتبيّن أنَّ الصَّادّين عن سبيل الله ينقسمون - في الجملة - إلىٰ قسمين رئيسين:**

القسم الأول: الشيطان، وهو رأس الصادّين وإمامهم، وأول من اضطلع بهذا الشر، بل تفرّغ له وسلك في سبيل تحقيقه كل طريق. فقد جعل رسالته الكبرىٰ صدّ الناس عن سبيل الله؛ فجمع بين الخبرة في الوسيلة والإصرار في الغاية.

القسم الثاني: أتباعه من الإنس والجن، الذين نهجوا نهجه، واقتفوا أثره، ورضوا بأن يكونوا جنوده في هذا الميدان. وهؤلاء ليسوا فئةً متجانسة، بل أنماط متعددة، تختلف في الأساليب وتتنوع في الوسائل، لكنَّها تلتقي جميعًا علىٰ هدف واحد هو صرف الناس عن هداية الله، وقطعهم عن نوره.

وفيما يلي تفصيل الحديث عن كل قسم على حدة.

أولاً: الشيطان: إمام الصادّين عن الهدى:

إذا تتبّعنا مسيرة الصدّ عن سبيل الله في القرآن الكريم، فإنَّ أول من تصدّر هذا الطريق وتفرّغ له هو الشيطان، وقد اتّخذ من الصدّ عن سبيل الله وظيفةً ملازمة له، بل هدفًا أصيلًا لا يحيد عنه. ولم يكتفِ الشيطان بممارسة هذا العمل فحسب، بل جعل من نفسه إمامًا فيه، يدعو أتباعه إلى سلوك ذات السبيل، ويأزّهم أزًّا، ويُمدّهم بما يحتاجونه من وسائل الغواية والإضلال.

وقد سجّل القرآن هذا الإعلان الشيطاني منذ اللحظة الأولى لعصيانه، حين قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحِجر: ٣٩ - ٤٠].

وبيَّن القرآن الكريم خطورة هذا العدو المتربص بالإنسان من كل جهة؛ الذي يعمل لتحقيق هدفه بكل سبيل وحيلة، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأَعۡرَاف: ١٦ - ١٧]. وهذا النصّ يكشف عن مركزية الصدّ عن الصراط المستقيم في مهمته، وهو صراط الله الذي يؤدي إلى رضوانه وجنّته، من خلال صرفهم من الاستهداء بوحييه المنزل.

ويمتاز الشيطان في هذا السياق بعدد من الخصائص التي جعلت له الريادة في هذا الميدان:

السبق في الممارسة: فقد كان أول من بادر إلىٰ إغواء الإنسان، فبدأ بآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتدرّج معه بخطوات مدروسة حتىٰ أوقعه في المعصية، في أول تجربة صدّ في تاريخ البشرية، قال تعالىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه : ١٢٠] .

الخبرة بالوسائل والأساليب: فهو يملك باعًا طويلًا في فهم النفس البشرية، ويعرف من أين تؤتىٰ، وهو معلم ماهر في الإغواء، وتزيين المنكر، وتلبس الحقّ بالباطل، فهو لا يأتي الإنسان من بابٍ صريح يدعوه فيه إلىٰ الكفر والضلال، بل يزيّن له الباطل في صورة الحق، ويغلف المعصية بثوب المصلحة أو المتعة، وهذا ما يجعل كيده دقيقًا وخفيًّا ومؤثِّراً، كما قال تعالىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأَعْرَاف : ٢٠ - ٢٢]

الإصرار والتفرّغ: الشيطان لا يكلّ ولا يملّ في السعي لتحقيق أهدافه ليلًا ونهاراً، وقد أكد إصراره بالقسم بعزّة الله أن يغوي عبادَه ما استطاع، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص : ٨٢ - ٨٣].

التنظيم والامتداد: فالشيطان لا يعمل منفردًا، بل له جند من الإنس والجنِّ، يعملون تحت إمرته، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأَنْعَام : ١١٢].

وهكذا يتبيّن أنَّ الشيطان ليس مجرَّد فاعل في ساحة الصدّ، بل هو القائد والمنظِّر والمحفِّز، ومنه تفرّعت سائر أنماط الصادّين.

ولا يتوقَّف تأثير الشيطان عند حدود الأفراد، بل يتجاوز ذلك ليشمل المجتمعات والأمم بأسرها، فيغويها ويزيّن لها الباطل حتىٰ تنحرف عن طريق الحق، وتستمرئ الضلال، وتبني عليه تصوراتها وسلوكها، بيَّن تعالىٰ ذلك في قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النَّحل : ٦٣].

ففي هذه الآية بيان واضح للتأثير الجمعي لعمل الشيطان؛ إذ لم تكن غوايته مقتصرة علىٰ أفراد متناثرين، بل كان سببًا في انحراف أمم بأكملها عن سبيل الله.

وهذا يدلُّ علىٰ خطورة العمل الذي يمارسه الشيطان في حرف الجماعات عن الحقِّ، عبر منظومات فكرية وثقافية واجتماعية تسوّغ الباطل وتدافع عنه، وتصدّ الناس عن سبيل الله تحت عناوين برَّاقة، فيكون بذلك الشيطان محرّكًا خفيًّا خلف الانحرافات المجتمعية الكبرىٰ.

ولا تنحصر مهمة الشيطان في زمان دون آخر، ولا في مكان بعينه، بل هي فتنة ممتدة عبر العصور، متجددة بتجدد الأجيال، ومستمرة ما دام في الأرض بشر. وقد بيّن القرآن هذه الحقيقة من خلال سرد مصير أمم سابقة ضلّت الطريق رغم ما أُوتيت من إمكانيات عقلية وبصيرة فكرية، قال تعالىٰ عن عادٍ وثمود: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ [العَنكَبُوت : ٣٨]. فاستطاع الشيطان

أن يغويهم، وهم كانوا قومًا «مستبصرين». أي: أصحاب عقل وفهم، إلَّا أنَّها لم تحصّنهم من الضلال، لأنَّ المعرفة المجردة ما لم تكن مقرونة بالإيمان والتقوىٰ، تبقىٰ عُرضة للهوىٰ والغرور، وهما من أبرز مداخل الشيطان إلىٰ قلب الإنسان.

وهذا المعنىٰ يتسق مع ما سبق بيانه من أنَّ الشيطان لا يكتفي بإغواء الأفراد، بل ينسج خططه علىٰ مستوىٰ المجتمعات، فيصنع لها بيئة ثقافية ومنظومات فكرية تُزَيَّن فيها الرذائل وتُستنكر فيها الفضائل، فيصبح الصدّ عن سبيل الله حالة جماعية تمارسها الأمم كما يمارسها الأفراد، كما قال تعالىٰ عن قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النَّمل : ٥٦] .

ويبلغ التأثير الشيطاني ذروته حين يتمكن من حرف الأنظمة والقادة والأمم عن التوحيد، كما في خبر قوم سبأ: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النَّمل : ٢٣ - ٢٤].

فهذا النموذج يُبرز كيف أنَّ الترف والسلطة إذا اقترنا بتزيين الشيطان، شكّلا حاجزًا مانعًا عن الهداية، وإن كان أصحابها في قمة التقدّم والتمكين الظاهري.

لقد سخّر الشيطان عبر تاريخه الطويل جملة من الأدوات والأساليب التي يتوسل بها لتحقيق هدفه المركزي، وهو الصدّ عن سبيل الله، مستخدمًا

في ذلك قدرته علىٰ التزيين والتلبيس والخداع، حيث لا يقتصر فعله علىٰ بث الأفكار العامَّة المجرَّدة، بل يتجلىٰ حضوره عبر آليَّات دقيقة تنفذ إلىٰ أعماق النفس البشرية.

ومن أبرز تلك الوسائل: أن يكون الشيطان قرينًا ملازمًا للإنسان، لا يفارقه في مسيرته الحياتية، يزيّن له الباطل حتىٰ يلتبس عليه الأمر، ويغدو الضلال في نظره هداية. قال تعالىٰ: ﴿مَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزُّخْرُف : ٣٦ - ٣٧].

ففي هذه الآية أبلغ بيان لمدىٰ تأثير القرين، إذ لا يكتفي بالوسوسة العابرة، بل يصير رفيقًا دائمًا يُزيّف الإدراك، ويجعل الضحية تتوهم أنَّ ما تسلكه من انحراف هو عين الاستقامة.

وقد أكد النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هذا المعنىٰ في الحديث الصحيح عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ. قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»[1].

فهذا الحديث يسلط الضوء علىٰ البُعد الشخصي للوسوسة الشيطانية، إذ لا تقتصر علىٰ مضامين فكرية عامَّة، بل تتجسد في كيان مقرّب يُلزم الإنسان ويديم عليه الضغط والوسوسة.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، (كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ح ٢٨١٤، ٨/ ١٣٩).

ومن وسائل الشيطان كذلك أنَّه لا يقتصر في كيده علىٰ الكافرين، بل يتربص بالمسلمين أنفسهم في كل طريق يسلكونه إلىٰ الله، مستخدمًا أساليب متعددة كالتشكيك والتزيين والإغراء. وقد حذّر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من هذا التربص الدائم في حديثٍ جامعٍ، يوضح كيف يسلك الشيطان مسالك متعددة لقطع طريق الحق، قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ؟ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ. ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ؟ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ. ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ، فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ الْمَالُ؟ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»[1].

وهذا الحديث يصور المعركة النفسية التي يخوضها المؤمن في كل مرحلة من مراحل الاستقامة، وأنَّ الشيطان يتفنن في صرفه عنها باستخدام خطاب الترهيب أو الترغيب، أو تشويش الدوافع.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، (ح١٥٩٥٨، ٢٥/ ٣١٥)، والنسائي في سننه (ح٣١٣٤، ٦/ ٢١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ١٠١).

ومن أخطر أساليبه: أنَّه يوظف البشر أنفسهم ليكونوا امتدادًا لأفعاله ومخططاته، فيما يُعرف بشياطين الإنس. وهؤلاء يمثِّلون النسخة البشرية من مشروع الصدّ عن الحق، فهم يتولون تنفيذ ما يلقيه إليهم من وعود وأوهام، ويجتهدون في إطفاء نور الله، وتحقيق أهداف الشيطان في الواقع، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النِّسَاء : ١١٩ – ١٢٠].

فالخسارة هنا ليست ظرفية أو مؤقتة، بل «خسران مبين» ناتج عن اتخاذ الشيطان وليًّا ومرشدًا في الحياة، إذ لا يقدّم لأتباعه إلا الوهم، ولا يعدهم إلا بغرور، وهم مع ذلك يصدقون تلك الوعود الكاذبة، كما قال تعالىٰ: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النِّسَاء : ١٢٠] .

وهكذا يظهر جليًّا أنَّ الشيطان لا يدّخر وسيلة إلَّا سخّرها في سبيل حرف الإنسان عن الحق، فهو يعمل علىٰ مستوىٰ الفرد، ويستثمر البيئة، ويستعين بالأتباع، ويتقن التسلل عبر النفس والهوىٰ والعادة، وكل ذلك ليحقق هدفه الخبيث في صدّ الناس عن صراط الله المستقيم.

وقد وعىٰ أهل العلم هذا الخطر العظيم، فتصدّوا له بالبيان والتحذير، وكشفوا أساليبه الماكرة في الإضلال والتلبيس، ومن أشهر من ألّف في هذا الباب:

ابن الجوزي في كتابه الشهير «تلبيس إبليس»، حيث قدّم دراسة دقيقة لمكايد الشيطان في العقائد والعبادات والمعاملات، محذِّرًا من تسلّله إلىٰ أهل العلم والعبادة والعامَّة علىٰ حدٍّ سواء.

كما أشار ابن القيم الجوزية في كتابه «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» إلىٰ أنَّ الشيطان لا يملّ من ملاحقة الإنسان في كل مراحل حياته، مستعرضًا أنماط الغواية، ومفاتيحها، وسبل النجاة منها.

ونبّه شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع متعددة من كتبه، لا سيَّما في «الفتاوىٰ»، إلىٰ أنَّ الشيطان يزيِّن الباطل باسم الحقِّ، ويزيِّن البدع بمسوح السُّنَّة، وأنَّ من أعظم أدواته تحريف المفاهيم والمصطلحات الشرعية.

فهذه الكتب وغيرها تمثّل جهودًا علمية رصينة في تفكيك الخطاب الشيطاني، وبيان طرق التلبيس، ودعوةً للتيقّظ والحذر، والتسلّح بالعلم والإيمان لمواجهة هذه الفتنة المستمرة.

وقد حذّر الله تعالىٰ في مواضع متعددة من كتابه من اتباع الشيطان، مقرونًا ببيان حقيقته العميقة كعدوٍّ مبين للإنسان، لا يألو جهدًا في إضلاله وإبعاده عن الصراط المستقيم، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس : ٦٠ - ٦٢].

فالآية تبيّن أنَّ الانقياد للشيطان نوع من العبادة له؛ لأنَّه طاعة في معصية الله، وأنَّ هذا الطريق قد أورد أممًا كثيرة موارد الضلال والهلاك. وتَرد الإشارة في نهاية الآية إلىٰ تغييب العقل عن إدراك هذه الحقيقة الكبرىٰ، ممَّا يُظهر أنَّ من أعظم آثار كيد الشيطان سلب الإنسان بصيرته، حتىٰ لا يرىٰ الحقائق كما هي.

ومن مظاهر تزييف الشيطان للحقائق، أنَّه يُلبس الضلال لبوس الإيمان، ويغري بعض الناس -وإن زعموا الإيمان- بالتحاكم إلىٰ الطاغوت والانحراف عن منهج الله، فيستدرجهم إلىٰ ضلال بعيد من حيث لا يشعرون، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّسَاء : ٦٠].

فـ «الضلال البعيد» الذي يريده الشيطان هنا لا يقتصر علىٰ الانحراف الظاهر، بل يمتد ليشمل البعد عن مصادر التلقي الصحيحة، والتخلي عن مرجعية الوحي، والانجذاب إلىٰ مناهج الطغيان التي تستبدل شريعة الله بأهواء البشر، كل ذلك تحت غطاء الإيمان الزائف.

إنَّ هذه الآيات ترسم صورة دقيقة لخطر الشيطان، إذ لا يعمل علىٰ إغواء الفرد فحسب، بل يستهدف البنية الإيمانية للمجتمع، فيجعل الطغيان بديلًا عن العدل، والهوىٰ بديلاً عن الوحي، ويُقنع الناس أنَّ ما يسلكونه هو الصراط، وهو في الحقيقة طريق التيه والهلاك.

ثانيًا: الصادون عن الهدى من جند الشيطان:

الصادّون عن سبيل الله تعالىٰ من أتباع إبليس - من شياطين الجنِّ والإنس - هم طوائف ممتدة عبر التاريخ، تنوّعت أسماؤهم وتعدّدت أساليبهم، لكنَّهم اجتمعوا علىٰ هدف واحد، وهو السعي لإطفاء نور الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التَّوْبَة : ٣٢].

فهذه الفئات تعبّر عن الامتداد العملي لمخططات الشيطان، وهي فئات خطيرة في عدائها، مستمرة في نشاطها، وتتغذىٰ علىٰ إرث الإضلال الشيطاني، وتغذّي غيرها به.

وفي هذا السياق، فإنَّ التركيز في هذا الموضع سينحصر علىٰ أولئك الذين ورد التنصيص عليهم في القرآن الكريم والسنة النبوية، ممّن كشف الله تعالىٰ حقيقتهم، وفضح باطنهم، وبيّن أساليبهم في الصدّ عن سبيله، وذلك لما يتّسمون به من وضوح في الهدف، واستمرار في العمل، وتأثير في غيرهم ممّن يسير علىٰ نهجهم ويقلّدهم في طرقهم.

ومن المهم هنا التنويه إلىٰ أنَّ هذا الحديث لا يشمل أولئك الذين يصدّون عن الحق دون قصد، نتيجة سلوكيات فردية أو جماعية خاطئة يقوم بها بعض المنتسبين إلىٰ الدعوة أو أهل السلطة أو عموم المسلمين، ممَّا يؤثّر سلبًا في نظرة الآخرين إلىٰ الإسلام.

فهؤلاء وإن ترتَّب علىٰ فعلهم أثرٌ سلبيّ، إلَّا أنّهم ليسوا ممّن يقصد الصدّ عن سبيل الله، بل قد يكونون من أهل الإيمان والعمل الصالح مع تقصيرٍ أو خطأ.

وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ هذا النوع من الفتنة بقوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

كما لا يتناول هذا الموضع دراسة الأساليب النفسية والإغوائية التي يعتمدها الصادّون في التأثير علىٰ الآخرين[1].

(١) قد افردت هذا الموضوع لسعته وأهميته بدراسة خاصة بعنوان: «صناعة التأثير في الإنسان». نسأل الله تعالىٰ أن يوفقني لإكمالها.

والمقصود هنا علىٰ وجه التحديد: أولئك الذين يمارسون الصدّ عن سبيل الله عن سابق قصدٍ وإصرار، مجاهرين بعداوتهم، عاملين علىٰ إطفاء نور الله، من خلال محاربة الله ورسوله والمؤمنين، وتشويه دعوته، وبثّ الشبهات، وتضليل الناس عن سبيل الهدىٰ، مقتدين بالشيطان الرجيم.

وقد جمع الله تعالىٰ أوصافهم وأفعالهم في كتابه الكريم، وكشف للناس حقيقتهم، ليتّقوهم ويحذروا سبيلهم.

وينقسم هؤلاء الصادّون إلىٰ ستة أصناف رئيسة، إذا تمت أضافة إمامهم في الصد كانوا سبعة أصناف، إليك بيانهم باختصار.

١/ اليهود والنصارىٰ في مقدمة الصادّين عن الهدىٰ:

قد بيَّن الله تعالىٰ في كتابه الكريم - في مواضع كثيرة - عن سعي اليهود والنصارىٰ لصدّ الناس عن الهدىٰ الذي جاء به النبي محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، مستخدمين في ذلك أساليب ماكرة ومتنوعة، تتراوح بين تحريف الكلم عن مواضعه، وتلبيس الحق بالباطل، وبثّ الشبهات، وتشويه الحقائق، والسعي الحثيث لإضلال المؤمنين وزعزعة إيمانهم، بل والتشكيك في الرسالة نفسها.

وقد أوضح الله تعالىٰ أنَّ هذه المهمة يتولاها في الغالب أحبارهم ورهبانهم، ممّن كان يُفترض فيهم أن يكونوا أهل العلم والهداية، فإذا بهم يتحولون إلىٰ أدوات للصد والتضليل. قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ ﴾ [التَّوۡبَة : ٣٤].

ففي هذه الآية إشارة إلىٰ استغلالهم لمناصبهم الدينية للتكسب غير المشروع، ولم يكتفوا بذلك، بل سعوا جاهدين لصدّ الناس عن سبيل الله، وهذا دأب أعداء الحقّ في كل زمان ومكان.

ثم يبيِّن الله تعالىٰ أنَّ الدافع الرئيس لهذا الصدّ هو الحسد والحقد، لا الجهل وعدم المعرفة، قال تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البَقَرَة : ١٠٩].

فهم يعلمون الحقّ، لكنَّهم يُعرضون عنه عمدًا، ويدفعهم الحسد إلىٰ محاولات دؤوبة لردّ المؤمنين عن دينهم.

ومن أبرز أساليبهم كذلك: شراء الضلالة ونشرها بين المسلمين، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [النِّسَاء : ٤٤]. وفي هذه الآية تصويرٌ بليغ لحالهم، إذ اختاروا الضلال عن بيّنة، واستبدلوا الهدىٰ الذي في كتبهم بما يخالفه من باطل، طمعًا في مصالح دنيوية زائلة، ثم سعوا لنشر هذا الضلال بين المؤمنين ليضلّوهم كما ضلّوا، فكانوا بذلك دعاةَ فتنة وصدٍّ عن سبيل الله عن علمٍ وسوء نية.

كما وجّه الله تعالىٰ إنكارًا مباشرًا إليهم، وبيّن سوء مقصدهم في صدّ الناس عن سبيل الله، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عِمْرَان : ٩٩].

ثم حذّر الله المؤمنين من الاغترار ببعضهم أو طاعتهم فيما يخالف شرع الله؛ لأنَّ في ذلك انتكاسة عظيمة، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمۡرَان : ١٠٠].

ومن دلائل عمق العداوة، أنَّ رضاهم عن المسلمين مرهون بتركهم لدينهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [البَقَرَة : ١٢٠] .

قال المراغي:«وهذا الإنذار الشديد والوعيد والتهديد وإن كان موجَّهًا إلىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي عصمه الله من الزيغ والزلل وأيَّده بالكرامة، هو في الحقيقة خطاب للناس كافة في شخص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... والكلام هنا جاء علىٰ هذا الأسلوب ليرشد من يأتي بعده أن يصدع بالحق، وينتصر له ولا يبالي بمن خالفه مهما قوي حزبه واشتدّ أمره، فمن عرف الحقّ وعرف أنَّ الله ولي أمره وناصره لا يخاف في تأييده لوم اللائمين، ولا إنكار المعاندين»[1].

وأخيرًا، يختم القرآن هذا البيان بتحذير شديد من موالاة أهل الكتاب واتّباعهم، لما في ذلك من خطر عظيم علىٰ العقيدة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المَائِـدَة: ٥١].

(١) تفسير المراغي (١/ ٢٠٤).

وهكذا، يتبيَّن أنَّ صدّ أهل الكتاب - اليهود والنصارىٰ - عن سبيل الله ليس أمرًا عابرًا، بل هو منهج راسخ، يستند إلىٰ الحسد والمكر، ويتجدد في أساليبه بتجدّد الأزمنة، ممَّا يستدعي من المؤمنين وعيًا ويقظة وثباتًا علىٰ الحق.

٢/ المشركون من أعظم الصادّين عن الهدىٰ:

يُعَدّ المشركون من أبرز الأصناف التي تصدّ عن سبيل الله في كل زمانٍ ومكان، فهم أعداء التوحيد وأهله، ولا يرضون بظهور الحقّ، ويسعون جاهدين لإطفاء نور الله، مستخدمين في ذلك شتّىٰ الوسائل والأساليب، من الترهيب والترغيب، إلىٰ التشكيك والتلبيس، وتحريف المفاهيم، والتضييق علىٰ الدعاة، بل وممارسة العدوان المادّي والمعنوي لمنع انتشار دعوة التوحيد والحق والهدىٰ.

وقد بيّن الله تعالىٰ في كتابه الكريم كراهية المشركين لظهور الإسلام، وعداوتهم الشديدة له، ومحاولاتهم الحثيثة لاعتراض مسيرته، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣٣] ، وقال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [الصَّف : ٨ - ٩] ، ولكن رغم محاولاتهم، فإنَّ الله سبحانه قد وعد بإظهار دينه ونصرته، ولو كره الكافرون.

وكان مشركو قريش نموذجًا صارخًا لهذه العداوة، حيث تصدّوا للدعوة منذ بواكيرها الأولىٰ، وسلكوا كل مسلكٍ ممكن لوقفها، بدءًا من الطعن في الرسالة، واتهام النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالسحر والكذب، وانتهاءً بممارسة الاضطهاد والتعذيب والحصار، ثم اللجوء إلىٰ الحرب العسكريّة المباشرة لمحاولة استئصال المؤمنين.

وقد أبان الله عَزَّوَجَلَّ عن الحسد الدفين في قلوبهم تجاه ما ينزل من الخير علىٰ المؤمنين، فقال: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البَقَرَة: ١٠٥].

وبيّن تعالىٰ ما هم عليه من غرور وبطر وتزيين من الشيطان، حذّر من مشابهتهم، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأَنفَال: ٤٧ – ٤٨].

وقد مارس المشركون كل أساليب المنع والتشويش لصدّ الناس عن سماع القرآن والتأثر به، فقال تعالىٰ عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٢٦].

وقد طُبِّق هذا الصدّ واقعًا في تعذيب الصحابة وإيذائهم ومقاطعتهم وحصارهم، كما وقع لبلال بن رباح، وخباب بن الأرت، وآل ياسر، وغيرهم ممَّن ثبتوا علىٰ الحقّ حتىٰ نال بعضهم الشهادة. ولم يكتفِ المشركون بذلك، بل خاضوا المعارك الكبرىٰ كغزوة بدر وأحد والخندق، في محاولة لإجهاض الدعوة من جذورها عن طريق القتال.

وهكذا، فإنَّ الصراع بين التوحيد والشرك صراعٌ ممتد، وأهل الشرك في كل زمان هم في طليعة الصادّين عن الهدىٰ، لكن الله سبحانه وعد بنصرة دينه، وإبراز توحيده، وأمر عباده بالثبات في مواجهة المشركين، وعدم الخوف من مكرهم فهو إلىٰ زوال، فإنَّ الله لا يُصلح عمل المفسدين.

٣/ المنافقون: العدو الخفي الداخلي في الصد عن الهدىٰ:

تُعدّ فئة المنافقين من أخطر الأصناف التي تصدّ عن سبيل الله؛ لما يتميزون به من التستر خلف ستار الإيمان، وإظهار الولاء للمسلمين، مع إبطان الكفر والعداوة، ممَّا يجعل مكرهم أشد وأذاهم أعظم. فهم ليسوا كغيرهم من أهل الكفر الظاهر، بل يسعون للإفساد من داخل الصف، ويعملون علىٰ تقويض الدعوة الإسلامية وتفكيك بنيان المجتمع المسلم من الداخل.

وقد حذر الله تعالىٰ من خطرهم في مواضع عديدة من كتابه الكريم، مبيِّنًا صفاتهم الخفية وأساليبهم الخادعة، التي يضلّون الناس ويصرفونهم بها عن الهدىٰ، ويعترضون مسيرة الدعوة؛ حتىٰ يكونوا علىٰ بصيرة وحذَّر منهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النِّسَاء : ٦١].

فهذه الآية تبيّن أنَّ المنافقين لا يكتفون بالانصراف عن الهدىٰ، بل يصدّون غيرهم عنه، ويتخذون من التلبيس والخداع وسيلة لإيقاع الناس في الضلال، ويُظهرون الاهتمام والحرص وهم في حقيقة أمرهم أشد الناس عداء للحق.

ومن أبرز أساليبهم في الصد عن سبيل الله اتخاذ الأيمان الكاذبة وسيلة للتَّخفِّي وحماية أنفسهم وخداع المؤمنين، مستغلين حسن ظنّهم، فيصدون الناس من داخلهم وهم لا يشعرون، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [المُجَادلَة: ١٦]. فهم يموّهون علىٰ الناس ويدّعون الولاء للدين، ولكن حقيقتهم تظهر في مواقفهم وأفعالهم التي تعترض مسيرة الإسلام وتفسد المجتمع.

لقد كشف الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في كتابه العزيز عن الأساليب الخفية والمكر الخبيث الذي ينتهجه المنافقون في صدّ الناس عن الهدىٰ، حيث يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ويستغلّون المواقف لإفساد العقيدة والتأثير في النفوس وإضعاف الصف المسلم. فهم لا يُصرّحون بعداوتهم، بل يتخفّون خلف الأقوال المعسولة والشعارات الزائفة، مدّعين الإيمان برسالة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، في حين قلوبهم تضمر الكفر والعداء، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۘ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [المُنَافِقُون : ١ – ٢].

فالآيات تُبرز بجلاء أنَّ المنافقين لا يُنكرون الحق صراحة، بل يدّعون قبوله نفاقًا، ويتخذون من الأيمان الكاذبة وقايةً لأنفسهم ووسيلةً لتمرير كيدهم، وبهذا الصنيع يكونون سببًا في صدّ الناس عن الهدىٰ.

ولا يقف خطرهم عند هذا الحد، بل هم من أبرز المروّجين للباطل والمثبّطين عن المعروف، يسعون لنشر الفساد في المجتمعات، ويُثيرون الشبهات ويزرعون الفتن، ويمنعون الخير عن الناس، كما وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التَّوْبَة : ٦٧].

فهذه الآية جمعت صفاتهم الرئيسة: الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، والبخل والإمساك عن الخير، والنسيان الحقيقي لله تعالىٰ، الذي نتج عنه نسيان الله لهم، أي حرمانهم من رحمته وتوفيقه.

كما أنَّ المنافقين يتقنون أداء عمل المخلصين في الظاهر، فهم إذا حضروا مجالس المؤمنين أظهروا الإيمان وتزيّنوا بأقوال تدل علىٰ الولاء، خداعاً لأهل الإيمان، وتمويهاً علىٰ حقيقتهم، في حين أنَّهم إذا خَلوا إلىٰ قرنائهم من أعداء الدين، كشفوا عن حقيقتهم، وأفصحوا عن ولائهم، بل وتفاخروا بمكرهم بالمؤمنين، كما وصفهم الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البَقَرَة : ١٤].

فهذه الآية الكريمة تفضح نفاقهم وتُظهر تناقضهم؛ إذ يدّعون الإيمان رياءً، في حين هم في حقيقتهم حلفاء الشياطين، يسخرون من المؤمنين ويكيدون لهم، ويكشفون أسرارهم لأعداء الله، ممَّا يجعلهم أخطر من الكفار المعلنين؛ لأنَّ ضررهم يأتي من الداخل وتحت ستار الدين.

لهذا، كان واجبًا علىٰ المؤمنين أن يكونوا علىٰ حذر من المنافقين، وأن يتحلّوا باليقظة من مكائدهم، فهم العدو الأخفىٰ والأخطر، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المُنَافِقُون : ٤].

فهم يُظهرون القوة والبيان، ويُبهرون الناس بمظاهرهم وكلامهم، لكنَّهم في حقيقتهم خواء، لا ثبات لهم ولا صدق، يضطربون مع كل صوت، ويظنون كل صيحة عليهم. ولأنَّهم يتحركون من داخل الصف، ويُخفون نواياهم خلف ستار الدين، فإنَّ ضررهم أعظم من ضرر الكفار المعلنين.

لقد كان أثرهم السَّيئ في الأمَّة الإسلامية كبيرًا، إذ سعوا في تفكيك الصفوف، وإضعاف الإيمان، وتشويه صورة الدين، ونشر الفتن، وتخذيل المؤمنين، والتآمر ضد الحق من حيث لا يُتوقع. ومن هنا، كان الحذر منهم ضرورة دينية وواقعية، ولا بدّ من مواجهتهم بالوعي، والثبات علىٰ منهج الله، والاستقامة علىٰ طاعته، حتىٰ لا يقع المؤمنون ضحايا لمكرهم وأساليبهم الخبيثة.

فالمنافقون أشدّ خطرًا من الكفار المعلنين؛ لأنَّهم يعملون من داخل المجتمع الإسلامي، ويخفون عداوتهم تحت قناع الإيمان، ممَّا يجعل كشفهم أصعب ومكرهم أبلغ أثرًا. وقد كان تأثيرهم السلبي في الأمَّة الإسلامية عبر التاريخ عظيمًا؛ إذ سعوا لإضعاف الإيمان، وتشويه صورة الدين، وبثّ الفساد، وتخذيل المؤمنين، وزعزعة الصفوف، والعمل علىٰ كل ما يفتّ في عضد الأمَّة.

ولهذا، فإنَّ الحذر من مكائدهم واجب، والتحلّي بالبصيرة والوعي ضرورة، والثبات علىٰ طريق الله سبيل النجاة، حتىٰ لا يكون المسلمون فريسة لمكرهم الخفي وأساليبهم الماكرة.

٤/ أئمة الضلال والطواغيت وصدّهم عن سبيل الله:

لقد بيّن الله تعالىٰ في كتابه الكريم أنَّ من أعظم ما يُصرف به الناس عن الهدىٰ، ويحول بينهم وبين سبيل الحق أئمَّة الضلال والطواغيت من حكام الجور والظلمة، الذين يسخِّرون سلطتهم ونفوذهم لمحاربة دين الله تعالىٰ، متخذين من الترغيب تارة ومن الترهيب تارة أخرىٰ وسائلَ لقطع الطريق علىٰ الدعوة إلىٰ التوحيد والإيمان.

ومن أبرز الأمثلة التاريخية التي أوردها القرآن الكريم لهذا الصنف -فرعون وملأه- حيث تجلىٰ فيهم الطغيان بأبشع صوره، إذ لم يقتصروا علىٰ الكفر بالحق والإعراض عنه، بل سعوا جاهدين لصد الناس عن اتباعه، واستخدموا في سبيل ذلك الأموال والمكانة الدنيوية كوسيلة للترغيب والترهيب، كما قال نبي الله موسىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داعيًا علىٰ فرعون وملئه بعد أن رأىٰ كيف سخّروا ما آتاهم الله من زينة وأموال لفتنة الناس: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يُونُس : ٨٨] .

فهذه الآية توضح كيف أنَّ الطغاة يستخدمون النعم التي أعطاهم الله؛ من قوَّة وجاه وأموال لتضليل الناس عن طريق الحق، بدلًا من أن تكون وسيلة لنشر العدل والخير.

وللطغاة أساليب متنوعة للصد عن سبيل الله منها: الاستهزاء بالحق وتزييفه، وإظهار الكذب في ثوب البحث عن الحقيقة، كما فعل فرعون حين قال ساخرًا: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غَافِر : ٣٦ - ٣٧].

فهو لم يكن باحثًا عن الله، بل كان يسعىٰ لتكذيب موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتبرير موقفه الكافر أمام قومه.

كما أنَّ من أبرز أساليب الطغيان: الإغراء بالمال والمنزلة، وهذا ما فعله فرعون مع السحرة حين طلب منهم منازلة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الأَعْرَاف : ١١٣]، فأجابهم: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأَعْرَاف : ١١٤].

فهو لم يكتفِ بوعدهم بالمكافأة المالية، بل وعدهم بالقرب منه، في محاولة ليضمن ولاءهم في معركته مع الحق.

وحين يفشل أسلوب الترغيب، يلجأ الطغاة إلىٰ أسلوبهم المعهود: القمع والتنكيل، كما حصل عندما آمن السحرة برب موسىٰ وهارون، فقال فرعون مهدِّدًا متوعِّدًا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ

أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأَعْرَاف : ١٢١ - ١٢٧].

وفرعون ليس حالة فريدة؛ بل هو نموذج لأهل الشوكة الذين يصدون عن سبيل الله تعالىٰ، ويكيدون لدينه، فغيره كثير في ممارسة نهجه وأسلوبه، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القَصَص : ٤١].

فهؤلاء الأئمة ليسوا دعاة هدىٰ، بل دعاة ضلال وهلاك، وهم يسيرون بأتباعهم إلىٰ العذاب، كما قال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البُرُوج : ٤ - ٨].

وقد حذّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا الصنف في أحاديث كثيرة، منها ما رواه مسلم عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: لَا، مَا صَلَّوْا»[1]. فهذا الحديث يبيِّن أنَّ هناك من سيتولىٰ قيادة الناس نحو الفساد، ويجب علىٰ المؤمنين إنكار ذلك وعدم الرضا به.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، (كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار علىٰ الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا ونحو ذلك ح١٨٥٤، ٦/ ٢٣).

وفي حديث آخر عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِنْ أَخْوَفِ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي أَئِمَّةٌ مُضِلُّونَ»[1].

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الخطر الأعظم علىٰ الأمَّة قد لا يكون في عدوٍّ ظاهر، وإنَّما في قادة يضلّون الأمَّة باسم الدين أو المصلحة، وهم في حقيقتهم يزيِّنون الباطل ويطفئون نور الحق.

يُعد أئمَّة الضلال من أشدّ الأصناف خطرًا علىٰ الإسلام وأهله؛ لما لهم من تأثير عظيم في توجيه الناس وإضلالهم، وتسخيرهم لقواهم وسلطانهم في خدمة الباطل ومحاربة الحق. فهم يمارسون أساليب متعدّدة في الصدّ عن سبيل الله، يجمعون بين الترغيب بالجاه والمال، والترهيب بالسجن والقتل، في محاولة لزعزعة ثبات المؤمنين، وإطفاء نور الدعوة.

ورغم ما يمتلكونه من وسائل البطش والتضليل، فإنَّ مكرهم لا يحيق إلا بهم، إذ اقتضت سنّة الله تعالىٰ أن تكون العاقبة لأهل الإيمان والتقوىٰ، كما قال سبحانه: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٧].

ومن هنا، فإنَّ الواجب علىٰ أهل الإيمان أن يكونوا علىٰ وعيٍ بحقيقة هؤلاء المضلين، وأن يتسلحوا بالعلم والبصيرة والثبات، مع الاعتماد علىٰ الله والاستعانة به، فإنَّ النصر مع الصبر، والعاقبة للمتقين.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، (ح١٧١١٥، ٢٨/ ٣٣٩)، والترمذي في سننه (ح٢٢٢٩، ٤/ ٥٠٤)، وقال: حسن صحيح.

٥/ أهل البدع والأهواء من العلماء والدعاة المضلِّين:

يُعدُّ أهل البدع والأهواء من أخطر الصَّادِّين عن سبيل الله، لا سيَّما إذا لبسوا مسوح العلماء، وتزيّنوا بزينة الدعاة، فتراهم يتصدّرون المجالس، ويخاطبون العوام باسم الدين، وهم في الحقيقة يلبّسون عليهم، ويصرفونهم عن الهدىٰ إلىٰ الضلال، وعن السنة إلىٰ البدعة.

يُفتون بما يُرضي الطغاة لا بما أنزل الله، ويزيّنون للناس ما أحدثوه في دين الله، حتىٰ يصبح الباطل في نظر العامَّة هو الحقُّ، والحقُّ في أعينهم باطل. وقد حذّر الله من أمثالهم، وبيّن أنَّ الهداية لا تكون إلا بطاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النُّور: ٥٤].

فمن أطاع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتمسّك بسنته، فهو علىٰ هدىٰ، ومن ابتدع في الدين ما ليس منه، فقد ضل وأضل، وكان من الصادين عن سبيل الله.

وقد وصف الإمام ابن القيم طائفة المبتدعين وصفًا دقيقًا، فقال: «وما أكثر هذا الضرب في الناس -لا كثَّرهم الله- وهم أهل البدع والضلالة، الصَّادُّون عن سنَّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الدَّاعون إلىٰ خلافها، الذين يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، فيجعلون البدعة سنَّة، والسُّنَّة بدعة، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، إن جردَّت التوحيد بينهم قالوا: تنقَّصْت جناب الأولياء والصالحين. وإن جردَّت المتابعة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: أهدرت الأئمَّة المتبوعين. وإن وصفت الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به

رسوله من غير غلوّ ولا تقصير قالوا: أنت من المشبِّهين. وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عمَّا نهىٰ الله عنه ورسوله من المنكر، قالوا: أنت من المفتِّنين. وإن اتبعت السُّنَّة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلِّين. وإن انقطعت إلىٰ الله تعالىٰ، وخلَّيت بينهم وبين جيفة الدنيا، قالوا: أنت من المُلبِّسين. وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم، فأنت عند الله من الخاسرين، وعندهم من المنافقين»[1].

وصدق رحمه الله، فإنَّ المبتدع لا يرضىٰ إلَّا أن يُتابع علىٰ باطله، ومن خالفه، اتُّهم بأنَّه من المشبّهة، أو المبتدعة، أو المفتِّنين.

وقد جاءت نصوص القرآن صريحة في بيان أنَّ الهداية في اتباع الوحي، وأنَّ الضلال في اتباع الأهواء، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البَقَرَة: ١٢٠ - ١٢١].

وعلّق الشوكاني علىٰ هذه الآية بقوله: «وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذي ترجف له القلوب وتتصدع منه الأفئدة، ما يوجب علىٰ أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه، والقائمين ببيان شرائعه، ترك الدِّهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء، التاركين للعمل بالكتاب والسنة، المُؤْثِرين لمحض الرأي عليهما فإنَّ غالب هؤلاء وإن أظهر قبولًا وأبان من أخلاقه لينًا لا يرضيه إلَّا اتباع بدعته، والدخول في مداخله، والوقوع في حبائله، فإن فعل

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٧٥).

العالِم ذلك بعد أن علَّمه الله من العلم ما يستفيد به أنَّ هدىٰ الله هو ما في كتابه وسنة رسوله، لا ما هم عليه من تلك البدع التي هي ضلالة محضة، وجهالة بينة ورأي منها، وتقليد علىٰ شفا جرف هار، فهو إذ ذاك ما له من الله من ولي ولا نصير، ومن كان كذلك فهو مخذول لا محالة، وهالك بلا شك ولا شبهة»[1].

وقد ثبت في السنة الصحيحة التحذير البالغ من البدع، كما جاء عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[2].

وهذا الحديث أصل في تحريم الابتداع في الدين، فكلُّ ما لم يكن عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، فهو مردود علىٰ صاحبه.

وقال أيضًا: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[3].

فالبدعة ليست من الدين، بل هي ضلالة تقود إلىٰ الانحراف عن هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولهذا، كان السلف الصالح شديدي الحذر من المبتدعين وأفكارهم، يعدّونها ضلالة لا تجتمع مع هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تؤدِّي إلَّا إلىٰ التفرُّق والعداوة والانحراف عن سواء السبيل.

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ١٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الصلح، باب: إذا اصطلحوا علىٰ صلح جور فالصلح مردود (ح٢٥٥٠، ٢/ ٩٥٩)، ومسلم في صحيحه،كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (ح١٧١٨، ٥/ ١٣٢).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، (ح٤٦٠٧، ٤/ ٣٢٩)، والترمذي في سننه، (ح٢٦٧٦، ٥/ ٤٤)، وقال: حسن صحيح.

فالواجب علىٰ المسلم أن يحذر من هؤلاء المضللين، الذين يُظهرون التديّن، ويبطنون مخالفة سنة سيد المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يتمسك بالكتاب والسنة علىٰ فهم سلف الأمَّة، فإنَّ في ذلك العصمة من الزلل، والنجاة من الفتنة.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النِّسَاء : ١١٥].

فالسلامة كل السلامة في اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، والنجاة في اجتناب البدع وأهلها. والله المستعان.

٦/ أصحاب الشهوات ودعاة الانحلال الأخلاقي:

من أخطر الصادين عن سبيل الله -خاصة في هذا الزمان- دعاة الشهوات والانحلال الأخلاقي، الذين يسعون بكل وسيلة إلىٰ صرف الناس عن طريق الهدىٰ، ليدفعوهم نحو المحرمات، ويجعلوهم عبيدًا لأهوائهم، أسرىٰ للذة العاجلة، بعيدين عن صراط الله المستقيم.

هؤلاء لا يكتفون بالانغماس في الشهوات، بل يدعون إليها، ويزيّنونها للناس، حتىٰ تصبح المعصية أمرًا معتادًا، والطاعة أمرًا غريبًا؛ بل تصبح الشهوة إله يعبد من دون الله تعالىٰ كما وصفهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، أي: جعل من شهواته معبودًا يتّبع، بدلًا من أن يعبد الله ويتقيه.

وقد حذّر الله تعالىٰ من هؤلاء في مواضع كثيرة، مبينًا خطورة تأثيرهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النِّسَاء : ٢٧].

قال ابن جرير: «يعني بذلك تعالىٰ ذكره: والله يريد أن يراجع بكم طاعته والإنابة إليه، ليعفوَ لكم عمَّا سلف من آثامكم، ويتجاوز لكم عمَّا كان منكم في جاهليتكم، من استحلالكم ما هو حرَامٌ عليكم من نكاح حلائل آبائكم وأبنائكم وغير ذلك ممَّا كنتم تستحلونه وتأتونه، ممَّا كان غير جائز لكم إتيانه من معاصي الله ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، يقول: ويريد الذين يطلبون لذّات الدنيا وشهوات أنفسهم فيها ﴿أَن تَمِيلُواْ﴾ عن أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فتجوروا عنه بإتيانكم ما حرّم عليكم وركوبكم معاصيه ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾، جورًا وعدولًا عنه شديدًا»[1].

قال السعدي: «﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي: يميلون معها حيث مالت ويقدمونها علىٰ ما فيه رضا محبوبهم، ويعبدون أهواءهم، من أصناف الكفرة والعاصين، المقدمين لأهوائهم علىٰ طاعة ربهم، فهؤلاء يريدون ﴿أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي: [أن] تنحرفوا عن الصراط المستقيم إلىٰ صراط المغضوب عليهم والضالين. يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلىٰ طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره، إلىٰ مَنْ الشقاوةُ كلها في اتباعه. فإذا عرفتم أنَّ الله تعالىٰ يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم، وأنَّ هؤلاء المتبعين لشهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء، فاختاروا لأنفسكم أوْلىٰ الداعيين، وتخيّروا أحسن الطريقتين»[2].

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢١٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:١٧٥).

إنَّ أهل الشهوات لا يكتفون بفساد أنفسهم، بل يسعون لإفساد غيرهم، ويغرون الناس بالمعاصي، ويهدمون قيم العفة والطهارة باسم الحرية والانفتاح، حتىٰ يشيع الفساد وتُنسىٰ طاعة الله، ولذا حذّر الله تعالىٰ منهم، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المَائِـدَة : ٧٧].

فهؤلاء قد ضلوا، ولم يكتفوا بضلالهم، بل سعوا لإضلال الناس من بعدهم، فكانوا دعاة علىٰ أبواب جهنم.

وقد بيّن الله عاقبة الانغماس في الشهوات، واتباع أهلها من سوء المصير، قال تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴾ [مَرْيَم : ٥٩] .

وهذه الآية تبيِّن أنَّ الغفلة عن الصلاة والانجراف وراء الشهوات طريق إلىٰ الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة.

وفي السنة النبوية نجد التحذير نفسه، كما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ »[1].

وهذا الحديث يوضِّح أنَّ طريق الجنَّة محفوف بالتكاليف والمجاهدات التي تحتاج إلىٰ صبر ومجاهدة، في حين أنَّ طريق النار محفوف بالشهوات، التي تُغري الإنسان لكنَّها تقوده إلىٰ الهلاك.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ح٢٨٢٣، ٨/ ١٤٢).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِمَّا أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضِلَّاتِ الْفِتَنِ»[1].

وهذا الحديث يبيِّن أنَّ الشَّهوات، خصوصًا شهوات البطن والفرج، من أعظم ما يصد الناس عن الهداية، ويجعلهم غارقين في الغيِّ والضَّلال.

ولهذا، فإنَّ اتباع الشهوات من أعظم أسباب الغواية، والانحراف عن الحقِّ، ويجب علىٰ المسلم أن يحذر من أهل الغواية الذين يسعون لإضلال الناس، وزخرفة الباطل لهم، وتشجيعهم علىٰ المعاصي، فمن أراد النجاة، فليستمسك بطاعة الله ورسوله، ولينأَ بنفسه عن الفتن وأهلها، ففي ذلك النجاة في الدنيا والآخرة، والسعادة التي لا تزول.

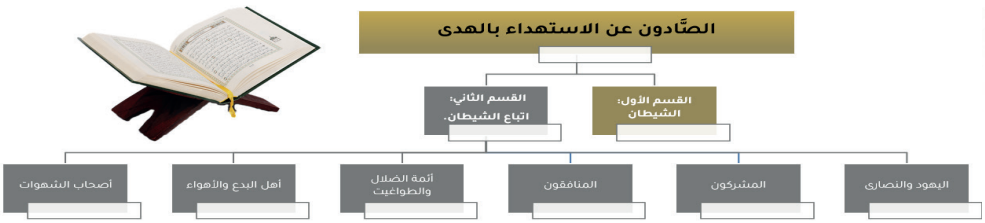

(١) أخرجه أحمد في مسنده، (ح١٩٧٧٣، ٣٣/ ١٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ح٥٢، ١/ ١٣٠).

المبحث الثَّاني

العوامل الصَّادة عن الاستهداء بالهدى

هناك العديد من العوامل التي تصد الناس عن الحق وتمنعهم من اتباع طريق الهداية، ممَّا يؤدي إلىٰ الانحراف عن الصراط المستقيم، وقد ذكر الله تعالىٰ في كتابه الكريم هذه العوامل، والتي تُعد موانع وحجبًا تحول دون الاستنارة بالحق والهدىٰ، قد تجتمع هذه العوامل في شخص واحد، أو يبتلىٰ ببعضها، ويمكن تصنيفها إلىٰ قسمين رئيسين:

القسم الأول: عوامل داخلية: مركَّبة في تكوين النفس، ومتجذِّرة في بُنيتها الفكرية والوجدانية، تؤثِّر في وعيها وتوجِّه سلوكها، وتتحكَّم في مدىٰ قابليتها للاستجابة لداعي الحق.

القسم الثاني: عوامل خارجية: تفرض تأثيرها علىٰ العقل والقلب من خارج النفس، فتُشغلهما وتُلهيهما عن النظر في آيات الله والتفاعل مع خطاب الهدىٰ.

فيما يأتي عرضٌ لأبرز هذه العوامل، مستخلَص من تدبّر آيات الكتاب العزيز، واستقراء ما تضمنه من إشارات بيانية تكشف موانع الاهتداء، وتُجلّي وجوه الصدّ عن الهدىٰ.

القسم الأول: العوامل الداخلية الصَّادة عن الهدى:

إنَّ أخطر ما يبعد الإنسان عن نور الحق والهدىٰ هو تلك العوامل التي تنبع من ذاته، فتغلق عليه أبواب الفهم، وتحجب عنه إشراقات الهداية، ومن أبرز هذه العوامل:

أولاً: قسوة القلب: أخطر موانع الهداية:

من أعظم الموانع التي تحول دون وصول نور الهداية إلىٰ القلب، وتقطع طريق التأثر بالحجج والآيات، وهي السبب الجذري لغيرها من الموانع: قسوة القلب.

فالقلب إذا قسا، انغلق علىٰ نفسه، وأعرض عن الذكر، وفقد قابليته للتزكية، فلا تؤثر فيه الموعظة، ولا تنفعه الحجة، ولا يهتدي، حتىٰ لو عاين أعظم الآيات. وقد وصف الله تعالىٰ هذا الصنف بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجَاثِيَة : ٢٣].

إنَّ الهداية لا تُنال بمجرد كثرة الآيات والدلائل، بل تُنال إذا وجد القلب الحي المستعد لتلقّيها، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق : ٣٧]، أي: لمن كان له قلبٌ حيٌّ يتفاعل مع الذكرىٰ، أو أذن واعية تستمع بإنصاف وتجرّد، فشرط الانتفاع هو وجود الاستعداد الداخلي للهداية.

فالقلب القاسي يشبه الأرض الصماء الصلبة، لا تمسك ماءً ولا تُنبِت زرعًا، فإذا انعدمت القابلية في الأرض، لم تُجدِ فيها الأمطار، وإذا قسا القلب لم تُجدِ فيه المواعظ، ولا العلوم، ولا البراهين، تمامًا كما لا تنبت الأرض الجرداء ولو سُقيت بكل غيث، وبُذِر فيها كل بذر، وهذا ما دلّت عليه آيات كثيرة، منها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يُونُس : ٩٦ – ٩٧] .

وقولـه تعالـىٰ: ﴿وَلَـوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَـآ إِلَيْهِـمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُـمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَـا عَلَيْهِـمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُـوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَـآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُـمْ يَجْهَلُـونَ﴾ [الأَنْعَام : ١١١] .

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يُونُس : ١٠١] .

فهذه الآيات تؤكِّد أنَّ العائق الحقيقي ليس في قلَّة الأدلة، بل في قسوة القلوب وانعدام الاستعداد للتأثُّر. فالهداية نور لا يسكن إلا في قلبٍ مُهيأ، متجرد من الهوىٰ، قابل للحق إذا ظهر.

وقد جاءت السنة النبوية مؤكدةً لهذا المعنىٰ، ومحذرةً من قسوة القلب وفساده، ومبيّنةً أثر فساده في بُعد الإنسان عن الهداية، فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا وإنَّ في الجسدِ مُضغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسَدُ كلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّهُ، ألا وَهِيَ القَلبُ»[1] ، فصلاح القلب هو مفتاح الهداية، وفساده وقسوته هو مفتاح الضلال والانحراف.

ولهذا، فإنَّ قسوة القلب تمثل أحد أعظم الحجب عن قبول الحق، والانتفاع بالموعظة، ونيل نور الهداية. وقد حذر منها القرآن الكريم، ونبّهت إليها السنة النبوية، فكان لزامًا علىٰ المؤمن أن يسعىٰ في إصلاح قلبه، وتليينه، واستصلاح ما فسد منه، وذلك بالإقبال علىٰ الله، وكثرة الذكر، وتلاوة القرآن بتدبر، ومجالسة الصالحين، والتوبة الدائمة، ومجاهدة النفس علىٰ الخشوع والخضوع. فبهذا يحيىٰ القلب، ويستعد لتلقي نور الحقِّ، والله المستعان.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه (ح٥٢، ١/ ٢٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب: البيوع، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (ح١٥٩٩، ٥/ ٥٠).

ثانيًا: اتباع الهوىٰ: الميل الباطني الذي يصدّ عن الحق:

يُعدّ اتباع الهوىٰ من أعظم العوامل التي تصدّ الإنسان عن الهدىٰ، وتحرمه من نور الاستقامة. فالهوىٰ ريحٌ عاصفة، إذا استسلم لها القلب جرّته إلىٰ متاهات الضلال، وزيّن له الباطل، وأعماه عن إدراك الحق، حتىٰ يلتبس عليه الهدىٰ بالهوىٰ، وتُغلق أمامه أبواب التبصّر والاستجابة.

وقد عدّه العلماء المنفذ الأكبر الذي يتسلل منه الشيطان إلىٰ القلب، فيفسده، ويصرفه عن الحق، كما قالوا: «إنَّ الشيطان ليس له مدخلٌ علىٰ ابن آدم إلَّا من باب هواه، فإنَّه يطيف به، من أين يدخل عليه، حتَّىٰ يفسد عليه قلبَه وأعماله، فلا يجد مدخلًا إلَّا من باب الهوىٰ، فيسري معه سرَيان السُّمِّ في الأعضاء»[1]

وقد قرر القرآن أنَّ الناس صنفان: فريق مهتدٍ تابع للهدىٰ، وفريق ضال تابع لهواه. وكل من أعرض عن دعوة الحق، فإنَّما يفعل ذلك بدافعٍ من هواه. قال تعالىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القَصَص : ٥٠].

فاتباع الهوىٰ يورث ظلمةً في البصيرة، تفضي إلىٰ الإعراض عن الحق، وتحجب عن الصراط المستقيم، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦]، وبيَّن تعالىٰ أنَّه سبب ضلال كثير من الناس، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأَنْعَام:١١٩].

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص:٦٣٥).

فمن جعل نفسه أسيرة لهواها عدَّه القرآن من عبدة الهوى، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفُرْقَان : ٤٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجَاثِيَة : ٢٣] .

قال الحسن: هو المنافق، لا يهوى شيئًا إلَّا ركبه. وقال أيضًا: المنافق عبد هواه لا يهوى شيئًا إلَّا فعله»[(١)].

ومن هنا، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يؤمن أحدُكُم حتَّى يكون هواهُ تَبَعًا لِمَا جئتُ به»[(٢)].

وعدّ عليه الصلاة والسلام الهوى من المهلكات، فقال: «إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضِلَّاتِ الْهَوَى»[(٣)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ، وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ، فَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ: فَتَقْوَى اللهِ فِي السِّرِّ والعلانية، والقولُ بالحقِّ فِي الرضى وَالسُّخْطِ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ. وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ وَهِيَ أَشَدُّهُنَّ»[(٤)].

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص٦٣٧).

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة، كتاب: الإيمان، باب: رد البدع والأهواء (ح١٠٤، ١/ ٢١٢ - ٢١٣)، وأورده النووي في الأربعين النووية (ح٤١، ص ٤٥)، وقال: حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، (ح١٩٧٧٣، ٣٣/ ١٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ح٥٢، ١/ ١٣٠).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (ح٧٢٤٨، ٦/ ٧٢٤٨)، وقال التبريزي في مشكاة المصابيح (ح٥١٢٢، ٣/ ١٤١٦): حسن بشواهده.

والله تعالىٰ كما نهىٰ عن اتباع الهوىٰ نهىٰ عن اتباع من اتبع هواه، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المَائِـدَة : ٤٨] ، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ [الشُّورَى : ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجَاثِيَة : ١٨].

قال الراغب:«فإنَّما قاله بلفظ الجمع تنبيهًا علىٰ أنَّ لكلِّ واحد هوىٰ غير هوىٰ الآخر، ثم هوىٰ كل واحد لا يتناهىٰ، فإذا اتباع أهوائهم نهاية الضلال والحيرة»[1] .

وبيَّن تعالىٰ عاقبة اتباع أهل الهوىٰ، وما يحدثه من الضلال والخسران والخذلان، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ [الرَّعْد: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأَنْعَام : ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكَهْف : ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البَقَرَة : ١٢٠].

فاتباع الهوىٰ من علامات الذين ظلموا أنفسهم من أهل الكفر والضلال، قال تعالىٰ: قال تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الرُّوم : ٢٩]، وقال تعالىٰ عن الكافرين: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القَمَر : ٣] ، وقال تعالىٰ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النَّجْم : ٢٣] .

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص:٨٤٩).

ومن هنا، كانت الجنة مرهونة بمخالفة هوىٰ النفس، وجعل هواها فيما يريده مولاها، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النَّازِعَات:٤٠ - ٤١].

وقد حذر الله تعالىٰ في كتابه من اتباع الهوىٰ؛ لأنَّ الهوىٰ «ما خالط شيئًا إلَّا أفسده، فإن وقع في العلم؛ أخرجه إلىٰ البدعة والضَّلالة، وصار صاحبُه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد؛ أخرج صاحبه إلىٰ الرِّياء ومخالفة السُّنَّة، وإن وقع في الحكم؛ أخرج صاحبَه إلىٰ الظُّلم، وصدَّه عن الحقِّ، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلىٰ قسمة الجَوْر، وإن وقع في الولاية والعزل؛ أخرج صاحبه إلىٰ خيانة الله والمسلمين؛ حيث يُوَلِّي بهواه، ويعزل بهواه. وإن وقع في العبادة؛ خرجت عن أن تكون طاعةً وقربةً. فما قارن شيئًا إلَّا أفسده»[1].

وقال ابن القيم: «اتباع الهوىٰ وطول الأمل مادة كل فساد؛ فإنَّ اتباع الهوىٰ يعمي عن الحق معرفة وقصدًا، وطول الأمل ينسي الآخرة ويصد عن الاستعداد لها، فاجتمع الفساد كله في اتباع الهوىٰ وطول الأمل، والصلاح كله في اتباع الهدىٰ والاستعداد للِّقاء»[2].

وقد قال بعض العارفين: «إن شئت أخبرتك بدائك، وإن شئت أخبرتك بدوائك، داؤك هواك، ودواؤك ترك هواك ومخالفته. وقال بشر الحافي ـ رحمه اللهـ: «البلاء كلُّه في هواك، والشِّفاء كله في مخالفتك إيَّاه»[3].

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص:٦٣٥).

(٢) الفوائد لابن القيم (١/ ١٦٣).

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص:٦٣٩).

ومن صور اتباع الهوىٰ:

التعصب للمذهب أو الرأي، فيُحرِّف النصوص لتوافق ميوله ورأيه وهواه فيحملها علىٰ غير المراد منها.

كما يدخل في ذلك اتباع المتشابه وعدم حمله علىٰ المحكم، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عِمْرَان:٧]. فأهل الزيغ والهوىٰ والضلال هم الذين يتبعون المتشابه ولا يردونه للمحكم.

يتّضح ممَّا سبق، أنَّ الهوىٰ ليس مجرد ميل عرضي للنفس، بل هو داءٌ عميق وفتنةٌ عظيمة، تسلب الإنسان بصيرته فتمنعه من التمييز، وتعطِّل قواه العقلية والروحية، فيصبح أسيرًا لما يشتهي، لا لما يهتدي، فتورده موارد الهلاك، فيضل عن سواء السبيل، ما لم يضبطه بشرع الله، ويهتدي بنوره. ومن ثَمّ، فإنَّ كثيرًا من موانع الهداية الأخرىٰ تنشأ في جوف الهوىٰ، وتتغذىٰ منه، فلا يتحرَّر القلب إلَّا بمخالفة الهوىٰ والانقياد التام لشرع الله.

ثالثًا: الكِبْر والغرور: الاستعلاء عن اتباع الهدىٰ:

من أعظم العوامل الصادة عن الاهتداء بالهدىٰ ما يستقرّ في النفوس من كِبْر وغرور، فالقلب المتعالي لا يتلقّىٰ الحقّ، ولا يخضع له؛ لأنَّه قد استغنىٰ بوهمه عن النور، واغترّ بنفسه عن التواضع لمعاني الوحي، فيصبح كالصخرة الصمّاء التي لا تنفذ إليها قطرة من الهدىٰ.

فالمتكبّر لا يرىٰ الحقّ إلَّا من خلال ذاته، ولا يسمع إلَّا صوته، ولذلك يعجز عن قبول الموعظة، ويرفض الخضوع لسلطان الشرع، ولو جاءه الحقّ بيّنًا واضحًا. وقد بيّن القرآن أنَّ الكبر من أكبر موانع الهداية، يُفضي بصاحبه إلىٰ الجحود والعناد، ويدفعه إلىٰ الإعراض عن كل آية، مهما بلغ وضوحها. قال تعالىٰ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأَعۡرَاف : ١٤٦].

فالكِبْـرُ حجاب كثيف بيـن العبد والهدىٰ، وهو أصـل العناد والجدال بالباطـل، كمـا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غَافِر : ٥٦].

وقد كان الكِبْر سببًا في أول معصية عُصي الله بها، حين استكبر إبليس عن السجود لآدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فحرمه الله من مقام القرب، وأهلكه. قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة : ٣٤].

وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأَعۡرَاف : ١٢ - ١٣].

وقد تكررت هذه السُّنّة في عناد المكذبين، ففرعون وملؤه ما منعهم من التصديق بآيات الله إلَّا العلوّ والاستكبار، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النَّمْل : ١٤].

وهو الداء الذي حال بين كثير من بني إسرائيل والهداية، حين أعرضوا عن أنبيائهم بدافع الكبر، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البَقَرَة : ٨٧] .

وهو أيضًا ما صدّ أبا جهل وأمثاله عن الإيمان، حين قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأَحْقَاف : ١٠ – ١٢] ، فتصفية النفس من داء الكبر والغرور من أعظم معينات الاهتداء بالحقِّ.

فالقرآن يربط بين الكِبْر والحرمان من الهداية ربطًا مباشرًا؛ لأنَّ المستكبر يأنف من الخضوع، ويأنف من الاعتراف بالخطأ، ولا يقبل أن يُؤخذ العلم ممَّن يراه دونه، ولا أن يتبع ما يخالف هواه. ولهذا جعل النبي ﷺ الكبر

من موانع دخول الجنة، كما جاء عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[1].

وقد بيّن ابن عاشور أنَّ التهيُّؤ لهداية القرآن مشروط بتخلية النفس من العوائق النفسية، وفي مقدّمتها الكبر والعناد، حيث قال: «إنَّ القرآن هدىٰ للناس، وتبيانًا للأحكام التي بها إصلاح الناس في عاجلهم وآجلهم، ومعاشهم ومعادهم، ولمَّا لم يكن لنفوس الأمَّة اعتياد بذلك؛ لزم أن يُهيأ المخاطبون بها إلىٰ تلقِّيها، ويعرف تهيُّؤهم بإظهارهم استعداد النفوس بالتخلِّي عن كل ما من شأنه أن يعوق عن الانتفاع بهذه التعاليم النافعة؛ وذلك بأن يجرِّدوا نفوسهم عن العناد والمكابرة، وعن خلط معارفهم بالأغلاط الفاقرة، فلا مناص لها قبل استقبال تلك الحكمة والنظر من الاتِّسام بميسم الفضيلة، والتخلية عن السفاسف الرذيلة»[2].

كما نبّه أهل العلم إلىٰ أنَّ الكِبْر لا يظهر دائمًا في صورة جحود مباشر، بل قد يلبس لبوس الدين، فيَحُول بين الإنسان وبين التواضع للحقِّ، ويدفعه إلىٰ تأويل النصوص وفق ما يؤيِّد مقامه أو رأيه، تمامًا كما فعلت طوائف أهل الكتاب، ومن شابههم من هذه الأمَّة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، (كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه ح٩١، ١/ ٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٥٣).

يتبيّن ممَّا سبق، أنَّ الكِبْر ليس مجرد صفة ذميمة، بل هو داء قاتل يسدّ طرق الهداية، ويمنع النور من الدخول إلىٰ القلب، فيظلّ صاحبه في دائرة الإنكار، مهما رأىٰ من براهين. وإنّ تصفية النفس من هذا الداء، والتواضع للحقِّ وأهله، هو من أعظم مفاتيح الاهتداء، ومن دونه يبقىٰ العلم حجة علىٰ صاحبه، لا نورًا له.

رابعًا: الجهل: أصل الانحراف ومصدر الصدّ عن الهدىٰ:

يُعدّ الجهل من أعظم العوامل الصادة عن الهداية، وأشدّ موانع الاستجابة للحق، إذ إنَّ الإعراض عن العلم الشرعي يؤدي إلىٰ التخبّط في الضلال، والوقوع في العمىٰ عن البصائر، والانحراف عن الصراط المستقيم. وقد بيّن القرآن الكريم أنَّ أكثر من ضلّوا كان سبب ضلالهم الجهل بالحق، أو الإعراض عن طلبه والعمل به.

فالذين كذَّبوا بالقرآن لم يكن تكذيبهم نابعًا من حُكم علمي واعٍ، بل كان ناشئًا عن جهل بمحتواه، وغفلة عن براهينه، وعدم إحاطة بحججه، فهو بسبب الجهل والتسرع وعدم التَّروِّي، قال تعالىٰ: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يُونُس : ٣٩].

قال ابن كيسان في هذه الآية:«لم يعلموه تنزيلًا، ولا علموه تأويلاً، فكذبوا به، وتلخيص هذا المعنىٰ يعود إلىٰ أنَّهم جهلوا القرآن وعلمه وعلم تأويله فعادوه بالتكذيب»[1].

(١) التفسير البسيط (١١/ ٢٠٢).

وقال القرطبي: «أي كذبوا بالقرآن وهم جاهلون بمعانيه وتفسيره، وعليهم أن يعلموا ذلك بالسؤال، فهذا يدلُّ على أنَّه يجب أن ينظر في التأويل»[1].

وقال ابن كثير: «بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي: ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحقِّ إلى حين تكذيبهم به جهلًا وسفهًا ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم السالفة ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلمًا وعلوًّا، وكفرًا وعنادًا وجهلًا فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم»[2].

وقد تكررت هذه السُّنة في الأمم السابقة، فجهلهم بآيات الله جعلهم في موقع التكذيب والرَّدِّ، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النَّمْل: ٨٣ - ٨٤].

الجهل بالحقِّ وبوسائل معرفته يُورث الضلال ويُفضي إلى العمى عن البصيرة، ويحول بين الإنسان ونور الهداية. ولذلك كان الجهل أولَ موانع الاهتداء وأعظمها، وأحد أبرز العوامل الصادة عن سلوك سبيل الهدى. وهو سببٌ رئيس في التكذيب بالحقِّ، والإعراض عن شرع الله تعالى.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٤٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٠).

وقد ثبت بالتجربة والنصوص أنَّ غالب من ضلّ، إنَّما ضلّ بسبب الإعراض عن تعلّم العلم الشرعي، الذي يُعدّ الوسيلة الأولىٰ لفهم الوحي، والمفتاح الأساس لمقاومة الغفلة والوقاية من الزيغ.

ولذلك جاء التحذير من الجهل في القرآن علىٰ لسان الأنبياء، كما قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البَقَرَة : ٦٧] .

وقد بيّن الله تعالىٰ آثار الجهل والإعراض عن العلم؛ من حرمان الفهم، وغلْق أبواب التزكية، وحمل أوزار ثقيلة يوم القيامة، والانقلاب إلىٰ سوء المصير، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكَهْف : ٥٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه : ٩٩ - ١٠١].

وفي موضع آخر أكّد العقوبة الربانية للمعرضين الجاهلين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السَّجْدَة : ٢٢] .

فمن مجموع هذه الآيات والآثار يتبيّن أنَّ الجهل ليس مجرد مانع منفصل، بل هو أصلٌ تتفرّع عنه كثير من العوامل الصادة الأخرىٰ؛ إذ إنَّ الهوىٰ والتقليد الأعمىٰ والغفلة والاستكبار، وسائر الأدواء الفكرية والسلوكية، كثيرًا

ما تنشأ في بيئة يغيب عنها العلم الصحيح، ويغيب عنها نور الوحي. ومن ثَمّ، فإنَّ مقاومة الجهل بالتعلُّم والتفقّه في الدين تمثل الخطوة الأولىٰ لكسر بقية الحواجز التي تحول دون الاهتداء بنور الله.

خامسًا: ترك السنة: الإعراض عن البيان النبوي للهدىٰ:

إنَّ من أعظم أبواب الهداية: اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطاعته، ومن أعظم ما يصدّ عنها: الإعراض عن سنته وهديه. وقد قرَّر القرآن هذه الحقيقة بأوضح عبارة، قال تعالىٰ: ﴿إِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النُّور: ٥٤]، ففي هذه الآية بيان صريح بأنَّ الهداية لا تتحقق إلَّا بطاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكل من أعرض عن سنته فقد سلك طريق الضلال والغواية.

والله عَزَّوَجَلَّ لخطورة هذا الأمر توعّد من يخالف أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالفتنة التي هي الكفر والشر والضلال والعذاب الأليم، فقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣].

ولا يملك المؤمن الحقّ أن يُخيّر نفسه في قبول ما أمر الله ورسوله به، بل طاعتهما واجبة، ومن أعرض فقد ضلَّ ضلالًا مبينًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأَحْزَاب: ٣٦]. وهذا يدلُّ دلالة واضحة علىٰ أنَّ من أراد الهداية فلا خيار له إلَّا في اتباع ما أمر الله به ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلَّا كان مآله الضَّلال الصَّريح.

فمن مظاهر الانحراف عن الهداية: الاكتفاء بالقرآن دون الرجوع إلىٰ السنة النبوية، وهو مسلك محدث باطل، يفضي إلىٰ تحريف الدين وطمس

معالمه؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يُنزل الكتاب وحده، بل قرنه بالحكمة، وأمر بطاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباع سنته، فقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجُمُعَة : ٢].

فالحكمة في هذه الآية هي السنة النبوية، كما فسرها جمهور أهل العلم، وهي التي تُبيّن معاني الكتاب، وتفصّل مجمله، وتخصّص عمومه، وتوضِّح أحكامه.

وقد جعل السُّنَّة كلها بيانًا للقرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النَّحل: ٤٤] ، فمهمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلاغ القرآن وبيان معانيه للناس، فمن اقتصر علىٰ القرآن ورفض السنة، فقد أعرض عن البيان الذي أوكله الله لنبيِّه، ووقع في الجهل والضلال، وابتدع منهجًا ناقصًا لا تقوم به الحجة، ولا يُفهم به الدين؛ لأنَّ كثيرًا من أحكام الشريعة لم تُذكر في القرآن تفصيلًا، وإنَّما بُيّنت بالسنة، كتفاصيل الصلاة والزكاة والحج، وحدود الجرائم، وغير ذلك.

وقد حذَّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا المسلك، وبيَّن خطورته، كما في الحديث الصحيح عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمُ الْحِمَارُ الْأَهْلِيُّ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ، وَلَا لُقَطَةُ مُعَاهَدٍ) [(١)].

(١) أخرجه أبو داوود في سننه، (ح٤٦٠٤، ٤/ ٢٠٠)، وصححه الألباني.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث حذّر من قوم سيقولون: يكفينا القرآن، وسينكرون ما ورد في السنة، وقد ردّ عليهم بذكر أحكام شرعية لم تُذكر في القرآن تفصيلًا، لكنَّها وردت في سنته، ممَّا يدلُّ علىٰ وجوب الأخذ بالسُّنَّة في التشريع.

إنَّ الاقتصار علىٰ القرآن دون السنة انحراف عظيم، ومفارقة لطريق المؤمنين، وهو من أسباب قسوة القلوب، والوقوع في الجهل، والضلال المبين؛ لأنَّ الهداية لا تُنال إلَّا باتباع الوحي كلّه: قرآنه وسنَّته. قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النِّسَاء : ٦٥]. والتحكيم لا يكون للقرآن فقط، بل لما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلّه.

ولهذا، يجب علىٰ المسلم أن يوقن أنَّ الهداية لا تُنال بتجزئة الوحي، ولا تُطلب باتباع ما يشتهي من النصوص وترك ما لا يوافق هواه، وإنَّما تُنال بتسليمٍ تامٍّ لله، واتباعٍ كاملٍ لما جاء به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والله المستعان.

وقد أشار العلماء إلىٰ أنَّ الاقتصار علىٰ القرآن وحده دون الرجوع إلىٰ السُّنَّة يُفضي إلىٰ الخطأ والضلال في فهم الأحكام الشرعية، إذ إنَّ السُّنَّة هي المفسِّرة والمبيِّنة لكثير من الأحكام المجملة في القرآن.

قال الشاطبي:«فعلىٰ هذا لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه دون النظر في شرحه وبيانه وهو السنة؛ لأنَّه إذا كان كليًّا وفيه أمور جُمْلِيَّةٌ كما في شأن الصلاة والزكاة والحج والصوم ونحوها؛ فلا محيص عن النظر

في بيانه، وبعد ذلك ينظر في تفسير السلف الصالح له إن أعوزته السنة؛ فإنَّهم أعرف به من غيرهم، وإلَّا؛ فمطلق الفهم العربي لمن حصَّله يكفي فيما أعوز من ذلك، والله أعلم»[1].

فالسنة النبوية هي جزء من الدين أمرنا بالأخذ بها حتىٰ نفهم الفهم الصحيح للدين، ونعصم أنفسنا من الضلال والانحراف عن الصراط المستقيم، فطاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتمسك بسنته سبيل النجاة، والخروج عنها هو مسلك الفتنة والانحراف والغواية، وهو مانع عظيم من موانع الهداية، لا لكونها مجرد نصوص، بل لأنَّها بيان الوحي، ومثال العمل، ومصدر التشريع.

سادسًا: الغفلة: غياب الوعي القلبي المفضي للإعراض:

تُعد الغفلة من أخطر العوامل التي تصدّ الإنسان عن الهداية؛ لأنَّها تُعطِّل حواسه المعنوية، وتُغلق منافذ إدراكه للحقِّ، وتغمر قلبه بالانشغال عن الله ووحيه، حتىٰ يصبح كمن يسير في ظلام حالك لا يهتدي فيه إلىٰ سبيل.

وقد حذّر الله تعالىٰ من الغفلة في مواضع كثيرة من كتابه، ونهىٰ عنها نهيًا صريحًا، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأَعْرَاف : ٢٠٥]. لأنَّ الغافل لا يعيش مع وحي الله، ولا يتأمل آياته، ولا يستجيب لنداء الحق، بل هو لاهٍ مشغول بما لا ينفع، معرضٌ عمَّا يُصلح قلبه وعقله.

وقد شبَّه الله حال الغافلين بمن لا يملك نورًا يهتدي به، قال تعالىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[يُوسُف : ٣] .

---

(١) الموافقات (٤/ ١٨٣).

فكان نزول القرآن نورًا وشفاء من الغفلة، ووسيلة لإيقاظ الفطرة، وبيانًا لمنهج الاستقامة.

والغافل عن ذكر الله ووحيه المبين أشبه بإنسان يسير في ظلامات من غير نور، لا يدرك معالم الطريق، فهي تحجب العقل عن التفكر، وتُلهي القلب عن التمييز بين الحقِّ والباطل، وتؤدي إلىٰ الجهل بالحقائق الإيمانية.

فكثير من الناس لا ينتفعون بهذا النور بسبب غفلتهم عن آيات الله، فحجبتهم الغفلة عن آيات الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يُونُس: ٩٢].

وهذا يُشير إلىٰ أنَّ الغفلة داء جماعي منتشر، يصيب الأمم والمجتمعات؛ فينزع منها روح الاستجابة، ويُميت فيها حياة القلوب.

والغفلة كالكِبْر والتكذيب، من الموانع التي تصرف القلب عن الهدىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأَعْرَاف : ١٤٦].

قال السعدي: «فردهم لآيات الله، وغفلتهم عمّا يراد بها واحتقارهم لها هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق الغي، وترك طريق الرشد ما أوجب»[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٠٣).

وخطورة الغفلة أنَّها تعطِّل حواس الإنسان عن إدراك الحقائق، فهم لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببًا للهداية. فقلوبهم لا يصل إليها فقه ولا علم، وأعينهم لا ينتفعون بها فلا يبصرون آيات الله، وآذانهم لا يسمعون بها ما ينفعهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ١٧٩].

فالغفلة تقتل بصيرة القلب، وتُفقد الإنسان القدرة علىٰ الاستفادة من سمعه وبصره وعقله، فيصبح في حكم الأنعام، بل أضل؛ لأنَّ الأنعام لا تُطالب بالهداية، في حين الغافل قد عُرضت عليه، فأعرض عنها.

كما أنَّ الغفلة تؤدي إلىٰ الخذلان والطبع علىٰ القلوب، وحرمان الإنسان من الهداية، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [النَّحل : ١٠٧ – ١٠٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يُونُس:٤٣].

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزُّخْرُف : ٤٠]. فالغافل هو من يعطل قلبه عن التدبر، وعينيه عن التأمل، وأذنيه عن الاستماع للحقِّ.

ولخطورة الغفلة، بعدما حذَّر الله تعالىٰ نبيّه منها، حذَّره من طاعة أهلها، الغافلين عن وحيه المتبعين لأهوائهم؛ لأنَّ صحبتهم سبب في الانحراف والضياع، قال تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف:٢٨].

بل بيّن تعالىٰ في التحذير منها ومن أهلها أنَّ الغفلة من أسباب الانحراف عن منهج الله والوقوع في الضلال، ودخول نار جهنم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يُونُس: ٧ – ٨].

فالغفلة داءٌ عظيمٌ، يعزل الإنسان عن التذكّر، ويحرمه من نور الهداية، ويقوده تدريجيًّا إلىٰ الانحراف والضياع. وهي ثمرة طبيعية للانشغال بالدنيا، واتباع الهوىٰ، والبعد عن مجالس الذكر، وترك تدبّر القرآن.

وعلاجها يكون بوسائل عملية أهمها: الاستمرار في تلاوة كتاب الله وتدبر معانيه، ومجالسة الذاكرين، وربط القلب بالآخرة، وتذكير النفس بعاقبة الغفلة ومآلاتها.

سابعًا: الحسد والحقد: دافع نفسي يصرف عن قبول الحق:

من العوامل الباطنية العميقة التي تصدّ الإنسان عن الهُدىٰ، وتغلق عليه منافذ الاستجابة للحق، ما يُكنّه القلب من حسدٍ وحقدٍ تجاه من أنعم الله عليه بنعمة الهداية. فالحسد مرض قلبي يولّد الكراهية

والبغضاء، ويدفع بصاحبه إلىٰ رفض الخير لمجرَّد أنَّه نزل بغيره، ولو كان ذلك الخير هدىً من عند الله، بل قد يسعىٰ الحاسد إلىٰ إطفاء نور الهداية عن غيره، كما يسعىٰ لإطفائه عن نفسه.

وقد بيَّن القرآن الكريم أنَّ الحسد كان من أعظم الأسباب التي منعت أهل الكتاب، وخاصَّة اليهود، من الإيمان برسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رغم علمهم بصدقها كما يعرفون أبناءهم، قال تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة : ١٠٩].

فالمشكلة لم تكن في خفاء الحقّ، بل في ظهور الحقّ لغيرهم، وهو ما لم يحتمله قلب الحاسد.

وقال تعالىٰ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البَقَرَة : ١٠٥] .

قال ابن عاشور: «وهذه الآية رجوع إلىٰ كشف السبب الذي دعا لامتناع اليهود من الإيمان بالقرآن لما قيل لهم آمنوا بما أنزل الله فقالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البَقَرَة : ٩١] أي ليس الصارف لهم تمسُّكهم بما أنزل إليهم بل هو الحسد علىٰ ما أنزل علىٰ النبيء والمسلمين من خير»[1].

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٥٢).

وبيّن الله تعالىٰ أنَّ هذا الداء هو الذي دفعهم إلىٰ الكفر والبغي، فقال تعالىٰ: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [البَقَرَة: ٩٠].

وقد أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ أنَّ الحسد من أمراض الأمم السابقة، التي تسري في هذه الأمَّة أيضًا، فقال: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنَّهَا تَحْلِقُ الدِّينَ»[1].

وفي موضع آخر، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»[2].

ويُعدّ الحسد من أوضح الأمثلة علىٰ الانحراف القلبي الذي يعطل البصيرة ويمنع الإنسان من قبول الهدىٰ، لا لأنَّه لم يظهر له، بل لأنَّه كره أن يكون عند غيره.

يتبيَّن ممَّا سبق، أنَّ الحسد والحقد يزرعان في النفس عداوةً للحقِّ لا لذاته، بل لأنَّه وُهب لغير الحاسد، فتتحول هذه العداوة إلىٰ صدٍّ عن الهُدىٰ، وإنكارٍ للنعمة، ومقاومةٍ للرسالة، كما حصل مع بني إسرائيل. ولهذا، كان تطهير القلب من الحسد من أعظم وسائل تهيئة النفس للاستنارة بنور الهداية، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ [الحَشْر:٩].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (ح٢٥١٠، ٤/ ٦٦٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (ح٦١٩٠، ٩/ ١٤)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٩٩): حسن لغيره.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (ح٤٢١٠، ٢/ ١٤٠٨)، وأبو داوود في سننه (ح٤٩٠٣، ٧/ ٢٦٤)، وقال الأرنؤوط: حسن لغيره.

ثامنًا: الركون إلىٰ الدنيا: إيثار العاجلة علىٰ الآجلة:

من أبرز العوائق التي تصدّ عن الاستجابة للهدىٰ: الركون إلىٰ الدنيا، والانغماس في ملذّاتها، والاطمئنان إليها، وإيثارها علىٰ ما عند الله في الدار الآخرة.

وهذا المسلك - كما قرّره القرآن - هو نهج الكافرين والمكذّبين، الذين أعمتهم زينة الحياة الدنيا عن رؤية النور، فأعرضوا عن الهداية، ورضوا بالحياة الدنيا مقامًا ومأوىٰ، فاستحقوا بذلك غضب الله وعذابه. قال تعالىٰ مبيِّنًا حالهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يُونُس: ٧ - ٨].

فمن ركن إلىٰ الدنيا، واطمأنَّ بها، وغفل عن الآخرة، واستغنىٰ بها عن الله، لا يمكن لقلبه أن يستجيب للذكر، ولا أن يتفاعل مع نور الوحي.

وقال تعالىٰ: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ [إِبۡرَاهِيم: ٢ - ٣].

فالاستحباب هنا لا يعني مجرد الميل، بل يدلُّ علىٰ الاختيار المقرون بالرضا والإيثار، أي أنَّهم جعلوا الدنيا غايتهم، والآخرة خلف ظهورهم.

وقد ربط الله بين هذا الإيثار وبين الحرمان من الهداية، فبيّن الله تعالىٰ أنَّ استحباب الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، من الأسباب المانعة للكافرين عن الهداية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [النَّحۡل: ١٠٧].

بل أوضح أنَّ من يركن إلىٰ الدنيا، ويجعلها مقصده، يُطبع علىٰ قلبه، ويُغلق عليه باب الهداية، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [النَّحل: ١٠٧ - ١٠٩].

كما يشير القرآن الكريم أيضًا إلىٰ أنَّ الذي يجعل الدنيا أكبر همه، ولا يسعىٰ إلا لتحقيق مصالحها، يكون علمه قاصرًا عليها، فهم محجوبون عن المقصد الأعلىٰ، حيث قال تعالىٰ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النَّجم: ٢٩ - ٣٠].

ومن أخطر ما يُذكر في هذا الباب: أنَّ التعلّق بالدنيا لا يقتصر ضرره علىٰ الكافرين، بل قد يكون سبب انحراف للمهتدين أنفسهم، كما في قصة الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٧٥ - ١٧٦].

فميله للدنيا وإيثارها علىٰ الآخرة هو الذي منعه من الهدىٰ.

قال ابن جرير: «يقول تعالىٰ ذكره: ولو شئنا لرفعنا هذا الذي آتيناه آياتنا بآياتنا التي آتيناه، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: سكن إلىٰ الحياة الدنيا

في الأرض ومال إليها، وآثر لذتها وشهواتها علىٰ الآخرة، واتبع هواه، ورفض طاعة الله وخالف أمره. وكانت قصة هذا الذي وصف الله خبره في هذه الآية، علىٰ اختلاف من أهل العلم في خبره وأمره»[1].

قال السمعاني: «قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أَي: مَال إِلَىٰ الدُّنْيَا، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وَهَذِه أَشد آيَة فِي حق الْعلمَاء، وقلما يخلوا عَن أحد هذَيْن عَالم من الركون إِلَىٰ الدُّنْيَا، ومتابعة الْهوىٰ»[2].

ولذا، حذَّر الله تعالىٰ من الغرور بها والركون إليها، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فَاطِر : ٥].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [لُقْمَان : ٣٣].

وبيَّن مصير من آثر الحياة الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النَّازِعَات : ٣٧ - ٣٩].

وقد نبّه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ خطورة هذا الداء في أحاديث كثيرة، منها:

عن عَمْرو بن عوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ

(١) جامع البيان (١٠/ ٥٧٦).

(٢) تفسير السمعاني (٢/ ٢٣٣).

عَلَىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[1]، هذا الحديث يُبيِّن أنَّ الافتتان بالدنيا أخطر من الفقر؛ لأنَّه يُفضي إلىٰ التنافس المهلك، والوقوع في المهالك.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»[2]. يشبّه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدنيا بالحلوة الخضرة، دلالة علىٰ أنَّها جذابة للنفس، لكنَّها مُهلكة ما لم تُضبط بالتقوىٰ، ربط فتنة الدنيا بفتنة النساء، وهما من أقوىٰ أبواب الفتنة والصدّ عن الهدىٰ.

ويدخل في إيثار الحياة الدنيا من يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل من مال ووظيفة وجاه ونحو ذلك، ممَّن منعه ملكه عن ذلك كما حدث لهرقل الذي علم بنبوة النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصدقه، لكنَّه خاف علىٰ ملكه.

إنَّ الركون إلىٰ الدنيا، والاطمئنان بها، وجعلها غايةً دون اعتبارٍ للآخرة، من أعظم العوائق التي تصدّ عن نور الهداية. والمؤمن الحق يجعل الدنيا وسيلةً للآخرة، لا غاية في ذاتها، كما جاء عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (كتاب: الخمس، باب: الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب ح٢٩٨٨، ٣/ ١١٥٢)، ومسلم في صحيحه، (كتاب: الزهد والرقائق. ح٢٩٦١، ٨/ ٢١٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، (كتاب: الرقاق، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء ح٢٧٤٢، ٨/ ٨٩).

قَالَ: «أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ »[1].

كما أنَّ تحقيق التوازن بين العمل للدنيا والاستعداد للآخرة هو مفتاح الفلاح، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القَصَص : ٧٧].

تاسعًا: الخوف من الناس: الحاجز الاجتماعي المانع من الهداية:

من العوامل القلبية الخفية التي تصدّ عن الهُدىٰ: الخوف من الناس، وتقديم رضاهم علىٰ رضا الله، خشية فقدان جاه، أو مقام، أو مدح، أو خوفًا من الملامة والعار الاجتماعي أو نتيجة ضعف في مواجهة الناس. وهذا الخوف إذا تغلغل في القلب، جعل صاحبه أسيرًا لنظرة الناس، لا حرًّا في اختياره للحق.

وقد يكون الإنسان موقنًا بالحقِّ في قلبه، مدركًا لبراهينه، ولكن يمنعه من اتباعه خشية سخط قومه، أو فوات منصبه، أو خسارة جاهه، فيؤثر السلامة الدنيوية علىٰ النجاة الآخروية. ولهذا قال الله تعالىٰ محذِّرًا من تقديم مخافة الناس علىٰ مخافته سبحانه، بحيث يراعون مرضاتهم دون رضىٰ الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المَائِدَة : ٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (كتاب: الرقاق، باب: قول النبي ﷺ: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) ح٦٠٥٣، ٥/ ٢٣٥٨).

من أوضح النماذج علىٰ هذا المعنىٰ: موقف أبي طالب، عمّ النبي ﷺ، الذي أيقن بصدق دعوة ابن أخيه، لكنَّه امتنع عن النطق بالشهادة خوفًا من ملامة قومه، والعار الاجتماعي. يقول في أبياته الشعرية[1]:

ولقد علمت بأنَّ دين محمدٍ ... من خير أديان البرية دينًا

لولا الملامة أو حذار مسبَّة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينًا

ويقولُ في لامِيَّتِه المَشهورةِ[2]:

فوالله لولا أن تكون مسبة ... تجر على أشياخنا في المحافل

لكِنَّا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جَدًّا غير قول التهازل

لقد علموا أنَّ ابننا لا مكذّبٌ ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

ويُعدّ ذلك من أخطر صور الصدّ عن الهدىٰ: أن تعلم الحق، ولكنَّك تُعرض عنه لأجل الخلق. فيجب تقديم مخافة الله علىٰ مخافة الناس، ومرضاته علىٰ رضاهم، وهذا هو جوهر العقيدة الصحيحة.

وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ نماذج من عباده الذين ثبتوا علىٰ الحق، وخالفوا الناس غير مبالين بتهديد أو لوم، لا يبتغون إلا وجه الله ورضاه.

---

(١) الإصابة (٧/ ١٩٦ - ١٩٨).

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٢٨٣)، والبداية والنهاية (٤/ ١٤٢).

ومن أعظم هذه النماذج: مؤمن آل ياسين، الذي تحدّىٰ قومه وأعلن إيمانه علنًا، في موقف يزخر بالشجاعة والثبات، رغم ما يترتب عليه من أذىٰ أو تهديد، قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس : ٢٠ - ٢٢]

لقد أعلن توحيده ورفضه لعبادة غير الله، وأعلن ضلال قومه دون مواربة، وقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس : ٢٣ - ٢٥].

فما كان منهم إلا أن قاموا بقتله هو ثابت علىٰ الإيمان، لكنَّه نال أعلىٰ وسام: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس : ٢٦ - ٢٧]

فهذا الموقف شاهد حي علىٰ أنَّ من يقدِّم خشية الله علىٰ خشية الناس، ويجهر بالحق رغم التهديد، يُكرم في الدنيا والآخرة، ويكون قدوة لمن يأتي بعده.

وكذلك فعل سحرة فرعون حين أضاءت قلوبهم بأنوار الهداية، وأيقنوا بالحق الذي جاء به موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلم يمنعهم تهديد الطاغية -فرعون- ولا الوعيد بالتقطيع والصلب، من إعلان إيمانهم، بل صدعوا به في وجه السلطان، غير مبالين بما سيلحقهم من أذىٰ، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه : ٧١].

فرَدُّوا بكل قوة ويقين: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طه : ٧٢].

لقد غلب عليهم نور الإيمان، فصغرت الدنيا في أعينهم، وظهر صدقهم في قولهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه : ٧٣].

فكانوا مثالًا خالدًا في الثبات، والتجرّد من التبعية العمياء والخوف من الناس، فاختاروا رضا الله علىٰ رضا السلطان، والآخرة علىٰ الدنيا، والحقّ علىٰ السلامة المؤقتة.

وردت نصوص كثيرة تُحذر من هذا الميل النفسي، منها: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسُخْطِ اللهِ؛ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ النَّاسَ عَلَيْهِ»(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا: «لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدُكُمْ رَهْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ فَإِنَّهُ لَا يُقَرِّبُ مِنْ أَجَلٍ، وَلَا يُبَاعِدُ مِنْ رِزْقٍ أَنْ يُقَالَ بِحَقٍّ»(٢).

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (ح٤١٦، ١/ ٤٨٦)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ح٢٢٥٠/ ٢/ ٥٤٧): صحيح لغيره.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (ح١١٤٧٤، ١٨/ ٥٣)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح دون قوله: «فإنه لا يقرب من أجل، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق، أو يذكر بعظيم».

فهذه الأحاديث تؤسس لمبدأ التحرر من الخوف من الناس في سبيل إقامة الحق، وتقديم مرضاة الله في كل الأحوال.

إنَّ الخوف من الناس حين يكون مانعًا من قول الحق، أو اتباع الهدىٰ، يُعد عائقًا باطنيًّا كبيرًا، يجب علىٰ المؤمن أن يُقاومه، وهو يُعد نوعًا من العبودية القلبية لغير الله، فيجب علىٰ المؤمن أن يُحرر قلبه من هذا القيد، وأن يتذكر أنَّ رضا الله غاية لا تُترك، ورضا الناس غاية لا تُدرك، وأنَّ المواقف البشرية زائلة، أما الحق فباقٍ، والثبات علىٰ الحق مع مخالفة الناس هو ميزان الرجولة الإيمانية، وهو سمة الأنبياء والدعاة الصادقين، الذين لا يخشون في الله لومة لائم.

عاشراً: محبة الديار والأوطان حين تصدّ عن الهدىٰ:

محبة الإنسان لوطنه وديارِه أمرٌ فطري، جُبلت عليه النفوس، وتعلقت به القلوب. وقد أقر الإسلام هذا الميل الطبيعي، وأعطاه مكانته في الإطار الإنساني المشروع.

لكن إذا تعارضت محبة الأوطان مع الاستجابة لأمر الله ورسوله، فإنَّ التقديم الواجب هو لمحبة الله، وإلا تحولت هذه المحبة الفطرية إلىٰ مانع نفسي يصُدّ عن اتباع الهدىٰ.

وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ هذه الحقيقة في أكثر من موضع، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النِّسَاء : ٦٦].

فهذه الآية تُشير إلىٰ مدىٰ التعلق النفسي بالوطن، وكم يصعب علىٰ النفس مفارقته، ولو كان ذلك في سبيل الله.

لكن الهداية لا تُنال إلا بالتجرد لله، وتقديم محبته علىٰ كل محبوب. وقد قرر الله هذه القاعدة في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التَّوْبَة : ٢٤].

وهذه الآية من أقوىٰ ما يُقرر أنَّ تقديم أي محبوب علىٰ الله ورسوله يُعد فسقًا وسببًا في الحرمان من الهداية.

وتُعدُّ الهجرة النبوية مثالاً رفيعًا علىٰ تغليب طاعة الله علىٰ المشاعر الفطرية، فقد خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة مهاجرًا بأمر ربه، رغم أنَّها أحب البلاد إلىٰ قلبه. وقد عبّر عن ذلك كما جاء عن أبىٰ هريرة. قال: وقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ الحزورة، فقال: «وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ» [1]. وهذا يدلُّ دلالة واضحة علىٰ أنَّ محبة الوطن فطرة إنسانية مغروسة في النفس، لكنَّها لا تعلو علىٰ امتثال أمر الله والقيام بواجب الدعوة إلىٰ الحقِّ.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح١٨٧١٥، ٣١/ ١٠)، والترمذي في سننه (ح٣٩٢٥، ٥/ ٧٧٢)، وقال: حسن صحيح غريب.

وقد جسّد الصحابة الكرام هذا المعنىٰ بأبهىٰ صوره، ففارقوا أوطانهم وأموالهم، وهاجروا في سبيل الله، ابتغاء رضوانه، ونصرة لدينه، دون أن تقف المشاعر أو المصالح حائلًا أمام استجابتهم لأمر الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٧].

وفي المقابل، تقاعس كفار قريش عن اتباع النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بسبب تشبّثهم بالأرض وخوفهم علىٰ مكاسبهم الدنيوية، كما وصفهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ﴾ [القَصَص: ٥٧]. فجعلوا أمن الوطن ومصالح الدنيا حاجزًا بينهم وبين الهداية، فاختاروا الضلال، وحُرموا نعمة الإيمان.

الإسلام لا ينكر فطرة محبة الأوطان، بل يُوجّهها، ويضبطها، ويرتقي بها، ويُعلّم المسلم أن يجعل محبة الله ورسوله فوق كل شيء، كما قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدَيْهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (١).

والمؤمن الحق يعلم أنَّ الدنيا كلها - بما فيها من أوطان وأموال ومساكن - هي دار ممرّ، لا مقرّ، وأنَّ الآخرة هي دار القرار، فلا يجوز أن يُؤثر زينة الحياة الدنيا علىٰ نور الهداية، أو يُقدم استقرار الجسد علىٰ حياة الروح.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (كتاب: الإيمان، حب الرسول ﷺ من الإيمان ح١٥، ١/ ١٤)، ومسلم في صحيحه، (كتاب: الإيمان، باب: وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد، ح٤٤، ١/ ٤٩).

فمحبة الديار لا تكون عائقًا إلا حين تُقدَّم علىٰ أمر الله، وحين تمنع الاستجابة لنداء الإيمان، فتتحوَّل إلىٰ فتنة. أمَّا إذا وُضعت في موضعها الصحيح، فإنَّها تكون باعثًا للبذل والتضحية، لا مانعًا من الطاعة.

والمؤمن إذا خُيّر بين وطنه ودينه اختار الدين؛ لأنَّ حب الأوطان لا يُثمر هداية، إلا إذا تأسس علىٰ طاعة الله لا علىٰ مخالفة أمره.

القسم الثاني: العوامل الخارجية الصادة عن الهدى:

كما تحيط السحب الكثيفة بالشمس فتحجب نورها، كذلك تحيط بالإنسان عوامل خارجية تصده عن الهداية، وتغمره في ظلمات الجهل، ومن أهمها:

أولاً: اتباع خطوات الشيطان: مدارج الانحدار نحو الضلال:

من أعظم ما حذّر الله تعالىٰ منه في كتابه الكريم: اتباع خطوات الشيطان، لما في ذلك من تدرج في الانحراف، وانزلاق تدريجي نحو الضلال، وصدٍّ عن الهداية. والمسلم مأمورٌ بسلوك طريق الاستقامة، والابتعاد عن كل ما يُفضي به إلىٰ الضلال والغواية.

وقد نهىٰ الله تعالىٰ في مواضع عدَّة من كتابه الكريم عن اتباع ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي سبل الشيطان وطرقه ووساوسه ونزغاته المضلة، مبيِّنًا خطر ذلك وآثاره الوخيمة علىٰ العبد، وتشير كلمة خطوات إلىٰ المسارات التدريجية التي يسلكها الإنسان عند الانحراف عن الحق، لا الوقوع الفجائي في المعصية؛ ممَّا يدلّ علىٰ خطورة التساهل مع البدايات، وإن بدت يسيرة، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٨].

فالأمر بالدخول في الإسلام كافة، أي التزامه في جميع جوانبه، لا يكتمل إلا بترك كل طريقٍ يُفضي إلىٰ ضده. وبهذا، جاء النهي عن اتباع خطوات الشيطان مباشرة، لما لها من أثر قاطع عن كمال الانقياد لأوامر الله.

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بذلك: اعملوا أيها المؤمنون بشرائع الإسلام كلها، وادخلوا في التصديق به قولًا وعملًا، ودعوا طرائق الشيطان وآثاره أن تتبعوها، فإنَّه لكم عدو مبين لكم عداوته. وطريقُ الشيطان الذي نهاهم أن يتبعوه هو ما خالف حكم الإسلام وشرائعه»[1].

واتبع هذا النهي بتأكيد عداوة الشيطان للإنسان وسعيه المستمر لإضلاله حتىٰ ينفر العقلاء من اتباع خطواته، في الآية السابقة، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأَنْعَام: ١٤٢]. فالهداية إلىٰ الحقِّ نعمةٌ عظيمةٌ يَمُنُّ الله بها علىٰ من يشاء من عباده، والشيطان عدوه يعمل بكل السبل لصد الناس عن ذلك الخير العظيم.

وقد بيّن الله تعالىٰ أنَّ تلك «الخطوات» ما هي إلا أبواب يُفتح منها باب المعصية والعدول عن الطريق القويم، قال سبحانه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٦٨ - ١٦٩].

---

(١) جامع البيان (٤/ ٢٥٨).

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النُّور: ٢١].

وفي هذه الآية إشارة صريحة إلىٰ أنَّ السير وراء هذه الخطوات لا يفضي إلا إلىٰ ما يسخط الله، من المعاصي الظاهرة والباطنة، ومن الفواحش والمنكرات.

فالتحذير ليس من الوقوع في الفاحشة مباشرة، وإنَّما من اتباع الطريق الذي يؤدي إليها، مهما بدا في أوله بريئًا أو مألوفًا؛ لأنَّ خطوات الشيطان متدرجة، تتسلل خفية، وتجر العبد شيئًا فشيئًا حتىٰ يُسلب نور الهداية من قلبه.

وقد نبَّه العلماء إلىٰ أنَّ هذه «الخطوات» تشمل: كل وسيلة، وكل طريق، وكل هيئة، وكل عادة، تُفضي بالإنسان إلىٰ التلبس بما حرّمه الله، وإن لم تكن محرمة في ذاتها. فإبليس وجنده لا يتركون بابًا للشر إلا طرقوه، ولا وسيلة للضلال إلا سلكوها، لإبعاد الإنسان عن طريق الله، كما قال تعالىٰ حاكيًا قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النِّسَاء: ١١٩ - ١٢٠].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [مُحَمَّد : ٢٥].

ومن هنا، فإنَّ التوجيه الإلهي بالابتعاد عن خطوات الشيطان هو توجيه للتحوّط من بوادر الانحراف، وهو أرقىٰ صور الوقاية الشرعية، فإنَّ الوقاية هي أسّ العلاج، فمن سلك طريق الفتنة تعذّر عليه الرجوع عند اشتدادها.

فالمسلم قد يكون في مأمن ما دام علىٰ يقظة، فإذا تساهل مع وساوس الشيطان وخطواته، جرّه ذلك إلىٰ الفتنة، وربَّما الغفلة الكاملة.

وإذ قد ثبت أنَّ الشيطان قد نصّب نفسه عدوًّا للإنسان، فإنَّ من مقتضىٰ العداوة أن لا يُؤمن له مسار، ولا يُتابَع له أثر.

ولهذا، فإنَّ من وسائل الثبات علىٰ الهداية والانقطاع عن كل ما يصدّ عنها: ترك الخطوات المؤدية للزلل، والحذر من التهاون بالمداخل الصغيرة التي قد تؤول إلىٰ عظائم الأمور، فالوقاية من الانحراف تبدأ بقطع الطريق علىٰ خطوات الشيطان من أصلها.

ثانيًا: التقليد الأعمىٰ للآباء: طمس البصيرة وسدّ أبواب الهداية:

من أبرز العوامل الخارجية الصادة عن الهداية التمسك بالتقاليد الموروثة دون وعي أو تمحيص، والانقياد لما عليه الآباء والأجداد علىٰ وجه التقليد الأعمىٰ، دون نظرٍ في الحقائق أو مراجعة للمعايير الشرعية والعقلية، ويُعد هذا النوع من الاتباع أحد أقدم صور الصدّ عن سبيل الله، حيث يحجب عن الإنسان نور التأمل ويغلق أمامه أبواب الحق. وقد حذَّر القرآن الكريم مرارًا من هذا السلوك، مبيِّنًا أثره الخطير في صرف الإنسان عن سبيل الله.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٠].

فالله تعالىٰ يبيِّن في هذه الآية خطورة التمسك بالتقاليد الموروثة دون اعتبار لمعيار الحق، فهؤلاء القوم يرفضون الوحي الإلهي لمجرد أنَّ آباءهم لم يكونوا عليه، حتىٰ وإن كانوا لا يملكون العقل الراجح أو الهداية الصحيحة.

وقال تعالىٰ في نفس المعنىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لُقْمَان: ٢١]، وهنا يتضاعف التحذير، إذ يُصوَّر هؤلاء بأنَّهم يسلِّمون أمرهم للموروث، حتىٰ لو كان من خلفه الشيطان نفسه، يدعوهم إلىٰ الهلاك.

ويؤكد هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ عن الأمم المكذبة عبر التاريخ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٢٣ - ٢٤]، فالتقليد الأعمىٰ كان سببًا في صدّهم عن دعوة المرسلين، حتىٰ مع مجيء البراهين الساطعة، فلم يمنعهم وضوح الحق من الإعراض عنه بسبب ما اعتادوه.

ويتضح من هذه الآيات أنَّ الاتباع غير الواعي لما عليه الآباء والأجداد يمثِّل حاجزًا نفسيًّا وعقليًّا أمام قبول الحق والهداية. فمن طبيعة الإنسان أنَّه يميل إلىٰ ما نشأ عليه واعتاد ممارسته، وقد يؤدي هذا الميل إلىٰ رفض التغيير حتىٰ عندما يكون التغيير مبنيًّا علىٰ أدلة واضحة وحجج دامغة.

وقد أيدت السنة النبوية هذا المعنىٰ، في التحرر من التقليد الأعمىٰ الذي لا يستند إلىٰ دليل، فقال النبي ﷺ: «لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا»[1] . وهذا الحديث يوضح أهمية التحقق من صحة الفعل وعدم اتباع الناس أو العادات دون تمييز بين الحق والباطل.

فهو تحذير من الانقياد للناس دون ميزان شرعي أو أخلاقي، ومنه يُفهم التحذير من الانقياد للموروثات دون تمييز بين ما وافق الحق وما خالفه.

إنَّ التقليد الأعمىٰ أحد أعظم الحُجب التي تحول بين الإنسان وبين نور الهداية، لذا فإنَّ المطلوب من طالب الحق أن يكون متجردًا من أغلال العادات، متحررًا من سلطان الموروث، مستندًا إلىٰ الدليل، حريصًا علىٰ تحكيم العقل والشرع، لا مجرد الوراثة والانتماء.

ثالثًا: الطاعة العمياء للسادة والكبراء؛ مانع للهداية ومُنزلق إلىٰ الضلال:

من الموانع الخارجية التي تصدّ الإنسان عن الهداية، وتحرمه نعمة الاستقامة علىٰ منهج الحق، الطاعة المطلقة للسادة والكبراء من الملوك والأمراء وأصحاب الجاه والسلطة، دون تمييز بين ما يُرضي الله وما يُخالف أمره. وهذه الطاعة، التي قد تُبنىٰ علىٰ الخوف من البطش أو الطمع في المكاسب الدنيوية، تُعد من أخطر صور الانقياد البشري التي تُفضي إلىٰ الانحراف العقدي والفساد السلوكي.

(١) أخرجه الترمذي في سننه (ح٢٠٠٧، ٤/ ٣٦٤)، وقال: حسن غريب.

وقد حذَّر القرآن الكريم من هذا المسلك الخطير، حين صوّر عاقبة الانقياد الأعمىٰ للكبراء والسادة في مشهد تهتز له القلوب وتقشعر له الأبدان، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأَحْزَاب : ٦٦ – ٦٧].

ففي لحظة الحساب، لا يجد هؤلاء ما يبرر ضلالهم سوىٰ تلك الطاعة المطلقة التي قدّموها لزعمائهم، طاعةً ألغوا بها عقولهم، وكمَّموا بها أفواه ضمائرهم، فقادهم أولئك إلىٰ المهالك، وأوردوهم موارد الخسران في الدنيا والآخرة.

ويُبرز القرآن حقيقة هذه العلاقة بين المتبوع والمتبع، في حوار مؤلم بين الطغاة وأتباعهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سَبَإ : ٣٢ – ٣٣].

فالمشهد يبيِّن مسؤولية مزدوجة، إذ لا يُعفىٰ الضعفاء من تبعتهم؛ لأنَّهم تنازلوا عن وعيهم، وأعرضوا عن التمييز بين الهدىٰ والضلال، واختاروا طريق التبعية العمياء، فاستحقوا العقوبة كما استحقها من أضلوهم.

ومن أبرز النماذج القرآنية الدالة علىٰ خطورة الطاعة العمياء للسادة والكبراء ما جاء في قصة فرعون وملئه، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هُود: ٩٦ - ٩٧].

فرغم وضوح البراهين وظهور سلطان موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، استطاع أن يُضل قومه بتسلطه وتزييفه للحق، فاستجابوا له انقيادًا لا عقل فيه ولا بصيرة، فكان عاقبتهم الهلاك معه. وهذه الطاعة المطلقة التي استندت إلىٰ الخوف أو الانبهار بالسلطان، لم تنفعهم ساعة الحساب، ولم تشفع لهم في النجاة من المصير المحتوم.

وتأتي السنة النبوية لتؤسس قاعدة شرعية واضحة في هذا الباب، بأنَّ الطاعة إنَّما تكون في المعروف فقط، لا في معصية الله، وتحذر من الانقياد الأعمىٰ للزعماء دون بصيرة، ومن ذلك: ما جاء عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: (بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمَرَكُمُ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَىٰ، قَالَ: فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، فَقَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوهَا، فَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَهَمُّوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا، وَيَقُولُونَ: فَرَرْنَا إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّارِ، فَمَا زَالُوا حَتَّىٰ خَمَدَتِ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ)[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (كتاب: المغازي، باب: سرية عبد الله بن حذافة السهمي، ... ح٤٠٨٥، ٤/ ١٥٧٧)، ومسلم في صحيحه، (كتاب: الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ح١٨٤٠، ٦/ ١٦).

فهذا الحديث يضع قاعدة أساسية في الطاعة، وهي أنَّ الطاعة لا تكون مطلقةً، بل مشروطة بكونها في المعروف، أي فيما يوافق شرع الله.

ويعزز هذا المبدأ ما جاء عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ. قَالُوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: لَا، مَا صَلَّوْا»[1].

فالإنكار وعدم الرضا هما صمام الأمان من الوقوع في هذا الفخ، أمَّا الرضا والتبعية العمياء فهما طريق المهلكة.

فهذه النصوص تدلُّ بوضوح علىٰ ضرورة التمييز بين الحق والباطل، وألَّا يكون الإنسان إمَّعةً يتبع أي قيادة دون تمحيص أو تدبر.

إنَّ هذه الطاعة المطلقة تمثِّل نوعًا من التأليه البشري الخفي؛ إذ يُجعل المخلوق مصدر التشريع والطاعة حتىٰ في الباطل، وهذا يناقض مقتضىٰ التوحيد، الذي يجعل الولاء المطلق لله وحده. فالحق لا يُعرف بالأشخاص، بل يُعرف بالدليل، ومخالفة هذا الأصل تقود إلىٰ ضلالٍ محكم، يكون صاحبه فيه تابعًا لا واعيًا، ومأمورًا لا مميّزًا.

يتبيَّن ممَّا سبق، أنَّ الطاعة ليست مطلقة، بل هي مقيدة بشرع الله، فلا تكون إلَّا في المعروف، فإذا تعارضت طاعة الله مع طاعة المخلوق، فالمقدم هو طاعة الله بلا شك؛ لأنَّ طاعة المخلوق تابعة لطاعة الخالق، ولا يجوز

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، (كتاب: الإمارة، باب وجوب الإنكار علىٰ الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا ونحو ذلك ح١٨٥٤، ٦/ ٢٣).

للإنسان أن يتبع القادة والسادة في الباطل أو أن يرضىٰ بالظلم؛ لأنَّ ذلك يؤدي إلىٰ الضلال في الدنيا والعذاب في الآخرة. وعلىٰ المسلم أن يكون واعيًا في طاعته، وأن يجعل ولاءه المطلق لله ورسوله، متبعًا الحق أينما كان.

رابعًا: اتباع الكفار وموالاتهم: ضياع الهوية وصد عن الهدىٰ:

يُعدُّ اتباع الكفار وموالاتهم من العوامل الخطيرة المانعة من الهداية، لما فيه من تهديد مباشر لعقيدة المسلم وهويته، وما يترتب عليه من ضلال وانحراف عن الصراط المستقيم؛ لذا جاءت نصوص الوحي بالتحذير الشديد من هذا المسلك، لما ينطوي عليه من خطر علىٰ الإيمان والانتماء. قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٤٩].

وقد حذّر القرآن الكريم مرارًا من هذه الآفة، فبيّن أنَّ الكفار لا يرضون عن المؤمنين حتىٰ يتركوا دينهم ويتبعوا ملتهم، وأنَّ طاعتهم تقود إلىٰ الخسارة والضلال، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البَقَرَة : ١٢٠] .

فقد بيَّن الله تعالىٰ في هذه الآية أنَّ اليهود والنصارىٰ لا يرضون عن المسلمين إلَّا إذا تركوا دينهم واتبعوا طريقهم واتبعوا ملَّتهم، وأنَّ اتباعهم سببٌ في الانحراف والبعد عن الهداية، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [آل عِمْرَان : ١٠٠] فبين تعالىٰ في هذه الآية أنَّ طاعة أهل الكتاب قد تكون سببًا في وقوع المسلم في الرِّدَّة عن دينه.

ولم تقتصر النصوص على التحذير من الاتباع، بل شدّدت في النهي عن الموالاة، فإنَّ موالاتهم تُفضي إلى الوقوع في خطر التشبه بهم، ومن ثمّ الذوبان في ثقافاتهم وأفكارهم الباطلة، فقال تعالى في التحذير من اتباع أهل الكفر والضلال:

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المَائِـدَة : ٥١ – ٥٢].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عِمْرَان: ٢٨] .

فهذه الآيات فيها تهديد شديد لمن يوالي الكفار، حيث جعل الله موالاتهم علامةً على الانتماء إليهم.

كما حذّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تقليد الكفار واتباع طرائقهم، فقد جاء عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شبراً بشبر وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ). قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قال: (فمن)» [(١)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي ﷺ: (لتتبعن سنن من كان قبلكم) ح٦٨٨٩، ٦/ ٢٦٦٩)، ومسلم في صحيحه، (كتاب: العلم، باب: اتباع سنن اليهود والنصارى، ح٢٦٦٩، ٨/ ٥٧).

فالتَّشبُّه الظاهري مؤشر علىٰ تقارب باطني يُفضي إلىٰ التماهي العقائدي والثقافي، وهو من أخطر أسباب الانسلاخ عن الهداية، وفي هذا تحذير واضح من تقليد الكفار في أمورهم، سواء في العقائد أو في السلوكيات المخالفة للشرع.

يتَّضح ممَّا سبق، أنَّ اتباع الكفار والموالاة لهم في الدين خطر عظيم يؤدي إلىٰ فساد العقيدة وانحراف المسلم عن صراط الله المستقيم. ولذا، يجب علىٰ المسلمين التمسك بالكتاب والسنة، والثبات علىٰ دينهم، والاعتزاز بعقيدتهم وهويتهم، وعدم الانسياق وراء تقليد الكفار فيما يخالف دين الله، فقد قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ٣]. فاتباع الوحي هو سبيل النجاة، وأمَّا اتباع الكفار وموالاتهم فهو انحراف عن المنهج، وخروج عن دائرة الهداية.

خامسًا: الصحبة الفاسدة؛ تأثير خفيّ يصدُّ عن الهدىٰ ويجرّ إلىٰ الغواية:

إنَّ للرفيق تأثيرًا بالغًا علىٰ رفيقه، فالصاحب ساحب؛ إمَّا أن يكون ساحبًا إلىٰ الخير، ودليلًا إلىٰ الهداية، وإمَّا أن يكون ساحبًا إلىٰ الشر وسببًا في الضلال، وحاجزًا أمام طريق الحق، وقد أكَّد الشرع الحكيم علىٰ هذه الحقيقة في العديد من نصوصه، موضحًا أثر الصحبة، ومدىٰ تأثيرها في الإنسان، وبيَّن أنَّ رفقاء السوء أحد أعظم موانع الهداية، حيث يصدون عن السبيل، ويزيِّنون الباطل، ويجرّون الإنسان إلىٰ المعاصي بعد أن ذاق حلاوة الطاعة.

وقد بيَّن القرآن الكريم في عدة مواضع تأثير رفقاء السوء علىٰ الإنسان، ومن أبرز هذه المواضع قوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ

يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩

[الفُرْقَان : ٢٧ - ٢٩].

هذه الآيات تصور مشهدًا مروِّعًا من الندم والحسرة يوم القيامة من الذين اختاروا رفقاء السوء، إذ كانوا سببًا في ضلالهم وإبعادهم عن الطريق المستقيم.

كما حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تأثير الصحبة السيئة على الإنسان، وذلك في الحديث المشهور عن أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ والسَّوء، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحذيَك، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحرق ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تجد ريحًا خبيثة» [(١)]. ففي هذا التشبيه النبوي البليغ، يوضح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف أنَّ الرفيق الصالح ينفع صاحبه في كل حال، في حين أنَّ الجليس السوء لا يجلب له إلَّا الضرر.

وأكد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا هذا المعنى في قوله: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» [(٢)]. وهذا الحديث يبيِّن أنَّ الإنسان يتأثَّر بقرينه، فإذا كان صالحًا ارتقى، وإذا كان فاسدًا هبط.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (كتاب: الذبائح والصيد والتسمية على الصيد، باب: المسك ح رقم ٥٥٣٤، ٧/ ٩٦)، ومسلم في صحيحه، (كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء رقم ٢٦٢٨، ٨/ ٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (ح٤٨٣٣، ٤/ ٢٥٩)، والترمذي في سننه (ح٢٣٧٨، ٤/ ٥٨٩)، وقال: حديث حسن غريب.

وكما حذَّر الله تعالىٰ من رفقاء السوء، حذَّر من مجالسة أهل السوء والفساد، فبيَّن أنَّ مصاحبتهم تصد عن سبيل الله وتمنع الإنسان من الهداية، حيث قال سبحانه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النِّسَاء : ١٤٠] .

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأَنْعَام : ٦٨] .

فهذا التحذير من مصاحبة أهل الضلال والفساد، لأنَّهم يصدون عن سبيل الله ويجرُّون الإنسان إلىٰ الانحراف. فمن يجالس أهل الباطل ويخالطهم دون إنكار، فإنَّه يصبح مثلهم في الإثم.

إنَّ العاقل يتجنَّب رفقة أصحاب الأمراض المعدية حفاظًا علىٰ صحته البدنية، فكيف به إذا كانت الصحبة مع من يمتلك قلوبًا مريضة ونفوسًا نجسة؟ فقد حذَّر القرآن الكريم من ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأَحْزَاب : ١٢].

فرفقاء السوء يشكلون خطرًا حقيقيًّا علىٰ إيمان الإنسان، ويكونون سببًا في إبعاده عن الهداية. فإنَّ الصحبة الصالحة تُعدُّ من أبرز مفاتيح الهداية، في حين الصحبة السيئة تعد من أعظم موانعها. لذلك، يجب علىٰ المسلم أن يتحرَّىٰ بعناية من يختار رفقتهم ويحرص علىٰ مصاحبة من يعينه علىٰ طاعة الله ويقوده إلىٰ الطريق المستقيم.

فإنَّ الإنسان يتأثَّر بقرينه، فإذا كان رفيقه صالحًا، ارتقىٰ في دينه، وإذا كان فاسدًا، انحرف عن الطريق الصحيح. وإذا أردت معرفة حال الإنسان فانظر إلىٰ من يصاحب، والحكمة العربية تقول: «قل لي من تصاحب أقل لك من أنت»[1].

ومن هذا المنطلق، يجب علىٰ المسلم أن يتحرَّىٰ رفاقه بعناية، وأن يحرص علىٰ الصحبة التي تقربه من الله، وتعينه علىٰ طاعته، فالصاحب الصالح يرفع من شأن صاحبه، ويقوده إلىٰ الهداية، في حين رفقاء السوء يشكلون تهديدًا كبيرًا علىٰ دينه واستقامته.

سادسًا: الواقع الاجتماعي الفاسد؛ صناعة ممنهجة للصد عن الهدىٰ:

يُعدّ الواقع الاجتماعي ـ بما يحمله من ثقافات سائدة، وأعراف متراكمة، وآراءٍ جماعيةٍ متبناة- من أبرز المؤثرات الخارجية التي تصدّ كثيرًا من الناس عن سلوك سبيل الهدىٰ، إمَّا بتشويه صورة الدعوة وأهلها، أو بفرض نماذج فكرية وسلوكية منحرفة تُمجّد الضلال وتُقصي الحق، فتُنتج بيئة طاردة للهداية، ومانعة من التفاعل مع خطاب الحق والإصلاح، خاصة نحن في زمان تطورت فيه وسائل الإعلام والتواصل، وسهل فيه التشويه وصناعة الرأي العام.

وقد نبّه القرآن الكريم إلىٰ خطورة هذا العامل، حيث عرض نماذج من الأقوام السابقة الذين حال الواقع الاجتماعي بينهم وبين الاستجابة لدعوة أنبيائهم، لا لضعف الحجة، ولكن لانقيادهم للأغلبية، أو استسلامهم لما هو سائد في مجتمعاتهم، فقال تعالىٰ حكاية عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ

(١) تفسير المنتصر الكتاني (٥/ ٣١٦).

وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأَعْرَاف : ٧٠].

فكان التقليد الأعمىٰ للمجتمع، والانجذاب للواقع الموروث، أحد أعظم موانع الاستجابة للهدىٰ.

ومع أنَّ الهداية دعوة قائمة علىٰ البصيرة، والحق له براهينه الساطعة، إلَّا أنَّ تأثير الجماعة قد يُعطّل نور البصيرة، ويكبِّل المرء بأغلال الانقياد لما هو شائع، ويبقىٰ الإنسان أسيرًا لشبهات المجتمع وما يقوله ويتوارثه من أقوال، قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذَّارِيَات : ٥٢ – ٥٣].

وفي هذا السياق، لا يمكن إغفال ما يمارسه المجتمع من تشويه متعمد لصورة الدعاة والدعوة، وترويج للشبهات والاتهامات التي تصد الناس عن الإصغاء للحق، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأَنبِيَاء : ٣٦].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾ [الفُرْقَان : ٤١ – ٤٢].

فهذا الخطاب الجماعي ـ الذي ينضح بالسخرية والتقليل من شأن الدعاة ـ يُستخدم لصرف الناس عن قبول الدعوة، لا لمجرد الجدل، وإنَّما لإنتاج حاجز نفسي يمنع التلقي والتفاعل.

فإنَّ من أعظم ما يعين المسلم علىٰ النجاة من أثر هذا العامل أن يزن الأمور بميزان الشرع، لا ميزان الجماعة، وأن لا يجعل من قبول الناس أو

رفضهم مقياسًا للحقيقة، بل يسعىٰ في طلب الهداية بيقين وتجرّد، ويجعل لنفسه من العلماء الربانيين والمصلحين الصادقين مرجعيةً يهتدي بها، بعيدًا عن ضجيج الرأي العام وأهواءه.

سابعًا: مؤسسات الضِّرار؛ عباءة دينية تُخفي مقاصد الإفساد:

من أبرز العوامل الخارجية التي تعيق الهداية وتصد عنها: نشوء مؤسسات تتخذ من الدين ستارًا لأهداف منحرفة، فتستغل المشاعر الدينية للناس بغية تضليلهم وصرفهم عن المنهج القويم. وتُعدّ هذه الظاهرة امتدادًا لسلوك المنافقين الذين حكىٰ القرآن الكريم عن صنيعهم حين بنوا مسجدًا اتخذوه وسيلة للإضرار بالمسلمين، وتفريق صفهم، وإيواء أهل الكفر والزندقة، فنهىٰ الله تعالىٰ عن المشاركة فيه أو دعمه، لأنَّه قائم علىٰ أسس تخالف مقاصد الشريعة، قال تعالىٰ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التَّوْبَة : ١٠٨].

ثم قال جل شأنه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التَّوْبَة : ١٠٨ – ١٠٩].

تنبه الآيتان الكريمتان إلىٰ خطرٍ عظيم يتمثل في المؤسسات التي تُرفع باسم الدين وتُزيَّن بالخير، بينما حقيقتها الخراب والإفساد، كما في مسجد الضرار الذي اتُّخذ وسيلة للإضرار والتفريق والتأليب علىٰ المؤمنين.

فقد يكون ظاهر المؤسسة عبادةً أو دعوةً أو إصلاحًا، لكنها في حقيقتها نُصبت علىٰ باطل، وأسِّست بنوايا ملوَّثة ومقاصد منحرفة، فتكون سببًا في صد الناس عن الهداية، لا في هدايتهم. ومن هنا جاء التحذير الرباني: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، فليس المعيار في ظاهر العمل، بل في أساسه ومقاصده وثمارِه، ولذلك قال تعالىٰ في الآية السابقة:

﴿ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ ﴾، فالعبرة بالتأسيس علىٰ التقوىٰ لا علىٰ الشقاق.

والمعنىٰ: أن حسن الظاهر لا يشفع لفساد الباطن، وأن الواجب علىٰ أهل البصيرة التثبت من مقاصد المؤسسين، وميزان ذلك التقوىٰ لا الشعارات، فكم من مؤسسة رفعت شعار الدين، وكانت في جوهرها أداة للهدم والتفريق والتضليل، تؤول بأصحابها إلىٰ »شفا جرفٍ هارٍ فانهار بهم في نار جهنم«.

فما أشبه الأمس باليوم! فكما كان في صدر الإسلام من يبني المساجد للإضرار بالمسلمين، فقد ظهرت في هذا العصر المؤسسات المشبوهة التي تتستر بالإسلام وتعمل علىٰ تضليل الناس وصرفهم عن منهج الله القويم، ظاهرها الرحمة وباطنها من قبله العذاب، تتبنَّىٰ الأطروحات المنحرفة، وتبثّ الشبهات الفكرية، وتشيع البدع والانحرافات العقدية والسلوكية، وتعمل علىٰ إثارة الفتن وتفريق كلمة المسلمين، وتعمل علىٰ تبغيض الناس في الدين والمتدينين، وإضعاف الثقة في العلماء والدعاة المخلصين.

وقد حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الفتن والدعاة المضلين، كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:«سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي أُنَاسٌ يُحَدِّثُونَكُمْ مَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ »[1].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، (مقدمة المصنف، باب: في الضعفاء والكذابين ومن يرغب عن حديثهم ح١، ٦/ ٩).

وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ هناك دعاة على أبواب جهنم يلبسون الحقّ بالباطل، فقال: «دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»[1].

ولهذا، فإنَّ الواجب على المسلم أن يتعامل بحذر مع المؤسسات العاملة في المجال الديني والإنساني، وألّا يغترّ بكل من يرفع شعارات الإسلام أو مساعدة الإنسانية، فإنَّ كثيرًا منها قد يُخفي تحت عباءة الدين والعمل الإنساني أجندات تضليلية تهدف إلى صرف الناس عن سبيل الله. ولا بدَّ في هذا الباب من الرجوع إلى العلماء الربانيين، المعروفين بسلامة الاعتقاد وثبات المنهج، لتمييز الحق من الباطل، والتثبت من مصداقية هذه الكيانات قبل الانخراط في دعمها أو الترويج لها.

فكم من مؤسسة ظاهرها الصلاح، وحقيقتها الضرار، تبثّ البدع والانحرافات، وتطعن في ثوابت الدين ورموزه، وتكون سببًا في صد الناس عن الهداية وهم لا يشعرون. ومن لم يتحرّ في هذا الباب، فقد يكون من ضحايا التضليل، دون أن يدرك أنَّه يُسهم في مشروع يُقوّض الدين من داخله. لذا، كان الوعي بهذه المؤامرات، والبصيرة في التعامل مع مظاهر التدين المصطنع، من تمام الفقه في الدين، ومن أعظم ما يُستعان به على الثبات على الهداية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (كتاب: الفتن، باب: كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ح٦٦٧٣، ٦/ ٢٥٩٥)، ومسلم في صحيحه، (كتاب: الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر ح١٨٤٧، ٦/ ٢٠).

العوامل الصَّادة عن الاستهداء بالهدى

العوامل الداخلية الصادة عن الهداية

- قسوة القلب
- اتباع الهوى
- الكِبْر والغرور
- الجهل
- ترك السنة
- الغفلة
- الحسد والحقد
- الركون إلى الدنيا
- الخوف من الناس
- محبة الدينار

العوامل الخارجية الصادة عن الهداية

- خطوات الشيطان
- التقليد الأعمى للآباء
- الطاعة العمياء للسادة والكبراء
- اتباع الكفار وموالاتهم
- الصحبة الفاسدة
- الواقع الاجتماعي الفاسد
- مؤسسات الضلال

المبحث الثَّالث

عواقب الصَّد عن الاستهداء بالهدى

يُعدُّ الصدّ عن الاستهداء بالهدىٰ من أعظم الجرائم المعنوية التي يرتكبها الإنسان في حق نفسه وفي حقِّ غيره؛ لما يترتَّب عليه من آثار جسيمة تطال الأفراد والمجتمعات، وتفضي بهم إلىٰ سبل الغواية والضلال، وتُبعدهم عن طريق الحقّ والصلاح. فهذا الصدّ لا يقتصر علىٰ كونه موقفًا سلبيًّا تجاه الهداية، بل يتعدّىٰ ذلك ليكون مقاومة فعّالة للحقِّ، وتعطيلاً مقصودًا لمسار الهداية في النفس أو في غيرها.

وقد عالج القرآن الكريم هذا الانحراف بوصفه من أصول الفساد الكبرىٰ التي تستوجب العقوبة، ورتّب عليه نتائج وعقوبات متنوعة في الدنيا والآخرة، تمسّ أعماق الكيان الإنساني، وتمتد إلىٰ مصيره الأبدي. وهذه العواقب ليست مجرد آثار عرضية، بل هي سنن إلهية جارية، تُجسد عدل الله في خلقه، وتحذّر من مغبّة الانحراف عن نور الوحي.

وفيما يأتي بيان لأبرز هذه العواقب التي تكشف خطورة هذا الصدّ، وتُبرز آثاره المدمّرة علىٰ مستوىٰ الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة:

أولاً: الطبع على القلوب وحرمان نور الهداية:

من أعظم العواقب التي تترتب علىٰ الصدّ عن الاستهداء بالهدىٰ، أن يُحرم الإنسان من أعظم نعمة يمكن أن ينالها، وهي نعمة الهداية. فالصدّ عن الحقِّ لا يمرّ دون آثار باطنة عميقة، إذ يؤدي إلىٰ انطماس البصيرة، وانغلاق

القلب، وانسداد منافذ الاستقبال المعرفي والوجداني للحقِّ. فيُبتلىٰ الإنسان بطبعٍ علىٰ قلبه وختمٍ يمنعه من الاهتداء مستقبلًا، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصَّف : ٥]. وقال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المَائِدَة : ١٣].

وهذا التعبير القرآني البليغ يُبرز العلاقة التبادلية بين الانحراف الإرادي عن الحقِّ (الزيغ) وبين العقوبة الربانية المقابِلة (الإزاغة)، وهي نوع من العقاب المعنوي يتمثل في سلب قابلية القلب للهداية، وإغلاق منافذ الفهم والتأثُّر.

قال ابن كثير في وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ أي: فلمَّا عدلوا عن اتباع الحقِّ مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدىٰ، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأَنْعَام:١١٠] ، وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النِّسَاء : ١١٥] ولهذا قال الله تعالىٰ في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: لمَّا عدلوا عن الحقِّ مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدىٰ، وأسكنها في الضلال، جزاء وفاقًا»[1].

ويقول الله تعالىٰ في موضع آخر: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [التَّوْبَة : ١٢٧].

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٠٩).

هذه الآية تُعدّ شاهدًا صريحًا علىٰ ما سبق تقريره في الحديث عن الطبع علىٰ القلوب وحرمان الهداية، فهي تجسد سنّة من سنن الله في الذين يستهينون بالوحي ويتعاملون معه بسخرية أو جفاء، ويعملون علىٰ صرف غيرهم عن الحقِّ: أن يُصرفوا عنه صرفًا، فيُغلق باب الهداية في وجوههم بسبب سوء استعدادهم وسابق انحرافهم.

وقال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّسَاء : ١٥٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [مُحَمَّد : ١٦] .

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غَافِر : ٣٥] وغيرها من آيات.

ومن خلال هذه السنة الإلهية يتَّضح أنَّ أخطر ما في الصد عن الهداية، أنَّه لا يقتصر علىٰ أثر لحظي أو آني، بل قد يكون مدخلًا لعقوبات باطنية متراكمة، يُحرم بها العبد من الفهم، ثم من الإيمان، ثم من النجاة.

ثانياً: تحمُّل أوزار المضلِّين ونشر الفساد:

الصدُّ عن الاستهداء بالهدىٰ لا يقف عند حدود الضرر الذاتي، بل يتعدّاه ليصبح جرمًا مركّبًا، إذ يتحوّل صاحبه من مستقبِل للضلال إلىٰ مصدر له، ومن عاثر في طريق الهداية إلىٰ معوِّق لها، فيَحمل أَوزار نفسه، ويتكفّل بأوزار من أُضِلُّوا بسببه، في سلسلة من الإثم المتعدِّي لا تنقطع آثارها.

إنّ خطورة هذا النوع من الصدّ تتجلّىٰ في كونه نشرًا ممنهجًا للفساد، وعدوانًا مباشرًا علىٰ مقاصد الهداية الربانية، وذلك بتعويق الناس عن الحقِّ، وتشويه صورته، والتشجيع علىٰ الباطل قولًا وسلوكًا وترويجًا. ومن هذا الباب، كان هذا الصنف من أعظم المفسدين في الأرض، المستحقين للعقاب المركّب.

وقد نبّه القرآن الكريم إلىٰ هذه العاقبة الخطيرة في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النَّحل : ٢٥].

فجمع الله لهم بين وِزر الضلال الذاتي ووِزر التضليل الجماعي، عقوبةً علىٰ صنيعهم الذي قطّع طريق الهداية، وفتح أبواب الغواية.

وقد بيَّن تعالىٰ في آية أخرىٰ عاقبة هذا الصَّدّ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّسَاء: ١٦٧].

فكان صدّهم مضاعفًا: كفر وإضلال، وبهذا استحقّوا الضَّلال البعيد، أي البعيد عن إمكان النجاة أو الرجوع.

وقد بيّن النبي ﷺ أنَّ الدعوة إلىٰ الضلال من أخطر الذنوب؛ لأنَّ الإنسان لا يتحمل فقط وزره، بل يحمل أوزار غيره ممَّن تبعه.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا» (١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، (كتاب: العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلىٰ هدىٰ أو ضلالة ح٢٦٧٤، ٨/ ٦٢).

وهذا الحديث يوضِّح عدل الله تعالىٰ في الحساب، فكما أنَّ الداعي إلىٰ الخير يأخذ أجرًا عظيمًا، فإنَّ الداعي إلىٰ الشَّرِّ يتحمَّل الوزر العظيم، ويتحمَّل آثام كل من تأثَّر به وسار علىٰ طريق الضَّلال.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محذِّرًا من السنن السيئة التي يبتدعها الناس وتصبح سببًا في ضلال غيرهم: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» (١).

وهذا تحذير خطير لمن ينشر الفساد، ويدعو الناس إلىٰ المعاصي، سواء كان ذلك بفعله، أو بكلامه، أو بتشجيعه علىٰ الحرام، فإنَّ وزره يتضاعف بقدر تأثيره في غيره.

فمن صَدَّ عن سبيل الله بلسانه أو فعله أو قلمه أو منصَّاته أو نفوذه، كان مفتاح شرّ، وامتدّ ضرره في الأمَّة فسادًا وتيهًا، وكان حسابه عند الله علىٰ قدر هذا الامتداد.

إنَّ هذه النصوص والسنن الربانية ترسم صورة دقيقة للمُضلّ، لا كمذنب معزول، بل كفاعل ممتدّ في الزمان والمجتمع، وتؤسس لمبدأ المسؤولية الجماعية للأثر، وتحذّر من أن يكون الإنسان لبنةً في بناء الباطل أو قاطِعًا لطريق الهدىٰ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، (كتاب: العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلىٰ هدىٰ أو ضلالة ح١٠١٧، ٨/ ٦١).

ثالثاً: التلبّس بصفات الشيطان وأعوانه:

من أعظم عواقب الصدِّ عن الاستهداء بالهدىٰ أن يُورث صاحبه التلبُّس بصفات الشيطان، والانخراط ضمن منظومته الإفسادية، فيكون شريكًا له في الوظيفة والدور، وامتدادًا لفعله عبر الزمان والمكان، فالشيطان هو أول من صدَّ عن سبيل الله، وجعل مهمته في هذه الحياة صرف الخلق عن الصراط المستقيم، بكل وسيلة ممكنة، كما اعترف بذلك في خطابه الذي سجّله القرآن بقوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٦ – ١٧].

فالصادّ عن الهداية، حين يصدّ غيره عن الحقِّ، أو يزيِّن الباطل، أو يضلّل السالكين، إنَّما يعمل علىٰ خطىٰ إبليس، ويسلك ذات الطريق الذي اختاره لنفسه عداوةً لله وصدًّا لعباده عن صراطه المستقيم. وقد بيّن الله عَزَّوَجَلَّ طبيعة هذه المهمة الشيطانية بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٦٩].

فكل من يسهم في تعطيل الهداية، أو يصرف الناس عن طريقها، أو يُشيع الفساد في الأرض، فهو يعمل ضمن المشروع الإبليسي، ويُعَدّ من أعوانه.

بل إنَّ القرآن يصف من يتولىٰ الشيطان بأنَّه جزءٌ من جنوده وأوليائه، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المُجَادلَة: ١٩].

فالصادّ عن الهدىٰ، بإرادته واختياره، يتحوّل إلىٰ أداة شيطانية فعّالة، تُعيد إنتاج الباطل في صور متعددة، وتقطع الطريق علىٰ الباحثين عن الهداية، فيُضِلّ ويُضلّ، ويهدم ما تبنيه دعوات الإصلاح، فيخسر دنياه وآخرته، ويُكتب في سجلّ حزب الشيطان الذين توعّدهم الله بالخسران والهلاك.

رابعاً: التَّشبُّه بالمنافقين والكافرين:

إنَّ من أعظم أوجه الخسران في الدنيا والآخرة أن يتشبَّه المرء بأعداء الله من المنافقين والكافرين، فيسلك مسالكهم، ويتقمَّص خصالهم، ويكون شبيهًا بهم في القول والعمل والمقصد، ولو لم ينتسب إليهم في الظاهر.

والصدّ عن الاستهداء بالهدىٰ من أبرز ما يشترك فيه المنافقون والكفار، بل هو من أبرز سماتهم في القرآن الكريم؛ إذ يجمعهم الحرص علىٰ تعطيل الهداية، وصرف الناس عن دين الله، ومقاومة الحقِّ وأهله.

وقد وصف الله المنافقين بقوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التَّوْبَة : ٦٧].

فهم يبدّلون الفطرة، ويعكسون معايير الحقِّ، ويجعلون من أنفسهم سدًّا أمام وصول النور إلىٰ القلوب، وهذا هو جوهر الصدّ عن سبيل الله.

كما وصف الكافرين بأنَّهم يخرجون بطرًا ورياءً ويصدون عن سبيل الله، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأَنفَال : ٤٧] .

وقال في سياق آخر جامعٍ بين الكفر والصدّ عن الأماكن المقدسة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحج: ٢٥].

فهذه الصفات إذا اجتمعت في أحد، أو تشبّه بها، كان علىٰ خطر عظيم، إذ يُخشىٰ عليه من أن يُحشر مع القوم الذين أحبّ طريقتهم وسلك سبيلهم، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[1].

ولذا، فإنَّ الصادّ عن سبيل الله، الناهي عن الهداية، العامل علىٰ تزييف الحقائق وتشويه معالم الدين، قد وضع نفسه في منزلة لا تليق إلا بالمنافقين والكافرين، وحُقَّ له أن يُختم له بخاتمتهم ويُبعث معهم.

خامساً: إحباط الأعمال وفقدان رصيد الطاعة:

من أعظم ما يترتَّب علىٰ الصدّ عن سبيل الله تعالىٰ من عواقب مهلكة، أن يُحبط به عمل الإنسان مهما اجتهد، ويضيع عليه ما قدّم من طاعةٍ أو معروف، فلا يُقبل منه شيء، ولا يجد له عند الله وزنًا. وهذا جزاء من عاند الهدىٰ بعد معرفته، وأعرض عن سبيل الحقِّ، بل وصدّ عنه غيره.

وقد نصّ القرآن الكريم علىٰ هذا الحكم الصريح في مواضع متعددة، منها قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [مُحَمَّد: ٣٢].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (ح٤٠٣١، ٤/ ٤٤)، وقال الألباني: حسن صحيح.

فهذا نصٌّ قاطع يبيّن أنَّ صدّ الناس عن الهدىٰ بعد تبيُّنه من أعظم أسباب إحباط العمل، ولا يُرجىٰ بعده أجر، ولا يُبنىٰ عليه ثواب.

ويؤكِد الله جَلَّجَلَالُهُ هذا المعنىٰ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [مُحَمَّد : ٨ - ٩].

فقد جمعوا بين الكفر وكره ما أنزل الله، والصدّ عن سبيله، فكان الجزاء أن أحبط ما عملوا، ولم يُكتب لهم عند الله شيء.

بل بيّن تعالىٰ أنَّ هذا الإحباط ليس عارضًا، بل هو نتيجة طبيعية للانحراف عن مراد الله وسلوك ما يُسخطه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [مُحَمَّد : ٢٨].

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ من صدَّ عن الهدىٰ، أو كره ما أنزله الله، أو اتّبع ما يُسخطه، فإنَّ عمله مهدور، ولا يُنتفع به، وإن كثر ظاهره.

فالصدُّ عن الهدىٰ لا يحرم المرء من الهداية فحسب، بل يُسقط ما مضىٰ من الصالحات، ويجعل العبد مفلسًا يوم القيامة، لا يجد في صحيفته ما يُثقل ميزانه، بل يجد الخذلان والبوار.

سادساً: انتشار الفساد وتعطيل مصالح الناس الدنيوية:

إنَّ من أخطر آثار الصَّدِّ عن سبيل الله تعالىٰ ما يترتَّب عليه من فساد عريض يتغلغل في بنية المجتمعات، ويطال شتّىٰ مناحي الحياة. فحيثما انتشر الصَّدّ عن الحقِّ، عمَّ الظلم، وضاعت الحقوق، وانهارت القيم والأخلاق، واضطربت الموازين، وتعطَّلت المصالح والإصلاح، وخرب الاقتصاد، وتدهورت أحوال الناس في دنياهم، فضلًا عن خسرانهم في أخراهم.

فالذين يصدّون عن سبيل الله لا يكتفون بضلال أنفسهم، بل يسعون في الأرض لإطفاء نور الحقِّ، وتشويه معالمه، ومحاصرة دعاته، ونشر الباطل في صور برَّاقة تُغري الغافلين، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [هُود:١٩].

إنَّ هؤلاء الذين يصدّون عن سبيل الله تعالىٰ لا يكتفون بحرف الطريق المستقيم عن وجهته، بل يبذلون جهدهم في تحريف الحقائق وتشويه معالم الهداية، مستخدمين جميع إمكانياتهم في نشر الفساد وتفشِّي الباطل. يسعون جاهدين إلىٰ جعل طريق الحقِّ يبدو معوجًّا، علىٰ الرغم من كونه مستقيمًا؛ ليمنعوا الناس من اتباعه، ويُبقيهم في جحيم الضلال والهوىٰ. هدفهم الأساس هو إبعاد الناس عن الهدىٰ، وتقديم طريقهم المغلف بالباطل كطريق قويم، ليحافظوا علىٰ سلطتهم في نشر الفساد وفرض أفكارهم المضللة.

وقد أخبر الله تعالىٰ أنَّ هذا الصَّدَّ لا ينحصر في دائرة الاعتقاد، بل يمتد ليهدم أركان الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وينشر الخراب في الزرع والنسل، ويزعزع الأمن، ويضرُّ بحياة الناس عامة، قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٤ – ٢٠٥].

وهذا التصوير الرباني الدقيق يُبرز كيف يرتبط الفساد العقدي بالفساد العمراني، وكيف يتسبب الانحراف عن الهدىٰ في انهيار البنية التحتية للأمن والاقتصاد والمجتمع.

وقد أكَّدت السنة المطهرة هذه الحقيقة، وبيّنت أنَّ تعطيل شرع الله، والتمييز في تطبيق أحكامه، سبب رئيس لهلاك الأمم وسقوط الحضارات، فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[1].

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الفساد إذا انتشر في الحُكَّام والأنظمة، أدَّىٰ إلىٰ ظلم الناس، وضياع الحقوق، وانهيار المجتمع.

كما أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ أنَّ من مظاهر خراب المجتمعات أن تُسند القيادة إلىٰ غير أهلها، كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ. قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ »[2].

ومعلوم أنَّ من أعظم مظاهر الصَّدِّ عن الهدىٰ أن يُقصىٰ أهل الحقِّ ويُقرّب أهل الباطل من المنافقين والظلمة والمنحرفين، فتتولَّىٰ زمام الأمور طوائف من الجهّال والمفسدين، فينشرون الجهل، ويُحاربون الدين، ويعطلون الإصلاح، وينشرون الباطل بمنطق القوة والسلطة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (كتاب: الأنبياء، باب: ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم﴾ [الكهف: ٩] ح٣٢٨٨، ٣/ ١٢٨٢)، ومسلم في صحيحه، (كتاب: الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود ح١٦٨٨، ٥/ ١١٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، (كتاب: الرقاق، باب: رفع الأمانة ح٦١٣١، ٥/ ٢٣٨٢).

ومن ثَمَّ، فإنَّ الصَّدَّ عن سبيل الله ليس انحرافًا دينيًّا مجرَّدًا، بل هو مشروع إفساد متكامل، يخلخل ركائز المجتمعات، ويهدد وجودها الحضاري، ويقودها إلىٰ الانهيار والضياع في دينها ودنياها معًا.

سابعًا: الحرمان من البركة في العمر والرزق:

إنَّ من أبرز عواقب الصَّدّ عن سبيل الله تعالىٰ والإعراض عن هديه، هو حرمان الإنسان من البركة في عمره ورزقه. فقد يمتلك الإنسان المال والمناصب والجاه، لكنَّه لا يجد السعادة الحقيقية، بل يُحرم من الطمأنينة النفسية، ويعيش في قلق دائم وتوتر مستمر. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤]. حيث يُظهر أنَّ الإعراض عن ذكر الله يفضي إلىٰ حياة ضاغطة نفسيًّا، يترافق معها شعور بالتعاسة، رغم توفر الإمكانات المادية.

علىٰ النقيض، فإنَّ الإيمان والاستقامة علىٰ منهج الله سبب أساس في سعة الرزق وراحة القلب، وطمأنينة النفس، وراحة المال، وبركة الرزق، وكل ما يحقق الحياة الطيبة، قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النَّحل : ٩٧].

وقد بيَّن القرآن الكريم أنَّ الإعراض عن أوامر الله والسعي في نشر الفساد يؤدي إلىٰ فقدان البركة في الحياة والرزق ليس علىٰ مستوىٰ الفرد فحسب؛ بل حتىٰ علىٰ مستوىٰ المجتمع كله، قال تعالىٰ:﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ٩٦].

هذه الآية تشير إلىٰ أنَّ التقوىٰ والعمل الصالح سبب في نزول البركة علىٰ مستوىٰ الفرد والجماعة، في حين التكذيب والفساد يؤدِّيان إلىٰ سلب النعم وإهلاك المجتمعات.

وقد بيّن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ البركة في الرزق والعمر تأتي من الاستقامة والطاعة لله، في حين أنَّ المعاصي والذنوب تؤدِّي إلىٰ المحق والضيق، حيث قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[1].

وهذا الحديث يشير إلىٰ أنَّ البركة ليست في كثرة المال أو طول العمر فقط، بل في حسن استغلالهما في طاعة الله، ممَّا يحقِّق الراحة النفسية والطمأنينة والبركة. كما أنَّ المعاصي والذنوب تؤدِّي إلىٰ محق البركة في الحياة، فالعمر قد يكون طويلاً، ولكن دون أن يحقق صاحبه سعادة حقيقية أو فائدة تذكر.

وعليه، فقد يعيش الإنسان عمرًا طويلًا، لكنَّه لا يحقق فيه خيرًا، ولا يشعر بالسعادة، في حين أنَّ المؤمن يعيش حياة قصيرة لكن مليئة بالإنجازات والطاعات والراحة النفسية.

ثامناً: الخذلان والذل في الدنيا والآخرة:

يعدُّ الخذلان والذل في الدنيا والآخرة من أبرز العواقب التي تنزل علىٰ من يعادي دين الله ويسعىٰ لإضلال الناس، حيث يعيش في حياةٍ من الخزي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (كتاب: الأدب، باب: من بسط له في الرزق بصلة الرحم ح٥٦٤٠، ٥/ ٢٢٣٢)، ومسلم في صحيحه، (كتاب: البر والصلة والآداب، باب: صلة الرحم، وتحريم قطيعتها ح٢٥٥٧، ٨/ ٨).

والمهانة، حتىٰ وإن امتلك المال والسلطة. ذلك لأنَّ الله تعالىٰ قد وعد المؤمنين بالعزة الحقيقية التي لا تحصل للإنسان إلَّا من خلال طاعته واتباع دينه. كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النِّسَاء : ١٣٩] ، وقال تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المُنَافِقُون : ٨] أي إنَّ العزة الحقيقية لا تكون في المال أو القوة الدنيوية، بل في الانقياد لله واتباع شرعه.

العداء لله ورسوله لا يقود صاحبه إلَّا إلىٰ الخزي والذل في الدنيا والآخرة، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المُجَادلَة : ٢٠].

وقال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإِسْرَاء: ٢٢]، فإذا كان من يجعل لله شريكًا يُخذل، فكيف بمن يدعو الناس إلىٰ عبادة غير الله، ويمنعهم من اتباع الحقِّ، ويضلهم عن الصراط المستقيم؟

الخذلان لا يتوقف علىٰ الدنيا، بل يمتد إلىٰ الآخرة حيث يواجه هؤلاء الصادّون عن سبيل الله أشد العذاب في جهنم، ويجدون أنفسهم في موقف الذل أمام الله عَزَّوَجَلَّ. قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النِّسَاء : ١١٥].
وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البَقَرَة : ١١٤]

وقد حذّر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من عاقبة الصد عن سبيل الله، وبيَّن الخذلان الذي يصيب صاحبه في الدنيا والآخرة، فقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ عز وجل وَكَّلَهُ اللهُ عز وجل إِلَىٰ النَّاسِ»[1].

يُظهر هذا الحديث أنَّ من يرضي الناس علىٰ حساب دينه ويترك نصرة الحقِّ، فإنَّه سيُخذل في الدنيا ويُكل إلىٰ الناس، فيذله الله ولا يكون له ناصر، فيعيش في خزي وهوان.

إنَّ من يصد عن سبيل الله، ويجعل من محاربة الحقِّ وتغليب الهوىٰ نهجًا لحياته، فإنَّه سيُخذل في الدنيا ويُكل إلىٰ الناس، فيحرم من العزة الحقيقية التي أودعها الله في قلوب المؤمنين، ويعيش في ضيق وهوان، ولن يجد إلا الذل والخذلان. أمَّا في الآخرة فيُحشر في صورة الذل والهوان، ليس له نصير أو معين، يواجه أشد العذاب في جهنم.

إنَّ الخذلان الذي يلاقيه هؤلاء ليس مجرد فشل دنيوي عابر، بل هو فقدان مُطلق للعزة والطرد من رحمة الله، إنَّها الخسارة الأبدية التي لا يعوضها شيء، فالجحيم هو مصيرهم، حيث يظلّون في الظلمات الأبدية، بلا أمل في النجاة أو الفرج.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (ح٢٤١٤، ٤/ ٦٠٩)، وصححه الألباني.

تاسعاً: التعرض للهلاك والعقوبات العاجلة:

إنَّ من أعظم النتائج التي يواجهها من يصد عن سبيل الله ويحارب دين الله تعالىٰ وهداه هو التعرض للهلاك والعقوبات العاجلة التي يذيقها الله للمكذبين والمفسدين في الأرض. فقد أخبرنا القرآن الكريم عن تلك العقوبات التي تصيب الأمم والأفراد الذين يعترضون دعوات الأنبياء ويحاربون الحقَّ، ويسعون في الأرض فسادًا.

وقد بيّن الله تعالىٰ في كتابه الكريم كيف يعاقب من يصدّ عن الهدىٰ والحقِّ في الدنيا قبل الآخرة، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النَّمل: ٥٠ - ٥٣].

في هذه الآيات الكريمة، يُبيّن الله تعالىٰ كيف أنَّ من يصدّ عن سبيل الله ويعرض عن هديه يعرِّض نفسه للدمار والهلاك. وقد ذكر الله سبحانه في هذا السياق أنَّه أهلك الأمم التي كذَّبت رسله وصدَّت عن دعوتهم، فجعلهم عبرة للآخرين.

وقد بيَّن الله تعالىٰ في كتابه بيانًا شافيًا عاقبة القوم الذين وقفوا في وجه الأنبياء وعملوا علىٰ صدِّ الناس عن الحقِّ والهدىٰ كيف دمرهم الله تعالىٰ تدميرًا وجعلهم مثلًا وعبرة للمعتبرين، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ

ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ٣٦ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٣٧ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨ وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَالَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ٣٩ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ﴾ [الفُرْقَان : ٣٥ - ٤٠].

ففي هذه الآيات الكريمة، يقدّم الله تعالىٰ مثالًا بليغًا للأمم التي كذَّبت بالرسل وصدّت عن سبيل الله، حيث كانت عاقبتهم الهلاك المحتوم نتيجة تماديهم في تصديهم للحقِّ. فقد قضت تلك العقوبات علىٰ حضاراتهم وزلزلت أركانهم، ليظلوا عبرة لمن بعدهم. وهذا يجعل من تصديهم للهداية مثالًا صارخًا علىٰ العواقب الوخيمة التي تترتَّب علىٰ مخالفة أوامر الله، وتجاهل دعوات الأنبياء، إذ كان الهلاك في الدنيا هو الجزاء العادل علىٰ فسادهم وكفرهم بالرسالات السماوية.

ولا يقتصر الأمر علىٰ الأمم السابقة فقط، بل هي سنن ربانية ماضية، قال تعالىٰ: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ٤٣ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ٤٦ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ٤٧ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القَمَر : ٤٣ - ٤٨].

وقد أكَّد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ أنَّ الذين يصدّون عن سبيل الله ويعارضون دينه لن يفلحوا في الدنيا ولن ينجوا من العقوبات العاجلة.

فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»[1]، وهذا تحذير واضح من أنَّ الظالمين الذين يصدّون عن الحقِّ سيلاقون عقابًا عاجلًا من الله.

من هذه الأدلة نخلص إلىٰ أنَّ الصدّ عن سبيل الله والعداء لدينه ليس مجرد أمر دنيوي يمكن التغاضي عنه، بل هو سلوك يفضي إلىٰ العقوبات العاجلة في الدنيا قبل الآخرة. فكما دُمِّرت الأمم السابقة بسبب تكذيبهم بالأنبياء وصدّهم عن الهداية، فإنَّ من يحارب دين الله اليوم سيلاقي مصيرًا مشابهًا إذا استمر في إعراضه عن الحقِّ.

عاشراً: سوء الخاتمة والموت على غير الإسلام:

من أخطر عواقب الصدّ عن سبيل الله أن يُحرم صاحبه من حسن الخاتمة، حيث يُطبع علىٰ قلب العبد فلا يُوفَّق إلىٰ التوبة، فيموت علىٰ غير الإسلام، ويُحشر مع من صدّوا عن الحقِّ من أهل الضلال إلىٰ الجحيم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأَنْعَام : ١١٠]، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ من أعرض عن الحقِّ في حياته، وأصرّ علىٰ معصية الله، فإنَّ الله يعاقبه بأن يحرمه من الهداية في آخر عمره، حتىٰ يموت علىٰ الضلال.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرىٰ وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ ح٤٤٠٩، ٤/ ١٧٢٦).

لقد حذّر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من ذلك في قوله: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْهِ»[1].

وهذه الوصية النبوية تشير بوضوح إلىٰ أنَّ الشخص الذي يصدُّ عن سبيل الله، ويستمر في إعراضه عن الهداية، قد يُختم له بالضلال والموت علىٰ الكفر، فيكون حظّه من الآخرة الهلاك الأبدي.

فالعبد قد يعمل بعمل أهل الخير، ثم يختم له بسوء، بسبب سوء نيته أو بسبب إصراره علىٰ بعض صور الفساد، الذي من أعظمها الصَّدّ عن سبيل الله تعالىٰ، فقد قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إنَّ أحدَكم ليعملُ بعملِ أهلِ الجنةِ حتىٰ ما يكونُ بينَهُ وبينَها إلَّا ذراعٌ، فيسبقُ عليهِ الكتابُ، فيعملُ بعملِ أهلِ النارِ، فيدخلُها»[2].

والقرآن ضرب أمثلة بفرعون في سوء الخاتمة بسبب الصدّ عن الهدىٰ رغم محاولته التوبة في اللحظة الأخيرة، قال الله تعالىٰ عن فرعون حين أدركه الغرق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يُونُس : ٩٠ - ٩١]. فرعون ظلَّ طوال حياته يعاند الحقّ، ويمنع الناس من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، (كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الأمر بحسن الظن بالله تعالىٰ عند الموت ح٢٨٧٨، ٨/ ١٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، (كتاب: التوحيد، باب: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ [الصافات: ١٧١] ح٧٠١٦، ٦/ ٢٧١٣)، ومسلم في صحيحه، (كتاب: القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ح٢٦٤٣، ٨/ ٤٤).

الإيمان، فلمَّا جاءه الموت حاول التوبة، لكنَّها لم تُقبل منه، ومات علىٰ الكفر، ومثله أبو جهل الذي كان يعلم أنَّ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ علىٰ الحقِّ، لكنَّه حارب الإسلام، وصدّ عن سبيل الله، فخُتم له بالقتل علىٰ الكفر، وكان من أهل النار.

لذلك، يجب علىٰ المسلم أن يتجنَّب الوقوع في هذه العواقب الوخيمة من خلال الاستقامة علىٰ الحقِّ، والابتعاد عن محاربة الدين والإضلال، فالله قد يحرم العبد من التوبة قبل موته، أو يختم له علىٰ الكفر، أو يموت علىٰ معصية عظيمة. لذلك، يجب علىٰ المسلم أن يحذر من الذنوب، ويحرص علىٰ الاستقامة، ويسأل الله دائمًا حسن الخاتمة، حتىٰ يُقبض علىٰ الإيمان، ويبعث مع أهل الطاعة يوم القيامة، قال الله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إِبۡرَاهِيم:٢٧].

الحادي عشر: الخزي يوم القيامة والحرمان من الشفاعة:

إنَّ من أعظم ما يُبتلىٰ به من صدّ عن سبيل الله، وتجرأ علىٰ الحقِّ، وكذَّب بالهدىٰ، أنَّه يُفضح علىٰ رؤوس الأشهاد يوم القيامة، ويُعرض للخزي الأعظم بين يدي الله، ويُحرم من شفاعة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ويُقذف في نار جهنم خالداً فيها، والعياذ بالله.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التَّوۡبَة : ٦٣].

فهو خزي لا يُقاس بخزي الدنيا، بل هو الفضيحة الكبرىٰ أمام الخلائق، والعقوبة التي تليق بمن عاند الوحي الإلهي، ووقف حجر عثرة في طريق الدعوة.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ [الأَنْعَام:١٥٧].

فقد جمعوا بين التكذيب والصدّ، فاستحقوا العذاب المضاعف وسوء المصير، وهو جزاء من تنكَّب طريق الهداية، وصدّ غيره عنه.

ومن مظاهر الخزي أيضًا: الحرمان من شفاعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فالشفاعة العظمىٰ يوم القيامة لا تكون إلَّا لأهل التوحيد والاستقامة، أمَّا من عادىٰ الله ورسوله، وأضل الناس عن سبيله، فقد سدّ علىٰ نفسه باب الشفاعة، بل يكون في صف من يُبَدّلون نعمة الله كفرًا، ويقودون الناس إلىٰ الردىٰ.

وقد جاء في الحديث عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»[(١)].

فمن مات علىٰ الشرك أو محادَّاة الله ورسوله، أو صدّ الناس عن التوحيد، فقد خرج من زمرة المرحومين بتلك الشفاعة المباركة.

والصدّ عن الهدىٰ ليس انحرافًا سلوكيًّا فرديًّا، بل هو جريمة عقدية وأخلاقية كبرىٰ ومركبة، تؤدي إلىٰ الحرمان من الهداية، والوقوع في الضلال،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (كتاب: الدعوات، باب: لكل نبي دعوة مستجابة ح٥٩٤٥، ٥/ ٢٣٢٣)، ومسلم في صحيحه، (كتاب: الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته ح١٩٩، ١/ ١٣١)، واللفظ له.

وهدم الدين، وجرّ المجتمعات إلىٰ الانهيار، وتستجلب العقوبات الإلهية في الدنيا والآخرة. فآثار الصدّ لا تقف عند الضال وحده، بل تمتد لتفسد البيئات، وتعمي البصائر، وتنشر الظلم والانحلال.

لذلك، يجب علىٰ المسلم أن يتمسك بالحقِّ، ويدعو إليه، ويجتنَّب أي شكل من أشكال الصدِّ عن سبيل الله، حتىٰ لا يكون من الخاسرين.

فمن أراد الكرامة الأبدية والنجاة من خزي الدنيا وعار الآخرة، فليحذر من أن يكون سببًا في صدّ الناس عن سبيل الله، وليكن جنديًّا في نصرة الدين، داعيًا إلىٰ الخير، متجنبًا كل ما يصدّ عن الهدىٰ، حتىٰ يُبعث مع المهتدين، ويُكرم بالشفاعة يوم الدين.

عواقب الصَّد عن الاستهداء بالهدى

الطبع على القلوب وحرمان نور الهداية	تحمُّل أوزار المضلّين ونشر الفساد	التلبّس بصفات الشيطان وأعوانه	التشبّه بالمنافقين والكافرين
إحباط الأعمال وفقدان رصيد الطاعة	انتشار الفساد وتعطيل مصالح الناس الدنيوية	الحرمان من البركة في العمر والرزق	الخذلان والذم في الدنيا والآخرة
التعرض للهلاك والعقوبات العاجلة	سوء الخاتمة والموت على غير الإسلام	الخزي يوم القيامة والحرمان من الشفاعة	

الخاتمة

الخاتمة

بعد رحلة بحثية متأنية في موضوع: «الرؤية الكلية للاستهداء بالهدىٰ: مفاهيم - منهجيات - تطبيقات»، اتّضح أن الاستهداء بالهدىٰ ليس مجرد مسار جزئي في الحياة الدينية، بل هو الركن الجوهري الذي يتوقف عليه فكر الإنسان وعقيدته وسلوكه، وبناء المجتمع وسلامته وأمنه ونهضته. وقد تناولت الدراسة هذا الموضوع من خلال تأصيل المفاهيم، وتحليل الأوعية، واستقراء المجالات، وتحرير المنهجية، وتفعيل التطبيقات، في محاولة جادّة لبناء رؤية متكاملة تُعيد للقرآن الكريم والسنة النبوية مكانتهما القيادية في توجيه الإنسان وإصلاح الواقع، وتقوّم العلاقة به من التلقي القاصر إلىٰ التفعيل المؤثر في الواقعي.

أ/ النتائج العلمية للدراسة:

وقد توصلت الدراسة إلىٰ عدد من النتائج العلمية المحكمة، تُبرز أهمية الاستهداء بالهدىٰ، وتكشف عن ممكّناته وموانعه وثماره وغيرها، يمكن إجمالها أهم ما ورد فيها فيما يلي:

أولًا: النتائج المتعلقة بالمفاهيم والأهمية والمنطلقات:

١) **الاستهداء بالهدىٰ مسار إيماني متكامل:** أوضحت الدراسة أن مفهوم «الاستهداء بالهدىٰ» لا يقتصر علىٰ مجرد الفهم أو التطبيق الجزئي للنصوص، بل هو مسار إيماني شامل، يجمع بين التلقي عن الله تعالىٰ، والاستجابة لأوامره، وتحكيمه في الواقع العملي، مما يجعله عملية تربوية

متجددة تتجاوز البُعد النظري إلىٰ التفاعل الحي مع الوحي.

٢) **التمييز بين مفهومي الهدىٰ والاهتداء وأثره المنهجي**: يتبيّن من خلال الدراسة أن هناك فرقًا دلاليًا منهجيًا بين مصطلحي «الهدىٰ» و«الاهتداء»، فالهدىٰ مشتق من الفعل (هَدَىٰ) يرد في سياق ما ينفرد الله تعالىٰ بتقديره وتوليّه، وأما الاهتداء مأخوذ من الفعل (اهتدىٰ) فهو يُعبّر به عن سعي العبد واختياره في طلب الهداية، سواء في الأمور الدنيوية أو الأخروية. وهذا التمييز يُبرز **المنهج القرآني الدقيق في إسناد الأفعال**، ويؤسس لفهم عميق لعلاقة العبد بربه في مسار الهداية، ويُرسّخ مبدأ أن الهُدىٰ عطاءٌ إلهي، والاهتداء توجه بشري تُفعّل بالإرادة، ما يُعد أساسًا منهجيًا مهمًا في بناء المفهوم القرآني للهداية وتحليل خطابه.

٣) **أهمية موضوع الهدىٰ والاستهداء**: يتبيَّن من خلال الدراسة أن موضوع الهدىٰ والاهتداء يُمثل قطب الرحىٰ في البناء القرآني، إذ تدور حوله مقاصد الوحي وغايات الرسالة، وتنتظم به سُبل الإصلاح والنجاة، فهو المفصل الأصيل الذي يربط بين الوحي والواقع، وبين العقيدة والسلوك، وبين الغاية والطريق، لعظيم منزلته، جاء تصدير المصحف به في سورة الفاتحة والبقرة، دلالة علىٰ أن الهداية هي جوهر الرسالة، ومناط التمكين، ومصدر النور في ظلمات الحياة، وأن الاهتداء بها هو المدخل الوحيد لتحقق الفلاح الفردي والنهضة الجماعية.

٤) **منطلقات الاستهداء وشروط فاعليته**: أبرزت الدراسة أن الاستهداء لا يتم بمعزل عن منطلقاته الأساسية، والتي تتوزع بين عناصر عقدية وتربوية وسلوكية، تُعدّ بمثابة الشروط المبدئية لفاعلية التلقي عن الوحي، وقد ربطت الدراسة هذه المنطلقات بالاستعداد القلبي والمعرفي، بوصفهما المُمكّنين الأساسيين للانتفاع بهداية القرآن الكريم.

ثانيًا: النتائج المتعلقة بأسس الاستهداء ومركزيته:

١. **الاستهداء بالقرآن ضرورة وجودية**: أكّدت الدراسة أن الاستهداء بالقرآن الكريم لا يُعدّ خيارًا تكميليًا أو رفاهًا معرفيًا، بل هو ضرورة وجودية ومنهجية تمسّ كيان الإنسان ووجوده، إذ تتوقف عليه سعادته في الدارين، وقد دلّت نصوص الوحي علىٰ أن اتباع الهدىٰ هو السبيل الوحيد للنجاة من الشقاء والضلال، كما قرر القرآن في مواضع عديدة.

٢. **القرآن مصدر الهداية المعصوم**: بيّنت الدراسة أن القرآن الكريم هو المصدر الوحيد المعصوم للهداية، ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضله الله، مما يستوجب حصر المرجعية فيه، ورفض كل المرجعيات الوضعية التي تُقدَّم عليه، من أعراف، وتقاليد، وأهواء، وأفكار دخيلة، إذ لا يمكن أن تتحقق الهداية الحقّة إلا من خلال العودة الكاملة للوحي.

٣. **تحقّق الاستهداء بتكامل ثلاثية الهداية**: كشفت الدراسة أن البنية المتكاملة للهداية تقوم علىٰ ثلاثية راسخة هي: القرآن الكريم، والسنة النبوية، والبلد الحرام، إذ تمثل هذه الأركان الثلاثة الوعاء

الشـرعي الجامع الذي تتنزل فيـه الهداية وتنمو من خلالـه، وأن أي اختلال في التفاعـل المتوازن معهـا يفضي إلىٰ اضطـراب في فهم الهـدىٰ وتطبيقه، ويـؤدي إلىٰ انحـراف المنهـج عن مسـاره الصحيح.

ثالثًا: النتائج المتعلقة بالمجالات والمنهجيات:

١. **شمولية الاستهداء القرآني:** أثبتت الدراسة أن الاستهداء بهدي القرآن لا يقتصر علىٰ الجوانب العقدية أو التعبدية أو الأخلاقية، بل يمتد ليشمل جميع مجالات الحياة، كالجوانب الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والتربوية، وغيرها، مما يعزّز مركزية القرآن الكريم باعتباره دستورًا شاملًا للنهضة والإصلاح.

٢. **الحاجـة إلىٰ رؤيـة منهجية متكاملة:** كشـفت الدراسـة أن غياب الرؤيـة المنهجيـة المتكاملـة في التعامـل مع القـرآن أدىٰ إلـىٰ اضطرابات متعـددة في مجـالات التنزيـل، وتحديد الأولويـات، ومراعاة السـنن، وقد جـاءت هذه الدراسـة لتأصيل هذا المجال وسـدّ الفجـوة المنهجية القائمة عبر طـرح علمـي جامع.

٣. **منهجية الاستهداء وأركانها الأساسية:** بيّنت الدراسة أن الاستهداء الحقّ لا يُؤتي ثماره من خلال التلاوة أو الحفظ وحده، بل يتطلب منهجية متكاملة قائمة علىٰ ثلاث دعائم: (تحرير المفهوم، وضبط المنهج، وتنزيل النص)، بما يحقق التوازن بين التأصيل النظري والتفعيل العملي، ويجعل من الهداية القرآنية واقعًا معاشًا.

٤. **مراتب الهداية ومراعاة الفروق الفردية**: أوضحت الدراسة أن الهداية القرآنية تتحقق علىٰ مراتب متفاوتة في العلم والعمل، وقد قامت بضبط هذه المراتب وتحديد معالمها، بما يتيح بناء مسارات تربوية متدرجة تراعي الفروق الفردية بين المستهدين من حيث القدرات والمقامات.

٥. **فقه الاستهداء وتجاوز التفسير التقليدي**: أكدت الدراسة أن فقه الاستهداء يمثل البعد العملي التطبيقي للقرآن الكريم، وهو ما يوجب الانتقال من حدود التفسير التقليدي إلىٰ استيعاب الأساليب القرآنية المتنوعة واستثمارها في البناء السلوكي والتربوي والمجتمعي.

٦. **أهمية المهارات التطبيقية في تفعيل الهداية**: أظهرت الدراسة أن ضعف أدوات الاستهداء ومهاراته التطبيقية يعد من أبرز العوائق أمام فاعليته في الواقع، مما يستلزم امتلاك مهارات تأويلية وتربوية وتواصلية قادرة علىٰ تحويل النصوص القرآنية إلىٰ برامج عملية وسلوك يومي مؤثر.

٧. **النماذج القرآنية البشرية كوسيلة للتفعيل**: أكدت الدراسة أن من أعظم وسائل تفعيل الاستهداء: الاقتداء بالنماذج البشرية القرآنية، وعلىٰ رأسهم الأنبياء والرسل عليهم السلام، الذين مثّلوا الوحي في أبهىٰ تجلياته الواقعية، مما يجعل التأسي بهم سبيلًا عمليًا لبلوغ الهداية في أسمىٰ صورها.

٨. **الاستفادة من تنوع الأساليب القرآنية في الاستهداء**: أثبتت الدراسة أن القرآن الكريم يوظف عشرات الأساليب في الهداية، منها: الموعظة، الحوار، الأمثال، القصص، الترغيب، الترهيب، التفكر، وغيرها، وهو ما يبرز شموليته التربوية ويؤكد ضرورة مراعاة هذا التنوع في الخطاب الدعوي والتعليمي.

٩. أهمية ترتيب أولويات الاستهداء: بيّنت الدراسة أن ترتيب أولويات الاستهداء يمثل قضية منهجية مركزية، تقوم عليها فاعلية التوجيه والإصلاح، وهو من **خصائص الخطاب القرآني وهدي الأنبياء**، واعتنىٰ به علماء التفسير والأصول. ويُعد هذا الترتيب **شرطًا لتحقيق الثواب الأعظم، وضمانًا لاتزان الجهود الدعوية والتربوية، وسُنّة من سنن النجاح في الدين والحياة**.

١٠. موجهات ترتيب الأولويات: بيّنت الدراسة أن ترتيب أولويات الهدىٰ في الخطاب القرآني لا يتم بصورة عشوائية، بل ينبني علىٰ موجهات دقيقة، أبرزها: كثرة تكرار الموضوع، وتقدمه في النزول أو الذكر، وارتباطه بأصل الإيمان، وتنوع أساليبه، وتخصيصه بعد عموم، وتوكيده في السنة، وعِظم أثره الأخروي، وشدة الحاجة الواقعية إليه، واعتبار المصالح والمفاسد. ويسهم هذا التحديد في بناء منهج علمي يساعد علىٰ فهم سلم الأولويات القرآنية وتقديم الأهم فالأهم في تفعيل الهداية.

١١. ضرورة التجديد المنهجي في ظل الواقع المعاصر: أبرزت الدراسة أن تحديات الواقع المعاصر وتسارع متغيراته تفرض تجديدًا مستمرًا في منهجية الاستهداء، بحيث يجمع بين ثوابت الوحي ووعي النوازل والمستجدات، ليظل القرآن الكريم حاضرًا فاعلًا في تشكيل وعي الأمة وتوجيه مسيرتها.

١٢. الجهود العلمية المعاصرة وحاجتها إلىٰ التأطير المنهجي: رصدت الدراسة أن الجهود العلمية المعاصرة في استخراج الهدايات القرآنية – من موسوعات ومراكز ومشاريع جماعية – تمثل خطوات مهمة في هذا المسار، غير أنها لا تزال بحاجة إلىٰ تأطير منهجي أعمق يضبط مفاهيم الاستهداء وآلياته، ويرفع من مستويات تأثيره الواقعي.

١٣. **التفاعل المتكامل بين النص والواقع**: خلصت الدراسة إلىٰ أن الاستهداء الحق لا يتم إلا من خلال تفاعل دائم بين النص والواقع، وبين الثابت والمتحوّل، وبين العلم والعمل، مما يستوجب قيام منظومة متكاملة من التصور والمنهج والتطبيق، وهي ما سعت هذه الدراسة إلىٰ بنائها وتقديمها في إطار رؤية علمية شاملة.

رابعًا: النتائج المتعلقة بالممكنات والعلامات والثمرات:

١. **تحقّق الاستهداء بوجود الممكنات الأساسية**: أثبتت الدراسة أن الاستهداء لا يتحقق علىٰ وجهه الصحيح إلا بتوافر جملة من الممكنات الضرورية، التي تمثل الشروط القلبية والسلوكية المؤهِّلة لتلقي الهداية، ومن أبرزها: صفاء النية، والاستعداد القلبي، والعمل الجاد، والصبر علىٰ الطريق، والدعاء الصادق، وبيئة الصلاح، وهي عوامل تُهيّئ القلب والعقل للتفاعل مع الهداية الربانية وتلقِّيها علىٰ النحو الأمثل.

٢. **وجود علامات عملية دالّة علىٰ تحقق الهداية**: بيّنت الدراسة أن للهداية علامات وشواهد عملية قابلة للملاحظة والتشخيص، تُعدّ بمثابة مؤشرات دالة علىٰ صدق الاستهداء وفاعليته، ومن أهمها: طمأنينة النفس، والانقياد للحق، ومحبة الصالحين، والبصيرة، والثبات علىٰ المبدأ، وقبول الموعظة، والتواضع للحق، وهذه العلامات تمثّل أساسًا للتقويم الذاتي والتربوي للمستهدين.

٣. **ثمرات الاستهداء وآثاره التحولية**: كشفت الدراسة عن أن للاستهداء الصادق ثمرات جليلة وآثارًا بنّاءة تنعكس علىٰ الفرد والمجتمع، من أبرزها: زيادة الإيمان، والاستقامة، وسعة الرؤية، والتوفيق الرباني، والأمن النفسي، والتزكية، والنهضة الحضارية، ونضج الوعي، وهذه الثمرات تمثل المحك العملي لنجاح الاستهداء، ودليلًا علىٰ تحققه في الواقع أو تعثّره.

خامسًا: النتائج المتعلقة بالعوامل الصادّة عن الهداية:

١. **خطورة الصدّ عن الهداية:** أكّدت الدراسة أن الصدّ عن الهدىٰ يُعدّ من أعظم الجرائم في ميزان الشريعة، لما فيه من اجتماع بين الإضلال الذاتي والتضليل الجماعي، مما يفضي إلىٰ انحراف الأمم عن سواء السبيل، ويؤدي في نهاية المطاف إلىٰ هلاك المجتمعات وسقوطها في مستنقعات التيه والضياع.

٢. **الشيطان رأس الصادين وأخطر أعداء الهداية:** بيّنت الدراسة أن الشيطان هو الإمام الأكبر في الصدّ عن الهداية، وأستاذ المضلّين، يمارس غوايته عبر منظومات نفسية واجتماعية معقّدة، مستخدمًا أدوات متعددة، منها: التزيين، والتدريج، والتلبيس، وتسليط القرين، وهو عدو دائم لا يكلّ ولا يملّ، يتربص بالبشر في كل مسارات الهداية.

٣. **توظيف الشيطان لأعوانه من الإنس والجن:** أوضحت الدراسة أن الشيطان لا يباشر مشروع الصدّ منفردًا، بل يسخّر أعوانه من الإنس والجن، الذين يمثّلون الامتداد البشري لمشروعه، ويتوزّعون في ميادين الثقافة، والسياسة، والإعلام، والفكر، تحت شعارات برّاقة ظاهرها الرحمة وباطنها الغواية والصدّ.

٤. **التنوع في أساليب الصدّ بين الجهر والخفاء:** أبرزت الدراسة أن الصدّ لا يكون دائمًا بصيغة عدائية مباشرة، بل كثيرًا ما يُمارس بأساليب خفية مموّهة، منها: تزييف المفاهيم، وتقديم الطاغوت كمرجعية بديلة، وتسويق البدعة في هيئة السنة، والدعوة للهوىٰ تحت شعارات العقل أو المصلحة.

٥. **تحريف المفاهيم بوصفه أداة مركزية في الصدّ**: كشفت الدراسة عن أن من أخطر وسائل الصدّ: تحريف المفاهيم الدينية والاجتماعية، كتحريف مفاهيم التوحيد، والحرية، والعدل، والإصلاح، وهو ما يؤدي إلىٰ انقلاب المعايير، وخلخلة المرجعيات، وتضليل الأجيال عن الهدىٰ الحق.

٦. **تحوّل الصدّ إلىٰ ثقافة جمعية في المجتمعات**: أظهرت الدراسة أن الصدّ قد يتجاوز الأفراد إلىٰ أن يتحول إلىٰ ثقافة جمعية تتبناها المجتمعات، كما هو الحال في بيئات الشرك، والفجور، والترف، والتغريب، وهو ما يستدعي خطابًا قرآنيًا واعيًا، يُفكّك آليات هذا الصدّ الجمعي ويواجهه بوسائل تربوية وفكرية فعّالة.

٧. **عواقب الصدّ وآثاره الوخيمة في الدنيا والآخرة**: خلصت الدراسة إلىٰ أن للصدّ عن الهداية عواقب خطيرة تمتد إلىٰ الدارين، ومن أبرزها: حبوط الأعمال، وقسوة القلب، وضياع البصيرة، والحرمان من التوفيق، والخلود في العذاب الأخروي، وقد عرضت الدراسة هذه العواقب عبر نماذج قرآنية متعددة تجسّد مآلات الصادين.

ب/التوصيات العلمية:

وانطلاقًا من النتائج المتحصّلة في هذه الدراسة، وبهدف تعزيز فاعلية الاستهداء بالهدىٰ، وتحصين الأمة من عوامل الصد والانحراف، توصي الدراسة بجملة من التوصيات العلمية والعملية، وذلك علىٰ النحو الآتي:

١. **ترسيخ مركزية القرآن الكريم مصدرًا للهداية الشاملة:** ضرورة تعميق حضور القرآن الكريم في مجالات التربية والتفكير والإصلاح، بوصفه المرجعية الربانية المعصومة، بما يسهم في إعادة بناء الوعي الإسلامي على أسس إيمانية راسخة، فكريًا وسلوكيًا ومؤسسيًا من خلال تقديم عدد من البرامج والمشروعات التي تحقق ذلك.

٢. **تأصيل منهجية الاستهداء كمجال علمي مستقل:** العناية بتحرير المفاهيم، وضبط المصطلحات، وتطوير الأدوات التفسيرية والتدبّرية والتطبيقية، بما يسهم في بناء علم الاستهداء بالهدى، ويدعم جهود الباحثين والدعاة والمربّين في استمداد الهداية الربانية بوعي ومنهج، من خلال صناعة حقائب تدريبة وتأهيل مختصين في ذلك.

٣. **دمج فقه الاستهداء في المنظومات التعليمية والتربوية:** تطوير مناهج تعليمية وبرامج تربوية تُعنى بمباحث الاستهداء: من أدواته، ومراتبه، وممكناته، وثماره، ودمجها في التعليم الأساسي والعالي، لا سيما في المؤسسات الشرعية والتربوية.

٤. **بناء برامج تدريبية متخصصة في مهارات الاستهداء:** إنشاء مبادرات عملية ومراكز تدريبية تُعنى بتمكين الأفراد والمؤسسات من مهارات التأمل والتدبر، والحوار، والتنزيل الواقعي للنصوص، بما يعزز فاعلية الهداية في السلوك الفردي والبناء المجتمعي.

٥. **تفعيل فقه الأولويات في برامج الدعوة والإصلاح:** ترسيخ رؤية قرآنية متوازنة تقوم على فقه المقاصد والموازنات، وتُوجّه الجهود نحو الأهم فالمهم، بما يحقق فاعلية التغيير المجتمعي، ويضبط مسارات الإصلاح على ضوء الهداية الربانية.

٦. **إجراء دراسات ميدانية تقويمية للهداية وثمراتها**: إعداد بحوث تطبيقية ترصد علامات المهتدين وثمرات الاستهداء في الواقع، بما يُسهم في قياس الأثر التربوي للمناهج القرآنية، وتوجيه السياسات الدعوية وفق مؤشرات عملية ومعايير علمية.

٧. **إحياء السننية القرآنية في مواجهة مشاريع الصدّ**: الكشف عن أساليب الشيطان في الصدّ عن الهدىٰ، وتحليل أدواته النفسية والإعلامية، وتفكيكها من منظور قرآني، مع تحصين الأفراد بالعلم والعمل وربطهم بالوحي ربطًا واعيًا وتفاعليًا.

٨. **إنشاء منصات رقمية معرفية متخصصة في الاستهداء**: تطوير منصات إعلامية رقمية تجمع بين التأصيل العلمي والإبداع التواصلي، تقدم محتوىٰ تفاعليًا موجهًا إلىٰ الأجيال الناشئة، وتعيد للقرآن موقعه المؤثر في العقل والوجدان المعاصر.

٩. **تعزيز التربية القرآنية في مواجهة الطاغوت المعرفي**: غرس البصيرة الإيمانية في الناشئة، من خلال خطاب تربوي يُكشف فيه زيف المرجعيات الوضعية، ويُقدّم فيه الوحي بوصفه مرجعًا هاديًا، والنماذج القرآنية قدوات حيّة تحتذىٰ.

١٠. **دعم البحوث القرآنية ذات البعد الاستهدائي المجتمعي**: تشجيع إعداد أطروحات علمية ومشاريع بحثية تستثمر مفهوم الاستهداء في معالجة قضايا الأمة الفكرية والثقافية، وتنقله من مجرّد التأمل النظري إلىٰ ساحات التفعيل الواقعي.

١١. الربط الواعي بين الاستهداء ومتطلبات التجديد المعاصر: تأكيد أن التجديد القرآني لا يعني الانفصال عن النص، بل استحضاره وتفعيله، وأن التحديث لا يكون بنقض الثوابت، بل بوصلٍ منهجي بين الوحي ومقتضيات الزمان والمكان، في ضوء مقاصد الشريعة وسنن الواقع.

وبذلك، تكون هذه الدراسة قد أرست أُسسًا علمية ومنهجية لرؤية استهدائية شاملة، تنطلق من النص، وتعبر به إلىٰ الواقع، سعيًا نحو استئناف فاعلية الهداية القرآنية في حياة الفرد والمجتمع.

وفي الختام أقول:

وها أنا أضع القلم في ختام هذه الرحلة العلمية التي شغلت فكري ووجداني زمنًا غير يسير، راجيًا أن أكون قد وفيت بعضًا مما وجب، لا أدّعي فيها كمالًا، ولا أزعم أنها بلغت المنتهىٰ، وإنما هي خطوة أولىٰ في طريق طويل، وبذرة أرجو أن تتعهدها الأيادي الصادقة، حتىٰ تنمو وتثمر، ويُستكمل بها بناء هذا المشروع المبارك، الذي أرجو أن يُكتب له يومًا أن يكون «علم الاستهداء بالهدىٰ» علمًا ناضجًا، له أصوله ومناهجه ومسالكه في التفعيل والإصلاح.

قدّمت هذا العمل من باب فتح الباب، لا إغلاقه، وسعيت فيه إلىٰ التأصيل الجاد والطرح المتوازن، وحرصت في كل حرف سُطِّر أن يكون خالصًا لله، صادقًا في النية، طاهرًا في المقصد، مسنداً بالأدلة، مقرونًا برجاء أن يبلغ هذا الجهد ما بلغ الليل والنهار، وأن يكتب الله له قبولًا في السماء، وأثرًا في الأرض، ونفعًا يعمّ الأمة، وخيرًا يشيع بين الناس.

كُتبت هذا الكتاب في أطهر بقعة، وحرصت فيه أن يظل القلب طاهراً، والبدن طاهراً، طمعًا أن يبارك الله في الجهد، ويرزقه القبول، ويجعله شفيعًا لكاتبه، وذخرًا ليوم رمسه، وما ذلك علىٰ الله بعزيز.

اللهم اجعل هذا العمل خالصًا لوجهك الكريم، وبارك فيه بصدق النية، وتمام التوكل، ووفّق من يقرؤه إلىٰ الانتفاع به، ومن ينقده إلىٰ الإنصاف فيه، ومن ينشره إلىٰ ثواب التعاون علىٰ البر والتقوىٰ.

وصلّىٰ الله علىٰ من أُوتي جوامع الكلم، وبلّغ الرسالة، وأدّىٰ الأمانة، وجعل القرآن له خُلُقًا ومنهجًا.

وكان الختام ببلد الله الحرام مكة زادها الله شرفا ورفعة

في عصر الجمعة ٤ ذو القعدة ١٤٤٦هـ الموافق ٢ مايو ٢٠٢٥م

والله ولي التوفيق ،،،

تمَّ والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

١. **ابن رجب الحنبلي وأثره في توضيح عقيدة السلف**، عبد الله بن سليمان الغفيلي، دار المسير، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

٢. **الإتقان في علوم القرآن**، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، دار الفكر، لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

٣. **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٩٩٧ م.

٤. **الاجتهاد في مناط الحكم الشرعي: دراسة تأصيلية تطبيقية**، بلقاسم بن ذاكر الزُّبيدي، إشراف: أ. د. غازي العتيبي، مركز تكوين للدراسات، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م.

٥. **أحكام القرآن للشافعي**، أحمد بن الحسين البيهقي، جمع من كلام الإمام الشافعي، تحقيق: أبو عاصم الشوامي، دار الذخائر، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨م.

٦. **أخلاق أهل القرآن**، أبو بكر الآجُرِّي، تحقيق: محمد عمرو عبد اللطيف، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٧. **الأدب المفرد**، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: علي عبد الباسط مزيد، وعلي عبد المقصود رضوان، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٨. **الإصابة في تمييز الصحابة**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥هـ.

٩. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

١٠. **الاعتصام**، إبراهيم بن موسىٰ الشاطبي، تحقيق: سليم الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

١١. **الاعتقاد**، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠١ هـ.

١٢. **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مصطفىٰ صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.

١٣. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، ابن قيم الجوزية، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٣ هـ.

١٤. **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، ابن تيمية، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

١٥. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، عبد الله البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٨ هـ.

١٦. **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

١٧. **أين المخرج فالصخرة أغلقت الغار**، مجدي الهلالي، دار السراج، الشاملة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٢ هـ.

١٨. **بحر العلوم**، أبو الليث السمرقندي، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، بدون تاريخ.

١٩. **البحر المحيط الثجاج**، محمد بن علي الإتيوبي، دار الفكر، بيروت، بدون طبعة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٢٠. **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ.

٢١. **بدائع الفوائد**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عطاءات العلم، الرياض، الطبعة: الخامسة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م.

٢٢. **البرهان في علوم القرآن**، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

٢٣. **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، القاهرة، بدون طبعة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

٢٤. **بينات الرسول** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **ومعجزاته**، عبد المجيد الزنداني، دار الإيمان، القاهرة، بدون طبعة، بدون تاريخ.

٢٥. **تاج العروس**، مرتضىٰ الزبيدي، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر، بدون مكان، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ.

٢٦. **تأويل مشكل القرآن**، ابن قتيبة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، بدون طبعة، بدون تاريخ.

٢٧. **تأويلات أهل السنة**، محمد بن محمد بن محمود، تحقيق: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٢٨. **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، بدون طبعة، ١٩٨٤ م.

٢٩. **تصويبات في فهم بعض الآيات**، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٣٠. **تطريز رياض الصالحين**، فيصل بن عبد العزيز المبارك، بدون دار نشر، بدون مكان نشر، بدون طبعة، بدون تاريخ.

٣١. **التعريفات الفقهية**، محمد عميم الإحسان المجددي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٣٢. **التعريفات**، الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٣٣. **تفسير ابن باديس**، عبد الحميد بن باديس، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

٣٤. **التفسير البسيط**، الواحدي، إشراف: جامعة الإمام محمد بن سعود، عمادة البحث العلمي، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٠ هـ.

٣٥. **تفسير الجلالين**، المحلي والسيوطي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولىٰ، بدون تاريخ.

٣٦. **تفسير الراغب الأصفهاني**، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد بسيوني، كلية الآداب - جامعة طنطا، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

٣٧. **تفسير الفاتحة والبقرة**، ابن عثيمين، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٣ هـ.

٣٨. **تفسير سورة المائدة**، ابن عثيمين، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٣٥ هـ.

٣٩. **تفسير سورة يس**، ابن عثيمين، دار الثريا للنشر، بدون مكان، بدون طبعة، بدون تاريخ.

٤٠. **تفسير سورة فاطر**، ابن عثيمين، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٦ هـ.

٤١. **تفسير سورة فاطر**، محمد بن صالح العثيمين، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٦ هـ.

٤٢. **تفسير الفاتحة**، عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: سامي بن محمد بن جاد الله، دار المحدث للنشر والتوزيع، بدون مكان نشر، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٧ هـ.

٤٣. **تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)**، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩ هـ.

٤٤. **تفسير القرآن العظيم**، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، السعودية، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩ هـ.

٤٥. **تفسير القرآن الكريم**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٠ هـ.

٤٦. **تفسير القرآن**، منصور بن محمد السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

٤٧. **التفسير القرآني للقرآن**، عبد الكريم بن يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون طبعة، بدون تاريخ.

٤٨. **تفسير المراغي**، أحمد بن مصطفىٰ المراغي، مكتبة مصطفىٰ البابىٰ الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

٤٩. **تفسير المنار**، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، بدون طبعة، ١٩٩٠ م.

٥٠. **تفسير المنتصر الكتاني**، محمد المنتصر الكتاني، مصدر الكتاب: دروس مفرغة من موقع إسلام ويب، المكتبة الشاملة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٢ هـ.

٥١. **التفسير المنير**، وهبة بن مصطفىٰ الزحيلي، دار الفكر، دمشق وبيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.

٥٢. **التفسير الوسيط**، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة: الأولىٰ، ١٩٩٧ - ١٩٩٨ م.

٥٣. **التفسير الوسيط**، وهبة بن مصطفىٰ الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ.

٥٤. **تفسير عبد الرزاق**، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩ هـ.

٥٥. **تفسير مجاهد**، مجاهد بن جبر المكي، تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م.

٥٦. **تفسير مقاتل بن سليمان**، مقاتل بن سليمان الأزدي، تحقيق: عبد الله محمود شحاتة، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٣ هـ.

٥٧. **تفسير يحيىٰ بن سلام**، يحيىٰ بن سلام البصري، تحقيق: د. هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

٥٨. **تلبيس إبليس**، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٥٩. **تهذيب اللغة**، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ٢٠٠١ م.

٦٠. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٦١. **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وزارة الشئون الإسلامية، السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ.

٦٢. **التيسير في التفسير**، عمر بن محمد النسفي، تحقيق: ماهر أديب حبوش وآخرون، دار اللباب للدراسات وتحقيق التراث، إسطنبول، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩م.

٦٣. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٦٤. **جامع العلوم والحكم**، عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

٦٥. **الجامع الكبير - سنن الترمذي**، محمد بن عيسىٰ الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، بدون طبعة، ١٩٩٨ م.

٦٦. **الجامع الصحيح (صحيح البخاري)**، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ.

٦٧. **جامع بيان العلم وفضله**، يوسف بن عبد البر، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

٦٨. **الجامع لأحكام القرآن**، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٦٩. **جلاء الأفهام**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٧٠. **جمال القراء وكمال الإقراء**، محمد بن أحمد السخاوي، دار المأمون للتراث، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

٧١. **جمهرة أشعار العرب**، محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر، بدون طبعة، بدون تاريخ.

٧٢. **جمهرة اللغة**، ابن دريد، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٩٨٧ م.

٧٣. **الجواب الكافي**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد بن علي بن ريحان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٧٤. **جواهر الأفكار ومعادن الأسرار**، عبد القادر بدران، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩١ م.

٧٥. **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، الثعالبي، تحقيق: محمد علي معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٨ هـ.

٧٦. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أبو نعيم الأصبهاني، مطبعة السعادة، القاهرة، بدون طبعة، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.

٧٧. **خزانة الأدب وغاية الأرب**، ابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شقيو، دار الهلال - دار البحار، بيروت، بدون طبعة، ٢٠٠٤ م.

٧٨. **الداء والدواء**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم، الرياض، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م.

٧٩. **الدر المصون**، عبد الرحمن بن أحمد السمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، بدون طبعة، بدون تاريخ.

٨٠. **الدر المنثور**، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، بدون طبعة، بدون تاريخ.

٨١. **درء تعارض العقل والنقل**، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.

٨٢. **درة التنزيل وغرة التأويل**، عبد الله بن عمر الإسكافي، تحقيق: د. محمد مصطفىٰ آيدين، جامعة أم القرىٰ - معهد البحوث العلمية، مكة المكرمة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م.

٨٣. **الدرر السنية في الأجوبة النجدية**، علماء نجد الأعلام، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، بدون دار نشر، السعودية، الطبعة: السادسة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

٨٤. **دلائل النبوة**، إسماعيل بن محمد الأصبهاني، تحقيق: أبو عبد الله محمد الحداد، دار طيبة، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

٨٥. **الرسالة**، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م.

٨٦. **روح البيان**، إسماعيل حقي البروسوي، دار الفكر، بيروت، بدون طبعة، بدون تاريخ.

٨٧. **روح المعاني**، شهاب الدين الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ.

٨٨. **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزير شمس، دار عطاءات العلم، الرياض، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م.

٨٩. **زاد المسير في علم التفسير**، عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ.

٩٠. **الزهد**، أحمد بن محمد بن حنبل، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

٩١. **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

٩٢. **سلسلة محاسن التأويل**، صالح بن عواد المغامسي، مصدر الكتاب: دروس صوتية من موقع إسلام ويب، المكتبة الشاملة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٢ هـ.

٩٣. **سنن ابن ماجه**، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسىٰ البابي الحلبي، بدون طبعة، بدون تاريخ.

٩٤. **سنن أبي داود**، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٩٥. **سنن الدارمي**، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المغني، السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م.

٩٦. **السنن الكبرىٰ**، أحمد بن الحسين البيهقي، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد - الهند، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٤٤ هـ.

٩٧. **السنن الكبرىٰ**، أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، إشراف: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٩٨. **السيرة النبوية**، عبد الملك بن هشام، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، بدون طبعة، بدون تاريخ.

٩٩. **البداية والنهاية**، إسماعيل بن عمر ابن كثير، مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٤٨ - ١٣٥٨ هـ.

١٠٠. **الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح**، محمد الحسن ولد الددو، تحقيق: صلاح فتحي هلل، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

١٠١. **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**، هبة الله بن الحسن اللالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد الغامدي، دار طيبة، السعودية، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

١٠٢. **شرح الطيبي علىٰ مشكاة المصابيح**، شرف الدين الحسين الطيبي، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، مكة والرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

١٠٣. **شرح النووي علىٰ مسلم**، يحيىٰ بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢ هـ.

١٠٤. **الشريعة**، محمد بن الحسين الآجري، تحقيق: د. عبد الله بن عمر الدميجي، دار الوطن، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

١٠٥. **شعب الإيمان**، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

١٠٦. **شفاء العليل**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: زاهر بن سالم بلفقيه، دار عطاءات العلم، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٤١ هـ - ٢٠١٩ م.

١٠٧. **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

١٠٨. **صحيح ابن حبان**، محمد بن حبان البستي، تحقيق: محمد علي سونمز، خالص آي دمير، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

١٠٩. **صحيح سنن أبي داود**، محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

١١٠. **صحيح الأدب المفرد**، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

١١١. **صحيح الترغيب والترهيب**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

١١٢. **صحيح سنن الترمذي**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

١١٣. **صحيح الجامع الصغير وزياداته**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بدون طبعة، بدون تاريخ.

١١٤. **صحيح وضعيف الجامع الصغير وزياداته**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١١٥. **الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة**، ابن قيم الجوزية، دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٨ هـ.

١١٦. **الضياء اللامع من الخطب الجوامع**، محمد بن صالح العثيمين، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١١٧. **الطراز في أسرار البلاغة**، يحيىٰ بن حمزة العلوي، المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٣ هـ.

١١٨. **العواصم من القواصم**، محمد بن عبد الله بن العربي، تحقيق وتعليق: محب الدين الخطيب، وزارة الشؤون الإسلامية السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩ هـ.

١١٩. **العين**، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بدون طبعة، بدون تاريخ.

١٢٠. **غرائب القرآن ورغائب الفرقان (تفسير النيسابوري)**، نظام الدين النيسابوري، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٦ هـ.

١٢١. **فتح الباري**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

١٢٢. **فتح البيان في مقاصد القرآن**، أبو الطيب محمد صديق خان، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، بدون طبعة، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

١٢٣. **فتح القدير**، محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٤ هـ.

١٢٤. **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، ابن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون طبعة، بدون تاريخ.

١٢٥. **فضائل القرآن**، إسماعيل بن عمر ابن كثير، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٦ هـ.

١٢٦. **الفقيه والمتفقه**، الخطيب البغدادي، تحقيق: عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢١ هـ.

١٢٧. **فهم القرآن ومعانيه**، الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق: حسين القوتلي، دار الكندي، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٨ هـ.

١٢٨. **الفوائد**، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

١٢٩. **القاموس المحيط**، الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

١٣٠. **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، عز الدين بن عبد السلام، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، طبعة جديدة منقحة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩١ م.

١٣١. **القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن الجوزي، بدون مكان نشر، بدون طبعة، بدون تاريخ.

١٣٢. **الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ**، القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون طبعة، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

١٣٣. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، الزمخشري، دار الريان للتراث، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

١٣٤. **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، أحمد بن محمد الثعلبي، تحقيق: رسائل جامعية، دار التفسير، جدة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.

١٣٥. **الكفاية في التفسير بالمأثور والدراية**، عبد الله خضر حمد، دار القلم، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م.

١٣٦. **لباب التأويل في معاني التنزيل**، علي بن محمد الخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ.

١٣٧. **لسان العرب**، ابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٤ هـ.

١٣٨. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ضياء الدين ابن الأثير، بدون دار نشر، بدون مكان نشر، بدون طبعة، بدون تاريخ.

١٣٩. **مجمع البحرين في زوائد المعجمين**، نور الدين الهيثمي، تحقيق: عبد القدوس محمد نذير، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ هـ.

١٤٠. **مجمع البحرين**، ناصيف اليازجي، المطبعة الأدبية، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٣٠٢هـ - ١٨٨٥ م.

١٤١. **مجموع الفتاوىٰ**، ابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، بدون طبعة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

١٤٢. **محاسن التأويل**، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٨ هـ.

١٤٣. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ.

١٤٤. **المحكم والمحيط الأعظم**، ابن سيده، تحقيق: مصطفىٰ السقا، د. حسين نصار، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

١٤٥. **مختار الصحاح**، محمد بن أبي بكر الحنفي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

١٤٦. **المخصص**، ابن سيده، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

١٤٧. **مدارج السالكين**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

١٤٨. **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، عبد الله بن أحمد النسفي، تحقيق: يوسف بديوي، تقديم: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

١٤٩. **المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ**، البيهقي، اعتناء: محمد عوامة، دار اليسر للنشر والتوزيع، القاهرة، دار المنهاج، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٧ م.

١٥٠. **المستدرك على الصحيحين**، الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

١٥١. **مسند أبي يعلى**، أحمد بن علي بن المثنى، تخريج: سعيد السناري، دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.

١٥٢. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

١٥٣. **مسند البزار**، أحمد بن عمرو البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله وآخرون، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٨ - ٢٠٠٩ م.

١٥٤. **مسند الدارمي**، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: مرزوق بن هياس الزهراني، بدون ناشر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.

١٥٥. **مسند الشاميين**، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م.

١٥٦. **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الجيل، بيروت، مصورة من طبعة إستانبول، ١٣٣٤ هـ.

١٥٧. **المسودة في أصول الفقه**، آل تيمية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بدون طبعة، بدون تاريخ.

١٥٨. **مصنف ابن أبي شيبة**، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق: سعد بن ناصر الشثري، دار كنوز إشبيليا، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.

١٥٩. **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

١٦٠. **معالم السنن مع التهذيب**، الخطابي، تحقيق: أحمد شاكر، مراجعة: محمد راغب الطباخ، المطبعة العلمية، حلب، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م.

١٦١. **معاني القرآن**، يحيىٰ بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة: الأولىٰ، بدون تاريخ.

١٦٢. **المعجم الأوسط**، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله، عبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، بدون طبعة، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

١٦٣. **المعجم الكبير**، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة: الثانية، بدون تاريخ.

١٦٤. **معجم اللغة العربية المعاصرة**، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

١٦٥. **معجم المغني**، عبد الغني أبو العزم، الشاملة الذهبية، بدون ناشر، بدون طبعة، بدون تاريخ.

١٦٦. **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفىٰ وآخرون، مجمع اللغة العربية، القاهرة، الطبعة: الخامسة، ٢٠١١ م.

١٦٧. **معجم لغة الفقهاء**، محمد رواس قلعجي، حامد صادق قنيبي، دار النفائس، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١٦٨. **معجم مصطلح الأصول**، هيثم هلال، دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣ م.

١٦٩. **معجم مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، بدون طبعة، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

١٧٠. **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠ هـ.

١٧١. **مفتاح دار السعادة**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عطاءات العلم، الرياض، الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م.

١٧٢. **مفردات القرآن - نظرات جديدة**، عبد الحميد الفراهي، تحقيق: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ٢٠٠٢ م.

١٧٣. **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٢ هـ.

١٧٤. **المفصل في شرح آية لا إكراه في الدين**، علي بن نايف الشحود، الشاملة الذهبية، بدون دار نشر، بدون طبعة، بدون تاريخ.

١٧٥. **مناقب الشافعي**، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م.

١٧٦. **منهاج السنة النبوية**، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

١٧٧. **الموافقات**، الشاطبي، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

١٧٨. **الموسوعة الفقهية الكويتية**، وزارة الأوقاف الكويتية، دار السلاسل ومطابع الصفوة، الكويت ومصر، الطبعة: الثانية (١-٢٣)، الطبعة: الأولىٰ (٢٤-٣٨)، الثانية (٣٩-٤٥)، ١٤٠٤ - ١٤٢٧ هـ.

١٧٩. **الموطأ**، مالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون طبعة، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م.

١٨٠. **نزهة الأعين النواظر**، عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

١٨١. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، برهان الدين البقاعي، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الهند، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٨٩ - ١٤٠٤ هـ/ ١٩٦٩ - ١٩٨٤م.

١٨٢. **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ابن الأثير الجزري، المكتبة العلمية، بيروت، بدون طبعة، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

١٨٣. **الهدايات القرآنية**: دراسة تأصيلية، طه عابدين طه، ياسين حافظ قاري، فخر الدين الزبير علي، مكتبة المتنبي، الدمام - السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م.

١٨٤. **الهداية إلىٰ بلوغ النهاية**، مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بإشراف: الشاهد البوشيخي، كلية الشريعة - جامعة الشارقة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

١٨٥. **الهداية في القرآن الكريم**، العباس بن حسين الحازمي، جامعة الإمام محمد بن سعود، بدون طبعة، بدون تاريخ.

١٨٦. **الوابل الصيب**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عطاءات العلم، الرياض، الطبعة: الخامسة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م.

١٨٧. **الوجوه والنظائر**، الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق: عربي عبد الحميد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون طبعة، بدون تاريخ.

١٨٨. **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ.

١٨٩. **ورثة الأنبياء**: شرح حديث أبي الدرداء، عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الفاروق الحديثة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

العنوان	الصفحة
الملخص	٤
المقدمة	٧
الفصل الأول: مفهوم الهدىٰ والاهتداء وأهميته ومنطلقاته	٣٤
المبحث الأول: مفهوم الهدىٰ والاهتداء والفرق بينهما	٣٥
المبحث الثاني: أهمية الاهتداء بالهدىٰ في حياة الفرد والأمَّة	٦٩
المبحث الثالث: منطلقات الهداية في القرآن الكريم	١١٥
الفصل الثَّاني: مصدر الهدىٰ وأوعيته ونوابه	١٤٥
المبحث الأول: الهدىٰ والاهتداء من الله وحده	١٤٦
المبحث الثاني: الأوعية الثلاثيَّة لهدىٰ الإرشاد	١٦٧
المبحث الثالث: وراث الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ونوَّابه في هدىٰ الإرشاد	٢٥١
الفصل الثَّالث: أنواع الاهتداء بالهدىٰ ومجالاته ومراتبه	٢٧١
المبحث الأول: أنواع الاهتداء بالهدىٰ ومستلزماته	٢٧٢
المبحث الثاني: مجالات الاهتداء بالهدىٰ	٣٢٦
المبحث الثالث: مراتب الاهتداء بالهدىٰ ومستوياته	٣٧١

العنوان	الصفحة
الفصل الرَّابع: فقه الاستهداء بالهدىٰ وممكِّناته وعلاماته وثماره	٤١١
المبحث الأول: فقه الاستهداء بالهدىٰ	٤١٢
المبحث الثاني: ممكِّنات الاستهداء بالهدىٰ	٤٣٩
المبحث الثالث: علامات الاستهداء بالهدىٰ	٥١٥
المبحث الرابع: ثمرات الاستهداء بالهدىٰ	٥٣٨
الفصل الخامس: ترتيب أولويات الاستهداء بالهدىٰ	٥٥٤
المبحث الأول: مفهوم ترتيب أولويَّات الاستهداء بالهدىٰ.	٥٥٨
المبحث الثاني: أهمية ترتيب أولويَّات الاستهداء بالهدىٰ.	٥٦٦
المبحث الثالث: أسس وموجهات ترتيب أولويَّات الاستهداء بالهدىٰ.	٥٩٩
الفصل السادس: الصَّادون عن الهدىٰ والعوامل الصَّادة وعواقب الصَّد	٦٥٨
المبحث الأول: الصَّادون عن الاستهداء بالهدىٰ.	٦٥٩
المبحث الثاني: العوامل الصَّادة عن الاستهداء بالهدىٰ.	٦٩١
المبحث الثالث: عواقب الصَّد عن الاستهداء بالهدىٰ.	٧٤٥
الخاتمة: أبرز النتائج والتوصيات.	٧٦٧

تم بحمد الله